الجمهوريـــة الجزائريـــة الديمقراطيـــة الشعبيـــة
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية – قسنطينة

كلية العلوم والآداب الإنسانية
قسم: التاريخ

الموحدون في بلاد المغرب

515هـ - 595هـ / 1120م - 1199م

دراسة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية

أطروحة لنيل شهادة دكتوراه الدولة في التاريخ الإسلامي

– الجزء الأول –

أعضاء لجنة المناقشة

1 – أ. د. موسى لقبال رئيسًا
2 – أ. د. عبد العزيز فيلالي مُشرفًا ومُقررًا
3 – أ. د. بوبة مجاني عُضوًا مُناقشًا
4 – د. علاوة عمارة
5 – د. فرقاني محمد
6 – د. إسماعيل سامعي

من إعداد
يوسف عابد

تحت إشراف
الدكتور: عبد العزيز فيلالي

السنـــة الجامعيـــة : 2006م – 2007م



جامعة الإمام علي بن أبي طالب للعلوم الإسلامية

الإهـــــداء

إلى زوجتي

أبنائي: أميمة

مريم

صفية

رميسة

حليمة

محي الدين

أُهدي هذا الإنجاز العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

شكر وعرفان

بسم الله والصلاة والسلام على رسوله الكريم. أحمده تعالى على ما يسّر من عوامل إعداد وإتمام هذه الدراسة، ثم أتقدم بالثّناء العاطر إلى أستاذي المشرف الدكتور عبد العزيز فيلالي الذي عاملني بصدر رحب وقوّم بحثي بسعة إطّلاعه.

فكان بذلك نصحه سديدا وتوجيهه رشيدا طيلة فترة إعداد هذا البحث.

كما أشكر الأستاذ الفاضل الدكتور محمد الطاهر المنصوري من جامعة منّوبة بجمهورية تونس الشقيقة. الذي احتضن الأطروحة وهي في مرحلة متقدمة من الإعداد، فكان منه النصح والمساعدة مما شملت عليه مكتبته الخاصة ومن أصدقائه الأساتذة المختصين الذين شرفني بمعرفتهم والتعامل معهم.

وكذلك، أنوّه بما قدّمه لي الأستاذ الدكتور محمد حمام بكلية الآداب، جامعة الرباط بالمملكة المغربية الشقيقة، من مساعدات أثناء مرحلة جمع المادة العلمية، حيث أرشدني إلى كثير من المصادر والمراجع القيمة، وأمدني بدراسات حديثة خدمت بحثي. إنّ الفضْل في تحقيق هذه الإتصالات يرجع إلى جامعة الأمير عبد القادر التي كرمتني بمنح علمية فالشكر الجزيل إلى رئيسها وطاقمها الإداري.

كما أتقدم بالثناء إلى أمناء المكتبات الجامعية بكل من مكتبة الأمير عبد القادر ومكتبة جامعة منتوري بقسنطينة ومكتبة كلية الآداب بتونس والرباط والدار البيضاء.

كما أشكر زملائي الأساتذة والباحثين الذين ساعدوني وحملوا معي بعض أعباء البحث وأخص بالذكر الأستاذ الدكتور عبد الكريم بوصفصاف والأستاذ عمي بن الطاهر، اللّذين وقفا بجانبي أثناء مراحل البحث.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإختزالات

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الاختزالات المستعملة في الهوامش

1 - الإختزالات باللغة العربية:

- (ت): توفي
- (خ.ع): الخزانة العامة.
- خ.ج: الخزانة الحسنية.
- نزهة (د)، صفة المغرب وأرض السودان والأندلس تحقيق دوزي زدي خويه أمستردام 1969م.
- نزهة (ب)، وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية تحقيق هنري بيريس الجزائر 1957م.

- هـ: هجرية.
- م: ميلادية.
- مخ: مخطوط.
- ص: صفحة.
- ص ص: صفحات.
- س: السطر
- ج: الجزء
- نص: نفس الصفحة
- (د.ت): دون تاريخ

2 - الإختزالات باللغات الأجنبية:

- A.E.S.C : Annales, Economie, société et civilisation.
- A.I.E.O : Annales de l'institut d'Études orientales
- A.M.S : Archive Marocaines de sociologie.
- E.I : Encyclopédie de l'islam.
- H e s p : Hespéris.
- J.A : Journal Asiatique.
- RE..M.M.M : Revue du monde Musulman et de la Méditerranée.
- R.O.M.M : Revue du l'Occident Musulman et de la Méditerranée.
- R.T.S.S : Revue Tunisienne des sciences sociales.

المقدمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقـــدمـــة:

يعود إهتمامي بتـــاريخ الموحـــدين في بـــلاد المغـــرب إلى موضـــوع رســـالة الماجستير المتعلقـــة بالدولـــة الحفـــصية (625هـــ / 1226م) - (922هـــ / 1525م). حيـــث اطلعـــت عرضـــا علـــى حيـــاة عَلَـــم قـــلّ نظـــراؤه في تـــاريخ المغـــرب الوسيط - تمثل ذلـــك في عبـــد المـــؤمن بـــن علـــي مؤســـس الدولـــة الموحديـــة ومحقّـــق الوحـــدة الـــسياسية لـــبلاد المغـــرب. لقـــد كانـــت مـــآثرهُ مـــشرقة وأعماله جديرة بأن تَظهُر وتَعرِف الأجيال تَفاصيلها.

بطبيعة الحـــال كـــان هـــذا الاهتمـــام قـــد دفعـــني إلى مطالعـــة المـــصادر والمراجـــع المتنوعـــة وإلى الإتـــصال والإحتكـــاك بمجموعـــة مـــن الأســـاتذة المختـــصين، والبـــاحثين المهـــتمين بتـــاريخ المغـــرب عامـــة، والموحـــدين بـــصفة خاصة، هذه المرحلـــة تَركـــت في نفـــسي انطباعًـــا مـــا فتـــئ أن تطـــور وأصـــبح تـــساؤلا مُلحـــا، فقلـــت لمـــاذا تختـــزل أنـــشطة مجموعـــة، ومطالـــب أمّـــة في شـــخص واحـــد؟ ألا تكـــون البيئـــة الإجتماعيـــة مرجعـــا ضـــروريا لمقومـــات شخصية عَلَمٍ من أعلامها وقائدٍ من قادتها السياسيين، والعسكريين؟.

لقـــد كـــان هـــذا التـــساؤل كافيـــا ليوقـــف رغـــبتي في المـــضي قُـــدما لدراســـة الأعـــلام ولـــو لوقـــت قـــصير. وأثنـــاء ذلـــك اقتربـــت أكثـــر مـــن دعـــوة بعـــض المـــؤرخين إلى ضَـــرورة توجيـــه الكتابـــات التاريخيـــة نحـــو تفكيكهـــا وتجزئتـــها انطلاقـــا مـــن التـــراكم المعـــرفي والغـــزارة المنهجيـــة الـــتي حققهـــا العلـــم المعاصـــر، مـــع الإســـتفادة مـــن الجوانـــب المـــشرقة مـــن التراث الإسلامي لكشف جوانب الحياة الإجتماعية خلال فترة زمنية محددة

بناء علـــى مـــا ســـبق غـــيرت عنـــوان البحـــث دون الموضـــوع والمجـــال الجغـــرافي، ليـــصبح مُوصُـــولاً بالحيـــاة الإجتماعيـــة والإقتـــصادية للموحـــدين في بـــلاد المغـــرب. و لم يكـــن هـــذا التحـــول زُهـــدا في دراســـة شخـــصية عبد المـــؤمن بـــن علـــي. وإنمـــا إثـــراء وعمقًـــا في الدراســـة، وتأكيـــدا لمـــساهمة

فعليـــة في الكتابـــة التاريخيـــة الإجتماعيـــة والإقتـــصادية. وعنـــدما عرضـــت الموضوع على أســـتاذي الـــدكتور عبـــد العزيـــز فـــيلالي المـــشرف علـــى إنجـــاز هـــذا الدراســـة أحســـست بعـــدم ارتياحـــه لدراســـة هـــذا النـــوع. لإدراكـــه بالـــصعوبات الـــتي تواجـــه الباحـــث في مثلـــها، لكـــن سماحتـــه وســـعة صـــدره حالـــت دون رفـــضه ذلـــك ربمـــا يعـــود إلى فراســـته لّمـــا رأى منّـــي رغبة وإصرارا في دراسة هذا الموضوع.

وَحَتّى أوفرّ لهذه الدراسة شـــروطًا موضـــوعية أرتأيـــت أن أغطـــي الفتـــرة التاريخية الممتدة مـــن ســـنة (515هـــ - 595هـــ / 1120م - 1199م). وهـــي فتـــرة مُركـــزة مليئـــة بالأحـــداث الـــسياسية، والتّطلعـــات الإجتماعيـــة والإنجـــازات الحضارية ولكـــي أزيـــد مـــن ثـــراء المـــادة العلميـــة وَسّـــعت المجـــال الجغـــرافي ليشمل أقطار بـــلاد المغـــرب غـــير الأنـــدلس وهـــذا لا يعـــني أبـــدا إلغـــاء الحدود الطبيعية بين أقاليم المغرب.

فالمغرب الأقـــصى يـــشمل الرقعـــة الممتـــدة مـــن نهـــر مَلْوِيَـــة شـــرقا إلى المحيط الأطلسي غربا.في حين تكـــون أراضـــي المغـــرب الأوســـط محـــصورة بـــين نهر ملوية غربـــا والممـــر الـــذي يـــشمل مدينـــة بجايـــة شـــمالا مـــرورا بالمـــسيلة، ووصولا إلى واحـــة ورجـــلان في الجنـــوب ومـــن الناحيـــة الـــشرقية لهـــذا الممـــر إلى الحدود الشرقية لطرابلس هي أرض المغرب الأدنى.

والفتـــرة الزمنيـــة لموضـــوع البحـــث تميـــزت بحركـــة إصـــلاحية جَـــادَة قادهـــا الإمـــام المهـــدي بـــن تـــومرت في ظـــل بيئـــة دينيـــة تحكمهـــا قبيلـــة صنهاجة الجنوب الـــتي لم ترحّـــب بهـــا القبائـــل البربريـــة المـــستقرة مثـــل قبيلـــة مـــصمودة الممتنعـــة في جبـــال تِينَمْلـــل الـــوعرة. وعليـــه فـــإن المعادلـــة الدّينيـــة صّـــعبة تتـــصارع فيهـــا القبائـــل ذات توجهـــات أقـــل مـــا يقـــال عنـــها أنهـــا معارضـــة لـــسياسة الدولـــة المرابطيـــة ويقابـــل ذلـــك صِـــرَاعٌ قَبلـــي حَـــضَاري **قادته قبائل مصمودة ضد دولة المرابطين الحاكمة.**

بناءً على ذلك إلتفّت القبائل حول إبن تومرت واتبعته إلى جبال الأطلس لأنه كان قد استطاع إقناعها برسالته الدينية والتي جاءت بما كانت تتطلع إليها نفوس البربر، وقد مهدت دعوة ابن تومرت إلى قيام دولة حملت أعباء نشر دعوته الإصلاحية في كامل بلاد المغرب الإسلامي خلال زمن قصير (524هـ / 1128م) إلى (595هـ / 1199م). وقد واجهت الحركة الإصلاحية الموحدية ثورات عديدة سواء في مرحلة الدعوة أو الدّولة.

أما من حيث المكان الذي دارت فيه حوادث الفترة التاريخية المخصصة للبحث فإن العامل الجغرافي كان فاعلا بقوة، ذلك يتمثل في الاستقلال الموحدي بجبال الأطلس ووديانه، حيث شق عبد المؤمن بن علي طريقه عبر الجبال بمهارة فائقة، وهي أساليب غير مألوفة إلاّ أنها كانت مناسبة لحاجات الموحدين الأمنية ، وهكذا عُزلت السهول عن ميدان المعركة العسكرية لأن أتباع الموحدين متعودون على الطبيعة الجبلية.

أما جنود المرابطين فإنهم قَلّما تَركوا السهل، بل حصروا نشاطهم في معظم الأحوال على مطاردة الجيش الموحدي مع بقائهم منتظرين نزولهُ إلى ميدانهم المكشوف. فيتعرّض بذلك جُندُه لسيوف فرسانهم.

وقد شكّلت السهول في معظم الحالات إمتدادا طبيعيا لأقاليم سواء طبيعيا أو وَظيفيا، فقد استفاد سكان المدن والسهول من الرخاء والإزدهار الإقتصادي الذي عرفته الدولة المربطية ونَعُم به سكانها، الأمر الذي جعلهم متعلقين بمدنهم وسهولهم.

ويتجسد هذا الرأي في المقاومة الشّرسة التي أبداها سُكان مدينة مراكش، وفاس، وغيرها من المدن، دفاعا عن الحكم المرابطي الذي وَفّر لهم مثل هذه الظروف[1]. ولهذا كانت القبائل الثائرة كلها

[1]- البيدق، أخبار المهدي، ص ص99-102.

تقريبًا من أهل السهول. لكن عبد المؤمن بن علي تمكن من إخمادها الأمر الذي أدى إلى ترسيخ حركته في المغرب[1].

ومن غير شك أن بسط سلطة الموحدين على السكان قد صبغتهم بهوية جديدة مرتبطة بالمهدوية، والعصمة وأظهرت قوى سياسية وإجتماعية أدت إلى تسريع الفعل الحضاري تمثلت في تنظيمات ونظم الموحدين، وفئات الصوفية ورجال النسب الذين اقتربوا أكثر من السلطة ودعّموها في مشاريعها العمرانية والدعوية خارج بلاد المغرب وهذا ما يعني الكشف عنه والتنقيب عن جوانبه ليعطي أهمية كبرى لتاريخ البلاد الإجتماعي.

إن تحركات القبائل القسْرية والطوعية، وهجرة الجماعات السكانية الداخلية من المدن المغربية سواء من الشرق إلى الغرب أو العكس سعيا وراء الإستقرار والأمن، قد أعطى فرصة لتحركات الوافدين من خارج بلاد المغرب كالعرب الهلاليين، والأندلسيين والأغزاز الترك، الأمر الذي أسهم في بلورة مجتمع مغربي، انصهَرَت فيه تقاليد، وثقافات، ومهارات متنوّعة أدت إلى نمو الوعي السياسي المغربي، وتوجه الرأي العام لسكان المغرب نحو التكامل، وهذا مجال تهدف الدراسة إلى إبرازه كما تسعى لِكشف شرائح عريضة من مجتمع المغرب الإسلامي الوسيط، هي شرائح الخاصة والعامة والمستضعفين، فعلى الرغم من الأدوار المهمة التي لعبتها داخل مجتمعاتها، فإنها لم تذكر في المصادر التاريخية إلا عرضا وهو أمر مهم إذا وضعنا في الإعتبار موقع المؤرخ الإجتماعي وموقفه من صراع الحاكم والمحكوم، والتوتر الذي مَيزّ علاقة الطرفين.

---

[1] - قام عبد المؤمن بن علي بحملة تطهير واسعة سماها - الإعتراف - أي الإعتراف بسلطة الموحدين أدت إلى وفاة مايقارب الأربعين ألف شخص. ينظر: - البيدق، أخبار المهدي، ص ص 109-112.

لقد كنتُ دائما أحاول الربط بين ما هو إجتماعي وإقتصادي، وطرحت العديد من هذه التساؤلات. والإفتراضات الخاصة بفترة الدراسة وقد أرشدتني أجوبة تلك التساؤلات إلى أن التجارة والفلاحة كانتا من العوامل الأساسية لقيام الدول التي تعاقبت على حكم بلاد المغرب مثل دولة الموحدين. وأن اضطراب التجارة وفساد الزراعة كانا كفيلين بإسقاط الدول. وعليه فمن الأهمية بمكان معرفة وضعية الحياة الإقتصادية خلال فترة الدراسة.

ومن الأسباب التي دفعتني أيضا إلى اختيار الموضوع هو إدراكي للفراغ الكبير الذي يعانيه مجال الدراسات التاريخية الإجتماعية والإقتصادية في بلاد المغرب، رغم أنها تحفل بثورات وانتفاضات وحركات إحتجاج تركت دويّا كبيرا في حينها، وآثاراً بليغة في مسار تطوره الحضاري، لكنها لا تظهر اليوم في ثنايا الإسطوغرافيا إلاّ بشكل باهت، بل يصل الأمر بنا إلى جهل كل شيء عن أهدافها، ومنطلقاتها، وآلياتها، التي تم السكوت عنها في أحسن الأحوال، إن لم يقصد تشويهها، حين وصف قادتها كشردمة من السفلة والغوغاء.

ومن الدوافع إلى تناول هذا الموضوع أيضا هو معرفة موقف المجتمع المغربي الحضري والريفي من تحقيق أكبر إنجاز سياسي عرفته بلاد المغرب وهو تحقيق الوحدة السياسية التي ظلّت مؤجلة إلى أن جاء الموحدون فحققوا ذلك في منتصف القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي.

إن الإشكالية التي حرّكت رغبتنا في هذا الموضوع هي: ما هي طبيعة التحولات الإجتماعية التي رافقت مراحل تحقيق المشروع السياسي الموحدي؟ وكيف صاغت الدولة قواعد العلاقات الإجتماعية العامة؟ ثم ما هي أساليب وأدوات التواصل بين السلطة والمجتمعين

الحضري والريفي؟ وبماذا تميزت مواقف فئات الطبقات (المستويات) الإجتماعية من طموحات القادة السياسيين أمثال عبد المؤمن بن علي؟

كيف وَظّف الموحدون العامل الإقتصادي في تحقيق التوازنات الإجتماعية من جهة، والأهداف السياسية من جهة أخرى؟

إن الأجوبة عن تلك التساؤلات هي التي شكلت جوهر الدراسة، التي لم اتخذ من خلالها مهمة الدفاع عن تلك الحركات، والاحتجاجات ولاَ مُهمة تبرير التعسّفات والمصادرات، وحملات القتل وإنما سَعَيْتُ إلى محاولة إزالة ما أحاط بها من غموض، وكشف مَا مَنَعَهَا من الظهور على واجهة التاريخ المغربي.

ومن الواضح أن إنجاز هذا العمل اعترته صعوبات جمّة. ذلك أن إسطوغرافية المرحلة تمتاز بالغزارة في بعض المواضيع وبالشح مخيبة للأمل من جهة ثانية ومنها مواضيع التاريخ الإجتماعي بصفة عامة. وما يترتب على التحركات السّكانية خاصة الأمر الذي يجعل من الصعوبة بمكان أن يبني عليها الباحث معرفته بناء مُتجانسا، فالنقص فيها كبير لا يسمح بتتبع تطور الأحداث الإقتصادية والإجتماعية، لذلك فهي لا تَكّشِفُ أمام المؤرخ كل الجوانب الخفية .وبالتالي فهي ناقصة أمام الأسئلة المطروحة ويضاف إلى ذلك فقر الأدوات المعوّل عليها لكشف الغموض من حول تلك الحركات، وإعادة صياغتها بتراهة وفي مقدمتها انعدام التراث المكتوب من طرف المؤرخين المحايدين مما قد يساعد على إلقاء الأضواء حول حقيقتها ورفض الأباطيل المحبوكة التي تبناها مؤرخو البلاط السياسي حولها ومع ذلك ثم استعمالها بدعم من معلومات استقيناها من وثائق كانت غير متداولة في بعض المخطوطات التي لم تنشر.

هذه الصعوبات دفعتني إلى الإستعانة بوثائق الحقبة السابقة (قبل فترة موضوع البحث)، وعلى مستندات كتبت بعدها، ثم وضعت مسائل الفترة الخاصة بالبحث بينهما ووازنت لأتبين وَلو بصفة تقريبية بين الثابت والمتغير، والطارئ على السياق العام لموضوع البحث.

وقد تغلبت على العديد من الصعوبات بفضل إرشادات أستاذي المشرف الدكتور عبد العزيز فيلالي، وبفضل قراءتي للعديد من الدراسات العربية والأجنبية حول تاريخ المغرب عامة وتاريخ المغرب الوسيط بصفة خاصة، مع العلم أن الإستعانة بما كتب حول العصور التي أعقبت الفترة قد ساعدتني على فهم الجوانب الإجتماعية و حركيتها.

من أجل التّغلب على ندرة المادة العلمية، ونقص الأبحاث المعاصرة للموضوع، كان ضروريا الاعتماد على إمكانياتي الخاصة بداية من تحديد المنهج التحليلي النقدي، والإلتزام بالمقتضيات العلمية تقيّيدا، وتجاوز كل ما هو بعيد عن الواقع، زيادة على التعامل بموضوعية مع المادة التي توفرت بحيث التزمت بالتسلسل الزمني والموطن الجغرافي للمعلومة، و لم أسمح لنفسي بتوظيف المعلومات خارج فترة الدراسة وبتالي الوقوع في الخلط الزمني متّبعا في كل ذلك التحليل والتعليل مع الموازنة والترجيح استجابة لمطلب الحدث التاريخي الذي يأبى البقاء معلقا.

إن بعض المواقف الصادرة عن القادة السياسيين، والعسكريين التي جاءت في الرسالة دفعتني إلى البحث عن الدوافع والذرائع الشرعية التي كانت وراءها و لم أعثر لها عن سند شرعي رغم أن الحركة الموحدية كانت إصلاحية، أساس حكمها كتاب الله وسنة رسوله.

لقد حاولت قصارى جهدي توظيف الفتاوى حيث أرجعت كل واحدة إلى فترة صدورها اعتمادا على أسماء أصحابها، وحتى فتاوى الونشرسي التي تطرح هذه المشكلة بحدة حيث أعدت أغلبها إلى وقت صدورها .

ولهذا أسجل أن البحث في مجال الحالات النفسية للأشخاص في أوضاع الحياة الإجتماعية والإقتصادية هو أصعب أنواع أساليب البحث لأن الحالة النفسية كثيرا ما تكون مشفوعة بالمشاعر والعواطف المغلّفة للحقائق.

بصفة عامة فإنّني لم ألتزم منهجا واحدا، في فحص ونقد وتحليل الأحداث والحقائق الماضية، وفي تنظيم وتفسير واستخلاص التعميمات والنتائج العامة، انتقيتُ من المناهج ما يجمع بين الوصف والتحليل والمناقشة حتى لا تقف الفائدة العلمية عند حدود وأبعاد المسألة، بل تتعاده إلى المساعدة في تفسير الأحداث والمشكلات الجارية، فموضوع دراستي ليس حاضرا ولا يمكن ملاحظته، فمادته الخبرية لا تخضع للتجربة والإفتراضات.

إعتمادًا على ما أُنجز من الدراسات الحديثة ذات الصلة بالموضوع تَمَكّنْتُ من فهم العديد من إشكالات الدراسة، فبالرغم من أن بعض هذه الدراسات مست فترات متأخرة من المرحلة المدروسة، إلا أن العديد منها لاَمَسَ جوانب الحياة الإجتماعية وحركتها، ومن أبرز الدراسات التي دعّمت الموضوع في هذا الإطار دراسة الأستاذ محمد القبلي عن تاريخ المغرب في العصر الوسيط وكذلك، الدراسة التي أعدها الأستاذ علي أومليل بعنوان : السّلطة السياسية والسلطة العلمية: الغزالي، ابن تومرت، ابن رشد نماذج.

وهناك دراسات أنجزها باحثون غربيون حول التّاريخ الإجتماعي والإقتصادي لبلاد المغرب خلال الفترة الوسطية، ومن بين هذه الدراسات :

دراسة لـ:"Yves Lacoste" بعنوان "ابن خلدون ، ولادة التاريخ الماضي للعالم الثالث" وهي محاولة تقريبية لمعرفة الأوضاع الإجتماعية الناجمة عن الحراك السياسي المصحوب بأعمال العنف في أغلب الأحيان. وقد تعرض"Lacoste" لهذه الأوضاع على مستوى

الحضر والريف، لكنه أكّد وركّز على الأوضاع القبلية مع تعميم سلبيات الريف على الحضر وهنا اختلف معه، كما تحدثَ عن الديمقراطية العسكرية المطبقة على المجتمع المغربي خلال العصر الوسيط وهذا يصطدم مع واقع المجتمع المغربي آنذاك.

أما المحاولة الأخرى الجادة فهي عمل الأستاذ عبد الله العروى، تحت عنوان "تاريخ المغرب". ورغم تحفظنا السريع على طابع التجديد في هذه المحاولة، وما استنتجه من رجحان الجانب السياسي لهذه الدراسة على بقية الجوانب. وأتحفظ على ما جاء في دراسة عبد الله العروى في محور كامل أسقط من خلاله التاريخ السياسي وما رافقه من طابع دموي على التاريخ الحضاري لبلاد المغرب الذي يراه سودويا وأراه عكس ذلك فإن نهضة علمية، وازدهارا حضاريا عرفته بلاد المغرب بالموازاة مع الممارسات السياسية للدوّل المتعاقبة على حكمه إلى غاية ما بعد الموحدين.

وكذلك أسجل أهمية دراسة كتاب دوفورك " Dufourcq (Charles Emannuel)" الذي بحث بشكل مستفيض في العلاقات بين إسبانيا والمغرب خلال القرنيين الثالث عشر والرابع عشر وهي دراسة جيدة قريبة زمنيّا من فترة الدراسة. وهي تقدم عملا قيما يتعلق بمعلومات موّثقة تهم بلاد المغرب، وخاصة عندما يقارنها بالأوضاع الأوروبية في نفس تلك الفترة.

وقبل الانتقال إلى بعض الدراسات العربية المفيدة أذكر الدراسة الإجتماعية التي أعدها د/ديتكي ميتشل بعنوان "معجم علم الاجتماع"، ترجمه إلى العربية إحسان محمد الحسن، ومن المأخذ التي أراها حول هذا الكتاب، أنه يقارن بين المجتمع المغربي والأوروبي ولا يدخل العوامل الجغرافية والسياسية في تحضر الشعوب.

لقد كانت بعض الدراسات الإجتماعية والإقتصادية لباحثين عرب من المشرق العربي تشكل رافدا مهما لما قمت به خلال دراستي هذه. فمن بين ما قرأت دراسة الأستاذ أنطوان خليل ضومط بعنوان "الدولة المملوكية تاريخها السياسي والإقتصادي والعسكري"، يليه في الأهمية كتاب "المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك" الذي ألفه الباحث سعيد عبد الفتاح عاشور، ولاشك أن العلاقات الثقافية كانت قوية بين المجتمعين المغربي والمشرقي الأمر الذي يمكن إيجاد مقاربات وإسقاطات على بعض المواقف، والسلوكات في مجالي الإجتماعي والإقتصاد.

وهناك مجموعة من الدراسات الجديدة أنجزها باحثون في تاريخ المغرب بعضها اقتصر على إقليم واحد من أقاليم بلاد المغرب وبعضها كان شاملا لبلاد المغرب ومن هذه الدراسات تلك التي نشرها الأستاذ عبد الوهاب الدبيش بعنوان "المجال والمجتمع وعلاقتهما بالدولة"، والثانية للأستاذ محمد القبلي بعنوان "الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط".

أما المجموعة الأخيرة من الدراسات التي إهتم مُنجزوها بالأوضاع الإجتماعية والإقتصادية في حواضر بلاد المغرب خلال العصر الوسيط، فقد أفادتني هذه الدراسات في معرفة ما حدث في أقاليم مُحدّدة، ومن بينها أذكر دراسة الأستاذ عبد العزيز فيلالي بعنوان "تلمسان في العهد الزياني"، والدراسة الثانية للأستاذة الباحثة حليمة فرحات بعنوان "Sebta: des origines au XIVeme siècle"، في حين كانت الدراسة الثالثة للأستاذ صالح بعيزيق من تونس الشقيقة بعنوان "بجاية في العهد الحفص، دراسة إقتصادية وإجتماعية".

وفي الأخير أشير إلى أهمية الدراسة التي أنجزها الأستاذ المغربي محمد مفتاح، أبرز من خلالها دور التيار الصوفي في حركية المجتمع المغربي خلال القرن الثامن الهجري - الرابع عشر الميلادي.

لقد رتبت المادة التاريخية التي اعتمدت عليها في هذه الدراسة حسب أهميتها بالنسبة للموضوع. وعليه فإنها تكون: كتب الفقه والنوازل، والأدب التاريخي، وكتب البلدان والرحلات، كتب التراجم والمناقب، الرسائل الموحدية ، وكتب تاريخ الحوليات.

وحتى لا أكرر ما ورد في كثير عن الدراسات الحديثة بالوقوف عند كل مصدر بالنقد ولن يكون ذلك إلا نقلا من دارس إلى آخر وهو ما لا يتناسب مع الموضوع الذي أبحثه، لأن طبيعة الموضوع تتطلب جردا لإشارات تاريخية تتعلق بالحياة الإجتماعية والإقتصادية وهو عمل لو سلكته لاستغرق العديد من الصفحات، وبناء على ذلك فإني أشير إلى أنّ مجموعة من الكتب الفقهية والنوازل خدمت بحثي بشكل مباشر وغزير وواسع، وجاءت أهمية هذه المجموعة من الوقائع التاريخية الوفيرة ذات المادة الخبرية اعتمدت عليها، زيادة على ذلك فإنها بمثابة سجّل يجمع بين صفحاته معلومات عن حياة الأفراد والجماعات، وهو ما سهل علينا استنتاج بعض خصائص الفقهاء والعلماء وأصحاب السلطان، وحتى أنواع الأمراض التي انتشرت بين أفراد المجتمع، فقد ساعدتني كتب النوازل بصفة خاصة والفقه بصفة عامة، حيث مكنتني من استنباط معلومات قيمة في مجال الحياة الإقتصادية والإجتماعية للمغرب الوسيط، وخاصة فيما يتعلق بالمزارعة والمغارسة والسقي والشركة، ويأتي على رأس هذه المجموعة المعيار المعرب للونشريسي (ت. 914هـ / 1508م)، ورغم الاهتمام الكبير الذي أولاه الباحثون لهذه الموسوعة فإنها مازالت منهلا لكل باحث في تاريخ المجتمع المغربي خلال العصر الوسيط. ومما يزيد نوازله قيمة أنها لم تهمل تاريخ الواقعة – العرُف الجاري الذي كان مستندا لأغلبية التشريعات المغربية. والدليل على ذلك أن الباحث يجد عبارة "جرى العرف ببلادٍ ما".

والجدير بالملاحظة أن إدخال عنصر الواقع في فتاوى الونشريسي ليس نادرَ الوقوع في مغرب العصر الوسيط لدرجة اكتسابها طابع الشرعية في بعض الجهات. يقول الونشريسي: «ويمنع ربّ الأرض من زراعة الأرض المغروسة إلاّ أن تكون هناك عادة»[1]. وتأتي فتاوى كل من إبن رشد الجد وحفيده، ثم مسائل البرزلي (ت. 841هـ / 1437م) التي تنحصر معظم فتاويه في وقائع أندلسية، والقليل منها في إفريقية، وأسجّل أنّني استفدت كثيرا بالمعلومات الموجودة فيها بصفة مباشرة أو غير مباشرة، في المستوى النظري الذي يفيد في تنظيم المجتمع ورصد تحركاته.

ولعلّ أكثر المصادر ثَراءً بالنسبة لدراسة المجتمع الحضري كتب الحسبة والأحكام والفتاوى، لأنها تبحث عادة في مسائل تهم الواقع اليومي للسكان وهذا ما أشارت إليه الفصول المتعلقة بالحياة الإقتصادية من أعمال الفلاحة ونشاط التجارة والأسواق ونشاط الحرفيين وما يتبع ذلك من تجاوزات وكانت كتب الحسبة حاضرة في كيفية معاملة الرقيق والأسرى، وغير ذلك، ومن كتب الحسبة التي تصدرت إهتمامي، رسائل ابن عبدون (عاش في القرن السادس - الثاني عشر ميلادي) والسّقطي وهو من فقهاء القرن السابع الهجري-الثالث عشر ميلادي.

ومن المصادر المهمة في الحسبة في بلاد المغرب "تحفة النّاظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر" لمحمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقباني (ت. 871هـ / 1467م) هذه المجموعة أفادت الدراسة في مجال تنظيم القطاع الإنتاجي الحرفي، وترتيب الأنشطة التجارية. المستنبطة من كتب الفتاوى والحسبة وكثيرا ما توجد متناثرة في نصوص النوازل كما هو الحال في نوازل ابن سهل والونشريسي.

[1] - المعيار، ج،8، 7.

أما المجموعة الثانية التي دعمت بعض مباحث الدراسة فهي كتب الأدب التاريخي والجغرافي، وكان في طليعتها البيان المغرب لابن عذاري، القرطاس لابن أبي زرع، ومفاخر البربر لمجهول، وأعمال ابن الخطيب والعبر لابن خلدون والمنّ بالإمامة لابن صاحب الصلاة (594هـ / 1198م) ونظم الجمان لابن القطان كان حيا سنة (650هـ / 1254م). وإلى جانب هذه المصادر التاريخية يمكن إضافة بعض المصادر الأدبية التي أثرت الدراسة وتتمثل في كتب مجاميع الأمثال، والرسائل الإخوانية والدّواوين الشعرية وكان أهم كتاب أفادني في مجال - مبحث عامة المجتمع - الحضري المغربي هو أمثال العوام للزجالي، ويليه من حيث الأهمية زاد المسافر للتجيبي (ت. 598هـ / 1202م)، والحلة السيراء لابن الآبار (ت. 658هـ / 1262م).

أما المصادر الجغرافية فكانت حقلا معرفيا مميزا غطى الكثير من النّشاط الإقتصادي سواء في المدن أو الأرياف، وحتى في الواحات المغربية فقد أمدتنا هذه المجموعة بمعلومات قيمة عن طرق القوافل، والمسالك التجارية، وقوافل الحج، ومواطن القبائل، وهكذا فإن هذه المجموعة أضافت معلومات سكتت عنها كتب التاريخ الحولي.

وكانت مؤلفات الإصطخري وصورة الأرض لابن حوقل. والمسالك والممالك لابن عبيد البكري، ونزهة المشتاق للإدريسي (ت. 560هـ / 1165م) والروض المعطار للحميري (ت. 727هـ / 1427م)، والاستبصار لمجهول معاصر للدولة الموحدية، وزيادة على ما سبق فإن كتابي الجغرافيا للزهري (كان حيا سنة 555هـ / 1160م) وكتاب الجغرافيا لابن سعيد (685هـ / 1286م)، إضافة إلى مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري (ت. 649هـ / 1248م) أمد الدراسة بمعلومات دقيقة سدت بعض الثغرات في المباحث المتعلقة بالمجتمع الحضري خاصة

العمرانية منها، وإلى جانب ذلك أدرج مصدرين هما وصف إفريقيا للوزان (ليون الإفريقي) وكتاب إفريقيا لكربخال، وهما مصدران متأخران يعودان إلى القرن 10هجري / 16ميلادي.

ولم يكن ممكنا إنجاز الدراسة لولا المعلومات التي انتقيتها من كتب البرامج والفهارس بالموازاة مع كتب المناقب، فمن المجموعة الأولى أذكر كتاب الغنية لعياض(ت. 554هـ / 1160م) وبرنامج الرعيني (ت. 666هـ / 1268م) وعلى ما تتصف به هذه المؤلفات من كونها استعراضية إلا أنها قوّمت جوانب خفية من الدراسة الإجتماعية.

وتصنف كتب المناقب ضمن نفس المجموعة فقد لازمتُ معظم جوانبها باعتبارها تتطرق إلى واقع الشرائح الإجتماعية، وخاصة الأعيان والعلماء ورجال التصوف. وفي مقدمة هذه المجموعة كتاب التشوف للتادلي (ت. 628هـ / 1230م) وتأتي أهمية هذا المصدر من كونه معاصرًا للدولة الموحدية.

كما جاء مؤلف ابن قنفد (ت. 809هـ / 1406م) أنس الفقير ليجيب عن كثير من التساؤلات المتعلقة بالتصوفة خاصة في المجتمع الريفي المغربي. ولا يفوتني أن أُشيرَ إلى مجموعة الرسائل الموحدية التي جمعها ليفي بروفسال، ومجموعة جديدة من تلك الرسائل جمعها ورتبها أحمد العزاوي ثم رسالتين جمعهما وحققهما محمد الطالبي، وكانت هذه الرسائل بمثابة الوثائق الدقيقة الصادرة عن القادة الموحدين أنفسهم وهي بذلك شهادة حية على بعض جوانب الحملات العسكرية التي قادها الموحدون نحو المغرب الأوسط والأدنى، بهدف تحقيق الوحدة السياسية المغربية.

وفي الأخير أشير إلى أن الدراسة استفادت كثيرا من بحوث ودراسات المؤرخين المعاصرين عربا ومستشرقين، أذكر من بين هؤلاء مؤلفات

محمد عبد الله عنان، حسين مؤنس، سعد زغلول عبد الحميد، ومحمود إسماعيل، وعبد الله علام، ومختار العبادي ومحمد المُنُوني، الهادي روجي إدريس وليفي بروفنسال وشارل أندري جوليان وبر ونشفيك وغيرهم من المهتمين المتخصصين في تاريخ المغرب.

وانطلاقا مما تجمع من مادة إخبارية أوردتها المصادر أو الدراسات وتصنيفها أمكن تقسيم الموضوع إلى بابين متكاملين، ضَمّا ستة فصول افتتحتُ كل فصل بمقدمة قصيرة وختمته بخاتمة، وهكذا ضم الباب الأول الذي عنونته بـ"دراسة في الحياة الإجتماعية" ثلاثة فصول مستقلة ومتكاملة:

- الفصل الأول وعنوانه "أصول السكان وتحركاتهم"، وفيه تطرقت إلى البربر وكيف تطور نظامهم الإجتماعي من مستوى القبيلة إلى مستوى الدولة مرورا بنظام الأحلاف وفي مبحث آخر تحدثت عن تحركات القبائل البربرية القصرية والطّوعية في جهات مختلفة من بلاد المغرب، وصولا إلى الحديث عن الهجرة الصنهاجية الصحراوية من الجنوب إلى الشمال وما ترتب عنها من أوضاع لم يكتب لها الإستقرار، إذ ثارت ضدها قبائل مصمودة استجابة لدعوة المهدي بن تومرت، التي سوف تحدث خلخلة سكانية على طول وعرض بلاد المغرب.

وبنفس الرؤية والمنهج تعرضت في الفصل أيضا إلى السّكان الوافدين مثل العرب حيث تتبعت نشاطهم في مختلف جوانب الحياة، واليهود والنصارى، ثم الأندلسيين والأغزاز الترك ثم الرقيق .

أما الفصل الثاني من الباب الأول فقد خصصّته الطّبقات الإجتماعية في المجتمع الحضري والريفي وفيه وضّحت المفاهيم المتعلقة بالخاصة والعامة، والطّبقة المتوسطة في المجتمعين ، كما بيّنت سياسة الدولة في إستعاب طبقة الخاصة غير الحاكمة من قبل الموحدين، وذلك لضبط التوجهات العامة للمجتمع، والإستعانة بمختلف الفئات الإجتماعية

في ازدهار وتطوير الحياة الإقتصادية التي كانت في أمس الحاجة إلى التكامل والتبادل في ميدان الإنتاج الفلاحي والصناعي.

وكان الفصل الثالث من هذا الباب بعنوان "الحياة العامة في المجتمع المغربي"، وفيه تعرضت إلى مجالس الموحدين الخاصة والعامة. ومواكبهم المختلفة منها المتعلقة بالحملات العسكرية، ومنها المتعلقة بالسفارات واستقبالات الخليفة أو الأمراء و مواكب الحج وكذلك مواكب الجنائز، وبعد المواكب انتقلت إلى الاحتفالات بالانتصارات والمناسبات الدينية وكذلك الاحتفالات الخاصة كالزواج، والختان.

في مبحث آخر تحدثت عن اللّباس وفيه أبرزتُ أن في عهد الدولة الموحدية وخاصة في بدايتها تراجع الاهتمام بالثياب الفاخرة المصنوعة من الحرير، وكذلك تراجعت اهتمامات المرأة بأحوالها في التزين، ثم مالبثت الأحوال أن عادت إلى طبيعتها بل تطورت إلى فنون أخرى، ونفس الملاحظات انصبت على الأطعمة والأشربة حيث كانت بسيطة، ولكنها سرعان ما عرفت تنوعا وتفننا في أطباق الأطعمة وأنواع من الأشربة.

ومن خلال مبحث موالي تعرضت إلى لغة التخاطب وفيه أوردت اهتمام الموحدين بالتواصل اللغوي ونشر دعوتهم وذلك بترجمة الأحكام الشرعية والمبادئ الإسلامية إلى اللهجة البربرية المحلية، وأصبحت الدولة تفصل الخطباء والأئمة الذين يتحدثون باللغة العربية ويشرحون باللهجة البربرية.

كما تحدثت عن الموسيقى والطرب وأبرزت مراحل عودة الموسيقى إلى الساحة الإجتماعية بعد غيابها أثناء مرحلة الدعوة والتأسيس.

لقد أفردت مبحثا مستقلا لدراسة الحالة الصحية في المجتمع العربي أبرزت فيه الأمراض الشائعة وطريقة علاجها بالأسلوب الشعبي التقليدي ثم التحول نحو العلاج بالطريقة العلمية التي ظهرت وتوسعت خلال الفترة.

أما الباب الثاني من الدراسة الذي خصصته لدراسة الحياة الإقتصادية في بلاد المغرب فقد ضم هو الآخر ثلاثة فصول، أفردت الفصل الأول للنشاط الفلاحي وأنواعه متسائلا عن المعطيات الطبيعية والبشرية انطلاقا من المصادر، وحاولت الاحتفاظ بالمصطلحات كما وردت في المصادر. كما ركزت على جانب المياه، وعلى العوامل غير الطبيعية كالإستقرار وانتشار الأمن اللّذين لعبا دورا في توجه السكان نحو استغلال الطبيعة، وفي هذا الفصل أيضا تحدثت عن الزراعة، فتناولت بالدرس الهياكل الزراعية: وضعية الأرض، الاستغلاليات وطرق الاستغلال - الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، وفي مبحث موالي تناولت الرعي وتربية المواشي وباقي الحيوانات الداجنة ، ثم انتقلت إلى الحديث عن الصيد البحري والبري، واستغلال الغابة فكانت بمثابة أنشطة فلاحية أساسية لأهميتها الإقتصادية في بعض المناطق، وخلال بعض فترات الحقبة الوسيطية، بعد هذا انتقلت إلى الفصل الثاني تناولت فيه: الصناعة الحرفية ببلاد المغرب، عالجت في هذا الفصل جملة من الوسائل المتعلقة بالصناعة في مقدمتها سياسة الدولة الموحدية اتجاه الصناعة الحرفية، حيث أبرزت المستوى الحضارى الذي بلغته الدولة والمجتمع على حد سواء. مناقشا مدى حاجة الأهداف العسكرية والدعوية للموحدين إلى الصناعة خاصة صناعة التعدين- كالأسلحة - والنسيج لحاجة الجند إلى اللباس والدباغة، والعمران وما يتبعه. فقد ازداد الطلب على أشياء الترف وأدوات الزينة والزخرف، وفي مطلب آخر تعرضت إلى الحرف العائلية التي ظهرت وتطورت خلال العصر الموحدي. وتركزت في أطراف المدن والقرى القريبة.

وعالجت في مبحث موالي مسالة انتظام الصّناع في الأسواق على شكل أجنحة أو أروقة فكان موضع للورّاقين وآخر للفخارين والعطّارين، والصباغين.

ثم انتقلت إلى مبحث ثالث عالجت فيه الصناعة الزراعية ومسألة المراكز الصّناعية التي تأثرت بشكل مباشر بالهجرات السكانية، وظروف الأمن، الأمر الذي جعلها تنحصر في شرق البلاد وتتطور وتزدهر في غربها. وَحَاولت إظهار ما تزخر به المراكز التجارية من أنواع الصناعات كالنسيجية، الجلدية، الورقية، المعدنية فبينت أصول الصناعة ومواطنها الأولى، وكيف انتقلت إلى بلاد المغرب؟

وفي الفصل الثالث الذي خصّصته إلى النشاط التجاري بلاد المغرب خلال الفترة موضوع الدراسة، وفيه تلخيص للموقف الرسمي للدولة من التجارة، حيث شرحت نظرة الموحدين للتجارة كعامل تواصل بين القبائل من جهة وبين المدينة والريف من جهة ثانية وقد أبرزتُ فيه المحاولة الجادة للتجار الكبار الرامية إلى التقرب من المنتجين الريفيين لدعم علاقة المدينة بالريف في بلاد المغرب، والعكس كان فاعلا أيضا حيث أَحْدث انتقال أبناء الريف إلى المدينة للتجارة أو الإشتغال في مجلات مختلفة تراتبيا في الريّف والمدينة. ثم انتقلت إلى مبحث ثاني أبرزت فيه طبيعة العاملين في التجارة - عمال، تجار أنفسهم أو مستثمرين أو وكلاء أو وسطاء.

وبعد هذا أضفت مبحثا آخر مكملا لما سبق، وهو الأسواق بينت فيه تنوعها من يومية، وأسبوعية، محلات تجارية عسكرية، بعد ذلك أشرت إلى كيفية إدارة الأسواق من قبل المحتسبين، وتشدد الموحدين في أمر تعيين أمناء الأسواق وفي هذا المبحث تعرضت إلى أنواع التعامل التجاري - البيع نقدا - أو عن طريق الحوالة، ثم عن طريق المقايضة

والسلف وكان هذا الأخير أكثر الأنواع انتشارا. وقد أنهيت هذا الفصل بالإشارة إلى الموازين والمكاييل وكذلك العملة قبل التعرض للتجارة الخارجية التي كانت تقوم على المقايضة بين تجار بلاد المغرب والسودان في حين تعتمد على العملة الذهبية عندما تتعامل مع بلاد المشرق وبلاد أوربا، مرورا بطبيعة المسالك التجارية الصحراوية التي ربطت بلاد المغرب ببلاد السودان، والمشرق الإسلامي في حين ربطت المسالك التجارية البحرية بلاد المغرب بأوروبا، وكذلك بلاد المشرق الإسلامي.

وبعد، لا أدعي الإحاطة بكل جوانب إشكالية الموضوع، ولا أدعي أنني حققت في هذه الدراسة المتواضعة ما أريد وأطمح إليه فإن أصبت فهو بتوفيق من الله تعالى وإرشادات أستاذي المشرف وإن أخطأت فهو من عوائد البشر.

والله ولي التوفيق

قسنطينة في 2007/04/15م

الموافق لـ: 27 ربيع الأول 1428هـ

الباب الأول

الحياة الإجتماعية لسكان بلاد المغرب

خلال الفترة

515هـ - 595هـ / 1120م - 1199م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الأول

أصول السكان وتحركاتهم

خلال الفترة

515هـ - 595 هـ / 1120م - 1199م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تقـــديم:

تبدو الأصول العرقية لسكان المغرب العربي خلال القرن السادس الهجري- الثاني عشر الميلادي متشبعة، الأمر الذي يُصَعِّب الإلمام بكل عناصرها السكانية، وهذا راجع بطبيعة الحال إلى الإندماج والتعايش بين المكونات المجتمعية التي تقاربت إلى بعضها عبر مراحل تاريخية متقدمة حيث جمعت بين البربر وهم السكان الأقدمون والأفارقة ثم العرب وكثير من الفرس والأوروبيين واليهود.

لقد شهد القرن الخامس الهجري – الحادي عشر الميلادي قدوم عرب بني هلال وبني سليم إلى المغرب وانتشروا في القرى والبوادي خاصة في إفريقية والجهة الشرقية لبلاد المغرب الأوسط وقد تطعّم هذا الرصيد السكاني بِقدوم مجموعات بشرية أخرى مثل الأندلسيين والأغزاز الترك.

لقد عرفت بلاد المغرب خلال فترة الدراسة تحركات بشرية متقلّبة ومتنوعة[1]. كانت الأرياف والمدن والحواضر مجالات لتحركاتها الجماعية الواسعة تارة، والقبلية النّازحة تارة أخرى، في حين كان الترابط شبه عضوي بين المذاهب الدينية والتحالفات القبلية يرمي إلى التحكم في مصير الدّولة، وحيوية المناطق التجارية والفلاحية.

---

[1] – تمثلت هذه التحركات في إنتقال قبيلة صنهاجة الجنوب في الصحراء، نحو الشمال بهدف بسط النفوذ على السهول الأطلسية الخصوبة أرضها وتوسطها بين الصحراء والبحر. وهذا الهدف هو نفسه الذي حَرّك قبيلة مصمودة البربرية لتتحكم في الجبال والسهول على طول إمتداد السّلسلة الأطلسية كلها، بالإضافة إلى المرتفعات بالريف المغربي. ينظر:
– البيدق، كتاب أخبار المهدي، ص ص 90-102.
– إبن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، تطوان 1960م، ص ص 12-22.

وفي ظل التحرك الواضح الهادف ظهرت دعوة المهدي بن تومرت التي جسّدها عبد المؤمن بن علي الموحدي عَبْر زُهَاء عقدين من الزمن، لقد كانت المكونات السكانية تسعى إلى تثبيت وُجودها بما تراهُ مناسبا لها، فقد ركز البربر على الجانب السياسي لإقامة دولة مركزية تشمل *البلاد* كلها. وَعَمل العرب على المساهمة في الحياة الإجتماعية وتعميق الدين في نفوس السكان إلى جانب أنشطة أخرى، في حين ترك الأندلسيون آثارهم الحضارية في مجال التعمير ونشر المعرفة. أما الأغزاز الترك فبرزوا كقوة في الميدان العسكري.

هذه الأنشطة الحياتية، وتلك التحركات السكانية هي محاور هذا الفصل الذي يمهدُ لِفَرْز طبقات المجتمع واستقراره التي سيتناولها الفصل الموالي.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

* البربر:

يكوّن البربر العنصر الغالب بالنسبة لسكان بلاد المغرب، ويَرُدّ أغلب الباحثين والمؤرخين أصلهم البشري إلى منطقة البحر الأبيض المتوسط[1]، في حين تعود أصولهم اللّغوية إلى عائلة اللغات الحامية التي ظهرت في شبه الجزيرة العربية، وعلى الأرجح إلى منطقة عُمان وحضرموت واليمن[2].

لقد كان انتقالهم إلى شمال أفريقيا عن طريق باب المندب على شكل هجرات جماعية متتالية مُتخذة الطرق الصحراوية، حيث اختلط البربر بالعناصر السامية والهندية الأوروبية إضافة إلى الزنجية مع اختلاف نسبة الإختلاط من جهة إلى أخرى[3]، والبربر يطلقون على أنفسهم إسم الأمازيغ ويعنون بذلك الأحرار [4].

وعندما اتصل الفينيقيون بالبربر أثناء العصر الحجري الحديث بدأت حياتهم تتطور مما ساعد على انتقالهم من المرحلة البدائية البحتة إلى مراحل حضارية أرقى[5].

لقد تعددت القبائل البربرية في بلاد المغرب. واختلفت تقاليدها ولهجاتها الخاصة[6]. وقد أشار ابن خلدون في مقدمته إلى ذلك مثل قبيلة زناتة ومصمودة وصنهاجة وغيرها وكان نظام حياتهم القبلي قد حال دون ذوبانهم في حضارة الدّول التي تعاقبت على حكم بلادهم.

---

1 - Henri Terrasse, Histoire du Maroc, Casablanca, 1949, T_1, p p 17–18.

2 - إبن خلدون عبد الرحمن، العبر ، ج 6 ، طبقة بولاق القاهرة 1870م، ص 89.
- اليعقوبي أحمد، كتاب البلدان، ج 2 ، القاهرة 1937م، ص 302.

3 - (Charles) Diehl : Histoire du moyen âge, T_{III} , Paris 1932, p p 305 – 309.

4 - إبن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، نفس الجزء، ص 120.

5 - المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج1، ط1، بيروت 1982م، ص 142؛ Terrasse, op.cit, p 25 -

6 - الإدريسي، (الشريف عبد الله محمد)، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، ليدن 1866م، ص57.
- إبن حزم (أبو بكر أحمد علي بن أحمد)، جمهرة لـنساب العرب، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة، 1948م، ص 145.
- البكري، المغرب، في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، نشره دبسلان (deslane)، الجزائر 1957م، ص 307.
- حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، القاهرة، 1960م، ص 6.

ولكنه لم يمنع تعايشهم بل تعاونهم مع الفاتحين المسلمين لبلادهم، وعليه فإنه بناء على جدلية التدافع القبلي القائم في بلاد المغرب، توصلت القبائل البربرية المنتشرة في البلاد إلى تخطّي مرحلة النظام القبلي[1] وبعده نظام الإتحادات القبلية[2]، والسلطة المحلية وُصُولاً إلى بناء الدولة المركزية المستقرة.

إن هذه النقلة الحضارية التاريخية في بلاد المغرب تطلبت نحو أربعة قرون، تخللتها ثورات، واضطرابات سياسية أسفرت عن قيام دويلات وسقوطها ابتداء من ثورة ميسرة المطغري (122هـ / 740م)، وُصُولاً إلى قيام دولة الموحدين (524هـ / 1129م) وظهرت ملامح نزوع الحكم البربر نحو الحكم المركزي وتوحيد بلاد المغرب متجسدة في:

1 - إنتقال بربر الصحراء إلى الشمال -المغرب الأقصى-:

نتيجة للتطور الحضاري لسكان بلاد المغرب، والحاصل من إنتشار الثقافة الإسلامية والتفاعل بين مكونات السكان الذي أفرزته التدافعات بين القبائل والإتحادات والدويلات المحلية، تطلعت قبيلة صنهاجة الصحراء إلى تجميع القبائل والأحلاف البربرية وتكوين دولة مركزية قوية. وفي سبيل تحقيق ذلك عرفت المجالات الجغرافية الطبيعية والبشرية تغيرات كبيرة.

إن إنتقال أفراد قبيلة صنهاجة الصّحراء إلى مجالات دَرْعَة وسجلماسة لتحقيق مشروعها قد أحدث خلخلة سكانية نتيجة المقاومة العنيفة التي

---

[1] - النويري أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج24، تحقيق مصطفى أبو ضيف، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985م، ص 269.
- إبن خلدون، العبر، ج6، ص 175.

[2] - عن الأمثلة على قيام الإتحادات القبلية البربرية. ينظر: - أبن عذاري، البيان المغرب، ج1، تحقيق كولان وليفي بروفنسال، ط3، دار الثقافة، بيروت 1938م، ص 05.
- وَحَاه في كلام إبن الأثير : "وجمع كُسيلة له من البربر البرانس"، الكامل في التاريخ، ج4، دار صادر، بيروت (1387هـ / 1972م)، ص 44.

أبدتها قبيلة زناتة المستوطنة هناك، فقد جرت معركة كبيرة بينهما سنة (447هـ / 1055م)، إنهزمت زناتة على إثرها وتوزعت عشائرها[1].

واعتبارًا لدَواعي أمنية ودينية وَاصلت صنهاجة التي تدعّم حجمها بإنظمام قبائل أخرى إليها مثل جزولة، ولمتونة ومسوفة. إن تقدمها نحو الشمال قد مَكنها من إحتلال بلاد السوس الأقصى وَضَمّ قبائل جديدة، وتفريق أخرى، الأمر الذي زاد من سعة مجال سيطرتها على بلاد جزولة وماسة وتَارُودانت عاصمة المنطقة، وقد مهد هذا التمكين إلى الإستيلاء على مدينة أغمات ذات الإستراتيجية التجارية المهمة وكان ذلك سنة (449هـ / 1057م)[2].

ثم بعد ذلك تحركت القبائل الصنهاجية نحو الشمال الشرقي لإقليم السوس الأقصى، فحازت مدينة تَادْلاَ وماجاورها بعد قتال عنيف ضد عشائر وبطون قبيلة بني يفرن وهوّارة ومطماطة[3]، الأمر الذي أدّى إلى تفريغ الإقليم الذي يعتبر مَوْقعا إستراتيجيا يُمَكّن من السيطرة على بقية الأقاليم المحيطة به، فهو بمثل القلب بالنسبة لهذه البلاد[4].

وَإقليم تامسنه هو الموطن الأصلي لقبيلة بُرغواطة المصمودية[5] التي وقفت في وجه التّقدم الصّنهاجي نحو الشمال، واشتبكت معهم في وقائع عديدة وملاحم عظام مَات فيها خلق كثير[6]، واستشهد في

---

[1] – إبن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، دار المنصور، الرباط 1973م، ص 85.
– محمد عبد الله عنان، دولة الطوائف، ط2، القاهرة 1969م، ص 302.

[2] – إبن أبي زرع، المصدر السابق، نفس الصفحة.

[3] – أبن عذاري، البيان المغرب، ج1، ط3، بيروت 1983م، ص ص 216 – 217.
– أبن خلدون، العبر، ج4، ص 12.

[4] – المراكشي (عبد الواحد)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، دار الكتاب، الدار البيضاء (د.ت)، ص 203.

[5] – أبن سعيد المغربي، كتاب بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق الدكتور حسان قسرنيط، معهد مولادي الحسن، الرباط 1958م، ص 81.
– أبن حزم (ابو علي محمد) جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة 1962م، ص 500.

[6] – البكري (أبو عبيد)، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، تحقيق البارون دي سلان، الجزائر 1911م، ص 187.

إحداها صاحب الدعوة المرابطية عبد الله بن ياسين في جمادي الأول من عام (451هـ / 1059م)[1]، ونظرا لأهمية هذا الأقليم، دَعّم المرابطون قواهم وَوَاصلوا حِصارهم له وقتالهم للعناصر البرغواطية ومَنْ تحالف معهم[2]، وبعد جهد مُضني تمكّن المرابطون من هزيمة برغواطة. وأسرفوا في قتلهم، وتشريدهم خارج الإقليم، وتفرق البرغواطيون في الفَيافي والقِفار وأصبح المجال الجغرافي لإقليم تامسنا فارغًا من سكانه، مُستقبلاً لِقبائل أخرى كانت تسكن الصّحراء، الأمر الذي يطرح مشاكل عُمرانية جديدة.

إن إنتصار المرابطين على البرغواطين جعلهم يُفَكّرون في بناء مدينة قريبة من الإقليم فكانت مراكش حيث شُرع في بنائها عام (454هـ / 1062م)[3]، ومنها توجه يوسف بن تاشفين إلى تامسنا مرة ثانية لبَسط نفوذه على المنطقة، وترتيب الأوضاع إستعدادًا لمواصلة الزّحف نحو إقليم فاس وجبال قبائل غمارة. وتمّ لهم إبتداء من سنة (455هـ / 1067م) حيث عَمَدَ المرابطون إلى تتبع قبائل غمارة ومُطَارَدتهم إلى جهات أبعد من الحدود الشرقية لبلاد وَرْغة وهكذا إستولوا على بلاد مَلْوية وجميع بلاد الريف ووهران ثم تلمسان وجبال الونشريس.

---

[1] - السلاوي (أبو العباس)، الإستقصا لأخبار دُوَل المغرب الأقصى، تحقيق وَلَدي المولف جعفر ومحمد، الدار البيضاء 1956م، ص 105.

[2] - البكري، المصدر السابق، ص 164.

[3] - القلقشندي (أبو العباس)، قلائد الجمان والتعريف بعرب الزمان، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط2، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1982م، ص 117.

2- بربر المغرب الأدنى والأوسط:

لم يجد العبيديين أفضل وأنسب من قبيلة صنهاجة تلكانة[1] لأجل الحفاظ على نفوذهم ومذهبهم في بلاد المغرب بعد رحيلهم إلى مصر[2].

وكانت قبائل تلكانة قد استوطنت المغرب الأدنى وبعض الأجزاء الشرقية من المغرب الأوسط، هذا مع انتشار أفخاذ وعشائر صنهاجية في جهات متفرقة من بلاد المغرب عامة نذكر منها قبيلة بَطّيوة[3] ومندلة وهَسكُورَة[4] وبَنُو عمران[5] وبني حميد[6] وقبيلة المدية[7] هذه الأفخاد

---

[1] - صنهاجة تلكاتة، ينتسبون لتلكات بن كرت، كانت لهم زعامة على سائر فروع صنهاجة الشمال ومنهم الزيريين وبنو حماد وهم أهل مدر في المغرب الأوسط وهم الفرع الصنهاجي الثاني بعد صنهاجة الصحراء.
- إبن خلدون، العبر، ج6، ص ص 311 - 370.
- موسى لقبال، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 88.
- إبن أبي زرع، روض القرطاس، إعتناء كَارَلْ بُوحن تورنبرغ، أوبسالة 1843م- 1846م، ص 85.
- إبن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص 388.
- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي، ج2، ط7، بيروت1965م، ص155.
- أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي و الفاطمي ص ص 324 - 325.
- موسى لقبال، السابق، ص 88.
- مصطفى أحمد أبو ضيف، أثر العرب في تاريخ المغرب خلال عصر الموحدين و بني مرين، الإسكندرية 1983م، ص 54.

[2] - احتيار المعز لدين الله الفاطمي بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي لينوب عنه في حكم بلاد المغرب.
- المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط و الآثار، ج1، بولاق 1370هـ ، ص ص 352 - 353.
حسن إبراهيم حسن، المعز لدين الله الفاطمي، ط2، القاهرة 1964م، ص64 ، هـ1.

[3] - قبيلة بطيوة هي قبيلة مشهورة بين القبائل الصنهاجيين الشماليين، كانت مواطنهم بريف المغرب الأقصى وبطونها هي بني وريا غل، نازى المندمج في قبيلة أولاد بوعزيز قرب مدينة أرريو بوهران، وبطن وريا كل.
- إبن خلدون، السابق ، ص ص 407 - 408؛ - إبن منصور، قبائل المغرب، ج1، ص 303.
- Lucien Golvin, le Magrib central à l'époque des Zirides, Paris 1957, p 112.

[4] - هسكورة، قبائل صنهاجية، ديارهم مجاورة لديار مصمودة الشمال بإقليم تامَسنّا.
- مجهول، أخبار مجموعة، ص ص 16 - 17.
- إبن منصور، السابق، ج1، ص 395.

[5] - بنوا عمران، من بطون صنهاجة المشهورة بالمغرب الأوسط، ينتشرون بالقرب من بجاية ووادي يَسِرّ وبالقرب من مدينة جيجل، وبرج منايل شرق مدينة الجزائر، إبن منصور، المرجع السابق، ج1، ص 334.

[6] - بنو حَميد، قبيلة صنهاجية تقيم شرق مدينة الجزائر. وقد اندمج معظم أفرادها في القبائل المجاورة، إبن منصور، السابق، ج1، ص 331.

[7] - قبائل المدية، قبيلة المدية استوطنت بالقرب من الجزائر وإليها تنسب المدينة المعروفة حاليا بالمدية، أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص 235.

التي أَلِفَت العيش بجانب قبائل بربرية كبيرة قد امتازت بجنوحها إلى السلم والتعايش وقد امتدت أراضيها من المسيلة إلى جزائر بني مزغنة والمدية[1].

ولصنهاجة تلكانة (الشّمال) إنتشار في المغرب الأقصى حيث اتخذت بعض الأفخاذ المجال الجغرافي وَسيلة لأمنها وإطارا لإقامتها ونمط حياتها وامتنع بعضها عن التعامل مع السلطة الحاكمة مثلما فعلت صنهاجة العزّ التي استوطنت على ضفتي نهر درعة [2] واحترفوا الفلاحة والحياكة وامتنعت عن دفع الضرائب[3]، في حين استوطنت بعض القبائل الصنهاجية بالقرب من المدن ونَزَلت إلى السهول والبسائط، وتقربت من السلطة الحاكمة مُتجاوبة مع دعواتها للإستنفار ودفع الضرائب لذلك عرفت بصنهاجة الذّل، وكان أكثرهم يقيمون بالقرب من مدينة أزمور[4] هذه القبائل الصنهاجية كانت عاملا مساعدا لصنهاجة الشمال أثناء تحركاتها التوسعية المنطلقة من بلاد إفريقية نحو المغربيين الأوسط والأقصى والجدير بالإشارة أن صنهاجة تلكانة قد شكلت فعلا منعطفا تاريخيا لسكان بلدان المغرب تمثل ذلك في تجسيد وإقامة نظام سياسي واضح المعالم يدير أنشطته البربر أنفسهم ويسعى لتحقيق وحدة سياسية تبسط نُفوذها على بلاد المغرب[5]، إبتداء من بناء النظام السياسي الذي عمد إليه حماد بن بَلكين حيث شرع في تأسيسه على أرض المغرب

---

1 - جزائر بني مزغنة، مدينة بالمغرب الأوسط بناها بلكين بن زيري سنة(399هـ – 400هـ / 1000م – 1002م)، وقطنتها قبيلة بني مزغنة الصنهاجية فتسمت باسمها، الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج2، ص 320.

2 - نهر دَرْعَة، يَشُقّ منطقة الحبط و يصب في بحر المحيط، - إبن منصور،قبائل المغرب، ج1، ص 329.

– الحسن الوزان، السابق، ج1، ص 306.

3 - إبن منصور، السابق، ، ج1، ص 331.

4 - مدينة أزمور: مدينة تقع في سفوح جبال درن تقطنها قبائل بربرية من بطيوة، إبن المنصور، السابق، ج1، ص 328.

- أحمد بن عبد المنعم الحُميري، الروض المعطار، تحـ احسان عباس، ط2، بيروت1980م، ص 46.

5 - حسن إبراهيم حسن و د.طه أحمد شرف، المعز لدين الله الفاطمي، ط3، دار النهضة، القاهرة 1964م، ص 66.

الأوسط إبتداء من سنة (395هـ / 1004م)[1] وبدأ الصنهاجيون في بناء المدن وهو الجانب الذي يُعَبِّر عن المستوى الحضاري الذي بلغته قبائل صنهاجة الشمال فبعد أن تجمّعَ السّكان في السهول والبسائط شرعوا في شق الطرق، وترتيب الأسواق التجارية، فقد تمّ ترميم الحصون والقلاع، ومن المدن التي أعادوا الحياة إليها نذكر مدينة دَلّس[2] ومدينة نَدرومة[3]. والشأن نفسه بالنسبة لمدينتي المدية سنة (400هـ / 1008م)[4] وبجاية (468هـ / 1076م)، وجزائر بني مزغنة سنة (399هـ / 1007م) وأشير[5] وهكذا يتضح أن البربر تخطّوا فِعْلا الطرح القبلي وانتقلوا إلى مستوى الدولة الذي سيتَعَزّز لاحقا مع ظهور صنهاجة الجنوب ثم الموحدين، وهذا دليل واضح على التحولات الفكرية والإجتماعية التي عرفها البربر في بلاد المغرب[6].

---

[1] - عز الدين أحمد موسى، النشاط الإقتصادي في المغرب الإسلامي، ط1، دار الشروق، القاهرة 1983م، ص ص 72 – 73.
- E.F. Gautier, les siècles obscurs du Maghreb, p p 334 – 335.
- Louis Gardet, la cité Musulmane, vie sociale et politique, paris 1954, p 201.

[2] - دلّس: مدينة حديثة بنيت في العهد الحمادي، و هي ذات قيمة عمرانية و علمية، أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص 203.

[3] - ندرومة: مدينة تقع بالمغرب الأوسط، تسكنها قبيلة كومية التي أنجبت الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي وهي مبنية في طرف جبل تاجرا: - الحميري، الروض المعطار، ط2، ص 576؛ - توفيق المدني، السابق، ص 225.

[4] - المدية: مدينة بالمغرب الأوسط، تبعد عن السّاحل بحوالي 56كم، سكنها قبيلة بربرية صنهاجية تسمى قبيلة المديـة، وتسمت المدينة باسمها، توفيق المدني، السابق ، ص 230.

[5] - مدينة أشير: بنيت مدينة آشير على يد زيري بن مناد الصنهاجي، في منطقة جنوب جزائر بني مزغنة وتعرف بمنطقة التيطري وتقع بين المسيلة شرقا و تاهرت غربا، بينها وبين المسيلة مرحلة واحدة.ينظر:- إبن حوقل، صورة الأرض، ص 89.
– البكري، المغرب، ص ص 724 – 725؛ - الحميري، السابق، ط2، ص 60.
– الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 108؛ – إبن عذاري، ج1، ص 216.

[6] - إن شحنة التمذهب وقوة التعصب القبلي كانتا أقوى من الطرح الفكري العقلي، فقد عزّ على الفاطميين بعد رحيلهم إلى مصر أن يتركوا بني زيري الصنهاجيين ينعمون بالإستقرار ويفكرون في النقلة الحضارية، فعمدوا إلى تشجيع العرب الهلاليين بالدخول لبلاد المغرب واغراقهم في حتمية الترحال والتنقل بحثا عن الأمن والغذاء، عندما تخلى الزيريون عن المذهب الشيعي وعن الولاء السياسي لهم – إبن خلدون، العبر، ج6، ص 12.

3 - إتمام الوحدة السياسية:

كانت قبيلة مصمودة البربرية البرنسية[1] قد استوطنت بلاد المغرب الأقصى منذ وقت مبكر، وانتشرت مساكنها في مجالاته من الجنوب إلى الشمال، وقد عرفت القبائل الشمالية بمصمودة الشمال[2]، في حين عُرفت القبائل التي استوطنت الجهة الجنوبية بمصمودة الجنوب[3] فمصمودة الشمال تزعمها قبيلة غمارة التي استوطنت الجزء الغربي للجبل الذي تسمى بإسمها - جبل غمارة - وأقامت بعض عشائرها في مدينة وضواحي طنجة[4] وبلاد الريف، في حين عمّرت قبيلة حَاحَة[5] المصمودية سهل السوس، وإلى شمَاله إستقرت بُطون لمطة[6] التي امتدت رقعة مساكنهم نحو الجنوب لتلامس حدود صنهاجة الجنوب، أمّا دُكالة المصمودية فقد حازت مناطق على ضفاف وادي أم الربيع ووادي

---

[1] - قبيلة مصمودة البربرية البرنسية هي إبناء مصمود، تمتاز بكثرة العدد و قوة البأس حاضرة في معظم الحوادث القبلية ببلاد المغرب الأقصى تتوزع على أحياء كثيرة.

- إبن خلدون، العبر، ج6، ص427.

- مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها و الحروب الواقعة بينهم، نشر لافونتي، الكنتيرا، مدريد 1867، ص ص 16 - 17.

[2] - مصمودة الشمال: تمتد أراضيها من مناطق الريف شرقًا إلى المحيط الأطلسي غربًا و من البحر المتوسط إلى تلمسان، وتأتي على رأس القبائل المنتشرة في الشمال، قبيلة غمارة، ودكالة، وقد اشتهرت القبائل المصمودية الشمالية بكرهها للنظام والإستقرار.

- إبن سعيد، الجغرافيا، ص139؛ - البكري، المغرب، ص38.

[3] - مصمودة الجنوب: هي الفرع المصمودي التي تنتشر بطونها وأفخاذها في جبل درن على ساحل المحيط وصولاً إلى إقليم تامسنا (وسط نهري سلا وأم الربيع)، ومن أشهر بطونها هرغة التي ينتمي إليها صاحب الدعوة المودية محمد بن تومرت.

- إبن سعيد، الجغرافيا، ص 139؛ - مجهول، أخبار مجموعة، المصدر السابق، ص ص 16 - 17.

[4] - إبن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص ص 238 - 239؛ - سعد عبد الحميد زغلول، تاريخ المغرب، ج1، ص141.

[5] - قبيلة حَاحَة: هي قبيلة مصمودية تضم عدة بطون وأفخاذ وتقع في الجهة الغربية لجبل درن تجاورها شرقا قبيلة كدميوة وبلاد جنفيسة، القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج2، ص782.ينظر: - عبد الوهاب بن منصور، قبائل المغرب، ج1، الرباط، المطبعة الملكية، ص324.

[6] - قبيلة لمطة: هي قبيلة تضاف عادة إلى هسكورة وجزولة. ينظر: - إبن خلدون، السابق، ج6، ص90.

- السلاوي، الاستقصاء، ص31.

تانسيفت وعلى غرار ذلك، استعادت بقايا قبيلة بورغواطة[1] إقليم تامسنا الذي يعرف ببلاد السوس الأدنى التابع لمملكة فاس وهو يقع بين الرباط ووادي أمّ الربيع.

أمّا مصمودة الجنوب فتعرف بقبائل جبل درن لطول مدة استيطانها به. ومواقع بطون وأفخاذ هذه القبائل متجاورة. ومستقرة لإشْتِغَالِها بفلاحة الأرض والحرف الصناعية، زيادة على نشاطها التجاري، وترتفع كثافتهم في مناطق السوس الأقصى وناحية مَرّاكش وأغمات متخذة المعاقل والحصون والقصور مقرات لسكانهم نذكر من بين هذه الأفخاذ والعشائر تينملل[2] التي إستوطنت جنوب غرب مراكش وبجوار كدميوة[3]، وهنتانة[4]، هرغة[5] ووريكة[6] وعلى

---

1 - قبيلة بربرية مصمودية تُعَدّ من أكبر القبائل البربرية البرنسية وهي تتوسط بلاد المغرب الأقصى، شمال وادي أم الربيع، عرفت اضطرابا شديدا ابتدءا من القرن الثاني الهجري – الثامن ميلادي، حتى الخامس الهجري – الحادي عشر ميلادي، شكلوا دول أقامها صالح البورغواطي سنة(125هـ) و سَنّ لهم دين و أدعى النبوة. ينظر:- مجهول، أخبار مجموعة، ص 40؛ – الزهري، كتاب الجغرافية، تحـ محمد حاج صادق، باريس 1968م، ص 136.

– أحمد مختار العبادي في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة، بيروت، 1978م، ص 113.

2 - قبيلة تينملل تكتب أحيانا تينمل، وهي من القبائل المصمودية استوطنت جنوب غرب مراكش وقد أخذ الجبل الذي سكنته القبيلة هذا الاسم. والمنطقة مغلقة ومرتفعة ويصعب الوصول إليها.

– البيدق، المقتبس من كتاب الأنساب، تحـ عبد الوهاب بن منصور، الرباط 1971م، ص 38.

– إبن سعيد، كتاب الجغرافية، ص125.

3 - كدميوة: من القبائل المصمودية تمتد ديارهم عهلى طول جبل سَمِيد، ومساكنهم قريبة ممن تينملل. ينظر: – إبن صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة،السّفر الثاني، تحـ عبد الهادي التازي بيروت، دار الأندلس 1964م، ص272.

– الحسن الوزان، وصف أفريقيا، ج1، ص 142؛ – البيدق، المصدر السابق، ص 142.

4 - هنتانة: قبيلة مصمودية اطلق اسمها على المنطقة التي استوطنتها جنوب مراكش و هي قريبة من تينمللو تمتد ديارهم على نحو خمسة و أربعين ميلاً غرب دود كدميوة.

– إبن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص272.

– إبن منصور، قبائل المغرب، ج1، ص30.

5 - هرغة: قبيلة مصمودية ينتمي إليها المهدي بن تومرت، تفرق شملها فيما بعد بسبب كثرة حروبها و دفاعها عن دعوة الإمام المهدي بن تومرت، إبن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص 272. – البيدق، المصدر السابق، ص36.

– إبن منصور، المرجع السابق، ج1، ص 32.

6 - وريكة: قبيلة مصمودية استوطنت قمم الجبال الشاهقة مراكش على ضفاف الوادي.

– البيدق، المصدر السابق، ص39؛ – إبن منصور، المرجع السابق، ج1،ص 32.

سواعد هذه القبائل قامت دولة الموحدين (524هـ / 1130م) التي جاءت نتيجة لدعوة دينية قام بها أبو عبد الله محمد بن تومرت الملقب المهدي (485هـ / 1092م - 524هـ / 1129م)[1] ابتداءً من سنة (514هـ / 1120م) حيث أتم طوافه ودعوته بمدن المغرب، وتمكن من إستقطاب جموع غفيرة من البربر أغلبهم من قبيلة مصمودة وهذا دليل على بقاء ومتانة العصبية القبلية في النَّصْرة ونفور البطون القبائلية التي أُنتُزِع منها الولاء من قبل صنهاجة الجنوب بالقوة[2].

بعد إستجابة القبائل لدعوة محمد بن تومرت إنتقل إلى مرحلة بسط النفوذ بالقوة وإنتزاع الأراضي الريفية و الحضرية من أيدي الصنهاجيين وَمَنْحِها للقبائل المصمودية[3].

لقد سكنت قبائل مغراوة ومكناسة مدينة مراكش بعد حصارها وتفريغها من السكان وتوالت بقية المدن المرابطية في الخضوع لسلطة الدولة الموحدية، غير أن القبائل الريفية احتفظت بأريافها بعد أن بايعت المهدي بن تومرت[4]. وعرفت العاصمة مراكش وبعض المدن خلال العصر الموحدي عمليات استيطان قام بها أولا الخليفة عبد المؤمن بن علي

---

[1] – ولد الإمام المهدي بن تومرت في بلاد السوس الأدنى جنوبي مراكش 471هـ وهو من قبيلة هرغة إحدى بطون مصمودة. وهو محمد بن عبد الله بن ولكيد إبن يامل بن حمزة. ينظر:

– إبن القنفذ، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق محمد الشاذلي النفير وعبد المجيد التركي، طبعة الدار التونسية، تونس 1968م، ص 99.

– روجلي تورنو، حركة الموحدين في المغرب، ط2، تعريب د. أمين الطيبي، الدار البيضاء 1998م، ص 51.

[2] – بعض يوسف بن تاشفين لفتح تلمسان سنة (474هـ / 1979م) أسس هناك مدينة سماها تاقرارت (المحلة) اتخذ يوسف بن تاشفين مدينة تلمسان من أيدي بني يعلى الخزرجيين ثم وهران، تنس، الونشريس، بلغ مدينة الجزائر ثم عاد إلى مراكش فدخلها سنة(475هـ) و كل ذلك كان بحد السيف.

[3] – البيدق، السابق، وعن أسلوب ضمّ القبائل البربرية وفتح المدن انظر: – مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث ص ص 654 – 655.

[4] – القبائل البربرية الريفية مثل قبيلة سكتانة التي تسكن جنوب مراكش و لهم بطون تسكن أبعد إلى جهة الجنوب ومن بطونها بني عبد الوارث، بني فتزر وبني حميد، وبني سملك.

– البيدق، كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، ص ص 41 – 42.

عندما دعا قبيلة كومية الزناتية المستوطنة منذ زمن قديم بندرومة القريبة من تلمسان وأرشكول وأسكنهم في أحياء خاصة بمدينة مراكش عاصمة الدولة الموحدية سنة (556هـ / 1161م)[1].

تَدخل مثل هذه الهجرات القبلية في إطار التوازنات السّياسية التي تُوقف طموحات شيوخ الموحدين المصامدة السّاعية للإستئثار بالمناصب العليا وتوجيه سياسة الدولة، ولهذه الهجرات دَوْرٌ في تهذيب وتخفيف حدة العصبية القبلية والأحتكام إلى القانون العام، ويبدو أن مسألة تهجير القبائل من منطقة إلى أخرى قد حققت بعض أهدافها بدليل أن الخلفاء الموحدين قد إستحسنوها وعمدوا إلى نقل القبائل من الأرياف والأطراف إلى الحواضر الكبرى[2].

لقد كان لهذه السياسة أثر واضح على جُلّ القبائل المصمودية التي تسكن الحواضر الكبرى وخاصة مراكش، إذ حصل تعاون واندماج وتفاعل بين مختلف القبائل البربرية، أما على مستوى الأرياف فقد خففت الكثافة السكانية وتأثر المجال الفلاحي بفعل إستغلاله فوضويا من طرف قبائل أخرى كالهلاليين والزناتيين الذين أبعدوا من أوطانهم بفعل الحروب[3].

إن هذه التحركات القبلية على المستويين الحضري والريفي قد أضعفت نفوذ الدّولة الموحدية على هذه المناطق، الأمر الذي أتاح الفرصة أمام محاولة عودة النظام القبلي والأحلاف من جديد.

---

[1] - إنتقل جمهورهم إلى مدينة مراكش فتقوى بهم عبد المؤمن بن علي، وحلفاؤه. فأنفقوهم في الفتوح فأكلتهم الحروب، ونقص عددهم. ينظر: - إبن منصور، قبائل المغرب، ج1، الرباط، المطبعة الملكية 1968م، ص 309.

[2] - إتبعَ الخليفة يوسف ومن بعده المنصور، سياسة عبد المؤمن في نقل القبائل من مواطنهم الأصلية إلى فضاءات أخرى، كمراكش والأندلس للإستفادة من قدرتهم القتالية. أنظر: - إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص 192.

[3] - إبن صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، تحقيق عبد الهادي الغازي، بيروت 1964م، ص ص 415 - 420.

ويبدو أن هذه الخطة شملت حتى بعض القبائل البترية البربرية، ومن ذلك ما حَصَلَ إزاء قبيلة فَطْنَاسَةَ التي كانت لها حروث ومزارع بجنوب أفريقية فعمد المصامدة إلى ترحيلها قسراً[1].

*** العـــرب:**

ينتسب العرب إلى السلالة السامية، واستوطنوا شبه الجزيرة العربية وبلاد بين النهرين والشام، تميز نظامهم الإجتماعي بالطابع القبلي، وكانت الحروب والغزوات لا تكاد تتوقف بينهم وتحت تأثير الطبيعة الجغرافية التي سكنوها، والتدافع القبلي الذي طبع حياتهم، إنقسموا إلى قسمين مشهورين هما القحطانيون وهم عرب جنوب شبه الجزيرة المتوزعين على العرب اليمنية، القحطانية، والأزدية، أما القسم الثاني فيعرف بالعدنانيين المتوزعين على المُضَرية، الترارية والقيسية، وهجرتهم إلى بلاد المغرب قديمة لكنها أخذت وجهها وشكلها وتَتَابُعها بعد الفتح الإسلامي سنة (21هـ / 641م).

1 - استقرار العرب في بلاد المغرب:

1 - 1 - في الجهة الشرقية[2]:

تعود بداية إستقرار العرب في بلاد المغرب إلى ما بعد تأسيس مدينة القيروان بأفريقية التي بناها عقبة بن نافع الفهري أثناء ولايته الأولى (50هـ - 55هـ / 670م - 675م) حيث أقامت بها قبائل عربية من بينها

---

[1] - التجاني، رحلته، ص (658، 356، 104)، وفَطْنَاسَة هي عشيرة من قبيلة بن سليم البربرية. ينظر في ذلك:
- إبن خلدون، العبر، ج6، ص 19.

[2] - إعتبر الجغرافيون وادي ملوية مع جبال تازا هي الحد الشرقي للبلاد المغرب الأقصى، وباقي الجهة الواقعة شرق وادي ملوية هي بلاد المغرب الأوسط وافريقية وتمثل الجهة الشرقية لبلاد المغرب. ينظر:
- مجهول، الإستبصار، تحقيق سعد زغلول، الأسكندرية، مطبعة الجامعة 1958م، ص 186.
- الناصري، الإستقصا، ج1، ص 71.

قبيلة فِهر، غَفّار وغيرهم. وقد حملت بعض الساحات والمحلات والطرق أسماء هذه القبائل، مثل رحبة القرشيين وساحة الأنصار[1].

لقد إستمرت الحملات العسكرية العربية على بلاد المغرب بالموازاة مع إنتقال الدّعاة جماعات وفرادى إلى أن تَمّ فتح بلاد المغرب تمامًا على يد موسى بن نصير (86هـ - 95هـ / 705م - 714م)[2] حيث بدأت الهجرات العربية تأخذ أشكالاً وَصِفات أخرى تراوحت بين الهجرة الدعوية والسياسية والإجتماعية.

لقد أسفرت تلك الهجرات العربية المختلفة عن تشكيل بَيْئات إجتماعية عربية على أرض بلاد المغرب، فقد إنتشرت قبائل عربية في مجالات محددة من برقة، ثم تقدمت نحو طرابلس وما جاورها متخذةً الحصون والقلاع القديمة مقرات للإقامة بها[3].

بينما إتجهت قبائل عربية أخرى نحو الجنوب حيث إستوطنت مجالات جغرافية مُتَقَطّعة بين برقة وزويلة[4]، وعلل الكثير من المؤرخين تعمير هذه المجالات بالنشاط التجاري الذي أوجدتهُ المسالك التجارية الرابطة بين بلاد السودان وهذه المناطق، فكانت مدينة ڤفصة وضواحيها من نصيب قبائل بني عوف من بني سليم وتحولت عشائر من ربيعة إلى

---

[1] - الحموي (أبو عبد الله محمد)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، ط2، 1980م.
- دنون (عبد الواحد)، الفتح والإستقرار العربي في شمال أفريقيا والأندلس، القاهرة 1971م، ص 121.

[2] - إبن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ليدن 1920م، ص ص 198 - 199.
- إبن حزم (أبو علي محمد)، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة، دار المعارف 1962م.

[3] - إبن عبد الحكم، السابق، ص (100-102-170)؛ - حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، القاهرة 1960م، ص 46.

[4] - الرقيق (القيرواني)، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق، المنجي الكعبي، تونس 1968م، ص 139.
- إبن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص69؛ - إبن خلدون، العبر، ج6، ص 111.

مجـــالات مَجّانـــة[1]، وأنتـــشرت أفخـــاذ وعـــشائر قبيلـــة قـــضاعة وقـــريش في مدينة سطفورة والمنستير، أما بنو هاشم فتوجهوا إلى مدينة باجة[2].

وانحازت قبائل عربية أخرى نحو الثغور الـــساحلية مثـــل عـــرب بـــني تمـــيم الذين اســـتقروا في تـــونس، كمـــا اســـتقر بعـــض أعقـــاب العـــرب الفـــاتحين في بَلزمة[3] وأكثرهم من قبيلة قـــيس ومـــع مـــرور الوقـــت تقـــدمت قبائـــل عربيـــة نحو مجالات تَهُودَا وبادس وبـــسكرة وســـطيف مُـــرورًا بـــأطراف مدينـــة قـــسنطينة وميلة التي استوطنتها قبيلة بني سليم العربية[4].

ومن جهة أخـــرى توجهـــت مجموعـــات مـــن الأســـر العربيـــة إلى المـــدن الواقعة على محاور تجارية بغـــرض ممارســـة النـــشاط التجـــاري كمـــا هـــو الـــشأن بالنسبة لمدينة القيروان، تاهرت، وبُونـــة. وهكـــذا عرفـــت بـــلاد المغـــرب خـــلال القرون الأربعـــة الأولى إزدهـــارًا واضِـــحًا في ميـــدان الفلاحـــة فالحـــضرة كانـــت تكتسي كافـــة الـــبلاد الـــشرقية، وانتـــشر نظـــام الـــسقايات، وظهـــرت مـــشاتل عديدة من النباتات، وتطور العمـــران. وظهـــرت الـــصناعات في قـــابس، والقطـــن في جهة المسيلة والحضنة[5].

---

[1] – مجانة: مدينة قديمة بإفريقية، تغلّب العرب على أرضها، وتبعد عن مدينة قسنطينة شرقا بنحو ثلاث مراحل. ينظر:
– الإدريسي، نزهة المشتاق، ليدن، ص 118.

[2] – باجة: مدينة كبيرة بأفريقية، لها حصن حصين، قريبة من طبرقة، يسكنها عرب وبربر، وتحيط بها قرى كبيرة عامرة. ينظر:
– البكري، المغرب، ص 56؛ – مجهول، الإستبصار، تح. سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1979م.

[3] – بلزمة: مدينة قديمة لها حصون وتحيط بها أسوار تقع بمنطقة الزّاب، سكنتها قبائل عربية إلى جانب البربر منذ بداية الفتح.
– الحميري، الروض المعطار، ص 103.

[4] – لقد ظلت قبيلة بني سليم طَرفية بضواحي قسنطينة وميلة حيث كانت إقطاعًا لبني سليم.
– أحمد بن عبد الدائم الأنصاري الطرابلسي، التذكار، القاهرة 1358هـ، ص ص 24 – 25.

[5] – اليعقوبي، كتاب البلدان، ط3، المطبعة الحيدرية، النجف 1957م، ص 352.
– عبد العزيز فيلالي، مدينة ميلة في العهد الوسيط، دار البلاد، قسنطينة، (د.ت)، ص 71.
– بوخالفة نور الهدى، استقرار العرب وإنـــشاء المـــدن والقـــرى في المغـــرب الوســـيط، "الـــتغيرات الإجتماعيـــة في البلـــدان المغاربية عبر العصور" أعمال ملتقى د.ح في التاريخ، كلية العلوم الإنسانية، جامعة منتوري، قسنطينة، أفريل 2001م.

1 – 2 – في الجهة الغربية:

أما إستقرار العرب في الجهة الغربية من بلاد المغرب، فيعود إلى بداية تأسيس مدينة فاس (172هـ / 808م)، فقد ذكر المؤرخون أن كلا من قبيلة قيس، الأزد، يَحْصُب، مُدحج وَصَدَف كانت ضمن القبائل العربية التي إستوطنت المدينة[1]، وفي أغلب الحالات فإن هذه القبائل نزحت من القيروان والأندلس[2] خلال الإضطرابات السياسية التي إجتاحتها، وقد إستقل العرب الأندلسيون بعدوة خاصة بهم في مدينة فاس[3] وهي المدينة الجديدة التي بناها إدريس الثاني 192هـ ومن المعلوم أن توسُّعَ دائرة إنتشار العرب في المجال الجغرافي الذي تسيطر عليه الدولة الإدريسية (172 هـ - 375هـ / 782م - 985م) قد ساهم في تقويتها، فقد سَمَحَت لهم بالإستيطان في أقاليم مختلفة من بلاد المغرب الأقصى مثل: إقليم تَامْسْنَا[4]، حَاحَا والسوس الأقصى وأمتدت مساكنهم نحو أقاليم بلاد المغرب الأوسط مثل: سوق إبراهيم، التيطري والبطحاء وسَهل متيجة الذي إستوطنته قبيلة الثعالبة العربية[5].

---

[1] – قال إبن أبي زرع:"فَسَرَّ إدريس بوفادتهم وأجزل صلاتهم وقرّبهم ورفع منازلهم وجعلهم بطانته دون البربر، فاعتز بهم لأنه كان فريدًا بين البربر ليس معه عَربي"، روض القرطاس، ص ص 14 – 33.

[2] – لجأت ثلاثمائة امرأة عربية كانت تسكن إفريقية إلى فاس سنة (210هـ / 825م) على إثر معركة سبيبة – Sufes: الفريه من مدينة تبَسّة. ينظر: – إبن القاضي، جذوة الإقتباس، ص 12.

– البكري، المسالك، ص 324.

– الإدريسي، نزهة المشتاق، ليدن، ص 88.

– G. Marcais, la Berbéris Musulmane et l'Orient au Moyen âge, p 123.

[3] – إبن أبي زرع، السابق، ص ص 34 – 35.

– Le Tourneau, Fès avant le protectorat, p 49.

[4] – البكري، المغرب، ص 109.

– المالكي، رياض النفوس، تحقيق بسير البكوش ومحمد العروسي المطوي، بيروت 1994م، ص 339.

– وعن إقليم تامسنا الذي يُسميه البلاذري وإبن خرداذبة وإبن عذاري بالسوس الأدنى، فتوح البلدان، ط1، بيروت 1983م، ص 226.

[5] – إبن عذاري، البيان المغرب، ط3، بيروت 1983م، ص ص 5 – 216.

– إبن الأثير، الكامل، ج11، ص 247.

ومن جهة ثانية إستقرت جماعات عربية كبيرة في أهم الحواضر المغربية بهدف تجاري، فنزل السّنّاجرة في مكناسة وتوجه التجار العرب الأندلسيون إلى سبتة وتنس وتلمسان التي إحتضنت أيضا جماعة من البصريين والكوفيين ونزلت جماعة عربية أخرى إلى سجلماسة بقصد التجارة مع بلاد السودان الغربي، وهكذا صارت الجهة الغربية لبلاد المغرب تستفيد من الطاقات العربية في مختلف المجالات كما هو شأن القيروان بالنسبة للجهة الشرقية.

كما استقرت إحدى الأسر العربية في مرسى تَمسامان ونجح شيخها صالح في تأسيس كيان سياسي امتد نفوذه على طول بلاد الريف[1] ودام حوالي أربعة قرون ابتداء من الفتح العربي.

2 - توسُّع المجال الجغرافي للقبائل العربية:

عرفت بلاد المغرب خلال العشرية الأخيرة من النصف الأول من القرن الخامس الهجري-الحادي عشر الميلادي تدفقا عربيا جديدًا أعاد صياغة التوازنات البشرية المكونة للمجتمع المغربي خاصة الجهة الشرقية منه.

لقد عَبرت القبائل العربية الهلالية من مصر إلى جنوب إفريقية، متخذة طريقين مختلفتين أولهما يربط الواحات بمدينة فزّان التي تُؤدي إلى غدامس، وثانيهما يتجه شمالاً، حيث يربط مدينة سِرت بطرابلس وإفريقية وُصُولاً إلى مدينة تونس[2].

بعد الإحتكاك بالبربر في موقعة حيدران (443هـ / 1052م)، تسربت قبائل رياح والإثبج وزغبة في إتجاه إفريقية، ومنذ سنة (446هـ / 1055م)، إقتسم العرب بلاد إفريقية، فاستقرت زغبة في طرابلس وقابس، وحَازت

---

[1] - بلاد الريف: هي سلسلة جبلية في شمال المغرب الأقصى تمتد من سبتة إلى مليلة.
- البكري، المغرب، ص ص 90-92.

[2] - إبن حوقل، صورة الأرض، ص146.
- أبن خلدون، العبر، ج6، ص 85.
- التجاني،الرحلة، ص ص 85 – 86.

قبيلة مرداس بن رياح كُـلاًّ مـن باجـة والقـيروان، في حـين كانـت قـسنطينة لِسرحان الدريدي من كرفة.

لقد عرفت هذه الفتـرة التاريخيـة مـن حيـاة العـرب بإفريقيـة تحالفـات متعـددة بـين القبائـل العربيـة والـصّنهاجية في كـل مـن المهديـة وصـفاقس وقلعة بني حمـاد، الأمـر الـذي أفـرز ظهـور قـوتين متنافِـسَتَيْن، تـضم الأولى كلاّ من ريـاح وزغبـة[1] إلى جانـب الـسلطة الزيريـة بالمهديـة، أمـا الثانيـة فتشمل الإثبج وَعُدي إلى جانب بني حماد[2].

لقد تمكنت القبائل العربيـة مـن إكتـساح الجهـات الغربيـة لتـونس ممـا إضطر الأمير الحمادي المنصور بـن الناصـر (481هـ - 498هـ / 1089م - 1104م) إلى مـصالحهم علـى نـصف غلـة الـبلاد، وظَلّـوا مُنْـتَفِعين إلى أن فـرقهم الموحدون، وصيّرهم عبـد المـؤمن بـن علـي جنـدًا لـه[3]. وانفـردت قبيلـة رياح بإفريقيـة بعـد الـتخلص مـن بـني حمـاد مـن جهـة وتقـدم الإثـبج نحو الجهـات الغربيـة (بـلاد المغـرب الأوسـط) كمـا تفرقـت زغبـة سـنة (466هـ / 1075م) وَعَدّي سنة (491هـ / 1004م)[4].

وهكذا واصل العرب الهلاليـون زحفهـم حيـث ضـمّوا أراضـي قبيلـة صنهاجة بِفَرْعَيْهَا (الزيريين والحماديين) واضـطر بنـو حمـاد إلى تـرك عاصـمتهم قلعة بني حماد، مُكـتفين بالمدينـة الجديـدة بجايـة ومـا جاورهـا وبهـذا يكـون

---

[1] - زغبة هم إخوة رياح نقلهم الموحدون إلى المغرب الأقصى لصلابتهم القتالية واستقروا ببلاد الهبط.
- إبن خلدون، العبر، ج6، ص32.

[2] - أتباعه من زغبة ورياح وانهزمت سنة 455هـ، وبعد خمس سنوات كانت موقعة الأربس بين الطرفين.
- إبن الأثير، الكامل، ج7، ص ص 227 – 355.
- G. Marçais, les Arabes en Berbéris du XIème au XIVème, Constantine, Paris 1913, p p 134-135.

[3] - المراكشي، المعجب، ص 328.
- إبن خلدون، العبر، ج6، ص 362، - إبن عداري، البيان المغرب، ج1، ص 301.
- حمدي عبد المنعم، تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، الأسكندرية 1986م، ص 231.

[4] - إبن عذاري، السابق، ج1، ص 300.

العرب الإثبج وزغبة ورياح وبنو قرة قد تمكنوا من بسط نفوذهم على إفريقية وإقليم الزاب وأعمال قسنطينة وأصبحت جبال بني راشد وما سبقها شرقا وسهوب ميزاب بجنوب المغرب الأوسط هي الحدود بين العرب والبربر، أي أنهم ضمّوا قِسمًا من شرق المغرب الأوسط مثل قبيلة الإثبج التي إستوطنت بلاد المغرب الأوسط[1].

وبقي وضع القبائل العربية في هذه الجهة مُتَغَلِّبًا في أكثر حالات المعارك القبيلة التي كانت تغذيها الخلافات السيّاسية الزيرية الحمادية[2] إلى أن تقدم الموحدون في إتجاه الشرق سنة (546هـ / 1153م) حيث بدأت مرحلة الإنقسامات والضعف القبلي العربي.

3 - العرب خلال عهد الموحدين:

لقد بسط الهلاليون نفوذهم على أجزاء واسعة من بلاد المغرب الأوسط[3] وخضع الصنهاجيون إلى الأمر الواقع بدليل أنهم ركنوا إلى بناء علاقات اجتماعية بالمصاهرة والتعاون، وعلاقات سياسية بتكوين أحلاف للدفاع المشترك، كما فعل أمير المهدية الحسن بن علي (515هـ / 1121م) الذي طلب الدعم والمساندة من القبائل العربية لرد الحملة العسكرية التي جردها رجار الثاني على المهدية في منتصف جمادى الأخرة (517هـ / 1123م)[4].

---

[1] - عبد الحميد يونس، الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي، القاهرة 1956م، ص 15.
- مصطفى أبو ضيف عبد الله، أثر العرب في تاريخ المغرب، ص ص 158 -160.

[2] - إبن الأثير، الكامل في التاريخ، ج7، ص ص 227 – 235.
Marçais (G), les Arabes en Berbérie, T2, p p 112 – 113. -

[3] - انتشروا على ضواحي القالة وعنابة (بونة)، قسنطينة ووصولوا إلى جبال البابور بجوار قبيلة كتامة. ومن جهة الهضاب بسطوا نفوذهم على مجالات واسعة بين الأطلسيين التلي والصحراوي، واتجه العرب جنوبا حيث تنتشر قبيلة زناتة وافتكوا منها قرى عديدة مثل الزاب.
- إبن خلدون، العبر، ج6، ص 170.
- مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم و الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر (د.ت)، ص ص 554 – 555.

[4] - إبن عذاري، البيان، ج4، ص 209؛ - إبن خلدون، العبر، ج6، ص 167.

ولم يقتصر ذلك على الدولة الصنهاجية فحسب، بل احتاجت الكيانات السياسية البربرية الأخرى إلى القبائل العربية كما فعلت إمارة إبن الرند في قفصة فقربت رؤساءهم بالمصاهرة والتعاون وأقطعتهم الأراضي[1]، واعتمدت عليهم في إدارة أموال الخراج وتجنيد الجنود، ولم يكن عصيان الهلاليين للبربر طمعا في ملك أو انحيازا للفوضى، وإنما كان ذلك لحفظ كيانهم واستمرار نمط العيش الذي ألفوه، فقد أشار ابن عذاري إلى عدة قُرى بأكملها كانت لشيوخ قبائل عربية مثل قرية لُوزَة بإفريقية المنسوبة إلى حامد بن محمد الهمداني وهو من القرن الرابع الهجري، كان يعرف باللوزي[2].

وهكذا توسع العرب الفاتحون منهم والمهاجرون ثم بَنُو هلال في إمتلاك الأراضي سواء عن طريق الهِبة أو الإقطاع أو الشراء أو الإستيلاء. ولم يتوقف تقدمهم نحو المغرب الأقصى إلا بعد ظهور دولة المرابطين الناشئة التي حالت دون توغلهم غربا باحتلال يوسف بن تاشفين[3] تلمسان سنة (474هـ / 1081م)، وبنائه مَحَلّة عسكرية بتاقرارت إلى جانب المدينة القديمة.

ولم يكن اختيار العرب الهلاليين الإقامة في الريف بدافع البداوة وحدها كما يعتقد الكثير من المؤرخين وخاصة الغربيين[4] منهم، بل تتدخل في ذلك عدة عوامل أقواها العامل الإقتصادي والإجتماعي

---

1 - إبن خلدون، العبر، ج6، ص ص 120-125-146.
- إبن عذاري، السابق، ج1، ص 203.
- أبو بكر المالكي، الرياض، ج1، ص 148.

2 - تقع هذه القرية(لوزة) في ضواحي صفاقس. أنظر : - البكري، المغرب، ص 20.
- إبن عذاري، السابق، ج1، ص 213.

3 - كان الهدف من بناء هذا الحصن العسكري هو لتجميع القوات المرابطية ومنع العرب من التوسع غربا.
- عبد الوهاب بن منصور، قبائل المغرب، ص 319.

4 - يرى المراكشي بأن إقامة الهلاليين في الريف راجع إلى بداوتهم المتأصلة فيهم : - المعجب، ص 146.

وإذا كانت الإقامة في الحضر غاية البشر كما يقول ابن خلدون[1] فإن القبائل العربية ومن لفَّ حَولهم أسسوا مُدنا ووضعوا ترتيبات إدارية وقوانين عامة تضبط أنشطتهم المختلفة[2]. فقد عرفت مدينة قابس بإفريقية حكم أسرة بني جامع بن دهمان من بني علي إحدى بطون رياح العربية. هذه الأسرة تطورت وكبر حجمها بعدد أفرادها، وأَصْهارُهم وأموالها حيث كونت إمارة عربية بقابس[3] وارتبطت بالمدن العربية منها القيروان. وبلاد الجريد وتونس وغيرها، وَحَدَتْ حَدْوَها أسرة بني الورد اللخميين[4] التي أسست إمارة عربية في مدينة بترت ونالت دعما كبيرا من قبل القبائل العربية المجاورة لها من الإثبج ودهمان من رياح وجدير بالإشارة إلى أن هذه الإمارة العربية الناشئة قد استمرت إلى أن أسقطها الموحدون، وإذا كان هذا التوجه العربي نحو الإقامة في المدينة التي تؤسس الحضارة بطيئا إذا قيس بعامل الزمن فقط فإنه

---

[1] - إبن خلدون، العبر، ج6، ص 136.

[2] - استمدت الإدارة البربرية قوانينها و نظمها من الحضارة العربية. ينظر:

- حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، ط3، دار الكتب العربية الشرقية 1973م، ص 61.

[3] - إمارة بني جامع : أسست على أكتاف أسرة بني جامع الدين يتحدون أولاد يحيى المستمين إلى قبيلة عوف المحسوبة على شعب بني سليم المضرية والذين استوطنوا بداية في برقة وجهات من طرابلس ثم انتقلوا إلى افريقية. ينظر :

- إبن خلدون، السابق، ج6، ص 167.

- مصطفى أبو ضيف أحمد، القبائل العربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982م، ص ص 61 - 62.

- المبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم و الحديث، ص 552.

[4] - أسرة بني الورد اللخميين: أقامت هذه الأسرة العربية إمارة عربية بمدينة بترت و استمرت حتى أسقطها الموحدون.

- إبن خلدون، السابق، ج6، ص 169.

هذه الأسرة تمكنت من إقامة إمارة عربية بمدينة بترت وحازت على حماية العرب من بني مقدم ودهمان من رياح استمر وجودها إلى دخل الموحدون افريقية تحت حمايتهم.

- إبن خلدون، السابق، نفس المجلد والصفحة.

- إبن حوقل، صورة الأرض، ص 74.

مقبول إذا أُخذت الظروف الإجتماعية والإقتصادية والسياسية التي رافقت هذا التحول[1] العربي الذي رافق انتقالهم إلى بلاد المغرب في الحسبان.

لم يكن العرب الهلاليون يملكون رأيا ولا موقفا موحدا إزاء التطورات السياسية التي أعلنها أبو عبد الله محمد بن تومرت الملقب بالمهدي سنة (515هـ / 1121م)، ففي الوقت الذي باركت القبائل العربية المقيمة على بسيط المتيجة دعوة المهدي وأسرعت إلى مده بالمساعادات الممكنة[2].

كانت هناك قبائل أخرى من زغبة تضع العراقيل أمام الموحدين وتتحالف مع فروع وعشائر بربرية بقصد مناوأة الموحدين[3] ومحاربتهم دفاعا عن مصالحهم الخاصة التي تحققت لهم مع بني باديس الصنهاجيين الذين تفكك سلطانهم وضعف نفوذهم وأصبحوا يُدافعون عن مساكنهم ومدنهم فقط[4]. ويبدو جليا أن التحولات الإجتماعية والسياسية الناتجة عن التدافع القبلي الذي طالت مدته لم تبلغ مداها بعد و لم تصل إلى وضع يستوعب التنوع السكاني العربي والبربري رغم مُرور حوالي ستة قرون على بداية التعايش والتفاعل بينهم.

ومما يؤكد ويدَعّم هذه البنية الإجتماعية خلال هذه الفترة هو تحرك القبائل العربية بصفة إنفرادية أو ثنائية للتعبير عن موقفهم من

---

[1] – مصطفى أبو ضيف أحمد، أثر العرب في تاريخ المغرب، ص 62.

[2] – كان عرب الثعالبة يقطنون سُهول متيجة المتاخمة لمدينة المدية بالمغرب الأوسط، و عندما وصلهم المهدي بن تومرت ماله كبير الثعالبة ووعدوه بمساندة دعوته، وعرب الثعالبة هم قبيلة من قبائل المعقل، تنقلوا الكثير من المدية إلى جبل التيطري، حيث كانت مدينة أشير لكنهم تعرضوا للغزو وفاز بخواصنها فانحدروا باتجاه سهول متيجة.

– إبن الأثير، الكامل في التاريخ، ج11، ص 247.

– مصطفى أبو ضيف ، السابق، ص 67.

[3] – قبيلة زغبة هم إبناء زغبة يعودون إلى رياح والإثبج انتقلوا إلى مجالات بالمغرب الأوسط ما بين المسيلة و جنوب تلمسان، وتضم زغبة عمائر عديدة. ينظر: – إبن خلدون، العبر، ج7، ص 278 ؛ – إبن منصور، قبائل المغرب، ج1، ص 417.

[4] – مما يدل على انقسام العرب و البربر على حد سواء، قيام فخذ من زغبة المقيمين في جنوب سعيدة إلى المدية بمدهد المساعدة للموحدين، حيث جمعوا لها الجباية في بلاد صنهاجة وزواوة و بجاية. ينظر: – إبن خلدون، العبر، ج6، ص 87.

– عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، ج1، ص 14، هـ 4.

حملة عبد المؤمن بن علي على المغربيين الأوسط والأدنى، فقد دخلت جيوش الموحدين جزائر بني مزغنة سنة (541هـ / 1146م) وهو في طريقه إلى بجاية، وكانت القبائل العربية مختلفة فيما بينها حول دعمه وإسناده.

فخلال مرحلته الثانية نحو بجاية اجتمعت بطون من قبائل الإثبج[1] وجشم[2] ووفدوا على عبد المؤمن بن علي مُبايعين على السمع والطاعة و تقديم الولاء[3].

في حين استعدت بطون القبائل العربية المقيمة على أرض القيروان وتونس وأحوازهما لمؤازرة الموحدين، وتحالفت الاثبج وزغبة ورياح وبنو قرة[4] وتعاهدوا على التصدي للمد الموحدي بظاهر مدينة باجة[5] وعلى رأسهم محرز بن زياد الرياحي، وجبّارة بن كامل وحسن بن ثعلب وعيسى بن حسن تاركين خلافاتهم القديمة جانبا. وكان جُنُود الموحدين قد واصلوا زحفهم فاستولوا على بجاية سنة (547هـ / 1153م) وفي ظل غياب موقف موحد بين العرب والبربر في المغربين الأوسط والأدنى واصل

---

[1] - الإثبج: قبيلة عربية تنتمي إلى عرب بني هلال ومن بطونهم قبيلة دريد، أعز وأمنع قبائل الأثبج وأعلامهم استقروا بين مدينة بونة (عنابة) وقسنطينة من بطونهم أيضا أولاد سرور و أولاد جل الله؛ - إبن خلدون، العبر، ج6، ص 113.

- عبد الوهاب بن منصور، قبائل المغرب، ج1، ص 416.

- مصطفى أحمد أبو ضيف، القبائل العربية، ص 141؛ - أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص 123.

[2] - جشم:قبيلة عربية تنتمي إلى عرب بني هلال وهم بنو جشم بن معاوية بن بكر هوزان من أولادهم عربية عدي وعصيمة. وقد انتقل بنو جشم إلى افريقية خلال الحملة الهلالية ومن أشهر بطونهم سفيان والخلط وبني حابر والعاصم ورياستهم في سفيان أولاد جرمون.

- إبن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 269؛ - السلاوي، الإستقصاء لأخبار المغرب الأقصى، ج2، ص ص 153 - 154.

- عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، ج1، ص 13.

[3] - امبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم و الحديث، ج2، ص 257 ؛- عبد الله علام، الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، دار المعارف، القاهرة1971م،ص 208.

[4] - بنو قرة، قبيلة عربية لكنها متفرقة في المدن و الأرياف أفخاذها محتمية بقبائل أخرى بعضهم احتمى بقبائل بني حشم و بعضهم بني سليم سكن أكثرهم من بين جبال أوراس شرقا و جبال راشد غربا.ينظر: - النويري، نهاية الأدب، ج22، ص 342.

- مصطفى أحمد أبو صيف، السابق، ص 143.

[5] - البيدق، أخبار المهدي، ص 114؛ - عبد الله علي علام،الدولة الموحدية، ص 205.

- مصطفى أمد أبو ضيف، السابق، ص 142.

جند الموحدين إخضاع القبائل العربية فقصدوا بعد فتح بجاية قلعة بني حماد ثم قسنطينة فهزموا العرب المتحالفين ضدهم هزيمة ساحقة على مشارف مدينة سطيف سنة (547هـ / 1153م)، تفرق العرب على أثرها تاركين عددا كبيرا من القتلى[1] والأسرى نقلهم عبد المؤمن بن علي إلى مراكش [2] دون رغبتهم في الإنتقال واعتبروا ذلك عقابا لهم[3] في حين أراد عبد المؤمن الإستفادة من قدراتهم القتالية ضد النصارى، من جهة ووضعهم بالقرب من مركز السلطة لمراقبتهم من جهة أخرى.

وأثناء هذه الحملة العسكرية الموحدية الهادفة إلى توحيد بلاد المغرب، والقضاء على ثقافة الزعامات المحلية، لاحظ عبد المؤمن بن علي خصائص قتالية وملامح الفروسية الحربية متوفرة بشكل واضح في أفراد القبائل العربية، زيادة على قِيّم الشهامة والأنفة والتروع نحو الاستقلالية، فأراد ترويضهم من جهة والإستفادة من خصائصهم الحربية، فقرر نقل ألف فارس من كل قبيلة مُرفقين بعيالهم إلى المغرب الأقصى[4] وقد تجسدت هذه الرغبة في وصية عبد المؤمن بن علي لأبنائه سنة (554هـ / 1160م) التي قال فيها:" وأخل افريقية من العرب وأجلهم إلى بلاد المغرب وأدّخرهم لحرب إبن مردنيش إن إحتجت إلى ذلك"[5].

---

[1] - كانت هذه المعركة الفاصلة بقيادة عبد الله بن عمر الهنتاتي واستمر القتال ثلاثة أيام.

- رسائل موحدية، مجموعة جديدة، تحقيق ودراسة أحمد العزّاوي، ج1، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، 1955، ص 144؛ - إبن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص 41.

- الميلي (مبارك)، تاريخ الجزائر في القديم و الحديث، ج2، ص 258

[2] - إبن الأثير، السابق، ج9، ص 41.

[3] - و قد ساهمت القبائل العربية الهلالية التي نقلت إلى مراكش مساهمة كبيرة في الاضطرابات التي حدثت لاحقا.

Henri Terasse, Histoire du Maroc des origines à l'établissement du protectorat Français, Casablanca, 1949, p p 320 – 360.

[4] - إبن أبي زرع، الأنس المطرب، ص 130.

[5] - إبن خلدون، العبر، ج6، صض 580.

وكان عدد الرجال العرب المحوّلين كبيرا، يصفه إبن صاحب الصلاة بقوله: "ضاق بهم الفضاء و نافسوا الحصى و الذباب في كثرته "[1].

ويبدو من خلال ما قام به خلفاء عبد المؤمن بن علي أن سياسة التهجير العربية كانت عملا متبعا من أجل إحداث نقلة اجتماعية وتطورٍ سياسيٍ وعسكريٍ يُخفّف من حدة التوترات الإجتماعية في المغربين الأدنى والأوسط، ووضع حدا لطموح قبيلة مصمودة في الإنفراد بالحكم المُوحدي.

فقد قام خليفة عبد المؤمن أبو يعقوب يوسف (558هـ - 580هـ / 1163م - 1184م) بنقل العرب من بلاد المغرب الأدنى إلى مراكش وحاول إدماجهم في الحياة الإجتماعية والعسكرية حيث استعان في حروبه ضد نصارى الأندلس من جهة وإخماد الثورات الداخلية[2] التي ما تكاد تهدأ حتى تعود مرة بين العرب أنفسهم وأخرى بين التحالفات الظرفية بين العرب وصنهاجة ضد الموحدين.

وقد نجحت هذه السياسة الإجتماعية في التقريب والإدماج بين القبائل بعيدا عن العلاقات المبنية على أساس العصبية القبلية خاصة في المدن الكبرى كمراكش[3] وفاس، تاهرت وغيرها. وما يؤكد هذا الرأي هو مواصلة ترحيل القبائل العربية إلى المغرب الأقصى من قبل الخليفة الموحدي الثالث أبو يوسف يعقوب المنصور (580 - 595هـ / 1184 - 1199م) هذا بالرغم من مواقف بعض الزعامات القبلية العربية الرافضة لهذه السياسة بدافع الخوف على فقدان المكانة الإجتماعية والمكسب المادي وقد ساهمت

---

[1] - إبن عذاري، البيان، ج4، ص 77 ؛ - إبن صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، ص ص 148 - 150.

[2] - الزركيشي، تاريخ الدولتين الموحدية و الحفصية، ط2، المكتبة العتيقة، تونس 1966م، ص 14.

- سكنت قبائل شتى مدينة مراكش منها البربرية البترية والبرنسية والنصارى واليهود والعرب الفاتحين والهلاليين زيادة على الأندلسيين. ينظر: - إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 154.

[3] - يقول المراكشي:"حيث استقرت قبيلة رياح بالبلاد التي تقع بين قصر كتامة بالمغرب الأقصى إلى منطقة البسيط الممتد طولا حتى ساحل البحر المحيط كما استقرت قبائل جشم في إقليم تلمسنا البسيط، المعجب، ص 104.

هذه السياسة في إفراغ البلاد من عدد كبير بني هلال، الأمر الذي أصاب المجتمع المغربي بالوهن والضعف[1].

4 - نشاط العرب:

إن الوجود العربي بلاد المغرب يختلف في روحه وغاياته عن الوجود البيزنطي والوندالي[2] لأنه حرص على الإندماج والتغلغل في أوساط القبائل البربرية، ذلك بالتواصل اجتماعيا عن طريق المصاهرة، والتعاون في مختلف مناحي الحياة. ظهر ذلك أثناء مرحلة الفتح العربي لبلاد المغرب حيث استقر العرب في المدن العسكرية[3] التي هجرها البيزنطيون في حين تردد البربر في الإقامة بتلك المدن، مكتفين بالأرياف والبوادي[4].

لقد إنتشر العرب الفاتحين في بلاد المغرب الأوسط والأقصى، فكانت مدينة تاهرت (عراق المغرب) كما كانت توصف[5] ومدينة وليلي والبصرة وأصيلا(أزيلا)[6].

نتج عن تعمير هذه المدن ظهور نشاط تجاري ملحوظ أظهرته القوافل التجارية وهجرة التجار العرب من المشرق العربي كالعراقيين وخاصة من البصرة والكوفة، والشاميين واليمنيين والحجازيين الأمر

---

[1] - الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ط2، المكتبة العتيقة، تونس 1966م، ص 110.
- إبن صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، ص ص 419-41-415.

[2] - إبن خلدون، العبر، ج6، ص 243.
- السلاوي، الإستقصا، ج2، ص ص 151 - 152.
وَاعتمد الروم على خطوط دفاعية أولى وثانية تمر بالقلاع والحصون فاصلة بين الروم والسكان البربر والعلاقة بينهم هي علاقة المحتل بصاحب الأرض. ينظر:- حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص 27.

[3] - استقرار العرب في المدن العسكرية الرومانية؛ - إبن حوقل، صورة الأرض، ص 67.
- الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، ص 144؛ - التجاني، رحلته، تح حسن حسني عبد الوهاب، تونس 1958م، ص 81.
- عبد العزيز فيلالي، مدينة ميلة في العصر الوسيط، ص 73.

[4] - بقي البربر مكتفين بالأرياف، ينظر:- البكري، المغرب، ص 149؛ - الحسن الوزان، وصف افريقية، ج2، ص 52.

[5] - تاهرت بغداد المغرب.ينظر:- الإصطخري، المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحسيني، القاهرة 1963م، ص34.

[6] - انتقال العرب إلى المغرب الأقصى، أبو العرب محمد ، طبقات علماء إفريقية، بيروت(د.ت)، ص ص 141 - 153.

الذي ساعد على رواج السلع المغربية في المراكز التجارية كالقيروان وتاهرت وسجلماسة وفاس[1].

ومارس السكان العرب التجارة بصفة حرة ومما تجدر الإشارة إليه أن الجند العرب المستقرين بإفريقية قد نمت ثروتهم عن طريق إمتلاك العقار والتجارة[2] لدرجة أن الأمير إبراهيم الثاني الأغلبي (261هـ - 289هـ / 875م - 902م) خشي من ثروتهم فقال: " .. لأن هؤلاء الجند إذا أحسّوا من أنفسهم قوة بما عندهم من أموال لم يُؤمن شرهم"[3].

ومن علامات ازدهار التجارة في المدن المغربية ظهور أصحاب الحرف والصناعات الذين استمروا بالمغرب قادمين من جهات مختلفة مشرقية وأندلسية[4]، فنشطت الحركة التجارية في المسيلة وسجلماسة وتعددت الصناعات الجلدية، الفخارية، النسيجية ونسبت إليها الأسواق[5] يصف لنا إبن خلدون المستوى الاجتماعي الذي بلغه بعض التجار حيث يقول: " فتفننوا في المأكل والملبس والمأوى واقتنوا العبيد والجواري وبنو القصور والمساجد والمحارس "[6].

---

[1] - عن أسواق بلاد المغرب أنظر: - إبن سعيد المغربي، كتاب بسط الأرض في الطول و العرض، ص 145.
- الحميري . الروض المعطار في خبر الأقطار، تحـ إحسان عباس، 1975م، ص 114.
- الادريسي، نزهة المشتاق، النشرة الإيطالية الخامسة 1957م، ص 140.
- عز الدين أحمد موسى، النشاط الإقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس، بيروت 1983م، ص ص 146 - 155.

[2] - أبو العرب محمد، طبقات علماء أفريقية و تونس تحـ علي الشابي و نعيم حسن اليافي، ط2، الدار التونسية للنشر، الشركة الوطنية للتوزيع الجزائر 1985م، ص ص 106 - 226.
- البكري، كتاب المغرب في ذكر افريقية و المغرب، ص 106.

[3] - إبن حوقل، صورة الأرض، ص ص 83 - 110.
- التجاني، رحلة التجاني، تونس 1958م، ص 40.

[4] - التجاني، رحلة التجاني، ص ص 85 - 88.

[5] - يقال سوق الأحذية، سوق النسيج و سوق الدباغة. ينظر: - الرفيق القيرواني، تاريخ افريقية و المغرب، ص 106.
- عز الدين أحمد موسى، النشاط الإقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس، ص 130.

[6] - إبن خلدون، العبر، ج6، ص 212.

وإذا كان العرب الفاتحون قد استقروا بالمدن وقربوا منهم القبائل البربرية، واشتغلوا بالنشاط التجاري فإن هذا لا يعني عدم اشتغالهم بالفلاحة ولو بالشكل المحدود، فقد تحدثت كتب الجغرافية على أن العديد من الأسر مَلكت قطعا أرضية سهلية بضواحي المدن، واستغلتها[1].

لم يكن عرب بني هلال همجيين و مفسدين بالإجماع كما وصفهم جل المؤرخين الذين نقل بعضهم عن البعض، فحقيقة أنهم فضّلوا الإقامة في الأرياف والبوادي وترتب عن ذلك تراجع البربر إلى المدن والجبال، والسّبب في ذلك يرجع إلى عاملين أساسيين، أولهما يرتبط بالماضي الإجتماعي الذي عاشه عرب بني هلال في صعيد مصر حيث عاشوا ظروف العزلة وألِفوا العيش في الصحاري والهضاب العليا وشُحّ الطبيعة زيادة على ما تعرضت له المنطقة من مجاعة سنة (444هـ / 1052م) والتي دامت فترة طويلة يشيب لها الولدان كما يصفها المقريزي[2].

أما العامل الثاني فيرتبط بمستواهم الحضاري الذي لم يتطور لقلة الإحتكاك بالشعوب الأكثر تطورا وهذا تكون الإقامة في الأرياف والبوادي أفضل و أضمن لكسب أرزاقهم.

ومع ذلك فقد توجهت بعض بطون وعشائر عرب بني هلال إلى تأسيس الكيانات السياسية مثلما فعل عرب بني رياح الذين أسسوا إمارة بني جامع على أرض قابس[3] بافريقية و أبرموا اتفاقيات تضمن حسن الجوار والتعاون وفق ما هو متعارف عليه أيام زمانهم[4] وطوّروا

---

[1] - نور الهدى بوخالفة، استقرار العرب و إنشاء المدن، ص ص 54 – 58.

[2] - إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص ص 116-118.

- راضي دغفوس، "القوافل الاقتصادية لهجرة بني هلال"، مجلة المؤرخ العربي، العدد 20، سنة 1981م، ص 18.

[3] - مدينة قابس: مدينة كبيرة بناها الرومان على ساحل البحر المتوسط داخل خليج. تحيط بها بساتين وسكانها يحترفون الفلاحة والصيد ويصدرون إلى القيروان والمدن الداخلية. ينظر: - التجاني، رحلته، ص 86.

- الحسن الوزان، وصف افريقية، ج2، ص 135.

[4] - إبن خلدون، العبر، ج6، ص 166؛

- التجاني، السابق، ص 96.

أسواق إمارتهم وحسّنوا الحرف والصناعات،وبذلك عرفت إمارة بني جامع رخاء وازدهارا، فإليهم يرجع بناء قصر العروسين المشهور الذي شيدوه بقصبة مدينة قابس. وقد عاينه الرحالة التجاني الذي يقول: " أمَرَ بعامل هذا الباب الأمير رافع بن أمير الأمراء مَكّي بن كامل بن جامع في رجب سنة (500هـ / 1105م) "[1].

والتزم عرب قفصة التي يحكمها بنو الرّند الخاضعون لدولة بني زيري بمساعدتهم والتعاون معهم عندما أعلنوا استقلالهم عن تلك الإمارة سنة (445هـ / 1053م)[2] وبفضل الاستقرار الحاصل بين بني هلال وبني الرند عرفت الإمارة الإستقرار، وانتشر العدل وتوفر الأمن ونقص الفساد وتوسع الملك ليشمل مدينة توزر، قفصة[3] والحامة.

وما يقال عن عرب بني هلال الذين تعاونوا مع إمارة بني الرند، يقال أيضا عن إخوانهم الذين تعاونوا مع إمارة بني خرسان (446هـ- 554هـ / 1054م — 1159م) وتصالحوا على أتاوة يدفعونها مقابل الحماية المشتركة لمدينة تونس وضواحيها[4]. ونتيجة الوفاء بالعقود عرفت البلاد التونسية في أول المائة السادسة الهجرية، الثانية عشرة الميلادية إزدهارا وتقدما نشطت خلاله الحركة التجارية والثقافية والعمرانية[5]، واستمرارا لعهودهم ومواثيقهم استعد الخراسانيون بمعية عرب محرز

---

[1] - التجاني، الرحلة، ص 98.

[2] - إبن خلدون، العبر، ج6، ص 165.

[3] - مدينة قفصة: كانت قاعدة بني الرند وهي مدينة قديمة بناها الرومان في صحراء نوميديا فتحها عبد الله بن سعدني أبي السرح سنة (26هـ) تبعد عن ميناء محرس بحوالي 217كم. ينظر: - حسن حسني عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس، ط3، تونس(ب.ت)، ص 102؛ - السلاوي، الإستقصا، ج2، ص 136.

[4] - منذ سنة (446هـ / 1054م)، استولى القائد عابد إبن أبي الغيث الرياحي على تونس ولكي يتفادى السكان بطشه فضلوا الاحتماء بالأمير الصنهاجي، حاكم قلعة بني حماد، حيث عينه عبد الحق من خرسان حاكما على تونس. ينظر: - إبن عذارى، البيان المغرب، ج1، ص 454.

G. Marçais, la berbéris Orientale et l'Orient au Moyen âge, Paris 1946, p 209. -

- إبن خلدون، السابق، ج6، ص 334.

[5] - الوزير السراج، الحلل السندسية، ج1، ط. تونس 1870م، ص 81 ؛ - إبن الأثير، ج5، ص 590.

بني زياد الهلاليين وتصدّوا لجيش لعبد الله بن عبد المؤمن بن علي سنة (552هـ / 1157م) وأوقعوا به، ولم يتمكن الموحدون من دخول المدينة. إلاّ بعد حملة عبد المؤمن بن علي نفسه حيث حاصر ثم إقتحم مدينة تونس، فأنقاذ سكانها لطاعته[1] سنة (555هـ / 1160م) و الجدير بالإشارة إلى أن اتساع نطاق التبادل التجاري البحري مع أوروبا خلال أيام بني خرسان يُعد مثالا على قدرة عرب بني هلال على التعامل السّلمي الودّي إذا توفرت الأجواء[2].

لقد أسسوا الإمارات كما سبق وأن أشرنا، وعمّروا القرى التي سكنتها الأسر العريقة مثل أسرة بني حمدون بمنطقة الزاب وأمتد إهتمامهم إلى قرى متواصلة بضواحي المسيلة والأمر نفسه بالنسبة لمدينة ميلة التي خضعت لحكم العرب وقد استمر وجودهم وتضخم عددهم خلال عهد الفاطميين ثم الزيريين إلى أن تحالفوا مع بني غانية ونقلهم المنصور الموحدي إلى مدينة سلا بالمغرب الأقصى[3].

5 - مسألة تخريب العرب الهلاليين للعمران:

اهتم المؤرخون عموما بقدوم العرب الهلاليين إلى بلاد المغرب ابتداء من سنة (442هـ / 1050م) والذي تم على خلفية مذهبية وسياسية بعد إعلان المعز بن باديس إنفصاله عن الخلافة الفاطمية، حيث أذن الوزير الفاطمي اليازوري[4] للعرب الهلاليين بعبور النيل والتوجه إلى افريقية وقدّم لهم تسهيلات تمثلت في راحلة ومبلغ مالي لكل من لبى

---

1 - S.D. Goitein, la Tunisie du XIeme siècle à la lumière de la Géza du Caire, dans (études d'orientalisme dédiées à la mémoire de (E) Levi-Provençal) T_II, Paris 1962, p p 24 – 28.

2 - مجهول، الحلل الموشية في الأخبار المراكشية، تح. سُهيل زكّار وعبد القادر زَبَانَة، الدار البيضاء 1979م، ص 128.

3 - إبن عذاري، البيان المغرب، ج4، ص 96؛ - الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 121.
- عبد العزيز فيلالي، مدينة ميلة، ص 70.

4 - عبد الوهاب بن منصور، قبائل المغرب، ج1، ص 390.

الدعوة. وأقطعهم أرضا مكنت زغبة من الإقامة في طرابلس وقابس[1] ورياح في القيروان وباجة وأقطعت أراضي بضواحي قسنطينة لدريد[2] ثم توالت هجراتهم الجماعية على دفعات استمرت نصف قرن من الزمن.

كان موقف المعز بن باديس الصنهاجي (406هـ - 453هـ / 1008م - 1055م) مرحبا ومؤيدا لقدوم رياح، فقد أحسن إلى أميرها مؤنس بن يحيى وأصهر إليه وأسكنه ببعض القصور بالقيروان[3]، وأراد أن يستعملهم سياسيا ضد أبناء عمومتهم الصنهاجيين الحمادين[4] ومن هنا ساءت العلاقات الهلالية - الزيرية ودخل المعز بن باديس في حرب مع العرب الهلاليين من بني رياح.

لقد كانت الحرب بداية التحول، فانحاز العرب البلديون إلى جانب أخوانهم الهلاليين وتراجعت قبائل زناتة البربرية، وكذلك فعلت صنهاجة بني حَمّاد عن دعم ومساندة المعز بن باديس البربري الصنهاجي فانتصر العرب على المعز بن باديس الذي فَرّ إلى القيروان[5] ثم إلى المهدية بعد سنة (449هـ / 1057م).

وهكذا تغلب العرب على الضواحي في كل وجه وعجزت القبائل البربرية من زناتة وصنهاجة عن مدافعتهم بافريقية والزاب وجنوب الصحراء القريبة من جبل أوراس.

---

[1] - إبن خلدون، العبر، ج6، ص ص 16-17-28.
- عبد الوهاب بن منصور، قبائل المغرب، ج1، ص 422.

[2] -دريد: هم بطن من الإثبج الهلالية، استقروا بمنطقة جبل أوراس ومنهم من استقل بين بونة وقسنطينة. ينظر:
- إبن خلدون، السابق، ج6، ص 45.

[3] - عبد الوهاب بن منصور، السابق، ص 392.
- حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس ، ص ص 91 - 95.

[4] - مازال مؤنس بن يحيى يرغب العرب الهلالية في التعاون مع المعز بن باديس حتى قبلوا وأقبلوا على القيروان فاستفزهم العمران والخيرات فتسابقوا على خيراتها الأمر الذي أغضب المعز بن باديس وانعكس ذلك على موقف مؤنس ومن هنا ساءت العلاقة بينهما. ينظر: - عبد الوهاب بن منصور، السابق، ص ص 392 - 393.

[5] - إبن خلدون، السابق، ص 19.

ومن المؤكد أن هذه المعارك التي دارت بين عرب بني هلال والبربر قد أحدثت خلخلة كبيرة في أوساط السكان خاصة سكان الأرياف، وتغيرت تبعا لذلك البنية الإجتماعية لسكان افريقية أولا وبدرجة أخف في المغرب الأوسط وجدير بالإشارة إلى أن مثل هذا التغيير حدث عدة مرات وكان أكثرها وضوحا أثناء ثورات الخوارج الصّفرية إبتداء من سنة (122هـ / 748م) وحملات العبيديين لإخضاع معارضيهم بالقوة، فقتلوا قتلا جماعيا وفرضوا النزوح إلى المغرب الأقصى على من بقي حيا وهذا خلال الفترة (315هـ - 361هـ / 875م - 971م) وبذلك عاشت قبيلة زناتة البربرية هجرة قسرية [1] وتوالت الحملات العسكرية لإقتلاعهم من مواطنهم، وقد وصف إبن خلدون ما قام به العبيديون حينما قال وَاصفا حملة إبن يَصل سنة (321هـ / 881م) التي انتهت إلى فاس بقوله: "وأجفلت أمامه ضواعنَ زناتة ومكناسة"[2].

وفي رسالة من القائد موسى بن أبي العافية إلى صاحب قرطبة عندما انقلب من التأييد الفاطمي إلى التأييد الأموي، يقول في الرسالة: "... وصارت إلينا قبائل أهل المغرب بأجمعهم من كل مكان حول فاس"[3] وعدد أسماء القبائل المختلفة وفروعها بالمغرب الأقصى التي دخلت في طاعة الأمويين، وسَارَ جَوْهر الصّقلي في حملة جَرّدَها لتطهير بلاد المغرب من المعارضين والمارقين حسب مذهبهم، فقتل الموالين لبني أمية وفتح البلاد

---

[1] - البكري، المغرب، ص 772.
- إبن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص ص 175 - 180.

[2] - إبن خلدون، العبر، ج7، ص 31.
- إبن عذاري، السابق، ج1، ص ص 56 - 191.

[3] - إبن حيان، المقتبس، ج5، ص ص 369 - 370.
- إبن مروان بن خلف، القطعة التي نشرها د.عبد الرحمن علي الحَجّي، بيروت 1965م، ص 77.
- محمد بن معمر، العلاقات الثقافية بين مراكز بلاد المغرب، رسالة دكتوراه، جامعة السانية، وهران، ص 41.

والمعاقل سنة (347هـ / 959م) وفرت أمامه القبائل من زناتة وغيرها، وخرب العمران في مدينة أفكان بالمغرب الأوسط[1].

إن وصف العرب الهلاليين بالمخربين للعمران وبالمفسدين للحرث والنسل فيه حيف وَاضح. ألاَ يتقاسم الطرفان المتحاربان مسؤولية الفساد الذي يلحق بأرض المعركة؟ بل ألا يتحمل الطرف المعتدي المسؤولية الأكبر؟ ألم يرحب المعز بن باديس بعرب رياح لدرجة أنه تصاهر معهم؟[2] لإتقاء شرهم وكسب ودّهم. والإستفادة من خصائصهم القتالية وإذا أدخلنا العامل التاريخي في تحليل أبعاد الوصف فإن ذلك لن يكون بجانب من وصف الهلاليين بالمخربين فقد أمرت المرأة البربرية المعروفة باسم الكاهنة بتخريب العمران والعبث بالأشجار والأرزاق. أثناء معركتها ضد حسان بن النعمان سنة (74هـ / 694م)[3] في حين لم يحدثنا التاريخ عن شيء مثل هذا. قام به الفاتحون العرب أو الوافدون من الجند أو من العرب الهلاليين.

إن المؤرخين المسلمين المعاصرين للأحداث قد كتبوا حول الموضوع ولم يفصلُوا فيما أسموه بخراب العمران. فعندما يتحدث إبن خلدون عن فرار وَجفول قبيلتي زناتة ومكناسة أمام حملات العبيديين سنة (315هـ - 361هـ / 885م - 971م)[4] وبلكين بن زيري على المغرب الأقصى (368هـ / 978م) لم يُصْدِر حكما عليهم وخاصة أن الأمر وصل إلى حد

---

[1] - مدينة أفكان: تقع بين معسكر و سيدي بلعباس على بعد خمسة و عشرين كلم غرب معسكر.
- إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص 90.

[2] - إبن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص 216.
- عبد الله عنان، تاريخ المغرب، قسم الموحدين، ص 262.

[3] - إبن الأثير، الكامل، ج4، ص 180.
- إبن عذاري، لسابق، ج1، ص 37.
M. Vonderhayden, la berbéris orientale sous la dynastie des Benou l'Arleb, Paris - 1958, p 142.

[4] - إبن أبي زرع، السابق، ص ص 92 – 101.
- إبن خلدون، العبر، ج6، ص 184.

تخريب العمران واجتثاث السكان من أرضهم مثلما حصل لسكان وعمران مدينة إفكال بالمغرب الأوسط. والعمل نفسه فعله الموحدون أثناء اقتحامهم مدينة مراكش وقفصة. واعتمد إبن عذاري وابن صاحب الصلاة وإبن الأثير وغيرهم نفس الأسلوب فهم يتحدثون عن وصف الحوادث ولا يتعدون إلى إصدار الأحكام عليها كما يفعلون أثناء تناولهم لحوادث شارك فيها عرب بني هلال.

وما هو حكم هؤلاء المؤرخين عن حصار بني غانية الصنهاجيين لمدينة تونس مدة أربعة أشهر وتخريب عمرانها بالمنجنيق سنة (600هـ / 1203م)؟[1] والنتيجة هي أنه من لم يمت أثناء الحصار تمنى الموت بعده لثقل الضرائب وقسوة تَحْصيلها منهم بالتعذيب الشديد، يقول صاحب الحلل وهو يَصف حصار الموحدين لمراكش " إشتد بأهلها الجهد، ونفذ طعامهم، وفَنيت مخازنهم فهلكهم الجوع"[2].

والأمر يختلف عندما يكتب هؤلاء المؤرخون عن العرب الهلاليين فيصدرون أحكاما عليهم دون تفاصيل، رُبّما يعود الأمر إلى مسألة مرجعية الكتابة التاريخية، فالبربر أسسوا أنظمة سياسية متعاقبة أكثر تطورا، فتجنب المؤرخون إغضابهم في حين اكتفى العرب بالدور الإجتماعي والثقافي وشتان بين التّوَجُهَيْن.

* اليهود:

كان لوجود اليهود ببلاد المغرب شخصية متميزة إذا ما قورنت بتجمعات اليهود في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي وذلك خلال القرون

---

[1] - إبن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص 216.
- إبن عذاري، السابق، نفس المجلد والصفحة.
- إبن خلدون، العبر ، ج6، ص 402.
- عبد الله عنان، عصر المرابطين الموحدين (قسم3) القاهرة 1964م، ص 262.

[2] - مجهول، ص 138؛ أنظر أيضا: - إبن خلدون، السابق، ج6، ص 274.

الوسطى، فقد أدت بعض العوامل كالحروب المتواصلة بين المسلمين والمسيحيين إلى تفرد اليهود ببعض الصّفات التي اكتسبوها من انتشارهم في مصر، العراق والشام. غير أن تفاعلهم سلبا أو إيجابا لم يكن كما كان في بلاد المغرب التي كانت مجالاً لنشاطهم في ميادين مختلفة واستمر إلى غاية نهاية القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي.

لقد أجمع أغلب المؤرخين والباحثين المهتمين بالسلالات والأجناس البشرية على أن اليهود دخلوا بلاد المغرب أثناء هجرة الفينيقيين من سواحل لبنان خلال القرن الحادي عشر قبل الميلاد (11ق.م)[1] ومن الطبيعي أن تنتشر الديانة اليهودية بين بعض القبائل البربرية[2].

لقد تواصلت الهجرة اليهودية إلى السواحل المغربية خلال فترات الإحتلال الروماني والوندالي والبزنطي، وأخذت هجرتهم أشكالاً مختلفة إجتماعية، سياسية، جماعية وفردية مهنية[3] ولم تقتصر على يهود المشرق، بل كانت أوروبا مصدرا لها عن طريق إسبانيا وخير مثال على ذلك هجرة يهود إسبانيا إلى بلاد المغرب، قبل الفتح الإسلامي حيث تعرضوا إلى النّهب والطّرد على خلفية أنهم إتصلوا بيهود المغرب وحرضوهم على غزو اسبانيا[4]، وعلى هذا الأساس صدرت عدة تشريعات قانونية ضدهم، كما أُكْرِهوا على التحول عن ديانتهم، لم تكن تلك التشريعات تَفرض بشكل ثابت. بل تُجدد خلال فترات محددة.

---

1 - M. Bachrach, Bernard Early Medieval Jewish Policy in Wenstern Europe, Miunea polis M.N. University of Miunesota Press 1977, p p 142 – 146.

2 - إبن خلدون، العبر، ج6، ص 109.

3 - إبن خلدون، السابق، ج4، ص 130.

- Archive Marocaine, vol 14, Paris 1908, p 1, et suiv.

- رشيد باقة، الأقليات الدينية في بلاد المغرب، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر، العدد 4، رمضان 1425هـ / أكتوبر 2004م، ص ص 120 – 134.

4 - من بين القبائل البربرية التي تقربت من اليهود ببلاد المغرب قبيلة جراوة، أوربة ومديونة.

- إبن خلدون، السابق، ج6، ص 114.

إن هذه الهجرات اليهودية إلى بلاد المغرب قد دعّمت الأقلية اليهودية السابقة وَوَفّرت أعدادا كبيرة وجدت قبولا من بعض القبائل البربرية التي رفضت الرضوخ إلى حكم الرّومان والوندال والبزنطيين الذين أرهقوهم بالضرائب وعزلوهم جغرافيا وأبعدوهم عن المدن الساحلية والسهول الخصبة.

ومن العوامل التي ساعدت على توفير بيئة مناسبة لليهود في بلاد المغرب خاصة بعد الفتح الإسلامي سنة (21هـ / 700م) الأساس التشريعي المسيحي المستمد من كون اليهود رَفضوا رسالة يَسوع. فلم يكن لهم أن يتوقعوا من المسيحيين تَسامُحًا أفضل وعليه فالتحفظ المسحي على اليهود باقٍ، وخضوع اليهود إليهم واجب[1] والعامل الثاني يتمثل في نظرة المسلمين إلى اليهود المبنية على التسامح وبالتالي فالإسلام وَفّر لهم الحماية وكَفَلَ لهم حُرية العبادة.

وبناءا على ما ذكر فإن اليهود قد استوطنوا بلاد المغرب وشكلوا أقلية لها مكانتها في المجتمع المغربي، ولها مجالات نشاط اقتصادي، ديني واجتماعي. كما أحرز بعض اليهود على مناصب مرموقة ومراكز مهمة في أجهزة الدّول التي تعاقبت على حُكْمِ بلاد المغرب.

1 - إنتشار اليهود في بلاد المغرب:

1 - 1- انتشارهم في المدن:

عُرفت الجماعات اليهودية منذ القديم باستقرارها وتكتلها على شكل تجمعات سكانية متحفظة من الإندماج بالسكان الأصليين للبلدان التي توزعوا فيها، إن اتخاذهم هذا النمط من التعايش راجع إلى المعاناة التي لاقوها سابقا، واتخاذهم المدن الساحلية أو الممتدة على طول

[1] P. J. Message, le christianisme en Afrique, Eglise, Magarabes, Alger 1915, p 10 - Levi-provençal, l'Espagne musulmane, vol 3, paris 1950, p 52. -

الطرق التجارية[1]، راجع إلى طبيعة النشاط الإقتصادي الذي يُرَكِّزون عليه والمتمثل في التجارة وما يرتبط بها.

وقد عَرفت مُدن بلاد المغرب كغيرها من المدن الأوروبية كإسبانيا، إيطاليا وفرنسا هذا الشكل من الوجود اليهودي في مدنها وقد عرفت تجمعاتهم السكنية بإسم الحارة وتعني الحي السكني وقد تأخذ أسماء أخرى[2]،فقد حاول بعض المهتمين تفسير ذلك فمنهم من ردها إلى شعورهم بالخوف من غيرهم. ومنهم من ردها إلى العامل الإجتماعي، وقد رجّح كَوّاتيَ في أطروحته العامل الإجتماعي وهو الاحتمال الأقوى حسب رأينا الخاص وأن السياق العام للوجود اليهودي في بلاد المغرب يُبَيِّنُ المعاملة الحسنة المستمدة من التسامح الديني الذي أبداه المجتمع المغربي إزاءهم[3].

وكثير من المدن وفّرت ظروفا حياتية لليهود الذين فتحوا بها مجالات اقتصادية حيوية بمساهمتهم النشيطة في جوانب الحياة اليومية للسكان، وقد انتشرت الأحياء السكنية اليَهودية في كل من مدينة فاس مراكش، سبتة، طنجة، سلجماسة وأغمات إيلات هيلانة[4] والأمر نفسه

---

[1] – طرق التجارة : هناك طرق تجارية تربط المدن المغربية بجهات عديدة غير أن الطريق الذي استمر استعماله منذ وقت مبكر من دخول المسلمين لبلاد المغرب إلى غاية ما بعد الموحدين هو الطريق التي تبدأ من بلاد الأندلس إلى طنجة عبر مضيق جبل طارق مخترقا المغرب الأقصى عن طريق سبتة و المغرب الأوسط عن طريق تلمسان و وهران وصولا المغرب الأدنى عن طريق طرابلس و برقة حتى يصل إلى مصر. ينظر: – إبن خرداذبة، كتاب المسالك والممالك، تح الحاج صادق، الجزائر 1969م، ص 105.

[2] – أسماء التجمعات السكنية اليهودية غير ثابتة فقد نجد حارة البصريين أو الكوفيين أو درب اليهود و حي اليهود و غير ذلك من الأسماء الدالة فقط على تجمعهم في الأحياء السكنية ينظر:

– إبن دقماق، الانتصار بواسطة عقد الأنصار، مركز الموسوعات العالمية، طبعة بولاق، بيروت 1983م، ص ص 12 – 13.

[3] – البكري،المغرب، ص 115.

– كواتي مسعود، اليهود في المغرب الإسلامي، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر 1990م، ص 17.

– المراكشي، المعجب، ص 143؛ – إبن زرع، روض القرطاس، ص 69.

[4] – كواتي مسعود، السابق، نفس الصفحة.

– إبن خلكان، وفيات الأعيان، تح إحسان عباس، ج5 ، بيروت 2000م، ص 590.

– الإدريسي، نزهة المشتاق، ص45.

بالنسبة لمدن المغربين الأوسط والأدنى التي حرص وُلاّتها على توفير الأمن لليهود، لذلك كثر عددهم وتطور وجودهم في تلمسان تاهرت، بونة، تونس، القيروان، المهدية وبجاية[1].

هذه المدن المنتشرة في بلاد المغرب التي استوطنها عدد كبير من خاصة اليهود كالأطباء المهرة وكبار التجار والعلماء المشتغلين بالتآليف اليهودية لا يعني بالضرورة انتفاءهم من المدن الأخرى. وإنما كان وجودهم حسب أهمية المدينة من وجهة النظر السياسية والإقتصادية[2].

فقد برزت شخصيات يهودية هامة في ميادين مختلفة ففي مدينة فاس ظهر المُعلم أبو الحسن يَهودا الذي اشتغل بالطب والتأليف[3] ومن أمثاله كثيرون فقد وصل الأمر إلى تكوين مركز للدراسات العبرية التي ترأسها يَهودا شويع الفاسي[4].

وإلى جانب السماح لهم بتنشيط حياتهم الثقافية فهناك نشاط تجاري تحكموا في بعض جوانبه بإحتكار إستيراد بعض السلع وتوزيعها[5] وكان لهذا التطور دور في تنمية الحياة الإجتماعية للسكان وخير مثال على ذلك ما عرفته مدينتا أغمات هيلانية وسلجماسة من تطور تجاري.

وبالمثل عرفت مدينة تونس نشاطا ملحوظا لليهود، فظهر فيها علماء كبار وتجار ميسورون وحرفيون مَهرة[6]، كما عرفت مدينة بجاية

---

1 - الحميري، الروض المعطار، ص 433.

- Gautier : Le passé de l'Afrique du nord, Payot, Paris 1952, p 26.

- عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، ج1، ص 212.

2 - وَات منتجومري، فضل الاسلام على الحضارة الغربية، ترجمة حسين أحمد أحمد، ط1، دار الشروق 1983م، ص 121.

3 - Gautier, op.cit, 29.

4 - أشباخ (يوسف)، تاريخ الأندلس، ترجمة محمد عبد الله عنان، ج2، القاهرة، ص 256.

5 - الأمير عبد الله بن بلقين، التبيان، نشر و تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة 1955م، ص 32.

6 - مجهول، الذّخيرة السنية، ص 100.

إستيطان جالية يهودية احتكرت تجارة العبيد الأبيض وجلب الصقالبة[1]، وتلمسان التي كانت تضم عددا من اليهود يَمْلكون العقار العُمراني والفلاحي ، ويمارسون التجارة ويحترفون صِياغة الذهب والفضة ولذلك فهم من الأغنياء الميسورين، وانعكس ذلك بوضوح في مساكنهم ولباسهم والضواحي التي أقاموا فيها[2].

1 - 2 - انتشارهم في الريف:

بالرغم من إقامة أغلبية اليهود بالمدن كما أشرنا، وتميزهم بنمط حياتي خاص بهم متخذين من التجارة والصناعة الحرفية مصدرا لعيشهم، فإن المصادر الفقهية وكتب النوازل أشارت بوضوح إلى وجود نزاعات وتجاوزات حصلت بين اليهود أنفسهم وبين اليهود والمسلمين الأمر الذي استدعى تدخل القضاة لحل النزاع الحاصل بينهم وخاصة بالنسبة لليهود المالكين لأراضي زراعية بعيدة عن المدينة مثل البساتين، والحقول[3] ويتضح ذلك جليا في أرياف منطقة فازاز، والريف المغربي وجنوب جبل أوراس، وزويلة، حيث كان إندماج اليهود بالسكان أعمق لعدم وجود الأحياء السّكنية أو الضواحي[4]، الأمر الذي يفرض عليهم التعامل ومن ثمّ قد تحدث نزاعات بينهم وبين المسلمين.

---

[1] - الصقالبة: بلاد الصقالبة متصلة من البر الشمالي (إلى البحر المحيط) تخرجت أجناسهم و ملك كل قسم منهم ملك و ملوكهم أربعة. ملك الصّقالبة البلغاريين ويوصلا وفراغة، وبَهْدا وكانوا يمتازون بالتجارة وقد اكتسب اللفظ مدلولا خاصا في أسبانيا المسلحة فصار يطلق على أسرى الحرب الذين يقعون في أيدي الجرمان ويباعون للمسلمين في اسبانيا وبلاد المغرب كما كانوا يستخدمون في الحدية أو يوجهون إلى الخدمة في القصور: لطفي عبد البديع، الإسلام في اسبانيا، ص 236.

- أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الاسلامي، ج4، القاهرة 1984م، ص 30.

- مصطفى أبو ضيف أحمد، أثر العرب في تاريخ المغرب، الدار البيضاء 1983م، ص 46.

[2] - الإدريسي، وصف افريقية، ص 86.

- الحسن الوزاني، وصف افريقية، ج2، ص 125.

[3] - الونشريسي، المعيار المغرب، ج4، أخرجه جماعة من الفقهاء، إشراف الدكتور محمد حجي، بيروت 1981م، ص 428.

- التاذلي، التشوف، الرباط 1958م، ص 123.

[4] - حاييم الزعفراني، ألف سنة من حياة اليهود في المغرب، تاريخ، ثقافة، دين، ترجمة أحمد شحلان عبد الغني أبو العزم، الدار البيضاء 1987م، ص 20.

2 - نظام التعليم عند اليهود:

إن البيئة الإجتماعية التي كان اليهود يعيشون فيها ببلاد المغرب ساعدهم على توفير الظروف المناسبة لتعليم أبنائهم، فقد عرف اليهود منذ القديم بمحاولاتهم المستمرة لتحقيق الذات اليهودية في المجتمع الإسلامي للحفاظ على خصائصهم الفكرية المميزة والمستمدة من كتبهم الدينية.

لقد امتاز اليهود في العصر الوسيط بوحدة خارقة في ميدان الأفكار والمعتقدات والعادات الثقافية في كل ما يتعلق بحياتهم عامة[1] وحاولوا جادين تعليم أبنائهم الديانة اليهودية زيادة على تعليمهم الديانة الإسلامية وما تقرره الدول التي يَسْتَوْطِنُونَها.

ويبدوا أن التعليم كان موجها بصورة خاصة للبنين، أما البنات فيتعلمن التدبير المترلي في وسط الأسرة زيادة على مبادئ التربية التقليدية اليهودية على معلمين فاقدين البصر (مكفوفين) أو على يد متخصصات من النساء، وعلى ما يبدو فإن عدد البنات اللاّئي يتعلمن قليل مقارنة بعدد البنين[2].

أما فيما يخص طرق التعليم فيمكن أن نلتمس بعض خصائصها من خلال ما أورده ابن أبي البقاء المعروف باسم السّمُؤل يحيى بن عباس المغربي (ت. في القرن السادس الهجري – الثاني عشر الميلادي) عن تعليمه فيقول:" وشغلني أبي بالكتابة بالعبري ثم بعلوم التوراة وتفسيرها حتى إذا تحكّمت في علم ذلك عند كمال السنة الثالثة عشرة من مولدي شغلني حينئذ بتعليم الحساب الهندي وحلّ الزيجات عند الشيخ الأستاذ العالم أبي الحسن الدّسكري. وقرأت علم الطب على

---

1 - Haim Zafrani, Pédagogie juive en terre d'Islam, l'enseignement traditionnel de l'Hébreu et du judaïsme au Maroc, Paris librairie d'Amérique et d'orient-Andrieu Maïsonneuvre, 1969, p p 13 – 18.

2 - (S.D.) Goitein, Studies in Islamic History and Institution: chap 15, the unity of the Mediterranean, world in the Middle age, p p 281 - 283. -

الفيلسوف أبي البركات هبة الله ابن علي (ت. 614هـ / 1219م) وقرأت علاج الأمراض ومشاهدة ما ينفع من الأعمال الصنهاجية في الطب والعلاجات[1].

وفيما يتعلق بالمدارس التعليمية، فإن المعلومات حولها شحيحة وبالإعتماد على الاستقراء والتحليل والمقارنة يمكن التعرف عليها بصورة تقريبية فهي موجودة في أماكن خاصة في بيع اليهود، وقد تكون هذه الأماكن خارج بيع اليهود كالكتاتيب، زيادة على بيوت العائلات اليهودية الميسورة[2].

أما عن المعاهد العليا للتعليم اليهودي فالمعلومات عنها قليلة أيضا ماعدا المعلومات الواردة عن المدرسة التي أنشأها حَسْداي إبن شروط بمدينة قرطبة حيث قصدها اليهود العلماء من كل جهة، وبعدها أنشأ اليهود مدرسة أخرى للدراسات اليهودية في القيروان سنة (530هـ / 1139م) والتي جمعت أعدادا كبيرة من العلماء والدارسين اليهود[3] وهناك مدرسة أخرى أُسِّست على يد العالم اليهودي يَهُودا تسويح الفاسي خلال عهد الأمير علي بن يوسف بن تاشفين[4] وعرفت مدن أخرى نشاطا مماثلا وإن لم يظهر بالشكل الذي ظهر في فاس، وعرف نظامهم التعليمي أربعة مراحل بحيث تهدف المرحلة الأولى إلى تحضير الطفل لإقامة الواجبات الدينية مثل حسن القراءة في الكتاب المقدس، وتلاوة الأدعية اليهودية أما المواد الأخرى كدراسة بعض النصوص غير المرتبطة بالواجبات المقدسة والحساب واللغة العربية فهي تُدرس في مستويات أعلى[5].

تحتوي المرحلة الأعلى على دراسة منتظمة لنصوص من التوراة. والقوانين الشرعية التي وضعها أحبار اليهود المستمدة من الكتاب المقدس،

---

1 - Haim Zafrani, pédagogie juif en terre d'islam, p p 23 - 25 .

2 - السّموأل المغربي، الباهر في الجبر، ص 24.

3 - Haim zafrani, op.cit, p p 16 - 17

4 - Ibid, p 803.

5 - (S.D.) Goitein, Studies in Islamic History, p 117 .

وهذه المواد يجب أن تكون مكملة للمرحلة الأولى[1] وتؤدي بالطفل إلى تطوير معَارِفه الدِّينية وتقويتها وتحفظه من الإنحراف عن ديانة السلف.

بعد هذا تأتي مرحلة دراسة التلمود وهي أعلى مرحلة في التعليم عند اليهود وتخصُ ذوي ثقافة يهودية أعلى، وتتمثل في إدخال الدراسة المنهجية للغة العبرية، في حين تؤجِّل دراسة الطب والفلسفة والعلوم التجريبية لتقتصر فقط على نخبة معينة[2]. وهكذا فالتعليم اليهودي يجعل الديانة اليهودية أساسا متينا لكلّ المراحل، وكانت الجماعات اليهودية تخصص دروسا للكبار وتعتبر حضورها واجبا على كل يهودي وتسهيلا لذلك كانت تقدم في الليل وأيام العطل وفي الأعياد الدينية اليهودية.

وتعدَّى اهتمام اليهود بالتعليم التربوي إلى التعليم المهني في ميادين الصناعة التقليدية أو التجارة، وليس لهذا النوع من التعليم أحكام محددة فالآباء يعلّمون أبناءهم الحرف والصّناعات ويُعرف هؤلاء الأطفال بالصبيان ومن واجباتهم تأدية صلواتهم لأنهم راشدون[3].

وامتاز اليهود بإخفاء ما كسبوه بعرق جبينهم من المال حتى صاروا يتبوّءون مكانة مرموقة وسكنوا قصورا كقصور الأمراء".

3 - مسألة تميز اليهود:

لقد تضخمت ثروات اليهود وقوي نفوذهم الإجتماعي الأمر الذي مكّنهم ووفّر لهم حظًّا عند السلطان الحاكم في بلاد المغرب على مستوى المدن الساحلية الكبيرة.

---

[1] - الصبيان: يعني الأطفال الصغار، وقد استعمل العلماء المغاربة هذا المصطلح ووضعوا التأليف حول طب الأطفال وتعليمه.
- السّمول المغربي، الباهر في الجبر، ص 26.
- إبن الجزار القيرواني، سياسة الصبيان وتدبيرهم، تح وتقديم محمد الحبيب، الهيلة، تونس، الدار التونسية للنشر 1968م، ص 121.

[2] - محمد بن سحنون، كتاب آداب المعلمين، تحقيق و تقديم محمود عبد المولى، الجزائر، س.و.ت.ت. 1981م، ص 239.
- Ibid, p p 17 – 18.

[3] - أنور الرفاعي، الإسلام في حضارته ونظمه الإدارية، السياسية، العلمية والاجتماعية،ط2، دار الفكر، دمشق 1982م، ص 606.
- إبن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ج1، القاهرة 1955م.

وتبعا لذلك ازداد عدد اليهود الذين يعملون في مراكش، فاس سجلماسة، المهدية تونس وتلمسان وغيرها، ونظرا لأنشطتهم التي حامت حولها الشكوك والظنون[1]، وكذلك مواقفهم البَاهتة إزاء القضايا الكبرى للدّولة الإسلامية. ارتفعت أصوات بعض الفقهاء في عدة مدن وخاصة مراكش لتعبّر عن تذمر الناس من سياسة الحكام المرابطين إزاء اليهود وأعابوا عليهم ترك اليهود يتشبهون بلباس المسلمين لأنهم صاروا لا يميزون بينهم وبين المسلمين[2].

ورأى بعض العلماء أن الضرورة الإجتماعية تبيح فرض تمييزهم عن المسلمين وإلزامهم بالغيار، ويقول الفقيه ابن سرحان "... فالواجب على حاكم المسلمين أن يلزمهم التمييز عن المسلمين في اللباس وأن يمنعهم من فاخر الثياب" [3].

ولا شك أن التعامل غير المألوف، الذي يتنافى مع الشرع الإسلامي لاَ يصدر من الأسباب سالفة الذكر فحسب بل يتعداه إلى قضايا أبعد أثرًا، وأشد ضررًا على حياة المسلمين.

لم يكن أمام أمير المسلمين علي بن يوسف اللمتوني (500هـ - 537هـ / 1105م - 1142م) إلا الإمتثال لرأي الفقهاء، وأمر اليهود الذين يعملون داخل قصره أو داخل مراكش بالخروج من المدينة ومنعهم من المبيت بها، فسكن مُعْظَمُهُم أغمات هيلانة حيث عمّروا بساتينها وسكنوا أحياءها حتّى اختصوا بها لاحقا[4].

---

[1] -عبد الواحد المراكشي، تاريخ الدولتين الموحدية و الحفصية، ص 134؛- عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، ج1، ص197.

[2] - الأمير عبد الله، التبيان، ص ص 66 - 68.

- عصمت دندش، " أضواء في معاملة المرابطين لليهود "، مقال في مجلة الأكاديمية، العدد 18، المغرب 2001، ص ص158 - 160.

[3] - حركات إبراهيم، الحياة الاقتصادية في العصر المريني، ص 216؛ - كواتي مسعود، اليهود في المغرب، ص 118.

[4] - عبد الواحد المراكشي، تاريخ الدولتين ، ص 430.

- كواتي مسعود، المصدر السابق، ص 116.

- عبد العزيز فيلالي ، تلمسان في العهد الزياني، ج1، ص 197.

واشتد احتراز المسلمين من أنشطة اليهود وتحركاتهم، بالموازاة مع تحفظ الحكام عن أنشطتهم وخدماتهم، زيادة على أخذ قِسْطٍ من أموالهم في شكل ضرائب ومُكُوس على مُعاملاتهم غير الشرعية في ميدان التجارة والصيرفة وتَغْرِيمِهِم على غشهم في بعض الحرف الصناعية كالصّياغة والحدادة.

وزاد المنصور الموحدي (580هـ - 595هـ / 1184م - 1198م) من درجة المراقبة وتضييق الحريات عليهم فأمرهم بلبس ثياب كحيلة بأكمام مُفرطة في الاتساع، وقلدهم قلنسوة تبلغ إلى تحت آذانهم[1] وعلل الخليفة الموحدي يعقوب المنصور هذا الإجراء بنفاق اليهود بعدما حيرهم الخليفة الموحدي الأول عبد المؤمن بن علي (524هـ - 558هـ) حيث قال:" لو صح عندي إسلامهم لتركتهم يختلطون بالمسلمين في أنْكِحتهم وسائر أمورهم، ولو صح عندي كفرهم لقتلت رِجالَهم وسبيت نساءهم ودراريهم، و جعلت أموالهم فيئا للمسلمين"[2].

وتشير المصادر التاريخية إلى أن اليهود الذين بقوا في المدن الغربية خلال العهد الموحدي كانوا يظهرون الإسلام ويُصَلّون في المساجد[3]، ويدفعون بأولادهم ليتعلموا القرآن الكريم ويحفظون بعضا من سوره أو أجزائه، وذلك مثلما يتعلم أبناء المسلمين تماما[4].

---

[1] - كواتي مسعود، اليهود في المغرب، ص 114.

[2] - Mortier, Histoire générale des religions, librairie Aristide quillet, 1945, T_3, p 81.
- إبن عذاري، البيان المغرب، ج4، ص 140.
- المراكشي، المعجب، ص 203.

[3] - Louis Gardet, la cité Musulmane, vie sociale et politique, Paris, Vress, p p 64-72.

[4] - المراكشي، السابق، ص 149.
- عبد الله علي علام، دولة الموحدية بالمغرب، ص 209.

إن هذا التحول الاجتماعي والسياسي الذي مسَّ اليهود مباشرة وهزّ مجتمع الموحدين بما تركه على الصعيد المحلي والعالمي آنذاك من صدى صَنَعه الإعلام المعادي للإسلام، وغدته بساطة الفكر الإسلامي لا سند له في القرآن ولا السُّنة المطهرة، لأن الإسلام قائم على العدل والإحسان وحسن المعاملة ومكارم الأخلاق.

ومادام الأمرُ هكذا فلماذا اتخذ حكام المرابطين والموحدين هذا القرار؟ ولماذا أمرَ الحكام بتنفيذه رَغم غياب السند الشرعي ومن تم إعطاء المبرر لمن يتعصب ضد الإسلام والمسلمين ويَتّهم المسلمين بمصادرة الحريات، وهضم حقوق الإنسان، مبرزين حالة فرض زي واحد من اللباس على اليهود من قبل أبي يعقوب المنصور الموحدي.

يظهر من خلال السياق العام أن اليهود حاولوا أن يظهروا بمظهر الحياد في هذه الفترة إلا أن طبْعَهم وسُلكوهم الذي أنتجه نظام حياة الأقلية المنغلقة على نفسها جعل مَبَادئَهم مرتبطة بمصالحهم واستمرار وُجودهم، فعندما تغير ميزان القوة مَالُوا وأيدوا ونَسوا كل تسامح ورعاية.

فعندما أراد إبن همشك[1] الهجوم على مدينة غرناطة، كان اليهود عونا جاهزا له حيث فتحوا له أبواب المدينة ليلا ودخلها لَيْعْبثَ بالموحدين حيث قتل منهم عددا كبيرًا، واشتد في تعذيب المحاصرين[2] بمساعدة اليهود الذين تناسُوا العشرة الطويلة وراحوا ينقلبون فجأة ويهرعون إلى شد أزر الخصوم وأعداء المسلمين والجدير بالإشارة إن الأندلس كانت إلى حد هذه

---

[1] - إبن همشك: هو صهر لابن بردنيش و حليفا له في منطقة جيان قبل أن يستولي عليها الموحدون و بعد هذا مال إلى طاعة الموحدين و أعلن إسلامه ثم عاد وأرتد وهَاجَمَ مدينة غرناطة

- مجهول، رسائل موحدية، مجموعة جديدة، تح ودراسة أحمد عزاوي، ج1، ط1، منشورات كلية الآداب، القنيطرة، المغرب 1995م.

[2] - القفطي، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، القاهرة، (1326هـ)، ص 209. - إبن أبي زرع، ج2، ص 160.

- إبن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص ص 115 – 120؛ - عبد الله علي علام، السابق، ص 240، هـ 1.

- عبد الله عنان، عهد المرابطين و الموحدين، القسم الأول، ص ص 108 – 112.

الأحداث وما بعدها تابعة لدولة إسلامية واحدة عاصمتها مراكش فلا غرابة أن ينعكس ذلك على سكان بلاد المغرب كافة، وعمّ التذمُّر سكان بلاد المغرب حاكمين ومحكومين ودفع السلاطين إلى اتخاذ قرارات سياسية وتنظيمية تحفظ لهم بلادهم وكان أول إجراء اتخذوه هو إخراج اليهود من المدن المغربية وإجبارهم على مغادرة البلاد أو الانقياد التام لقوانين الدولة وهذا أمر بسيط وإجراء تمليه ظروف المسلمين على المستوى المحلي أو الخارجي.

إن لطبيعة العلاقات مدلولات هامة بالنسبة لفهم وضعية اليهود في بلاد المغرب، ففي الوقت الذي كانت فيه سياسة الدول الحاكمة قبل عهدي المرابطين و الموحدين تبنى على أساس تكييف علاقاتها مع الدول الإسلامية والمسيحية، وهنا وجدت الأقليات اليهودية والنصرانية في العالم الإسلامي مجالا أوسع. لكن في الوقت الذي تغيرت فيه الأوضاع وبنت الدول الإسلامية نظام حكمها على مبادئ الجهاد في حين بنت الدولة النصرانية سياستها على أساس ديني يمليه الواجب المقدس في استرداد أرضه، فإن العلاقات بين المسلمين واليهود أخذت مدلولاً آخر، وهذا ما استعد له اليهود من قبل و عجز المسلمون عن فهمه إلى غاية حصوله[1].

أما على المستوى الإجتماعي فقد ازداد حقد الناس على تصرفات اليهود عامة وخاصة على سُلوكياتهم التي تُوحي بنوع من الإستعلاء والنزوع نحو التميز بإظهار تفوقهم الحضاري الذي لم يستفد المسلمون منه. وأفضى الأمر بعامة الناس إلى التوجه نحو الفقهاء وعلماء

---

1 - فعلى مستوى المشرق الإسلامي أصدر صلاح الدين الأيوبي أوامره بمنع الأهالي و التجار المسلمين من التعامل مع البلاد المسيحية خاصة في المواد التي لها علاقة بالحرب. وجاء في مرسومه:"... و من مرسومنا للمعشر الكريم أن يتقدم أمره العالي بأن لا يمكن أحد من نقل سلاح ولا عدة إلى جهة البلاد الرومية، والاحتراز من ذلك كل الاحتراز..." ينظر:
- القلقشندي، صبح الأعشى، ج7، القاهرة 1913م – 1919م، ص 205.
- أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين النورية و الصلاحية،ج2، القاهرة 1287هـ ، ص 124.
- Grousser,histoire des croisades et du royaume, franc du Jérusalem, Paris 1926, p 686.

المسلمين للاستنجاد بهم واستفتاؤهم في طرد اليهود الذين غدروا بالمسلمين وتجسّسُوا عليهم[1]. وبهذا الموقف الاجتماعي يكون العامل الثاني الذي حركته حادثة إخراج وطَرْدْ اليهود من المدن المغربية قد توفّر.

وعندما تحرك الفقهاء و العلماء بفتاويهم وانضمامهم إلى صفوف عامة الناس و أبانوا وجهة نظر الدين في مسألة غدر وخيانة أهل الذمة الرامية إلى الضرر بالمسلمين وبهذا يكونوا قد أخلوا ببنود العقد الذي أقره الشرع الإسلامي منذ العهدة العمرية[2].

لم يبق أمام الحكام المسلمين إلا التجاوب مع هذا المطلب الحاسم فكان التحول في التعامل مع أهل الذمة عامة واليهود خاصة وضُيّق عليهم في جميع المجالات المهنية والإدارية، ومن منطلق خصوصيات فكر الأقلية ووضع اليهود الذي يفتقر إلى كيان سياسي لم يجد اليهود أمامهم إلا التعامل مع الوضع الجديد فهاجر من هاجر إلى جهات مختلفة من العالم وبقي من بقي منهم ملتزما بنظام الدولة الموحدية، ولو من الناحية الشكلية[3].

وجاءت مسألة تميز اليهود بلباس خاص في بلاد المغرب في فترة تاريخية من أشد الفترات ضيقا على المسلمين، إذ ثَار النصارى على

---

[1] ثورة المسلمين أثناء كشف الأمير بلقين تآمر اليهود وخطرهم، حيث سارع اليهودي يوسف بن الثعربلة إلى قتله سما وذلك سنة (459هـ / 1064م)، فثار المسلمون ودخلوا قصر الثعربلة ووقعت مذبحة كبيرة قتل فيها اليهود من غير شفقة.
أفاض الأمير عبد الله بن بلقين في التحدث عن تأثر إبن الثعربلة و ولده يوسف.
- الأمير عبد الله، التبيان، ص ص 73 – 92.
- عصمت دندش، " أضواء في معاملة المرابطين لليهود"، مجلة الأكاديمية، العدد 18، المغرب 2001م، ص ص 156 – 157.

[2] - الونشريسي، المعيار، ج2، ص ص 254 – 259.

[3] - الزي الذي فرضه الموحدون على اليهود سنة (595هـ / 1198م) بأمر من يعقوب المنصور الموحدي و دعت إليه رسالة الكرسيفي في آداب الحسبة يتألف الزي من قميص وبرنس وقلنسوة.
- الكرسيفي، رسالة في آداب الحسبة والمحتسب، ص 175.
- إبن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص 228.
- عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص 434.
- الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية و الحفصية، ط1، تونس (1289هـ / 1872م)، ص 11.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المسلمين في كل مكان، فقد تفككت دولة السّلاجقة بعد وفاة السلطات ملكشاه (485هـ / 1092م)، وظهرت عدة كيانات سياسية في آسيا الصغرى[1].

وفي الشام نجح الصليبيون في حملتهم الأولى وأسسوا إمارة صليبية في الرها، أنطاكيا وطرابلس فضلا عن مملكة بيت المقدس[2]، الأمر الذي أدى إلى إحياء حركة الجهاد في صفوف المسلمين وتكونت جماعات المسلمين الجهادية المرابطة في الثغور.

وشهدت بلاد الأندلس في نفس المدة اضطرابا حرّك الأوضاع كلّها على إثر استيلاء ملك قشتالة ألفونسو السادس على مدينة طليطلة في صفر (478هـ / 1085م)[3]، ولم تجد بلاد المغرب مفرا أو مخرجا من الدخول في مجريات الأحداث المطبوعة بالمعتقد الدّيني، فقد تحرك أمير المرابطين يوسف بن تاشفين لدعم المسلمين هناك وكانت معركة الزلاقة المشهورة في العام الموالي أي سنة (479هـ / 1086م) والتي انتصر فيها المسلمون[4].

لقد كانت هذه المرحلة التاريخية من الصراع بين المسلمين والنصارى ختام مرحلة التفوق السياسي والعسكري التي تميزت به الدولة في الأندلس وفي المقابل بدأت مرحلة التّفوق الإسباني النصراني بتطوير وتوسيع حركة الاسترداد المسيحي.

وباجتماع العوامل السابقة الخاصة بطبيعة اليهود من جهة والمرتبطة بالمحيط العالمي الذي ظهر فيه التحول السياسي والعسكري

---

1 - سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق و الغرب في العصور الوسطى، دار النهضة، بيروت 1676م، ص 29.

2 - عقب استيلاء الصليبيين على بيت المقدس، نادي المطران دايمبرت، بأن هذه المدينة إنما هي من نصيب البابوية ودخل في نزاع مع بلدوين الأول مؤسس مملكة بيت المقدس الصليبية.

- أحمد مختار العبادى، في تاريخ المغرب و الأندلس، بيروت 1978م، ص ص 306 – 307.

3 - Grousset, op.cit, pais 1926, vol 12.

- R.Dozy, Histoire des musulmans d'Espagne, vol 13, aris 1951, p p 203 – 206.

4 - عبد الواحد المراكشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص ص 133 – 135.

- السلاوي الإستقصا، ج2، ص ص 37 – 46.

مسايرًا لمَصالح المسيحيين الذين أبْدُوا رُوحَ الإنتقام من المسلمين من جهة ثانية. كل ذلك أدى إلى اتخاذ مواقف رسمية وشعبية ضد اليهود والنصارى في بلاد المغرب خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين.

*** النصارى:**

يتفق جُلُّ المؤرخين أن أعدادا كبيرة من الروم بقيت في بلاد المغرب منحازةً ومستقلة عن البربر منذ انهيار قرطاجنة أمام روما. وبقي هؤلاء إلى جانب السكان الأصليين يتعاونون في تحقيق المصالح المشتركة والإستجابة إلى مُقتضيات الجوار[1].

وقد تدعم الوجود الروماني بدخول الوندال إلى المغرب عن طريق إسبانيا خلال القرن الخامس الميلادي، على إثر الحملة العسكرية الشرسة التي تعرض لها إلاّ أنّ بعضا من أفراده لجئوا إلى المدن الدّاخلية واختلطوا بالقبائل البربرية.

والرافد الآخر للروم ببلاد المغرب هو ناتج من المجموعات الرومية التي تَخَلّفت ببلاد المغرب بعد إنسحاب الروم أمام العرب الفاتحين، وقد اعتنق بعضهم الإسلام حفاظا على أموالهم وأرواحهم وهذا ما يؤكده صاحب الإستبصار عندما يقول: "إنّ بعضًا من أهل قَسْطِيلية وبلاد الجريد من بقايا الروم"[2].

هذا وقد يقع الباحث في حيرة أمام المصطلحات المعبّرة عن هؤلاء الروم ومن جاء بعدهم بأشكال مختلفة. ولذلك فالإحتراز والدقة مطلوبان عندما نتعامل مع تلك المسميات حيث يطلق

---

1 - Dufourcq, Les relations du Maroc et de la Castille pendant la première moitié du 13ème siècles, 1986, p 44.

2 - مجهول، الاستبصار، ص ص 155 – 156.

إسم الروم على نصارى الأندلس في إسبانيا المسيحية وأوروبا بكاملها بغض النظر عن محل إقامتهم أو أنشطتهم وحتى العبيد منهم حسب رأي البيدق[1].

في حين يخصّ ابن الأثير مسيحي أوروبا الشرقية باسم "الروم" ويطلق اسم "الفرنج"[2] على باقي سكان أوروبا، فهو عندما يتحدث عن الرقيق الأبيض في الجيش المغربي يقول:"ممالك الروم وممالك الفرنج"، إن جُلّ المسيحيين الذين دخلوا بلاد المغرب هم من غرب أوروبا أي الفرنج، ومع ذلك فإن المؤرخين يطلقون عليهم اسم النصارى[3]، ومعلوم أنّ النصارى لم ينتشروا إلاّ في المدن السّاحلية والسّهول المحاذية لها وظل البربر على حالتهم الأولى يعبدون الأوثان والأصنام[4] ويصف ذلك الرقيق القيرواني :" ورحل حسان بن النعمان إليها أي الكاهنة فلقيه من النصارى في طريقه ثلاثمائة رجل يستغيثون به من الكاهنة لمَا نزل بهم من خراب..."[5].

وهكذا يمكن القول أن هناك أقليات نصرانية صغيرة ومتفرقة بقيت في بعض جهات المغرب بعد الفتح الإسلامي زيادة عن بعض المجموعات النصرانية التحقت بهم بعد فتح الأندلس[6] واستقرت في تامسنا وأحواز مدينة فاس[7] وبعض المناطق الجبلية ورغم محاولات

---

1 - أحمار المهدي بن تومرت، ص ص 96 - 124.
- المراكشي، المعجب، ص ص 269 - 223.

2 - إبن الأثير، الكامل في التاريخ، ج11، ص 145.
- لكن إبن الخطيب يرى أن الكلمة أطلقت على أهل بيزانس من العجم "Franc" ثم عُممت على كافة الأوروبيين القاطنين في بلاد الفرنج ثم تحولت إبان الكسم الإسلامي في الأندلس فاقتصر على المسيحيين الإسبان من سلاحقة وصقالبة ومحوس، ويظهر أن كلمة الروم لا تختلف في مصطلحهم عن كلمة الفرنج. ينظر:
- أعمال الأعلام، ج2، ص 23.

3 - إبن خلدون، العبر، ج6، ص 23.

4 - حسن محمود، الإسلام والثقافة العربية في أفريقية، ص 142.

5 - تاريخ أفريقية والمغرب، تح. وتقديم المنجي الكعبي، تونس 1968م، ص 61.

6 - Godard : Description et Histoire du Maroc, T1, Paris 1860, p 303.

7 - إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص 20.

الفاتحين المسلمين لإجبارهم على دخول الإسلام فإن مجموعات من النصارى ظلت موجودة ومن بينها تلك التي بقيت بتلمسان حسب ما يشير إليه البكري[1]. ورغم انتشار النصارى المحدود في المدن الساحلية ومراكز التجمعات السكانية الكبرى فإنهم لم يُكوّنوا فئات إجتماعية ضاغطة كما فعل اليهود، وإن كانت مدن المغرب كفاس مكناسة، مراكش، أغمات، تونس، تلمسان وبونة قد عرفت مجموعات سكانية نصرانية متميزة باحترافها الصناعات وبعض الأعمال الإدارية[2].

وقد تغيرت المعطيات السّكانية للنصارى ببلاد المغرب بشكل لافت للنظر أثناء قيام الدولة المرابطية، حيث بدأ عدد النصارى ينمو ويتغير بتزايد مُطّرد عن طريق الأسرى والتجارة في الرقيق الأبيض خاصة[3]، ويؤكد هذا الرأي إبن عذاري بقوله :"إن عليًّا بن يوسف بن تاشفين هو أول من أدخل الروم إلى المغرب"[4] وقد فتح أبوه يوسف بن تاشفين مجال إندماج النصارى عندما تزوّج بجارية رومية تسمى رياض الحُسن[5]. وكذلك فعل ابنه إذ تزوج بجارية رومية تدعى قصر[6]. وهكذا ازداد عدد النصارى في المدن المغربية لتوفر بيئة اجتماعية متسامحة، ونظام حُكْمٍ مُتفتح على غير المسلمين[7].

1 - الوضع الإجتماعي للنصارى:

إستوطن النصارى بلاد المغرب منذ وقت طويل، وازداد عدد أُسَرِهم، وتوسع انتشارهم في الحواضر الكبرى. وخاصة الساحلية منها.

---

1 - المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص 76.

2 - Dufourcq, les relations du Maroc et de la Castille, p p 45 – 47.

3 - Godard, op. cit, p 301.

4 - إبن عذاري، البيان المغرب، قسم المرابطين والموحدين، ص 102.

5 - مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تح. علّوش، الرباط 1936م، ص 84.

6 - إبن عذاري، السابق، ج3، ص 97.

7 - Bel-Alfred, la religion Musulmane en Berbéris, espuisse d'Histoire et de sociologie religieuse, Paris 1938, p p 20 – 25

وإحتل بعضهم مكانة هامة في المجتمع المغربي، وشاركوا في الأنشطة الإجتماعية التي يرغبون في ممارستها وأسندت إليهم الوظائف الهامة.

وأدمجوا في المجال الإداري، فقد كانت مجموعة منهم تشرف على جباية الضرائب[1] والبعض الآخر يُمارس النشاط التجاري، وفتح بعض الأطباء النصرانية عياداتهم. مما يُعَزّز هذا الرأي، تلك الرسالة التي بعث بها الأمير تاشفين بن علي إلى الولاّة يُلفت فيها إنتباههم إلى ضرورة مراقبة بعض أنشطة النصارى ومنعهم من التصرُّف في أمور المسلمين أثناء الإضطرابات التي عرفتها مدن بلاد المغرب الأقصى على إثر الحملات العسكرية التي قام بها الموحدون سنة (538هـ / 1143م)[2].

ومن الشواهد الدّالة على مكانتهم التي وفرّتها لهم السلطة المغربية، تخصص مقابر للنصارى إحتراما لهم وحفاظًا على تقاليدهم في دفن موتاهم (مقابر الذّميين).

وضمانا لحقوقهم المدنية سُمح لهم بتنظيم صفوفهم وتشكيل تنظيمات إجتماعية إذ كان للكنائس أُمنَاؤُها وقَسّيسوها. فقد وردت إشارة نُسبت إلى الإمام سحنون (ت. 240هـ / 949م)[3] أنه أرسل في طلب ممثل عن رهبان كنيسة القيروان بعد حوادث وقعت في المدينة فأتاه راهب ليتحاور ويناقش بعض المسائل المرتبطة بالمسيحيين في المدينة.

---

1 - إبن الحاج (النّميري)، فيض العباب، تحقيق بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، 1987م، ص ص 140 - 153.

2 - حدّد الأمير تاشفين بن علي، من تصرف النصارى في أمور الدين، واعتبر ذلك مفسدة، وعليه أوجب منعهم من ذلك. ينظر:
- حسين مؤنس، نصوص سياسية، ص 43.

3 - المالكي، رياض النفوس، ج1، ص 55.

لقد إستمر إحترام النصارى طيلة وجودهم في بلاد المغرب فهذا الشيخ البرزلي قد أوْرَد رِواية تدل على إحتفاظ النصارى بنفوذهم حتى بداية القرن السادس الهجري. إذ يقول:" لقد عمد التجار النصارى في تونس إلى تجديد بناء كنيسة بجوار إحدى فنادقهم. وبنوا عليها مَنارة بدعوى أنها تزيد في إضاءة ساحة الكنيسة والفندق من غير الحصول على كتاب العهد[1]. لا ذِكر لهذه المنارة في عقد الكنيسة"[2].

ومع هذا فمن الموضوعية الإشارة إلى أن النّصارى في بلاد المغرب تعرضوا إلى شيء من الشدة والعزلة جاءت بعد فتاوى بعض الفقهاء تمنعهم من تعاطي الخمر، واقتنائها ونصحوا المسلمين بتجنب ذبائح النصارى والكَفّ عن الإتجار معهم والسبب في ذلك يعود إلى التعامل بالرِبَا خاصة في ميدان الصرف[3].

وبالرغم من سعة الحياة الإجتماعية و التلطف مع النصارى إلا أنّ هؤلاء لم يعاملوا المسلمين بالحسنى ورَدّ الجميل، فكانت أعين النصارى ترقب التّطورات السياسية على مستوى بلاد المغرب والأندلس وقد كشفت الحوادث أن نصارى المغرب كانوا ينتظرون الفرصة المناسبة لمناصرة إخوانهم في الأندلس على حساب المسلمين ببلاد المغرب فبمجرد ظهور إمكانية تَفَوّق المسيحيين النصرانيين في إسبانيا الشمالية بادروا إلى خيانة المسلمين وذلك خلال مرحلة سقوط الدولة المرابطية فقد عمد النصارى المعاهدون إلى دعم المَلِك الأراجُوني: "ألفونسو الأول" الملقب بالمحارب

---

1 - البرزلي، جامع مسائل الأحكام، مما نزل بالمفتين والحكام، مخطوط رقم 4891، دار الكتب الوطنية تونس، ص 20ب.

2 - إبن الطواح، سلك المقال لفك العقال، تحقيق ودراسة محمد مسعود جبران، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1995م، ص 112.

3 - إبن رشد، نوازل إبن رشد، تحقيق التوحكاني، ج3، ص 302.

ودعوه للإستيلاء على الأندلس فاستجاب لهم وكانوا عونا له في كل حملة على حصون المسلمين وذلك منذ سنة (519هـ / 1125م)[1].

وكان رَدُّ الأمراء المسلمين مناسبا إذ قرروا معاقبتهم بناءا على فتاوى الأئمة والقضاة الذين أدانوهم بنقض العهود والخروج عن الذمة[2] وبناءً على ذلك تمّ تغريبهم عن ديارهم وطردهم إلى بلاد المغرب، حيث توزعوا في المدن الكبرى من بينها مدينة مراكش مكناسة، تلمسان، تونس، بجاية والقيروان[3]. وبطبيعة الحال لم يجدوا الترحاب من قبل سكان هذه المدن، فتعرضوا لتجاوزات صدرت في حقهم كردود أفعال، وأخضعوهم للعبودية، حيث أُستُغلوا خدما في البيوت المغربية البربرية أو العربية على حد سواء[4].

وبالرغم من هذه الخيّانات، فقد هدأت أوضاعهم مرة أخرى وانتظم كثير منهم في صفوف الحرس السلطاني واستخدم بعضهم في مجال العمران وأعمال البستنة وغيرها[5].

2 - الدور العسكري للنصارى:

جاء في مقدمة ابن خلدون: " أن الدولة في مرحلة الهرم تستظهر بالجند المرتزقة"[6]. ومن غير شك أن ابن خلدون بنى رأيه هذا على واقع عاشته الدول المتعاقبة على الحكم في بلاد المغرب على

---

[1] - عبد الله عنان، نهاية الأندلس و تاريخ العرب المتنصرين، ط4، الخانجي، القاهرة 1987م، ص 119.
- الدولة الإسلامية في الأندلس، عصر المرابطين و الموحدين، القاهرة 1964م، ص 112.
- عبد الله علي علام، الدولة الموحدية بالمغرب، ص ص 194 – 199.

[2] - إبن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص ص 115 – 120.

[3] - إبن عذاري، البيان، ج4، ص ص 72 – 73.
- مجهول، الحلل الموشية، ص 90.

[4] - إبن الخطيب، السابق، ص 120.
- الونشريسي، المعيار، ج2، ص 179.

[5] - عبد الله علي علام، الدولة الموحدية بالمغرب، ص 207.

[6] - إبن خلدون، المقدمة، ص 126.
- إبن خلدون، العبر، ج2، ص 510.

الأقل، فقد شكل النصارى الحرس السلطاني لدولة المرابطين يعتبره إبن عذاري أول حدث من نوعه في تاريخ المغرب[1]، حيث أصبحت الكتائب النصرانية تشكل قوة لها وزنها ومساهمتها في توجيه الأحداث.

وإذا كانت هذه الكتائب قد قامت بدور كبير داخل جهاز الدولة المرابطية، ولعبت أدوارا حاسمة في كبح زمام تمرد بعض القبائل البربرية أو العربية[2] وإخماد الثورات الداخلية التي تندلع من حين لآخر وشهد على ذلك إبن عذاري عندما قال:" إن عَليًا بن يوسف هو أول من استعمل الروم وأركبهم في المغرب وجعلهم يحقدون على المسلمين في مضامراتهم "[3].

ومن مزايا الكتائب النصرانية أنها نقلت أساليب القتال المستوحاة من البيئة العسكرية الأوروبية التي تختلف من غير شك عن بيئة بلاد المغرب الصحراوية. و قد تنبه إلى ذلك ابن خلدون عندما لاحظ: " احتياج الملوك في المغرب أن يتخذوا جندا من هذه الأمة المتعودة على الزحف وهم الفرنج"[4]، وزيادة على ذلك فقد نقلوا صناعة الأسلحة والذخائر المناسبة لأسلوب القتال الجديد[5].

وقد ترتب عن مدى قدرتهم وتوفير الأمن للسلطان وحاشيته أن تبوؤوا مكانة مرموقة في قصور السلاطين والأمراء فأسندت إليهم قيادة الجيش ومازالت الأدوار التي قام بها القائد النصراني المعروف باسم الروبيرتير شاهدة على قوتهم[6].

---

1 - البيان المغرب، القسم الخاص بالموحدين، ص 104.

2 - Levi-Provençal, réflexions sur l'empire almoravide, Alger 1932, p 332.

3 - إبن عذاري، السابق، ص 102.

4 - إبن خلدون، العبر، ج2، ص 658.

5 - مجهول، الحلل الموشية، ص 136.

6 - الروبيرتير – Poberto Flreverter – هو قائد الفرقة المرتزقة النصرانية اختاره لذلك علي بن يوسف وهو فطلانّ الأصل، قُتِل سنة (539هـ / 1144م) بعد اكتشاف حقيقته. ينظر:- إبن الأبار، الحلة السيراء،ج2، تحقيق حسي مونس،(د.ت)، ص193؛ - عصام سالم سيسالم، حزر الأندلس المنسية، دار العلم،بيروت 1984م، ص 344.

وإذا كانت الكتائب النصرانية قد نالت التقدير من قبل السلطات الحاكمة في بلاد المغرب فإن ذلك لم يكن على أساس إخلاصها وصدقها في الدفاع عن نظام الحكم وإنما كان على أساس الأدوار التي تضمن مصالحها وتحقق أغراضها المستقبلية والدليل على ذلك هو تخلي الكتائب النصرانية المكلّفة بحراسة مراكش عن دورها وراحت تنسق مع الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي بحثا على ضمان بقائها غير مبالية بحياة السلطان المرابطي ونظام حكمه، فقد فتح الجند النصراني أبواب مدينة مراكش ليتسلل منها الجيش الموحدي[1] وهذا هو الغدر والتربص وقد استغل القائد النصراني الروبيرتير المشار إليه هذه الوضعية ليرتد عن الإسلام ويعود إلى حقيقته[2].

ومما يجعلنا نميل إلى هذا الرأي هو تكرار مثل هذه السلوكات النصرانية فقد حدث نفس الفعل من قبل الفارس النصراني المسمى جراندة الجليقي، الذي أنزله ابن مردنيش في حُصون شرق الأندلس – Giraldo sem-pavor – سامبافور لزيادة الضغط على جيوش الموحدين[3] لكن هذا الفارس استسلم للجيوش الموحدية سنة (563هـ / 1168م)، وانتقل إلى مراكش حيث عينه الموحدون على رأس فرقة النصارى المرتزقة في الجيش الموحدي، مما يدل على

---

[1] - مجهول، الحلل الموشية، ص ص 142 – 143.
- خوسي اليماني، "الكتائب المسيحية في خدمة الملوك المغاربة"، مجلة دعوة الحق، عدد 5، سنة 1978م

[2] - مجهول، **السابق**، ص 148.
- بُنول (خاسْتونْ)، الحرب والمجتمع، ترجمة عباس الشربيني، دار النهضة العربية، بيروت 1983م، ص 76.
- Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, T III, p 172.
- إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب و الأندلس خلال عصر المرابطين، ط1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت 1998م، ص ص 86 – 90.

[3] - رسائل موحدية، مجموعة جديدة، تحقيق و دراسة أحمد عزاوي، ج1، الرسالة رقم 22 و رقم 23 ، ص ص 118 – 120.
- البيدق، كتاب أخبار المهدي، تقديم و تحقيق عبد الحميد حاجيات، الجزائر 1974م، ص 117.
- عبد العزيز بن عبد الله، المعجم التاريخي، الدار البيضاء (د.ت)، ص 78.

استخدام الموحدين النصارى في جندهم و لم يمض وقت طويل حتى اكتشف أمر خيانة وغدر هذا الفارس حيث ضبط متلبسا بإرسال رسائل إلى إبن الرّنك يُعْلِمه بمكانه وبأسرار الجيش الموحدي[1] فأعدمه الموحدون على الفور سنة (565هـ / 1170م)[2].

* الأغـزاز:

إستوطن السلاجقة الأتراك في أول أمرهم في إقليم تُركستان واعتنقوا الإسلام حين نزحوا إلى دياره و استقر بعضهم في كور بُخارا – من أعمال بخارا – و لم يطل بقاؤهم هناك لكثرة ترحالهم فقد انتقلوا إلى خرسان[3]، نيسابور[4] ثم جرجان[5].

وقد استقلت بعض جماعاتهم ببلاد مَرْوَ وبلخ بعد ما اختلفوا وتقاتلوا وتغلبوا على الأمير قَامَاجَا والسلطان سَنْجر حيث خرّبوا مدينة نيسابور سنة (429هـ / 1033م)[6]، وعلى إثر ذلك انتشروا في جهات مختلفة منها بلاد العراق وكان ذلك في شهر رمضان من عام

---

[1] – البيدق، كتاب أخبار المهدي، تقديم و تحقيق عبد الحميد حاجيات، الجزائر 1974م، ص 118.

[2] – البيدق، السابق، نفس الصفحة.

[3] – عماد الدين (محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني)، تارخ دولة آل سلجوق، دار الآفاق الجديدة، بيروت 1978م، ص ص 7 – 10؛ 256 – 258.

– الحميري، الروض المعطار، ص ص 160 – 161.

[4] – نيسابور: مدينة عظيمة تقع على خط الطول 85 درجة، وهي إقليم من أقاليم خرسان فتحها المسلمون أيام الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان أميرها آنذاك عبد الله بن عامر بن كريز. وهي تبعد مدينة هراة بثمانين فرسخًا، وترتبط بشرار عبر عدة مسالك. ينظر: – إبن خرداذبة، المسالك والممالك، مكتبة المثنى، بغداد (د.ت)، ص 39.

– ياقوت الحموي، معجم البلدان، ط1، ج5، دار الكتب العالمية، بيروت 1990م، ص 382.

[5] – جرجان: تقع على خط الطول 80 درجة، والعرض 38 درجة، وتتوسط طبرستان وخرسان، أعاد بناءها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة بعدما فتحها سعيد بن عثمان أثناء خلافة سليمان بن عبد الملك.

– الحميري، السابق، نفس الصفحات.

– ياقوت الحموي، السابق، ط1، ج2، ص 139.

– R. Grousset, le monde mongol, Histoire de l'Asie, T1, Paris 1922, p 302.

[6] – عن تخريب مدينة نيسابور من طرف الأغزاز الترك، ينظر :

– عماد الدين الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص 259.

(437هـ / 1042م) خلال حكم المستنصر أبو تميم محمد بن الظاهر (427هـ - 487هـ / 1035م - 1094م) ومنه انتقلوا نحو الشّمَال ومصر[1] متحذين الرعي وتربية المواشي حرفة لهم[2].

وقد تمكنت جماعات الغز الأتراك التي واصلت التقدم نحو الشام ومصر من احتلال شبه جزيرة الأناضول عام (464هـ / 1071م)[3] وما كاد ينتهي القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، حتى بسطوا سلطتهم على أراضي الشرق الأدنى[4].

1 - دخول الأغزاز إلى بلاد المغرب:

بعدما بسط الأتراك سلطتهم على جزء واسع من أراضي الشرق الأدنى وعلى قسم من أراضي الأناضول، ظهرت لهم في بلاد المغرب إمكانية العيش والإستيطان بصفة أفضل، وصادفت تطلعات الأغزاز نحو الإنتقال إلى المغرب ظروفا سياسية وإجتماعية كان عرب بني هلال سببا في صناعتها، فزيادة على الإضطرابات الإجتماعية التي سببها بنو هلال في شرق شبه جزيرة العرب (378هـ / 988م) بانضمامهم إلى القرامطة وانتشارهم في الطرقات المؤدية إلى الحج وتعرضهم إلى القوافل التجارية والحجيج، وكان انتقالهم إلى صعيد مصر (380هـ / 900م)[5] عامل فتنة واضطراب أيضا، في زمن فُسِحَ أمامهم المجال للهجرة نحو بلاد المغرب. الأمر الذي دفع الأغزاز إلى تجسيد تطلعاتهم المتمثلة في الهجرة إلى بلاد المغرب، ويمكن التأكيد على أن هجرتهم هذه كانت على شكل

---

[1] - عماد الدين الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص 10.

[2] - السابق، ص ص 7 - 8.

[3] - أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، بيروت (د.ت)، ص 53.
- إبن العماد الحنبلي، شذرات المذهب، ج4، القاهرة (1350هـ - 1351هـ)، ص 203.

[4] - عماد الدين الأصفهاني، السابق، ص 258.

[5] - يقول إبن خلدون: "ونقل الفاطميون أشياءهم من بلاد هلال وسليم وأنزلوهم بالصعيد على الدود الشرقية من نهر النيل فأقاموا هناك". ينظر: العبر، ج6، ص 13.

مراحل بدأت محدودة العدد مقتصرة على أُسَر ثم توسعت لتصبح على مستوى جماعات كثيرة العدد وما يفسر ذلك هو إقبال الأمير تميم بن المعز الزيري الصنهاجي (453هـ - 501هـ / 1061م - 1107م) على تشكيل فرقة عسكرية من الأغزاز الترك وجعلها واحدة من جنده[1].

لقد تأكدت مميزات الأغزاز القتالية لدى سلاطين وأمراء المغرب لذلك نراهم يواصلون إدماجهم في الجند فقد كوّن المرابطون أكثر من فرقة من الأغزاز وأسندوا إليهم أكثر من مهمة وأضهروا بأسهم في مقاومة جيوش الموحدين ضد المرابطين[2]، مما لفت إنتباه وتقدير الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي فعندما أُسِرَ أعدادا منهم، عزز جنده بضمِّ أعداد كبيرة منهم ومن العرب أثناء عودته من افريقية سنة (555هـ / 1161م)[3].

2 - النشاط السياسي والعسكري للأغزاز:

يعود سبب بداية النشاط السياسي للأغزاز ببلاد المغرب إلى المستجدات السياسية في مصر والشام حيث تجسدت تطلعات وطموحات الأيوبيين بوضع حد فاصل للدولة الفاطمية في مصر سنة (567هـ/ 1172م)[4] وبهذا الحدث السياسي الهام الذي أتاح

---

[1] - إبن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص 139؛ - إبن الأثير، الكامل في التاريخ، ج11، ص 382.

[2] - أشار إبن أبي زرع إلى ذلك بوضوح حيث قال:" أدخل المرابطون مجموعات من الغز الأتراك في صفوف جندهم، و حرس أميرهم". ينظر: روض القرطاس، ص 139.

- عبد الحق المريني، الجيش المغربي عبر التاريخ، ط2، الرباط 1967م، ص 20.

- عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، ج1، ص 184.

Mohamed Talbi, Étude d'Histoire ifriquiyenne, publication de l'universite de Tunis, - 1982,p p 85 – 92.

[3] - لقد أظهر الأغزاز قدرة قتالية عالية، و ميزوا فرقتهم بحمل خصلة من الشعر على أعلى رماحهم.

- عبد الحق المريني، السابق، ص 23؛ - عبد الحق المريني، السابق، ج2، ص ص 25 – 29 – 31.

- عبد العزيز فيلالي، السابق، نفس الجزء و الصفة.

[4] - السيد الباز العريني، الشرق الادنى في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت 1967م، ص 43.

- محمد سرور، الدولة الفاطمية في مصر سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة في عصرها، دار الفكر القاهرة 1970، ص 195.

للأيوبيين فرصة ثمينة لبسط نفوذهم على الشام وكانت الظروف مواتية حيث مات الأمير نور الدين زنكي سنة (567هـ/ 1172م)[1]. أثناء هذه الأحداث المتوالية في المشرق، كان الوضع السياسي في بلاد المغرب يُوصف بالمقلق والمتوتر خاصة في الجهة الشرقية لبلاد المغرب إذ لم يستقر الوضع لصالح الدولة الموحدية التي تمكنت من فتح وضم جُلّ المدن المغربية و لم يبق أمامها سوى بعض القبائل وبعض الحركات المتمردة مثل أمراء قابس[2] وتوزر[3] وقفصة. زيادة على الأغزاز وبني غانية، ويبدو أن الأغزاز كانت لهم أفكار وتطلعات إستراتيجية منذ بداية دخولهم إلى بلاد المغرب وإذا كان غير ذلك فبماذا نفسر ظهور الأغزاز الترك كقوة سياسية تبحث عن التحالفات السياسية مع القوى المناوئة للدولة الموحدية في هذه الأثناء[4].

لقد تزعم مملوك غزي يُدعى شرف الدين قراقوش[5] مطالب الأغزاز غير المعلنة في بلاد المغرب إلى حد الآن .فقد اتصل ببعض قبائل عرب بني هلال وتمكّن من إستمالتهم[6] الأمر الذي زاد من اضطراب الجهة الشرقية التي استنزفت طاقات الموحدين وخاصة

---

[1] – في هذه الأثناء تعددت جهود صلاح الدين الأيوبي حيث تحول بجد تجارة مدن الشام إلى مصر لرفع موارده المالية وسعى إلى تحسين علاقات الأيوبيين مع البرنطيين. ينظر: – السيد الباز العريني، الشرق الأدنى في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت 1967م ، ص ص 78 – 79.

[2] – قابس: مدينة حصينة من بلاد الجريد في افريقية، كثيرة الثمار يمرّ بها واد خصيب وتبعد عن البحر ثلاثة أميال. ينظر:
– الحميري، الروض المعطار، ص 450.

[3] – توزر: مدينة كبيرة تقع ببلاد الجريد على طرف صراء رميلة صبعة العبور، اتخذها على بن إسحاق قلحأ له الخطر.
– مجهول الاستبصار، ص 155.

[4] – رسائل موحدية مجموعة جديدة، ج2، تح. ودراسة أحمد عزاوي، ط1، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة المغرب، ص ص 70.

[5] – هو مملوك تقي الدين عمر بن شاهنشاه إبن أخ السلطان صلاح الدين نزل في برقة على رأس قواته من الأغزاز الأتراك واستولى عليها كما استولى على طرابلس وعاث فيها فسادًا سنة (568هـ / 1172م).
– مجهول، السابق، ص 110.
– النحاني، الرحلة، ص ص 111 – 113.

[6] – محمد تقي الدين عمر، مضمار الحقائق وسير الخلائق ، ص 228.

بعد أن انضم بنو غانية إلى حلف الأغزاز والعرب الهلاليين، الأمر الذي فتح الأمل من جديد أمام بني العباس لإحياء شرعيتهم المفقودة وبسط نفوذهم على بلاد المغرب، وتجسد في مبادرة بَعَثت بها الخليفة العباسي تهدف إلى تعيين علي بن غانية ومنحه لقب أمير المسلمين في افريقية[1] وكان بنو غانية قد استولوا على بجاية في شهر شعبان (580هـ / نوفمبر 1184م)[2] وكانت الرغبة في توحيد صفوف المناوئين لسياسة الموحدين متبادلة إذ راسل بنو غانية قراقوش زعيم الأغزاز وطلبوا منه العون بقولهم :" إننا قوم من بني عباس ونريد دولتهم ونريد أن نكون وإياكم مجتمعين"[3] وخلال هذه الفترة كان الأغزاز قد رتبوا أوضاعهم في برقة وطرابلس ونفزاوة[4] وتيقيوس[5].

ولما استجاب قراقوش الغزي لطلب علي بن إسحاق بن غانية[6] أخذ على عجل يستكمل ضم الأراضي و المدن حيث تقدم جنوب غرب أفريقية لحصار مدينة الحامة ذات الأهمية الإستراتيجية ثم إقتحمها بكل قسوة حيث أذاق أهلها سوء العذاب وارتكب مذبحة عظيمة في أوساط سكانها[7] واقتسم الأغزاز مدينة الحامة مع بني غانية حسب ما اتفقا عليه ثم واصل الطرفان توسعهما باقتحام وضم مناطق جديدة

---

[1] - أحمد عزاوي، رسائل موحدية، مجموعة جديدة، ج2، ص 80.

[2] - الغبريني، عنوان الدراية، ص 82.

[3] -الأيوبي محمد تقي الدين عمر، مضمار الحقائق وسر الخلائق، تح. حسن حبشي، عالم الكتب القاهرة 1968م، ص ص 228 – 229.

[4] - نفزاوة: منطقة واسعة من بلاد الجريد تقع جنوب افريقية من أهم مدنها طره وبشرى تاورخي.
- مجهول، الاستبصار، ص ص 157 – 158.

[5] - تيقيوس من أرض الجريد تحيط بها غابة نخيل وزيتون وهي أكثر بلاد الجريد ثروة وأهلها مياسير أصلهم من الروم.
- مجهول، السابق، ص 156.

[6] - الحامة: منطقة من بلاد قسطيلية (الجريد) في جنوب افريقية وتعرف بجامعة البهاليل نسبة إلى أب يسمى بهلول وهو من أسياد بلاد الجريد والبهاليل من بقايا الروم ويمتازون بكرم الضيافة والحامة كثيرة التمر والزيتون والفواكه.
- مجهول، السابق، ص 157.

[7] -الأيوبي، السابق، ص 230.

ودخل في طاعتهم بنو الرند أمراء قفصة النّاقمين على الموحدين وبهذا الوضع الجديد أصبح الأغزاز ومن تحالف معهم يسيطرون على قسم كبير من بلاد الجريد الأمر الذي دفع الخليفة الموحدي يعقوب المنصور إلى تحضير حملة عسكرية كبيرة لمحاربتهم وكسر شوكتهم قبل أن يكبر خطرهم ويبسطوا سلطتهم على كامل تراب المغرب الأدنى .

وهكذا استعد يعقوب المنصور استعدادا كبيرا لهذه المجابهة المصيرية بالنسبة للطرفين وعين إبن أخيه يعقوب بن عمر بن عبد المؤمن على رأس ستة آلاف من الفرسان للإشتباك مع قوات علي بن إسحاق بن غانية ولقائه بعد أن رتب يعقوب المنصور الحملة، انطلقت من مراكش لتصل إلى تونس في (شوال 582هـ / 1186م) ودارت المعركة على أرض عُمرة[1] حيث انتصر المتحالفون وقتلوا أعدادا كبيرة من الموحدين كما أسروا أعدادا مماثلة من بينهم القائد الموحدي المشهور علي بن الربرتير[2].

وبعد هزيمة الموحدين خرج الخليفة يعقوب المنصور على رأس حملة أخرى لاستئصال عناصر هذا الحلف وذلك في (15 ربيع الأول سنة 583هـ / 25 ماي 1187م) وتمّ اللّقاء الثاني بين الموحدين والحلف الغُزي الغَاني العربي الرندي في حامة (حمة) مطماطة[3] وكان القتال شديدا حضّر له الموحدون أحسن تحضير فانهزم المتحالفون

---

1 – عمرة من ضواحي مدينة قفصة : الحميري ، الروض المعطار ص 414

2 – علي بن الربرتير هو إبن قائد قطلاني قاتل مع المرابطين و يسمى الربرتير "el reverter" وكان على رأس فرقة من المرتزقة النصارى إلى أن قتل على يد الموحدين سنة (539هـ / 1144م) وتَرَك وَلَدين اعتنق أحدهما الإسلام والتحق بالموحدين وسمي باسم علي بن الربرتير وقتل على يد بني غانية سنة (583هـ / 1187م). ينظر:
– إبن القطان ، نظم الجمان، تح محمد علي مكي، ص 96؛ – التجاني، رحلة التجاني، ص 162.
– الحميري، السابق، ص ص 414 – 415.

3 – حامة (حمة) مطماطة: مدينة قديمة مسور ببلاد الجريد سكانها من البربر يعرفون بالمطماطة و هي غير حامة البهاليل. ينظر:
– المراكشي المعجب ص 349
– مجهول الاستبصار ص 150

وفروا من أرض المعركة واستولى يعقوب المنصور على جميع بلاد الجريد وخضعت لحكمه قابس وسفاقس وأسر فيها أهل قراقوش وأنصاره وبعث بهم إلى تونس ثم مراكش[1].

ومن نتائج هذه المعركة تفكك التحالف بين بني غانية والأغزاز بزعامة كل من قراقوش وأبي زيان[2] حيث أعلن قراقوش رغبته في الإلتحاق بالموحدين وقام بنفس الخطوات القائد الغزي الثاني أبو زيان، ويبدو من خلال السياق العام للأحداث أن إقبال الأغزاز على تقديم الطاعة والولاء للموحدين لم يَكن إلاّ خدعة.

3 - فشل الاغزازفي المجال السياسي:

لقد خضعت أكثر مدن بلدان المغرب الأدنى إلى الحلف المتكون من الغز الأتراك وبني غانية زيادة على بعض القبائل العربية الهلالية[3] وخطب زعماؤه للخليفة العباسي الناصر (575هـ - 622هـ / 1180م - 1228م) وبالرغم مما أضْفَاهُ هذا التحالف على حكم المناطق التي يسيطرون عليها من شرعية أكسبته ولاء وطاعة واسعة بين سكان بلاد المغرب الأدنى وقسم كبير من شرق وجنوب شرق المغرب الأوسط[4]، ورغم هذه المكاسب العسكرية والسياسية فإن الأغزاز

---

[1] - رسالة موحدية، ج1، مجموعة جديدة، ص ص 77 - 79

[2] - أبي زيان هو قائد غزي ميداني وسياسي قراقوش كان قد استقل بطرابلس سنة (570هـ / 1175م)

- رسالة موحدية مجموعة جديدة، ص ص 78

- الأيوبي، أحمد بن تقي الدين عمر، مضمار الحقائق وسِر الخلائق، ص 228.

[3] - الحميري، الروض المعطار، ص 414.

- المراكشي، المعجب أخبار المغرب، ص 348.

[4] - كتب صلاح الدين الأيوبي إلى شرف الدين قراقوش يطلب منه دعم بني غانية و العمل معا لإقامة الدعوة العباسية. ينظر:

- إبن خلدون، العبر ج6، ص 396..

- إبن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج4، دار الكتب، القاهرة (1350هـ/ 1956م)، ص 268.

- ونال علي بن إسحاق بن محمد بن غانية التقليد العباسي بالسلطنة. ينظر: - إبن خلدون، السابق، ج4، ص 269.

الأتراك لم يحققوا شيئا يذكر في المجال السياسي والسبب في ذلك يرجع إلى عاملين رئيسيين .

3 - 1 - اعتماد اسلوب العنف في بسط السلطة:

لقد كانت القسوة الشديدة والإقتحام الوحشي للمدن الإفريقية هي الأسلوب المتبع من قبلهم فقد تعرض سكان مدينة الحامة، قابس وطرابلس أثناء حصارهم من قبل الأغزاز إلى أنواع شتى من التنكيل[1]، كما استبد الأغزاز بأشياخ عرب ذياب وفروع من بني سليم[2] فالأغزاز يقاتلون دون هوادة يتقدمون عندما تلوح الفرصة المواتية لكنهم لا يتراجعون عندما تتعرض قواتهم للخسائر وحروبهم في مجملها دموية[3]. إن هذا الأسلوب أكسب الأغزاز الترك عداء جميع القبائل العربية الهلالية و ساهم في قطع العلاقات مع حلفائهم التقليديين بني غانية ، وأصبح العداء شديدا بينهم[4] ورجع إبن غانية وقراقوش إلى عهد الصراع والتجاذب على بلاد الجريد إلى أن هلك علي بن إسحاق في حروبه مع أهل نفزاوة سنة (584هـ / 1188م)[5].

3 - 2 - أما العامل الثاني فيتمثل في سياسة المراوغة والخديعة ويظهر ذلك بوضوح في الرسالة التي أرسلها شرف الدين قراقوش إلى الخليفة الموحدي يعقوب المنصور أثناء حصاره لمدينة قفصة حيث أعلن خضوعه وصرح بأنه إن قبلت توبته وأجيبت رغبته جاء إلى الموحدين

---

[1] - إبن العماد الحنبلي، شذرات، ج4، ص 271.

[2] - التجاني، رحلة التجاني، ص ص 14 - 104. - إبن خلدون العبر، ج6، ص 398.

[3] - التجاني، السابق، ص 14، ها 1.

[4] - الوزير محمد السراج، الحلل السندسية في الأخبار التونسية ج2، تح محمد الحبيب السهيلة، نشر الدار التونسية 1970م، ص 360.

[5] - إبن القنفذ القسنطيني، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تح محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر 1968م، ص 103.

مطيعا[1]، وعندما سمع أغزاز منطقة طرابلس بذلك انظموا إليه بقيادة زعيمهم أبي زيان[2].

وما كان من الخليفة يعقوب المنصور إلاّ أن استجاب لطلبهم وأحسن نزلهم وبالغ في إكرامهم وجعل لهم مزية ظاهرة على الموحدين[3]. غير أن زعيمهم شرف الدين قراقوش لم يكن صادقا في إعلان رغبته في التوحيد والإنضمام للموحدين كما ادّعى في رسالته الموجهة إلى الخليفة الموحدي في مطلع ذي القعدة سنة (583هـ / يناير 1187م) إذ فرّ ثانية إلى بلاد الجريد وأعاد استيلاءه على قابس التي دخلها مخادعة[4] معتمدا على النهب والسلب والمراوغة الأمر الذي أفقدهم الدّعم الشعبي وهكذا عاد إلى طبيعته الخشنة وهذا التجاني يصفه بقوله:" إقترب من بني عبد المؤمن وتلاعب بالمهاجرة إليهم تارة والفرار منهم أخرى ودام ذلك نحو أربعين سنة إلى أن قتله يحيى بن إسحاق بن غانية الميورقي "[5].

لهذه الأساليب فقد الأغزاز حظهم في تأسيس كيان سياسي لنفور القبائل العربية والبربرية منهم زيادة على وحشية التعامل وفقدان مصداقية الحركات المتحالفة معهم كبني غانية. هذا فضلا عن الموحدين الساعين إلى بسط سلطتهم على كامل تراب بلاد المغرب.

* الأندلسيون:

لقد كانت الإمارة الأموية في الأندلس تعمل منذ تأسيسها على محاربة أية دعوة شيعية في بلاد المغرب وأسست بسبب ذلك علاقات ودّية مع بعض الدويلات المغربية حتى وإن كانت تخالفها مذهبيا كدولة

---

[1] - أحمد عزاوي، رسائل موحدية، مجموعة جديدة، الرسالة الحادية والثلاثون ج1، ص 196.

[2] - المراكشي، المعجب، ص 136.

[3] - كان الموحدون يأخذون الجامكية (العطية) ثلاث مرات في كل سنة والغز الأتراك يأخذونها في كل شهر. ينظر:
- المراكشي، السابق، ص ص 365 – 367.

[4] - إبن خلدون، العبر، ج6، ص 398.

[5] - رحلة التجاني، ص ص 113 – 114.

بني رستم الخارجية في تاهرت. وذلك حرصا على إضعاف جيرانهم الأدارسة العلويين في المغرب الأقصى[1]، والأغالبة الموالين لبني العباس في المغرب الأدنى.

لدرجة أن أفلح بن عبد الوهاب حرق المدينة العباسية التي شيدها بنو الأغلب بالقرب من تاهرت سنة (227هـ / 843م) ليتقرب بذلك إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط بالأندلس[2].

لقد كانت الرحلة الأندلسية المشرقية رافدًا مهما لإستقرار الأندلسيين ببلاد المغرب، فقد كان الطريق الرابط بين الأندلس ومصر يُمر عبر مضيق جبل طارق مجتازًا بلاد المغرب الأقصى، ليدخل بلاد المغرب الأوسط عن طريق وهران وتلمسان إلى أن يصل إلى المهدية بالمغرب الأدنى ومنها يعبر مدينتي طرابلس وبرقة حتى يصل إلى بلاد مصر[3].

إن العلاقات الودية بين الأندلسيين وسكان بعض المدن المغربية كَسَبْتَة، تنس وتلمسان، هذه العلاقات أدّت إلى ظهور بَصَمَات حَضارية أندلسية في مجالات مختلفة كالعمران، الحرف الصناعية والفلاحة[4].

لقد تدعّمت حركة التنقل بين بلاد المغرب والأندلس بإزدهار النشاط التجاري السّاحلي النّاتج عن عودة النشاط إلى مرسى مدينة وهران الذي إرتبط نشاطه بساحل مدينة المرية بالأندلس[5].

كما عادت الحركة إلى مرسى الدجاج الذي يُعد المنفذ الرئيسي لبلاد المغرب الأوسط[6].

---

1 - إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص 47؛ - محمد رزوق، تطور استقرار الجالية الأندلسية بالمغرب، الرباط 1986م، ص 130.
- محمد علي مكي، التشييع في الأندلس، مدريد 1954م، ص 121.

2 - إبن خلدون، العبر، ج4، ص 429.

3 - إبن خرداذبة، المسالك والممالك، نشر دي غويه ومصطفى بريل، ليدن 1889م، ص ص 154 – 155.

4 - (M)Talbi, « quelques données sur la vie sociale en Occident Musulman d'après un traité de Hisba du 9ème siècle », Arabica, 1954.

5 - الإدريسي، نزهة المشتاق، ليدن، ص 105.

6 - عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، ج1، ص 172.

وزيادة على ما سبق فإن إشتغال الأندلسيين في ميدان الفلاحة والتجارة، والعمران قد أعطى نتائج إرتاح إليها سكان بلاد المغرب، الأمر الذي أتاح الفرصة لأندلسيين لكي ينتقلوا إلى المغرب فرادى وجماعات تحقيقا لأهداف مختلفة منها الإجتماعية، ومنها السياسية[1].

1 - الهجرة الأندلسية إلى بلاد المغرب:

تعتبر حركة الإسترداد المسيحي بداية هجرة واسعة إن لم نقل نُزوح الأندلسيين نحو بلاد المغرب. فقد أخذ النصارى يسلكون سياسة مدروسة لاسترجاع البلاد من يد المسلمين. وهو أمر يحفّزهم على إسترجاع وطنهم المغتصب، في حين كان حنين اللجوء إلى وطن الإسلام يُساور المسلمين.

لقد كان أول مؤشرٍ ملموسٍ على تنفيذ سياسة التهجير يتمثل في سقوط مدينة طُلَيْطِلَة بين يدي الأذفونش السادس في منتصف محرم سنة (478هـ / منتصف ماي 1085م)[2] وبهذا خرجت طليطلة من يد ولده خروجا نهائيا وتفرق سكانها في مختلف الجهات من بلاد المغرب على شكل نزوح شامل، وعلى هذا النمط ظل الأندلسيون يهاجرون إلى المغرب قاصدين المدن الساحلية للإقامة بها مثل سبتة وتنس ووهران وتلمسان وأفريقية ويظهر من خلال السياق العام للأحداث السياسية والعسكرية. إن الجهة الغربية و الوسطى عرفت هجرة أندلسية واسعة على عكس الجهة الشرقية من بلاد المغرب بحكم الوضع السياسي الذي أحدثه الموحدون إذ بسطوا سيطرتهم

---

[1] - لقد اضطر محمد بن أبي عامر إلى العبور من الأندلس إلى مدينة سبتة لترتيب الأوضاع فيها، وايعاد خطر الثائرين عليها، وبذلك تطورت، ونعم أهلها بالخيرات الواسعة إلى أن جاء الموحدون فخرّبوها وفرضوا على أهلها الطاعة سنة (542هـ / 1147م).ينظر:
- إبن خلدون، العبر، ج6، ص 484.
- الحميري، الروض المعطار، ص 304.

[2] - المقري، نفح الطيب، ج4، تح إحسان عباس، بيروت 1968م، ص 353.
- إبن بسام، الدخيرة، ج4، القاهرة، ص 132.

وفرضوا الإستقرار في المغربين الأقصى والأوسط وتأخر بسط النفوذ على بلاد افريقية لتمرد بعض القبائل العربية الهلالية المتحالفين مع بني غانية وغيرهم[1].

ولم يكن التنقل بين المغرب والأندلس صعبا لخضوع البلدين لسلطة واحدة عاصمتها مدينة مراكش[2].

2 - التأثير الثقافي والعلمي:

يظهر تأثير الأندلسيين في المحيط الثقافي المغربي بشكل جلي خلال عهد الموحدين بل كان تأثيرهم في هذا المجال أوسع مما كان عليه في المجالات الأخرى، وتعود الجذور الأولى لهذا التأثير إلى القرون الأربعة الهجرية الأولى. وإن عرفت فترات جمودٍ وتقلص بفعل التجاذبات السياسية والمعارك العسكرية.

ويمكن أن نستدل على وجود تأثير ثقافي أندلسي غير معلن في فكر الداعية المهدي بن تومرت نفسه (473هـ - 524هـ / 1078م - 1129م) إذ أخذ الأسس المعرفية من علماء أندلسيين أثناء رحلته إلى المشرق نذكر من بين شيوخه الإمام الغزالي[3] وأبا بكر الطرطوشي

---

1 - عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، ج1، ص 172.
- العلاقات، ص ص 96 - 104.
- محمد الطيب بن الخوجة، الهجرة الاندلسية في القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي-، ص 134.
- Cahiers de Tunisie, 69-70, 1970,p 129
- (M) Lombard, L'islam dans sa première grandeur, p 86

2 - عبد الله عنان، عصر الموحدين والمرابطين في المغرب و الأندلس القسم الأول، ط1 القاهرة 1969م، ص 123 .
- عبد العزيز فيلالي، السابق، ج1، ص 173.
- محمد الطالبي، دراسات في تاريخ افريقية، منشورات الجامعة التونسية 1982م، ص 170.
- (E.D.) Gautier, Histoire de l'Espagne au moyen âge, revue Histoire N° 498 avril/juin 1971, p p 469 - 473

3 - البيدق، أخبار المهدي، باريس 1928م، ص ص 38 - 79.
- المراكشي، المعجب، ص 262.
- عبد المجيد النجار، المهدي بن تومرت، ط1 دار الغرب، بيروت 1983م،ص 104.

(ت.521هـ / 1127م)، والعلاّمة أبا عبد الله المازري (ت. 536هـ / 1142م). ونعتقد أن تأثر المهدي بن تومرت بفكر الأندلسيين قد سبق رحلته هذه (500هـ - 514هـ / 1106م - 1120م)[1] إذ انتقل قبله العالم الشهير بن العربي إلى بلاد المشرق بعد إقامته في تونس وذلك خلال الفترة (485هـ - 495هـ / 1092م - 1102م)[2].

وقد شهدت الحياة الثقافية المغربية خلال مرحلتي تأسيس وتوسع دولة الموحدين جدلا حادا لتوفر أسباب شيوعه حيث أجبر الموحدون النَّاسَ على القول بالمهدوية والعصمة وما يتبع ذلك وبما ألزموهم من اعتناق المذهب الظاهري ونبذ المذهب المالكي.

وقد ظهر علماء أندلسيون متفاعلين بشكل جِدِّي مع هذه التحولات الثقافية فمن الذين عارضوا ما جاء به الموحدون نجد فئة واسعة على رأسهم عبد الملك بن إياس أبو الحسن القرطبي النشأة الفاسي المسكن (ت.590هـ / 1196م) الذي وضع كتابا يطعن فيه على حكام الموحدين والمبادئ التي تقوم عليها دولتهم[3].

كما ظهر عَلَم آخر من أعلام الأندلس المستوطنين في فاس وهو أبو محمد عبد الله محمد بن محمد بن سعيد الأنصاري الإشبيلي المعروف بابن زرقون الذي انبرى للرد على إبن حزم الأندلسي (ت. 456هـ / 1064م) وألّف بصدد ذلك كتابا بعنوان " المعلى في الرد

---

[1] - قضى المهدي بن تومرت أربع سنوات في طريق العودة ينظر ذلك في: - المراكشي، المعجب، ص 236.
- عبد المجيد النجار، المهدي بن تومرت، ط1 دار الغرب، بيروت 1983م، ص 46.
- البيدق، أخبار المهدي، باريس 1928م، ص ص 47-53.

[2] - السليماني، تحقيق قانون التأويل، ص 75.

[3] - يوسف اشباخ، تاريخ الأندلس، ج 2 ، ترجمة محمد عبد الله عنان القاهرة 1958 م، ص 54.
- و فيما يخص مبادئ الدولة الموحدية فقد قامت أساسا على توحيد الاعتزالي الشرب بنظرية تعد من أكثر النظريات المهدوية الشيعية تشددا. ينظر: - الناصري ، الإستقصا، ج 1، ص 139.
- إبن خلدون، العبر، ج 6 ، ص 139.
- إبن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 10، ص 201.

على المحلى والمجلّى"[1] وجاءت كتابات بعض الأندلسيين ترد على مقالات كتبها الصليبيون وتطعن في معتقداتهم الفاسدة وكان على رأس هؤلاء الشيخ أبو جعفر أحمد بن عبد الله الصمد الخزرجي القرطبي المولد الفاسي النشأة والوفاة (519هـ - 582هـ / 1125م - 1187م) وأهم كتبه هو "مقام المدرك وإفحام المشرك، ومقام الصلبان وروائع رياض الأعيان"[2].

ومن المجالات التي ساهم من خلالها الأندلسيون في إثراء الثقافة ببلاد المغرب مجال المناظرات فقد كان لهم دور قوي ومن الذين برزوا في هذا الشأن نجد ابن أبار الحسن نجبة بن يحيى الرعيني الإشبيلي المولد المراكشي المسكن والوفاة (ت. 521هـ / 1126م) والذي ناظر الشيخ أبوالبقاء حيان بن عبد الله الأوراسي البلنسي في مواضيع كتاب سيبويه[3]، وقائمة الأندلسيين المساهمين في تفعيل النشاط الثقافي والعلمي طويلة[4]، وإذا أقصرنا على أسماء العلماء الأندلسيين الذين ظهروا في مختلف الميادين، فهذا لا يعني غياب أهل المغرب. فقد كان حُضورهم قويًا وتشجيع الموحدين لهم ثابت، وخير دليل على ذلك أن إمامهم المهدي بن تومرت كان رائد هذا التوجه ، وقد أورد لنا ابن أبي زرع نموذجا من أسلوب وموضوع الجدل والمناظرات الذي كان العلماء يتبارون حوله[5].

---

[1] - إبن الأبار، التكملة كتاب الصلة نشر عزت العطار الحسني، ط. مكتبة الخانجي، القاهرة 1956م،ص 167 .
- إبن العماد ، شذرات الذهب ، المكتب التجاري بيروت (د. ت)، ص 96.

[2] - إبن الأبار، السابق، ص 223.

[3] - السابق، ص 122.

[4] - محمد المنوني، حضارة الموحدين ، ص 85 .

[5] - رتب الأمر اللمتوني علي بن يوسف مجلسا علميا للفقهاء لمجادلة وإبطال المفاهيم التي كان بن تومرت يدعو إليها، وقبل المجادلة طلب منهم إبن تومرت تقديم من تقوم به حجة اللمتونيين، والتأدب بأدب أهل العلم، وترك اللجاج. ينظر:
- روض القرطاس، ص ص 109 – 112.

وفي فن التصوف نجد بصمات الأندلسيين ومساهمتهم في نشر مفاهيمه ومراميه الأمر الذي ساهم في إعادة ازدهاره وإقبال الناس على رجاله وابتعادهم عن مذهب التوحيد الذي جاء به ابن تومرت بجنوحه عن حاجة الناس وإفراطه في العقلانية وفرضها على الناس بالقوة الأمر الذي أوصله إلى نتائج عكسية تتمثل في إقبال الناس على المتصوفة خصوصا بالبوادي[1].

ويبدوا أن انتشار التصوف كان بفضل علماء أقطاب من المتصوفين الأندلسيين نذكر من بينهم أبا مدين بن شعيب بن حسين الأندلسي (ت. 594هـ / 1198م) والذي استقر بعد جولة مشرقية في بجاية[2] ومن الذين برزوا في نشر التصوف في بلاد المغرب من الأندلس الشيخ ابن العريف (ت. 610هـ / 1215م) ومحي الدين ابن العربي وميمون بن سبعين (ت. 590هـ / 1195م)[3].

وقد لعب أبو مدين دورا أساسيا في توجيه التصوف ببلاد المغرب فمن مدرسته تفرعت أغلب الإتجاهات الصوفية المعروفة ببلاد المغرب[4] ونظرا لتفوق الأندلسيين في ميدان الثقافة وانتشار المعرفة في صفوفهم، فإن الكثير منهم تولوا مهنة التعليم ونجحوا في استيعاب أبناء المغرب لما كان في أساليبهم من قوة جذب واستحسان من طرف

---

1 - le Tourneau, « l'Occident musulman du VII à la XVème », Tome XV, Hésperis 1935, p 170

2 - الغبريني أبو العباس أحمد، عنوان الدراية فيمن عرف من علماء المائة السابقة بجاية، تح. عادل نويهض بيروت 1979م ص 28.

3 - البادسي عبد الحق، المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تح. سعيد اعراب، الرباط 1982م، ص ص 36 – 69 .

4 - إبن القنفذ، أنس الفقير، ص ص 35 – 62.

- صالح بعيزيق، بجاية في العهد الحفصي، دراسة إقتصادية واجتماعية، رسالة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية، تونس 2006م، ص 387.

أهل المغرب[1] وأشار إبن خلدون قائلا :" ...فانتشروا في عدوة المغرب وإفريقية، من لدن الدولة اللمتونية إلى هذا العهد، وشاركوا أهل العمران بما لديهم من الصنائع..."[2] وامتاز هذا التأثير بالعمق والاتساع فقد عم كامل البلاد ، فهذا العلامة الأندلسي أبي بكر محمد بن أحمد بن عبد الله بن سيد الناس الذي كان ظاهري المذهب، قد استوطن مدينة بجاية ثم انتقل إلى تونس[3] وقد إنظم أندلسي آخر في نظام التعليم هو " الفقيه الحافظ المدرس أبو العباس احمد بن محمد القرشي الغرناطي الذي توجه إلى مغرب بعدما نزل ببجاية ثم رجع إلى افريقية ملازما مهنة التدريس[4].

وفي ميدان النحو برع أندلسيان، هما أبو الحسن علي بن موسى الحضري المعروف بابن عصفور المغرب (597 هـ - 669هـ / 1201م - 1270م)[5]. صاحب كتاب المغرب والممتع في الإشتقاق والمقرب في النحو . ونُضيف الكاتب والأديب ابن الابار وأبا المطرف أحمد بن عميرة (580هـ - 658هـ / 1184م - 1260م)[6] الذين أثريا الساحة الثقافية المغربية ومن الأطباء الوافدين من الأندلس محمد بن أحمد الخزرجي الجياني (ت. 589هـ / 1194م) حيث تولى القضاء بمراكش وولي نفس المهمة في مدينة سبتة(581هـ / 1180م)، وأطباء القصور السلطانية وهم كثيرون فكان أبو مروان عبد الملك بن زهر الأيادي الاشبيلي (ت. 557هـ / 1162م) طبيبا لعبد المؤمن بن علي. وقد ألّف كتاب الترياق

---

[1] - جاء على لسان إبن خلدون قوله:" وأما أهل افريقية فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب ومدارسة قوانين العلوم، وتلقين بعض مسائلها "... فطريقتهم في تعليم القرآن أقرب إلى أهل الأندلس، لأنه سند طريقتهم في ذلك متصل بمشيخة الأندلس...". ينظر: - إبن خلدون ، المقدمة ، ط بيروت 1956م، ص 1012.

[2] - إبن خلدون، السابق، ص 760.

[3] - الغبريني، عنوان الدراية، ص 175.

[4] - الغبريني، السابق، ص ص 212 - 213.

[5] -السابق، ص 189.

[6] - العبدري، الرحلة المغربية، تح محمد الفاسي الرباط، ص ص 66 - 72.

السبعيني ثم اختصره[1]. وقد إمتد نشاط الأطباء الأندلسيين إلى تأسيس المكتبات مثلما فعل الطبيب والأديب أبو محمد عبد الله بن علي بن عبد الله بن غَلْنَدة الأموي، وهو مستوطن في مراكش[2].

وإذ كانت المدن المغربية الكبرى قد استقطبت الفئة الأندلسية المثقفة لانسجام المستوى الثقافي والعلمي مع حاجيات السكان ومتطلبات النهضة الحضارية التي رافقت خلفاء الموحدين فإن الأندلسيين المهاجرين إلى بلاد المغرب الذين لا يملكون تأهيلا علميا وحرفيا توجهوا نحو الأرياف أين كانت مساهمتهم واضحةً في مجال الفلاحة والبستنة والتعاون مع أهل البادية حيث علموهم ما لم يكونوا يعلمون في ميدان الزراعة والغراسة والسقي. مع العلم أنهم إختاروا الإقامة بالمناطق الشمالية الآمنة القريبة من السواحل ومجاري المياه بغرض إستغلال الأرض وتنويع الإنتاج ومن بين المجالات الريفية التي أقاموا بها مجالات بجاية وتونس وتلمسان ومرّاكش وفاس وهذه الفضاءات الجغرافية كانت تحقق لهم الإرتزاق زيادة على تفوقهم في مختلف الحرف الصناعية والتي إمتهنوها الأمر الذي أهلهم للتموقع داخل المجتمع الحضري المغربي.

3 - التأثير الاجتماعي:

إن متابعة النشاط الثقافي والعلمي للأندلسيين في بلاد المغرب يعطي الإنطباع بأنهم متحفظون في معيشتهم ونشاطهم مع البربر أو العرب، إذ كانوا يترعون نحو التعامل فيما بينهم، ولا يتعاملون مع

---

[1] - إبن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، المطبعة الوهبية القاهرة (1299هـ / 1888م)، ص 68.

[2] - لقد ساهم الكثير من الأطباء في إنشاء المكتبات كما فعل أبي العباس أحمد بن عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الخزرجي الأندلسي نزيل مراكش. ينظر: - إبن أبي أصيبعة ، السابق، ص 68.
- وكذلك الشأن بالنسبة لما فعله أحمد بن أحمد الصنهاجي الغرناطي (ت.584هـ/1190م) عندما أسس صيدلية بفاس. ينظر:
- إبن أبي أصيبعة، السابق، ص ص 74 - 83.

غيرهم إلاّ بالقسط الذي تسمح به الضرورة ومما يؤيد هذا الرأي هو التفاهم واحتكارهم احرف صناعة معينة.

إن النزعة الإستعلائية للأندلسيين جعلتهم يحتفظون بتقاليدهم ونمط حياتهم[1] فقد كانوا يفتخرون بإنتمائهم إلى حضارة الأندلس التي استمدت نظارتها من المشرق الإسلامي والغرب المسيحي، وربما جاءت أحاسيسهم بل قناعتهم بأن وجودهم في بلاد المغرب ضروري لنقل خبراتهم ومصارفهم إلى سكان بلاد المغرب، وبالتالي فبلاد المغرب باقية في حاجة ماسة إليهم.

إن مثل هذه العوامل أدت إلى تشابه كبير في طرق وأساليب التكوين النفسي العميق الذي صيغت به شخصيتهم ومن تم سلوكهم الإجتماعي المتميز.

فقد كانت حفلاتهم تُقام في الحدائق الفسيحة والمنتزهات يدعون إليها أعيان التجار الأندلسيين وبعض الخاصة من سكان الحواضر ويستمعون إلى الموسيقى التي كان الشغفُ بها قويًا بين الشعراء والمغنيين[2] مع شيء من الحذر في بداية عهد الموحدين ثم ما لبثوا أن توسعوا في سماعها وجدير بالإشارة إلى أن الأندلسيين كانوا يمثلون أغلبية المدعوين إلى حفلاتهم أما الأطعمة التي كانت تُحضر فهي أندلسية صرفة حيث يهيئُون مأكلاً يسمى المجْبَنَة ونوعا آخر من الأطعمة يُعرف باسم الثريد[3].

---

[1] - عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، ج1 ، ص 176.

[2] - محمد الطالبي، دراسات في تاريخ افريقية، ص 203.

[3] - الثريد يتكون من لحم الضّأن والدّجاج يُضاف إليهم الكثير من التوابل والزيتونة. ينظر:
- التجيبي إبن زيري، فضالة الخوان في طيبات الطعام، تح محمد شكرون، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1984م، ص 140.

وكان الأندلسيون يلبسون الملابس الحريرية الموشاة وذات اللّون الأبيض في فصل الصيف[1] وقد إشتهر الأندلسيون بلباس يرتدونه في أفراحهم يعرف بإسم الثّوب الملبد[2].

ومادمنا قد تحدثنا عن تجمعات ولقاءات الأندلسيين في الأفراح نرى أنّه من المفيد الإشارة إلى لقاءاتهم أثناء الجنائز فقد أشار كل من بسام وإبن دحية إلى أنه أثناء خُروج الجنازة يكثر الدعاء وترتفع الأصوات وغالبا ما يخرج جمهور كثير للمشاركة في تشييع جنازة الزهاد والفقهاء التقاة[3] وجرت العادة أن يلبس أهالي الفقيد لباسا أبيضَ تعبيرا عن حزنهم على فراقه[4] وهذه العادة تختلف عن عادة أهل المشرق في لبس السّواد[5] وفي الأوساط الرسمية كانت تبعث إلى عائلة المتوفى رسائل التعازي وقد أمدتنا المصادر التاريخية بأسماء المقابر التي كان يتم الدفن فيها من بينها ما إكتشفه دفردان "deverdun" ضمن أبحاثه الأثرية بمراكش.

وفضلت بعض البيوتات الوجيهة بناء روضات خاصة للدفن من ينتسب إليها وحسبنا أن نذكر عمر بن احمد بن سعد اللخمي (ت. 577هـ / 1182م) الذي دفن بمقبرة مدينة فاس لان أهله وأفراد

---

[1] - إبن خلدون، المقدمة، ص 295.

[2] - الملبد: هو ثوب مختوم يمتاز بخيوطه الحريرية المتعددة الألوان. ينظر:
- إبن خلكان وفيات الأعيان، ج7 ، تح إحسان عباس دار صادر ، بيروت (1968م – 1972م)، ص 10.
- أبو عمران الفاسي وعبد الله بن ياسين مشاهير علماء المغرب دار الكتاب اللبناني بيروت ص 35.

[3] - إبن بسّام، الذخيرة القسم الثالث ، إحسان عباس ليبيا تونس، 1981م ،ص 418.
- المطرب من إشعار أهل المغرب إبراهيم الأبياري المغرب 1955م، ص 80 .

[4] - إبن بسام، السابق ، ص 618.

[5] - المقري، نفح الطيب، ج3 ،ص 440.

عائلته دفنوا هناك[1] ومن تقاليدهم أيضا اجتماع أهل الميت عند قبره في صبيحة اليوم الثاني وبعد دفن الميت يترحم عليه بقراءة القرآن[2].

*** العبيد:**

يمثل الرق ظاهرة بارزة في مدن وأرياف بلاد المغرب خلال مراحل تاريخية وهي ظاهرة تكبر وتتسع أثناء الحروب، وتجمع المصادر التاريخية المهتمة ببلاد المغرب أنها عرفت أعدادا كبيرة من العبيد خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين-الحادي والثاني عشر الميلاديين- وكان الجانب العسكري أكبر رافد لوجود الرقيق بالبلاد إلى جانب المجال التجاري الذي يَمُد المعارك ويغذيها بكل ما تحتاجه من بين هؤلاء الذين كان يُزج بهم في الحروب[3].

وامتازت الحياة الإجتماعية والسياسية أثناء نهاية دولة المرابطين وبداية دولة الموحدين بكثرة الإضطرابات الناجمة عن الحروب وفقدان الأمن[4] وخير دليل على ذلك إفتاء الفقهاء بسقوط الحج لخطورة السبيل وجور أهل الزمان[5]، هكذا كانت بلاد المغرب تبدو هائجة، والصّلة كما أشرنا إلى ذلك بين الحرب والإستعباد متينة ومستمرة حيث كانت الحروب لا تهدأ إلاّ لإلتقاط الأنفاس بين نصارى إسبانيا المنطَويّن تحت راية حركة الإسترداد المسيحي التي رأت النّور وعلامات الإنتصار وبين

---

[1] - إبن عبد الملك، الذيل والتكملة ، ج5 ، ص 477.

[2] - إبن الزيات، التشوف ترجمة أبو موسى الدكالي، ص ص 206 – 207.

[3] - إبن خلدون، العبر، ج6، ص403.

J. Pionon, "l'esclavage en Tunisie" (Rev. Tum.) 1930 PP 31-34 -

[4] - مارمول كربخال، افريقيا، ترجمة محمد حجي وآخرون، الرباط 1988م، ص 56.

- مجهول، الحلل الموشية، ص 65.

[5] الدرجيني، طبقات المشايخ بالمغرب، ج1، تحقيق إبراهيم، طلاي، مطبعة البعث-قسنطينة- الجزائر (د.ت)، ص 121.

أهل المغرب الذين حملوا لواء الجهاد ونشروا المبادئ الإسلامية في إسبانيا، والذين لا يريدون أن تكون الهزيمة على أيديهم[1]

وبين هذه وتلك حروب أطنَبَت المصادر التاريخية في وصفها ورصد نتائجها وتعداد أسراها من الجانبين، وقد عمل الموحدون على نقل الأسرى إلى مراكش ثم توزيعهم على مجالات حياتية متعددة، بعد إحصائهم وتفقد سلامة أعضائهم ومدى قدرتهم على تحمل أنواع معينة من الخدمات مع تحديد أعمارهم، وكثيرا ما كانت تُقَيّم الإنتصارات بعدد القتلى والأسرى[2]

وجدير بالإشارة أن الموحدين إعتبروا أسرى المرابطين عَبيداً يُعامَلون معاملة الرقيق[3]، ولم يكونوا بدعاً في مثل هذه المعاملات، فقد سبقهم إليها بنو زيري الصنهاجيين ومن بعدهم المرابطون[4]، وعلى أساس ما تقدم يمكن تقسيم أنواع الأسرى في الحروب إلى قسمين رقيق غير مُسلم، ورقيق مسلم.

---

[1] – منذ أن بسط الموحدون سلطتهم على بلاد المغرب، أصبحوا متأثرين بمستلزمات التوسع وتأمين الحدود والحفاظ على المكتسبات السياسية والجغرافية. في حين استمرت حروب الاسترداد المسيحي وامتدت حتى أواسط القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي.

– عبد العزيز بن عبد الله، الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية ملحق المدن والقائل جامعة محمد الخامس، الرباط 1977م، ص ص 36-120-115.

[2] Yorok, Fall, Modalités et formes de développement de l'esclavage de l'ouest, Paris - 1959, P41

– إبن أبي الزرع، روض القرطاس، ص 79-80.

[3] – عمد الموحدون إلى تخميس المنهزمين أمامهم من المرابطين في معاركهم التي دارت في منطقة درعة، وسجلماسة، وسوس، ووهران وتلمسان، باعتبارهم عاصين ومتمردين.

– إبن غازي، الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، الرباط، 1964م، ص 15.

– الونشريسي، المعيار العرب و الجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب، المجلد الثاني، الرباط – 1981، ص 453.

[4] – إبن أبي الزرع، السابق، ص ص 79-81.

1 - مصادر الرقيق:

كانت إسبانيا المسيحية الرافد الأساسي للسبي المرابطي، فقد شكلت معركة - الزلاقة التي إنتصر فيها المرابطون سنة (12 رجب 479 هـ/ 23 أكتوبر 1086م) . أول احتكاك مرابطي إسباني انتصر فيها المراطبون وأسروا عدداً من المسيحيين قدره المؤرخون بعشرين ألفاً ثم نقلهم إلى المغرب[1] وقد كثر السبي لدرجة أن المرابطين أصبحوا يتهادون بالسبايا بعد إنتصارهم على المسيحيين سنة (501هـ/1108م) وكان عدد أسرى نصارى الإنسان في هذه المعركة يعد بالآلاف - وعندما عاد الأمير المرابطي تاشفين بن علي من الأندلس إلى المغرب بعدما غزو مدينة أشكونية سنة (532هـ/1138م) حمل من سبيها ستة آلاف سبية[2].

ومما يجب التنبيه إليه أن هذه الجبهة لم تهدأ بانتقال السلطة من المرابطين إلى الموحدين منذ النصف الأول من القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي، الأمر الذي ينبئ باستمرار تدفق السبي، ففي سنة (550هـ/1155م) هاجم الخليفة عبد المؤمن بن علي حصن طركونة[3]. فقتل من النصارى وأسر حتى امتلأت أيدي المسلمين بنساء الإسبان وأبنائهن. الأمر الذي دفع الموحدين إلى مزيد من التقدم وافتكاك الحصون والقلاع[4] من أيدي مسيحي إسبانيا، ففي

---

[1] - مارمول كربخال، إفريقيا، ج2، ترجمة محمد حجي وآخرون، الرباط 1988م- 1989م، ص ص 56-58.
- مجهول، الحلل الموشية، م س، ص 65.

[2] - إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص164.

[3] - حصن طركونة، كان متصلا بالمرية وهو يربط بين الطريق البري والبحري، حيث تعبر السفن منه إلى مرافئ بلاد المغرب ومصر. ينظر:
- حسين مؤنس، رحلة الأندلس، ط2، الدار المسعودية 1985م. ص 255.

[4] - إبن عذاري، البيان، قسم الموحدين، ص 54.
- إبن أبي الزرع، السابق ،ص 200 .

سنة (560هـ/1165م) حققت حملة موحدية قادها الخليفة أبو يعقوب يوسف ضد شنترين نصراً مؤزراً وغنموا وسبوا أعدادا كبيرة منهم[1] وأثناء غارة شنها الإسبان على الموحدين بالقرب من غرناطة سنة (563هـ/1168م) تمكن الموحدون من صدّ هذه الغارة وقتلوا العديد من المسيحيين وأسروا ثلاثة وخمسين فردا أستاقوهم إلى غرناطة ثم إلى مراكش[2].

وفي مرحلة تالية اعتمد الموحدون مهاجمة الحصون والقلاع التي أقامها الإسبان كمراكز هجومية متقدمة، فقد هاجم الموحدون سنة (572هـ / 1176م) حصن طلبيرة[3] بقيادة الأمير حسن علي بن خليفة يوسف " فسبى جميع من وجد فيها من النساء والأطفال وقتل الرجال ثم عاد إلى إشبيلية بالغنائم والأسرى، كما أُسِرَ وسبى القائد الموحدي محمد بن وانُدين الهَنتاتي أربعمائة من النساء ومائة وعشرون من الرجال أثناء هجومه على حصن قَلّيج[4] سنة (577هـ/1181م) .

وعلى مستوى الحملات البحرية التي جَرّدها الموحدون لمحاربة المسيحيين في إسبانيا كانت الحملة البحرية التي إجتمع فيها أُسطول مدينة سبتة مع أسطول إشبيلية وكوّنوا أسطولا بلغ عدد وحداته أربعين قطعة توجه نحو مدينة "شلب" حيث إشتبك مع الأسطول البحري المسيحي، فكان النصر حليف الموحدين حيث قتلوا من النصارى كثيرا وأسروا منهم نحو الألف والثمانمائة "1800" أسيراً[5] .

---

[1] - إبن عذاري، البيان، قسم الموحدين، ص 98.

[2] - إبن صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، ص 175.

[3] - طلبيرة: مدينة صغيرة تقع على ضفة نهر التاجة شمال غرناطة. انظر:
- إبن عذاري، السابق، ص 138.

[4] - حصن قَلّيج: حصن من حصون مدينة تطيلة –TUDELA- الواقعة جنوب شرق سرقسطة ويخترقها نهر كالش. ينظر:
- عبادة كحيلة ، تاريخ النصارى في الأندلس، ط1 دار السعادة- القاهرة 1993م، ص 241.

[5] - إبن عذاري، السابق، ص 145.

وفي عهد الخليفة الموحدي يعقوب المنصور كثر السبي والأسر، فكانت حصيلة جوازه إلى الأندلس عام (585هـ / 1189م) قاصداً الجهة الغربية ناحية أشبونة، أن حمل معه إلى فاس ثلاثة عشر ألف "13000" سبية من النساء والذرية[1] وكانت حصيلة حملة أخرى قادها يعقوب المنصور على غرب الأندلس سنة(587هـ/1191م) . لرد اعتداءات النصارى أسر خلالها خمسة عشر ألف "15000"سبية وثلاثة آلاف أسيرا حملوا إلى قرطبة ثم حولوا إلى مراكش[2]. ولا نرى بأساً من إدراج مسألة فداء الأسرى ما دمنا في هذا الإطار.

لقد إجتمع عدد كبير من أسرى المسلمين لدى النصارى الإسبان يماثل أو يفوق عدد الأسرى النصارى لدى المسلمين لدرجة أن أحد الباحثين ذهب إلى القول بأن المواجهات التي كانت المنطقة الحدودية الإسلامية المسيحية في إسبانيا مسرحا لها لم تكن تهدف إلى فتوح ترابية أي لم تهدف إلى ضَمّ أرض جديدة، بقدر ما كانت تهدف إلى جلب الغنائم والأسرى[3]. ومهما تكن درجة المبالغة في الوصف، أو الشّك في نوايا الفاتحين المسلمين لإسبانيا فإن الأسر والسّبي كان كثيراً، ولهذا استغل الموحدون الأسرى الذين تجمعوا لديهم واستعملوهم في فداء أسراهم لدى الإسبان، وشكّلوا هيئة يترأسها شخص تُسميه المراسلات الموحدية بـ"الفكّاك". واتبعوا شكلين في استرجاع أسراهم لدى الإسبان.

---

[1] - إبن أبي الزرع، روض القرطاس، ص218؛ - الناصري، الإستقصا، ص281.

[2] - إبن أبي الزرع،السابق، ص 219؛ - الناصري، السابق ، ص 184.

وسمح انتصار يعقوب المنصور في معركة الأرك عام (591هـ/1195م) بأسر وسبي أعداد كبيرة من المسيحيين عاد بهم إلى مراكش، الأمر الذي أدى إلى كساد تجارة الرقيق ورخست فيه أسعارهم. ينظر : - إبن الخطيب، أعمال الأعلام، ج2، ص 219.
- إبن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص 174.

[3] - (J.) Gautier, « Islam et chrétienté en Espagne AU XIIeme siècle contribution a l'étude de la notion de frontière », Hésperie (1959), 3ème / 4^éme trimestre, tom XI / VII, p 180

- أسرى الحروب:

أسرى مقابل أسرى:

اتضح هذا الشكل من ردّ الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بعضا من أسرى النصارى الذين تمّ أسرهم سنة(577هـ/1181م) في غارته على مدينة شلب مقابل فداء غَانم بن مردنيش[1] وينسحب الأمر على أسرى معركة الأرك، حيث توصلت المفاوضات إلى أن فودي عدد النصارى المحاصرين بحصن الأرك الذين يقدر عددهم بخمسة آلاف محاصر- بمثل عددهم من أسرى المسلمين المحتجزين لدى الإسبان[2] ونشير إلى أن المؤرخين الذين تناولوا هذه المسألة قد إتفقوا في المبدأ والتاريخ والمناسبة، واختلفوا في عدد الأسرى المسيحيين، وقد اعتمدنا رواية ابن عذاري لبعدها عن المبالغة.

أسرى مقابل مال:

يشير إبن عذاري إلى أن الخليفة الموحدي يوسف بن عبد المؤمن كان يحسن لمن تقرّب منه وإستغاث به من جند إسبانيا المأسورين ففداهم بمالـه[3] وقد فدى الموحدون أحد قادتهم وقع في الأسر سنة(570هـ/1175م) بمبلغ "أربعة آلاف دينار موحدي"[4] وتعددت هذه الحالات فقد فك أسرى المسلمين أنفسهم عندما وقعوا في الأسر أثناء معركة باجة بما قدموه من أموال سنة(575هـ/1179م)[5]. وفي حالات غير منتظمة، كان الموحدون يُجرّدون هجمات فُجائية ومباشرة

---

[1] - كان غانم بن مردنيش قائداً لأسطول سبتة ووقع في الأسر سنة (576هـ/ 1180م) صحبة أخيه أبي العلاء وبعض أعوانه، ينظر:- إبن عذاري، البيان، ص 220.

[2] - إبن عذاري ، السابق، ص 220.

- إبن خلدون، العبر، ج6، ص 294.

[3] - إبن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص237 .

- النويري، (أحمد عبد الوهاب) نهاية الأدب في فنون الأدب، تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد ، الدار البيضاء، 1985م، ص 439.

[4] - إبن عذاري، السابق، ص 91 .

[5] - إبن صاحب الصلاة، تاريخ المدن بالإمامة، ص 167.

على حصون النصارى الإسبان بهدف تحرير الأسرى المسلمين مثل ما فعل الموحدون أثناء غارتهم على قلعة رباح-CALAYTRAVA- حيث تمكنوا من فك جميع أسراهم[1] وبقي أن نشير إلى أن الموحدين مالوا في عدة حالات إلى عدم أسر مشركاً محارباً إن ظفروا به ولو كان ملكا، فقد كانوا يضربون رقابهم مهما بلغ عددهم[2].و لم ينفرد حكام بلاد المغرب بمسألة فداء الأسرى. فقد عرفت بلاد المشرق الإسلامي المسألة نفسها أثناء الحروب الصليبية، فبعدما حرر صلاح الدين الأيوبي مدينة القدس (28 رجب 583هـ/ 03 أكتوبر1187م)، مكّن أسرى المسيحيين من شراء أنفسهم وكان الرجل بعشرة دنانير والمرأة بخمسة دنانير والطفل بدينارين[3] ومن لم يستطع فدية نفسه في مدة أربعين يوما يصبح عبداً.

أما في بلاد المغرب وخلال الفترة موضوع البحث فقد سكتت المصادر والمراجع عن مثل هذه الترتيبات، واكتفت بالتلميح إلى منع بيع الأسرى والإسراع إلى تحريرهم أو فديتهم وفق إتفاقيات محددة.[4]

وجدير بالإشارة إلى أن الموحدين كانوا قد استرقوا السبي الحاصل من المواجهات العسكرية التي كانت ببلاد المغرب ميدانا لها خلال موضوع البحث، والذي أسفرت عن إسترقاق العديد من أبناء وبنات المغرب. فقد عرفت الفترة قيام دولة الحماديين في المغرب الأوسط ودولة المرابطين والموحدين في بلاد المغرب تعدد المواجهات العسكرية بين الدول القائمة فضلا عن الهجرة الجماعية للهلاليين،

---

[1] - إبن عذاري، البيان، ص ص 125-127.

[2] - المقصود ضرب رقاب الرجال بعد قتلهم والعملية تكررت عند الموحدين مع النساء والذراري أيضا.
- إبن خلكان (شمس الدين أحمد بن محمد)، وفيات الأعيان، المجلد 7، ص 8.

[3] - مجهول، الإستبصار، ص 106.

[4] - De Mas. Latrie : (Le Compte de), Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chrétiens avec les Arabes de l'Afrique Moyen âge, Paris AC65.P216.

الأغزاز وبني غانية الأمر الذي يوحي بحالات كثيرة من إستعباد الأسرى. لقد أسفرت المواجهات بين العرب الهلاليين وصنهاجة الشرق أن «حولوهم عبيداً وخدما بباجة بإفريقية»[1] وما يدعم هذا الرأي قول ابن عذاري: " إنقطع المير عن القيروان وتعطلت الأسواق وأمسك العرب جميع من أسروه فلم يطلقوا أحدا إلا بالفداء مثل أسرى الروم، وأما الضعفاء والمساكين فأمسكوهم لخدمتهم ".[2]

وعلى مستوى الدولتين المرابطية والموحدية فإن الإشارات الصادرة من المؤرخين صريحة ومتعددة حول السبي الذي كان يقع بين أيادي رجال الدولتين من معارضين لمشروعهم السياسي وعادة ما يكون مصيرهم الإسترقاق.

لقد اعتَمَدَت الدولتان مُسوّغاً مفاده أن أعداء الدولتين هم الكفار، ومن ثم فمن حق الدولة النظر في الأسرى الذين غنمتهم خلال مواجهاتها أياهم وتقرر المصير الذي تراه إما القتل أو الفداء أم الاسترقاق؟ وبهذا المفهوم فقط يمكن تعليل الحملات العسكرية التي تعود بسبي وفير[3].

والأكثر من هذا فإن المرابطين لم يمتنعوا في مرحلتهم الدعوية الأولى عن سبي من وقفوا أمامهم أثناء زحفهم نحو شمال ووسط بلاد المغرب. فقد دخلوا مدينة أودغشت فاستباحوا حريمها واعتبروا جميع من أصابوا فيها فيئًا بالرغم من أنّ بعض أهل المدينة كانوا عربًا[4].

---

[1] - إبن عبد الملك الأنصاري، الذيل والتكملة، السفر 1، ق 1، ص 230.

[2] - البيان المغرب، قسم الموحدين، ص 10.

[3] - عندما جرد أبو بكر من عمر اللمتوني حملة عسكرية قادها بنفسه لمنازلة قبيلة برغواطة المارقين عن الدين حسب زعمه، فروا بين يديه، وهو في أثرهم يقتل ويسبي حتى أثخن فيهم ينظر: - إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص ص 230-255.

- وكان قبله عبد الله إبن ياسين قد غزا نفس القبيلة فغنم وسبى ثم قسم على صنهاجة الصحراء سبيهم وأموالهم. ينظر:

- إسماعيل بن الأحمر وآخرون، بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور، الرباط، 1972م، ص 31.

[4] - البكري، كتاب المسالك والممالك، ج2، ص 863.

وإذا كان هذا شأن الحركة الإصلاحية المرابطية مع أسرى الحروب الداخلية التي دارت بينهما وبين القبائل البربرية والعربية المسلمتين، فإن الموحدين الذين أطاحوا بحكمهم كان موقفهم من أسرى الحروب الداخلية أقسى وأشد، فقد أباح المهدي بن تومرت جهاد المرابطين، وسبي نسائهم ودراريهم وأولادهم[1]. وبناءًا على ما وضعه إبن تومرت من مبادئ، قام الموحدون بسبي المرابطين أثناء المعركة التي دارت بينهم وبين قبيلة جزولة المؤيدة والمؤسسة لدولة المرابطين . ذلك سنة(533هـ/1139م)، وانهزمت قبيلة جزولة أمام الموحدين الذين لم يتورعوا في قتلهم وسبي نسائهم ومصادرة أملاكهم[2]. وتكررت العملية مع نفس القبيلة سنة(548هـ/ 1153م) وبيعت غنائم الموحدين في مراكش[3].

ولا تغيب عن أذهان المؤرخين والباحثين صور العنف والغلظة التي تم بها اقتحام مدينة مراكش من قبل عبد المؤمن بن علي، حيث أبيحت مراكش فقتل من وجد فيها من المرابطين ثلاثة أيام ثم عفا عبد المؤمن عمن بقي حياً واشتراهم من الموحدين بماله الخاص ثم أعتقهم[4].

ويشير صاحب الحلل الموشية إلى أن عبد المؤمن بن علي استثنى زينب بنت علي بن يوسف من البيع لكونها زوجة الأمير يحي بن إسحاق

---

[1] - إبن أبي الزرع، روض القرطاس، ص 182.

- البيدق، أخبار المهدي، دار المنصور، الرباط 19، ص 55.

- رسالتان موديتان، تحقيق ودراسة محمد الطالبي، منشورات الجامعة التونسية 1979م، ص 102.

- عبد الإله بن مليح، الإسترقاق في المغرب الإسلامي. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط1، وجدة 2003م، ص 42.

[2] - إبن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص43.

- VINCENT LA GARDÈRE, op.cit, pp 60-69

[3] - البيدق، السابق، ص 79.

[4] - إبن عذاري، السابق، ص 28.

المسوفي المعروف ببونزمار (ت. 549هـ / 1154م) الذي دخل دعوة عبد المؤمن، فكان ذلك جزاءه[1].

و لم يتوقف الموحدون عن السبي خلال فترة غزواتهم على مدن وقرى القبائل المناوئة لهم إبتداءا من غزوة تادلا سنة (526هـ/1132م). وصولا إلى غزوة بلاد المغرب الأدنى حيث غنم الموحدون اثني عشرة ألفا (12000) من البقر ومن الغنم سبعة وعشرون ألفا (27000) ومن السبي ثلاثة آلاف وستمائة وأربعون (3640)[2].

وفعل الموحدون مثل هذا أثناء حصار واقتحام ديار قبيلة غمارة البربرية سنة (562هـ/ 1176م). وجدير بالإشارة أن ظاهرة استعباد الأسرى المسلمين استمرت حتى بعد فترة موضوع البحث بل استفحلت عقب هزيمة المسلمين في معركة العقاب سنة (609هـ/ 1212م). إن وصول الهجومات والغارات الموحدية إلى بلاد المغرب الأوسط، ومواجهتهم من قبل القبائل العربية والصّنهاجية يوضح بجلاء أن العنف والسبي بين المسلمين كان سياسة معتمدة[3] فأثناء دخول الجيش الموحدي بجاية سنة(547هـ/1152م) قتلوا وخربوا ونهبوا أموال أهل المدينة وسبوا نساءهم وذراريهم وظهر ذلك أيضا عندما توجهوا إلى قلعة بني حماد حيث إمتلأت أيديهم بالغنائم والسبي أثناء إقتحامهم وإضرام النيران في القلعة ونخلص إلى القول بأن بلاد المغرب الأوسط والأدنى قدمت للموحدين من الأموال والسبايا ما يفيض به المقام[4].

---

[1] - مجهول، الحلل الموشية، ص 142.

[2] - رسائل موحدية ، مجموعة جديدة، ج1، تحقيق. العزاوي، رسالة رقم 14، ج1، ص 105.
- إبن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص 310.

[3] - يصف إبن عذاري سلوك عرب الخلط بعد نقلهم إلى منطقة تانسيف قرب مراكش بقوله:" الفتك بالأحرار الأبكار، واسترقاق العبيد الأحرار وهو أمر شائع وحكم واقع قاله من دافع ولا وازع:- البيان، قسم الموحدين، ص 312. ينظر:
- الناصري، الإستقصاء، ج2، ص ص 120-124؛ - عبد الإله بنمليح، الإسترقاق في الغرب الإسلامي، ص 45.

[4] - النويري، نهاية الأرب، ج24، ص372؛ - إبن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9 ، ص 372.
- عبد الإله بن مليح، الإسترقاق في الغرب الاسلامي، مرجع سابق، ص 45.

2 - تجارة الرقيق:

الرقيق الأَسْوَد:

أقبل المغاربة على إقتناء الرقيم الأسود حينما:

توطدت العلاقات التجارية بين حكام المغرب وحكام إفريقية الغربية منذ بداية عهد المرابطين الذين أمنوا مسالك التجارة عبر الصحراء وتوثيق عرى الصداقة مع مملكة غانة. وترتب عن ذلك كثرة القوافل التجارية ذهابا وإيابا بين الجهتين الأمر الذي يفسر كثرة العبيد السوداني في بلاد المغرب واكتشفت خصائص ومميزات جواري مدينة أودغست حيث تفوقت في الحسن والمفاضلة[1] على غيرهن من جهات إفريقيا مع إتقانهن للطبخ ومعرفتهن بتنويع وجبات الغذاء، وهكذا ظلّ الرقيق الأسود المجلوب من غرب إفريقية غالبا على غيره منذ القرن الخامس الهجري إلى غاية القرن الثامن الهجري ويشهد بذلك ابن بطوطة[2] بقوله: "ويتفاخرون بكثرة العبيد والخدم" ويفضل أهل مدينة بونة كما يؤكد ذلك الحميري حيث يقول إن سكان مدينة بونة ينظرون إلى العبيد الأبيض ويقولون (يصح بها — بونة - السودان يَسْقُمُ البيضان)[3] ويكثر العبيد السود أيضاً ببلاد إفريقية[4].

تعتبر منطقة القرن الإفريقي أقرب منطقة لشبه الجزيرة العربية إذ لا يفصل بينهما سوى باب المندب عبر البحر الأحمر، وقد اهتم

---

[1] - لقد أفاض صاحب الاستبصار في وصف جواري أودغست فيقول: « دوار حسان بيض الأسفاف مائسات القدور، لطاف الخدود...»
- مجهول، الاستبصار، ص 215.

[2] - رحلة إبن بطوطة ، دار التراث، بيروت 1968م، ص 88.
- مجهول، السابق، ص 216.

[3] - الروض المعطار، ص 146.

[4] - عبد الإله بن مليح، الاسترقاق في المغرب، ص 126.

المسلمون مبكراً بجزر الدّهلك المقابلة لساحل شبه الجزيرة من الجهة الأخرى المؤدية إلى الحسبة ودون أن نتحدث ونفصل في علاقة سكان القرن الإفريقي ببلاد الشرق، نشير إلى أن زيادة على ذلك فقد كان سودان الأحباش ينتقلون إلى بلاد المغرب عبيداً كانوا أو أحراراً.

فقد عثرنا على إشارات تفيد أن للأحباش وجود في مجلس الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي فقد ورد على لسان القائد الموحدي ابن وزير ما يلي:" رضي الله عنه لو جعل بينه وبين عبيدهم وجنوده وعماله ورعيّته عبدا حبشيا يوصل له عنا كَلاَمَنَا ومسائلنا لعظمناه وأملناه وهادیناه"[1].

وقد تزوج الصوفي الشهير أبو مدين جارية حبشية، وأنجب منها ولداً ثم زهد فيها ورغبة من أحد تلاميذته في التخفيف عنه إقترح عليه أن يتزوجها هو ويتكفل بإبنه فكان ردّ أبي مدين " أتفعل ذلك ونكاح الحبشية عند المصامدة عار؟ غير أن التلميذ ألح عليه فاستجاب له"[2]، ونشير إلى أن الوجود الحبشي في بلاد المغرب سواء الأحرار أو العبيد لم يكن بصورة عبيد السودان الغربي، وبنفس حجم الوجود الحبشي كان العبيد الوافد من بلاد النوبة قليلا، فقد تحدث الإدريسي صَراحة عن جمال نساء بلاد النوبة واصفا إياه بالفائق والمتميز الواضح مقارنة بنساء غانة وكانم والحبشة بقوله:" تنافس ملوك مصر في اتخاذهن أمهات أولاد لطيب متعتهن ونفاسة حسنهن"[3].

---

[1] - عبد الله بن مليح، الإسترفاق في المغرب ، ص 126؛ - إبن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص 59.

[2] - إبن الزيات، التشوف، ص 64.

[3] - الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 30-31.

- محمد بن شريفة، إبراهيم الكائني، انموذج مبكر للتواصل الثقافي بين المغرب وبلاد السودان، منشورات معهد الدراسات الإفريقية مطبعة النجاح. الدار البيضاء 1991م، ص ص 19-20-23.

- الشماخي، كتاب السير، تحقيق محمد حسن، السلسلة 4، كلية العلوم الإنسانية تونس 1995م، ص 97 .

الرقيق الأبيض:

عرفت بلاد المغرب خلال عهد الموحدين تدفقاً بشرياً مميزاً، بسبب تبعات الحروب المستمرة بين الموحدين والنصارى من جهة، وبسبب سياسة الاجتثاث التي مارسها رواد حركة الاسترداد المسيحي على المسلمين واليهود من جهة ثانية، وفي هذه الظروف الموجدة للعبيد جُلب الرقيق الأبيض بصورة مكثفة إلى المغرب وقد ساهمت حاجة أهل المغرب إلى الرقيق في تنشيط تجارته بين المسلمين وبلاد أروبا، والرقيق الأبيض الذي عرف باسم الرقيق الصّقلبي.

وقد سكن الصقالبة الأصليون البلاد المتاخمة لبحر الخزر الواقع بين القسطنطينية وبلاد البلغار، ثم أخذ اللفظ مدلولا آخر في الأندلس فصار يطلق على أسرى الحروب الذين كانوا يقعون في أيدي الجرمان ويباعون للمسلمين في الأندلس ، حيث يدجنوهم في صفوف الجند أو يحتفظ بهم للخدمة في القصور[1] .

ومن الأندلس وصقلية والجزر الشرقية "البليار" وغيرهم إنتقل الرقيق الأبيض إلى بلاد المغرب حيث يوزّعون على أسواق مدنه وخاصة مدينة فاس ، وسبتة، وبجاية، وبونة .

وما يؤكد هذا تلك الهدية التي وجهها الأمير الزيري الصنهاجي باديس بن المنصور(405هـ/1045م) إلى الحاكم الفاطمي بمصر والمتمثلة في عشرين وصيفة بارعة الجمال وعشرة من الصقالبة[2]

---

[1] - أحمد مختار العبادي، الصقالبة في اسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبية، مدريد 1983م، ص 136.
- أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي.ج4، ط7، القاهرة 1984م، ص 30.
- مصطفى أبو ضيف أحمد، أثر العرب في تاريخ المغرب ، ص 46، حاشية 78.

[2] - الصقالبة، هم من ولد مادای بن يافث ومساكنهم في الشمال، تخرجت أجناسهم. وملك كل جنس ملك وملوكهم أربعة، ملك البلغارين، ملك فارغة وبويسمة، وملك مرامو، وبلاد بعضهم الترك ويمتازون بالتجارة
- ينظر، البكري، المسالك والممالك ، ص 706.

ويشير إبراهيم حركات إلى أن الأمير بلكين بن زيري كان يملك أربعمائة (400) جارية، وقد بشر في يوم واحد بمولد سبعة عشر وليداً[1] .

واستمر الإقبال على شراء الصقالبة أثناء قيام وتوسع دولة المرابطين الذين اشتروا منهم مائتين وخمسين فارساً[2] ويسميهم المؤرخون بالعلوج واستمر اقتناء عبيد الصقالبة[3]، وارتقى بعضهم في المجال السياسي فقد أوضح أحد المؤرخين أن الخليفة عبد المؤمن بن علي كان يعتمد على أحد العبيد الصقالبة بعدما قرّبه منه كلّفه بالإتصال الرسمي بالوفود السياسية[4].

واستعمل مؤرخو القرنين الخامس والسادس الهجريين مصطلح الروم بمدلول عام وذلك لتداخل الشعوب، وتعدد الأنشطة الحرفية فقد استعمل اللفظ إشارة إلى نصارى الأندلس الغير معاهدين، وامتد ليشمل مسيحي إسبانيا بكاملها، بغض النظر عن محل إقامتهم وطبيعة نشاطهم، أحراراً كانوا أم عبيداً[5] . وأضاف ابن حوقل صنفا آخر لم يفصح عن أصله عندما أشار إلى صادرات المغرب من الرقيق الأبيض

---

[1] - إبن الخطيب، أعمال الأعلام، ج2، ص 187.

- محمد المنوني، ثقافة الصقالبة، مجلة المناهل، السنة11، عدد31، 1984م، 1990.

[2] - مجهول، الحلل الموشية ، ص 25.

[3] - إبراهيم حركات، النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين. منشورات مكتبة الوحدة، الدار البيضاء(د.ت)، ص 149.

- عبد الله بن مليح، الاسترقاق في الغرب الإسلامي ، ص 142.

ويشمل الرقيق الأبيض سواء كان صقلبيا أو جليقيا.(نسبة إلى منطقة جيليقيا في أقصى شمال إسبانيا).أو فرنجيا التشعب المتفرع من القبائل الجرمانية التي استقرت منذ أواخر القرن الخامس الميلادي بين نهر الراين والبحر في اقليم فلاندر -flandre-يعني بلجيكا حالياً ومملكة الفرنج أصل فرنسا الحديثة ويطلق على هؤلاء العبيد أحيانا إسم العلوج.

- إبن الأثير، الكامل، ج4، ص 213.

- المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين، تحقيق حسين مؤنس، ط1، مكتبة الثقافة الدينية. مصر 1997م، ص 48.

[4] - علي الجزنائي، جن زهرة آلاس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الطبعة الملكية، ط2، الرباط 1991م، ص 59.

[5] - البيدق، أخبار المهدي ،ص 93.

- المراكشي، المعجب ، ص 226.

- إبن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ج4، ص 98.

إلى المشرق فقال: "الغلمان الرق الروم" وهو لا يعن واحداً من الأصناف التي تحدثنا عنها لأنه يتمم قوله:"الروقة الروم من سبي إفرنجة جيليقية والخدم الصقالبة"[1].

وترددت إشارات صريحة دات مدلول عام على لسان الونشريسي في نازلة يقول فيها " رجل اشترى رومية في المهدية"[2] واضاف الونشريسي، وآخر"وصيفة رومية"[3]

إلى جانب الرقيق الصقلبي والرومي عرفت بلاد المغرب نوعاً آخر من الرقيق الأبيض عرف باسم الرقيق الإفرنجي، حيث تشير بعض الدراسات إلى أن مصدر خصيان عبيد بلاد المغرب من الفرنجة[4] وإلى جانب ذلك كان نوع آخر يعرف باسم الرقيق الجيليقي وهذا النوع يسجل حضورا معتبرا في بلاد المغرب، وذلك للعلاقات بين الأندلس وبلاد جيليقية الواقعة شمال إسبانيا من جهة وإلى العلاقات بين بلاد المغرب والأندلس من جهة ثانية[5].

أما عن مجالات استخدام العبيد فيمكن حصرها في ما يلي:

2- مجالات إستخدام العبيد:

يمكن حصر إستخدام العبيد في:

2-1- في المجال العسكري:

لقد ساهمت السلطة الحاكمة خلال القرن الخامس والسادس الهجريين- الحادي عشر الثاني عشر الميلاديين (05-06هـ / 11-12م) في جلب

---

[1] - صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت 1979م، ص 159.

[2] - المعيار، ج3، ص 159.

- عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي، دار الشروق ، بيروت 1983م، ص 103 .

[3] - المعيار، ج3، ص 308.

[4] - إبن حوقل: صورة الأرض، ص 106 .

[5] - المراكشي في الوثيقة الثانية عن الحضور المتميز للعبيد الجليقي في بلاد المغرب وخاصة الصّفات البدنية للحواري، وكذا جمالهن الفاتن. ينظر: - وثائق المرابطين والموحدين، ..وثيقة رقم 02، ص 298؛ وثيقة رقم 5، ص 344.

الرقيق الأسود فالأمير يوسف بن تاشفين اشترى نحو ألفين من العبيد السود وجعلهم فرسانا[1] وتفيد المعلومات التي أوردتها المصادر التاريخية أن أعداد الرقيق الأسود المنظم إلى حملات الدولة العسكرية قد استمر في التدفّق عبر الحروب أو التجارة وخير دليل على ذلك مشاركة أربعة آلاف سوداني في معركة الزلاقة الشهيرة [2] وقد ساهم عبيد كل مدينة مغربية بعدد معين للتصدي لحركة الاسترداد المسيحي في الأندلس[3] مما دفع السلاطين في الاستمرار في استخدام العبيد السود في المجهود الحربي خلال عهد الموحدين، فقد شكل العبيد السود فرقة عسكرية ومستقلة ضمن القوات الموحدية[4] . واتخذهم الخلفاء الموحدون حرساً خاصا لهم[5] وينسحب الأمر على العبيد الأبيض في ميدان الحراسة، والمشاركة في المعارك[6].

2 - 2 - استخدام العبيد في المجال السياسي :

لم ير خلفاء الموحدين مانعا من استخدام العبيد السود في مناصب سامية، فيكفي لهم على ما يبدو توفر الخصائص التأهيلية في أي ميدان زيادة على توتر عنصر الثقة والمصداقية فهذا الخليفة عبد المؤمن بن علي أثناء حملته على بلاد المغرب الأوسط وبعد فتحه لتلمسان شكل سفارة وجعل على رأسها غلاما أسود بعث بها إلى أهل بجاية

---

[1] - مجهول، الحلل الموشية ، ص 25.
- إبراهيم حركات، النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين ص 154.
[2] - إبن خلكان، وفيات الأعيان، ج7،ص19.
[3] - إبن القطان، نظم الجمان، ص 152.
- إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس بيروت 1998م، ص 49.
[4] - إبن صاحب الصلاة، تاريخ المن ، ص 362.
- عز الدين موسى، الموحدون في المغرب الإسلامي ، ص 204.
[5] - إبن أبي الزرع، روض القرطاس ، ص ص 222- 224.
[6] - مجهول، الحلل الموشية ، ص 25.

ليتفاوض معهم على فتح مدينتهم للموحدين وتقديم الولاء[1] ويبدو أن هذه السياسة كانت عامة. فقد قرب الموحدون في بلاطهم بمراكش عبداً صقلبياً [2].

2 - 3 - استخدام العبيد في المجال الفلاحي :

إن استخدام العبيد السود في الأشغال الفلاحية بدأ منذ العهد المرابطي إذ جاء الصنهاجيون ومعهم عبيدهم من السودان وكانوا يستخدمونهم في رعي الإبل وبعد انتقالهم إلى الجهات الرطبة من المغرب وبداية تحولهم نحو الزراعة أُستخدموا في الحرفة الجديدة، وهناك حالات كان فيها العبيد السود يعتبرون من وسائل العمل الفلاحي وبالغ بعض الناس في استخدامهم في الجرّ مثل البهائم[3] وتحدثت نازلة عن " إيجار الحيوان أو العبيد بطعام غير موصوف"[4].

أما خلال العهد الموحدي، فإن العمل الفلاحي كان في الغالب مأجوراً والإستعمال الغالب للعبيد السود كان في الأشغال المنزلية، ولا بأس أن يكون في أعمال البستنة والسقي، وزبر الأشجار[5].

---

[1] - النويري، نهاية الأرب، السفر15، ص ص 284-290.

[2] - علي الجزنائي، جنى زهرة في بناء مدينة فاس ، ص 57.

[3] - الونشريسي، المعيار، ج8،ص 109-110.

[4] - الونشريسي، السابق، نفس الجزء والصفحة .

[5] - محمد الطويل، الفلاحة المغربية في العصر الوسيط ، رسالة جامعية، الرباط، 1988م، ص 80-81.

الخلاصـــة:

عـــرف ســـكان بـــلاد المغـــرب وخاصـــة البربـــر تحركـــات جماعيـــة قبليـــة، وتمّ خـــلال الانتقـــال مـــن القبيلـــة إلى طـــور الإتحـــادات القبليـــة ظهـــور الدولـــة المركزيـــة وتطورهـــا[1]، وهـــذا التحـــول نحـــو الدولـــة كـــان مرتبطا بعدة معطيات اجتماعية واقتصادية وسياسي.

قـــد كانـــت الفتـــرة التاريخيـــة لموضـــوع الدراســـة تمثـــل قمـــة هـــذا التطـــور الحـــضاري الـــذي عرفـــه ســـكان بـــلاد المغـــرب. ولعلـــى نقـــص الدراســـات المونوغرافيـــة الـــتي يقـــع فيهـــا تتبـــع التطـــور الحـــضاري للـــسكان البربـــر في المدينـــة المغربيـــة أو القريبـــة هـــو الـــذي أضـــفى ضـــبابية علـــى المستوى الحضاري للبربر خلال العصر الوسيط.

لقد عـــاش الـــسكان البربـــر حيـــاة مـــستقرة بعـــد أن بـــسطوا ســـلطتهم علـــى بـــلاد المغـــرب كاملـــة، حيـــث عـــرف الـــسكان الأمـــن علـــى طـــول المـــسالك التجاريـــة الداخليـــة والخارجيـــة، الـــصحراوية والبريـــة، وتوجهـــوا نحو تعـــاطي الفعـــل الـــسياسي ملـــتفين حـــول قبيلـــة مـــصمودة الـــتي كانـــت محـــورا لاســـتقطاب جميـــع القبائـــل، وظهـــر الإزدهـــار الإقتـــصادي، والنمـــو العمراني خلال فترة حكمهم.

أمـــا العـــرب فقـــد تراجعـــت أطمـــاعهم في حكـــم الـــبلاد، واكتفـــوا بأنـــشطة حياتيـــة ارتكـــزت علـــى الجوانـــب الإداريـــة، والعلميـــة دون التفـــريط في امـــتلاك المـــساحات الأرضـــية، وتأســـيس كيانـــات سياســـية محـــدودة في المجال الجغـــرافي مثـــل إمـــارة بـــني جـــامع، وإمـــارة قفـــصة وغيرهـــا، كمـــا ســـاهم الأندلـــسيون في تنـــشيط الحيـــاة الإقتـــصادية حيـــث ســـاهموا بقـــسط

---

[1] - أثارت قضية تطور القبيلة ومرافقها من تحولات حضارية جدلا طويلا بين الدارسين.
- طيب تزيني، مشروع رؤية جديدة للفكر العربي من العصر الجاهلي حتى المرحلة المعاصرة، بيروت 1976م، ص 36.
- R. Galissot, problème du féodalisme hors d'Europe, Paris 1974, p 240.
- عبد الحي شعبان، صدر الإسلام والدولة الأموية، بيروت 1983م، ص 169.

وافر في تنشيط التجارة، وتطوير بعض الحرف الصناعية خاصة الموجهة إلى الطبقة الخاصة، ورجال الثروة.

واقتصرت مساهمة النّصارى على العمل في قصور الخلفاء والأمراء، وتشكيل فرق عسكرية، والقيام ببعض الوظائف الإدارية أما اليهود فكان شكل وجودهم محل تحفظ من قبل الموحدين، ومع ذلك فلهم مساهمة في الحرف الصناعية كالصياغة والطّب وبعض الحرف. ويبقى عنصر العبيد الذي كانت تجارته رابحة فقد انتشرت إستغلالاتهم في الخدمة المترلية، وفي القصور، أعمال البستنة وَفِرق من الحرس الخاص لبعض الأمراء.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثاني

طبقات المجتمع المغربي الحضري والريفي

خلال الفترة

515هـ - 595 هـ / 1120م - 1199م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تقديـــــم:

لعلّـهُ مـن نافلـة القـول أن أشـير إلى أن الفتـرة الزمنيـة الـتي اخترهـا للدراسة قد سـجلت ظهـور دولـة الموحـدين الـتي إسـتقرت بدايـة في أقـاليم المغرب الأقـصى، وقيـام هـذه الدولـة كـان نتيجـة تحـرك بـشيري غالـب، رافقته تحركات بشرية مناوئة.

إن التعامل الموحدي مـع المجموعـات البـشرية الأصـلية والنازلـة بهـا قـد جـاء متـأثرا بمعطيـات عقديـة[1] وأخـرى جيُّـو سياسـية فرضـت علـى المغلـوب[2] أن يتحـرك أحيانـا أكثـر مـن الغالـب، زيـادة علـى أن تنظـيم الموحدين في شـكل "طبقـات"[3] كـان يرمـي إلى تغـيير ولاَء الأفـراد الـضيق للقبيلة نحو ولاَء الـدعوة الموحديـة، وبـذلك إسـتبدل التنظـيم القبلـي القـديم بذلك التنظيم الذي طوّره إبن تومرت لإتمام مشروع الدولة المركزية[4].

لقد كان لهذه العوامل تـأثيرات علـى مـستوى الحيـاة الإجتماعيـة أولهـا مذهب التوحيد الـذي جـاء بـه إبـن تـومرت في إطـار الحركـة الإصـلاحية الموحديـة، وإلى جانـب ذلـك محـاولات إعـادة إنتـشار أصـحاب التّـصوف، وأهل النسب – بيـوت الأشـراف –، هـذا زيـادة علـى نمـو فئـة أصـحاب الثروة الذين أنعـشوا إقتـصاد الدولـة. والتـساؤل الـرئيس الـذي تجيـب عنـه

---

[1] – إدعى الإمام محمد بن تومرت المهدوية لكنها ليست المهدية الشيعية، لأنها تقوم على فكرة إنقاذ الأمة الإسـلامية مـن المفاسـد والشرور، ففكره لم يتضمن ترتيب الخلفاء الراشدين كما فعل معظم فرق الشيعية، بل رتبهم حسب تسلسلهم التاريخي.
– وعصمة المهدي بن تومرت لم تنته به إلى العصمة من الرذائل والفواحش، بل اقتصرت عصمته من الباطل والظلم. ينظر:
– عبد المجيد النجار، المهدي بن تومرت، ص 240.

[2] – إبن عازي، الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، ص ص 23 – 24.

[3] – رسائل موحدية، أحمد العزاوي، ج2، ص ص 14-21.
– G. Marçais, les Arbres en Berbéris du XIème aux XIVème siècle, p p 44-50.

[4] – رسائل موحدية، مجموعة جديدة، السابق، ص ص 25- 26.
– البيدق، المقتبس من كتاب الأنساب، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط 1971م، ص 35.

الدراسة في هذا الفصل هو كيف وعلى أي أساس تشكلت مستويات (مراتب) السكان؟ في بلاد المغرب خلال القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي؟

أولاً / طبقة الخاصة في المجتمع الحضري المغربي:

إن الطبقة الإجتماعية في المجتمع الحضري خلال العصر الموحدي تأخذ مفهوما مركبا لتداخل عدة معايير رئيسية. أهمها المهدوية والعصمة، ثم النسب العائلي، والتأهيل العلمي والثروة ومن خلال متابعة الوسط الإجتماعي الثقافي في المدينة المغربية يتضح جليا تداخل المعايير المشار إليها، لكنها لا تتصف بضرورة الإرتباط، ولهذا يمكن تناول هذه المعايير التي تشكل طبقة الخاصة، وهي مستقلة.

* أصحاب الجاه والسلطان:

أصحاب الجاه هم الذين يحوزون الإحترام والتقدير من داخل المجتمع بتأثير النفوذ وهو الإحتمال الذي كان يحصل عليه الشخص ليحقيق رغباته على الرغم من رفض الطرف الآخر المرتكز على السلطة الحاكمة[1]، وأمر الجاه واضح في العصر الموحدي لدرجة يسهل معها التمييز بين الحاكمين والمحكومين.

إن العقيدة التي جاء بها المهدي بن تومرت مبنية على المهدوية التي كانت دائما ثابتا أساسيا من ثوابت المخيلة الإسلامية[2]، ثم على فكرة العصمة[3].

---

[1] - يقول إبن خلدون: "الجاه هو القدرة الحاصلة للبشر على التصرف فيمن تحت أيديهم من إبناء جنسهم بالإمر والمنع والتسلط بالقهر والغلبة. ينظر: - المقدمة، ص489.

[2] - عبد الواحد العُسري، "مدخل لدراسة كتاب أعز ما يطلب"، مجلة كلية الآداب، تطوان، ع1، 1986م، ص 94.

[3] - عصمت المهدي بن تومرت لم تنته به إلى عصمة الشيعة التي اعتقدت أن الإمام كالنبي يجب أن يكون معصوما من الرذائل والفواحش، أما إبن تومرت فيرى أن الإمام لا يكون معصوما إلاّ من الباطل والظلم. ينظر :

- سالم يفوت، إبن حزم الأندلسي والفكر الفلسفي بالمغرب والأندلس، ط1، الدار البيضاء 1986م، ص ص 433 - 455.

هذه العقيدة وفّرت للمنخرط فيها إمتيازات مادية ومعنوية[1]، حيث تعطي للمنتسب إليها صفة المنقذ للأمة الإسلامية من المفاسد والشرور، وخاصة عندما إسْتَتْبَع المهدي بن تومرت الإمامة والمهدية ثم العصمة بإدعائه النّسب القرشي[2] لذلك حاز شيوخ الموحدين مكانة إجتماعية مرموقة في مراتب السّلم الإجتماعي وكل من ضعفت صِلَتُه بالسلطة كانت وضعيته معرّضة للهزات العنيفة، ومن هذا المنطلق كان الطريق إلى المال هو الجاه وليس العكس ويسميه ابن خلدون – الإمارة – ويتم ذلك بالأعمال التي يُتَقَرب بها إليه في سبيل التزلّف والحاجة إلى جاهه فالناس معينون له بأعمالهم في جميع حاجاته من ضروري أو حاجي أو كمالي، فتحصل قيم تلك الأعمال من كسبه وهذا يعني أن السلطان فتح المسالك لتحصيل الثروات باستثمار أعمال الآخرين[3].

لقد تميزت طبقة الخاصة خلال فترة الدراسة بمظاهر إجتماعية مختلفة عن تلك التي سادت في العهد المرابطي. فطبقة الخاصة لدى الموحدين قد قسمت إلى فئات، والموحدون هم الصفوة التي تبوأت المكانة الإجتماعية المرموقة ونالت المناصب السياسية الفاعلة، وهم ينتمون إلى القبائل التي احتضنت الدعوة الموحدية وقد سمّاها المهدي بـ " أهل السابقة" لأنها أيدت ودعمت الدعوة الموحدية من بدايتها إلى غاية الإستيلاء على عاصمة المرابطين مراكش وعددها ثمانية سبعة من المصامدة وهي: هرغة وكدميوة هنتاتة، تينملل، كنفيسة، هسكورة، ريكة وثامن هذه

---

[1] – محمد القبلي، بعض مضمرات التشوف، ضمن التاريخ وأدب المناقب، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، الرباط 1981م، ص73.

[2] – جاء في رسالة بعث بها المهدي بن تومرت إلى المرابطين مايلي: "من محمد بن عبد الله العربي القرشي الهاشمي الحسني الفاطمي المحمدي إلى الفئة الباغية. (جماعة الملثمين الزراجنَة) الساكنين بالسوس دمّرهم الله". ينظر:
- ليفي بروفسال، كتاب أخبار المهدي بن تومرت، باريس 1928م، ص ص 11 – 12.

[3] – عن أهل دار المهدي، وأسماء أصحاب المهدي، وأهل خمسين والقبائل التي ينتمون إليها كما أراد الله
– حسب زعمهم، تعيين أهل خمسين كان الإمام المهدي ينظر في الموحدين ويلتقطهم رجلا بعد رجل. ينظر: – البيدق، المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، ص ص 25، 28، 32.

القبائل هي قبيلة كومية التي ينتمي إليها عبد المؤمن بن علي والمعروفة قديما باسم قبيلة صطفورة الزّناتية[1].

أفراد هذه القبائل جميعهم يُسمّون بالموحدين حسب ما يذكره المراكشي[2]. ويبدو أن هذه التسمية صحيحة لأن اسم الموحدين اقتصر على القبائل المتميزة بالسبق في الدعوة والفضل في قيام الدولة[3].

وعلى هذا الأساس وضع إبن تومرت تنظيماته الإدارية حيث شكل مجلسا يتكون من عشرة أشخاص كلهم من الذين احتضنوا الدعوة منذ بدايتها وسمي هذا المجلس بـ "طبقة العشرة" وأهل الجماعة ويوضح أهميته ومكانته ابن القطان حيث يقول: «وكانوا إذا قطعوا الأمور العظام يخلون بالعشرة لا يحضر معهم غيرهم»[4].

كما شكل هيئتين إستشاريتين هما أهل خمسين وأهل سبعين وهذا لإثبات تمثيل أهل القبائل فقد كان أبو عمران موسى سليمان القاضي وأبو عبد الرحمن سوجات بن يحي وأبو بكر بن يزمان يمثلون أهل تينملل[5]. وأما قبيلة هرغة فكان يمثلها في مجلس الخمسين أبو زكريا يحي بن يومرو، وأبو مروان عبد الملك بن يحي ثم أبو زيد عبد الرحمن بن سليمان[6].

وعلى نفس الشكل كان تمثيل القبائل الأخرى في المجالس الإستشارية الأخرى كمجلس فئة الطلبة وهي هيئة دعوية تقوم بنشر المبادئ

---

[1] - البيدق، المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، 1971، ص ص36-51.
- الناصري، الإستقصاء، ج2، ص99.

[2] - المراكشي، المعجب، ص339؛ - إبن خلدون المقدمة، ص389؛ - العبربي، عنوان الدراية، ص 177.

[3] - يؤكد هذا ما ورد في النصوص التاريخية التي تتحدث عن الحملات العسكرية، وفتوح البلدان وإنشاء المعسكرات، حيث يقال شارك في الحملة الموحدون والعناصر الأخرى ينظر: - رسائل موحدية، ص ص 221-254. أو «عسكرت الجيوش الموحدية والعناصر الأخرى» ينظر: - إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص163.

[4] - إبن القطان، نظم الجمان، ص81.

[5] - المراكشي، المصدر السابق، ص340.

[6] - إبن القطان، السابق، ص30.

التي جاء بها إبن تومرت وإذا كانت فئات الموحدين قد قلصت من التكتل القبلي، فإن عبد المؤمن بن علي اتخذ خطوات تهدف إلى نسف هذا الأساس الذي سنه إبن تومرت – حيث أعاد – في البداية ترتيب القبائل وفرض قبيلته في المرتبة الثانية ولولا الإجلال والتقدير للمهدي لوضع قبيلته كومية في مقدمة القبائل، وإن كان عمليا قد منحها صلاحيات تجعل منها القبيلة الأولى في الدولة الموحدية[1].

أما الخطوة الثانية التي قام بها فهي التصنيف الجديد الذي أحدثه والذي تخطى به النظام القبلي الموروث عن المهدي إذ قسم الموحدين إلى ثلاث فئات دون الرجوع إلى الإنتماءات القبلية[2] والترتيب الذي وضعه هو:

1- الموحدون السّابقون من أصحاب المهدي دون إعطاء أي اعتبار للانتماءات القبلية، ومعلوم أن هذه الفئة ستنقرض مع الوقت.

2 - الذين انضموا إلى الموحدين ما بين معركة البحيرة (524هـ/ 1129م) ومعركة وهران (539هـ/ 1144م) دون الالتفات إلى الانتماءات القبلية أيضا[3].

3 - الذين إنضموا إلى الموحدين بعد معركة وهران دون تحديد للزمن ودون إعطاء أدنى اعتبار للإنتماءات القبلية كذلك.

وهكذا يكون عبد المؤمن قد اختار الفترة الزمنية الفاصلة ما بين معركة البحيرة ومعركة وهران لتوفير الفرصة للكثير من القبائل الأخرى من غير مصمودة بإحتلال مكانة مرموقة بين الموحدين[4]. وخير مثال على ذلك استفادة قبائل زناتية كثيرًا، كما استفادت

---

[1]- إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص131؛ - إبن خلدون، العبر، ج6، ص161
- الناصري، الإستقصاء، ج2، ص ص142-143.

[2]- عبد الله علي علام، الدولة الموحدية، ص ص258-259.

[3]- السابق، ص260.

[4]- البيدق، أخبار المهدي، ص ص100-108.
- إبن خلدون، السابق، ص ص475-477.

به أيضا قبيلة عبد المؤمن بن علي "كومية"[1]. إن هذه الفترة قد شهدت خضوع القبائل المحيطة بوهران وتلمسان لدولة الموحدين[2].

لقد أحس عبد المؤمن بأن الحكم القبلي الذي كان يدير به شؤون المجتمع المغربي لا يفي بفرض إقامة دولة قوية البنيان متينة الأركان لذلك شرع في إزاحة القبائل عن السلطة الفعلية، والإستحواذ بها دونهم، وذلك بإبعادهم عن المناصب التنفيذية[3].

بدأ عبد المؤمن بن علي مرحلة جديدة في بناء الدولة، تمثل ذلك في تعيين ابنه محمد في مرتبة وليّ العهد، ثم خصص مناصب ولاة الأقاليم لأبنائه[4]، وبعدها شيوخ الطلبة في المناصب التنفيذية والوظائف الإدارية وذلك بحجة تخصيص هذه المناصب للكفاءات التي تتخرج من المدرسة التي خصصها لتكوين إطارات في إدارة الأقاليم[5].

لقد استطاع عبد المؤمن نقل السلطة الحقيقية من المجالس القبلية إلى مؤسسات الدولة التي لا تخضع إلا للخليفة وبذلك يكون قد أرسى دعائم دولة قوية وحّدت بلاد المغرب مع الأندلس كما وصفها إبن أبي زرع بقوله: "فكان ملكه من سويقة بني مطكوك قاصية بلاد إفريقية إلى أقصى بلاد نول من أرض السوس الأقصى إلى آخر بلاد القبلة، وملك الأندلس من مدينة تطلية قاصبة بلاد شرق الأندلس إلى مدينة ستنرين من بلاد غرب الأندلس"[6].

---

[1] - عبد الله علي علام، الدولة الموحدية، ص ص123-124.

[2] - البيدق، أخبار المهدي، ص ص100-108.

[3] - إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص ص136-137.

[4] - إبن أبي زرع، السابق، ص ص138-139.

- الناصري، الإستقصاء، ج2، ص123؛ - عبد الله علي علام، السابق، ص226.

[5] - كان الناس قد تنفس الصعداء من غلظة حكم شيوخ القبائل الذين فهموا الحكم على أنه نوع من الغطرسة والإستعلاء. ينظر:
- إبن أبي زرع، السابق، ص137؛ - عبد الله علي علام، السابق، ص227.

[6] - روض القرطاس، ص135.

وعرفت هذه المرحلة ببناء الدولة وتكوين هياكلها وقوانينها ومن ثم فإن التنظيم الذي كان سائدا أصبح لا يلائم المستجدات الداخلية، وبدأ المجتمع المغربي يألف وينسجم مع التنظيمات التي جاء بها عبد المؤمن بن علي ومن ذلك إتضحت معالم الطبقات الإجتماعية وفئاتها، وأول طبقة ظهر تأثيرها في المجتمع الحضري أو الريفي هي طبقة الخاصة التي تضم الفئات الآتية:

- الخلفاء:

اتخذ خلفاء الدولة الموحدية عدة ألقاب، فقد تلقب عبد المؤمن إبن علي بلقب أمير المؤمنين بعد البيعة العامة سنة(527هـ/ 1133م)[1] وكذلك فعل ابنه يوسف وحفيده المنصور[2]، وإلى جانب لقب أمير المؤمنين تلقبوا بالخلفاء ويقصدون بذلك الخلافة عن المهدي بن تومرت[3]. كما أُستعملت ألقاب أخرى للدلالة على التجلة والإحترام والتقدير مثل "سيدنا"، "مولانا"، والحضرة الشريفة، هذه الألقاب تُتداول بصفة أكثر في المخاطبات الشفهية[4].

واتخذ الخلفاء لقبا يضاف إلى إسمهم ويشمل على كلمة الله مثل المنصور بالله. وكل هذه الألقاب كانت محببة لنفوس الخلفاء والموحدين بصفة عامة[5]، وتميز خلفاء الموحدين بلباس البياض شعارا لدولتهم، وجعلوه شعارا يتقدم جيوش الموحدين[6].

---

[1]- إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص131.

[2]- رسائل موحدية، مجموعة جديدة، أحمد العزاوي، ج2، رقم 17-18، ص ص110-114، إبن الأثير، الكامل، ج11، ص ص291-292.

- إبن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص74؛ - عز الدين عمر موسى، الموحدون في الغرب الإسلامي، ص124.

[3]- رسائل موحدية، السابق، ص ص111-112.

[4]- إبن عذاري، البيان، ج3، ص268؛ - مجهول، الحلل الموشية، ص138.

[5]- إبن صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، ص242.

[6]- البيدق، أخبار المهدي، ص73، إبن القطان، نظم الجمان، ص301.

واشترط الموحدون أن يكون الحكم وراثيا فكان الخلفاء من أسرة بني عبد المؤمن وهي شخصيات قوية من جميع الأوجه في بداية العهد مثل يوسف بن عبد المؤمن، والمنصور بن يوسف وكانت توليتهما بعهد من سلف كل منهما[1]. وذلك بعد استشارة أشياخ الموحدين والعرب[2] وقد إعتبر خلفاء الموحدين أنفسهم خلفاء المهدي وكان الخليفة منذ بداية عهد عبد المؤمن بن علي صاحب السلطة العليا في شؤون الدين والدنيا، واستمر الوضع على هذا المنوال إلى غاية نهاية فترة موضوع الدراسة، وكان الخلفاء في هذه الفترة على صلة مباشرة بالمجتمع يتواصلون بمختلف الوسائل مع طلبة الحضر، يراسلونهم، ويجالسونهم، ويعلمونهم بأنفسهم[3].

مظاهر مكانة الخلفاء الإجتماعية:

كان خلفاء الدولة الموحدية يؤمون الناس في الصلوات، ويعلنون الجهاد إذا تبين لهم وجه ذلك[4]، ويسيطرون على أمور الحكم صغيرها وكبيرها، يباشرون قيادة الجيش في المعارك الهامة، ويعينون الوزراء والقضاة[5]. ويسيرون شؤون الدولة من العاصمة مراكش[6]، فاستشارة الخليفة بما يقوم به الولاة والموظفون واجبة ولا تصح المشاريع المحلية إلا بعد إذنه[7].

1- إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ص 216-217؛ – المراكشي، المعجب، ص 260.

2- رسائل موحدية، ص 161.

3- ينظر رسالتي عبد المؤمن بن علي ويوسف إلى الولايات: - إبن خلكان، الوفيات، ج6، ص 4.
- إبن صاحب الصلاة، السابق ، ص ص 302 -307.

4- المراكشي، السابق، ص284.

5- البيدق، أخبار المهدي، ص33؛ - إبن عبد الملك، الذيل والتكملة، ج4، ص ص 140-142.

6- إبن صاحب الصلاة، السابق، ص369.
- إبن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص78.

7- رسائل موحدية، مجموعة جديدة، أحمد عزاوي، ج2، ص 440.
- إبن عذاري، السابق، نفس الجزء، ص 108.

للخلفاء الحق في تعقب أصحاب المناصب السامية، حيث يسألون الرعية، ويسمعون منها عن سلوك ومناهج عمل الموظفين[1]، ويتفقدون ظروف العمال أثناء الزيارات أو الحملات التي يقومون بها إلى الولايات[2].

جدير بالإشارة إلى أن خلفاء الموحدين أثناء فترة الدراسة كانوا يتمتعون بمصداقية واسعة في أوساط السكان الأمر الذي زادهم تقديرا واحتراما وانقيادا، إضافة إلى تجربتهم الواسعة، فلم تسند الخلافة إلى أحدهم إلا بعد أن عمل في الولاية أو الإدارة المركزية[3]. فقد كان يوسف بن عبد المؤمن واليّا على أشبيلية، ومَسْئُولا عن الأندلس في الفترة الممتدة ما بين (551- 556هـ / 1158 - 1162م)[4].

أما يعقوب المنصور فقد تولى أعباء الوزارة في حياة أبيه (573-580هـ/ 1177-1184م)[5].

وكان البلاط الموحدي يتسم بالبساطة خلال عهد عبد المؤمن ثم بدأ يتحول نحو العظمة والأبهة خلال عهد إبنه يوسف الخليفة الثاني وإكتملت صورته أثناء حكم الخليفة الثالث يعقوب المنصور[6].

- أشياخ الموحدين:

لعب أعضاء الهيئتين بعد وفاة المهدي ابن تومرت أدوارا حيوية فكان منهم القواد العسكريون مثل عمر الهنتاتي[7]، وعمر الصنهاجي

1- المراكشي، المعجب، ص285.

2- إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة ، ص ص 182-206-448.

3- إبن الأثير، الكامل في التاريخ، ج12، ص ص 145-146.

- إبن صاحب الصلاة، السابق ، ص232؛ - المراكشي، السابق، ص237.

4- إبن عذاري، البيان، ج3، ص211.

5- السابق، ج3، ص ص211-213-219.

6- المراكشي، السابق، ص244، إبن عذاري، السابق، ج3، ص141.

7- إبن الأثير،السابق، ج10، ص579/ ج11 ، ص159.

-مجهول، الحلل الموشية، ص120.

ويوسف بن سليمان[1]، ويوسف بن وانودين، وإبن زجو وإبن يومور ويخلف، وكان منهم أيضا الولاة على ما فتح من مناطق مثل يوسف بن مخلوف وعبد الواحد الشرقي.وبقي بعض الشيوخ مستشارين في المقام الأول، إليهم تعود قرارات الحرب[2].

لمّا ولّى عبد المؤمن بن علي أبناءه الولايات (551هـ/ 1156م) بعث معهم بعض أشياخ الموحدين مستشارين[3]. وقد حافظ أشياخ الموحدين على منزلتهم العالية، فهم أول من يعرض أثناء الإحتفالات أو الإستقبالات فلهم التقدمة على سائر الحاضرين[4].

لقد كانت لهم مكانة أيام الخلفاء أهلتهم لأن يُزَكُّوا أو يَرْفضوا تولية الخلفاء وقد عبر إبن صاحب الصلاة على هذه المكانة بقوله "وكان هذا سببا في خلافته - خلافة يوسف بن عبد المؤمن - لأنه نال رِضَا أشياخ الموحدين"[5].

لقد حفظ خلفاء الدولة الموحدية للأشياخ شرف سبقهم في الدعوة إلى المهدوية، واعتبروهم أصحاب فضل وتضحيات وإخلاص للخلفاء الأوائل من بني عبد المؤمن لذلك أمدوهم بكل حظوة وأنزلوهم درجة عالية، فتمكنوا من مفدرات الدولة[6].

وتجدر الإشارة إلى القول بأن عبد المؤمن بن علي ومن جاء بعده قد حافظوا على مكانة أشياخ الموحدين، دون التّمسك بوُجُودهم داخل الهيئتين على الشكل الذي هيأه المهدي بن تومرت وذلك ليتمكن من سياسة دولة الموحدين وفق رؤى جديدة ودون كبح أو عرقلة من أية جهة.

---

[1] - إبن عذاري، البيان المغرب ، ج4، ص ص100-102.

[2] - إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة ، ص ص 218-221.

[3] - إبن القطان، نظم الجمان، ص ص 132- 162- 166.

[4] - إبن صاحب الصلاة، السابق ، ص ص 410، 457.

[5] - يتحدث إبن صاحب الصلاة على انتصار الخليفة يوسف بن عبد المؤمن على إبن همشك. ينظر: - السابق، ص458.

[6] - إبن عذاري، السابق ، ج3، ص52؛ - إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص168.

- الوزراء:

عرفت الدولة الموحدية وظيفة الوزير قبل أن تعرف منصبه، ففي عهد المهدي بن تومرت كان أهل الجماعة بمثابة الوزراء للمهدي فهم أهل ثقته، ومحل مشورته في المسائل الشائكة، وقد تولوا تنفيذ القرارات. فقد تولى أبو محمد عبد الله بن محسن الونشريسي (ت524هـ/1130م) الذي اشتهر باسم "البشير" قيادة الجيش[1] واستوزَرَ المهدي عمر بن علي الصنهاجي (ت536هـ/1141م) وهو من أهل العشرة[2] ولما مات كان أحد الثلاثة الذين بايعوا عبد المؤمن بن علي خلفا له[3]. وقد رأى عبد المؤمن بن علي أن يبعده عن الوزارة تنزيها له لأنه أرفع قدرا منها عند الموحدين[4].

يبدو من خلال المصادر التاريخية المتعلقة بموضوع الدراسة أن منصب الوزير لم يأخذ وضعا وظيفيا واضحا ومحددا[5] إلا في عهد عبد المؤمن بن علي، فقد أشار البيدق عندما تحدث عن جمع الغنائم أثناء فتح مراكش (547هـ/1146م) إلى أن الوزير -لم يذكر اسمه- هو الذي أشرف على جمع الغنائم[6]، ولكن الإجماع حاصل على أن أول وزير في دولة الموحدين هو أبو جعفر أحمد بن عطية[7] الذي استكتبه عبد المؤمن في أواخر سنة (542هـ/1147م)، واستمرت رتبة الوزير إلى نهاية الدولة الموحدية[8].

---

[1] - البيدق، أخبار المهدي، ص75؛- إبن القطان، نظم الجمان، ص117؛- إبن الأثير، الكامل، ج10، ص576.

[2] - البيدق، المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، ص30، هـ33.

[3] - السابق، نفس الصفحة والهامش؛ - إبن القطان، السابق، ص119.

[4] - إبن عذاري، البيان المغرب، طبعة دار الثقافة، ج4، ص68؛ -مجهول، الحلل الوشية، ص88.

[5] - مجهول، الإستبصار، ص209؛ - العمري، مسالك الأبصار، ج3 ، ص120.

- إبن غازي، الروض الهتون، ص19؛- عبد الواحد المراكشي، المعجب، الدار البيضاء، 1978، ص414.

[6] - أخبار المهدي، ص ص 105-107.

[7] - إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص224؛- إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص134.

- المقري، نفح الطيب، ج3، ص100؛- الناصري، الإستقصاء، ج1، ص153.

[8] - إبن صاحب الصلاة، السابق، ص224.

مما يدل على مكانة الوزير فإن المنصب اقتصر على سادة بني عبد المؤمن أو أشياخ الموحدين، ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا أبو جعفر أحمد بن عطية، فالوزارة لا تسند إلا لأهل ثقة الخليفة الأمر الذي يدل على أهمية هذه الرتبة في دولة الموحدين، فالوزير هو همزة الوصل بين الخليفة والجهات التي تتعامل معه، والوزير هو الذي يشرف على تنفيذ أوامر الخليفة، والسهر على إعداد الاحتفالات الرسمية، وترتيب الدخول على الخليفة[1].

- **الكتّاب:**

كانت حاجة الدولة الموحدية للكتاب واضحة، أمْلَتها ضرورة تطور مستوى التّمدن الذي بلغته الدولة، حيث ازدهرت المدن ونشطت الحركة التجارية، وتحسنت ظروف عُمّال الفلاحة وترتب عن ذلك قضايا جديدة ونزاعات محلية، الأمر الذي يستوجب التواصل بين مركز الخلافة في مراكش، وباقي ولايات الدولة، ويكون ذلك بطبيعة الحال عبر كتاب الرسائل وتوجيهها إلى الولاة استفسارا تارة وإجابة عن مشكلات تارة أخرى، هذا زيادة على ما تتطلبه العلاقات الخارجية للدولة من مبادلات كتابية، وظهرت أيضا رسالة ضبط قوائم المستخدمين في ميدان الخراج والجزية. وباقي الجبايات. مع تحديد الأراضي المفتوحة صلحا أو تلك التي فتحت عنوة، والسهر على متابعة المواريث ومداخيل ومصاريف بيت المال[2]. وغيرها كثير من مجالات تنظيم شؤون الإدارة. وتزخر كتب التاريخ برغبة خلفاء الدولة الموحدية في تحديث وتطوير أساليب العمل الإداري

---

[1] -إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ص49، 420.

[2] -الناصري، الإستقصاء، ج2، ص99؛ - المراكشي، المعجب، ص339.

- H.Zaafrani, La vie intellectuelle Juive au Maroc du XVème au XXème siécle, J.C, These Dactylographique, Paris, 1970, PP203-204.

استجابة لتطور المجتمع في المجال الحضاري، ولهذا فضلوا الاستعانة بكتاب إستقدموهم من الأندلس حيث قربوهم من خدمة السلاطين والأمراء في الميدان الإداري.

فقد إعتمد الخليفة عبد المؤمن بن علي الكاتب المشهور ميمون الهواري (571هـ/ 1176م) الذي كان يسكن مدينة قرطبة وهو مشهور بالأدب والبلاغة[1]. كما استخدم الكاتب الأديب أبا الحسن بن عياش وهو من أهل قرطبة أيضا (586هـ/ 1190م)[2].

وقد سبقهم جميعا أبو جعفر أحمد بن عطية[3] الذي جمع بين وظيفتي الكتابة والوزارة إلى ان تعرض للنكبة مع أخيه أبي عقيل في (صفر 553هـ/ أفريل 1158م).

وسار على نفس النهج الخليفة يوسف بن عبد المؤمن حيث قرّب منه أبا الحسن بن عياش الذي اشتغل كاتبا لعبد المؤمن[4]. وهكذا فعل الخليفة المنصور عندما دعا أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عياش (584هـ/ 1189م) وهو من أهل بُرشانة من أعمال المرية وجعله كاتبا له. ولكن إستقدام هؤلاء الكتاب من الأندلس لم يكن من باب ضعف الثقافة وقلة العلماء كما رأى ذلك بعض المهتمين بتاريخ المغرب، بل يعود الأمر في أغلب الأحيان إلى نقص الخبرة خاصة أنّ علماء المغرب الأقصى قد اقتصر علمهم على الجانب النظري والدليل عل ذلك أنّ عبد المؤمن بن علي كلّف أبا القاسم

---

[1] - إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص165.

[2] - إبن القطان، نظم الجمان، ص176. وأنظر أيضا:- عزالدين عمر موسى، الموحدون في المغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت 1991، ص ص161-164.

[3] - وهو أحمد بن أبي جعفر بن عطية من أهل مراكش، وأصله من طرطوشة. شرقي الأندلس. ينظر:
- مجهول، رسائل موحدية، مجموعة جديدة، ج1، ص ص18-19.

[4] - المراكشي، المعجب، ص244.
- إبن أبي زرع، الأنيس، ج2، ص175.

عبد الرحمان القالمي (580هـ/1185م) بالكتابة وهو من أهل بلاد المغرب الأدنى ومن مدينة بجاية بالتحديد[1] . كما استخدم أيضا أبا علي الأشيري وهو من أهل تلمسان[2].وهكذا فعل باقي خلفاء الموحدين[3].وبعد تطور الإدارة الموحدية إختص الكتاب بمجالين رئيسيين فمنهم من اختص بكتابة الرسائل والظهائر والأوامر الخاصة بالمسلمين وإرسالها إلى مختلف الجهات المعنيّة، ثم الرّد على الخطابات الواردة من الخارج وبجانب كتاب الإنشاء هناك كتاب الجيش وهذا الصنف من الكتاب يختص بكل ما يتعلق بالشؤون العسكرية[4].

أمّا عن مكانتهم الإجتماعية فإنّهم نالوا جاها عريضا، ومن الأمثلة على ذلك ابن محشرة (540-598هـ/ 1146-1204م) حيث كان قد تولى هذا المنصب بطلب من الخليفة يوسف بن عبد المؤمن في مراكش، فازداد بذلك تقديرا[5]،وهذا ماحدث عندما دُعي أبو عبد الله الطّوسي لتولّي مهمّة الكتابة لدى الخليفة المنصور[6]. وقد برزت عدّة أسماء لكتاب الدولة الموحدية مثل أبو محمد عباس بن عبد الملك بن عباس. وكانت هذه الوظيفة وحدها ترفع وتظهر من كان مغمورًا من الكتاب، وتقدمه للواجهة ليصبح في عداد رجال الدولة فتكون بذلك كلمتهم مسموعة، والتقرب إليهم مرغوب وقد عاشوا حياة الرفعة والترف، واجتمعت لديهم الثروات الطائلة بفضل الأعطيات والهبات التي كان الشيوخ والخلفاء يقدمونها للكتاب

---

[1] - المراكشي، المعجب، ص 200؛ - عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العامة، ج2، ص 324.

[2] - إبن القطان، السابق، ص 176.

[3] - إستقدم الخليفة يوسف بن عبد المؤمن أبا الفضل جعفر بن أحمد المعروف بابن محشوة وهو من أهل بجاية. ينظر :

- المراكشي، السابق، ص 224؛ - إبن أبي زرع، الأنيس، ص 175.

[4] - حركات، المغرب عبر التاريخ، ص 333؛ - إبن عذاري: البيان المغرب، ج4، ص 224.

[5] - الغبريني، عنوان الدراية، تحقيق رابح بونار، الجزائر، 1981م، ص 83.

- رسائل موحدية، مجموعة جديدة، تحقيق أحمد عزاوي، ج1، ص 26.

[6] - المراكشي،السابق ، ص 224.

كهدايا. وتجلّت مظاهر ترفهم في القصور التي كانوا يسكنونها[1]. وحيازة الضياع والإقطاعات، وملكوا الخدم والعبيد والغلمان[2]. وكمثال على هذا نشير إلى أنّ الموحدين بعد انتصارهم على المرابطين في إحدى المعارك أخذوا مائة بكر[3]، وكُنّ مؤمنات فقسمهنّ الخليفة على الموحدين من شيوخ ووزراء، وكتاب فتزوجوهن[4] ونظرا للمكانة الإجتماعية المرموقة التي تبوأها الكتاب تقرب الشعراء منهم طَلَبًا للعطايا أو السعي لدى جهات مسؤولة لقضاء بعض حوائجهم[5]. ونجّلهم الناس العوام بل عظّموهم[6].

- طلبة الحضر:

أراد الخليفة عبد المؤمن بن علي مواكبة التطور الحضاري الذي عرفته بلاد المسلمين، فعمد إلى تكوين إطارات الدولة وخصص لهم إطار وهيئة عرفت باسم طلبة الحضر[7]، وحرص على تكوينهم دينيا وإداريا وعسكريا، لتحقيق السير الحسن لجهاز الدولة[8]،ولهذا السبب حرص عبد المؤمن بن علي على تحسين ظروفهم المادية وعمل على دعمهم ماليا قال إبن القطان:"...أسلفهم من

---

1 - الحميري، الروض المعطار، ص 580.

2 - المقري، نفح الطيب، ج3، ص 232.

3 - المراكشي، المعجب، ص 315. ويضيف المراكشي بقوله: "وبقيت فاطمة بنت يوسف الزناتية وبنت ماكسن بن المعز فضرب الخليفة القرعه مع أبي إبراهيم على فاطمة فأخذها أبو إبراهيم وأخذ الخليفة بنت ماكسن بن المعز أم الأمير إبراهيم والأمير إسماعيل".

4 - إبن عذاري، الروض الهتون، الرباط، 1952م، ص 10.

- عبد الله بن مليح، الاسترقاق في المغرب الإسلامي بين الحرب والتجارة، ص 44.

5 - إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص 263؛ - إبن قزمان، ديوان إبن قزمان، ص 594. ويقول المقري: " في إحدى حلسات كتاب الخليفة المنصور الموحدي ترامى الناس على الكتاب أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن وسارع أحدهم لتقبيل رأسه".

- نفح الطيب، السابق، ص 236.

6 -النويري، نهاية الأرب، ج22، ص 98.

7 - يوجد نوعان من الطلبة، فالطلبة خلال عهد الإمام المهدي بن تومرت هم دعاة أخذوا تكوينا دينيا صرفا، تلقوا التربية على يديه، ومهمتهم هي دعوة الناس إلى بيعته وزرع محبته في قلوبهم. أما طلبة الحضر فهم الهيئة التي عمد إلى تكوينها الخليفة عبد المؤمن بن علي بهدف القيام بتسيير جهاز الدولة في معظم الأجهزة. ينظر: - إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة،ص 219.

8 - السابق، ص 220.

المخزن ألف دينار لكل واحد منهم فاكتسبوا منها وكانت أصل غناهم.. "[1].

ونتيجة التكوين الديني والإداري الذي لقيه طلبة الحضر زيادة على الدعم المالي الأمر الذي أهلهم لتبوُّء مكانة عالية في الدولة، فقد حباهم الخلفاء بالعطاء الكثير والمال الوفير[2]، حتى عظم أمرهم، وأوكلت إليهم مهمات متعدّدة[3]، وأحضروا في مجالس الخلفاء، فقد أشار إلى ذلك إبن صاحب الصلاة بقوله عن أبي يعقوب يوسف:«وقرب أشياخ طلبة الحضر»[4]، وصارت هذه الفئة تتقدم شيئا فشيئا إلى أن تبوأت الصدارة في جهاز الدولة الموحدية، وقد أراد لها الخليفة أن تكون كذلك فقد خصص لهم أجورًا محترمة، ويأخذون من الأعطيات في كل مناسبة[5]، وكان شيخ طلبة الحضر بمنزلة الوزير يحضر مجالس الخلفاء ويرافع عن القضايا المتعلقة بفئة الطلبة وبتلك التي يناقشها المجلس، وخير مثال على ذلك ما كان يتمتع به شيخ الطلبة أبا الحسن الإشبيلي (ت591 هـ/ 1196م) حيث كان أول من يدخل على الخليفة أبي يعقوب يوسف وآخر من يخرج. كما كان يشفع في الغرباء والطلبة[6] وبلغ الشيخ أبي محمد عبد المالقي نفس الدرجة، وليس هذا على مستوى العاصمة مراكش فحسب بل على مستوى فروع هيئة طلبة الحضر في المدن الكبرى.

لقد أشار الغبريني إلى أن الشيخ أبي عبد الله بن إبراهيم الفهري. المشهور بالأصولي (ت 612هـ/ 1117م) ببجاية كان له فضل وجلال وتقدم علمي، ويحضر مجالس الطلبة إلى جانب أمير المؤمنين

---

[1] - نظم الجمان، ص 141؛ - إبن غازي، الروض الهتون، الرباط 1952م، ص 15.

[2] - المراكشي، المعجب، ص ص 200-201؛ - الناصري، الإستقصا، ج2، ص 92.

[3] - إبن القطان، نظم الجمان، ص ص 137-138.

[4] - إبن صاحب الصلاة،المن بالإمامة، ص 234؛ - رسائل موحدية، مجموعة جديدة، ج1، الرسالة الخامسة والعشرين، ص 124.

[5] - حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، ص 332.

[6] - إبن صاحب الصلاة، السابق، ص 219؛ - عز الدين عمر موسى، الموحدون في المغرب، ص 103.

إبن الخليفة عبد المؤمن بن علي[1].

ومن المهام التي كانت تسند إليهم قيادة الجيوش في إخماد الثورات الداخلية، وحصار المناوئين للدولة، وتعيينهم في إدارة الولايات. والإشراف على الإدارة المالية المركزية أو الجهوية[2]، وبعضهم عين على رأس جماعة للدفاع عن سياسة الدولة ونشر أهدافها في أوساط العامة من الناس[3].

- **الولاة:**

كانت مراكش ولاية زيادة على كونها عاصمة للدولة الموحدية منذ سنة (541هـ/1147م) أما باقي ولايات الدولة ابتداءً من السنة المذكورة إلى غاية نهاية فترة الدراسة (595هـ/ 1199م) فهي السوس سجلماسة، فاس، سلا، سبتة، تلمسان، بجاية وافريقية[4]، وأجمع المؤرخون على أن هذا التقسيم الإداري هو نفسه الذي ورثه الموحدون عن الدول التي حكمت بلاد المغرب من قبل[5].

قسّم الموحدون كل ولاية إلى أقسام إدارية صغرى، أسند حكمها إلى أحد الحفاظ[6]، مع مراعاة الأوضاع القبلية في المناطق حيث تركوا كل منطقة قبيلة وحدة إدارية ضمن أقسام الولاية[7] وكان تعيين الولاة، وحكام أقسام تلك الولايات لا يتم إلا بإقرار من الخليفة أو من بعض القادة العسكريين من رؤساء السادة[8]. ويمكن لمزاوير أشياخ الموحدين إن كانوا حكاما لتلك الولايات أن يعينوا

---

[1] - عنوان الدراية، ص ص184-185.

[2] -مجهول، الحلل الموشية، ص89؛ - إبن عذارى، البيان المغرب، ج3، ص84.

[3] - إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص182؛ - المقري، نفح الطيب، ج4، ص106.

[4] - المراكشي، المعجب، ص255؛ - صالح بعيزق، بجاية في العهد الحفصي، ص ص 391-394.

[5] - المراكشي، السابق، ص200.

[6] - البيدق، أخبار المهدي، ص177.

[7] - السابق، نفس الصفحة.

[8] - إبن عذاري، **السابق**، ج3، ص37؛ - إبن خلدون، العبر، ج6، ص592.

حكام الأقسام[1].

إن المتتبع لأحوال نظام حكم الموحدين يستطيع تمييز ثلاثة حالات تخص ولاة الدولة الموحدية، فقد كان الأمر يخضع لأشياخ الموحدين وأنصارهم في الحقبة التي سبقت إعلان الحكم الوراثي وامتازت هذه المرحلة بتوسيع الدعوة وتعميق ولاء سكان الولايات للموحدين، وبعد ذلك جاءت مرحلة التمكين وازدهار الحياة ابتداء من إعلان الحكم الوراثي. وفيها فتح المجال واسعا لأبناء الأسرة الحاكمة ومن أقاربهم أو من القبائل المؤسسة للدولة[2].

حيث بدأ عبد المؤمن خطوة تمثلت في تعيين الطلبة[3] في مكان شيوخ الموحدين واحتفظ بالشيوخ كمستشارين لهم[4]. مستندا في ذلك إلى كفاءة هؤلاء الطلبة في حمل مسؤولية إدارة أقاليم الدولة لأشياخ الموحدين: «العلماء أولى منكم فسلّموا لهم»[5].

فاستغل عبد المؤمن بن علي تقبل الفكرة من قبل أشياخ الموحدين وأشياخ العرب فعمد إلى تولية أبنائه وأصدر رسالة رسمية سنة (551هـ/ 1156م) من رباط الفتح يشير فيها إلى أن إختيار أبناءه كان استجابة لرغبة شيوخ القبائل الموحدية وكذلك لبعض القبائل العربية[6]. وبرر ذلك بتحقيق المزيد من الضبط والسيطرة على حكم البلاد. وهكذا ولّى ابنه: السيد أبا حفص ولاية تلمسان وأحوازها، والسيد أبا سعيد

---

[1] – إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 390.

[2] – النويري، نهاية الأرب، ج22، ص 93، إبن الأثير، الكامل، ج9، ص 50.

– ويذكر البيدق أن الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن جامع وهو من أهل الدار قد عين واليا على فاس بعد فتحها: المقتبس من كتاب الأنساب، ص ص 25-28.

[3] – عز الدين عمر موسى، الموحدون في الغرب الإسلامي، تنظيماتهم ونظمهم، ص ص 102-104.

[4] – إبن القطان، نظم الجمان، ص ص 137-138.

[5] – السابق، ص 139؛ – المقري، نفح الطيب، ج4، ص 144.

[6] – رسائل موحدية، مجموعة جديدة، أحمد العزاوي، ج1، ص ص 61-62؛ – صالح بعيزق، نهاية في العهد الحفصي، ص 397.

سبتة وطنجة، وكذلك أبا الربيع تادلا[1]. وبالموازاة مع هذه كانت تعينات أخرى لصالح بعض الطلبة والحفاظ خريجي المدارس.

ونذكر على سبيل المثال عبد الحق بن علناس الكومي (ت 582هـ / 1186م) وهو أحد الحفاظ حيث عينه واليا على سوسة، وأبي عبد الله محمد بن محمد (ت 573هـ/ 1178م) على صفاقص وهو من الحفّاظ أيضا[2]. وقد اتبع خلفاء عبد المؤمن نفس السياسة في تعيين الأبناء والأقارب مع تمسكهم بإبقاء جماعة من شيوخ الموحدين في مناصبهم[3].

طريقة تعيين الولاة ومظاهر مكانتهم الإجتماعية:

قبل أن يقع الاختيار على شخص ما ليتولى منصب وَالٍ، كان الخليفة يستشير بعض المقربين منه، وفي حالة ما إذا تم الإختيار، فإن الخليفة يرتب موعدا للوالي الجديد حيث يُستقبل ويُعين بمراسيم خاصة تدل على علو قدره ومكانته الرسمية[4]. وبعد ذلك يتلقى الوالي تهاني وتمنيات الحاضرين من الأعيان والشيوخ والعلماء، وقادة الجيش[5].

ومما يضفي هالة من التقدير والاحترام أن مهامهم تدبير شؤون الجيش وتعبئته وتقليد القضاة، ومتابعة جباية الخراج. وتوفير الأمن وإقامة الحدود والمحافظة على شعائر الدين[6]، وقد يتصل بالدول المجاورة لولايته لتسهيل أعمال التجارة وحل بعض النزاعات المتعلقة بولايته. كل ذلك زيادة على وظيفته الأساسية المتمثلة في تعمير الولاية وإنشاء الدور السكنية، الإدارية، حماية العمال، التجار والسكان عامة[7].

---

1 -إبن أبي زرع، الأنيس، ص51؛ - البيدق، أخبار المهدي، ص147.

2 -مجهول، الحلل الموشية، ص117.

3 -المراكشي، المعجب، ص ص223-234.

4 -إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص293.

5 -السابق، ص202.

6 -إبن القطان، نظم الجمان، ص249.

7 -المراكشي، السابق، نفس الصفحة.

- قادة الجيش

من الأرجح أن المهدي بن تومرت قد وضع نواة جهاز الجيش الموحدي وذلك بتوزيع الإقطاع على أحد أهل العشرة -وهو أيوب الجد ميوي- تقديرا له على مجهوده الجهادي[1]، وأخذ جهاز الجند يتطور حتى ظهر بشكل جلي خلال عهد يوسف بن عبد المؤمن بن علي حيث برز مصطلح كاتب الجيش[2]، أو كاتب العسكرية[3]، وكان منصب قائد الجيش من المناصب السامية في هيكلة الدولة، لا يتولاه إلا الموحدون في بداية عهد الدولة ثم السادة أبناء عبد المؤمن والطلبة من بعدهم[4].

لذلك احتل قادةالجيش الموحدي مكانة مرموقة في المجتمع المغربي والسبب واضح مرده إلى أن قادة الجيش يتعاملون مباشرة مع السلطة الحاكمة، وبالتالي فهم يكسبون صفة صاحب الجاده، ومن جهة ثانية فقد صدف أن سمّي اقتصاد الدولتين المرابطية والموحدية باقتصاد المغازي[5]، ذلك حاصل من الغنائم التي يحصل الجيش عليها من الغزو وفتح البلدان، حيث يتم بسط اليد على مساحات شاسعة من الأراضي المفتوحة[6]، وتشير المصادر التاريخية إلى أن نفقات الدولة على الجيش شكلت أعلى نسبة[7]. وعلى هذا الأساس حظي قادة الجيش بتقدير حسن[8]. وأقطعت لهم أراضي، وفي هذا السياق

---

[1] -المراكشي، المعجب، ص337.

[2] - المراكشي، السابق، ص337؛ - إبن صاحب الصلاة، تاريخ المن، ص 204.

[3] - المراكشي، السابق، ص244.

[4] - إبن صاحب الصلاة، السابق، ص 436.

[5] - رسائل موحدية، مجموعة جديدة، تحقيق أحمد العزاوي، ج2، ص72.

[6] - إبن صاحب الصلاة، السابق، ص205؛ - حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، ص339.

[7] - لقد بسط الخليفة عبد المؤمن يده على تلمسان وأحوازها، وخيراتها أثناء الفتح وكذلك باقي جهات المغرب. أنظر:
- مجهول، رسائل الموحدين، مجموعة جديدة، الرسالة التاسعة، ج1، ص ص79-82.

[8] - مجهول، الحلل الموشية، ص82؛ - إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص139.

يقول ابن خلدون «حاجة الأمراء إلى صاحب السيف تشتد في بداية الدولة وآخرها، فيكون أرباب السيف حينئذ أوسع جاها وأسن إقطاعا»[1]، ويؤكد هذا الرأي صاحب الحلل بقوله: « إن من ظهرت نجدته وإعانته وشجاعته أكرموه بولاية موضع ينتفع به»[2]. واستأثرت بعض العائلات العسكرية بأمور الحرب وجعلتها حكرا على أبنائها نذكر منها أسرة عبد المؤمن بن علي وعائلة إبن أمغار[3].

المظاهر الإجتماعية لفئات الخاصة صاحبة الجاه:

إن المجتمع الحضري المغربي خلال عهد الموحدين لم يخل من ظاهرة استغلال النفوذ والإحتماء بذوي الجاه، فالمصادر التاريخية تتحدث عن تكرار مسائل غصب الأرض من قبل أهل الجاه. وإكراه أصحابها عن بيعها[4]. أو كرائها تحت ضغط جاه الكاري[5]. الأمر الذي أثّر سلبا على نظام تملك الأرض وتبع ذلك توسع مساحة الأشخاص ذوي السلطان، وتقلص مساحة ملاك الأرض إن كانوا من عامة الناس[6]. وتورط القضاء في إعفاء ذوي الجاه من العقوبات المستحقة عليهم إثر الجرائم التي كانوا يرتكبونها وقد حاول بعضهم التنصل كلية من جرائم الإختلاس، وجنح الإعتداءات التي كانوا يتورطون فيها. فقد أوردت نازلة سُئل عنها الفقيه المفتي عيسى

---

[1] - إبن خلدون، العبر، ج2، ص411.

[2] - مجهول، الحلل الوشية، ص82.

[3] - المراكشي، المعجب، ص339. رسائل موحدية. مجموعة جديدة، ج2، ص ص 221-251.

- محمد بن بالقاسم الأنصاري، إختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة، من سنن الآثار، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، ط2، الرباط 1983م، ص ص 33-34.

[4] - الونشريسي، المعيار، سابق، ج9، ص108.

- أحمد المقري، أزهار الرياض، ج1، بيروت، 1968، ص331.

[5] - الونشريسي، السابق، نفس الجزء والصفحة.

[6] - من المعروف أن الموحدين أسكنوا أشياخهم، ورجال دولتهم في المدن، وقد استغلوا اقطاعاتهم وأملاكهم ووشعوهم بكيفية غير مباشرة عن طريق الشركاء والوكلاء أو بطريقة مباشرة بواسطة العمل المأجور.

- محمد الطويل، الفلاحة المغربية في العصر الوسيط، رسالة جامعية، مرجع سابق، ص70.

بن علال (ت 608هـ/ 1214م). عن أمين لحرفة الخرازين اختلف مع زملائه وأصر ألا يرجع لمزاولة مهامه إلا بشروط، وتدخل بعض أقاربه من ذوي الجاه لتوفير شروطه، ويؤيد ابن مرزوق وجود مثل هذه التجاوزات بقوله «ومن مثل هذا كثير»[1].

والظاهر أن استفحال ظلم ذوي الجاه وتغاض بعض القضاة عن ظلمهم دفع بعض الخلفاء والأمراء على تحري الحقائق عن طريق أهل المخزن الذين يرسلون من يراقب تصرفات القضاة المرتشين[2].

ورغم ذلك فإنه ضبط حالات تجاوز بعض الولاة مثل الرشاوي التي تقدم على شكل هبات، وهدايا من قبل فئات المجتمع وخاصة أصحاب الثروة من تجار وملاك العقارات، كما تجاوز بعضهم في ميدان الإقطاعات التي كثيرا ما أقطعوها لأنفسهم وذويهم. وظهرت علامات يسرهم في نمط القصور التي شيدوها وفي عدد العبيد والخدم الذين حازوهم لخدمتهم الخاصة في القصور كما تفننوا في الأطعمة والملابس[3].

ويشترك صاحب المخزن الذي يشرف على أعمال الجباية، وصرف المرتبات، مع الوالي في بعض المهام ويستشيره في أمر تجهيز الحملات العسكرية[4]، وكثيرا ما كان ينكب عامل لاستعمال جاه السلطان فينكب معه جميع الذين خدموا في الولاية أثناء عمله[5].

---

[1] - محمد فتحة، النوازل الفقهية والمجتمع، منشورات كلية الآداب، الدار البيضاء، 1999، ص272.
- إبن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح، الجزائر، 1981، ص143.
- السقطي محمد بن أبي محمد، كتاب في آداب الحسبة، ص48.

[2] - إبن خلدون، العبر، ج6، ص239.
- رسائل موحدية ت مجموعة جديدة، تح: أحمد العزاوي، ج1، ص407.

[3] - مجهول، الاستبصار، ص182.

[4] - إبن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص31.

[5] - السابق، ص237.

وقد حدثت مرات تعسّف فيها الولاة والعاملون، فشكلت لهم لجان محاسبة تكونت من العمال والكتاب مع حضور شاهدين عدلين[1]، فثبت في حقهم الإدعاء فعزلوا وغربوا وصودرت أموالهم وربما قُتلوا مثلما حصل مع أبي جعفر بن عطية عندما قتله عبد المؤمن بن علي ونكب أبو يعقوب يوسف أبا العلا إدريس بن جامع وغربه[2].

وبالتالي تتغيّر المكانة الإجتماعية لكثير ممن استغنوا بجاههم وحمايتها[3] وبتفحّص النصوص تتأكد هذه الخلاصة، فكثيرا ما تغيرت حالتهم نتيجة النكبات التي تعرضوا إليها من قبل السلطة وأحسن ما تمثل فيه هذا التغير من أعلى إلى أسفل هو مالك بن عبد الرحمن بن الفرج (ت603هـ/1208م) وكان موظفا بمخزن ولاية بجاية[4].

إن هذه التجاوزات التي كانت تحدث بفضل الحصانة التي حظي بها أهل طبقة الخاصة قد دفعت أحد السجلماسيين من ذوي الجاه والسلطان، لإنكار زوجته وابنَيْه رغم قيام شهادة عدة شهود بزواجه منها[5]، ولعلّ ذلك نفّر بعض أعيان فاس من تزويج بناتهم لرجال السلطة[6]، وعموما فقد كان أكثر أفراد المجتمع يتحملون «الضيم والذل من خدمة الوالي»[7]، ومما يعكس الوعي بالتسلط والقهر تلك الأمثال الشعبية[8]، وكرامات الأولياء[9].

---

[1] - إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 453.

[2] - إبن عذاري، البيان المغرب، ص 178؛ - المراكشي، المعجب، ص 244؛ - إبن صاحب الصلاة، السابق، ص 237.

[3] - إبراهيم القادري بونشيش، الحياة الاجتماعية، ج2، ص 488.

[4] - إبن الخطيب، الإحاطة، ج3، ص ص 316-317.

[5] - إبن الأحمر، بيوتات، فاس الكبرى، ص 61.

[6] - السابق، ص ص 60-64-82-104.

[7] - أحمد المقري، أزهار الرياض، ج1، ص 331.

[8] - «يَحَلْ موت الكبير يعيش من الصغير»: - الزجالي، أمثال العوام، ج2، فاس، 1971، ص 145.

[9] - محمد مفتاح، قراءة في كرامات أبي يعزي، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1992، ص ص 79-86.

إن نفوذ ذوي الجاه وتحكمهم في الشؤون الدنيوية التي شملت العلاقات بين أفراد المجتمع يفسر ما كان لديهم من يد طويلة على أصحاب الخطط الشرعية كالقضاء والفتوى والشهادة والتوثيق والأمانة في الأسواق، وأموال الأيتام، لاسيمّا إذا قدم إليها جهال العلماء الذين كانت تتم توليتهم إما بالتوريث أو الجاه ولنا في الفقيه المفتي موسى المحمودي الهسكوري (ت.607هـ/1232م) خير نموذج على ذلك، فقد جاء على لسان الونشريسي:" أنه صار يعبث في دين الله كيف يشاء لا يبالي ما صنع"[1].

ولكن السؤال المطروح، هل كانت المكانة الاجتماعية لذوي الجاه تتمظهر فقط عبر وسائل القهر والتسلط؟ يبدو أن الأمر لم يكن كذلك فالمكانة الاجتماعية الناتجة عن الجاه تجلت أيضا في النفوذ الاجتماعي، فقد كان أصحاب الجاه في مقدمة المخاطبين في الرسائل الرسمية[2]، واضطلعوا بدور رئيسي في البيعة، كما كانوا يحظون باستقبال السلطان[3]، وعنايته التي تظهر في الهدايا والإقطاعات التي منحت لهم[4].

لقد عمل ذوو الجاه بما اكتسبوا من أموال بواسطة جاههم، ومنهم قواد الجيش الذين وصفهم النميري بـ"أهل الغنى"[5] والذين عاشوا من الإنعامات والعطاءات المتوالية التي كانت تغذقها عليهم السلطة في مختلف المناسبات، والإقطاعات التي كانت تقدمها لهم خاصة خلال مرحلة تأسيس الدولة، وقد عمل قادة الجيش على التمايز عن

---

[1] - المعيار، ج4، ص 506.

[2] - رسائل موحدية، مجموعة جديدة، تحقيق أحمد العزاوي، ص ص 94-96؛124-125.

- إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص 135.

[3] - المراكشي، المعجب، ص ص 198-326؛ - رسائل موحدية، السابق، ص 126.

- إبن خلدون، العبر، ج6، ص 596، إبن الخطيب، نفاضة الجراب، ج2، ص 314.

[4] - إبن تاويت، تاريخ سبتة، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة، الدار البيضاء، 1982، ص 139.

[5] - النميري، فيض العباب، ص ص163، 197؛ - إبن خلدون، السابق، ص 705.

- محمد القبلي، حول مضمرات التشوف، ص ص 72-74.

غيرهم بنمط عيش خاص حيث سكنوا في أحياء خاصة[1] والشأن نفسه بالنسبة لطلبة الحضر[2]، وغيرهم من فئات الخاصة وتمييز أنفسهم عبر مظاهر الاحتفالات ومنها الأعراس[3].

إن المكانة الإجتماعية التي كانت تترتب عن الجاه بين صفوف الفئات الإجتماعية المنتمية إلى طبقة الخاصة، لم تكن عاملا قارا في عملية الحراك الإجتماعي، إذ كانت مكانة بعض المتنفّذين عرضة للهزات عند كل تغيير كان يطرأ على رأس السلطة أو الهيئة بغض النظر عن طبيعة الإنتقال السلمية أو الدموية، فقد سجن الخليفة عبد المؤمن بن علي شيخ قبيلة هسكورة وصادر أملاكه، وكذلك فعل الخليفة أبي يعقوب يوسف مع حكام قفصة عندما تمردوا[4] حيث حاصرهم وأحكم قبضته على المدينة حتى استسلموا.

*** العلماء والفقهاء:**

قبل التعرض إلى المكانة الإجتماعية التي قد يكون قد خوّلها العِلم لحامليه في المجتمع المغربي خلال فترة الدراسة، يستحسن في البداية تحديد مفهوم هذا العلم نفسه، إن المقصود به هو العلوم الشرعية دون غيرها من العلوم الأخرى وقد كان حاملوا هذا الصنف من العلوم خلال الحقبة المعنية بالدراسة على وَعْي تامّ بذلك[5].

ليس من الغريب أن يحتل العلماء – الفقهاء- في المغرب مكانة إجتماعية متميّزة في وقت تظافرت فيه مجموعة من العوامل لضمان استمراريتها وترسيخها، فالذهنية المغربية الإسلامية الوسيطية حملت

---

[1] - إبن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص409، مجهول، الحلل الموشية، ص ص144-145.

[2] - قدور أحمد، المدن الموحدية وعلاقتها بالأقليم، شهادة جامعية، كلية الآداب، الرباط، 1988، ص ص89-104.

[3] - ينظر الفصل الثالث، ص ص246-247.

[4] -رسائل موحدية، مجموعة جديدة، ج2، تحقيق: أحمد العزاوي، ص ص(75-78، 144-146).

[5] -كان أبو الخطاب عمر بن الحسن بن علي إبن دحية الكلبي المعروف بإبن الجميل (547-633هـ/1152-1238م) يلوم نفسه على تعلّم الشعر، والفلسفة. إبن خلكان، الوفيات، ج1، ص481.

تقديرا كبيرا للعلم والعلماء استنادا إلى مرجعية القرآن[1] والسنّة وجاء في أمثال الفترة التاريخية: «العالم في قومه كالنبي في أمته»[2].

والواقع أن الإجلال الذي كانت تكنه ذهنية المرحلة للعلم والعلماء، وانتشار مثل هذه المقولات ما هو إلاّ إنعكاس للأدوار الإجتماعية التي ما فتئوا يضطلعون بها والتي أهلتهم إلى مرتبة إجتماعية مرموقة، تأتي في مقدمتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي القاعدة التي قامت عليها الحركة الموحدية، والدور الثاني للفقهاء هو محاربة البدع والأهواء[3] والفساد المستشرى في المجتمع من وجهة نظر الفقيه وكان المهدي بن تومرت نموذجا لذلك[4].

صحيح أن القرن الخامس الهجري-الحادي عشر الميلادي كان فاسدا بالتعبير الفقهي الذي نشره المهدي بن تومرت وجماعته، وهكذا كانت الذهنية الفقهية دائمة الحضور، فهناك تنذر الفقهاء بما وصل إليه عصرهم من فساد، وأن زمن السلف ولو كان قريبا يعتبر الأحسن، فهذا ابن القاضي عياض يؤكد أنه يعيش في زمن يستعيذ منه الأولون والآخرون[5].

ويقول الماجري (ت607هـ/1213م): «عفانا الله وإياك من هذا الزمان البشيع»[6]، وأقوال الفقهاء كثيرة في هذا السياق[7] ويبدو أن تضخيم هذا النّمط من الخطاب شكل واحدا من ثوابت

---

1 -قال الله عز وجل : « شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إِلَهَ إلا هو العزيز الحكيم ». سورة ال عمران آية 18.

2 -إبن خلدون، المقدمة، ص405.

3 -إبن القاضي، جذوة الإقتباس، ج1، ص290.

4 -إبن غازي، الروض الهتون، ص105.

5 -محمد بن عياض، مذاهب الحكام في نوازل الأحكام، ورقة 58أ.

6 -المنهاج الواضح، ص80.

7 -كان الفقيه العبدُوسي يشترط العزلَ في النكاح فرارًا من الولد لفساد الزمان حسب رأيه. ينظر:
- إبن القاضي، السابق ، ج2، ص425.

الخطاب الفقهي، وإن لم يكن يعبر دائما عن الفساد في الواقع، وإنما كان يهدف إلى أغراض أخرى ومنها تنبيه الحكام وأصحاب الجاه والسلطان إلى وضعية الفقهاء.

ومن الأدوار المهمة التي أبْرَزَتْ مكانة الفقهاء ممارستهم للإفتاء حيث إستعملوا هذه الوسيلة لبسط سلطة الشريعة على المجتمع ومن ثم بسط السلطة العلمية للفقيه[1] وقد استغل بعض الفقهاء هذه الآلية لتزكية مكانتهم الإجتماعية، فكانوا إذا جاءهم أحد محتاجًا إلى فتواهم في نازلته دقّقوا فيها النظر ليُقال لأحدهم فلان ما أفهمه وما أفقهه وما أدق نظره[2].

ويبقى العمل على نشر العلم بين الناس وتفقيههم في شؤون دينهم ودنياهم من أهم الأدوار التي اضطلع بها العلماء باعتبارهم حماة ومفسرين للشريعة، فقد كانت مهنة التعليم من المهام المفضلة لدى علماء العصر[3]، وإذا كان الفقيه باعتباره حاملا للعلم الديني هو صاحب السلطة العلمية الثابتة في المجتمع الإسلامي، فإن سلطته هذه تأكدت أكثر ووصل صاحبها إلى ما يشبه التقديس في المجتمعات الحضارية المغربية غير المعربة أو القليلة التعريب وليس من باب الصدفة أن تنطلق دعوة للحركتين الإصلاحيتين المرابطية والموحدية من أوساط بربرية تقل فيها نسبة المتمكنين من اللغة العربية[4].

---

[1] - الماجري(أحمد بن إبراهيم)، المنهاج الواضح في كرامات الشيخ أبي محمد صالح، مخطوط، الخزانة الصبيحية رقم 44، ورقة37ب.

[2] - إبن عباد، الرسائل الكبرى، ص124.

[3] - تكفي الإشارة إلى الفقيه الأصولي إبن عبد الله الأنصاري الإشبيلي المعروف بالخفّاف (ت596هـ-1201م) الذي ظل يدرس إلى آخر يوم في حياته وقد بلغ تسعين سنة. ينظر: - محمد المنوني، حضارة الموحدين، ص42.

[4] -ورد في ترجمة سالم بن سلامة السوسي المغربي (ت589هـ-1194م) أنه كان قديرا على أداء المسائل الفقهية باللسان البربري. وأن إبن تومرت ألف لأصحابه كتابا سمّاه التوحيد باللسان البربري؛ - إبن الأبار، التكملة، ص206.
- إبن القاضي، الجذوة، ص324.

إن الذين كانوا يكتسبون هذا العلم-المستغلق على الكثيرين- باستيعاب الكتابة إبتداء من قراءة المكتوب إلى إتقان علومها وآدابها هم قلة، هذه القلة انفصلت بعلمها الكتابي عن مجتمعها القليل التعريب، والذي كان يطلب علمها الديني.

وهنا نكون أمام منطق الندرة حيث تصبح الكتابة في يد العلماء بضاعة نادرة استعملوها في علاقة التبادل، ويكون امتلاكهم لهذه البضاعة وسيلة فذّة للترقية الإجتماعية[1].

وعن طريق الإعتراض الذي أبداه الفقهاء للعادات والبدع المنتشرة في البلاد حسب زعمهم، حاولوا الدفاع عن مرتبتهم الإجتماعية تجاه المكانة المتصاعدة للصوفية[2].

إضافة إلى التدريس عمل الفقهاء على شحن العزائم والدعوة للتعبئة والتحريض على الجهاد[3] في وقت اشتدت فيه الهجمات المسيحية على الأندلس، فوجد الفقهاء في المساجد فضاءً مناسبا مكّنهم من الإتّصال بشكل مباشر بأفراد المجتمع وحثهم على تقديم العون من أجل إنعاش العمل الجهادي[4].

لقد كان دور العلماء-الفقهاء واضحا في تأطير شؤون المجتمع سواءً في العبادات أو في المعاملات حيث ظهر ذلك جليا من خلال نوازل الفترة التاريخية، وكان لتوفيقهم في أغلب الأحيان في تطويع الأعراف المحلية ومزجها في المنظومة الفقهية ما أعطى لمفهوم "سلطة الفقهاء" أبعاده الحقيقية[5].

---

[1] - علي أومليل، السلطة الثقافية، ص145.

[2] - محمد المنوني، "المولد النبوي الشريف في المغرب"، دعوة الحق، السنة 12، العدد 01، نوفمبر 1968م، ص130.

[3] - إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص331؛

-محمد فتحة، الأحكام والنوازل، ص529.

[4] - محمد فتحة، السابق، نفس الصفحة.

[5] - نفسه، ص ص567، 809.

وظهر تأطير الفقهاء أيضا من خلال إشرافهم على عدد كبير من الوظائف المهمة، والخطط الدينية في حياة المجتمع الحضري من قضاء وحسبة، إفتاء، خطابة، إمامة وكتابة والتي كان بواسطتها يتم تأمين المصالح الرئيسية في الحياة الإجتماعية، وبواسطتها شاركوا في السلطة بشكل مباشر أو غير مباشر[1]، فتبوّءوا بذلك مركز الصدارة في أمور مجتمعهم، وشكلوا سلطة معنوية لها دور أساسي في علاقات المجتمع وفي علاقات الرعية بالحاكمين وزكوا بالتالي مكانتهم الإجتماعية، فلا غرو أن إكتساب العلم الديني لم يكن يطلب لذاته بل لما له من امتداد عملي في الحياة الشخصية والعامة لذا فإنه لابد أن ينطوي على سلطة[2]، ومن جهة أخرى عمل الفقهاء على استثمار مكانتهم الإجتماعية في مصالح الجماعة الأمر الذي زاد من تعزيز مكانتهم[3].

كان من الطبيعي أن تنتبه السلطة الموحدية الناشئة، وهي التي كانت تبحث عن المشروعية إلى أصحاب هذه الأدوار وتحاول استقطابهم وهذا ما تفطّنت إليه الدولة الموحدية منذ بداية التأسيس حيث عمد عبد المؤمن بن علي إلى تكوين هيئة من الطلبة، حيث كانت تجمع بين التكوين الديني والإداري[4].

لكن علاقة الحكام الموحدين بعلماء الحواضر التي فتحوها طُبعت بالتوتر منذ البداية فإبّان حصار مراكش الأول سنة(524هـ/1130م) هبّ الفقهاء لصد هجومات الموحدين وتفانوا في ذلك كما يقول ابن القطان[5]، ونفس الإستعداد نلمسه في موقف الفقهاء من محاولة

---

1 -علي أومليل، السلطة الثقافية، ص110.

2 -السابق، ص120.

3 -كان بعض العلماء يعتقدون أنه: «إذا كان الملوك يعتبرون أنفسهم حكاما على الناس فإن العلماء حكام على الملوك». ينظر:
- إبن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر السادس، ص ص18-19.

4 - أنظر: ص ص 113-114، من هذا الفصل.

5 - نظم الجمان، ص159.

إقتحام مدينة تلمسان من طرف الموحدين، حيث كان الفقيه أبو عمر عثمان بن صاحب الصلاة على رأس الفقهاء المدافعين عن المدينة[1].

ومما يؤكد سياسة الدولة الموحدية في إستيعاب العلماء، أن عبد المؤمن بن علي نفسه سامح بعدما تغاضى عن معارضة القاضي أبو الفضل عياض للموحدين، ومحاربته إياهم عندما عزموا على فتح مدينة سبتة، فعندما أقبل عليه عياض حاملا بيعة أهل سبتة «أجزل، صِلته وأوجب برّه»[2]. ولا شيء يبرّر هذه السياسة سوى محاولة استقطاب هؤلاء العلماء لكسب مزيد من الدّعم، ولتعميق مشروعية الدولة، غير أنّها لم تتردد في التخلص من الفقهاء أو القضاة الذين عارضوا سياستها و لم يتراجعوا عن تنظيم المعارضة ومقاومة نظام حكمهم فقد كان فقيه مكناسة أبا عبد الله بن زغبوش (ت542هـ/1147م) قد أسِر في سجون المدينة[3] ثم ما لبث الموحدون أن قتلوه غيلة، بعدما رأوا صلابة في مواقفه، ورفضه المطلق مسايرة السلطان[4]، ومثل هؤلاء الفقهاء كانوا يرون بأن طاعة حكام الدولة والارتباط بسياستهم تكون دائما على حساب مكانتهم بل حَياتهم[5].

إن الذي حدث للفقهاء في بداية تأسيس الدولة الموحدية أنهم اتخذوا موقفا معاديا لدعوة محمد بن تومرت[6]، الذي اعتمد على تنظيمات خاصة به، أشرف هو بنفسه على ترتيبها وتوضيح دورها واختار رجالا بطبيعتهم المميزة[7]. ومن بين التنظيمات التي أُوكِلت

---

[1] - إبن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص581.

[2] - إبن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، تحقيق مأمون مزني، دار الكتب، بيروت، 1996م، ص271.

[3] - أبو عبد الله بن زغبوش هو محمد بن حمّاد من أهل تاورا، وهو أحد كبار شيوخ مدينة في زمانه. ينظر:
- إبن زيدان، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس32، ط2، (الدار البيضاء، 1990م)، ص577.

[4] - السابق، نفس الجزء والصفحة.

[5] - إبن خلدون، المقدمة، ص ص745-747.

[6] - إبن الخطيب، الإحاطة، ص75.

[7] - إبن القطان، نظم الجمان، ص128.

إليها المهمة العلمية والاستشارية هي تنظيم عرف باسم: "طبقة الطلبة" ثم يليه طبقة الحفاظ، وهم صغار الطلبة[1].

ومن هذا يُستنتج أن لا مكانة رسمية للفقهاء في المجالس الخاصة لابن تومرت لكن يبدو أن المذهبية في حدّ ذاتها لم تكن حائلا بين فقهاء المالكية ومجالس الطلبة ولا حتى مع ابن تومرت نفسه، وإنما كان المانع هو الموقف السياسي من دعوة ابن تومرت ومما يدل على هذا الرأي أن المجالس التي كان ينظمها الطلبة يحضرها «الطلبة، الكتاب، النبهاء الفقهاء والشعراء»[2]. وقد حدث انفتاح أوسع على الفقهاء خلال حكم عبد المؤمن بن علي (524-558هـ/1130-1163م) الذي كان وراء حظوة ومجد بعض الفقهاء مثل الفقيه أبي العباس بن الصقر (ت569هـ/1172م) حيث ألحقوا بمجلسه وأغدق عليه بالأموال والهبات[3]. وارتقى أيضا إلى هذه المكانة الإجتماعية الخاصة الفقيه ابن ميمون القرطبي (ت567هـ/1172م) حيث كان يحضر مجلس عبد المؤمن مع جملة من العلماء[4].

وهكذا بدأت عودة الفقهاء إلى مكانتهم الطبيعية، فقد نال الفقيه أبو موسى بن عمران التلمساني[5]. (ت578هـ/1182م) حظوة ومكانة مرموقة لدى بلاط الخليفة عبد المؤمن بن علي وقربه منه حتى خصّه بالاستشارة في أدق المسائل، وخوّله تقريب من يشاء من الفقهاء ورجال العلم حتى ارتفعت مكانته[6].

---

[1] - يقول إبن اليسع (ت575هـ/1180م) أن لكل صنف من هذه الأصناف رتبة لا يتعداها إلى غيرها لا في سفر ولا في حضر. انظر: مجهول، الحلل، ص109.
- ويذهب إلى نفس الرأي إبن عبد الملك في الذيل والتكملة، ج1، ص228.

[2] - إبن عذارى، البيان (ق. لموحدين)، ص31.

[3] - إبن عبد الملك، الذيل والتكملة، ج1، ص230.

[4] - عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص205؛ - الداودي، طبقات المفسرين، ج2، ص173.

[5] - عبد الواحد المراكشي، السابق، ص205.

[6] - السابق، ص201.

وسار الخليفة الثاني أبي يعقوب يوسف (558-580 هـ/1163 1184م) على نفس سياسة أبيه الخاصة بتقريب العلماء وتبجيلهم، لدرجة أن بعض الفقهاء كانوا مسموعي القول مقبولين الشفاعة[1]. وهكذا استمر التعامل مع الفقهاء وما أن حل عصر الخليفة الثالث أبو يوسف يعقوب المنصور (580-595هـ/1186-1201م) حتى انفتح المجال كلية أمام الفقهاء والعلماء لينالوا المكانة التي كانت لهم إبان حكم المرابطين. فقد كان يعقوب المنصور محبا للعلماء معظمًا لهم صادرا عند رأيهم[2] ومما يؤكد هذا أنه لَمّا تَمّت بيعته إتجه إلى تكريم الفقهاء، فقد أجرى على أكثرهم من الإنفاق[3] ما يضفي عليهم مظاهر السمو والرفعة[4]. وحظي بتقدير وتعظيم الخاصة والعامّة من آل بني عبد المؤمن[5].

هذه المنزلة المرموقة التي حظي بها فقهاء العاصمة الموحدية تعددت لتشمل فقهاء الولايات ذلك أن أمراء الدولة الموحدية كانوا يولون عناية وحرصا كبيرين على تكريم الفقهاء ومدهم بالأموال والإقطاعات، من الأمثلة على ذلك ما ناله الفقيه أبا بكر بن الجد الإشبيلي (578هـ/1182م) من احترام وتكريم أبي يوسف يعقوب الذي اتخذه مستشارًا له[6].

وما يمكن أن نستنتجه هو أنه إلى جانب الأسباب المتعلقة بمناوأة سياسة الدولة التي أبعدت بعض الفقهاء عن السلطة وعطاءاتها فإنه ثمة أسبابًا ذاتية لها أهميتها هي الأخرى في هذا الإطار، وتكمن

---

[1] - إبن عبد الملك، الذيل والتكملة، ج6، ص 336.

[2] - إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص ص 284-285.

[3] - نفسه، ص 230.

[4] - يشير إبن الأبار إلى أن الفقيه أبو العباس بن حرج البلنسي (ت. 601هـ/1205م) عندما دخل مراكش مستدعيا من قبل الخليفة المنصور إلى أن منزلته قد جلت ونال تقديرًا ثم انتقل إلى بلاط الناصر حيث استمر جاهه وتقديره. ينظر:
- التكملة، ص117، رقم (247).

[5] - إبن عبد الملك، السابق، ص 169.

[6] - نفسه، ص 325.

في طريقة التفكير المجرد والقياس والتعميم التي ظهر بها بعض الفقهاء في المسائل الفقهية وغيرها، وهي لا تناسب الميدان السياسي الذي كان يتطلب دراسة كل حالة على انفراد والإحاطة بوقائعها، لذلك لم يسلموا من الغلط[1]، ومن الأسباب الذاتية الأخرى حسب ابن خلدون توهم بعض العلماء إحتياج كل الناس لما بأيديهم من معرفة[2]، مما كان يجعلهم لا يخضعون لصاحب جاه ولا يتملّقون لمن هو أعلى منهم[3] وهكذا يمكن أن نستخلص بأن صراع الفقهاء مع السلطة شكّل لبنة ضمن الأسس التي بنيت عليها المكانة الإجتماعية للعلم وحامليه سواء لدى أفراد المجتمع أو لدى السلطة القائمة آنذاك.

المظاهر الإجتماعية للعلماء الفقهاء:

لقد أهلت المكانةُ المعرفيةُ الفقهاءَ للقيام بدور المحكّمين والمصلحين بين أفراد المجتمع الحضري والريفي في بلاد المغرب، الأمر الذي خوّل لهم مكانة خاصة، ويكفي استحضار مثال القاضي عياض في سبتة الذي كان السكان يفزعون إليه كلما دعت الضرورة إلى ذلك[4].

وفي نفس السياق لا تخلو مدينة أو تجمّع سكّاني من فقهاء يلتجيء إليهم السكان في الأوقات العصيبة[5]، ومن مظاهر الإحترام والتقدير والتكريم الأخرى التي تُبرز مكانتهم لدى أفراد المجتمع إطلاق أسماء بعضهم على بعض الرحبات، والشوارع، وتنافس الناس في استقبالهم

---

[1] - إبن خلدون، المقدمة، ص ص 745-747؛ فصل«في أن العلماء بين البشر أبعد الناس عن السياسة ومذاهبها».

[2] - نفسه، ص ص 490-491.

[3] - نفسه، ص 496.

[4] - كان الفقيه محمد بن يخلفتن بن أحمد اليحفشني الفازازي من أهل تلمسان (ت. 558هـ/1163م) يقوم بأدوار اجتماعية، وسياسية وعسكرية عندما تتعرض مدينة تلمسان إلى مكروه. ينظر:

- إبن الأبار، التكلمة، ط. القاهرة، ج2، ص 618، رقم1616.

- ونفس الدور كان فقهاء بجاية يقومون به نذكر من بينهم عبد الله بن أحمد بن عبد الرحمن التميمي وهو من أهل بجاية.

- إبن الأبار، السابق، ط مدريد، ج2، ص531.

[5] - السابق، الحلة السيراء، ص400.

عند حلولهم بإحدى المدن بترحاب واحتفاء عند عودتهم[1]، ويَسْتَسْمَنونَ بهم إذا وقع القحط والجفاف، ويشاركون بكثافة في تشييع جنائزهم والتزاحم عليها[2].

وإجمالا فإن حظوتهم كانت واسعة في مجتمع المدينة.ومن جهة أخرى كانت مكانة الفقهاء الإجتماعية تظهر في المراسلات التي كان يوجهها السلاطين للرعية، فتجد العلماء ضمن المخاطبين المعنيين بمضمون الخطاب يُنْعَتُون أحيانا من خلالها بعبارات التبجيل مثل: "الفقهاء الأجلاء"، "الفقهاء المكرمين"[3]، وكانت السلطة تصدر لبعضهم ظهائر التوقير والاحترام، كما كان السلاطين يعقدون معهم الجلسات العلمية وجعلوهم من خواص مجالسهم[4] واصطحبوهم في رحلاتهم، وأسندوا إليهم المناصب الحساسة والشرفية في جهاز السلطة وكان الفقهاء يحضرون رفقة السلطان تمييز الجيش[5] والتدشينات وصلوات الإستسقاء، وفي كل علاقات السلطة بالمجتمع كانوا من بين المقدمين على من دونهم في حضور حفل أو جنازة[6].

لم تقتصر مظاهر تقدير السلطة للعلماء على المبادلات الرمزية بل تعدتها إلى دعم مادي فمقابل الخدمات التي قدمها العلماء للسلطة ودعم سياستها، وكذا نتيجة وعيها بالوضعية المادية المتدهورة للعديد من الأطر العلمية، في وقت كانت هذه الأطر مختلفة حول جواز أو عدم جواز أخذ الأجرة عن التدريس[7]، ولم تجد السلطة الموحدية

---

1 - التنبكتي، نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، مطبوع بهامش الديباج لابن فرحون، القاهرة، 1932م، ص 474.

2 - إبن عبد الملك، الذيل والتكملة، السفر6، ص 18.

3 - إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص 150؛ - إبن الخطيب، نفاضة، ج2، ص ص 314، 340.

4 - إبن أبي زرع، السابق، ص 298؛- إبن مرزوق، المسند الصحيح، الجزائر، 1981م، ص ص 116-137.

5 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 106.

6 - إبن أبي زرع، السابق، ص31؛ - إبن الخطيب، السابق، نفس الجزء، ص307.

7 - الونشريسي، المعيار، ج8، ص ص 236-237.

بدّا أمام هذا الوضع من منحهم في المقابل امتيازات مادية ومعنوية وإكرامهم بالحرابات والمرتبات ومنحهم الإقطاعات[1] في محاولة منها للمزيد من إستقطابهم.

لكن هذه السياسة وتلك الإستجابات التي حصلت من قبل مجموعة من الفقهاء، اعتبرت عملاً مُسْتَهْجَنًا من قبل بعض الفقهاء والكثير من أفراد المجتمعات الحضرية، وتجسّد هذا التوجه فيما قاله أبو فارس عبد العزيز القيرواني: ففي حديث عن العلماء ودورهم يستدرك ويقول: «ولست أعني بالعلماء الذين يتقربون بعلمهم إلى جمع الحطام والتقرب من الولاة والحكام ونيل الرياسة عند العوام وإنما نعني العلماء الذين يعملون بعلمهم»[2].

*** المتصوفة:**

لقد اعتقد أفراد المجتمع في المغرب في فترة الدراسة أن للمتصوفة "درجة" خاصّة عند الله تجعلهم في وضع يمكنهم من القيام بدور الوسيط بين البشر وعالم الغيب، ومنح "البركة" لزوارهم لتكون لهم سَبَبًا في زكاة أموالهم أو صلاح أولادهم[3].

ومن أسس مكانة الصلحاء، سلوكهم الورع وابتعادهم عن الدنيا وملذاتها وهي الصورة التي عملت كتب المناقب على ترسيخها، لأنها كانت تتوخى الدعوة إلى الإقتداء بشخصيات نموذجية تنتمي إلى فئة المتصوفة[4].

لقد اكتسب الصوفية سلطة معنوية أصبحت تضاهي أحيانا سلطة أصحاب الجاه وتخفي في الغالب سلطة العلماء[5]، من جهة وتعكس

---

[1] - أبو الوليد بن الأحمر، كتاب مستودع العلامة، تحقيق محمد بن تاويت التطواني، منشورات كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، (د.ت)، ص 42.

[2] - الونشريسي، المعيار، ج11، ص 32.

[3] - محمد مفتاح، التيار الصوفي، ج1، ص 48.

[4] - عبد الأحد السبتي، قضايا في دراسة التاريخيات، ص 21.

[5] - محمد فتحة، الأحكام والنوازل، ص 435.

من جهة أخرى التدافع بين المتصوفة والفقهاء الظاهر منه والخفي حول أحقية كل طرف منهما في تأطير المجتمع[1] والتنافس في كسب ولائه الروحي فإذا كان المتصوف يترك للفقيه شؤون الدين على مستوى السطح فإنه يدعي بالمقابل أن عمق الوجدان الديني من اختصاصه ليبقى الإرتباط العميق للناس به لا بالفقيه، فالمتصوف يرمي إلى السيادة على القلب الذي لا سلطان للفقيه عليه[2].

إن ظاهرة الخوف وأنواعه، الخوف من السلطة، ومن الجوع الناجم عن تغيير الأحوال والظواهر الطبيعية، أوجد لدى الكثير من أفراد المجتمع فكر الإيمان بكرامات الأولياء التي ساهمت الإشاعة داخل الوسط الحضري في ذيوعها[3]. وزادت كتب المناقب في تزكيتها وبالتالي تقوية سطوة الولي وهيبته[4]. فالكرامات بغض النظر عن جانبها غير الطّبيعي هي بمثابة السّلطة التي استعملها الولي لترسيخ نفوذه إما بالترغيب أو بالترهيب[5]. مما يجعله يحظى بنوع من الهيبة نتيجة خرقه العادة كما لو كان فعل ساحر، وينبني على هذا أن الكرامة تهدف إلى تصديقها وليس إلى قابليتها للتصديق.

وقد ولدت الكرامات إقتناعا بضرورة اعتماد الأولياء كوسيلة لإزالة ما حلّ بالمجتمع من أزمات ومشاكل حتى ساد في الاعتقاد الشعبي أنه لكي يضمن الناس نجاحهم في هذه الدنيا عليهم أن يربطوا أنفسهم

---

[1] – محمد فتحة، الأحكام والنوازل، ص418.

[2] – علي أومليل، السلطة الثقافية، ص18-19.

[3] – محمد فتحة، "أنس الفقير لإبن قنفد أو الأنصار لزاوي ملادة"، سلسلة ندوات ومناظرات عدد (8)، جامعة الحسن الثاني، الشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الدار البيضاء، (د.ت)، ص167.

[4] – عبد الأحد السبتي، "أخبار ومناقب الأخيار" ضمن التاريخ وأدب المناقب، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، منشورات عكاظ، 1989م، ص113.

[5] – عبد الأحد السبتي، قضايا في دراسة التاريخيات، ص ص 21-22.

بأحد الأولياء[1]. لقد اعتقد أفراد المجتمع المغربي خلال هذه الحقبة التاريخية أن للصلحاء " درجة " خاصة عند الله تجعلهم في وضع يمكنهم من القيام بدور الوسيط بين البشر وعالم الغيب، ومنح البركة للمحيط بهم، وانطلاقا من هذه الوضعية الفكرية بدأ المهدي بن تومرت دعوته[2] سنة (514هـ/1119م)، وتدخل المتصوفة لإيجاد " حلول " لمشاكل الناس والمتسولين، وإطعام الطعام رغبة في الجزاء الأوفى في الدار الآخرة[3]، وشارك المتصوفة في الجهاد وتعبئة المجتمع للتصدي للهجمات، ونظرا لضعف التطبيب في المجتمع فإن الصلحاء قاموا بدور هام في علاج المرضى[4] وكان المتصوفة ملاذا للمستضعفين والمغلوبين على أمرهم، ويتدخلون لدى السلطة لضمان العدل بين الناس والتقليل من أشكال التعدي، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ولم يبق هؤلاء في الغالب محايدين تجاه القضايا التي تهم علاقة السلطة بالرعية سواء تعلق الأمر بالحكام أو الولاة أو جباة الضرائب. وهذه العلاقة عرفت تجاوزات كثيرة رغم أن الدولة الموحدية قامت على أساس المشروع الإصلاحي[5] فالمتصوفة زاوَجوا بين العمل الإجتماعي والتوجه الديني الروحي[6]. حتى أصبح الناس يؤمنون بأنه: «إذا غلت أسعاركم، وقلت أمطاركم وضعفت ثماركم وتنكرت

---

[1] - إبن خلدون، المقدمة، ص ص 655-656؛ - ابراهيم القادري بو دشيش، "انتحال النبوة"، ص173؛ - إبن الخطيب، معيار الاختيار، تح محمد كمال شبانة، المعهد الجامعي للبحث العلمي، 1977م، ص173.

[2] - بداية دعوة المهدي بن تومرت..لقد أقام إبن تومرت أثناء عودته من الشرق في كل من طرابلس، المنستير تونس وقسنطينة وبجاية حيث بدأت الدعوة في طرابلس. ينظر: - إبن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص137؛ - إبن الأثير، الكامل، ج8، ص294.

[3] - محمد مفتاح، " التيار الصوفي "، ج1 ، ص219؛ - صالح بعيزق، بجاية في العهد الحفصي، ص 387.

[4] - البادسي عبد الحق، المقصد الشريف، تح سعيد أعراب، الرباط، 1982م، ص ص91-173.؛ - إبن القنفد القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير، نشر محمد الفاسي، أدولف فور، الرباط، 1965م، ص10، 71؛ - الحكيم أبو الحسن علي بن يوسف، الدوحة المشتبكة، تح حسين مؤنس، القاهرة، 1986م، ص37-42.

[5] - البادسي، السابق، ص90؛ - التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج، المطبعة الجديدة، فاس، (د.ت)، ص628.

[6] - محمد مفتاح، المرجع السابق، ج1، ص224.

قلوبكم، وعميت عن الرشد مسامعكم، وكثرت النميمة والغيبة في خيّاركم، وجارت عليكم ملوككم، فالتجئوا إلى الله بالأولياء الذين خلف ظهوركم يؤمنكم الله مما تخافون»[1].

ومن أسس مكانة الصوفية سلوكهم الورع وابتعادهم عن ملذات الدنيا، وقد نشطت كتب المناقب في ترسيخ هذه الصورة لأنها كانت تتوخى بشكل واضح التربية عن طريق الدعوة إلى الإقتداء بشخصيات مثالية تنتمي إلى فئة المصلحين الذين كانوا بسلوكهم هذا أقدر على خلق تواصل مباشر مع غالبية أفراد المجتمع الحضري. وبغض النظر على الأسس التي أقام عليها الصوفية مكانتهم في المجتمع فإنه من الواضح أن هناك أسسا أخرى قامت عن طريق علاقتهم بالسلطة، فمن المتوقع جدا إن لم أقل أنه من المؤكد أن تتجه السلطة الحاكمة إلى فئة تعلم مدى تغلغلها ووزنها في المجتمع الحضري، فكيف تعامل الموحدون مع الصوفية؟ وكيف ساهمت علاقة الطرفين في بلورة مكانة هؤلاء؟ لقد مهّدت السلطة الموحدية السبيل لعلاقتها بالصوفية بوضع نفسها منذ بداية الدعوة الموحدية في إطار الصلاح،لوعيها التام بأهمية العمل على هذه الجبهة وذلك بالترويج لصلاح المهدي بن تومرت[2]. وكرامته وتقرّب الصلحاء منه[3]. والواقع أن هذا الترويج لم يكن على ما يظهر سوى من صُنْع أصحاب المشروع

---

[1] - موسى سلامة، الولاية والمجتمع، ص317.

[2] - إبن خلدون، العبر، ج6، ط، بيروت، ص468.

[3] - عن الكرامات المنسوبة للمهدي بن تومرت ينظر في، عبد الله علام، الدولة الموحدية، ص ص69-70. وعن تلك التي أحاطت بعبد الله بن محسن البشير أحد المقربين منه ينظر البيدق، المقتبس من كتاب الأنساب، ص24.

الإصلاحي الموحدي[1] وأوّلهم ابن تومرت الذي يقول «لو شئت لعددت خلفاءكم خليفة خليفة»[2].

فزادت فتنة أتباعه وأظهروا له شدة الطاعة وأقبل الناس من كل جهة يبايعونه ويتبركون برؤيته[3].

وتكون السلطة بأفعالها تلك قد زادت من تأكيد وترسيخ مكانة الصوفية في المجتمع فهل كانت هذه المؤشرات كافية لإستقطابهم إلى جانبها، والتقليل من مخاوفها إزاء التيار الصوفي؟

علاقة المتصوفة بالموحدين:

منذ بداية القرن السادس الهجري تم بتحريض من فقهاء المرابطين إحراق كتاب الأحياء للغزالي والتضييق على أنصاره ومتابعة أنصار رجالات التصوف، خشية الفتنة لكن هذه السياسة أتت بنتائج عكسية تماما، لأنها دعمت مكانة رجالات التصوف، وجعلت الإقبال عليهم يتزايد، وقد أدى ذلك بالسلطة الموحدية فيما بعد إلى مراقبتهم والتقصي عن أخبارهم، إذا لزم الأمر[4]. وهكذا يمكن القول أن موقف الموحدين إتسم إزاء المتصوفة بالحذر منذ البداية[5] وكان التصوف قد انتشر داخل كل الأوساط بالمدن والبوادي على السواء، فقد تبلورت اتجاهاته

---

[1] – إن قبائل المصمودية التي التفت في البداية حول حركة المهدي لم تكن تعرف الشيء الكثير عن الإسلام باستثناء بعض المذاهب الإسلامية وعلم الكلام، وحتى إن أرادت التعلّم فإن المجال الجغرافي الذي انطلقت منها الدّعوة لا تتسع بالتواصل البشري المستمر. ينظر: – إبن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 249؛ – إبن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ص 183.

Alfred. Bel, « Les Premiers Empires Mérinides et l'Islam » ; In Mélange - Démographie Et D'orientalisme Offerts à E-F, 1937, p43.

[2] – عبد الله علي علام، الدولة الموحدية، ص 69.

[3] – إبن أبي زرع، روض القرطاس، ج2، ص ص 115-116.

– رسائل موحدية، مجموعة جديدة، أحمد عزاوي، ج2، ص 13.

[4] – لقد أمر الخليفة المنصور إحضار الصّلح أبي موسى بن عبد العزيز يلبخت (ت. 607هـ) إلى مراكش وكان منقطعا للعلم زاهدا في الدنيا لا يتصل بأهل الجاه بالأمراء والولاة، والغرض من استدعائه استجوابه والتأكد من الأخبار التي أشيعت حوله. إبن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ص ص 249-250.

[5] – القبلي محمد، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الأوسط، الرباط 1987م، ص 25.

ومدارسه وانضوت قبائل وجماعات في مجاله[1] وحتى أن بعض الحاكمين وقعوا تحت تأثير التصوف واندمجوا فيه كلية وتخلوا عن المال والعز والنفوذ[2] ولم يكن هذا ممكنا خلال العهد المرابطي، لأن المتصوفة قد تجذّروا في المجتمع خلال عهد الموحدين، الأمر الذي جعل حكام الموحدين لا يسعهم إلاّ التعامل مع هذا الواقع.

لكن خلفاء الدولة الموحدية وجدوا صعوبة كبيرة في التعامل مع هذا الواقع الذي ساهموا في صنعه وَوَقَفُوا عاجزين أمام الوفاء للشعارات التي تبنوها أثناء الدعوة، وواضح أن وضع المعارض أيسر بكثير من المسيّر لأمور المسلمين، وقد اتضح التغيير الذي طرأ على موقعهم من المتصوفة من خلال مراقبة كل ما يمت بصلة للمناخ الديني العام ومنه بيئة المتصوفة[3].

فالموحدون يراقبون تحركات المتصوفة من خلال جهاز " الطلبة الحفاظ "[4]، الذين يرفعون كل شبهة حامت حول المتصوفة إلى الخليفة، وزيادة على ذلك فإن ممثلي المخزن المحليين كانوا دائمي التقصي عن أحوال المتصوفة[5]. وحتى تتضح وضعية المتصوفة أكثر خلال العصر الموحدي نشير إلى أن بعض المتصوفة تعاملوا مع الدولة بما هو مخالف لما كان شائعًا في هذا الوسط، فإن العديد منهم كانوا على دراية برواية الحديث والقراءات وعلم الأصول إضافة إلى تنظيم

---

1 - محمد فتحة، الوارل الفقيه والمجتمع، الدار البيضاء، 1999م، ص ص 173-174.

2 - محمد فتحة، السابق، نفس الصفحة.

3 -ويرجع إبن عبد الملك المراكشي هذا التحسس إلى معرفة الموحدين بطبيعة المتصوفة ولعشرة خلفائهم بمجموعة كبيرة من هؤلاء. - الذيل والتكملة، ص251.

4 - إن جهاز " الطلبة الحفاظ " كان قد أعده الخليفة عبد المؤمن بن علي لتولي تسيير أمور الدولة والحفاظ على توجهاتها، وانتشر هؤلاء الحفاظ في كامل أرجاء الدولة بما في ذلك الأندلس، وتعود رئاسة هذا الجهاز إلى العاصمة مراكش. ومنصبه توارثته بعض الأسر العلمية المشهورة. إبن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ص245.

5 - التادلي، التشوف، ص (308-331-356)؛ - إبن عبد الملك، السابق، ص ص 241-264.

حلقات الوعظ والتذكير[1]. لهذا أسندت إلى شيوخهم بعض الخطط الدينية كقضاء الجماعة[2] والحسبة[3]. ومع هذا يبقى وضعهم المفضل هو الإبتعاد عن أهل الدنيا وترك الاحتكاك برجال السلطة مما يكرس في أعين الحاكمين أنهم قوة مناهضة تجب مراقبتها[4].

والواقع أن الدولتين المرابطية والموحدية أسّستا حُكْميهما على أساس ديني إصلاحي لكل منهما منطلقات عَقَدِيّة وإصلاحية واضحة الأمر الذي سهّل تعميق ونشر القيم الدينية والروحية في ربوع المجتمع الأمر الذي سهّل نشاط المتصوفة وأهل الشريعة. يتضح ذلك جليا في روح التعامل الذي سلكته دولة الموحدين وكيف تمكنت في تسيير نشاط هذه الفئة الناشئة في المجتمع دون أن تصطدم معها وتثير حوادث تعيقها عن توجيه قدرتها نحو الهدف الذي حدّدته لنفسها.

غير أن ارتباط الدعوة الموحدية بسلوك العنف الأعمى المبني على التفرقة العقدية والتفكير المتعصب أجّل ظهور معارضة قوية والحقيقة أن المتتبع لظروف تأسيس الدولة الموحدية يشعر أن هناك نوعا من التحفظ الواضح المبكر نحو هذه الحركة داخل صفوفها، فقد ظهر محتشما مع الخليفة الثالث يعقوب المنصور، ثم تجلّى بعد ذلك[5].

لقد رافق تحفظ بعض أفراد البيت الموحدي، تململ ومحاولة انصراف العامّة عن مضمون عقيدة التوحيد بسبب تعقيداتها

---

[1] - إبن عبد الملك، الذيل والتكملة ، ص250.

[2] - إبن عبد الملك، السابق، ص307.

[3] - التادلي ، التشوف ، ص108.

[4] - يرد التادلي حالة بعض المتصوفة الذين تقربوا من السلطان يقول: «فهذا الولي الصالح أبو محمد بن بلارج يوصي أقرب أصحابه إليه بعدم الاتصال بالسلطان لأنه كانت له أحوال وفقدها من يوم اجتماعه بالسلطان وحديثه معه». ينظر:
- التادلي، السابق ، ص152؛ - إبن الخطيب، الإحاطة، ج4، ص30.

[5] - عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص291.
R. Brunschiving, « Sur la doctrine du Mahdi ibn tumart » Études d'islamologie, T_1, Paris, 1976, pp282-290.

وامتناع فهمها على مستوى العامّة. وتطورت العملية على يدي الصّوفية التي كانت لها جذور في المجتمع المغربي منذ ما قبل قيام الموحدين[1] وكان للرُّبط المغربية دورٌ في هذا التحول نذكر على سبيل المثال، رباط ماسة ورباط شاكر ورباط الولي الصالح الطاهر بلعمري (ت. 590هـ/1195م) بتاهرت[2].

لقد سيّر الموحدون الإختلاف الحاصل بين الولاية والمهدوية بنجاح خلال المراحل الأولى للدولة لكن طبيعة كلّ منهما المتناقضتين أجّلت الصراع و لم تلغيه. فالإقبال الشعبي الواسع على الولاية كان على أساس واقعيتها وإمكانية ممارستها والانتصار للمستضعف، في حين كانت المهدوية قائمة على الميز والإكراه والتشدد[3]. وهذا ما وفّر الظروف الملائمة للمتصوفة للتّهيكل في الواقع القبلي المحلي للتجمعات السكنية التي كانت تجد الدّعم والإستئناس في الأولياء، الأمر الذي دعّم المرتبة الإجتماعية للمتصوّفة بصنفيها، فالمتعاملون مع السلطة الموحدية بما اكتسبوه من جاه سياسي وما يتبعه من إمتيازات، والمعارضون بما حصلوا عليه من مشروعية ومصداقية وصيتا فأغنوا رصيدهم بالجاه المعنوي المستمد من الإلتفاف والتعاطف الشعبي[4].

---

[1] - البادیسي، المقصد الشریف، ص ص 106-114-118.

[2] - G Marçais, « Note sur les ribâts en Berbéris », Mélanges René, Paris, 1925, p p 390-410.

[3] -روجرلي تورنو، حركة الموحدين في الغرب، ط2، الدار البيضاء، 1998م، ص ص 43-45.

[4] - G. A. Mercedes, « la conjonction du sufisme », p 238.

- البادیسي، السابق، ص 59.

مظاهر المكانة الإجتماعية للصوفية:

تظهر مكانة المتصوفة في المجتمع عبر مستويات متعددة، فأدوارهم الإجتماعية تُعَدُّ مظهرا معبرا عن المكانة الإجتماعية التي حظي بها المتصوفة[1] وأبرزها قيام الصوفي بدور الوساطة بين المتخاصمين من سكان المدينة[2]. وهذا الدور لم يكن للولي القيام به إلاّ لكونه كان يبدو تاركا لشؤون الدنيا وليس طرفا من الأطراف المتنازعة عليها[3]، وبمقدار ما كان يظهر عدم لهافته على الدنيا، بقدر ما كانت تتعلق به النفوس، فيتمكن من بسط جاهه الروحي على الناس وتتهيأ له الشروط المطلوبة لاتخاذ موقع الحكم[4].

ومن المظاهر التي إنفرد بها الصوفيون في المجتمع الحضري ذلك الخطاب الذي وُجّه لهم من فئات خارج مجال الصلحاء والمتصوفة والسعي في " تقديم المعونة لخدمتهم "[5]. وتتجلى مكانتهم الإجتماعية أيضا في كتب المناقب التي ازدادت أهمية مع نهاية عصر الموحدين وتعتبر بمثابة تقرير عن إزدياد أعداد الصوفية.

وتبقى أهم المؤشرات على مكانة الصوفية تلك المحاولات التي أبداها البعض لإدعاء الإنتماء إلى صف الصوفية بدون وجه حق. فقد وجد أبناء العامة من الناس المستضعفين في التقرب والإنتساب في الولاية والتصوف مخرجا للهروب من وضعيتهم المتأزمة، وسبيلا لاكتساب قيمة إجتماعية توصلهم لنيل الحظوة والنفوذ لدى أفراد

---

[1] - إبن القنفذ القسنطيني، أنس الفقير، ص71؛ - عبد الغني سليمان، الحياة الإجتماعية في مدينة مراكش في عصر المرابطين والموحدين، الكراسات التونسية، عدد خاص، مجلد 34، ص 96.

[2] - كان الخليفة الموحدي يعقوب المنصور يحي ليلة القدر من شهر رمضان ويدعو وجهاء الدولة، وشيوخ القبائل ورموز المتصوفة، حيث يستمع الجميع إلى تسابيح وقراءة القرآن، ويشهد الإحتفال توزيع هدايا وإكرامات على المستحقين. أنظر ذلك في:
- السابق، ص ص 32-34-36-39-124.

[3] - محمد مفتاح، التيار الصوفي، ج1، ص88.

[4] - علي أومليل، السلطة الثقافية، ص18.

[5] - إبن الخطيب، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، تح محمد عبد الله عنان، ط1، ج2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1981م، ص168.
- إبن خلدون، المقدمة، ص487؛ - صالح بعيزق، بجاية في العهد الحفصي، منشورات كلية العلوم، تونس 2006م، ص31.

المجتمع والسلطة، ويمكن القول أن احتراف الصلاح كان تجارة مربحة يتوارثها الأبناء على الآباء والخدام عن السادة[1].

تقدير السلطة للصوفية:

كما هو متبع مع ذوي الجاه والعلماء فإن الصلحاء كانوا من جملة المخاطبين في الرسائل الرسمية[2]. مبجلين فيها بعبارات من قبيل " الصلحاء المباركين الأتقياء "[3] وتشير المصادر التاريخية إلى أن الصوفية يكونون بجانب الأمراء، والسلاطين في مناسبات مختلفة كحضورهم بجانب السلطان أثناء صلاة العيدين والاستسقاء[4] وجعلتهم السلطة الموحدية من بين الوفود الرسمية الذاهبة إلى البقاع وأسندت لهم قيادة الركب[5]. وعملت السلطة على إظهار اهتمامها بأحوالهم والإعتناء بهم[6]. وحرصت على تصنيفهم رفقة الأعيان في الهدايا والأعطيات وعينوا لهم المرتبات الجارية، وأعفوا بعضهم من المغارم[7]. وكان السلاطين يقدمون الهبات للصوفية وغيرهم من العلماء والأعيان مباشرة بعد بيعة السلطان[8]. ولم تكن السلطة وحدها تشكل المورد الوحيد للصلحاء في كثرة الأموال وتدفق الهبات بل كانت لهم موارد أخرى شأنهم شأن الفقهاء"إذا اشتهروا بحسن الظن بهم" واعتقد الجمهور معاملة الله في أرفادهم فأخلص الناس

---

1 - محمد فتحة، "الأحكام والنوازل"، ص377.

2 - إبن الخطيب، السابق، ص170؛ - إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص387؛ - هشام العلوي القاسمي، مجتمع المغرب الأقصى، ج2، الرباط، 1996م، ص ص 314-315.

3 - إبن أبي زرع، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1972م، ص152.
- النميري إبن الحاج، فيض العباب، إعداد محمد شقرون، الرباط، 1984م، ص482.

4 - إبن أبي زرع، روض القرطاس ، ص398 .

5 - السابق، ص378.

6 - لقد كان أبو يوسف يعقوب المنصور " مُكْرِمًا للصلحاء "، إبن الأحمر، روضة النسرين، ص28.

7 - محمد مفتاح، التيار الصوفي ، ص53-54.

8 - إبن خلدون، المقدمة، ص488.

في إعانتهم[1]. ونتيجة لهيبة الصلحاء استجابت السلطة لطلباتهم[2] واعترفت بهم كممثلين للرعية وذلك واضح من خلال تدخلهم في النزاع الذي حصل بين القاضي عيّاض وجماعته من جهة وعبد المؤمن بن علي أثناء حملته على مدينة سبتة قرن (5هـ/11م) [3] من جهة ثانية حيث توقف عبد المؤمن بن علي عن مهاجمة المدينة، وتم ترتيب الأمور حسب ما توصل إليه الطرفان، وهكذا فإن المكانة الإجتماعية للصلحاء ، وإن كانت تعبر عن المرتبة الإجتماعية الحقيقية فهي أيضا تؤشر على تراتب ناتج عن ذهنيات مكونات المجتمع بتعاملها مع الأولياء وكرامتهم، ولعل السلطة كانت تتقرب منهم وتستجيب لطلباتهم حتى تدجمهم مع الرعية، وبالتالي اكتسابها من خلالهم الشرعية.

*** الشرفاء:**

حرص أفراد المجتمع المغربي منذ فترات سابقة عن القرنين الخامس والسادس الهجريين على ضبط أنسابهم والتفاخر بها، حيث كان النسب[4] المشهور معيارا للتصنيف الإجتماعي[5] واستمر المعيار نفسه قائما خلال الحقبة التاريخية المعنية بالدراسة، فقد أكد ابن الزيات[6] أن معرفة النّسب «فيه شرف الدنيا، وبه تحفظ مراتب الكرام

---

[1] - إبن القنفد، أنس الفقير ، ص79.

[2] - محمد الشريف، سنة الإسلامية، ص129.

[3] - خالد المنوبي، "محاولة تشخيص التشكيلة الإجتماعية المغربية"، مجلة دار النيابة، السنة4، العدد 13، 1987م، ص8.

[4] -إن مكانة النسب في الوسط الحضري وما كان ينجم عنه من جاه رمزي لا تزال في حاجة إلى المزيد من البحث حسب ما توصل إليه عبد الأحد السبتي، ينظر دراسته في: المدينة الخلدونية، ص ص139-140.

والنسب من الناحية اللغوية معناه القرابة والالتحاق، ويسمى علم الأنساب، ومن الناحية الإصطلاحية علاقة الدّم أو رابطة السلالة أو النوع الذي يربط الإنسان بفروعه. ينظر: - عبد الواحد الفاسي، غاية الأمنية وارتقاء الرتب العليا في ذكر الأنساب الصقلية، تحقيق ودراسة خالد الصقلي الحسني، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، ج1، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب، السنة الجامعية 1988م-1989م، ص54.

[5] - السابق، ص106.

[6] - التشوف، ص ص 405، 415.

فلولا معرفة النسب لما عرف شريف ولا مشروف ولا فاضل ولا مفضول...» والفكرة نفسها المنبعثة من خلفيات معينة عبّر عنها الشيخ الفقيه القرافي[1] في منتصف القرن السابع (ت 694هـ/ 1299م) ممّا يبرهن على استمرارية معيار الشرفاء في التصنيف الإجتماعي[2]. لأن ذلك تعظيما للرسول صلى الله عليه وسلم.

وزاد هذا التقدير والاحترام بسيادة المعتقد الذي كان يرى في مجرد وجودهم " ضمانة للسعادة والازدهار "[3] إذ علمت ذهنية المرحلة على إشاعة ما كان يتمتع به الشرفاء من حظوة إلهية خاصة وبنوع من التأثير الخاص بهم وحدهم يورث أبا عن جدّ يسمى في بلاد المغرب عامة بـ"البركة" ويمكن لهذه البركة أن تنعكس على كل من يقترب من الشخص المنتفع بها[4].

وإذا كان النسب بصفة عامة قد منح صاحبه "مرتبة" إجتماعية متميزة، فإن النسب لأهل البيت كانت له خصوصية عن باقي الأنساب المباشرة التي رفعت من القيمة الإجتماعية للشرفاء[5]، وتجدر الإشارة إلى أن المغرب عرف عدة هجرات لمختلف فروع الشرفاء اختلفت في ظروف حدوثها وأماكن انطلاقها، وفي فترات زمنية متتالية استقر معظمهم في المغربين الأقصى والأوسط وإن عددهم أكبر

---

[1] – الأحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، سوريا 1967م، ص 100.

[2] – مصطلح الشريف من الناحية اللغوية جمع شرفاء، يطلق على الرجل الماجد، ومعناه العلو والمجد والرفعة والفضيلة على الغير. لكن بعد ظهور الإسلام حدث تحول في مدلول هذا المصطلح حيث أصبح لقب الشرف يطلق على من كان من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم. ينظر: – الونشريسي، المعيار، ج2، ص 507.
– عبد الواحد الفاسي، السابق، ج1، ص 65.

[3] – الأزموري، بهجة الناظرين، ص ص 24-25.

[4] – السابق، ص ص 26، 38، 114، 119.

[5] – الرجل الشريف أو المرأة الشريفة، هو لقب يطلق على الرجل الماجد، والمرأة الماجدة، وقد تحوّل المدلول اللفظي للشريف إلى كل من كان من آل بيت الرسول *صلى الله عليه وسلم*.
– الونشريسي، السابق، نفس الجزء، نفس الصفحة.

في المغرب الأقصى لأسبقية البلاد إلى احتضان المنتسبين إلى آل البيت [1]. وهذا أمر مألوف تشعبت به الذهنية الإسلامية منذ صدر الخلافة الراشدة وقد رافق آل البيت احترامٌ أينما انتقلوا وحيثما استقروا ومنها المغرب الأقصى منذ عهد إدريس الأول في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي. وزاد في تقدير آل البيت ذلك المعتقد الذي كان يرى في مجرد وجودهم «تأكيد للسعادة والازدهار» [2] فقد نشطت الذهنية المغربية على إشاعة ما كان يتمتع به الشرفاء من حظْوة إلهية. وعمدت تلك الذهنية إلى إشاعة إمكانية الشفاعة التي يحظون بها في الآخرة [3].

وإن المتتبع لهذا الموضوع على مستوى بلاد المغرب يجد نفسه أمام تشابه كبير فالمعلومات المتوفرة في المصادر التاريخية تشير إلى محبة واحترام آل البيت قد تساوى في ذلك الحكام والرعية. والاعتناء بالشرفاء وإظهار محبتهم يرتبط بِسَيْرورة الدولة وطموحاتها إلى الحكم الشامل واستحقاق لقب الخلافة. ويحصل هذا بانتساب الأسرة الحاكمة إلى آل البيت كإجراء رمزي لإتقاء التطلعات التوسعية للدول المجاورة والمعاصرة، فقد أورد البيدق نسب الإمام المعصوم المهدي إلى فاطمة بنت-رسول الله صلى الله عليه وسلم- [4]. وكذلك الحال بالنسبة للخليفة عبد المؤمن بن علي الذي ثبّت البيدق نَسَبَه على الشكل الآتي: هو عبد المؤمن بن علي بن عَلَوِي بن يَعْلاَ بن الحسن بن كنونة

---

[1] - عبد الواحد الفاسي، غاية الأمنية، السابق، ص ص76-79.

[2] - ألبير عياش "Albeir Ayech"، المغرب والإستعمار حصيلة السيطرة الفرنسية، ترجمة ومراجعة مجموعة بساحنين، ط1، دار الخطابي للطباعة والنشر، الدار البيضاء، 1985م، ص38.

[3] - المقري، أزهار الرياض، ج1، ص40؛ - صالح بعزيز، بجاية في العهد الحفصي، ص 394.

[4] - المهدي المعصوم بن تومرت هو محمد بن عبد الله بن وكلّيد بن يامصل بن حمزة بن عيسى بن عبيد الله بن إدريس بن عبد الله بن حسين بن حسن بن فاطمة بنت رسول الله *صلى الله عليه وسلم* . ينظر: - البيدق، المقتبس من كتاب الأنساب، ص12.
- إبن خلدون، العبر، ج6، طبعة بيروت ، ص464.

بن إدريس بن عبد الله بن القاسم بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب رضي الله عنه[1].

وبغض النظر عن صحة هذا النسب فإن محاولة الإنتساب فقط تفيد التوجه السياسي للدولة الموحدية لهذه الميزة ومحاولة احتواء الشرفاء من قبل الموحدين تحقق له أهدافًا واضحةً تتمثل في تزكية السياسة الجبائية للدولة ووضع فلسفتها الخاصة بالحكم في مجال إسلامي يرتبط بشخص الرسول-صلى الله عليه وسلم- وقُدْسيّته في نفوس المسلمين[2].

علاقة الشرفاء بالمجتمع الحضري الموحدي:

لم يكثر المؤرخون الحديث عن الشرفاء ومكانتهم الإجتماعية خلال العهد الموحدي عامة وأثناء عهد الإزدهار خاصة، ومردُّ ذلك حسب رأينا إلى وضع الموحدين أنفسهم موضع أصحاب الشرف والنّسب العلوي الشريف[3]، عن طريق علي بن أبي طالب. وبالتالي فإن احترام الشرف في المجتمع المغربي في الفترة المشار إليها أمرٌ محسوم، ومع ذلك فقد نال أصحاب النّسب تبجيلا واحتراما وخير مثال على ذلك ما نالته البيوتات الشريفة من أمثال الأمغاريين[4]

---

[1] - البيدق، أخبار المهدي، ص13.

ولم يتفق ابن خلدون مع هذا النسب وينفي صلته بآل النبي-صلعم- وإلى العرب مطلقا. ينظر:-ابن خلدون، السابق، ص258.

[2] - علّق برونشفيك "R. Brunschvig" عن هذه السياسة يقول: «وهذا الإجراء يخص الدولة ضد أشكال المعارضة التي تصدر من منطلق ديني يرتبط بمبدأ تغيير الإجراء المنكر وتمثلت في مواقف من الصلحاء والعلماء».

R. La Berbéris, op, cit, p215./1. -

- وحول المهدي ترويج انتسابه إلى فاطمة وما ينجم عن ذلك من زيادة الأتباع عموما ينظر: - إبن القنفد، أنس الفقير، ص93.

- التادلي، التشوف، ص ص417-464.

[3] - نسب الشيخ أبي محمد عبد الله بن محسن البشير الونشريسي وهو من أهل الجماعة العشرة المقربين من المهدي بن تومرت-إلى قيس العربية- . ينظر: - البيدق، المقتبس من كتاب الأنساب، ص14.

[4] - يعود شرف بيت الأمغاريين إلى نهاية القرن الرابع الهجري أي إلى ما قبل 420هـ/1024م أثناء هجرتهم إلى بلاد المغرب الأوسط، وازداد شرفهم رفعة خلال عصر المرابطين والموحدين.

- إبن عبد العظيم الأزموري، نهجة الناظرين، مخطوط، خ، ع، الرباط، رقم1343؛ - مجهول، الحلل الموشية ، ص90.

والحاصيين[1]. فقد أشار إلى ذلك الشيخ الأزموري (ت580هـ/1186م) حيث قال: «فأصلهم شريف نسبًا وفخرًا، واشتهروا ببني عبد الخالق وبني أمغار حيث انتقل جدُّهم من المشرق لينتفع به وبذريته المغرب وجميع سكانه»[2]. فالشرفاء يحظون برعاية الدولة واحترام أفراد المجتمع الأمر الذي جعل الشرفاء يمثلون فئة إجتماعية نبيلة بنسبها تضاهي من حيث القيمة الإجتماعية نسب الأسر الصوفية والعلمية نفسها هذا من حيث النظرة الإجتماعية، وكان المجتمع يعاقب الشرفاء المندسين الذين يحاولون الإستفادة من مكانة ذوي الأنساب وذلك بتعريضهم إلى مواقف مضادة استهدفت النيل من نسبهم والتشكيك فيه[3]، ترتب عنه انحصار فئة الشرفاء مع بقائها نوعا من أنواع التراتب الإجتماعي في المجتمع الحضري المغربي خلال العصر المرابطي والموحدي، لتتطور وترتقي بعد سقوط دولة الموحدين التي احتكر شيوخها صفة الشرفاء.

علاقة الشرفاء بالسلطة الموحدية:

لعل فتور الشرفاء نحو التطلع إلى الحكم يعود إلى النسب القرشي الذي انتسب إليه الإمام المهدي بن تومرت إذ لا يعقل أن يرث المهدي الذي هو من آل النبي-صلعم- حسب زعمه رجل بربري ولا يجب أن يدّعي الخلافة رجل غير قرشي. فإذا كان ابن تومرت قد استطاع أن يتخذ نسبا فاطميا فخُلَفَاؤُه لن يعوزهم ذلك، فمع أن نسبة عبد المؤمن البربرية ثابتة في كوميه فقد إدعى نسبًا قرشيا. ويظهر

---

[1] - الحاصّين، هم بيت شريف جاء من المشرق إلى المغرب قبل بداية القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي ويشتركون في النسب مع الأمغاريين، واستوطنوا أيضا بلاد المغرب الأوسط.ينظر:- إبن عبد العظيم الأزموري، السابق، ورقة 6 أ.

[2] - إبن عبد العظيم الأزموري، السابق ، ورقة 4 أ.

[3] - إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، المجتمع، الذهنيات، الأولياء، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1993م، ص ص 54-55.

أن النّسبة إلى العلوية هي التي كانوا يحرصون على تثبيتها في نفوس الناس، فذكروها في الخطبة [1].

ومما يؤكد هذه النزعة نحو الشرف الإنتساب تلك الألقاب التي اتخذوها فقد تلقبوا بـ"أمير المؤمنين" و"الخليفة" و"الإمام" [2]، واتخاذهم لقب أمير المؤمنين.

مظاهر المرتبة الإجتماعية للشرفاء:

لقد حاول الأشراف في بلاد المغرب دعم نسبهم الشريف بعامل الثروة إذ تمسكوا منذ ما قبل فترة الدراسة بالتمركز ووضع اليد على أهم المحطات التجارية، فقد استقرت مجموعة الأشراف الأدارسة في فاس[3]، والمجموعة الثانية المعروفة بالأشراف الصقليين الذين استوطنوا مدينة سبتة [4] ذات الصلة المتنية بالأندلس، ثم المجموعة الثالثة من الأشراف والمعروفة بالأشراف العلويين الذين تمسكوا بالإقامة في سجلماسة [5]، والملاحظ أن فاس، وسبتة وسجلماسة هي مناطق موزّعة جغرافيا على نقط توجد كلها على محور تجاري بالنسبة للسلطة الموحدية الحاكمة[6]، الأمر الذي زاد الشرفاء ثقلا وتأثيرا ونفوذا.

---

[1] - المراكشي، المعجب ، ص 197.
- إبن عذارى، البيان المغرب، ج3، ص 56.
- عز الدين عمر موسى، الموحدون في الغرب الإسلامي ، ص ص 122-123.
[2] - المراكشي، السابق، ص 192.
- إبن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص 406.
- إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص ص 122-176؛ - إبن خلدون، العبر، ج1، ص 412.
[3] - M. Fetha, Contribution, op, cit, p 341.
- إبن أبي زرع، السابق، ص 387.
[4] - محمد نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص ص 355-356.
[5] - نفسه، نفس الصفحة.
[6] - محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلامي، ص ص 704-706.

إضافة إلى نباهة العديد من الأسر الشريفة في العلم والأداب كبيت الشرفاء الصقليين في سبتة[1] وبيت بني عبد السيد في تونس[2].

لقد عمل الأشراف زيادة على الأدوار الإجتماعية التي قاموا بها داخل مجتمعاتهم على استجلاب قلوب الناس واستمالتهم لحب الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم بضروب الإحسان لسائر الخلق من محسن أو مسيء[3]. وكان الأشراف يتوسّطون للبعض قصد الزواج أو لحل التراعات[4]، ويتشفّعون لآخرين لدى السلطة[5]، وبواسطتهم كانت تقضي حوائج الناس عند السلاطين[6]. كما عملت السلطة الموحدية على إحضار شيخ الشرفاء في الإحتفالات الدّينية، أو بمناسبة الإنتصارات التي أحرزت عليها[7]، وحرص عبد المؤمن بن علي على تجديد سقف مسجد الشرفاء الذي كان قد بني على عهد إدريس الثاني.

وقد رأى بعض الفقهاء إسقاط الرضاع عن الشريفة دون الدّنيئة[8] وكان الشرفاء دون غيرهم يضاف إلى إسمهم الشخصي كلمة "مولاي" وانتشرت ظاهرة تقبيل اليد لبعضهم[9]، ومن جهة أخرى عمد بعض الأغنياء المغاربة شأنهم في ذلك شأن السلطة إلى منح الشرفاء مجموعة من العطايا والهبات من جراء حبّهم الشديد لآل البيت[10].

---

[1] - محمد بن تاويت، تاريخ سبتة، ص150؛ - إبراهيم حركات، "الحياة الدينية في سبتة"، مجلة البحث العلمي، السنة16، العدد 29-30، الرباط، 1979م، ص ص 115-130.

[2] - التجاني، الرحلة، طبعة تونس، 1959م، ص136.

[3] - الأزموري، فحة الناظرين، ص15.

[4] - المقري، أزهار الرياض، ج1، ص ص 43-44.

[5] - عبد الوهاب الديبش، فاس، ص ص 152-154.

[6] - الأزموري، السابق، ص ص 24-25.

[7] - السابق، ص26.

[8] - الونشريسي، المعيار، ج4، ص25.

[9] - عبد الوهاب الديبش، السابق، ص50.

[10] - إبن خلدون، المقدمة، ص548.

من المظاهر الأخرى الدالة على مكانة الشرفاء في المجتمع ظهور الأدبيات المتعلقة بأنسابهم[1]، حيث صار الناس يتقربون إلى الشرفاء بالتأليف في بيوتاتهم[2] وامتازت الكتابات بإظهار نفحة من التقوى والورع بحثا عن بركة إلهية وشفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم. كما أظهروا طموحاتهم للحصول على الحظوة من قبل السلطة الموزّعة للعديد من الإمتيازات[3].

زيادة على ما سبق ذكره فإن كتب الأنساب بما فيها تلك التي أرّخت للبيوتات الشريفة أحيانا سلكت طريق المناقب بإظهار كرامات الشرفاء وفي السياق نفسه تمكن إدراج بعض الشعراء الذين أظهروا عناية خاصة بالنّظم في مدح آل البيت والتأليف في بيان فضلهم ووجوب طاعتهم[4].

إن مكانة الشرفاء في المجتمعات الحضرية خلال فترة الدراسة أظهرت علامات النفوذ الإجتماعي كالمسكن[5] والأعراس[6]، وممارسة الرماية[7]، وكثرة الأملاك وغيرها فقد ثبت أن أبا الحسن بن ميمون خلف بعد موته في بجاية (ت. 554هـ / 1160م) ثروة طائلة مكوّنة من دور وحوانيت وعقارات داخل مدينة بجاية وخارجها[8].

---

[1] - عبد السلام شقور، من بيوتات سبتة، ص 107.

[2] - السابق، ص 108.

[3] - نفسه، ص109.

[4] - عز الدين السلاوي، الشعر النبوي في القرنين السادس والسابع الهجريين في بلاد المغرب، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في اللغة العربية وآدابها، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب، الرباط، 1986م، ص 140.

[5] - محمد المنوني، وثائق ونصوص، ص ص 106- 108.

[6] - عبد الواحد الفاسي، غاية الأمنية، ج1، ص ص 65- 66 .

[7] - السابق، نفس الجزء، ص 67.

[8] - نفسه، نفس الجزء والصفحة.

* أطباء وشعراء الدولة:

1 - أطباء الدولة:

رغم أن المصادر التاريخية المتعلقة بفترة موضوع الدراسة لم تقدم لنا جميع الأسماء التي خدمت الخلفاء والأمراء وأصحاب الجاه في ميدان الصحة بصفة عامة والتطبيب بصفة خاصة، إلاّ أنه يمكن استنتاج المكانة الإجتماعية التي حُظوا بها والوضعية المالية المريحة التي عاشوها فعبد المؤمن بن علي قرب إليه أبا مروان عبد الملك بن زهر الأيادي الإشبيلي (ت557هـ/1162م)، وهو الذي ألّف للخليفة الترياق السّبعيني كما ألّف له كتابا في الأغذية[1].

و لم يَقِلّ مروان عبد الملك بن قاسم القرطبي (ت575هـ/1180م) وأبو بكر بن طفيل القيسي الودّاشي (ت581هـ/1186م) وهما طبيبا الخليفة أبي يعقوب يوسف عن أطباء عبد المؤمن، إذ عرف أنهما وجيهان في مراكش جليلا القدر في أهلها نالا حظوة واسعة عند الأمراء والملوك[2].

لقد استمرت مكانة أطباء الخلافة وازدهرت حياتهم لما نالوه من تقدير، فهذا الطبيب عبد الله بن علي بن عبد الله بن غلندة الأموي (ت581هـ/1186م)[3] الذي خدم الخليفة الثالث يعقوب المنصور، إلى جانب الطبيب أبي جعفر أحمد بن حسان القضاعي البلنسي (ت. 589هـ / 1203م) والذي ألّف لمخدومه كتابا في تدبير الصحة[4].

---

[1] - إبن أبي أُصيبعة، طبقات الأطباء، ج2، ص66.
- إبن الأبار، التكملة، ج1، ص117.

[2] - بن عبد الله، الطب والأطباء بالمغرب، المطبعة الاقتصادية(د ت)، ص21.
-إبن الأبار، السابق، ج1، ص335 ؛ - إبن عذاري، البيان، ج4، ص65.

[3] - إبن أبي أصيبعة، السابق، ج2، ص79.
- إبن عبد الملك، الذيل والتكملة، ج2، ص18.

[4] - إبن أبي أصيبعة، السابق، ج2، نفس الصفحة.
- إبن الخطيب، أعمال، القسم الأندلسي، ص258.

وكان الخليفة يعقوب المنصور يعتمد على أبي جعفر بن الغزال المري في الأدوية المركبة والمعاجين ويتناولها منه[1]، لقد كان شأن أطباء القصور عظيما، ويُستشارون حتى في مواضيع السياسة[2].

المظاهر الإجتماعية لفئة أطباء الدولة:

لقد عرف أطباء القصور في الدولة الموحدية وجاهة وجلالاً في المجتمع المغربي ومَرَدُّ ذلك إلى حذقهم ومهارتهم في ميدان العلاج وأوّل مظهر يدل على ذلك هو اعتماد الخلفاء وجهاز الدولة على مصنفاتهم الطبية كمصادر علاجية وهو الأمر الذي زاد من شهرة واحترام الأوساط الخاصة والعامة لهؤلاء الأطباء وانعكس ذلك في احتفاظ القصور بخدمات هؤلاء الأطباء رغم وفاة مخدوميهم كأبناء عائلة بن زهرة[3].

أما المظهر الثاني فتجسّده مضامين ومناهج كتبهم إذ حاول الطبيب ابن مروان بن زهر في كتابه التيسير في المداواة أن يجمع معظم أمراض المجتمع خلال عصره ويرتبها ترتيب الجسد من أعلى إلى أسفل. أي أمراض الرأس، أمراض الأذنين، فالأنف، فالفم، فالرقبة... إلى أمراض الساقين[4]. وهكذا يمكن للمرضى الرجوع إليه والاستفادة منه مما زاد في ترسيخ مكانة الأطباء الإجتماعية وتقديرهم.

ومن المؤشرات على مساهمتهم الفعلية في نشر الثقافة الصحية برفقة بقية الأطباء الذين يشتغلون في العيادات الخاصة والبيمارستانات شيوع أسماء الأمراض العلمية في أوساط المفكرين والكتاب من غير

---

[1] - إبن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، ج2، ص 80.

[2] - المقري، نفح الطيب، ج3، ص 432.

[3] - بن عبد الله، الطب والأطباء بالمغرب، ص 21.

[4] - الخطابي محمد العربي، والأطباء في الأندلس، ج1، دار الغرب الاسلامي، بيروت 1988م، ص 144.

أهل الطب، وكذلك في أوساط عائلات وأصدقاء المرضى وهم من ينقلون خبر إنتشار المرض ونوعيته وأعراضه إلى بقية أفراد المجتمع[1].

إن حرص الناس على معرفة نوعية المرض يدل قطعاً على مدى الوعي الصحي الذي امتدّ في المجتمعات الحضرية المغربية، وهذا بدوره أدّى إلى تحسين وتطوير تشخيص المرض وعلاجه كمرض الإسهال وداء البطن الذي يمس جميع شرائح المجتمع[2].والفضل في كل ذلك يرجع إلى الأطباء، وخاصة الذين جمعوا بين علم الطب والجاه لاشتغالهم في قصور الخلفاء[3].

2 - شعراء الدولة:

وجد الشعراء المغربيين خلال فترة موضوع الدراسة بيئة أدبية موسومة بالشعر الجاد الملتزم، والتفنن والإبداع، ويرجع الفضل في ذلك إلى أكثر الخلفاء الموحدين الذين شجّعوا هذه الحركة الأدبية ماديا وأدبيا[4]. فقد كان ابن تومرت نفسه-بجانب تفوقه في علوم الدين-أديبا وشاعرا[5]، والشأن نفسه بالنسبة لعبد المؤمن بن علي فإلى جانب مسؤوليته السياسية والحربية، يقول الشعر ويتذوقه، وكان من أثر ذلك أن اتصف شعر الموحدين بالتصوير الجميل والتعبير الصادق، وخاصة أن الخليفة عبد المؤمن كان لا يتردّد في نقد الشعراء في المحافل الرسمية[6].

ومما أعطى أريحية للشعراء أن الموحدين رفعوا شيئا من القيود التي فرضها المرابطون من قبيل الأمر الذي سمح بتعدد أغراض الشعر

---

[1] - بن عبد الله، الطب والأطباء بالمغرب، ص ص 22-34.

[2] - إبن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج3، ص 107.

[3] - يشير إبن الأبار إلى أنهم نالوا دنيا عريضة ورآسة كبيرة. ينظر:- التكملة، ج1، ص 335.
- إبن عذاري، البيان، ج4، ص 65.

[4] - "ملوك وأمراء ألسنتهم للفصاحة وأيديهم للسماحة". ينظر: - محمد المنوني، حضارة الموحدين، ص 94.

[5] - إبراهيم الألفي، تاريخ الأدب العربي، ج2، ص ص37-49.

[6] - السابق، ج2، ص 38.

بما في ذلك شعر الغزل الذي كان يتعاطاه بعض الشعراء وإن كان في مجال ضيق[1] وفي كثير من التحفظ والحيطة.

مما سبق ندرك أن فئة من الشعراء، عُرفوا بشعراء البلاط، تقربوا من الخلفاء والأمراء وحصل لهم بذلك جاه عريض، وثروة مالية كبيرة وأصبحوا في عداد الخاصة مثل: أبي عبد الله بن حبوس الذي لزم الخليفة عبد المؤمن ونال لديه مكانة سامية، حتى أطلق عليه لقب شاعر الخلافة المهدوية[2]، ويأتي بعده في الشهرة الشاعر أبو العباس الجراوي (ت. 609هـ / 1214م) الذي يعتبر فخر الدولة الموحدية، وأكبر شعرائها، وممّا يؤيد هذا المقام أنه خدم الخليفة عبد المؤمن بن علي وابنه يوسف وحفيده يعقوب المنصور ثم ابنه الناصر[3].

مظاهر المكانة الإجتماعية لشعراء الدولة:

من المظاهر الدالة على إحترام وتقدير السلطة الموحدية للشعراء هو السماح لمثليهم بحضور المجالس العلمية الأسبوعية التي كان ينظمها الخلفاء الموحدين ويسهرون على نظامها وتقاليدها، فهذا الشاعر الكبير أبا بكر محمد بن عبد الله بن ميمون العبدري القرطبي (ت. 567هـ / 1173م) يطرد من المجلس لإخلاله بأخلاقيات المجلس حيث أنشد ثلاثة أبيات شعرية، قالها متغزلا في شاب من أهل أغمات[4].

---

[1] – تنسب بعض المصادر محاورة غزلية إلى عبد المؤمن ووزيره الكاتب أبي جعفر بن عطية.
– المقري، نفح الطيب، ج1، ص 101
– الناصري، الإستقصا، ج1، ص 154.
– عبد الله علي علام، الدولة الموحدية بالمغرب، ص 333.

[2] – ولد الشاعر إبن حبوس بمدينة فاس في صدر القرن السادس الهجري- الثاني عشر الميلادي، ارتحل إلى تلمسان وأقام بها ثم عاد إلى مراكش وأخيرا فرّ إلى الأندلس ثم أسرع في الانضمام إلى حكم عبد المؤمن وملازمته ثم لازم إبنه أبي يعقوب يوسف، توفي 570هـ/1175م. ينظر: – إبراهيم الألفي، الأدب المغربي، ص ص 64-67.

[3] – هو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي الفاسي ينتسب إلى قبيلة جراوة، له ديوان أدبي يدعى صفوة الأدب، كان قد صنفه للخليفة يعقوب المنصور على نمط الحماسة لأبي تمام توفي الجراوي سنة (609هـ/ 1214م). ينظر: – عبد الله علي علام، السابق، ص 335، ها رقم 6.

[4] – المنوني، العلوم والآداب والفنون، ص 40.

كما حظي بعض الشعراء بعطف الخلفاء والأمراء، فنالوا عطاءاتهم مثل مالقيه الشاعر أبو عبد الله محمد بن أبي العباس التيفاشي، حينما ألقى بين يدي الخليفة عبد المؤمن بن علي قصيدة جاء في أحد أبياتها.

ما هزّ عِطْفَيْهِ بَيْنَ البِيضِ وَالأَسَلِ :. مِثْلُ الخَلِيفَةِ عَبْدِ المُؤْمِنِ بنُ عَلِّي

وعند نهاية قراءة هذا البيت أشار عليه الخليفة بأن البحر البسيط يقتصر عليه وأمر له بألف دينار[1].

ومن مظاهر الإحترام والتقدير إجتماع عدد كبير من وجوه الشعراء عند أمير واحد لإقامة ندوات علمية متخصصة فقد جاء على لسان المراكشي «إجتمع لأمير عثمان بن عبد المؤمن من فحول الشعراء وأعيان الكتابة ما علمتها اجتمعت لملك منهم بعده»[2]، ومن الشواهد البليغة على مكانة الشعراء أن التكريم والتقدير تخطى شعراء بلاد المغرب إلى الشعراء الوافدين إلى البلاد، فقد دخل الشاعر أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن فارس الذكراني وهو من أهل كانم من السودان على الخليفة يعقوب المنصور وحظي باستقبال فيه التبجيل والتقدير، وعندما خرج قال:

أَزَالَ حُجّابَه عَنّي وَعَيْني :. تَرَاهُ مِنَ المَهَابَة في حِجَاب

وَقرّبَني تَفَضّلُه وَلَكِنَّ :. بَعَدْتُ مَهَابَةً عِند إقْتِرَابِي[3] (البحر المنشرح)

وهذه الشاعرة حفصة بنت الحاج الركونية[4] تنال حظوة كبيرة عن عبد المؤمن بن علي ونالها كرمه وتقديره وقد قالت شعرا مهنئة أبا سعيد بن عبد المؤمن:

---

[1] - إبن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص 391.

[2] - المعجب، ص 114.

[3] - إبن الأبار، التكملة، ص 461؛ - إبن خلكان، السابق، ج2، ص 434.
- إبن الخطيب، نفح الطيب، ج2، ص 537.

[4] - هي حفصة بنت الحاج الركوني، كانت مشهورة بالجمال والأدب، اتصلت بعبد المؤمن وَمَدَحَتْهُ (ت. أواخر 236هـ). ينظر:
- إبن دحية، المطرب في أشعار أهل المغرب، ص 10.

يَا ذَا العَلاَ وابنَ الخَلِيفَة :. والإمَامَ المرتَـضَى
يُهَنّيك عِيدٌ قَدْ جَرَى :. بِما تَهْوَى القَفَا

*** أصحاب الثروة:**

ممّـا لاشـك فيـه أن أصـحاب الثـروة قـد سـاهموا في إحـداث نقلـة حـضارية لـسكان بـلاد المغـرب، إلى جانـب الفئـات الأخـرى المـشكلة لطبقة الخاصة، وفئة الأثرياء المتكونة من:

1 - التجار الكبار:

التجـار الكبـار أو تجـار القوافـل[1] والمراكـب التجاريـة، وغالبـا مـا انحصرت سلعهم في بـضائع التـرف، فقـد اهتمـوا بجلـب الـذهب، والجلـود والعـاج وغيرهـا مـن بـضائع الـسودان الـذي كـانوا يـصدرون لـه الملـح والنحـاس مـع التركيـز علـى المـسبوك منـه، وكـذلك الآلات الحديديـة وقد وصفهم ابن خلدون بأرفه الناس وأكثرهم أموالا[2].

لقـد وصـف الإدريـسي تجـار أغمـات بقولـه: «وَمَـا منـهم رَجُـلٌ يُسفر عبيـده ورحالـه إلاّ وَلَـهُ في قوافلـهم المائـة جمـل والـسبعون والثمـانون جمـلاً كلـها مـوقرة»[3]، ولعـلّ ذلـك هـو الـذي دفعهـم إلى التكتـل والـدفاع عـن مـصالحهم سـواء بمـؤازرة ومـساعدة الدولـة أو معارضـتها في حالة شعورهم بتعرض مصالحهم للمضايقات[4].

---

[1] - الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص 83.

- يربط إبن خلدون انتماء أصحاب الثروة إلى الخاصة بخدمة الملوك. ينظر: - المقدمة، ص 368.

[2] - السابق، ص 389.

[3] - نزهة المشتاق، (ط.د)، ص 114.

[4] - الكبير بزاوي، المدن والتجارة والسلطة السياسية بالمغرب في العصر الوسيط أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، كلية الآداب، الرباط، 2002م/2003م، ص ص 352-354.

لقد ارتبط إزدهار التجارة باستقرار السلطة السياسية، فالحصن أو المدينة لا يستمر وُجُودهما إلاّ بالتجارة والتجار[1]، وعرف تجار مدينة سلاّ بسعة الأموال ونمو الأحوال[2].

لقد زوّدنا ابن سعيد بصورة جلية عن تجار سبتة الذين كانوا يخوضون البحار فذكر أنهم «يبتاعون المركب الكبير بما فيه من بضائع جلبوها من الهند والصين وغيرها في صفقة واحدة»[3]، فقد كانت مدينة سبتة والمهدية، قبلة المشتغلين في التجارة بعيدة المدى لذلك وُصف أهلها بالمياسرة لاشتغالهم في الصناعات وأصناف التجارات[4].

2 - أرباب الصناعات:

لقد إزدهرت الصناعات والحرف خلال العصر الموحدي، خاصة الصناعة المعدنية والخشبية، وزاد من انتشارها إكتشاف معادن جديدة[5] الأمر الذي جعل أرباب الصناعات والحرف يظهرون على مسرح النشاط الإقتصادي كقوة مؤثرة ساهمت في توجيه الحياة الإجتماعية لبلاد المغرب خلال فترة موضوع الدراسة وذلك بما حازه أرباب الصناعة والحرف من ثروة كبيرة[6]، ومع هذا لم يتمكن أصحاب هذه الصناعات من الإنضمام إلى طبقة الخاصة في المجتمع المغربي

---

[1] - لقد ورد على لسان أبي حمو الزياني في التاريخ اللاّحق للفترة المدروسة قوله: «إعلم يا بني أنه ينبغي لك أن تتخذ لنفسك معقلا وتسكن فيها أهل الصناعات وأرباب التجارات والبضاعات حتى لا يحتاج الحصن إلى غيره». ينظر:
- واسطة السلوك في سياسة الملوك، تحقيق عبد الله عنون ومحمد الراهي، دار بو سلامة للطباعة والنشر، تونس، (د.ت)، ص 113.

[2] - الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 73.

[3] - كتاب الجغرافيا، ص 139.

[4] - الكبير بزّاوي، المدن والتجارة والسلطة السياسية بالمغرب في العصر الوسيط، ص 231.

[5] - لقد أنشئت عدة مدن على أساس حربي نذكر من بينها مدينة أزكندر الواقعة على أرض قبيلة واوزكيت بناها أبو يعقوب يوسف سنة (578هـ/1183م) لإخماد ثورة قبيلة بني واوزكيت الرّامية إلى اغتصاب مداخيل معدن الفضة، الواقعة في المنطقة التي ينبع منها نهر السوس على مقربة من هرغة. ينظر: - إبن أبي زرع، القرطاس، ص 201.
- حاك كاني، "المغرب الشمالي"، مجلة البحث العلمي، العدد 20-21، الرباط 1972م، ص ص 130-143.

[6] - أرباب الصناعة هم وحدهم الذين بإمكانهم مواجهة النفقات اللازمة لاستخراج وتعدين الفضة قبل بيعها. ينظر:
- زكريا محمد بن محمد القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، 1969م، ص 117.

كفئة مستقلة. وإنما أدرج بعض أرباب الصناعات في فئة أهل الثروة ونالوا حظهم من التقدير والإحترام على المستويين الرسمي والشعبي خاصة في المدن التي يقل فيها عدد التجار الكبار، والتحليل الذي أورده محمد المنوني يُعدّ مقبولاً وذلك بقوله: «لإن أصحاب الصناعات هم أقل إحتكاكا وتعاملا بالسكان لوجود وسطاء»[1].

إضافة إلى أن الصناعات الكبرى ذات التدّخل الكبير كانت محتكرة من قبل الدولة كصناعة السفن التي أسست على طول مراسي الساحل المغربي إبتداء من نُول لمطة إلى طرابلس[2]، وإن لم تكن كذلك فهي شركة بين مجموعة من الصّناع، كشركة صناعة الورق التي اشتهرت بها مدينة سبتة ومدينة فاس[3]، حيث كان إقتسام الأرباح على أرباب هذه الصنعة لا يسمح بتوفير فائض كبير يؤهل صاحبه لأن يصبح من أصحاب الثروة[4].

3 - مصادر الثروة في المجتمع الحضري:

تعتبر التجارة مصدرا رئيسيا لتوفير الثروة لاسيّما في المدن التي أهلها موقعها الجغرافي لترتبط بمدن أخرى عن طريق شبكة واسعة من الطرق البرية والبحرية، وتأتي في مقدمة هذه المدن المغربية مدينة سبتة وفاس بالنسبة للمغرب الأقصى[5]، ومدينتي تلمسان وتاهرت في المغرب الأوسط[6]، وبجاية وتونس في إفريقية[7]. ومن المفيد الإشارة

[1] - ورقات، ص ص 107-109.
[2] - إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص 140.
- الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص 109.
[3] - المنوني، العلوم والآداب والفنون، ص 306.
[4] - زكريا محمد بن محمد القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص ص 129 - 134.
[5] - محمد الشريف، سبتة الإسلامية،
[6] - عن دور تلمسان وتاهرت التجاري ينظر: - إسماعيل العربي، المدن المغربية، ط، الجزائر 1988م، ص 131.
[7] - وعن دور بجاية وتونس انظر:- إسماعيل العربي، السابق، ص 120.

إلى أن المسلمين خلال هذه المرحلة التاريخية ركزوا نشاطهم الإقتصادي على التجارة لأن الذهنية العربية الإسلامية كانت تحتقر العمل اليدوي وتنظر من زاوية معينة إلى العمل الفلاحي والحرفي[1].

وقد مكنت الأرباح التجارية من ملكية رأس مال ضخم وهذه الأرباح مكنت بدورها من تملّك الأراضي بجوار المدن[2]، حيث المساحات الأرضية محلّ اهتمام أصحاب الثروة والجاه لتوظيف الأرباح التجارية.

وتأتي الوظيفة الهامة في جهاز الدولة في المرتبة الثانية لجلب الثروة. فقد سمحت الفرصة لهؤلاء الموظفين الانخراط في التجارة، خاصة المشتغلين منهم في المجال الضريبي بصفة عامة والجمركية على سبيل الخصوص[3]. ولا نغادر الحديث عن مصادر الثروة دون أن نشير إلى مستغلي الأزمات الطبيعية منها خصوصا المجاعات والأوبئة، وكذلك الحروب مثل هذه الظروف كانت تخلق أغنياء جدد[4].

4 - العوامل المساعدة على ظهور الأثرياء:

4 - 1 - العامل السياسي:

لّما أقام الموحدون دولتهم في بلاد المغرب، وسيطروا على السهول والحقول المرابطية أمروا أتباعهم "بعمارة تلك السهول والاستقرار بها وفلاحتها"[5]، وأثناء التوسع الموحدي تعرضت المدن المغربية لازدواجية واضحة، حيث كان التقتيل والإستئصال وتتبع الخصم السياسي والإستيلاء

---

1 - Z. Benramdane, Centa au XIII et XIv Siècle, université de Provence, Octobre p p 239-240.

2 - A. El Alaoui, le Magrib et le commerce transsaharien, these en vue du doctorat de 3ème cycle, Bordeaux 1983, p p 210-225.

3 - خالد المنوني، "محاولة تشخيص التشكيلة الاجتماعية المغاربية، تعريب الأمين بن وعبد العزيز التلمساني خلوق، مجلة دار النيابة، السنة الرابعة، العدد 13، 1987م، ص ص 8 – 10.

4 - محمد فتحة، الأحكام والنوازل، ص 596.

Z. Benramdan « Centa », op-cit, p 235.-

5 - إبن القحطان، نظم الجمان، ص 175؛ - رسائل موحدية، مجموعة جديدة، أحمد العزاوي، ج1، ص 25.

على أمواله من جهة وإلغاء الفروض غير الشرعية من مكوس ومغارم من جهة ثانية، الأمر الذي أرضى السكان، وعلى الأخص فئة التجار الذين كانت استفادتهم مباشرة[1].

لقد شهد الإدريسي وهو من المعاصرين لتأسيس وتوسع دولة الموحدين بقوله: «لقد تبوأ التجار مكانة علية القوم واحتازوا إلى هرم السلطة»[2]، وفي نفس السياق كان التجار يمثلون المعارضة عندما تناقض مصالحهم مصالح السلطة الحاكمة، خاصة عندما تتعرض مصالحهم لنوع من الضغط.

مما يؤكد تطور الممارسة التجارية في فترة موضوع الدراسة استمرار وتحسن قيمة الدينار الموحدي[3] وتوسع مجال تداوله[4] الأمر الذي دعّم انتشار دور ضرب السكة التي كانت في معظم العواصم الإقليمية لبلاد المغرب وهو ما قوّى مراكز التبادل التجاري وجعلها محطات لعبور التجارة الخارجية إن كان على مستوى المجالين الصحراوي والساحلي.

4 - 2 - عامل الوعي:

يتضح من خلال قراءة سريعة لأدبيات المجتمع الحضري المغربي أثناء فترة موضوع الدراسة أن الوعي الشعبي بما تحمله الثروة من مكانة

---

[1] - إذا كانت المدن المغربية قد عارضت الدعوة الموحدية (مثل فاس، مراكش، تلمسان، تونس وغيرها) فإن البادية قد رحّبت بها كما رحبت بها المناطق الجبلية. ينظر:
- سعيد باشر، المدن المغربية خلال العهدين المرابطي والموحدي، ص ص 41-58.

[2] - نزهة المشتاق، ج1، ص 107.

[3] - لقد شكل الدينار الذهبي والدرهم الفضي والفلس النحاسي، العملة الأساسية المتداولة في العالم الإسلامي، وعني عن البيان أن اسم الدينار مشتق من اللفظ اليوناني Daureus clenarius والمشتق عند الروم من عشرة Denis وهي عملة رومانية ذهبية، والدرهم عملة فضية منقولة من كلمة يونانية (Drachma) يقابلها بالفارسية (Drachm) والفلس عملة نحاسية مشتقة من كلمة يونانية "Follis ".
- عبد المنعم السيد، دراسات في النقود والنظرية النقدية، مطبعة العاني، القاهرة، 1975م، ص 44.
- علي بن يوسف الحكيم، الدوحة المستبكة في ضوابط دار السكة، تحقيق حسين مؤنس، مجلد 6، مدريد 1958م، ص ص 115-129.

[4] - D. Eustach, « monnaies Musulmanes », Hésperis 1956, vol 3, p p 133-195.

إجتماعية متميزة، وتجسد هذا الوعي في الأمثال الشعبية مثل ما قاله الشيخ المرادي بن طويل (ت605هـ/1210م): «وأعلم أنه لا يكون الشبع والإخوان والأعوان والحشم إلاّ مع المال ولا تظهر المروءة والرأي والقوة إلاّ به»[1]. وفي نفس السياق يقول الفقيه الكاتب أبي عبد الله بن الفقيه القاضي (ت588هـ/1193م).

"فَمَا النّاسُ إلاّ زَاهِدٌ وأَخُو غِنَى :. وَآخَرُ مُلْقًى بَيْنَ ذِينَ مُذَبْذَبُ"[2].(البحر المتوسط)

لم يكن الوعي بالثروة محصورا بين المثقفين والمقربين من السلطة بل هو منتشر لدى عامة الناس وجاءت الأزجال تؤيد هذا[3].

المَالُ زِينَةُ الدّنْيَا وَعِزّ النّفُوسِ :. يَبْهَى وُجُوهًا لِيسَ هِيّ بَاهِيَا
يَكْبُرُ مَنْ كُثْرَ مَلُو وَلَوْ كَانَ صُغَيْرٌ :. وَيَصْغُرُ عَزِيزَ القَومِ إِذْ يَفْتَقِرُ
مَنْ ذَا يَنْطَبِقُ صَدْرِي وَمَنْ ذَا تَغَيّر :. وَكَانَ يَنْفَقِعُ لَوْلاَ الرّجُوعْ لِلْقَدَرْ (المتوسط)

لقد ساد الوعي الإجتماعي بأهمية الثروة، التي أصبحت واقعا قائما لا محالة في المجتمع الحضري، وهذا مما زاد في اتساع فئة الأثرياء وعمّق تقديرهم واحترامهم في أوساط الهرم السلطوي أو الشعبي.

لقد خلق " الوعي " بالتفاضل والتمايز الناتج عن الثروة وما كانت تمنحه من مكانة إجتماعية نوعا من الخضوع والتملق لأهل الثروة[4] والجاه[5]، وكان بعضهم يحاول الظهور بمظهر الراعي للأداب والفنون.

---

[1] - إبن خلدون، المقدمة، ص833.
- المقري، أزهار الرياض، ج2، ص221-222. المرادي، الإشارة إلى تدبير الإمارة، ص ص 143-144.

[2] - أبو العيد بن الأحمر، فوائد الجمان في نظم فحول الزمان، دراسة وتحقيق محمد رضوان الداية، دار الثقافة للطباعة والنشر، بيروت، 1967م، ص364.

[3] - المقري، السابق، نفس الجزء، ص224.
- عبد القادر بحفلول، الإشكاليات التاريخية، ص108.

[4] - مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص ص356-359.

[5] - محمد المنوني، وثائق ونصوص، ص ص46-48.
- محمد مزين، فاس وباديتها، ج2، ص552.

4 - 3 - عامل الإرتباط بالسلطة:

كثيرا ما كانت السلطة تحتاج إلى دعم فئته التجار، ولهذا حرصت على أن تكون صلتها بكبار التجار قوية، هذه العلاقة مكنتهم من تكوين ثروة كبيرة في وقت قصير، وذلك بواسطة عدة طرق من أهمها تملص بعضهم من الضرائب[1]، ولكن أصحاب الثروة غير المتواصلين مع جهاز السلطة كانت أوضاع بعضهم تتعرض للهزات والنكبات والنهب الشيء الذي استوعبه تجار اليهود في معظم المدن المغربية، إذ تراهم يحرصون على ربط صلاتهم وتحسينها على الدوام مع جهاز السلطة[2]، ونفس المنهج اتخذه التجار الأندلسيين الأثرياء وعلى هذا الأساس فلا مجال للغرابة إن كانوا أنصارا للسلطة[3].

وقد قام أصحاب الثروة بأدوار إجتماعية مثل تقديم المساعدات المادية لأفراد المجتمع خاصة أثناء الأزمات[4] وتحملهم نفقات إصلاح بعض مرافق المدينة كإعادة بناء أجزاء من أسوار المدن، وتنظيف عيون المياه المخصصة للشرب، وإزالة الحواجز من الطرق وترميم العمارة المسجدية وغير ذلك[5]، وقد لخص أحد الشعراء مرتبة أهل الثروة المنفقين لها:

مَنْ جَادَ بِالمَالِ مَالَ النَّاسُ قَاطِبَةً :. إِلَيْهِ فَالمَالُ لِلإِنْسَانِ فَتَّانُ
مَنْ كَانَ لِلْخَيْرِ مَنَّاعًا فَلَيْسَ لَهُ :. عَلَى الحَقِيقَةِ إِخْوَانٌ وَأَخْدَانُ (المتوسط)

4 - 4 - مظاهر مكانة الأثرياء في المجتمع الحضري

إن مظاهر المكانة الإجتماعية الناجمة عن الثروة المالية كثيرة ومتباينة نلمسها من خلال مظهرين، أولهما يتجلى في الممارسات اليومية

---

1 - Fatiha, Contribution, Op.cit, pp 336-337.-
A.El Alaoui, Le Magrib, Op.cit, pp 200-213.-

2 - إبن خلدون، المقدمة، ص361.

3 - Z.Benramdane, Centa, Op.Cit, P240. -

4 - محمد المنوني، وثائق ونصوص، ص ص45-46.

5 - الونشريسي، المعيار، ج7، ص ص303-11.

- محمد الشريف، سبتة الإسلامية، ص131.

بين أفراد المجتمع وثانيهما في إشارات النفوذ الإجتماعي فعلى مستوى الممارسات اليومية يظهر بعض الأثرياء معتدين بأنفسهم، حيث يتعاملون بترفع إزاء الآخرين. كأنفة سكان تلمسان في الدخول إلى الحمام مع بقية أفراد المجتمع[1]، أغنياء وسكان قسنطينة المتكبرون حسب وصف الحسن الوزان[2].

ينسحب الأمر على أثرياء فاس الذين يتجنبون معاشرة عامة الناس[3]. بالرغم من هذه الممارسات المعبرة عن التكبر والإستعلاء، فإن أفراد المجتمع يتفهمون هذا السلوك ويقدرون مكانة الأغنياء المبنية على الثروة يتجلى هذا في معاملة المعلمين، والشيوخ لأبناء هذه الفئة بشيء من الاهتمام الزائد[4]، والرغبة في الزواج ببنات الأثرياء أكثر من غيرهن[5]. وتدعم هذا التفهم الإجتماعي ليحصل الإقتناع بعد ما أفتى بعض الفقهاء بإسقاط الرضاع على الغنيات، شأنهن في ذلك شأن الشريفات[6] وتجلت مكانة الأثرياء من خلال الحفلات التي كانت تقام، فكانوا أكثر تحضرا ممن سواهم، نظرا لفرص الاحتكاك والتعامل مع فئات أخرى وَفّرتها لهم ثروتهم[7].

---

[1] - العمري، مسالك الابصار، ص118.
- القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص156.

[2] - وصف إفريقيا، ج2، ص214.

[3] - محمد مزين، فاس وبداياتها، ج2، ص552.

[4] - إبن عبد الرب، الرسائل الصغرى، تح ونشر الأب بولس، دار المشرق، بيروت، (دت)، ص ص 63-109.

[5] - مجهول، مناقب الشيخ الولي الصالح الإمام الغوث سيدي أحمد بن جعفر السبتي، تح الخزانة العامة، الرباط، رقم 896 د.و، رقم 105أ-105ب؛ - إبن الدراج، كتاب الامتناع، ص ص138-142.

[6] - الونشريسي، المعيار، ج4، ص26.
- أحمد سعيد المجيلدي، كتاب التيسير في أحكام التسعير، تح موسى لقبال، الجزائر، (د.ت)، ص84.

[7] - الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج1، ص258.
-محمود مقديش، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تح على الزواوي ومحفوظ، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط1، 1988، ص63.

أما على مستوى السلطة والنفوذ فتظهر مكانة الأثرياء من خلال الاهتمام المفرط بوسائل الترف في المسكن[1] والمأكل[2] والملبس[3] وهذه معايير مادية تشهد على تَميّز أهل الثراء عن غيرهم من أفراد المجتمع الحضري، ولم تقتصر مكانتهم على ما سبق بل تهيئ لهم الصدارة في الولائم[4] والأعراس[5] والجنائز[6]، وإبان الأوبئة، حيث تضرب الأحياء الفقيرة أكثر من غيرها[7]، وقد حرص أغنياء المجتمع الحضري على اقتناء الجياد والبغال كوسيلة مفضلة للنقل وكدليل على الانتماء إلى فئة الميسورين[8]، وأكثر من هذا فهم يتملكون العبيد وينفقون كثيرا على تحصيل العلم لهم ولأبنائهم، ولهذا تجد أكثر الأثرياء متعلمين ومتحضّرين[9].

لم يكن يستفيد من التعليم المتقدم بالجوامع الكبرى كجامع القرويين بفاس، والقيروان بتونس، إلاّ الأغنياء[10] الذين كان لهم وكلاء في أغلب الأحيان وتوكل لهم مهام إدارة الأملاك العقارية والفلاحية، فقد أشار ابن عبد الملك إلى الشيخ الحسن التّازي (ت.608هـ / 1213م) أنه رغم ثراءه وامتلاكه للضيعات الواسعة

---

[1] - البكري، المسالك والممالك، ص 115؛ - الأدريسي، نزهة، ج1، ص ص 232-333.
- محمود مقديش، نزهة النظار، ص 63.

[2] - إبن عباد، الرسائل الكبرى، طبعت بتصحيح أحمد بن محمد المهدي بن العباس بن صابر، طبعة حجرية 1320، ص ص 121-130.

[3] - الونشريسي، المعيار، ج2، ص 491.
- المقري، أزهار الرياض، ج1، ص ص 32-44.

[4] - الونشريسي، السابق، ج2، ص 491.

[5] - الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج1 ، ص 257.

[6] - القلقشندي، صبح الاعشى، ج5 ، ص 178.

[7] - الونشريسي، السابق، ج1، ص 337.
- محمد الشريف، سبتة الإسلامية، ص ص 131-132.

[8] - العمري، مسالك الأبصار، ص 131؛ - القلقشندي، السابق، ج5، ص 60.

[9] - إبن عبد الملك، الذيل والتكملة، السفر2، ص 204.

[10] - السابق، نفس السفر والصفحة.

بضواحي مكناسة الزيتونة فإنه لم يباشر قط دينارا ولا درهما وإنما كان يتصرف له في ذلك وكلاؤه[1] ومما يؤكد هذا الطرح أن الخزانات العلمية التي وجدت في القيروان والتي يعود تاريخها إلى ما قبل العصر الحفصي بلغ عددها اثنتين وستين خزانة، وكان منها خمسة وأربعون خزانة بدور الأكابر وذوي الأقدار، وثمانية فقط موقوفة على الطلبة[2]، وعدد الخزانات ببجاية يعطي نفس النتيجة بل ينسحب الأمر على معظم خزانات العلم بالمدن الكبرى[3].

أما على مستوى السلطة الحاكمة فكانت مكانة الأغنياء حاضرة في كل مناسبة إذ يعنون ضمن الخطاب الذي يشمل أعيان المدينة[4] فعندما كان السلطان يراسل مدينة من المدن فإن الأغنياء كانوا يدرجون في غالب الأحيان ضمن تنظيم محدد "للمراتب الإجتماعية" التي تحتل الصدارة والشأن نفسه أثناء تقديم البيعة أو أثناء استقبال السلطان على إثر زيارته لإحدى المدن[5]. وكذلك أثناء مراسيم الأعياد الدينية، واحتفالات السلطان الخاصة كختان الأبناء واحتفالات الزفاف لأبنائه[6].

وظهرت مكانتهم أيضا بمنحهم مناصب مهمة في جهاز الدولة حيث أعتبر حضور الأثرياء ذوي الثقل في الوظائف السلطانية ضمانة للتجارة من الغش والفساد، وكانت السلطة نفسها تحمي كبار الأثرياء باعتبارهم أحد المصادر التي كانت تمول بيت المال بشكل دائم ومضمون[7] وتحيطهم بتقدير خاص مثال ذلك محمد بن عيسى

---

1 - إبن عبد الملك، الديل والتكملة، السفر2، ص207.

2 - الأنصاري، إختصار الأخبار، من ص 29- 30.

3 - إبن عبد الملك، السابق، نفس السفر، ص210.

4 - حليمة فرحات، المدينة المغربية في العصر الوسيط، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1994م، ص ص143-152. - عبد الأحد السبتي، الأعيان، معلمة المغرب الإسلامي ، ص526.

5 - عز الدين عمر موسى، الموحدون في الغرب الإسلامي ، ص257.

6 - عبد الله علي علام، الدولة الموحدية بالمغرب، دار المعارف،(د.ت)، ص250.

7 - إبن عبدون، رسالة في القضاء والحسبة، ص (9، 16، 28).

الوَجْـدَوِي (ت605هـ/1210م) الـذي كـان مـن أُولي الثـروة حـتى أنه تكفل بكسوة أعلام عصره فأصبح بذلك وَجيهًا عند الأمراء ومعظّما عندهم[1].

يظهـر ممـا سـبق أن الثـروة سـاهمت إلى حـد مـا في تحديـد المكانـة الإجتماعية للفـرد داخـل المجتمـع الحـضري، مـع العلـم أن الأغنيـاء الـذين توارثوا الغـنى في بيوتـاهم كـانوا أعلـى "مكانـة" مـن أولئـك الـذين طـرأ عليهم الغنى بعد أن كانوا معـوزين[2]، وكـل مـا يمكـن التأكيـد عليـه هـو أن معيـار الثـراء يظـل أقـرب إلى توضـيح طبيعـة التراتـب الإجتمـاعي في مجتمـع المدينـة خـلال فتـرة الدراسـة، ومـصداق ذلـك أنـه كلمـا تعلـق الأمر بواقع الاحـداث كتقـويم خلـل مـا مثـل تحطـم سـور أو حَفْـر بئـر وتطلب الأمـر إصـلاحها كـان يـتم التمييـز سـاعتها بـين الموسـر والفقـير لا بين الجاهـل والعـالم[3]، ونفـس الحـال إبّـان الأزمـات الـتي عـان منـها المجتمـع[4]، وفي كـل مظـاهر الحيـاة اليوميـة الأخـرى[5]، فقـد ميّـز الفقهـاء في مـسألة النفقـة والرضـاع بـين الموسـر والمتوسـط وقليـل ذات اليد والعديم[6].

ويلاحظ هذا التمايز أيضا علـى مـستوى التعلـيم في الكتاتيـب القرآنيـة حيث كان الكتاب عبارة عن مجتمع مصغر يتضح فيه الفرق بين الفقراء وأبناء الأغنياء.

ثانيا/ الطبقة الوسطى في المجتمع المغربي:

جمعت الطبقة الإجتماعية فئات متعددة مـن سـكان بـلاد المغـرب خـلال الفترة التاريخيـة لموضـوع الدراسـة، وذلـك بالإعتمـاد علـى المعيـار المـادي

---

[1] - علي مراد، عبد المؤمن وفتح شمال أفريقيا، في حوليات معهد الدراسات الشرقية بكلية الآداب، الجزائر، ع15، 1957م.

[2] - إبن عبدون، رسالة القضاء والحسبة، ص ص29-30.

[3] - أجاب الونشريسي على نازلة تنازع فيها الفاسيّين والمصموديين بشأن كنس وادي مصمودة، أنه إذا ضُرّب سدّ وتعطل جريـان الماء: "فإن إصلاحه على بيت المال، فإن أعوز بيت المال فعلى ذوي القدرة منهم". ينظر: - المعيار، ج8، ص ص29-30.

[4] - السابق، ج4، ص 26.

[5] - نفسه، نفس الصفحة والجزء، ص 31.

[6] - الإدريسي، نزهة المشتاق، (ط.د)، ص 83.

- مُستوى المعيشة للسكان - وعلى هذا الأساس تظهر في البداية فئة من التجار. وأخرى من الحرفيين الصناعيين، والممتهنين لمهن حرة كالمهندسين والأطباء والفقهاء والمعلمين الغير ملتحقين بقصور الخلفاء والأمراء زيادة على أصحاب الوظائف المتوسطة، وأهل العلم المستقلين عن البلاط السياسي.

من مميزات هذه الطبقة الإستقرار والقدرة على مقاومة الهزات الإجتماعية فهي لا تخشى الضعف من ظغط الثروة، ولا الحاجة أثناء الأزمات العابرة، لأنها مطمئنة نسبيا لمعيشتها[1]، وإذا علمنا أن بلاد المغرب إكتسبت أهمية تجارية كبرى نتيجة التحول الذي طرأ على المسلك القديم لتجارة الذهب الرابط بين غانة ومصر عن طريق بلاد النوبة، وأصبح يمر ببلاد المغرب جاعلا من القيروان وبلاد الجريد مراكز تجارية هامة[2] تزود تلك التي تأسست في بلاد المغربين الأوسط والأقصى عن طريق الهضاب العليا[3].

إن إنتشار الفنادق المعدة للتجار والمسافرين والغرباء في معظم المدن المغربية خلال العهد الموحدي حيث بلغ عددها حوالي أربعمائة وسبعة وستين فندقا (467)، وبلغ عدد الحوانيت تسعة آلاف واثنين وثمانين حانوتا (9082).زيادة على قيساريتين إحداهما بعدوة القرويين والثانية بعدوة الأندلس على وادي مصمودة، كل ذلك كان بمدينة فاس وحدها[4]، وعرفت عدة مدن نفس

---

[1] - الإدريسي، نزهة المشتاق، (ط.د)، ص 83.

[2] - C Vanacker, Geographie économique de l'Afrique du Nord, A.E.S.C. Mai/juin 1973, p 659.

[3] - موريس لومبار، الإسلام في عظمته الأولى، ص ص 57-67.

[4] - إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص 160؛ - وثيقة موحدية حول النشاط الإقتصادي بفاس، تحقيق ودراسة، السبتي عبد الأحد، أوردها: - السبتي عبد الأحد بالاشتراك مع حليمة فرحات، المدينة في العصر الوسيط، المركز الثقافي العربي،بيروت 1994م، ص 130.

الازدهار كما هو الشأن لمدينة مراكش[1]،تلمسان، قلعة المهدي، تونس[2] تاهرت[3]، سجلماسة، أغمات.

- **التجار:**

إذا كان إزدهار التجارة بالشكل الذي أشرنا إليه فإن التجار المنتمين إلى الطبقة الوسطى ينحصرون في أصحاب الحوانيت المنتشرة في جل الحواضر المغربية، ويَنْظَمُّ إليهم أصحاب المحلات في القيساريات حيث يختص التاجر في بيع الثياب المطرزة وثياب الحرير، وهناك من يختص ببيع الثياب التي تخص الخليفة كما هو الشأن في قيسارية مدينة مراكش التي بناها يعقوب المنصور سنة (584هـ/ 1185م)[4] وكذلك الشأن بالنسبة لقيسارية مدينة تونس[5] وتجارها، بالإضافة إلى التجار في الفنادق، وتجار الحيوانات كالبقر، الخيول، الغنم، تجار المواد الغذائية والسلع الحرفية، وقد يُكوّن تجار هذه الفئة شراكة في تجارة القوافل الصحراوية[6] التي إحتكرها تجار عُرفوا بأصحاب الثروة وهم من فئة طبقة الخاصة.

---

[1] - مجهول، الإستبصار، ص ص 210-212.
- إبن عذاري، البيان المغرب ، قسم الموحدين، ص 257.

[2] - انتشرت صناعة وتجارة الأقمشة في قيساريات وأسواق تونس، كذلك مواد الصباغة والسجاد والزرابي...إلخ.
- العمري، مسالك الأبصار، ص 109؛ - القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص 102.

[3] - كان تجار المغرب، الأوسط يتاجرون مع بلاد السودان وكانت تاهرت مركزا تجاريا هاما في النشاط الاقتصادي.
- الحبيب الجنحاني، المغرب الإسلامي، ش.و.ج. الجزائر، (د.ت)، ص ص 132-135.

[4] - مجهول، السابق، ص 210.
- إبن عذاري، السابق، ص ص 320-326.

[5] - عبد العزيز الدولاتي، مدينة تونس في العهد الحفصي، دار التراث للنشر، تونس 1981م، ص ص 68-69.

[6] - شركة بين شخصين أو أكثر في قدر من المال يوزع حسب أسهم محددة لتكتمل كلفة سلع القافلة ويكون الربح أو الخسارة بينهم حسب أسهمهم، ويكون الشركاء ملزمين بالموافقة على ما يقومون به من أنشطة.
E. AMAR, «consultation juridique des Faquih du Maghrib», Archives Marocaines, vol$_{XII}$ 1908, p p 99-98.

كما عرفت هذه الفئة شراكة في تربية النحل واستخراج العسل و الاتجار به، ولا يعدّ هذا النوع من الشراكة جديدا، فقد اعتاد الناس إعطاء أجباح النحل لمن يقوم بها على المناصفة أو بجزء من غلتها رغم منع الفقهاء لذلك حيث نصحوا بأن يشتري العامل من صاحب النحل جزءا منها بثمن معلوم إلى أجل بعد معرفة عادتها وقوة نَحْلها وكثرة عسلها[1].

تحدث (Cahem,C) عن جماعة من التجار اشتركوا في كراء سفينة تجارية لنقل بضائع مختلفة منها الحبوب، العسل، النحاس الخشب واللحوم عبر ميناء طبرقة باتجاه الأندلس في نهاية القرن السادس الهجري ونظرا لتجاوز الحمولة إضطر صاحب السفينة إلى تخفيف الوزن فأمر النّواتية بإلقاء بضاعة من السفينة في البحر وإتلاف البعض الآخر "فتسبب ذلك في خسارة التجار الشركاء"[2] وكشفت الفتاوى المتعلقة بالنّواتية - البحارة الذين يقع كراؤهم للعمل على السفينة التجارية – أن الكراء مشروط بإيصال البضائع سليمة بغض النظر عن المدة التي يقطعونها في السفر ومن ثم فإن هذه الشراكة التجارية لا تعود على صاحبها بالربح الوفير نظرا لكثرة الحوادث البحرية وارتفاع سعر النّواتية والسّفن التجارية.

كما أشرت إلى نظام الأسواق في مدن المغرب[3]، فإن هناك تجار تتوزع حوانيتهم داخل أحياء المدينة، أو على أبواب مداخلها أو حتى على أطراف المدينة، وجل هؤلاء التجار يبيعون المواد الغذائية فمنهم

---

[1] - الونشريسي، المعيار، ج8، ص 194.

[2] - Cahem.C : « ports et chantiers Navals dans le Monde Méditerranéen Musulman jusqu'aux Medievo », p 309.

[3] - أنظر الفصل الثالث من الباب الثاني، ص ص 522-525.

من يبيع السمك ويعرف باسم الحوّات[1]، وبائع السمن، والجزار بائع اللحم، والدقاق الذي يبيع الدقيق[2]وبائعي الخضر والفواكه وغيرهم.

بالمقابل كان بعض تجار المدن كمراكش، فاس، تلمسان والقيروان يتقربون أكثر من الزبون، حيث يحملون بضائعهم في عربات سواء يدفعونها بأنفسهم أو يجرها حصان أو بغل في الطرقات وينادون معرفين بالسلعة التي بحوزتهم، وكثيرا ما يبيعون بضاعتهم إلى العائلات التي تسكن بنايات عالية فتستعمل المرأة الحبل لسحب القفة بعدما يضع فيها التاجر مشترياتها[3]، كما يبيعون هؤلاء التجار سلعتهم إلى أصحاب المحلات التجارية المضطرين إلى البقاء في متاجرهم وإلى ذوي الحاجة[4].

يبدو أن هؤلاء التجار قد حققوا أرباحا مغرية، إذ تمكنوا من توسيع دائرة الزبائن حيث كانوا يجمعون بين أهل الحضر وأهل البادية أو أهل الضّواحي على الأقل[5].

ويمكّنُهُمْ انتقالهم إلى البوادي من رفع أسعار سلعهم الأمر الذي يزيد في أرباحهم[6] ويكون أمر نقلهم السلع إلى أماكن قد تكون موطنا للحروب، فيضاعفون أسعار بضائعهم بحكم حجم المخاطرة[7].وهكذا تكون لهم مبالغ مالية متراكمة أهّلتهم إلى مرتبة الطبقة الوسطى بالرغم من تضاؤل جاهِهِم وعلمهم.

---

1 - التادلي، التشوف، ص 345.

2 - السابق، ص ص 338-339.

3 - إبن القطان، نظم الجمان، ص 247.

4 - السابق، نفس الصفحة.

5 - إبن خلدون، العبر، ج1، ص 365.

- إبن القطان، السابق، ص197.

6 - السابق، نفس الصفحة.

7 - البيدق، أخبار المهدي، ص 90.

- المراكشي، المعجب، ص 231.

- إبن صاحب الصلاة، المن بالامامة، ص ص 442-443.

- عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب، ص 383.

- فئة الحرفيين الصناعيين:

لقد عرفت بلاد المغرب منذ بداية العهد الإسلامي تنوعا في الأنشطة الحرفية وتوالت مراحل تطورها وازدهارها إلى غاية تاريخ فترة الدراسة -وقد كانت مصدر عيش قسم كبير من سكان البلاد، بل أن البعض من هذه الحرف تجاوزت شهرته حدود بلاد المغرب ليبلغ بعض الدول الإفرنجية والمشرقية مثل صناعة الزرابي وصناعة النحاس، وعلى أساس معيار الجودة وتحقيق المنفعة يمكن تقسيم فئة الحرفيين إلى صنفين أولهما هو صنف الحرفيين الصناعيين. وثانيهما هو قسم الحرفيين البسطاء البدائيين والقسم الأول هو الذي يهمنا في دراسة الطبقة الإجتماعية الوسطى.

وأهم مجال ظهر فيه نشاط ومستوى الحرفيين الصناعيين هو مجال الحرف الصناعة المعدنية.

وجدير بالإشارة إلى أن التخصص المهني كان يدفع الحرفيين وخاصة ذوي النشاط الواحد إلى التقارب والتعايش، وتتكون بينهم روح التضامن والتآزر بدل المنافسة، بل تضامنوا مع تجار مدنهم من اتخاذ موقف يحفظ مصالحهم كما حدث لتجار وحرفي مدينة سجلماسة عندما استنجدوا بالموحدين على حكام المدينة من زنّاتة [1].

وقد حكم بعض المهتمين بفن البناء وتشييد القصور بأن أظهر وأقوى صِفَةٍ إتّصف بها الموحدون هي حُب تشييد المباني[2]. حيث كان لهم توجه خاص في البناء، لقد كانت مبانيهم مطبوعة بطابع العظمة، ويقرر ابن سعيد أنه لم يشاهد في البلاد التي طاف بها وهي المغرب وإفريقية وما جاورهما والبلاد الشامية والمصرية وما

---

[1] - إبن القطان، نظم الجمان، ص137؛ - محمد بن غازي، الروض المتون، ص19.
- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص309؛ -موريس لومبار، الإسلام في مجده الأول، ص225.

[2] - سيديو، تاريخ العرب العام، ص 343.

جاورهما إلاّ ما شيد بمراكش في دولة بني عبد المؤمن[1]، ومن هذا يتضح أن حاجة الأمراء والخلفاء الموحدين إلى الترف والتأنق في العمران والقصور والبساتين أكيدة، كما أن حرصهم على جلب المياه والإكثار من الحدائق والمساحات الخضراء أدى بهم إلى الإهتمام الكبير بالفنّانين والمهندسين.

لقد كان المهندس المعماري الشهير الشيخ الحاج بَعبش المالقي من المقربين إلى الخليفة عبد المؤمن بن علي[2] والمهندس ابن باسة هو واحد من الذين شاركوا في تشييد مدينة جبل طارق ثم المهندس العظيم أبو جعفر أحمد بن حسان القاضي (ت. 598هـ) الذي شيد المسجد الأعظم بالرباط في عهد الخليفة يعقوب المنصور وقد حمل المسجد المذكور اسم حسان[3]، ومع هذا الإسهام الحضاري الكبير فإن المهندسين بمختلف تخصصاتهم لم ترق مراتبهم الإجتماعية إلى طبقة الخاصة رغم المستوى المادي الذي عاشوا فيه، ويعود السبب في ذلك إلى بعدهم النسبي عن الجماهير الشعبية بحكم تخصُّصهم وبالتالي يقل تأثيرهم ولا جدوى من قربهم إلى السلطة[4].

يتضح ذلك في تغيبهم عن الإحتفالات الرسمية، وعدم دعوتهم رسميا إلى مراسيم التعيين أو الإحتفالات بانتصار الجيوش الموحدية في المعارك وغير ذلك من المناسبات[5].

---

[1] - كتاب الجغرافيا، ص194.

[2] - إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص161.

- عبد الله علي علام، الدولة الموحدية بالمغرب، ص369.

[3] - السابق، نفس الصفحة؛ - محمد المنوني، حضارة الموحدين، ص ص 162-163.

[4] - أبي حمو الزياني، واسطة السلوك في سياسة الملوك، تحقيق عبد الله عنون ومحمد الزاهي، دار أبو سلامة للطباعة والنشر، تونس، ص113.

[5] - التادلي، التشوف، ص190.

- إبن بشكوال، كتاب الصلة، تحقيق عزّت العطار، مكتبة الخانجي، القاهرة 1994، ص (279-287-337).

وكذلك كان الأطباء والفقهاء الذين لم يرتبطوا بالبلاط الموحدي يمارسون مهنتهم في محلات خاصة[1]، وانتشروا في حواضر بلاد المغرب نذكر من بينهم أبو جعفر بن الحسين بن أحمد بن الحسين بن حسان الذي ارتحل إلى المشرق ودرس الحديث والطب بمعاهد المشرق ثم عاد إلى المغرب مشتغلا في محله إلى أن توفي بمراكش سنة (599هـ/ 1204م)[2]، ونظرا لكون مهنة الطب كانت شريفة ومحبّبة إلى نفوس الناس، فإن بعض الفقهاء ابتعدوا عن مجال السلطة واشتغلوا بالطب مثل الفقيه محمد بن عبد الرحمن العقيلي (ت. 543هـ/1148م)[3].

والشأن نفسه بالنسبة للفقيه الطبيب على بن عبد الرحمن بن يوسف الوَجْدي (ت. 603هـ/ 1209م)[4]، ويبدو أن مثل هؤلاء الأطباء عاشوا حياة هادئة ومتوسطة، نالوا قسطا من التقدير الإجتماعي ولقبوهم بالعلماء، مع الإشارة إلى أن مداخيلهم الشهرية وفّرت لهم الحياة المستقرة، مع تفاوت مستوياتهم الإجتماعية، في حين لم يحالف الحظ البعض الآخر رغم مهارتهم، فاضطروا إلى الهجرة من مدينة إلى أخرى بحثا عن عمل مستقر[5].

وينتمي الصيادلة إلى نفس الطبقة أيضا، فقد كان من الطبيعي أن يرافق ويتزامن ظهور مجموعة من الصيادلة تطور الطب العلمي ببلاد المغرب، وممّن ظهروا في ميدان الصيدلة أبو جعفر أحمد بن محمد الغافقي القرطبي (ت. 561هـ/1166م) والذي تجوّل في بلاد المغرب بحثا عن صنوف النباتات الطبية، ثم قام بتصنيفها[6]، ويليه في الشهرة النّباتي

---

1 - إبن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص 476.

2 - التادلي، التشوف، ص 345؛ - إبن عبد المالك، الذيل والتكملة، ص 24.

3 - التادلي، السابق، ص 346؛ - إبن القطان، نظم الجمان، ص247 .

4 - إبن عبد المالك، السابق، السفر 2، ص 24.

5 - إبن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج3، ص 86.

6 - عبد الله علي علام، الدولة الموحدية بالمغرب، ص 363.

أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرح الأموي المعروف بإبن الرّوحية (ت 598هـ/ 1204م) فقد تجوّل من أجل دراسة النبات في أقطار الشمال الإفريقي ثم رحل إلى المشرق سنة(580هـ/ 1185م) وصفه ابن الخطيب قائلا:"إنه عجيبة نوع الإنسان في عصره وما قبله وما بعده"[1].

- فئة الصيارفة وكبار السّماسرة:

كان الصيارفة وكبار السّماسرة طرفا أساسيا في المعاملات التجارية التي تدار في أسواق وفنادق المدن المغربية، وقد تمكنوا من كسب أرباح هامة[2] أوصلتهم إلى تبوّء مرتبة إجتماعية محترمة وكان الصيارفة والسماسارين يباشرون أعمالهم مباشرة في الأسواق وقد يتخذون محلات لتصريف الأعمال التجارية بين البائعين والمشترين[3] ويستقبل فيها التجار الغرباء والمسافرين، وتأتي مداخيل الصيارفة من اختلاف السكة والزيادة في الصرف، وتغير الأحوال أثناء الجوائح والحروب والأزمات[4]. والمؤكد أن اليهود كانوا أكثر الوسطاء في الصيرفة لحذقهم في الأعمال المالية[5].

ويظهر من خلال النّوازل ومظاهر المعيشة أن الصيارفة والسماسارين كانوا يحصلون على أرباح عالية حيث يأخذ نصف الربح من البضاعة الواحدة التي باعها التاجر بفضل وساطته، وقد تصادفه

---

[1] - الإحاطة، ج1، ص ص 215-221.؛ - إبن الأبار، التكملة رقم 241؛ -محمد العربي الخطابي، الطب والأطباء في الأندلس والمغرب، ج1، ص ص102-115.

[2] - التادلي، التشوف، ص100، ترجمة أبو الفضل يوسف النحوي (ت 587هـ/ 1192م).

- محمد بن عياض، نوازل بن عياض، (مخ) رقم 39.

- الباديسي، المقصد الشريف (مخ) رقم (75 ق).

[3] - مجهول، الاستبصار، ص202؛ - عز الدين موسى أحمد، النشاط الإقتصادي في المغرب، ص284.

- إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الإجتماعي للمغرب والأندلس، ص163.

[4] - إبن يوسف الحكيم، الدوحة المشتبكة، ص ص117-118.

[5] - مجهول، السابق، نفس الصفحة؛ - محمد عياض، السابق، ورقة 37 ب.

الفرصة أن يباشر عملية البيع بنفسه فيبيعها بأكثر من السعر الذي حدده التاجر[1]، وهذا يعود بالضرر طبعا على المشتري[2].

وقد ظهر وسطاء آخرين عرفوا باسم الجلاسين، حيث يجلسون في محلات السماسرة وكلّما أراد تاجر غريب شراء سلعة معينة زاد عليه الجلاس، حتى يبلغ السعر مستوى أكثر مما يرغب التاجر فإن حصل البيع تقاسم الجلاس والسّمسار ما زاد عن السعر المحدد[3].

ويستنتج من خلال تواريخ النوازل المتعلقة بالجلاسين أنها كانت منتشرة في الربع الأول من القرن السادس الهجري ثم تقلصت ممارستها لأن الموحدين تشددوا في محاربتهم[4].

- أصحاب الوظائف الرسمية المباشرة:

إن أصحاب الوظائف المتوسطة هم المشتغلون في أجهزة الدولة كالحراس وعرفاء الشرطة[5] وأصحاب الأحباس[6]، والمحتسب الذي يراقب التجار في الأسواق ويؤدب الغشاشين[7].

وأُشير إلى أن تعيين أصحاب الوظائف السابقة يتم من الفقهاء والقضاة[8]، ويخصصون لهم مرتبات كافية لضمان قيامهم بعملهم إلى جانب أجرهم الخاصة[9]، وكان ارتباطهم بجهاز الدولة قد وفر

---

1 - الونشريسي، المعيار، ج8، ص145، ج5، ص191.

2 - السقطي، رسالة السقطي، ص ص 59-64؛ - عز الدين موسى، النشاط الإقتصادي في المغرب ، ص284.

3 - السقطي، السابق، ص ص ، ص60-61.

4 - عز الدين موسى أحمد، السابق ، ص285.

5 - يبدو من خلال أمثال العامة أن الشرطي كان محل سخط من قبل الناس لأنه يدخل الرعب على نفوس الناس من الأمثلة على ذلك: يُحَلّ الشرطي يأكل معك ويحسر الصحفا. أنظر : - الزجالي ، ج1، مثل 106، ص228.

6 - إبن رشد، نوازل إبن رشد، ص299.

7 - مثال على مكانة المحتسبين انظر : - ترجمة طارق بن موسى بن طارق (566هـ/ 1169م) في:
- إبن عبد الملك، الذيل والتكملة، ج4، ص148. وكذلك ترجمة بن مروان بن يونس (ت541هـ/ 1182م) في:
- التكملة، ج2، ص468. وأيضا: - عبد العزيز بن محمد اليحصبي (ت580هـ/ 1143م).

8 - إبن عبدون،رسالة في القضاء والحسبة، ص20.

9 - إبن عبدون، السابق، ص11.

لهم احتراما وجَاهًا في الوسط الشعبي، غير أنه يوجد من الفقهاء من رفضوا الإنتماء إلى مجموعة " فقهاء السلطة " فأصبحوا في عداد الطبقة الوسطى، واشتغل بعضهم بالوراقة[1]، وامتنع بعضهم عن أخذ الرشاوى التي اعتبرت وسيلة للإثراء السريع فظلوا في شريحة الطبقة الوسطى[2].

وجدير بالإشارة إلى أن صنف من الفقهاء عارض السلطة جهرا فزجت بهم في السجون ويلاحظ هذا من خلال تراجم حياتهم أنهم اختاروا الإستقلال في الرأي والصدع بالحق فكان مصيرهم التعذيب والقتل[3]، في حين إختار بعضهم حياة الجندية فاستشهدوا في ميادين الجهاد[4].

والملاحظة العامة حول هذه الطبقة فإنها لم ترق إلى مستوى عال لأن نظام الحكم وفلسفة الموحدين الجهادية لم يسمح بنمو الثروة لدرجة كبيرة تصبح معها السلطة محاورة لا قاهرة لهم بالقوانين والضرائب حيث كانت تخضعهم لرقابتها وهذا ما جعلهم عاجزين عن القيام بأي دور تاريخي.

ثالثا/ طبقة العامة في المجتمع المغربي الحضري:

1- مفاهيم حول العامة:

1-1 - المفهوم الصوفي:

تتحدد مفاهيم العامة بالزمان والمكان، لأن مصطلح " العامّة " يندرج في تفاسير التراتب الإجتماعي[5]، فمن وجهة نظر المتصوّفة يكون الفرق بين "العامّة" و"الخاصّة" مرتكزًا أساسًا على المفهوم المعرفي ونأخذ على سبيل المثال قول ابن عبّاد «واعلم أن العامّة والغوغاء

---

[1] - إبن القاضي، جذوة الإقتباس، ق2، ص409. ترجمة عبد الرحمن بن محمد العسفر الأنصاري.

[2] - إبن عبدون، رسالة في القضاء والحسبة، ص360.

[3] - إبن عبد الملك، الذيل والتكملة ، ج6، ص170، ترجمة محمد بن الحسن الأنصاري الخزرجي، ص182.

[4] - إبن الأبار، التكملة، ص29. ترجمة أحمد بن ثابت الصوفي، ص21.

[5] - تقول الباحثة حليمة فرحات:"إن المصادر التاريخية مشحونة بمصطلح"الخاصة"و" العامة " وأن مضامينها تظل غامضة وفضفاضة».
Halima, Farhat, Sabta Des Origines Au 8eme siècle, Edition Al Manahil, Ministère Des Affaires Culturelles, 1993, pp380-382.

لا سبيل لهم في الانتفاع على أيد الفقهاء المنتصبين للإقراء والتدريس لأن شأن هؤلاء بث الأحكام الشرعية وذكرها لمن يتعرّض لهم أو يسألهم عنها. والعامّة لا قريحة تحملهم على سؤالهم عن ذلك لما هم فيه من الجهل والغفلة»[1]، ولهذا دعا بعض العلماء إلى تجنب تعليمهم علوم التوحيد الرّقيقة لأنها من شأن " الخواص " فقط لأن «عقول العَوَام تحار في الأمور الجلية فكيف بالدقيقة»[2] وهكذا فإن مصطلح " العامّة " كثيرا ما جاء في كلام المنكرين لأحوالهم وهم مشبّعون بالمفهوم الصّوفي الذي كان يضع الأولياء في مراتب "الخاصة"[3].

ومما يخلط المفاهيم ويعقد الفرز بينهما هو المفهوم المادي للعامّة والخاصّة فالمفهوم المادي يمكن التمييز بين المعدمين والميسورين لكن العامّة في المفهوم الصّوفي لم يقصد بها المعدمون الفقراء[4]،ومن المعلوم أن الصّوفية صنّفوا أنفسهم ضمن فئة الخاصة، وعزموا على ترك ملذّات الدنيا ولو بشكل ظاهري، مستعيضين عنها بلذّة روحية، فمن الضروري أن يؤثر هذا النهج في الحياة على فهمهم لمن صنفوهم ضمن " العامة " بمفهومهم المادي.

1 - 2 - المفهوم العلمي الفقهي:

وإذا كانت الصوفية قد جعلت المفهوم الصوفي لمصطلح "العامّة" أهم مفاهيمها ألحقت به مفاهيم أخرى معرفية، ومعرفية فقهية، وأخرى مادية وسياسية، وقد برز المفهوم الصوفي كمفهوم رئيسي يعكس صراعا بين الصوفية والفقهاء العلماء الذين

---

[1] - الرسائل الكبرى، ص 237.

[2] - إبن الخطيب، روضة التعريف، ص 487.

[3] - التادلي، التشوف، ص 47-49.

[4] - البادسي عبد الحق، المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق سعيد عراب، الرباط 1982م، ص 21.

حرصوا على أهلية قيادة وتوجيه المجتمع. ومن " مرادفات " "العامّة" عندهم نجد مصطلح " الدهماء"[1] و"الرعاع"[2] و"الأغفال"[3] و"السفهاء"[4]. وهذه المصطلحات تظهر في مؤلفات الفقهاء الذين أظهروا مفهوما آخر "لِلْعَامِّيَّةِ" فهم الذين يمثلون الفئة الجاهلة بأحكام الفقه[5] وعليه فقد يكون الفرد عاميًا وإن لم يكن أميًا[6] وبذلك شكل الفقهاء والعلماء تَصْنِيفًا غير الذي إعتمدته الصوفية وهو الثنائية (عالم//عامي)، (فقيه//عامي)[7] ونجد عبارات كثيرة في كتب الفقه والفتاوى من الشكل «هذا كلام ركيك لا يصدر إلاّ عن عامي بعيد عن الفقه»[8].

وفي هذا الإتجاه نجد الونشريسي يستنكر إسناد الإمامة في الصلاة في كثير من المساجد إلى العوام والجهال[9] والملاحظ أن المفهوم المعرفي الفقهي لمصطلح " العامّة " يكثر في أجوبة المفتين منه في الأسئلة الموجهة إليهم. لأن الجواب هو الذي يعكس فهم العالم الفقيه المفتي العامة. ويظهر أن الفقهاء يريدون إقصاء باقي فئات المجتمع المتعلين من فئة الخاصة كمحاولة للإستئثار بالخيرات الناتجة عن إمتلاك المعرفة الشرعية. ومن ثم ينبغي من وجهة نظرهم أن يحتل الفقهاء المراتب العليا في المجتمع.

---

[1] - الونشريسي، المعيار، ج9، ص314.
[2] - السابق، ج9، ص396.
[3] - السابق، ج4، ص507.
[4] - السابق، ج1، ص254.
[5] - السابق، ج2، ص480.
[6] - إبن إبراهيم هلال، الدّر النّثير على أجوبة أبي الحسن الصغير، مطبعة حجرية، فاس 1303هـ، ص ص 405-406.
[7] - أبو الفضل راشد بن أبي راشد الوليدي، الحلال والحرام، تحقيق عبد الرحمن العمراني الإدريسي، نشر وزارة الأوقاف، المملكة المغربية، مطبعة فضالة المحمدية (1410هـ/ 1990م)، ص188.
[8] - الونشريسي، السابق، ج2، ص497.
[9] - الونشريسي، السابق، ج2، ص497؛ - إبن عبّاد، الرسائل الكبرى، ص68.

1 - 3 - المفهوم السياسي:

إن الأفراد الذين ينحدرون من عائلات وجيهة مُقرّبة من السلطة إمّا بحكم الإنتساب[1] أو بحكم المناصب الإدارية في جهاز الدولة كانت تخشى على نفسها من فقدان المنصب أو غضب السلطة ولهذا سارعت إلى تكوين هويّة تاريخية للجهاز الحاكم[2] فأصدرت من خلال ما كَتَبْتُهُ أو ما كُتِبَ عنها مفهومًا سياسيا لمصطلح "العامّة" ومن ثم فإن الثنائية السّكانية المهمة في المجتمع حسب رأيها هي "الخاصة" التي تعني السلطة وحاشيتها من الأعيان وذوي الجاه، مقابل "العامّة" التي تشمل باقي الرعية[3] جاء على لسان الأمير الحمادي أبن العزيز (518هـ / 1124م) وهو رأس هرم " الخاصة" في كلمة وجهها إلى المهدي محمد بن تومرت حين كان ببجاية قال: " لأن السّوقة يا فقيه تأمر الناس بالمعروف وهم لا يعرفونه"[4] وفي أدبيّات خاصة هذا المفهوم أن "العامّة" تُحَقّر أثناء التمردات أو الأزمات فيقال لها "الضالّون" "المفسدون" و"الأوباش" و"السفلة" و"الّسفهاء"[5] وهذه الثقافة السياسية مازالت مستمرة إلى وقتنا الحاضر، فكثيرا ما يقع الإسقاط ويحمّل الشعب أزمات مجتمعه، فيقال "شعب جاهل" "شعب مغفّل" وإلى غير ذلك من التعابير الدّالة على " العامة ".

وهذه الأساليب التحقيرية الموجهة للعامة تهدف إلى المحافظة على السلطة القائمة وما تستلزمه إستمراريتها من سيادة الأمن، وأما

---

[1] - الونشريسي، المعيار، ج4، ص 506؛ - رسائل موحدية، مجموعة جديدة، ج1، ص 193.

[2] - القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 206.

- المقري، نفح الطيب، ج6، ص 17.

[3] - رسائل موحدية، السابق، ص 48.

- محمد بن الأنصاري، اختصار الأخبار عمّا كان بثغر سبتة من سبي، الآثار، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط2، الرباط (1403هـ/ 1983م)، ص ص 33-34.

[4] - رسائل موحدية، السابق، ص ص 151 - 57؛ - البيدق، أخبار المهدي، ص 36.

[5] - نفسه، ج2، ص 47.

في السياقات الخارجة عن نطاق الثورات فتحمل "العامّة" مرادفات أخرى من قبيل " الناس"[1]، "القبائل"[2]، "العوام"[3]، "الكافة عند الموحدين"[4] والملاحظ أن ثنائية " خاصة" و"عامة" بالمفهوم السياسي أخذت أيضا تفريعات مثل «أشياخ الموحدين/عامّة الرعية»، «الطلبة / الناس»[5].

-واستعمل الموحدون أيضا مصطلح "الكافّة " بدلا من العامّة أثناء مخاطبتهم المجتمع بكامله[6].

1 - 4 - المفهوم الإجتماعي:

من غير شكّ أن فوارق المستوى المعيشي لأفراد داخل الحيز الجغرافي الواحد في المجتمع الحضري المغربي قد طُبع بالذاتية في رؤية الآخر إنطلاقا من المكانة الإجتماعية التي يعيشها الفرد. ومن هذا التوجه احتل المفهوم المادي[7] صدارة مفاهيم مصطلح " العامة " والذي أوضحه إبن عبّاد كما أشار إلى أن حال " العامّة " هو تشاغلهم «بطلب المعاش من وَجْهِهِ يَضُمُّون الدرهم إلى الدرهم والحبة إلى الحبة، ليصونوا بذلك وجوههم عن المسألة ويستدفعوا به الشدائد المعضلة»[8].

وحين تشكلت الخاصة حسب المفهوم الإجتماعي من الأغنياء والميسورين مقابل " العامّة" التي كونت الفقراء والمساكين، وإذا كانت طريقة

---

1 - رسائل موحدية، ص ص 48-49-69.

2 - نفسه، ص69.

3 - نفسه، ص195.

4 - نفسه، ص193.

5 - نفس المصدر والصفحة.

6 - رسائل موحدية، مجموعة جديدة، ج1، ص (130-135-140-384).

7 - أحمد بن يحي بن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأبصار، تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، سنة(1409هـ/ 1988م)، ص37.

- مارمول كاربخال، إفريقيا، ترجمة عن الفرنسية محمد بحي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، وغيرهم، الرباط،(1408هـ/ 1988م)، ج2، ص ص 7- 57.

8 - الرسائل الكبرى، ص99.

معيشة " العامّة " متواضعة فإن معيشة «علية القوم كشيوخ الموحدين، والأعيان، ورجال الجاه، والتجار الكبار فهي أفضل من ذلك وأكثر لطفا»[1]. واضح أن هذا القول يدمج بين المفهومين المادي والسياسي للعامة، وهذا التداخل يظهر أيضا عند الحديث عن موائد الطعام التي كان يقيمها خلفاء الدولة ليلة العيدين أو يوم عودته الأسفار إلى مقر الدولة بمراكش، حيث لا يحضر طعام عيد الخليفة إلاّ خواصه، وأشياخه، وله طعام عام يحضره الضّعفاء والمساكين[2].

إن الملاحظة المركزية في مفهوم " العامّة " ضمن المجال السياسي أنه لم يتعامل معها ككيان قائم بذاته، ولم يخاطبها " كذاتٍ " مستقلة جديرة بالخطاب والحوار بل تعتبر "العامّة " مَوْضوعًا لذات السلطان ولا يهتم بها إلاّ من زاوية خضوعها إلى السلطة، وعلى هذا الأساس وحده كانت تلقب بأسماء فيها شيء من الإحتقار، كالسفلة والأوباش [3].

وما دمنا نتحدث عن مفاهيم " العامّة " بصفتها جزءًا مهمًا في التركيبة الإجتماعية فإن ضرورة البحث العلمي تدفعنا إلى القول بأن فئة " العامّة " غير ثابتة في معناها، تأخذ مفاهيم معينة حسب السياق العام للنص الذي وردت فيه[4] مثل المواضيع التي

---

[1] – العمري، مسالك الأبصار، ص118؛ – القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص156.
– الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج1، ص252.

[2] – العمري، السابق ، ص118؛ – القلقشندي، السابق، ج5، ص156.

[3] – سبق وقد أشرنا إلى مثل هذه الأسماء. أنظر: – عز الدين علام، السلطة والسياسة، ص ص 57-250.

[4] – عن الذي ينطلق من المفهوم السياسي للعامة تراه يضع التجار والحرفيين رغم إمكاناتهم المادية إلى فئة العامة ويعتبر أصحاب هذا التوجه أن كل عناصر المجتمع التي لا تمت بصلة إلى السلطة ولو كانت ميسورة تحسب على " العامة ".
– محمد القبلي، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال، ط1، الدار البيضاء، 1989م، ص137.

تعالج صلة الدولة بالمجتمع[1] أو تلك التي تعالج العلاقات المتبادلة بين الطرفين[2].

أما الدراسات التي اتخذت العلاقات الإجتماعية، والعلاقات الإقتصادية الإجتماعية، فقد جاءت المعالجة في السياق الإجتماعي الإقتصادي ذاته واختاروا المعالجة على الأساس المادّي "للعامّة" والخاصة. هي المستوى المعيشي " فالعامّة " مستواها المعيشي ضعيف ودخلها محدود.

وبهذا نستخلص أن طبيعة الموضوع والسياق العام للدراسة هي التي فرضت الإشارة إلى هته المفاهيم. وتبقى صعوبة الحديث عن التركيبة الإجتماعية للمغرب خلال العصر الموحدي من خلال تقسيمها إلى فئات أو وضع ترتيب تسلسلي لأفراد المجتمع بناءً على المستوى المادي وذلك لغياب نظريات مسبقة، ومنها محدد لتحليل المغربي بأقسامه خلال هذا العصر، وللتناقضات العديدة التي قدرها تصادف المباحث نتيجة تداخل اعتبارات أخرى في تحديد المكانة الإجتماعية، كالقبيلة الموحدة، والمسالمة، والمهنة، والشرف، والسلطة، يضاف إليها الأمل الإقتصادي ومختلف التأثيرات التي خضعت لها البلاد من الجنوب والشرق والشمال مع متابعة حركية هذا المجتمع نتيجة الصراعات القبلية.

ومن أجل تحقيق النفوذ السياسي أو الدفاع عن المجال الجغرافي والمصالح المهددة. ويتبع تغيير على مستوى المراكز الإجتماعية، وكمثال يمكن الحديث عن قبائل مصمودة بتينملل، الذين كانوا من صغار

---

[1] - حمدي عبد المنعم محمد حسين، تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، دولة علي بن يوسف، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية 1986م، ص 325.

- مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى في العصر المريني الأول، بحث لنيل ديبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق، الدار البيضاء، 1988-1989م (مرقون)، ص 376.

[2] - محمد القبلي، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال، ط1، الدار البيضاء 1989م، ص 113.

Abdelhad Sabti, -Aristocratie-, Citadine, Pouvoir et Discours Savant au Maroc Précolonial, Contribution a La Littérature Généalogique Fassie, XVème début XXème Siècle Thèse De Doctorat de 3ème Cycle, Paris 1984, p 226.

ومتوسطي التجار والفلاحين المستقرين خلال العصر المرابطي، غير أن هذه الوضعية سرعان ما تغيرت في العصر الموحدي، فقد تأثرت التركيبة الإجتماعية لهذا التجمّع السكاني فَنِيت أموالُ البعض بفعل المجهود الحربي ومناصرة المهدي، وزكت أموال البعض نتيجة تقربهم من السلطة[1] وما يقال عن سكان تينملل يقال عن قبائل هوّارة بمدينة أغمات الذين كانوا من كبار التجار في العصر المرابطي و لم يكن في دولة المرابطين أحد أكثر منهم أموالاً وأوسع أحوالاً[2] ولكن هذه الوضعية المريحة تغيرت في العصر الموحدي غير المصامدة ما كان بأيديهم من نعم الله[3].

ولذلك يمكن تجاوزًا الأخذ بالتقسيم الكلاسيكي الذي تتبناه المصادر وذلك من خلال التمييز بين فِئتي الخاصة والعامّة. فالفئة الأولى هي صاحبة الإمتياز في المجتمع حيث كانت تحتكر أموالا كثيرة، أما فئة العامة فتتألف من صغار الزراعة والعمال الزراعيين والتجار الصغار وأصحاب المهن والحرف والعمال، والأجراء، وبعض الموظفين الصغار وتتميز بمستوى معيشتها المنخفض، الذي يقوم على الإكتفاء الذاتي و بناءً على ذلك فهي أكثر عرضة لأخطار الأزمات السياسية والكوارث الطبيعية، التي كانت تجتاح البلاد من حين لآخر وكانت وضعيتها أكثر صعوبة في الأرياف.

والعوام في المجتمع خلال عصري المرابطين والموحدين هم أكثرية الفئات الإجتماعية الذين لا يَربطهم أي صلة بالسّلطة إلاّ دفع الضرائب والدّفاع عن الأرض[4]، وهم يعيشون في مجتمع حضري له

---

[1] - غازي سعيد حرادة، الحياة الإقتصادية والإجتماعية في العصر المرابطي بالمغرب، رسالة دكتوراه في التاريخ، جامعة محمد الخامس، الرباط 1991م-1992م، ص ص 251 – 253.

[2] - الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 237.

[3] -نفس المصدر والصفحة.

[4] - غازي سعيد حرادة، السابق، ص 256؛ - Halima Farhat, op-cit, p p 372-378.

أبعاده الفكرية والدينية التي إن تصادمت اتخذ أصحابها " العامّة " ميدانًا لخصوماتهم فيحدث الضرر عليها[1]. لقد لعبت العامّة المغربية أثناء مراحل الإستقرار السياسي دورا رئيسيا في بناء المدن، وإحياء الضيعات، وازدهار التجارة. وقد حوت فئة العامّة شرائح إجتماعية متنوّعة اشتركت كلها في صفة " أصحاب الدخل المحدود " وقصد توضيح دور العامة في المجتمع نتطرق إلى شرائحها بما نراه يخدم الدراسة:

2 - الحرفيون:

ومن جملة طبقة العامة نجد الجنود الذين قذفت بهم ظروف العيش إلى المدن المغربية لكسب معاشهم من المساهمة في الحروب[2]، كذلك صُنّف عامة المزارعين الذين كانوا يشتغلون في بساتين الشرفاء وشيوخ الموحدين. ومن لم يجد حرفة كان يلجأ إلى الغصب واللصوصية[3] وقد ظهر هؤلاء من التحولات التي عرفتها المدن من زيادة التّرف، وتوسّع الإستهلاك وارتفاع الأسعار، وهي تطورات خلقت طبقات إجتماعية عاجزة عن كسب رزقها ناقمة على الأوضاع مما حدا بها إلى احتراف أعمال الصوصية[4]، والأنخراط في صفوف المعارضة.

وإلى جانب هؤلاء وجد من عوام المدن من لم يتسم لهم الحظ فلم يجدوا حرفة يرتزقون بها، ولذلك دخلوا في إعداد الفقراء والمساكين، وأن الفقر شكل ظاهرة إجتماعية في المدن الكبرى. حاول رجال التصوف التصدي لها، حيث يخبرنا في هذا الصدد ابن الزيات ان أحد المتصوفة تلقى مبلغا ماليا من أحد الأمراء فلم يخرج من مراكش حتى فرقه على المساكين[5]، وكانت "الفتوح"

---

[1] - المراكشي، المعجب، ص 343.

[2] - المراكشي، السابق، ص ص 106 - 115.

[3] - رسائل موحدية، أحمد العزاوي،مجموعة جديدة، ج1، ص 152.

[4] - السابق، ص 153.

[5] - نفسه ص 106.

وهي نوع من الإحسان كان يقدم إلى رجال التصوف الصلاح تجمع ثم توزع على الفقراء[1].

3 - معلمو الكتاب ومنظمو المساجد:

حتى معلمي الكتاب، الطلبة والمتعلمين يمكن إدراجهم في فئة من طبقة العامة إذ كانوا يعيشون وضعا ماديا صعبا، فالرواتب التي كانوا يتقاضونها لم تكن تكفيهم وقد ذكر ابن الزيات أن الشيخ أبا العباس السبتي[2] (ت. 601 هـ/ 1206م) الذي كان قد درس بأحد الفنادق خصص له رسم من بيت المال، لكن من خلال تصفح حالته الإجتماعية تبين أن هذا الراتب كان هزيلا، وأن أجرة معلمي الكتاب تنهض دليلا على الفقر المدقع الذي عانوا منه حتى أن أحدا منهم وضعت زوجته فلم يجد ما يسعفها، وظل يوما كاملا ينتظر عطف آباء الصبيان علّهم يُقدّمون ما يرتزق به، وكان أبو الفضل بن يوسف النحوي (ت592 هـ/ 1197م) مثالا حيا لما آلت إليه وضعية المدرسين، «فأكثر ما كان يلبس حائكا وفيه يصلي الجمعة من شدة الضيق مع غزارة علمه»[3]. وأشار القاضي عياض إلى مثل هذه الحالات بقوله[4]:

أَنَا فِي حَالَةٍ كَمَا قَدْ تَرَاهَا .: إنْ تَأَمَّلَتْ أَسْعَدَ النَاسِ حَالاً
لَيْسَتْ لِي كِسْوَةٌ أُخَافُ عَلَيْهَا .: مِنْ مَعْيِر وَلاَ تَرَى لِي مَالاً (البحر الطويل)

وذكر ابن الزيات أن محمد عبد الجليل بن ويحلان (ت 541هـ/ 1146م) كان يدرس النَّاس الفقه ثلاثين سنة محتسبا مع شدة فقره وحاجاته، ومثله كان أبو عمر السلاجي (581هـ/ 1178م) الذي

---

[1] - رسائل موحدية، بمجموعة جديدة، أحمد العزاوي، ج1، ص 306.
[2] - أخبار أبي العباس السبتي، ورقة رقم 195.
[3] - العبدوني، يتيمة العقود الوسطى، ص 398.
[4] - إبن عبد المالك، الذيل والتكملة، ج6، ص 124.

انتصب لتعليم العلم محتسبا[1]، أما أبو عبد الله محمد بن سليمان النفزي (600هـ/ 1205م) وهو من شيوخ الأدب والنحو، فقد أخذ عنه الناس هذين العلمين كثيرا ودرسهما بغير أجر[2]، واضطر بعض المدرسين إلى أخذ أجرة من أبناء كبار التجار وأبناء البيوتات الشريفة[3].

وكان هؤلاء أكثر احتياجا وأعمق فقرا، ولولاَ كرم وجودة آباء الصبيان عليهم لهلكوا[4] ولهذا أفتى فقهاء الفترة بجواز أخذ أجرة تعليم الصبيان[5]، وكان في بعض الحالات يتبرع أغنياء البلدة بدفع أجرة المعلمين عوضا عن آباء الصبيان المعوزين[6]. ومع هذا ظل شبح الفقر يخيم على معظم المؤدبين[7]، وقد أبانت المصادر التاريخية لتلك الفترة أن بعض المعلمين كانوا يبيعون الأعشاب، واحتطاب العزف ليصنع منها حصر الصلاة، ثم يبيعها ويشتري ما يقتات به[8].

يبدو أن تلك الأجرة كانت رمزية وغير منتظمة، حيث اعتبرها بعضهم إحسانا فقط، فقد أشار أحد المعلمين بقوله أحد المعلمين بقوله «...وإني وإن كنت آخذ الأجر منهم فإني لم أجلس لهم من أجلها. وإنما جلست لتعليمهم كتاب الله»[9]. ومما يؤيد هذا الرأي شهادة أبن الزيات وهو معاصر لدولة الموحدين عندما يذكر

---

[1] - التادلي، التشوف، ص 200.

[2] - إبن الأبار، المعجم، ص 137، ترجمة رقم 122.

[3] - التادلي، السابق، ص ص 272-273.

[4] - السابق، ص 294.

[5] - إبن رشد، فتاوى إبن رشد، ص 156.

[6] - التادلي، السابق، ص 187.

[7] - الذهبي، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأمصار، ج1، تحقيق حاد الحق، القاهرة، دت، ص 410.

[8] - التادلي، السابق، ترجمة أبو إسحاق إبراهيم الاشبيلي (ت. 551هـ/ 1156م).

[9] - نفسه، ص ص 147-152-193.

Ashtor, « Prix et salaires dans l'Espagne, Musulmane au X^er et XI Siècles », - A.E.S.C.T, XX 1965, P 676.

أن الشيخ محمد عبد الجليل أبن ويحلان (ت. 541هـ / 1146م). كان قد درّس الفقه ثلاثين سنة، وأحتسب أجرة ذلك على الله، مع شدة فاقته[1].

إن الأجرة الزهيدة التي كان بعض المعلمين يتقاضونها دفعت بعضهم إلى التصدق بها على من هو أفقر، ودفعت البعض الآخر إلى التحايل والتزوير من أجل كسب المزيد فقد أورد ابن الزيات حالة حاول فيها أحد المعلمين إظهار نفسه بمظهر الرجل الوقور والأمين لاستمالة المسافرين والمتسوقين حتى يضعوا ودائعهم عنده مقابل ثمن[2].

وقد أثارت أحوالهم اهتمام الخليفة عبد المؤمن بن علي الذي وصفهم بأنهم عرايا ضعفاء[3]، فاقترض مبلغ من المال يجبر حالتهم[4].

ويُضاف المؤذنون والقائمون على صيّانتها، وتنظيف وحراسة المساجد إلى طبقة العامة يختارهم أهل الضاحية أو القرية كانوا يتقاضون أجرتهم من أحباس أهل القرية على المسجد أو يجمعون لهم أجرتهم، ومن المتوقع أن تقع صعوبة في جمع الأجرة مادامت على سبيل التطوع والإحسان إليهم[5] واعتبرها البرزلي بهذا الشكل غير مستحسنة بل مكروهة[6]. ومن القرائن على عدم وجود راتب، خصص لهم أهل القرية راتبا فرفضوا بدعوة أنهم يعيّرون به[7].

4 - العاطلون عن العمل والمتسولون:

شهد العصر الموحدي وضعا اجتماعيا أحسن مما كان عليه قبيل قيام دولة الموحدين ومع ذلك فقد شكلت شريحة العاطلين

---

1 - التشوف، ترجمة الشيخ محمد عبد الجليل، رقم 116.
- أبن عذاري، البيان المغرب، ص 81.

2 - التشوف، السابق، نفس الورقة.
- أبن عذاري، السابق، نفس الصفحة.

3 - إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث ي التاريخ الاجتماعي، ص 184.

4 - البرزلي، جامع مسائل الأحكام مما نزل بالمفتين والحكام، مخ. خ، ع، ر 450.

5 - البرزلي، السابق، ورقة 141أ.

6 - السابق، نفس الورقة.

7 - السابق، ص 184

عن العمل عائقا أمام الحركة الإجتماعية المتطورة فقد وجد المهرجون والشحاذون، وبعض المرضى، والسحرة وغيرهم من القوى غير المنتجة التي حاولت السلطة إدماجهم في المجتمع، وخاصة أن أسباب وجود هذه الوضعيات تعود في معظمها إلى عدم الإستقرار الناتج عن ترحيل السكان من جهة والتحولات الإقتصادية التي شهدها المجتمع المغربي من جهة ثانية.

لقد كانت شوارع المدن الكبرى مجالا لجولات المتسولين الذين ينشدون مقاطع من الأغنيات الشعبية الرائجة كسبا لعطف المارة[1] ويزداد عددهم أثناء المناسبات والأعياد الدينية، وكثيرا ما كانوا يقصدون المتصوفة من الناس طمعا في إحسانهم فهذا المتصوف الزاهد أبا عبد الله التاودي (406هـ/ 1210م) تأثّر بمنظر سائل فتصدق عليه بثيابه[2].

وفي نفس السياق أورد ابن الزيات في ترجمة أبي شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي (561هـ/ 1163م) أن سائلا وقف عليه واشتكى له مرضه وفقره وكثرة عياله فطلب من أحد مريديه أن يحسن إليه[3].

وقد شكل قُطّاع الطرق واللصوص شريحة واسعة في عامة الناس خاصة في فترة تأسيس الدولة مستغلين اهتمام الدولة بالقضايا الأساسية المتمثلة في توسيع وتكريس أركان الدولة. واتجهت أنظار اللصوص إلى القوافل التجارية، والتجار الكبار والأثرياء وقطعان الماشية[4].

---

[1] - المقري، نفح الطيب، ج1، ص205.

[2] - التادلي، التشوف، ص288.

[3] - التادلي، السابق، ص ص 189-190.

[4] - نازلة أوردها الونشريسي حول رجل ثري كان يرى الأولوية في تنمية عقاراته من الحبس حتى سُرق: المعيار، ج2، ص ص 308-310.

- ويشير القاضي عياض في نازلة أوردها كما يلي: حوانيك وفقك الله في أصحاب جنات قاموا بعقد البتوه مضمنه أن التّنزه بين أشجار الجنات ضرر لكثرة ما يأوي إليها أهل الفساد والشر وأنهم يتسلطون على حُراسها ويُلحقون الأذى بالجنات ويسرقونها. ينظر:
- محمد بن عياض، التعريف بالقاضي عياض، تحقيق محمد بن شريفة، ط2، الرباط 1982م، ص 118.

وقد اتخذت السلطة إجراءات صارمة في محاربة اللصوصية وغالبا ما عوقب اللصوص الذين تم القبض عليهم بالصَّلب[1]. ومع هذا بقيت المسألة الأمنية مطروحة رغم انحصار خطرها. وقد بينت إحدى النوازل[2] وهو ما أكده ابن عذاري، الذي أشار إلى أن سكان مدينة المهدية -بإفريقية- كانوا في بلاء عظيم يتناولون الحراسة اللَّيل كله ويجابهون روعات طراقة وألاً يجابه أهل التغور من العدو[3]، وجدير بالإشارة إلى أن العصر الموحدي خفَّ فيه خطر اللصوصية وقُطَّاع الطرق بالنسبة لما عرفه المرابطين[4].

وفي الأخير نشير إلى وجود شرائح أخرى في المجتمع نذكرها على سبيل المثال لا الحصر منها المشعوذون الذين شكلوا حرفة الشعوذة لها نظامها وأسلوب عملها حيث يمهون على العامة من الناس ويظهر نفسه قادرا على معالجة بعض الأمراض[5] فيحصل بهذه الطريقة على أجر يعيش به، ومنهم من يمارس تدريب وترويض بعض الحيوانات والزواحف كالحيَّات والثعابين والقردة على بعض الألعاب يعرضها أمام الناس في الأسواق والتجمعات[6]، كما يوجد بعض النسوة اللائي يمارسن البغاء للعيش حيث يقمن في بعض الفنادق الأمر الذي زاد في شهرة الدروب التي تقع فيها هذه الغنائم كدرب الواد الأزرق بفاس[7]، كما وجد نوع آخر من

---

[1] - إبن سعيد، اختصار القدح المعلي في التاريخ المحلي، ص 90.

[2] - نص النازلة: نزل عندنا في بعض الأعوام خوف شديد من السراق فذهب بعض جيران حومة إلى التحصين على أنفسهم بإصلاح الدروب وإقامتها وأبى بعضهم أن ينفقوا معهم.ينظر: - إبن الحاج، ص 289.

[3] - إبن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص 226.

[4] - المراكشي، المعجب، ص 148؛ - رسائل موحدية، مجموعة جديدة، أحمد العزاوي، ج1، ص 152.

[5] - السقطي، في آداب الحسبة، ص 45 ؛ - مجهول، الحلل الموشية، ص 113.

[6] - السقطي، السابق، ص 48.

[7] - المراكشي، السابق،ص 129؛ابن سعيد، كتاب الجغرافيا،ج 1،ص 77

المؤسسات المعروفات باسم الطرازات[1] ويبدوا أن هذه الشريحة كانت مستورة في العصر الموحدي، حيث كان بالإمكان استدعاؤهن إلى منازل الرجال الراغبين في ممارسة الفاحشة معهن، وكُنَّ في ذلك العصر كثيرات ولا سبيل في الشك في ذلك وهو الأمر الذي جعلهن مذكورات على ألسن العامة[2].

5- مكانة العبيد الإجتماعية:

لقد انتشر الفقر في المدن الكبرى لدرجة أن الكثير من الأسر تقتصر في طعام سحورها خلال شهر رمضان على الخبز[3] وحده ولعل هذا ما يفسر إنتشار ظاهرة التسول كما يتضح ذلك من خلال بعض النصوص، وتدخل شريحة الرقيق التي تكونت من أسرى الحرب، وخاصة عندما تمكنت الحركة الموحدية من السيطرة على مراكش، وفاس، ومكناسة، وتلمسان، وسبتة إذ حول الأحرار إلى عبيد «وبيعوا بيع الأسرى المشركين هم ونسائهم وداريهم»[4].

لقد كانت منزلة العبيد خالية من التقدير الإجتماعي وطبيعة الأشغال التي تسند إليهم شاقة فهذا الخليفة الموحدي يعقوب المنصور. عندما أراد الزيادة في بنيان مراكش كلّف العبيد بهدم السُّور القديم وهي عملية شاقة جدا[5]، وتُجمِع النصوص على خضوع العبد لسيِّده. فلم يكن بمقدوره التصرف في أمر من أموره الشخصية إلا بإذن مالكه ويؤكد الجزيري[6]، أنه ليس للعبد حكم في ماله إلا

---

[1] - إبن عبدون، رسالة في القضاء والحسبة ، ص53.

[2] - إبن عاصم، ص131.

[3] - التادلي، التشوف، "أخبار أبي العباس السبتي" ، ص113.

[4] - السابق، نفس الصفحة. ولمزيد من المعلومات ينظر ص ص 94-95.

[5] - إبن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين ، ص153.

- آشتور، التاريخ الإقتصادي والإجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة عبد الهادي عبلة، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق 1985م، ص 39.

6- المقصد المحمودن ص ص 9-11

بإذن سيده، كما كان للسيد حق تزويج العبد أو الأَمَةَ، وله كل الصَّلاحيات في تزويجها ولو دون رضاها[1].

وقد تجلَّت قسوة السيد على مماليكه في اعتبار الشتم والضرب من الأمور العادية التي يتعامل بها السيد مع مماليكه[2]. وتورد النَّوازل صورا تعكس نوع الإحتقار ومختلف ضروب المهانة التي عوملت بها هذه الشريحة، فقد ورد في كتاب الإشارة في تدبير الإمارة تحذير من مجالسة الخدم والعبيد[3]، كما تداولت ذلك الأمثال العامة[4] واستعمال الشدة والقسوة معهم، وقد اعتبر زواج العبد الأسود بالمرأة البيضاء من المسائل الشاذرة التي كانت محل انتقاد وسخرية[5] وأسقط المجتمع المغربي بعض الواجبات الإجتماعية على الأَمَة فهي غير مطالبة بأداء العزاء، والتَّهاني، وإن فعلت ذلك ثار أهل الشرف والنَّسب واعتبروا ذلك تجاوزا في حقهم[6]، وبعض الرقيق مات من مرض أَلَمَّ به دون تلقّي العلاج[7]، ومع ذلك لم يصدر من العبيد ردّ فعل يعبرون من خلاله على سخطهم وغضبهم واكتفوا بكتم الغيظ واستمرار الحياة على ذلك النمط[8]، ونخلص مما سبق ذكره أن وضعية العبيد كانت سيئة، ولم تراع حقوقهم الإجتماعية

---

[1] – غازي سعيد حرادة، الحياة الإقتصادية والإجتماعية في العصر المرابطي، ص ص 113-125-214.

[2] – التادلي (أبي يعقوب)، التشوف، ص ص 34-56-102.

[3] – المرادي (أبو بكر)، كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة، تحقيق أحمد سامي النشار، الدار البيضاء 1981م، ص98.

[4] – من الأمثال العامة الدّالة على ذلك: "من خالط الخدم ندم"، "الخُدمْ لا يكون ندين".

– الزجالي، أمثال العوام، ج1، فاس، ص221.

[5] – التادلي، السابق، ص 114؛ – إبن سعيد، رايات المبرزين، ، ص39.

[6] – مثال عامي:" مَشَتْ تَعَزّي أُبيعت في الأكفان".

– ريّ الأوام ومرعى السوام في نكث الخواص والأعوام، مثال رقم1743، ص212.

[7] – إبن الحاج، نوازل إبن الحاج، ص22.

[8] – قالت الأمثال العامية: "شتمت مولاي تحت كساي"، مثال رقم 1881. الزجالي، السابق، ص222.

وتعرضوا لأبشع صور الإذلال، رغم أنهم شكلوا نسبة عالية من عامة السكان في المدن الكبرى مثل مراكش، وفاس.

6 - أثر الأزمات على العامة:

لقد عانى عوام المجتمع المغربي خلال عصر الموحدين من كوارث طبيعية وبشرية أثّرت سلبا على حياتهم[1]، ففي عهد الخليفة يعقوب المنصور مرّت سنوات عجاف تمخّض عنها قحط شديد فتك بالزرع والضرع، فقد ضربت المد بجفاف الأمر الذي حدا بالخليفة المنصور إلى مطالبة النّاس بالخروج للصلاة الإستسقاء وغالبا ما أعقب القحط مجاعة أثّرت في حركة الأسواق يقول ابن عذاري: «...تحيز النّاس وكثر فيهم الهرج وعظمت عليهم المصيبة بإسلامهم وعدم الأقوات والمرافق، ولم يبق سبد ولا كبد، ولا طارف ولا تالد، ولا ذخيرة ولا مال ولا عقار، واستولت المجاعة على جمهور النّاس ورأوا محنّا يستعاد بالله منها». ويضيف المؤرخ نفسه موضحا نتائج هذه المجاعة على قلة التغذية قائلا: «إذا ظهر في السوق شيء من خبز الشعير يزدحم النّاس عليه ولا يصل إليه إلاّ الكافة الذين لهم تجلّد على الاقتحام وصبر ثم لا يعدم الذي يتوصل إليه أن يجتمع عليه العشرون وأكثر من الضعفاء والمساكين حتى ينتزعون منه قهرا...»[2].

وفضلا عن المجاعات انتشرت الأوبئة والأمراض في صفوف عوَام المدن المغربية خاصة الغربية منها، ففي سنة (571هـ/1176م)، حسب ابن أبي زرع ابتليت مدينة مراكش وما يحيط بها بوباء الطّاعون فكان الرّجل لا يخرج من منزله حتى يكتب اسمه وموضعه في براءة ويجعلها في جيبه، فإن مات حمل إلى موضعه وأهله، وانتهى عدد

[1] - الونشريسي، المعيار، ج9، ص19.

[2] - إبن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص136.

الأموات بمراكش وحدها إلى ألف وسبعمائة رجل[1]، ولعلّ حدة هذا الوباء جعلت أحد المؤرخين يصفه بأنه « لم يعهد مثله فيما تقدم من الأزمنة»[2].

وفي سنة (570هـ/1196م) وقع وباء عامّ على طول بلاد المغرب وعرضها[3] بمارستانات و لم تكن قادرة على استقبال هذه الأعداد الهائلة من المرضى[4].

وتجدر الإشارة إلى أن جلّ الفئات الإجتماعية كانت تتضرر من جراء هذه الأوبئة إلاّ أن عجز الفئة المستضعفة عن مواجهة المجاعات جعلها أكثر تضررا، وخاصة أن هذه المجاعات والأمراض كانت كثيرا ما تنتهي بغلاء شديد، وارتفاع في أثمان السلع، وفي الجانب العسكري، عرف العوامّ محنًا مغنية أثناء الحصارات المفروضة على المدن حتى أن مؤرخا يذكر أنهم اضطروا إلى أكل الجيف خلال الحصار الموحدي؛ وعندما فتحت المدينة استباحت جيوش الموحدين كل الذكور البالغين، واستمر البطش والتنكيل بهم ثلاثة أيام حتى هلك منهم خلق كبير[5]، واستمر هذا الوضع المحزن إلى أن نودِيَ عليهم بالعفو لكنهم تعرضوا للأسر والسبي[6] وابتيعت النساء[7].

كما عَانَى العوام من مثل هذه الحروب فإنهم عانوا أيضا من مشكلة السَّكن، حيث أن المدن الكبيرة مثل مراكش، وفاس

---

[1] – إبن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 267.

[2] – إبن القاضي، ذرة الجمال في أسماء الرجال، القاهرة 1970م، ج3، ص 324.

[3] – مجهول، الإستبصار، طبعة الدار البيضاء 1985، ص 210.

[4] – مجهول، السابق، ص 215.

[5] – إبن عبد الملك، الذيل والتكملة، ج2، ص 228؛ – إبن خلدون، العبر، ج6، طبعة بيروت 1979م، ص 232.
– إبن الأحمر، بيوتات فاس الكبرى، طبعة الرباط، 1972م، ص 20.

[6] – البيدق، المهدي بن تومرت، تقديم وتحقيق عبد الحميد حاجيات، (ش.و.ن.ت)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1394هـ/1974م، ص ص 119-120.

[7] – البيدق، نفسه، نفس الصفحة.

إليها، وهجرات العرب من بلاد إفريقية إلى مدن المغرب الغربية الأمر الذي دفع بأبي المنصور إلى توسيع المدن ومنها مراكش[1].

وقد اقترن التآمر مع الثوار بالعامة. فكان الخلفاء والأمراء يتهمون العوام من الناس بالتآمر على النظام، والتعاون مع الثائرين، ولهذا فإن السجون كانت كثيرا ما تكون مكتضة بالعامة من الناس[2]، ولم يمنع العامة من الضرائب المفروضة عليهم وخير مثال على ذلك أن الخليفة عبد المؤمن بن علي لَمَّا استقر بمراكش سنة(543هـ/1148م) بدأ في إلغاء ضرائب القبلات التي سادت في العصر المرابطي[3].

موقف العامة من الظلم والإستبداد:

يحدثنا ابن عذارى[4] عن ثورة قام بها ثائر يدعى الجزيري(583هـ/1188م) استطاع أن يجمع جموعا غفيرة من العوام، ويعلن سخطه وثورته في مراكش وكلها إنتهت بفشله وطرده من المدينة وحبس المتعاطفين معه، ويذكر المراكشي أن رجلا استغل سخط العوام فادعى أنه من سلالة الفاطميين، لكن انتهى بقتله، وتعليق رأسه مع ثوار مدينة مراكش[5].

والملاحظ أن مثل هذه الإنتفاضات كانت تستقطب العامة بشكل مثير وهذا يدل على الأوضاع المزرية التي عاشتها العامة ويفسر أحد الباحثين وتوجههم إلى الصلحاء والأولياء ورجال التصوف يعجزهم عن التنظيم والتحكم في ثوراتهم وبالتالي يفشلون ولهذا ارتموا في أحضان الصلحاء والأولياء لأنهم رأوا أمل الخلاص فيهم.

---

1 - إبن عذارى، البيان، قسم الموحدين، ص153.

2 - إبن صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، ص266.

3 - إبن عذارى، السابق، ص37.

4 - البيان، القسم الموحدي، ص207.

5- المعجب،ص ص 464- 466.

وقد تجسد الإرتباط بين العوام والصوفية، لأن الصوفية يمدون هؤلاء بمساعدات، ويتوسطون لهم عند الآخرين[1]، فقد ورد أن العامة في مراكش كسّرت نعش المتصوف سيدي أبي إسحاق (616هـ/1220م) واقتسموا أعواده تبركا به[2] واحتفل الناس بجنازته[3]. وذهبوا أبعد من ذلك عندما عارضوا أمر السلطان الموحدي القاضي بمنع تشييع المتصوف ابن برجان في مراكش سنة (601هـ/1206م)[4].

وكل هذه السلوكات تبين الخط الذي دار فيه العوام خلال الفترة موضوع البحث فلاهم قَدِروا على تنظيم أنفسهم وافتكاك حقوقهم بطرق معينة، ولا السلطة الموحدية قَدِرت على تخطي الحواجز النفسية والإجتماعية للخاصة والعامة على حدّ سواء.

رابعا/ المجتمع الريفي:

1 - النشاط اليومي الإجتماعي:

يغلب الحديث عن المجتمع الحضري عن غيره من مجتمع الريف وقد يعود الأمر لإستيعاب الحضر للريف وتدخله بصفة مستمرة في حوادث المجتمع الريفي، ولهذا لا يسعنا إلا جمع المعلومات المتفرقة عن مجتمع البادية في زمن محدد، والمجتمع المغربي الريفي يشمل مستويين من النشاط اليومي الإجتماعي، أولهما الحياة الإجتماعية للرعاة المتنقلين، في حين يقوم الآخر على النّشاط الزراعي المستقر ويستنتج من خلال ما كتبه المؤرخون والباحثون في علم الإجتماع الريفي. إن العلاقات الإجتماعية ومضامينها متنوعة ومتمايزة، تتحكم

---

[1] - التادلي، التشوف، ص ص 245-246.

[2] - إبن الموقت، السعادة الأبدية، ج1، طبعة فاس، 1336هـ، ص59.

[3] - نفسه، ص58.

[4] - التادلي، السابق، ص10.

في ذلك العوامل الجغرافية[1]. إن قاعدة الحركة الإجتماعية في البادية المغربية خلال الفترة موضوع البحث وما قبله هي القبيلة أو جماعة القبائل[2]. ففي الأقاليم الشرقية لبلاد المغرب كانت تنتشر قبائل لوّاتة[3] ومن قبائل لواته نجد نفزة أو نفزاوة التي أعطت إسمها إلى الأقاليم الجنوبية من البلاد التونسية ومن أهم فروع انفزاوة قبائل ورفجومة المشهورة.

وفي جبال الأوراس الشرقية كانت قبائل جراوة التي يعود انتماؤها إلى زناتة[4] التي ملأت فروعها بلاد المغرب الأوسط. حيث كانت قبائل كومية في الأقاليم الساحلية غرب وهران على تخوم تلمسان. وفيما بين المغرب الأوسط والمغرب الأقصى كانت قبائل مكناسة حيث تنتشر من المصب قرب تلمسان إلى المنبع بالقرب من سجلماسة[5] وقد زاحمتها قبائل أخرى من زناتة لا حقا في هذه المناطق أثناء التحركات القبائلية التي عرفتها[6].

إن علاقات القرابة تنظم حسب ما يرى البعض مجموع مستويات المجتمع الريفي، فهذه القرابة التي تدفع الأسر والعشائر المتكتلة في إطار القبيلة إلى الشعور بشكل بديهي تلقائي بالتضامن والتعاون في كل الأمور التي تهم الحياة اليومية، والمصير المشترك للمجموعة.

1- Jacques Berques, Les structures sociales du haut Atlas, PUF, Paris, 1925, P P 250-260.

2- تشمل القبيلة عدة جماعات داخلية ابتداء من الأسرة والرهط والعائلة ثم العشيرة بالفخذ والبطن، وتجمع عدة بطون لتشكيل عمارة ومن مجموعها تتشكل القبيلة. ينظر: - جودة عبد الكريم يوسف، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، 1985م-1986م، ص 310.

3- يرى جوتيه أن وجود قبائل لواته البدوية في الأقاليم الشرقية يعود إلى أصلها المشرقي.

- Gautier, Le passé, op.cit, p 281.

4- إبن سعيد، الجغرافيا، ص 145.

5- إبن خلدون، العبر، ج6، ص 192.

6- Gautier, Le passé de l'Afrique, op-cit, p 23.

أما عن رئيس القبيلة أو شيخها فيطلق عليه اسم "أمغار" وبطبيعة الحال لم تكن القبيلة لتستطيع دائما أن تحافظ على نقائها، وأن النسب وحده لا يفسر تماسك القبيلة وتضامنها ككيان كبير بالمفهوم الإجتماعي، فهي لا تشمل فقط على المكونات المشار إليها سابقا والتي ترتبط مع بعضها برابطة الدم[1].

إن القبائل أمثال زناتة، وصنهاجة تتكون من عدد كبير من القبائل حتى قال عنها إبن خلدون إن صنهاجة تبلغ في عددها ثلث أمة البربر[2]، وبهذا المفهوم نجد أن إسم القبيلة كان يمثل في كثير من الأحيان إسم اتحاد تدخل فيه أكثر من عصبية أو قبيلة. وهكذا يمكن القول أن العصبية التي تطبع مجتمع الريف القَبَلي، هي رابطة إجتماعية واقتصادية تربط أفراد القبيلة رَبْطًا دائما، يبرز ويشتد عندما يكون هناك خطر يهدد الجماعة أو الفرد داخلها، ويصبح هذا الشعور جماعيا يعم أفراد العصبية كلها، غير أن الإحساس بالإنتماء القبلي لم يكن شرطا كافيا للشعور بالعصبية إلا إذا دخل حيز التطبيق والعمل فيصبح بعدئذ دفاعا عن المصالح المشتركة[3].

ويحق لنا هنا أن نتساءل عن مغزى وطبيعة دفاع كل أعضاء القبيلة عن المصالح المشتركة هل يعود ذلك إلى أن مجتمع الريف هو مجتمع العدالة والمساواة؟ فبحكم المصير المشترك قد تكون المصلحة الجماعية في المجتمع القبلي تتعارض مع المصلحة الفردية لأن علاقة

---

[1] – عبد القادر حفلول، الإشكاليات التاريخية، ص 101.

[2] – إبن خلدون، العبر، ج6، ص 153 ؛ – إبن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص 34.

[3] – إبراهيم القادري بوتشيش، الحياة الاجتماعية، ج2، ص 619.

المجتمع القبلي علاقة جماعية[1] أساسها الملكية الجماعية للأراضي الزراعية، والموارد المائية، والمجال الرعوي[2] في إطار عائلي على مستوى معيشي متدني ومتغلب حسب الظروف السياسية وهكذا فإن الإنتاج موجه أساسا لسد الحاجيات الضرورية بالقدر الذي يحصّنها من المجاعة ولم يكن باستطاعة عائلة معينة أن تجمع موارد أو حيازتها من غير أن يثير فعلها هذا رد فعل الجماعة التي تضم العائلة.

والجماعة هذه تقوم بحصر فائض الإنتاج ضمن حدود توفير العولة السنوية لمواجهة طوارئ الجفاف أو الحروب، وهذا على حساب المستوى المعيشي للمجتمع الريفي الذي ظل محدودا، ويتضح ذلك بجلاء في نمط الحياة اليومية للفلاحين والرعاة[3]. الأمر الذي يجعل أي تركيز أو تجميع للثروة في المجتمع الريفي لم يكن له أن يتحقق إلاّ على حساب بقية أعضائه، وبهذا فقط تفسر المواقف المتشددة التي أظهرتها قيم المجتمع الريفي ومؤسساته اتجاه كل نزوع إلى جمع الثروة على المستوى الشخصي.

إن المكانة الإجتماعية في هذا الوسط تقوم على أساس الجانب الروحي والمقياس النّسَبي. وزاد ذلك التوجه نحو اعتبار الجانب الروحي أساسيا في حيازة المكانة الإجتماعية، ضعف طريقة ووسائل استغلال الأرض مع الجبايات المفروضة على الفلاحين وقد كانت العوامل الجغرافية عامة والطبيعية خاصة داعمة ومكرسة

---

[1] - محمود عبد المولى، إبن خلدون وعلوم المجتمع، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1396هـ- 1976م، ص21.
- عبد القادر جغلول، الإشكاليات التاريخية، ص102.
- بوزيان الدراجي، العصبية القبلية وأثرها على النظم والعلاقات في المغرب الإسلامي، من القرن السادس الهجري إلى التاسع الهجري...بحث لنيل درجة الماجستير في التاريخ، جامعة الجزائر، معهد التاريخ، السنة الجامعية 1987م-1988م، مرقونة، ص244.

[2] - محمد الطويل، الفلاحة المغربية في العصر الوسيط، ص86.

[3] - مارمول، إفريقيا، ج2، ص ص29-64-65.

لهذا التنظيم، فالأقاليم الزراعية الجيدة هي التي تتوفر فيها الأمطار وذلك على طول المناطق الساحلية للبحر الأبيض والبحر المحيط[1].

في حين نجد منطقة جبال الريف معقدة البنية التضاريسية الأمر الذي يجعلها لا تسمح بالتنقل السريع وهذا بدوره قلل من الإنتاج الجيد للزراعة و لم يتجاوز إنتاجه المستوى المعاشي، وترتب عن ذلك بقاء سكانها فقراء[2]، وعكس هذه التضاريس نجدها في سهول عنابة، وسطيف بالجهة الشرقية لبلاد المغرب[3]. وترتب عن ذلك أن سكانها عرفوا مستوى معيشيا أكثر يسرا بالرغم من القلاقل والثروات التي عرفتها المنطقة خلال الفترة موضوع الدراسة[4].

وينسحب الأمر المتعلق بالمستوى المعيشي على الرعاة، فكثيرا ما وصفتهم المصادر الجغرافية بالفقراء[5]. وأبانت عن مستواهم المعيشي الضعيف المتجسد في نمط التغذية أو الملبس أو المسكن. وفي هذا السياق يقول إبن خلدون: "والرعاة سواء منهم سكان الجبال أو السهول يعيشون معيشة ضنك ويبقون في بؤس وخصاصة على الدوام"[6].

والرعاة منتشرون في كل المغرب من أدناه إلى أقصاه، فهم لم يعرفوا الحدود السياسية والمغرب الأوسط وهو بلد رعوي بصفة خاصة[7] وتليه في الشهرة بلاد برقة المعروفة بمراعيها التي تجود فيها

---

[1] - وتزداد الأمطار في الأقاليم المرتفعة كما هو الحال في جبال شرق المغرب الأوسط في منطقة قسنطينة ومنطقة الجزائر وكذلك إقليم وهران، وتكثر المياه في المغرب على السواحل في جبال درن (أطلس العليا و الوسطى). ينظر: - مارمول، إفريقيا، ج2، ص 30.
- عمر بن ميرة، النوازل والمجتمع مساهمة في دراسة تاريخ البادية بالمغرب الوسيط، دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب، الرباط، 1988م-1989م، مرقونة، ص 204.

[2] - مارمول، السابق، ص 264.

[3] - إبن حوقل، صورة الأرض، ص 79؛ - الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 172.

[4] - إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ المغرب الاجتماعي والعسكري في عهد المريني، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، جامعة محمد الخامس، العدد2، ص 255.

[5] - الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج1، ص ص 329-321-337.

[6] - إبن خلدون، المقدمة، ص ص 149 -151؛ - عابد الجابري، العصبية والدولة، ص ص 220-223.

[7] - إبن خلدون، السابق، الفصل الخامس بالعمران البدوي، الطبعة التجارية، ص 121؛ - مجهول، الاستبصار، ص 143.

بالغنم المعروفة بلحمها اللذيذ[1] وكان الحد المتعارف عليه عرفا في ما يخص حد الفقر هو بلوغ أغنام الراعي نصاب الزكاة وذلك لقول أبي زيد عبد الرحمان الهزميري (606هـ / 1211م): « إذا كان عند الراعي قدر ما يؤدي عنه النصاب فهو في عافية»[2].

ومما يؤكد ضعف المستوى المعيشي للرعاة، اضطرار بعض الرعاة إلى إمتهان أنشطة أخرى على هامش حرفتهم الأصلية مثل بيع الألبان ومشتقاتها في المدن المجاورة لمواطنهم[3].

وحري بالإشارة إلى أن اقتصاد الكفاف الذي كرس هذا المستوى المعيشي كان يقوم على التعاون الجماعي الإلزامي، كحرث الأرض وجمع محصولها وتخزينه في إطار جماعي[4] والتحكم في مجاري المياه وكنسها، فالشغل كله في المجتمع القروي الذي عرف هيمنة فقر الوسائل، ووجود مصالح جماعية، والسعي نحو تدعيم بقاء المجموعة في إطار القرابة.

وكان مَدّ يَدِ الجماعة للمساعدة يهم أفراد القبيلة مهما اختلفت مكانتهم داخلها فيما يخص الأعباء العامة المتعلقة بتنظيف السواقي وتعهد المساجد، وحراستها والمساهمة في شرط الطالب معلم الصبيان فقد يختلف حسب الوضعية الإقتصادية للشخص، فصاحب الكثير يقدم أكثر[5]، وأحيانا تكون المساهمة دورية. سواء كان أفرادها

---

[1] – إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ المغرب الاجتماعي والعسكري في عهد المريني، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، جامعة محمد الخامس، العدد2، ص ص 118-126.

[2] – الحسن الوزان، وصف إفريقيا ، ج1، ص 237.

[3] – إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس، ص 182.

[4] – محمد عبد الله الريفي، جواهر السماط في ذكر مناقب الشريف الرفاعي سيدنا ومولانا عبد الله الخياط، مخ. الخزانة العامة، الرباط، رقم 1185د.

[5] – لقد أظهرت الأعراف هذا التمايز – الاجتماعي على المستوى المادي. ذلك أن بعض سكان الجبال المغربية لما كانوا يفرضون الإقتصاص من قاطع الطريق، يلجئون إلى أخذ ماله، فإن لم يجدوا عنده أخذوا من أقاربه الأغنياء منهم والفقراء. ينظر:
– أحمد بابا التنبكتي، وآخرين، أجوبة في شأن القوانين العرفية، مخ – الخزانة الحسينية، الرباط، رقم 5813، ص 13.

أغنياء أم فقراء[1]، كل هذه التنظيمات العرفية تدل على أن هناك مراتب معينة في مجتمع البادية وإن كان الاقتصاد العائلي القائم على التعاون الجماعي الإلزامي يحاول نفي الحوافز المؤدية إلى الطموح الفردي والتسلق الإجتماعي، حيث يصبح وجود الفرد رهينا بوجود الجماعة[2]، وانطلاقا من هذا الإحساس الشخصي يدرك الفرد الريفي إلزامية المؤسسات التي تحميهم[3]، وتنظم شؤون الجماعة في مختلف جوانب الحياة، من قضايا أمنية إلى سياسة إجتماعية واقتصادية.

2 - رؤساء القبائل:

تتشكل في النظام القبلي مجالس متفاوتة في الترتيب، والصلاحيات حسب وحدات النظام من الصغرى إلى الكبرى أي من مجلس العشيرة إلى مجلس الفخذ، ويظم كل مجلس من تلك المجالس عددا من شيوخ وأعيان الوحدة، هذه المجالس عبارة عن هيئة - جماعة - تقوم بعدة وظائف، تخدم مصالح القبيلة، فهي ذات وزن معنوي، يجعلها مؤهلة لحل النزاعات، واتخاذ مختلف القرارات التي تراها في مصالح القبيلة. دون أن يؤدي دورها إلى الإستبداد والتسلط على أفراد القبيلة.

وعلى رأس كل مجلس رئيس منتخب من قبل أسر القبيلة وبمحض إرادتها[4] ويتوجب على الرئيس رعاية شؤون العشيرة أو الفخذ أو القبيلة، وعادة ما يسند منصب السيادة في القبيلة إلى

---

[1] - الونشريسي، المعيار، ج11، ص225.

[2] - إبراهيم القادري، الحياة الاجتماعية، ج2، ص612.

[3] - إسكان الحسين: «جوانب من تاريخ التعليم في المغرب الوسيط من القرن 7هـ/ 13م -إلى القرن 9هـ/ 15م» رسالة لنيل دبلوم في الدراسات العليا في التاريخ -جامعة محمد الخامس- كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط 1987- 1988م، مرقونة، ص91.

[4] - بوزيان الدراهي، العصبية القبلية وأثرها على النظم والعلاقات في المغرب الإسلامي، ، ص199.

شخص يكون من وجهاء القبيلة لأن الرئاسة إنما هي «سؤدد، وصاحبها متبوع وليس له عليهم قهر في أحكامه»[1].

لقد أشارت المصادر التاريخية صراحة إلى وجود منصب الرئيس (الشيخ) أو "أمغار" في نظم القبائل العربية والأمازيغية[2] والذي يعود إلى الجماعة أثناء اتخاذ القرارات الصعبة كإعلان الحروب أو التفاوض لعقد الصلح، أو أثناء الأزمات الناتجة على الحوائج الطبيعية كالفيضانات والجفاف، وانتشار الأوبئة، وقرارات الرئيس ملزمة للجماعة[3] وتوجد أمثلة كثيرة في تاريخ المغرب تدل على ذلك منها موقف مجالس قبيلة بورغواطة، وقبائل تَامْسنا على إثر عرض الدولة الموحدية مسألة الولاء للمهدي بن تومرت بعد فتحها لمدينة مراكش سنة (541هـ/ 1146م)، وظهر رئيس القبيلة وهو محمد بن عبد الله بن هود(ت552هـ/ 1157م) وتلقب بالهادي فاتبعه خلق كثير من القبائل منها قبيلة بورغواطة، وقبائل سجلماسة[4].

ومن خلال استقراء الأدوار السياسية التي أدتها القبائل المختلفة إزاء الأحداث الطارئة يتضح بجلاء أن المجالس السياسية لهذه القبائل قد كرست مجتمعا غير متساوي بل مجتمعا تراتبيا، ومن ثم تصح مقولة «المؤسسات القبلية الحافظة للعدل والمساواة» هي مقولة مهزوزة عن الواقع[5] فقد أبانت الحوادث السياسية والعسكرية والحوائج الطبيعية أن المجالس لم تكن تعكس مواقف وتطلعات

---

[1] - إبراهيم القادري، الحياة الاجتماعية في المغرب، ج2، ص631.

[2] - إبن منصور عبد الوهاب: قبائل المغرب، ج1، ص281.

[3] - Fredj Stambouli, « Ibn Khaldoun et le système traditionnel Maghrebin », Revue Tunisienne de sciences Sociales 7eme Année, N°20, Mars 1970, P222.

[4] - لقد تكون حلف كبير ضد دعوة الموحدين، ينظر ذلك في إبن حوقل، صورة للأرض، ص102، البكري المغرب، ص140.
- رحب محمد عبد الحكيم: دولة بن صالح، ص106.

[5] - المختار الهراس، القبيلة والسلطة، تطور البنيات الاجتماعية في شمال المغرب، مطبعة الرسالة، الرباط 1988م، ص ص51-56.

مجموع سكان القبيلة أو الحلف[1] فكما أشرنا من قبل إلى أن الأعضاء يتم اختيارهم من بين أعيان القبيلة ومسنيها من بين ذوي الخبرة والمكانة الإجتماعية المرموقة الناتجة عن فوارق إجتماعية واقتصادية، ومعنوية. هؤلاء هم وحدهم الذين يخول لهم نظام مجالس الأعيان حق الاقتراح واتخاذ القرار، أما الباقي من الأعضاء الذين يمثلون الأسر، أو العائلات، وحتى العشائر الأقل قوة، والأضعف اقتصاديا فلم يكن لديهم سوى حق الحضور والاستماع[2].

3 - الأعيان:

يصعب على الباحث في موضوع الحياة الإجتماعية في الريف أن يظهر بجلاء وضعية الأعيان المعيشية لأن كل ما يدور في القبيلة يكون مستورا بالجماعة، والاشتراك في المغنم والمغرم ومع ذلك يمكن تتبع وضعية الأعيان المادية المريحة مقارنة مع وضعية أفراد القبيلة وتأتي أسباب التحسن من ملكية الأراضي، والماشية هذه الملكية تكون في بداية الأمر مستورة، لكن النزاعات، والصراعات التي كانت كثيرا ما تكشف عن تصرفات بعض الأعيان[3] وذلك في ظل الغموض الذي يحيط بطبيعة الملكية والقانون الذي يحكمها.

ومن غير شك فإن مسألة بيع أو تسخير جزء من الأرض يعتبر مدخلا لإحداث تفاوت اجتماعي في الريف وبالتالي إضعاف بنية الجماعة من خلال بعث الشك في مبدأ المساواة بين الأفراد ويعلل الباعة لقطع أرضية بالضرر الذي لحق به من خلال قلة المياه

---

[1] - المختار الهراس، القبيلة والسلطة، تطور البنيات الاجتماعية في شمال المغرب، مطبعة الرسالة، الرباط 1988م، ص 140.

[2] - المختار الهراس، السابق، ص ص 142-146-151-162-163.

[3] - كان بعض أعيان القبائل، أو أرباب العائلات يبيعون أراضي مما يسمى النثيا. بالأحل أو تسخير الأرض في عقد مغارسة، وكان كثيرا ما يتدخل الشفعاء ولو بعد مدة زمنية طويلة. ينظر: - عمر بنمير، «النوازل والمجتمع»، ص 225

- عبد الكبير الخطيبي، « المراتب الاجتماعية بالمغرب قبل الاستعمار»، تعريب - المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع، العدد2، 1975م، ص 36.

أو حلول جائحة طبيعية[1] وهذا ما يدفع إلى نمو القاعدة المادية لبعض الأفراد[2] وبروز عدد من أسر الأعيان فوق باقي أفراد القبيلة[3]. وطبيعي أن يترتب عن هذا الوضع مع مرور الوقت واستمرار بيع الأراضي أن تظهر إلى الوجود في المجتمع الريفي شريحة من السكان لا يملكون قطعة أرض يقتاتون منها، فيتوجهون إلى العمل الفلاحي في أراضي الغير، راضين بالعمل المتقطع، موسمي يخرثون الأرض وينقونها من الأعشاب الضارة أو يقومون يتزبيلها. وفي فصل الصيف يجدون أمامهم الحصاد، والقطف والحراسة، والسقي وتخزين المحاصل الزراعية بعد نقلها[4].

وأصبح هؤلاء الأفراد الفاقدون لملكياتهم عمالا أجراء، لم تتعد أجرتهم في أحسن الأحوال توفير القوت اليومي[5]. وكان العمل الفلاحي في أراضي الغير يتم عن طريق الكراء[6]، أو عن طريق شركات تربط صاحب الأرض بالعمل الفلاحي، والشراكة هنا تكون في المحصول واختلفت حصة العمال حسب المنطقة، ونوعية العمل، وطبيعة الأرض وما كان يساهم به صاحب الأرض، وانطلاقا من ذلك يكون نصيب العامل فإمّا خمس الغلّة أو ربعها أو نصفها كما في المغارسة[7].

---

[1] - محمد بن مزين، « التاريخ المغربي ومشكل المصادر»، مجلة كلية الآداب بفاس، عدد خاص، دراسات في تاريخ المغرب، عدد2، سنة (1406هـ/ 1985م)، ص 119.

[2] - عمر بنمورة، النوازل والمجتمع، ص 256.

[3] - نفسه، ص 257.

[4] - الونشريسي، إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك، د وتحقيق: أحمد بوطاهر الخطيبي منشورات وزارة الأوقاف، مطبعة نضالة، المحمدية سنة (1400هـ/1980م)، ص 280.

[5] - محمد الطويل، "الفلاحة المغربية"، ص 92.

[6] - محمد بن مزين، السابق، ص 112.

[7] - محمد الطويل، الفلاحة المغربية، ص 110؛ - إبن هلال، الدّر النثير، ص 341.

ولم يكن نصيب العامل يتناسب مع جهده مما أدّى إلى تضييق وضعيته الإقتصادية والحصار وضعيته الإجتماعية، وتدهورت حالة الخمّاس إلى مستوى متدنّي يعيش تحت رحمة صاحب الأرض، الذي يأمره بحرث الأرض وتنقية الحرث، ودرس الحصاد وغير ذلك من الأعمال الفلاحية[1].

وهكذا بدأ فرز أفراد المجتمع الريفي، فملكية الأرض كرست ظهور فئة إجتماعية ريفية تحكمت في جزء من الأرض، وأخرى اكتفت باستغلالها[2].

4 - فئة المشاركين في الغزو:

إن عمليات الغزو والسّلب التي كانت تقوم بها القبائل من حين لآخر تعدُّ فرصة مناسبة لأفراد القبيلة، حيث يمكنهم إبراز شجاعتهم وقوتهم وبالتالي ترتفع مكانتهم الإجتماعية وكرّست التفاوت الإجتماعي بين أفراد القبيلة[3]، وهكذا يمكن اعتبار الحرب عاملا مباشرا في تكوين الشرائح الإجتماعية الريفية سواء ما كان منها مستفيدا أو متضررا، حيث كان الأفراد المشاركون في الغزو يأخذون الغنائم والمكافآت مثل ما حدث أثناء فتح مدينة مراكش سنة (541هـ/1146م)، وغيرها من المدن والقرى، وبناء على هذه الوضعية كانت الملكية الخاصة في الريف تتحقق تدريجيا وتنمو طرديًا مع مرور الزمن وخاصة عندما كان المشاركون في الغزو يأخذون الغنائم

---

[1] - إبن هلال، الدّر النثير، ص 341.

[2] - السابق، نفس الصفحة.

[3] - عبد الكبير الخطيبي، المراتب الاجتماعية بالمغرب قبل الاستعمار ، ص 16.

مثل قطعان الغنم والبقر[1]، ونتج عن هذا العامل استئجار المزيد من أبناء القبيلة لمراقبة ورعاية الماشية والأبقار[2].

لقد كان المشاركون في الغزو أثناء السِّلم مكلّفين بجمع الضرائب التي كانت تمنح للسلطة المركزية، هذه الوظيفة جعلت صلاتهم تتقوّى بالسلطة فنالوا تقديرها وعنايتها، مما أتاح لهم الحظوة والجاه[3]، وزادت السلطة من مكانتهم بإدخالهم في سياستها ودعوتهم لحضور الإحتفالات الدينية، وتمييز الجيوش أثناء خروجها للغزو[4]. وقد عمل الخلفاء الموحدون على تقريب المدافعين عن القبيلة وخَصُوهم بعناية كبيرة باعتبارهم الممثل المناسب للتحدث باسم القبيلة في ميدان الأمن والأقدر على إجراء اتصالات مع جهاز الدولة[5]، وهم المسؤولون حتى ولو لم يكن لهم توكيل رسمي، عن توفير الإستقرار والطاعة وفق رأى سياسة الدولة، وقد حظي هؤلاء بامتيازات مختلفة تراوحت بين الإقطاعات والهبات[6].

من هذا المنطلق يمكننا القول بأن السلطة زادت من مكانة المدافعين عن القبيلة، ومدهم بشيء من الإمتياز بل أكثر من ذلك فقد كان المخزن يتدخل أحيانا في تعيين رؤساء الكتائب كما فعل عبد المؤمن بن علي أثناء فتحة المهدي سنة (555هـ/1160م)، حيث عيّن محمد بن فرج الكومي وترك معه الحسن بن علي الصنهاجي وعليه فجباية الضرائب كانت مظهرا آخر لارتباط القبائل بالسلطة المركزية[7]

---

[1] - إبن هلال، الدّر النثير ، ص496.

[2] - مارمول، إفريقيا، ج1، ص28؛ - الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج1، ص365؛ - لسان الدين الخطيب، الإطاحة في أخبار غرناطة، تحقيق: عبد السلام شقور، تطوان 1988، ص118.

[3] - إبراهيم القادري بوتشيش، الحياة الاجتماعية، ج2، ص260.

[4] - أثناء الاستعداد للعبور إلى الأندلس. ينظر: - عبد الله علي علاّم، الدولة الموحدية، ص213.

[5] - أنظر ما فعله عبد المؤمن بن علي مثلا مع شيوخ قبيلة كومية من أجل استقدامهم للسكن بمدينة مراكش.
- البيدق، المقتبس من كتاب الأنساب، ص50، ها 102-103، وص21، هـ15.

[6] - محمد الطويل، الفلاحة المغربية، ص70.

[7] - الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ط1، مطبعة الدولة التونسية،ص 139.

لقد كان سكان الجبل يؤدون خراجهم إلى عامل مدينة كما ارتبطت القبائل بالسلطة المركزية عن طريق إمدادها بالمحاربين[1] وكانت السلطة الموحدية تعين قضاة في البوادي[2].

الأمر الذي يجعلنا نقول بأن القبيلة في الريف خلال العهد الموحدي لم تكن كيانا مستقلا بذاته، بل كانت السلطة موجودة بشكل ما في الحياة الإجتماعية الريفية، وبذلك يمكن القول إن الجاه الذي حَصَلَ عليه أعيان القبيلة دفعهم إلى التقرب من أصحاب الجاه في المجتمع الحضري، وزاد في مكانتهم الإجتماعية والمادية[3]، الأمر الذي لا يمكن معه تأكيد النّسب والجاه والثروة في التمييز بين الأفراد أو الجماعات الريفية، والتي حوّلوها إلى المكانة الإجتماعية والإقتصادية.

5 - المتصوفة:

وإذا كانت المجتمعات الريفية المغربية قد عرفت انتشارا واسعا لرجال التصوف وأصحاب الشرف، فما هي المقامات والمكانات التي وفّرها لهم؟

لقد عرف التصوف إقبالا متزايدا خلال القرن السادس الهجري في بلاد المغرب[4] فقد استحسنت الكثير من الطوائف الصوفية الإقامة في الريف والاندماج كلية بالأوساط الإجتماعية الريفية نذكر

---

[1] - قبيلة مرّالة التي تسكن جنوبي قرية أسْني بجوز مراكش، ومن بطونها أولاد سيدي فارس. انظر:
- البيدق، المقتبس من كتاب الأنساب. ص44، هـ71.

[2] - من بين القضاة المعيّنين موسى بن سلمان الضرير، قاضي عبد المومن بن علي من ضيعة أنسا وهو من شيوخ أهل تيملل وأعيانهم، وكان الشيخ أبو اسحاق إبراهيم بن جامع هو أول من عين واليا للموحدين على فاس بعد فتحها ينظر. ينظر:
- البيدق، السابق، ص33، هـ42.

[3] - نريد أن نؤكد أن القرب والبعد بين القبيلة والمدينة لعبا دورا مهما في تحديد طبيعة ومتانة القبيلة العلاقات التي ربطت بين السلطة والقبيلة، والاستقلال بتحقق بالقدر الذي تكون فيه القبيلة بعيدة عن المدينة، زيادة على مراحل القوة التي تر بها الدولة. ينظر:
- محمد مزين، التاريخ المغربي، ص113.

[4] - انتشار الصوفية خلال القرن السادس، ينظر، محمد القبلي، مراجعات، ص ص 113-117.

على سبيل المثال تحول أغلبية أفراد قبيلة هزميرة إلى الصوفية وينسحب الأمر على قبيلة حاحا، وصنهاجة الظل[1].

وقد أشار الشريف الوزان إلى أن بعض القبائل تخصصت في تخريج الأولياء الصالحين مثل قبيلة رجراجة[2]، ووجدت في البوادي المغربية الكثير من الرباطات والزوايا، ومنها ما ظل مزارات قائمة في مختلف جهات المغرب[3]، ومن خلال انتشار الأربطة يظهر أن الجبال كانت من الأمكنة المفضلة لها لنشر طرقها وتكوين المريدين.

ومعروف أن الصوفية تغلغلت في البوادي، وحقق رجالها مكانة إجتماعية مرموقة في الريّف ومما زاد رجال التصوف اعتبارا في المجتمع المغربي الريّفي هو معارضتهم للسلطة، وامتناعهم بوضوح عن دفع الجباية وهذا يعتبر موقف متضامن مع المزارعين والرعاة وسكان البوادي عموما[4].

كما اضطلعت حركة المتصوفة بدور هام إلى جانب القبائل حيث جندت وعبأت المجاهدين من مختلف المناطق، وجمعت المساعدات المالية والتبرعات، وقادت حربا لا هوادة فيها ضد النصارى خاصة بعد ما ظهر تخاذلهم وخيانتهم خلال عهد المرابطين[5] ولكنه يمكن القول أن هذه المواقف المرتبطة بظرفية تاريخية معينة لا تفسر بمفردها تَبُوْءْ الصلحاء مكانة اجتماعية مرموقة في المجتمع القبلي الريفي بل إن ما أهلهم لها هو الأدوار التي قاموا بها و لم ينقطعوا عنها في المجتمع نتيجة ما اكتسبوه من رصيد معنوي في أوساطه وهيبتهم داخله

---

[1] - عن التعريف بالقبائل، حاحا، وكَدْمِيوَة، وصنهاجة الظل يرجع إلى ص ص 10-12-13 من الفصل الأول.

[2] - وصف إفريقيا، ج1، ص 112.

[3] - الزركشي، تاريخ الدولتين، ص 140؛ - محمد مفتاح، « التيار الصوفي»،ص ص 56-57.

[4] - محمد القبلي، مراجعات، ص 113.

[5] - موقف المتصوفة من النصارى خلال العهد المرابطي بعد فتوى القاضي أبي الوليد إبن رشد الجد بوجوب تغريبهم وإحلائهم عن الأندلس، حيث أخذ علي بن يوسف الأمير المرابطي لهذه الفتوى محمد عبد الله عنا. ينظر: - نهاية الأندلس، ص 68.

فالإنسان الرّيفي الذي ارتبط مصدر عيشه بالأرض عانى من عقدة الخوف الدائم من الجوائح الطبيعية، والحروب المفاجئة.

ونظرا لحرمة الصلحاء ومكانتهم في مجتمع الريف كان المسافرون والتجار المارُّون عبر المجال القبلي يستندون إليهم ويستجيرون بهم من عبث القبائل المتهورة، وأهل الحرابة، لدرجة أن الصلحاء كونوا شعورا عاما بضرورة السلم ونشر الأمن في المجال المغربي[1] الريفي. ووصل الأمر إلى اعتبار الوالي بمثابة صمام الأمان فهو يحفظ التوازنات بين القبائل من جهة وبين أفراد القبيلة بل العائلة الواحدة[2]. من جهة ثانية فكان لهم بعض الفضل في التخفيف من سطوة قطاع الطرق التجارية[3].

وخلاصة القول بالنسبة لوضعية الصوفية في المجتمع الريفي المغربي، فقد كانت مرموقة نظرا للأدوار الإجتماعية النابغة من احتياجات المجتمع التي كان يقوم بها الصوفية.

لقد كانت هذه الأدوار متنوعة. وحاضرة في كل مناحي الحياة القبلية، لقد كان أفراد القبيلة يعيشون بخوف فخفف المتصوفة من ذلك الشعور حيث توسطوا بينهم وبين السلطة وحاوروها فأقنعوها مرات عديدة بالتراجع عن استعمال السيف في رؤوس بعض الأفراد من القبيلة وأقنعوا أفراد القبيلة ببعض كرامتهم الخاصة ببعض الجَوائح كالأمراض والفيضانات، والجفاف، ومعالجة المرض[4].

---

[1] - محمد مفتاح، «التيار الصوفي»، ج1، ص 70.

[2] - عبد اللطيف الشاذلي، التصوف والمجتمع، ص ص 20-25-30.

[3] - إبن الخطيب، الإحاطة، ص 159؛ - التادلي، التشوف، ص 250.

[4] - محمد مفتاح، السابق، ص 60.

6 - الشرفاء:

كان سكان البادية في بلاد المغرب يتقربون إلى ذوي النسب الذين عرفوا بالعائلات الشريفة و لم يكن هذا الاعتبار الذي نالته العائلات الشريفة مبنيا على أساس مادي بل يعود إلى قدسية النسب والمكانة الدينية التي دفعت الجماعات إلى التبرك بخدمتها ومما زاد قيمة إجتماعية إلى العائلات الشريفة هو انتساب المهدي بن تومرت وأهل الدار- أو العشرة - المقربين منه، وغيرهم من سارع إلى تقديم الولاء للموحدين والإنتساب إلى البيت العلوي[1].

و لم يكن تأكيد العائلات الشريفة الريفية في بلاد المغرب مجرد وسيلة لإبراز تسلسلها النسبي بل يعود الأمر إلى تبرير الامتيازات المترتبة وإعطاء صبغة شرعية على مكانتها وكان كثيرا ما شهرها بعض شيوخ القبائل كما فعل شيخ قبيلة من قبائل هسكورة وهو أبو عبد الله بن أبي بكر بن تونـدوت (ت 528هـ/1132م) عندما قصد المهدي بعد التمييز وأعلن ولاءه ثم نسبه الذي زعم أنه ينتهي إلى الحسن بن علي - رضي الله عنه -[2].

ودعم الأشراف في مكانتهم في الريف بفعل الأدوار التي اضطلعوا بها نتيجة التقدير الذي نالوه من قبل السلطة ولدى القبائل الأمر الذي جعلهم يتوسطون بين أفراد قبائلهم والسلطة في كثير من المسائل خاصة تلك المتعلقة بالضرائب[3].

---

[1] - البيدق، المقتبس من كتاب الأنساب، ص39.

[2] - المراكشي، المعجب، ص116؛ - البيدق، السابق، ص40.

- ويضيف البيدق قصة مماثلة قام بها أبو عبد الله بن سليمان وهو واحد من أصحاب المهدي العشرة توفي في وقعة البحيرة سنة (524هـ/ 1130م)، وكان له إبن ولاه عبد المومن على قرطبة، عام(549هـ/ 1154م).

- البيدق، السابق، ص32.

[3] - محمد مفتاح، التيار الصوفي، ج1، ص97.

وقد شكل النسب الشريف مبدءا قام عليه التراتب الإجتماعي فيكفي أن نجد العرف القبلي لا يسمح للأفراد الوافدين على القبيلة أن يشاركوا في الحرب حيث يؤكدون على نسب أفراد القبيلة الذي يجب أن يكون من صلب القبيلة[1] هذا المبدأ لا ينفي التفاوت والتمايز الإقتصادي والإجتماعي، والمعنوي داخل القبيلة[2].

7 - طلبة الحضر في الريف:

إن رحلة طلب العلم في المجتمع القبلي باتجاه المدن المغربية الكبرى كانت تعطي صاحبها الريفي اعتبارا عاليا في نفوس أهل قريته لأنه يعود إليها مختلفا عن الوضعية التي كان يتصف بها أثناء مغادرته لقريته، لقد أصبح صاحب الرحلة العلمية الريفي محل ترحيب من فقهاء قريته، ومعلمي الكتاتيب، وأئمة الناس في المساجد، إذ بدأ يتوسط بين شيوخ القبائل المختلفة ورجال الدولة الوافدين من في المدينة، ويكاد يكون صاحب الرحلة العلمية مرجعا لسكان قريته وصاحبتها.

وذلك بفعل امتلاكه اللغة العربية التي هي مفتاح «العلم الديني»[3]. في مجتمع غالبيته غير معربة، وجدير بالإشارة إلى أن الذين، حصلوا على هذا العلم بالثقافة الكتابية، وامتلاك أسرار الكتابة والتوثيق، هم القلة القليلة التي تميزت بعلمها عن مجتمعها غير المعرب أو غير المالك للثقافة العربية[4] الفقهية منها خاصة أن الطلب عليها باستمرار تماشيا مع منطق الندرة، فالعالم الديني كان مطلوبا وهو السبب الذي أعطى له مكانة إجتماعية مرموقة على مستوى الريف[5] ويمكن هنا أن نميز بين شريحتين من الطلبة، فالطلبة المشار إليهم هم

---

[1] - إبراهيم القادري بوتشيش، الحياة الاجتماعية، ج2، ص625.

[2] - الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج1، ص106.

[3] - علي أومليل، السلطة الثقافية والسلطة السياسية، ص156.

[4] - عز الدين عمر موسى، الموحدون في المغرب الإسلامي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1991م، ص ص101-103.

[5] - المراكشي، المعجب، ص281.

طلبة العلم الذين انتقل بعضهم من الأرياف إلى المدن، وتعلموا بها ونالوا مكانة إجتماعية على مستوى قبائلهم، بل امتد الإعتبار الخاص الذي حازوه إلى آبائهم وإخوانهم.

بينما النوع الثاني من الطلبة الذين لا يقل دورهم ولا اعتبارهم عن النوع الأول هم الطلبة الذين انتموا وانظموا إلى جهاز الدولة الموحدية وشكلوا هيئة أخضعهم الخليفة عبد المؤمن لفترات تكوينية أصبح بمقتضاها الطلبة مظهرا من مظاهر الملك[1]، والراجح أن طلبة الدولة كانوا على درجات، فمنهم الأشياخ ومنهم العموم وتجدر الإشارة إلى أن طلبة التنظيم كان بعضهم من غير الموحدين بدليل قول المنصور الموحدي للفقهاء والشيوخ عندما شعر بامتعاضهم من السخاء والحظوة اللتين نالتهما الطلبة «يا معشر الموحدين أنتم قبائل فمن نابه منكم أمر فزع إلى قبيلته، وهؤلاء يعني – الطلبة – لا قبيل لهم إلاّ أنا، مهما نابهم أمر فأنا ملجؤهم وإليّ فزعهم...»[2].

وهذا يعني أن الطلبة كانوا من غير الموحدين بل كان بعضهم من مختلف القبائل التي لم تسرع إلى تقديم الولاء. وإنّ عبد المؤمن بن علي حاول منذ البداية أن يستوعب العلماء من غير الموحدين ليرفع من قدرة دولته في نفوس الناس وربط قبائل الريف بالمجتمع الحضري. وهكذا يمكن أن نستخلص مما سبق أن الطلبة العلماء أو الطلبة العلماء الإداريين كانوا منذ البداية وقبل تخرجهم مستشارين ومحكمين بين الأهالي سواء في أمورهم اليومية أو إبان نزاعاتهم[3].

---

[1] – إبن صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، ص453.

[2] – الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج1، ص51؛ – أحمد بابا التنبكتي وآخرين، أجوبة في شأن القوانين العرفية، ص236.
– محمد بن حسن، القبائل والأرياف المغربية في العصر الوسيط، دار الرباط، تونس 1986م، ص54.

[3] – عبد اللطيف الشاذلي، التصوف والمجتمع، ص122.

إلا أنه مع كل هذا وجب الإنتباه إلى أن سكان المجتمع الريفي اعتمدوا على الأعراف السائدة فيها[1] الأمر الذي كان ينقص فيما يظهر من مكانة وحظوة العلماء في المجتمعات القبيلة.

8 - مكانة الغرباء في مجتمع البادية المغربية:

إن القبيلة المغربية خلال العهد الموحدي فقدت الكثير من خصوصياتها لظهور الدولة واتساع نفوذها على معظم قبائل بلاد المغرب وقد تعرضت القبائل المناوئة للدولة إلى حملات ومداهمات، وملاحقات الشيء الذي أحدث خلخلة في المجتمع الريفي وتداخل سكان البادية بالهجرة، والإلتحاق، وبذلك دبّ انعدام المساواة في جسم القبيلة الواحدة

ومع ذلك فإن الغرباء الذين تركوا قبائلهم الأصلية لأسباب مختلفة والتجأوا إلى قبائل أخرى للإحتماء بها كانوا يعاملون بشيء من الدونية[2] كلما اقتضت الظروف اقتسام منافع مرعى أو ماء جماعي أو المشاركة في العمليات الحربية التي كانت تقوم بها القبيلة تبعا للعرف القبلي الذي كان يرفض أن يكون المقاتل من غير أفراد القبيلة.

لقد اتضح لنا مما سبق أن الفئات الإجتماعية في الريف المغربي لم تكن متساوية في الشأن الإجتماعي ولا الإعتباري القيمي داخل الوحدة القبلية القرابية الوهمية أو الحقيقية، سواء على المستوى الإقتصادي أو الإجتماعي أو على مستوى العلاقة مع الدولة الموحدية فقد كان بينهم من الصِّلات والروابط ما جعل كل طرف منهم سندا للطرف الآخر.

ولهذا نقول إن المجتمع الريفي خلال العهد الموحدي قد شهد نقلة واضحة نحو التحضر والتخلي جزئيا عن العصبية القبلية[3] وينطبق

---

[1] - إبراهيم القادري بوتشيش، الحياة الاجتماعية، ج2، ص 625.

[2] - عبد اللطيف الشاذلي، التصوف والمجتمع، ص 122.

[3] - إبن خلدون، العبر، ج6، القسم الأول، بيروت 1983م، ص ص 486-489.

هذا الوضع مع ما ذهب إليه ساطع الحصري حيث يكون النسب فيها أقل صراحة[1] وأن الحكم في غالب الأحيان يكون في العصبية العامة التي دعا إليها الموحدون[2].

خلاصة:

أظهر الفصل وجود التراتب السكاني في المجتمع الحضري والريفي لبلاد المغرب خلال عهد الموحدين، كما أفضت معرفة هذه التراتبية إلى أن المعايير الموصلة إلى طبقة الخاصة غير عامة بل كانت من تشكيل فتوي مؤطر بصفات يلتزم بها كل منتمي إلى تلك الفئة.

لم يقف الأمر عند حد تشكيل الفئات الإجتماعية المشكلة لطبقة الخاصة بل ذهب كل فريق ينسب نفسه إلى طبقة الخاصة لما فيها من امتيازات مع إقصاء الفئات الأخرى المشكلة لمكونات المجتمع الأخرى. أو الإعتراف بها على مضض وإنزالها إلى مستوى "العامة" وهكذا فالذي كان يعتبر من طبقة الخاصة حسب المفهوم الصوفي مثلا قد يصبح من "العامة"، في مفهوم آخر.

ويبدو واضحا أن الموحدين تفطنوا لهذه الظاهرة التي اعتبروها خطيرة منذ ظهور المهدي بن تومرت الذي دعا إلى التوحيد وعمل جاهدا على تجميع سكان بلاد المغرب في مذهب واحد. وانتزع صفات أهل التصوف حسب مواقعهم وأصبغها على نفسه وأصحابه ثم على الموحدين[3]. وكذلك فعل مع الأشراف حيث انتسب إلى آل الحسين وتبعه في ذلك أهل الجماعة[4].

---

[1] - بوزيان الدراجي، العصبية القبلية، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة الجزائر، 1988، ص142.

[2] - علي أومليل، السلطة الثقافية والسلطة السياسية، ص192.

[3] - مالبس المهدي بن تومرت سوى ثياب الصوف فوق قميص وسروال وجبة. ينظر: - إبن صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، ص440.

[4] - البيدق، المقتبس من كتاب الأنساب، ص ص17-18؛ - إبن صاحب الصلاة، السابق، ص 302؛ - إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص109.

بهذا السلوك الذكي حسب مبررات المتصوفة والأشراف الهادفة إلى تكوين فئات ضاغطة على التوجه السياسي العام للموحدين.

ومن جهة أخرى كانت الطبقة الوسطى أكثر تماسكا وتضامنا ظهر ذلك أثناء محاولات السلطة المساس بإدارة وترتيب الأوضاع داخل المدن الكبرى إذ وقف التجار والحرفيون في وجه غزو الموحدين لمدنهم مثل ما حدث أثناء فتح مكناسة الزيتون، وتلمسان ووهران[1]، سبب هذا التضامن يعود إلى سيطرة فئتي التجار والحرفيين على نسبة السكان في المدن، وإلى تضامنهم وارتباط مصالحهم.

أما على مستوى المجتمع الريفي فما زال المجتمع إلى غاية عهد الموحدين يقوم على أساس الجماعة القبلية المحددة بالروابط العصبية الحقيقية أو الوهمية، وأن أي تركيز للثروة لم يكن له أن يتحقق إلا على حساب بقية أعضاءه الأمر الذي يفسر المواقف المتشددة نحو النزوع إلى الثراء الشخصي.

[1] - حول مواقف التجار والحرفيين من التغيير في مدن بلاد المغرب. ينظر: - إبن غازي، الروض الهتون، ص 17.
- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص 104.

الفصل الثالث

الحياة العامة

لسكان بلاد المغرب

خلال الفترة

515هـ - 595هـ / 1120م - 1199م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تقـــــديم:

لقد عُرف عهد الموحدين خلال مرحلة توسّعهم بعهد الازدهار وقوة السلطان. لتمكنهم من توحيد بلاد المغرب سياسيا، وتوفير ظروف التّكامل الإقتصادي بين أقاليمه، وقد حاول نظام الحكم أن يتواصل مع المجتمع الحضري والريفي، عبر مجموعة من الآليات تعكس طبيعة ومستوى المعيشة التي كان أفراد المجتمع يعيشونها، فهل كانت هذه الآليات (مثل الاحتفالات الرّسمية، الدينية والفردية) تعبر عن حجم عظمة الدولة خلال عهد الإزدهار؟

ثم ما هي الرسائل التي كان الخلفاء الموحدون يريدون توجيهها عبر المواكب المختلفة التي كانوا ينظمونها أثناء توجيه حملاتهم العسكرية أو خلال إنتقال الخليفة من منطقة إلى أخرى؟ أو عندما يستقبلون نظراءهم من الدول المعاصرة لهم؟

هل الحياة اليومية التي كان يعيشها السّكان (صحتهم، لباسهم، أطعمتهم) تعبر فعلا عن تطور حضاري حقيقي بَلغهُ المجتمع المغربي خلال فترة الدراسة؟ هذه الأسئلة وغيرها هي محاور الفصل الذي يشمل المباحث:
المجالس – المواكب – الإحتفالات - وسائل التسلية - الأحوال الصحية – الأسرة – المرأة - لغة التخاطب – اللباس - الأطعمة والأشربة - الخلاصة.

* المجـالـس:

تعبر المجالس الـتي كـان الخلفـاء والأمـراء أو العلمـاء والفقهـاء يعقـدونها عن حِـرص الدولـة الموحديـة علـى التواصـل مـع النـاس بمختلـف فئـاتهم الاجتماعية، وقد وُجدت عدة أنواع من المجالس خلال عهد الموحدين.

1 - مجـالس الخلـفاء:

إنتـهج الـسادة وأمـراء الموحـدين أسـلوب الحـوار والمناقـشة مـع أصحاب الـرأي والمـسؤولين وَحرصـوا علـى عقـد الجلـسات المتنوعـة الـتي كانوا يشهدونها بأنفـسهم[1]، ويـشاركون فيهـا بـآرائهم، وقـد كثـرت هـذه المجالس في عهد الموحـدين، فقـد أشـار إبـن صـاحب الـصلاة، إلى أن الخليفـة يوسف بن عبد المؤمن كان يحضر تلـك المجـالس، بقولـه: "توجهـت إلى مجلـس الخليفة في داره حيـث وكُنـت - أي إبـن صـاحب الـصلاة - صـبيحة يـوم الأحد الذي وَصَلَتْ فيه هذه البـشرى الفاتحـة، وهـي إنتـصار الموحـدين علـى ابن مردنيش في الأندلس فوجدته جالـساً مـع طلبـة الحـضر، وأشـياخ القبائـل نتطلع الأخبار وقـد يَعُـد زمانهـا. وتوقـف الواصـلون بهـا[2]". وهـذا الخـبر يفيـد تعـود الخليفـة علـى الجلـوس في داره مـع طلبـة الحـضر ونفـر مـن العلماء وأشياخ القبائل.

وكانت هذه المجالس تـضم العلمـاء والأدبـاء ورجـالات الدولـة، ومـن هؤلاء الذين ضمتهم مجالس الموحدين في عهد الخليفـة يوسـف بـن عبـد المـؤمن، الحـافظ أبـو بكـر بـن الجـد والفقيـه القاضـي أبـو عبـد الله بـن الـصقر (ت. 589هـ / 1195م) وغـير هـؤلاء مـن العلمـاء[3] أمّـا في عـصر المنـصور الموحدي فكان أبو الحجاج المفسر وعبد الله بن سليمان بن حوط (586هـ / 1190م)،

---

1 - إبن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص 457.

2 - إبن صاحب الصلاة، المن الإمامة، ص 275.

3 - إبن أبي زرع، الأنيس، ج2، ص 181.

- الناصري، الإستقصا ، ج2، ص 202.

وابن زهر الأديب الطبيب وإبن رشد[1]، والقاضي الشّقَنْدي (ت. 584هـ / 1190م)، الذي كان مُتَبَحّراً في العلوم[2] وبجانب هؤلاء العلماء كان هناك طلبة المصامدة الذين كانوا يشهدون كل مجالس الخلفاء، ويضيف المراكشي هو الآخر "وصنفٌ آخر ممن عَني بالعلم من المصامدة يسمون طلبة الموحدين ولا بدّ في كُلّ مجلس عام أو خاص يجلسه الخليفة إلاّ وحضره هؤلاء الطلبة وخاصة الأشياخ منهم[3]".

وكان لهذه المجالس في عهد الموحدين نظام خاص يُتّبع، حيث كان الخليفة يتصدر المجلس وبجانبه خطيب الجماعة، ثم قاضيها بمراكش، فرئيس الأطباء، فأكبر علماء الحضرة فباقي الحاضرين على إختلاف قرابتهم[4]، ثم تُدار المناقشة حول مسألة علمية يلقيها الخليفة بنفسه أو أحد الحاضرين بعد إستئذانه، ويناقش الحاضرون المسألة، ثم تختم الجلسة بالدّعاء للخليفة[5].

ومن الموضوعات العلمية التي كانت تعرض في المجالس العلمية، الموطأ الذي ألفه إبن تومرت حيث عرضه أبو يعقوب يوسف بن وَانودين (ت. 589هـ / 1195م) في أحد مجالس الخليفة عبد المؤمن في جمع من أشياخ الموحدين[6]، وبجانب هذه المجالس العلمية التي كان يشهدها الخلفاء، كانت هناك المجالس التي يتبادلون فيها الحديث عن قضايا تهم الدولة.

---

1 - ملين، عصر المنصور الموحدي، ص 164.

2 - إبن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ص 213.

3 - المراكشي، المعجب، ص 342.

4 - إبن صبيعة، عيون الأنباء، ص 529؛ - المنوني، العلوم والفنون، ص ص 39-40.

5 - المراكشي، السابق، ص 342.

6 - إبن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص ص47-48.

وقد احتلت أحوال البلاد الأندلسية حيزاً كبيراً من مجالس خلفاء الموحدين وذلك لما يجري على أرضها من أحداث سياسية واجتماعية[1]، وفي ذلك يقول عبد المؤمن بن علي "إنّ أرض الأندلس تستحق منا كل غال ونفيس"[2] ونظراً لأهمية الأحداث التي تجري على الساحة الأندلسية، ورغبة في إطلاع المسلمين على التضحيات التي قدّمها أبطال مسلمون من البربر والعرب، فقد أراد عبد المؤمن تكريم هؤلاء الأبطال، والإحتفاظ بهذه الإنتصارات في ذاكرة الأجيال ولهذا قرر إدخال البعض من هؤلاء إلى مجالسه بل إلى مجلسه العالي بالإضافة إلى أشياخ الجند فكان ذلك[3].

وفي بعض الأحيان كانت المشاكل اليومية التي يواجهها الناس تُثار في مجلس الخليفة ومن الأمثلة على ذلك أن يحي بن العزيز (ت. 601هـ / 1206م) الذي كان أميرا على بجاية قد شارك عبد المؤمن بن علي مجلسه يوما حين أحضره معه إلى مراكش أثناء إستلائه، على المدينة. وعندما ذكر الحاضرون مسألة نقص الصّرف، شاركهم يحي بن العزيز في ذلك، وأكد مُعَانَاته أثناء حكمه من هذا النقص وأنّ خدمه لا يجدون العُملات الصغيرة متوفرة، فلما سمع الخليفة ذلك أمر بتحقيق مطلبهم[4].

2 - مجالس الوعظ:

مَجالس الوعظ هي نوع آخر من المجالس التّي عرفها المجتمع المغربي خلال عهد الموحدين، وهي مجالس يتولى الحديثَ فيها العلماءُ والصلحاءُ. حيث يعظون الناس ويرشدونهم، ويتجلّى ذلك في طريقة

---

[1] - المراكشي، المعجب ، ص 346.

[2] - إبن القطان، نظم الجمان، ص 139.

[3] - لقد أكرم عبد المؤمن بن علي كل من إبن زيدون وإبن تُورزجين بمبلغ مالي قدره خمسمائة دينار لكونهما يحتفظان بتفاصيل وقعة أقليش الشهيرة التي انتصر فيها الموحدون.ينظر: - إبن القطان، السابق، ص 139.

[4] - المراكشي، السابق ، ص 207.

إبن تومرت (ت. 524هـ / 1130م) أثناء جمعه للأتباع حيث كان يجلس إلى الناس وَيعظهم وَيعلمهم أمورَ دينهم[1] ويُبْطل المفاهيم الأخرى التي اكتسبها عامة الناس وخاصتهم وكثيرا ما كان يفتح المجال في مثل هذه المجالس للحوار وقد يصل الأمر إلى المناظرة[2]. وهو ما يُسمى بالتّعليم الشعبي حيث يتعلمون أمور دينهم ودنياهم .

وكان بعض القضاة والفقهاء يتخذون من الأسواق والطرقات مكانا لعقد هذه الجلسات لتقديم المواعظ للناس ومن الأمثلة على ذلك ما كان يقوم به الفقيه أبو العباس السّبتي المراكشي المتوفى سنة (601هـ / 1206م) حيث كان يجلس في بعض الأماكن من الأسواق والطرقات فيحضّ الناس على الخير[3].

وبعض الدعاة والفقهاء كانوا يحددون أياما في الأسبوع لمجالس وَعْظِيّة كالعالم محمد بن أحمد بن محمد اللّخمي (ت. 575هـ / 1181م) الذي كان يقيم بمراكش وله مجالس وعظ يَوْمَي الاثنين والخميس من كل أسبوع[4] وممن اشتهر بالحديث في مجالس الوعظ أبو قَدّين المتصوف والمتوفى سنة (594هـ / 1197م) حيث كان الناس يقصدونه من كل مكان[5].

3 - مجالس خاصة:

وهي تلك المجالس التي كان يعقدها الأمراء وأكابر رجال الدولة في قصورهم ومنتدياتهم ويحضرها الأدباء والشعراء وبذلك يوفرون الإحتكاك المباشر بين الخاصة من فئات المجتمع الحضري المركزي وكذلك على مستوى المدن الكبرى ببلاد المغرب .

---

[1] - عباس المراكشي، الأعلام ج1، ص 246.

[2] - البيدق، أخبار المهدي، ص 19.

[3] - المراكشي، المعجب، ص 207؛ - إبن القطان، نظم الجمان، ص 94.

[4] - عباس المراكشي، الأعلام، ج3، ص 87

[5] - أبو العباس التادلي، المُعْزي في أخبار أبي يعزي، دراسة وتحقيق علي الجاوي، ص 73.

وكان إقبال العلماء والشعراء شديداً حيث يتم اللقاء والتقرب من الأمراء في المدن المغربية كمراكش، فاس، تلمسان، بجاية، وسائر المدن الأخرى. وخاصة أن الولاّة كانوا يتنقلون بين مدن المغرب وتَصْحَبُهم في ذلك حاشية الأمير[1] وبجانب هذه المجالس، كانت هناك المجالس الفقهية التي يعقدها العلماء في المدن المغربية والغرض منها المناظرة والبحث والدراسة[2] ومن المجالس الأدبية التي كانت تعقد في العاصمة مراكش. مجلس الطبيبة سارة الفاسية (ت. 549هـ / 1154م) حيث كان يحضره الأطباء، الشعراء، الأدباء والقضاة[3].

وقد اشترك أمراء الموحدين في مجالس ولاياتهم ، حيث كانت تعقد تحت إشرافهم ويشاركون فيها بالمناقشة والحوار، ومن ذلك المجلس الذي كان يعقده أبو يحي بن أبي زكريا الموحدي أمير سبتة (ت. 600هـ / 1207م) ويحضره العلماء ومنهم أبو الوليد إسماعيل بن محمد المعروف بالشقندي (ت. 589هـ / 1195م).وأبو يحي بن المعلم الطنجي (ت. 595هـ / 1203م)[4].

و لم تكن هذه المجالس خاصة بفن مُعين بل كانت متنوّعة، لكل فن مَجْلِسُهُ فهناك مجلس للمذاكرة الأدبية، وآخر فقهي، وآخر لغوي[5]. ولهذه المجالس تقاليد تعمل وفقَهَا، حيث تُفتتح بإلقاء مسألة علمية[6]، وكان ترتيب الجلوس ضروريا يجب إحترامه. والإلتزام بالجدية والمحافظة على الآداب العامة ومن الأمثلة على ذلك ما حَصَل للأديب أبي بكر محمد بن عبد ميمون العبدري القرطبي (ت. 567هـ / 1162م) عندما أنشد يوماً

---

1 - إبن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص57.

2 - المنوني، العلوم والفنون، ص 101.

3 - الناصري، الإستصقا، ج2، ص 202.

4 - المنوني، السابق، ص 101.

5 - إبن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، ج2، ص ص 78-81.

6 - المراكشي، المعجب، ص 74.

أبيَاتًا قالها يتغزل في شاب من أهل أغمات فكان ذلك سببًا في إبعاده من المجلس وهجْرة عبد المؤمن بن علي له[1].

وكذلك الشأن بالنسبة للشيخ أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الهري المشتهر بالأصولي (ت. 614هـ / 1219م) عندما أساء إحترام المجلس أثناء حضور الخليفة المنصور الموحدي[2].

*** المواكب:**

تعد المواكب مظهرا من المظاهر التي تعكسُ الثقافة السائدة في مجتمع ما خلال فترة من فتراته التاريخية وقد عرفت بلاد المغرب هذه المظاهر منذ زمن قديم ثم تطورت حسب الأنظمة التي تعاقبت على حكمها.

1 - مواكب الخلفاء :

إذا كانت المصادر التاريخية قد أحجمت عن التوسع في ذكر النظام الذي اتخذه المرابطون في مواكبهم المختلفة من حيث الخروج للأعياد أو السفر أو غيرها فإن ذلك كما يرى الدكتور " حسن علي حسن"[3] يعود إلى ميل المرابطين للبساطة وبعدهم عن كل مظاهر الفخامة، مع طمس الموحدين لأخبارهم، أما بالنسبة إلى مواكب الموحدين فقد أرسى المهدي إبن تومرت أسُسَها وعلَّمهم طريقة وكيفية إعدادها وتنفيذها، ففي ذلك يقول ابن القطان: "وعلّم- أي ابن تومرت – الناس الحركة كيف تكون، فأمرهم إذا عزموا على الركوب أن ينادي منادي "الإستخارة بالله عزّ وجلّ والتوكل عليه" وإذا تحركوا قدموا أمامهم رايةً بيضاء مع عدد من الرجالة، بحيث يكون بينهم وبين الأمير مقدار ربع ميل، ويكون الأمير متقدما على الناس

---

[1] - المراكشي، المعجب، ص 62.

[2] - إبن الخطيب، أعلام البلاء، ج3، ص 183.

[3] - حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين الموحدين مكتبة الخانجي مصر، ط1، 1980م، ص 422

خلف اللواء المذكور في جملة ممن يختص به ثم تتبعه الرايات الكبرى والطبول والعسكر المعروفة بالسّاقة، ثم شيخ كُلّ قبيل على ترتيب وحسن هيئة معه علاماته"[1] وللموحدين عدة مواكب.

2 - مواكب سفر الخلفاء:

كانت عادات الخلفاء الموحدين عند السفر أن يرسلوا الكتب إلى البلاد لِيَحضُر من كل فَنّ أهله وخصوصاً أهل علم النّظر ويسمّونهم " طلبة الحضر" وكذلك" طلبة الموحدين" وأثناء كل موكب للخليفة عام أو خاص يَفتح الخليفة مراسيم السفر بكلمة يلقيها بنفسه أو تُلقى بإذنه ويشرع في السفر، حيث يدعو الخليفة ويؤمّن الوزير جهراً ويسمع بعد ذلك من الناس، ثم إذا سَافَرَ يُقرأ القرآن بين أيديهم بالغدوّ والعشيّ وهم راكبون، فإذا نزلوا فأول شيء يصنعونه بعد صلاة الفجر أن يخرج من ينادي " الإستعانة بالله والتوكّل عليه" فيركب الناس ويخرج الخليفة من خيمته راكبا وأعيان القرابة، وأشياخ الموحدين بين يديه يمشون بخطوات كبيرة ثم يأمرهم بالركوب فإذا ركبوا وقف وَبسط يديه ودعا، فإذا ما انتهى من الدعاء، افتتح طلبة الموحدين خلفه قراءة جزء من القرآن وهم سائرين سيراً خفيفاً، فشيئا من الحديث ثم يقرؤون بعض مؤلفات" إبن تومرت" في العقائد باللسان البربري وباللسان العربي[2] فإذا مَا فرغوا وقف الخليفة أيضا وبسط يديه ودعَا، وإذا كان وقت النزول نزلوا مشاة بين يديه إلى خيمته، حتى إذا بلغها بسط يديه ودَعَا، وتلك عادتهم في كل سفر[3] وكانت هذه المواكب الخليفية تدق فيها الطبول

---

[1] - إبن القطان، نظم الجمان، ص 127.

[2] - المراكشي، المعجب، ص ص 426-427.
- الناصري، الإستقصا ،ج2، ص 146.

[3] - المراكشي، السابق، ص ص 426-427.

وترفع البنود وهذا يقتصر عليهم دون غيرهم، وكانت المسيرة التي تتبع الخليفة تسمى "الساقة"[1].

ولقد كان الخليفة إذا أخذ البيعةَ لنفسه أو لولي عهده، أوْلَمَ هذا بحفل عظيم تُوزّع فيه الأموال، ويصدر العفو عن المسجونين، ويصاحب ذلك الفرحة والسرور في أنحاء البلاد وترسل الكتب بتلك البيعة إلى كافة الأقطار، فتأتي الوفود مبايعة[2] ويتبارى الشعراء في التهنئة بتلك البيعة[3]. وَعندما كان يصدر الأمر بتولّى أحد الأمراء ولاية احدى البلدان، كان يخرج من الحاضرة مراكش في موكب متجها إلى ولايته وَحَوْلَهُ رايتان لمجلسه وحفاظ من أبناء أهل الخمسين من الموحدين ، وعسكر من العرب وطبول أربع يضربها أربعة فرسان إعلاناً برفعته، وعندما يصل مَوكبُه يخرج إليه حفاظ ولايته الجديدة وجنودها وأشياخها وأهلها وَيُظهرون سرورَهم بقدومه. وتتدافع الخيل أمامه حتى يدخل القصر[4].

وعندما يستقبل الأخ أخاه الأمير، كان يتم ذلك في موكب واحتفال فخم، فقد احتفل الخليفة "يوسف بن عبد المؤمن " بمقدم أخيه السيد " أبي حفص" في مراكش عام (561هـ / 1166م)، حيث كسَا العبيد بالثياب الملوّنة، وصفف الفرسان، بكامل أسلحتهم من الموحدين وغيرهم وجعل الرايات والعلامات خلف ركّابه، والطّبالين مع خاصة أصحابه وهو راكب على جواده العتيق ووزيره" أبو العلاء إدريس بن جامع "راجلا يمشي بجانبه، محدثا له ويأمر بالأوامر وعلى عاتق

---

[1] - إبن خلدون، المقدمة، ص ص 459-460.

[2] - إبن الأثير، الكامل، ج9، ص 50؛ - الناصري، الإستقصا، ج2، ص 146.

[3] - قال أبو عمر بن حربون في بيعة عبد المؤمن بن علي:

هِيَ اَلْبَيْعَةُ اَلْغَرَّاءُ جَاءَتْ يَقُودُهَا :. إِلَيْكَ مِنْ اَلأَمْرِ اَلسَّمَاوِيِّ قَائِدُ (البحر الطويل).

- إبن صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، ص ص 103-105.

[4] - عندما تمت بيعة المنصور كان أول شيء فعله أن أخرج مائة ألف دينار ذهباً من بيت المال فرقها على الضعفاء من بيوتات بلاد المغرب. ينظر: - إبن أبي الزرع، القرطاس، ص 137؛ - إبن صاحب الصلاة، السابق، ص ص 293-295.

أمير المؤمنين رمح طويل، فلما التقت عساكر الأخوين) بدأت العروض، فأخذت الفرسان تجري وتلعب في تشكيلات حربية وتبدى الدفاع والهجوم، والطبل تدق وذلك من مطلع النهار إلى آذان الظهر، وقد أظهر الخليفة نفسه بعض فنونه في الفروسية ثم نزل عن فرسه وكذلك الأمير الواصل، والتقيا وتصافحا، كما سلم الناس على بعضهم البعض ثم ركبوا وعادوا إلى أماكنهم، ودخل الأمير القصرَ في حفل عظيم، حيث تمّ تقديم أنواع كثيرة من الطعام والشراب للضيوف القادمين، واستمر ذلك بنفس الحماس والإبتهاج مدة خمسة عشر يومًا ثمَّ فيها الإنعام بالكساء حسب مستويات الناس[1].

مواكب الاستقبال:

لما أقام عبد المؤمن بن علي بالمهدية، بعدما تمكن من طرد النورمان منها سنة (555هـ / 1161م). وعَيّن عليها محمد بن فرج الكومي (ت. 565هـ / 1171م) وقدم إلى المدينة شيخ مدينة صفاقس عمر بن أبي الحسن الغرياني مُبايعا ومهنئا الخليفة عبد المؤمن، خصّه باستقبال رائع، حيث إصطف الناس والأجناد على حَافتي الطريق المؤدي إلى دار الضيافة. وأثناء إقترابه من الدار، خرج الخليفة عبد المؤمن وَمَعه حاشيته فأستقبله وَسَار بجانبه والحرس يرفع السيوف والرايات، مع دق الطبول إلى أن دخل دار الضيافة حيث تمّ تقديم البيعة والتهاني، ونَال الهدايا والإكراميات وتمثلت في أحْصِنَة وَمَال وكسوة[2].

3 - مواكب الحرب:

أما مواكب الحرب واستعراض الجيش فكانت تتم بَعد تجهيز الجيش واستعداده للمعارك حيث يخرج على رأس الجيش الخليفة أو أحد قواده ،يستعرض الموكب أثناء تنظيم صفوفه وفي هذا الصّدد يقول

[1] - إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ص 289-292.

[2] - الزركشي، تاريخ الدولتين،ط 1، مطبع الدولة التونسية، تونس 1972م، ص ص 8-9.

ابن الخطيب : "يقوم "عبد المؤمن بن علي" بتنظيم موكب جيشه، حيث يكون في القلب مع الأمير وجوه الموحدين وأصحاب الطاعات وعليه البنود الباسقات مكتتبة بالآيات القرآنية ، وفي السّاقة كبار الدولة من أبطال الأندلس عليهم حمر الرايات بالصّور الهائلة وفي الجناحين أهل الثغر والأرياف من أهل الجلادة عليهم الرايات المرقعات بالعذبات المجزعات، وفي المقدمة مشاهير زناتة ولفيف الحشم بالريات المصفات والأعلام المنبقات"[1] وكانت البنود البيض تأتي في المقدمة شعاراتهم تُتخذ من الجواهر والأحجار الكريمة[2]، وكل قبيلة لها رايتها - واللواء الأبيض عليه بعض الكتابات، ففي معركة قفصة بأفريقية كان اللواء الأبيض" للمنصور" الموحدي مكتوب عليه "لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله لا غالب إلا الله"[3] ويصاحب ذلك ضرب هائل للطبول الضخمة المدوية والملونة بلون الموحدين الأخضر والمحلاة بالذهب[4]، وَبَدأ العرض العام للجيش الموحدي بذرية أبي حفص عمر الصنهاجي بمختلف طبقاتهم، ويأتي بعدهم فرسان الخليفة من "بني عبد المؤمن ثم أهل الجماعة على ترتيب طبقاتهم، ثم أهل خمسين ثم القبائل وأول القبائل عرضاً قبيلة هرغة وهي قبيلة" إبن تومرت" ثم بعدها أهل تينملل ثم كومية ثم الموحدون بعد هذا على طبقاتهم في سرعة الهجرة وبطئها[5].

ومتى عاد الجيش من معركته، يُحسن استقباله والأحتفال به في موكب عظيم، فعندما عاد عبد المؤمن بن على من افريقية (555هـ / 1160م) منتصرا ومعه آلاف من السّبي تلقاه، الموحدون في رباط الفتح

---

[1] - إبن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص 139 .

[2] - إبن صاحب الصلاة، المن، ص ص 438-440.

[3] - إبن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ص 149-150.

[4] - إبن أبي زرع، نفسه ص 149؛ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج20، ص 374.

[5] - المراكشي، المعجب، ص 426.

في زي عظيم وفرح شديد[1]، وفي صفر (555هـ / 1160م إحتفل الناس بإشبيلية ببشائر نصر" عبد المؤمن بن علي" بالمهدية، إحتفلوا بالدعاء وانشاد الشعر وقرع الطبول وإطعام كافة الناس من الجند مدة ثلاثين يوما[2]. وسارع الشعراء لإلقاء قصائدهم مهنئين بالنصر ومشيدين بالفتح[3].

وكان يحضر هذه الإحتفالات كبار التجّار، ورجال الجاه والسلطان، وكبار العلماء[4] وفي مثل هذه الإحتفالات يخرج الخاصة والعامة، الصغير والكبير، وتدق الطبول وترفرف الرايات ويهلل الجميع وحتى النساء ويرفعون أصواتهن بالفرح مع تقديم الهدايا[5].

وكانت هناك مواكب متواضعة تخص الوفود والأفراد، تكبر وتصغر حسب قيمة كل منها لا رايات فيها ولا طبول، فقد خرج وفد من أهل المغرب الأقصى في موكب نحو تسلا لإطلاع الخليفة، على أحوال بلادهم عام (545هـ / 1150م) وكان الوفد يتكوّن من حوالي خمسمائة من الفقهاء والقضاة والخطباء والأشياخ والقواد، فإستقبلهم الوزراء وأشياخ الموحدين على نحو ميلين من مدينة تيسالو أنزلوهم وَضّيوفهم ثم أُدخلوا على أمير المؤمنين" عبد المؤمن" في محرم (546هـ / 1151م)، فإحسن أستقبالهم ووصل كل منهم على قدره ثم صرفهم إلى بلادهم[6].

ومثل هذه الوفود كانت تأتي من جميع المدن والقرى لمبايعة الخليفة والتهنئة وعرض أحوال البلاد، فقد هلّت وفود أفريقية على جبل الفتح في مشهد عظيم، فسلمت وبايعت الخليفة الموحدي" عبد المؤمن بن علي"

---

[1] - إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ص 125-126.

[2] - السابق، ص ص 125-126.

[3] - نفسه، ص 255.

قال أبو عمر بن حربون يمدحُ والي اشبيلية الموحدي أبا محمد عبد الله بن أبي حفص:

يَا مَنْ رَأَىَ اَلْفُلْكَ فَوْقَ المَوْجِ خَافِيَةً :. كَمَا نَفَاتٌ قَبَابًا وَسْطُهَا العَمَدُ (البحر الوسيط).

[4] - إبن الخطيب، مشاهد لسان الدين، ص 43.

[5] - إبن صاحب الصلاة، السابق ، ص ص 513-514.

[6] - إبن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 135؛ - الناصري، الإستقصا ،ج2، ص 119.

وألقيت خطب التهنئة، وانشد الشعراء ومنح الجميع الجوائز والدنانير كما نالوا البركة في هذا اليوم من ذي (القعدة 555هـ / نوفمبر1160م) الذي ذكره " ابن صاحب الصلاة بأنه كان "يوما مذكوراً ومشهوداً " ظهر فيه من فخامة الملك والأمراء ما لم يتقدم في سالف الأزمان ولا يتخيل مرآه في الأذهان[1].

مواكب الأفراد:

كانت تظهر فيها مكانة الأفراد حيث كان إذا خرج بعض الخاصة في رحلة أو انتقلوا إلى جهة ما يحضرّ لهم في موكب يتناسب معَ مكانة الفرد وقيمته لاً رايات فيها ولا طبول حيث يأخذ معه الأقبية والأحبية والبغال وَيحمّلها بالثياب والفرش والمال حتى تظهر العزة عليه[2].

ومثل هؤلاء الخاصة كانت لهم حفلاتهم التي تقتصر على الأصحاب والخلان، يتناولون الطعام والشراب، كما يتبادلون الشعر ومستظرف القول[3].

4 - موكب الحج:

يستعد الحجاج بجمع ما يحتاجونه أثناء تَوَجُههِمَ إلى البقاع المقدسة في منازلهم، ثُمَّ يَنتظمون بإشراف شيوخ القبائل، وأمراء المدن التي يقيمون بها مشكلين قافلتهم المحلية وبعد هذا الترتيب الجزئي تتحرك القوافل نحو نقطة الإنطلاق التي عادة ما تكون مدينة كبيرة أين تجد الخليفة في إنتظار تجمعها، أو الوالي إن كانت على مستوى الجهات. وقد أعدوا عُدتهم من الإبل، الطعام، السكر والفواكه اليابسة، وتخصص لهم الدولة الموحدية فرقة من الجند لحراستهم، وبَعد اجتماع الحجاج في النقاط المتعارف عليها وعادة ما تكون قريبة من الطريق العام الذي تسلكه القافلة، تُنصب

[1] - إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 147.
[2] - إبن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص 245.
[3] - إبن خاقان، قلائد العقيان، ص 217.

في مقدمة هذا الموكب هَوادج تعلوها قِباب مُزينة بالديباج المطرز بالذهب يقيم في أحدها أمير الحجاج[1]، وبعد أن يأخذ المودعون أمكنتهم المخصصة، يتصدرهم الخليفة محاطا بصاحب الخطط الدينية المعروف عند الموحدين بصاحب الصلاة، ثم الفقهاء والعلماء، يليهم صَفّان من المتصوفة، ثم أصحاب النّسب المنتمين إلى العائلات الشريفة المنتهى نسبها إلى ذرية الخليفة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وكثيرا ما كانت هذه الصّفة تنحصر في المجالس التي شكّلها المهدي بن تومرت مثل أهل العشرة أو الدار، وأهل الخمسين. وذلك إقتداء بالمهدي نفسه الذي انتسب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه على أن تكون. الهوادج في مقدمة القافلة[2]، وتحيط بها فرق من الجند تسير وراءها، مع فرقة أخرى تسير أمامها والأعلام ترفرف، وبعد إتمام مراسم الوداع تنطلق القافلة من مراكش بعد ما تكون قافلتي المغرب الأوسط والأدنى قد أتمت كل منها استعدادها وهكذا تعبر قافلة الحج المنطقة من مراكش إلى بلاد المغرب الأوسط لتلتقي مع تلك التي تتحرك من المغرب الأوسط لتصل إلى تلمسان فمليانة بالجزائر حيث تستريح لتنطلق منها نحو بجاية[3] متجهة بعد ذلك إلى قسنطينة أين يلتقي حُجاج الشمال الشرقي لبلاد المغرب ليواصل موكب الحج سيْره نحو بُونة (عنابة) وهي آخر مدينة من بلاد المغرب الأوسط، فتعبر القافلة بعد ذلك قاصدة تونس ومنها نحو سوسة المدينة الساحلية وتواصل القافلة سَيرها عن طريق الساحل حتى تصل إلى

---

[1] - ينظر أمير الحج في عدة أشياء، أحدها جمع الناس في مسيرهم ونزولهم، حتى لا يتفرقوا، والثاني ترتيبهم في المسير والنزول وإعطاء كل طائفة منهم مقاداً حتى يعرف كل طريق منهم مقاده إذا سار ويألف مكانه إذا نزل، ووظيفته الثانية أن يرفق بهم في السّير حتى لا يعجز عنهم ضعيفهم ولا يضل عنه منقطعهم، وأن يسلك بهم أوضح الطرق وأخصبها، وأن يجلب لهم المياه إذا انقطعت والمراعي إذا قلت، وأن يحرسهم إذا نزلوا ويحوطهم إذا رحلوا وأن يمنع عنهم من يصدهم عن المسير ويدفع عنهم من يحصرهم عن الحج، بقتال إن قدر عليه وأن يبذل مالاً إن إحتاج الحجيج إليه، وأن يصلح بين المتشاحرين السابقين ويتوسط بين المتنازعين وأن يُقَوّم زائغهم ويؤدب جانيهم ولا يتجاوز التعزير إلى الحد. ينظر: - الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ص 103-105.

[2] - إبن جبير، رحلته، دار بيروت للطباعة والنشر، (1399هـ/1979م)، ص ص 121-125.

[3] - عادة ما تكون الإبل والبغال والدواب هي الوسائل المستعملة في تنقل قافلة الحج. ينظر: - إبن جبير، الرحلة، ص 57.

صفاقص لتنحدر بعد ذلك نحو قابس ومنها إلى طرابلس ثم الأسكندرية، وتشمل القافلة على ثلاثمائة خيمة تضم الواحدة منها خمسة أفراد[1]، ويشير الرحالة التجاني في رحلته إلى أن فريضة الحج في الإسلام كانت من أعظم بواعث السّفر، ففي كل عَام يسافر آلاف من المغاربة إلى الحجاز للقيام بهذه الفريضة[2]، وبعد أداء فريضة الحج كان الكثير من الحجاج يقصدون المقامات المباركة بالمشرق كالمسجد الأقصى بالقدس، ويتوقفون بمصر حيث جامع عمرو بن العاص بالفسطاط والجامع الأزهر والمسجد الحسيني ثم يقطعون محطة برقة إلى طرابلس. ثم إلى تونس ومنها ينتهون إلى قُراهم الأصلية بالمغرب الأوسط، بينما حجاج المغرب الأقصى يواصلون سيرهم إلى تنس[3] فشرشال[4] ثم فَمُستغانم، ومنها يستمرون في سيرهم إلى تازا ثم فاس[5] وتجدر الإشارة إلى أن السّلطة تخصص للقافل حُراساً أقوياء ومحاربين مع تنويع إنتماءاتهم القبلية حتى يكثر أنصارهم ويصعب الأعتداء عليها كما توفّر أدلاّء أوفياء عارفين بمسالك الطّرق، ومواطن العِصابات. وهناك طريقان رئيسيان للقوافل واحد ساحلي وآخر صحراوي يمر بالمراكز الكبرى لتجميع الحجيج مثل سجلماسة، وَوَرجلا وزويلة[6].

ومع ذلك فإن الحجاج المغاربة كانوا يتعرضون إلى مضايقات كثيرة بعد خروجهم من بلاد المغرب يقول إبن جُبير في ذلك:"لقد صيّر

---

1 - إبن بطوطة، رحلة إبن بطوطة، المسماة تحفة الناظر في غرائب الأمصار، شرح وكتب الهوامش طلال حرب، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان (1413هـ/1992م).

2 - التجاني، رحلة التجاني، قدّم حسن حسني عبد الوهاب، الطبعة الرسمية، تونس (1377هـ/1958م) ص ص 3-5.

3 - تنّس: مدينة على مقربة من ضفة البحر الأبيض قريبة من مدينة مليانة، بنها البحريون من أهل الأندلس. ينظر:
- البكري ، المغرب، ص 312؛ - إبن حوقل، صورة الأرض، ص 78.

4 - شرشال، مدينة قديمة أزلية فيها قرسى، قريبة من تنس، إبن حوقل، السابق نفس الصفحة.

5 - إبن بطوطة، السابق، ص ص 31-34.

6 - تقع مدينة زويلة في مفترق الطرق المتجهة إلى مصر وإلى القرن الأفريقي من جهة ثانية. ينظر:
- الإصطخري، المسالك والممالك، تح محمد جابر عبد العال، دار القلم، القاهرة 1961م.

سكان الحجاز الحجاجَ من أعظم غلاتهم، يستغلونهم وينهبونهم نهبا وَيَسْلبون ما بأيديهم سلبا"[1]. ثم يضيف قائلا:"فالحاج عندهم لا يزال في غرامة ومؤونة إلى أن يُيَسّر الله رجوعه إلى وطنه"[2].

وتتجسد المضايقات في عدد المكوس وحجم مبالغها عند عبور المحطات المخصصة لإعتراض قوافل الحجاج لدرجة أن تجار المسلمين المرافقين للقافلة يشعرون كأنهم أهل ذمة لديهم، لأنهم ويجلبون أموالهم بكل حِيلة وَسبب[3]، وجدير بالإشارة إلى أن فقهاء الأندلس أفتوا بإسقاط هذه الفريضة. اعتقادا منهم بأن راكب هذا السبيل هو راكب خطر[4] وأن الموحدين في بلاد المغرب هم وحدهم القادرين على رفع هذا الحيف وتلك البدع المجحفة من المسلمين ببلاد الحجاز.

ويظهر أن الموحدين وفروا الظّروف المناسبة لقوافل الحج من أمن، ومؤونة وحراسة، زيادة على عقد مجالس وعْضية وتعليمية للمسافرين. ولذلك نرى إبن جبير يعقد مقارنة بين أهل الحجاز وأهل المغرب فيقول: "الموحدون غائرون على محارم الدين، جادين في إعلاء كلمته" ويذهب بعيداً عندما يقرر فيقول:" لا إسلام إلاّ ببلاد المغرب، لأنّهم على جادة واضحة، وسِواهم فهم أهواء وبدع"[5] وقد وصل الأمر ببعض الحجاج إلى أن يشتري عبيداً لحراسته وخدمته ثم يبيعونهم في مدينة زويلة أثناء الرجوع[6].

---

1 - رحلة إبن جبير، ص ص 119-121.

2 - السابق، نفس الصفحة.

3 - أثناء مرور قوافل الحجاج وتوقفها قد تعقد مبادلات تجارية، أو حوادث وفاة وعقود الزواج، (قران)- وكل ذلك يحتاج إلى مشورة أهل المنطقة، فيقع الابتزاز. ينظر: - إبن بطوطة، الرحلة، ص 34.

4 - يحيى بو عزيز، طريق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء - مقال بمجلة المنظمة العربية للتربية والثقافة. ينظر:
- بغداد (1404هـ / 1984م)، ص ص 131-139.

5 - إبن جبير، السابق، نفس الصفحة.

6 - الإصطخري، المسالك والممالك، ص 35.

5 - موكب الجنائز:

عندما تنتهي عملية التجهيز يَصيرُ الميت مُعدا ليحمل إلى قبره، يُرافقه مشيعون ينطلقون من منزله في موكب جليل نحو المقبرة. وقد عرف هذا الموكب تطورات وتغيرات خلال فترات التاريخ المغربي القديم والوسيط، في تركيبته البشرية، وتصرفات وأقوال الحضور تعكس تلك التطورات الذهنية والإجتماعية.

يتم الإعلان عن موت المحتضر بطريقة مباشرة وعفوية النّواح الذي يَعلو مُباشرة بعد موته إضافة إلى ترتيب مُنَظّم يتم على إثره إرسال المبعوثين. أو النداء من صوامع المساجد وفي الأسواق. ويبدو أن أهل المغرب كانوا حريصين على تبليغ الناس بخبر الوفاة وتحديد موعد الدفن والموكب الجنائزي. فقد شاع الإعلان عن الجنازة في المساجد والأسواق والطرقات، رغم معارضة الفقهاء لذلك، حيث أباحوه فقط على أبواب المساجد[1] فقد صادف خروج الخليفة أبي يعقوب من قصره في مراكش عام (579هـ / 1183م) رجلاً ينادي للصلاة على غريب[2] توفي لتوّه،الأمر الذي يدل على أن هذا التقليد كان سائداً في المدينة وهو الإعلان عن الجنائز في كل المساجد الكبيرة[3]. وقد يقوم أصدقاء الميت وأسرته بالمرور على منازل الأصدقاء والأقارب وإعلان خبر الوفاة ووقت الدفن.

فلما توفي أبو زكريا يحي بن موسى المليحي (ت. 557هـ / 1162م) مشى إبنه مُبْيضًا مُعْلناً على صلاة جنازة أبي[4]، وأرسل أبو الحسن بن حرزهم (ت. 549هـ / 1151م) خادما له لينادي في الأسواق لحضور جنازة إبن برجان في مراكش عام (536هـ / 1141م)[5] وهذا عبد المنعم

---

1 - إبن عبد الرؤوف الجراسيفي، رسائل في الحسبة، ص 76.

2 - إبن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص 166.

3 - الونشريسي، المعيار، ج1، ص، 336.

4 - إبن سهل، وثائق في أحكام القضاء، المطبعة الحديثة، القاهرة 1980م، ص 63؛ - التادلي، التشوف، ص 126.

5 - التادلي، التشوف، ص 170.

بن مروان اللوالي نزيل تاهرت (ت. 603هـ / 1208م) يوصي بإشاعة خبر وفاته ليحضرها أهله وصحبه وخِلاّنه[1]. هذه الشهادات تظهر حرص ورغبة أهل الميت في أن يحضر الناس جنازة ميتهم.

ومن المثير للانتباه أن هاجس الموت ظل محيطا بتفكير الناس إبان حياتهم، لدرجة أنهم يُوصون - وهم على قيد الحياة - بمن يصلي عليهم بعد وفاتهم[2] وتتعدد في كتب المناقب نماذج من هذا القبيل[3]. فقد أوصى أحدهم أن يدفن في أسطوان داره خوفا من قلة مشيعيه فيشتمه حساده[4] وما نستشفُهُ من حرص عائلة الميت على نشر خبر الوفاة، وَوَصَايا الموتى أنفسهم المتعلقة بما سبق ذكره. هُوَ أن كثرة المشيعين للميت مرغوبة من طرف أهل الميت، وحجم الموكب الجنائزي له دَلاَلاته واعتباره في أوساط السكان. فالزهد والورع مَع الجاه ثلاثة خصال تكسب الأصحاب الموكب الجنائزي كثرة المشيعين الذي تحدثنا عنه أعلاه.

ويتضح من خلال فترة الدراسة أن المواكب الجنائزية الكبيرة أصبحت سمة عامة إختصّ بها كل أفراد المجتمع من خاصة وعامة. وصارت المشاركة في الجنائز لا تقتصر على الأقرباء بل يشارك فيها أناس لا علاقة لهم بالميت، فقد حضر جنازة أبي يعقوب بن محمد بن أمغار (ت. 614هـ / 1217م) بأزمور خمسة عشر ألفا أو يزيدون[5]. وحضر أهل سبتة إلاّ قليل منهم جنازة يحي بن محمد بن علي، ابن الصائغ (ت. 600هـ / 1203م[6]. ويحضر الجنائز أيضا أعداء الميت ومنافسوه كما حصل في

---

[1] - إبن الزبير، صلة الصلة، مطبعة فضالة، المحمدية 1993م، ص170.

[2] - التادلي، التشوف، ص 426.

[3] - إبن عبد الملك، الذيل والتكملة، ج8، قسم 2، ص386.

[4] - إبن الزبير، السابق، ص173.

[5] - إبن عبد الملك، السابق، ج4، ص215.

[6] - التادلي، السابق، نفس الصفحة.

جنازة عام (587هـ / 1192م) بفاس[1]. وكانت هذه المواكب تشكل تظاهرات حقيقية تمنع الحركة داخل المدن المغربية ولا تسمح حتى للحاكم بالمرور إذا صادفها[2].

لقد حرص السكان على حضور المواكب الجنائزية الضخمة التي مَسّت كلّ فئات المجتمع، رغم أن موكب جنائز الزهاد والمتصوفة كانت أكثر ضخامة، إنها مدن تتحرك بكاملها، حيث يخرج آلاف من الناس إلى الشوارع والمقابر من أقارب الميت وأصدقائه، وكذلك الغُرباء والأعداء والمنافسين، فلم تعد العلاقة بالميت هي المحرك للناس، ولكنها موجة شعور دينية متوقدة وملتهبة إجتاحت المجتمع، فلم يعد التفكير في الميت، بل في الموت والمصير الذي ينتظر الجميع، فقد يحصل تغيير في الشعور الإنساني اتجاه الموت ناتج عن الأحاسيس الحزينة.

وعندما تخرج الجنازة يكثر النواح وترفع الأصوات مع الدعاء بالرحمة والغفران[3] وكانت بعض النسوة من أقارب الميت تحضرن الموكب الجنائزي، رغم فتاوى الطرطوشي[4]، البرزلي[5] والكرسيفي[6] التي تحرم حضور النساء في المواكب. ويمكن القول بأنهن إستندن إلى فتاوى إبن رشد والعقباني التي تبيح للنساء حضور جنائز أقاربهن[7]، وبصفة عامة فإن حضور النساء في الجنائز كان نادراً ولم نعثر إلاّ على حالتين، أولهما حضور الشاعرة فاطمة المحمودية

---

1 - إبن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص 144.

2 - إبن عبد الملك، الذيل والتكملة، ج4، ص 216.

3 - إبن دحية، المطرب من أشعار أهل المغرب، ص 80.
- المقرى نفح الطيب، ج4، ص 109.

4 - الطرطوشي، الحوادث والبدع، دار المغرب الإسلامي، بيروت 1990م، ص 337 .

5 - البرزلي، النوازل والأحكام، مخطوط (خ،ع) الرباط رقم 2835 د، ورقة 314ب.

6 - البرسيفي، رسائل في الحسبة، ص 121.

7 - العقباني، تحفة الناظر، مخطوط (خ،ع)، الرباط رقم 5691، ص 49.

التازية (ت. 586هـ / 1190م) جنازة الشيخ الزاهد أحمد بن عبد الرحمن بن محمد الصقر الأنصاري (ت. 569هـ / 1173م) الذي دُفن بمراكش[1] والثانية حضور زنكة الكومية (ت. 607هـ / 1212م) جنازة وَالِدِهَا الفقيه عمر بن نعمان الكومي (ت. 598هـ / 1204م) الذي دُفن بمراكش[2].

ويحضر أغلب المشيعين الجنائز راجلين، غير أن بعض رجال الدولة الموحدية وبعض الخاصة من أصحاب الجاه كانوا يحضرونها راكبين، وهذا ما يستشف من قول إبن الزيات، "حضر فلان الجنازة راكبا[3]، وحضر قاضي المدينة ماشيا"[4] إكراما للميت واحتراماً لمشاعر أهله، وهذا يَعني أن حضور الجنائز ليس بالضرورة أن يكون مشيا على الأقدام، بل يمكن للعجزة والمسنين حضور هذه المواكب راكبين[5].

وكان الخلفاء الموحدين يحضرون الجنائز للدعاية السياسية في أوساط العامة التي ترى ذلك تواضعاً وتقربا وبذلك تزداد تعلقا بهم، ومن الذين اشتهروا بحضور المواكب الجنائزية الخليفة يعقوب المنصور الموحدي[6].

وكان الأمراء يحرصُون على حضور الجنائز وخاصة تلك التي تكون لعلماء وفقهاء ومتصوفة وذلك لاكتساب الشرعية في أوساط العامة من جهة وتكريم أتباعهم والمقربين منهم من جهة ثانية[7]، وجرت العادة عَلَى دعوة المتصوفة وبعض الزهاد لحمل نعش الجنازة تبركا بهم، مثلما حَصَل للصانع محمد الأنصاري (ت. 579هـ / 1185م)[8] عند حمل

---

1 - التادلي، التشوف، ص 206، ترجمة 73.

2 - إبن الزبير، صلة الصلة ،ص 26.

Deverdun, Marrakech des origines à 1912, tom 1, Rabat. Edition Technique nodr-Africaines 1959, P31.

3 - التشوف، ص ص 111-112، ترجمة رقم 36.

4 - السابق، ص 131، ترجمة 45.

5 - البرزلي، السابق، ص 210.

6 - الكراسيفي، رسائل في الحسبة، ص 79.

7 - التادلي، التشوف، ص 172.

8 - الزموري، أخبار أهل طيط، (خ، ع)، ص 140.

نعشه من طرف الزّاهد محمد بن إبراهيم وأتباعه (ت. 601هـ / 1206م)[1] حَتّى مواراته في القبر، وَيَبدو أن المسألة أصبحت عادة، حيث صار الناس يستأخرونهم مباهاة وتفاخراً كما أثبتت فتوى أوردها الونشريسي والتي تحرم ذلك[2].

إن حضور الزهاد والمتصوفة في المواكب الجنائزية يعطي الإنطباع بالتشفع والرغبة فيه ممّا يُقَوّي البحث عن وساطة الزهاد والمتصوفة الذين استغلوا هذه الأجواء التي توحي بحاجة المجتمع إليهم، الأمر الذي حَفّزَهم ونشطهم للإنتشار والتقرب من السكان.

ويمثل النعش[3] النقطة المحورية التي يجتمع حولها المشيّعون، وهي رمز الموكب الجنائزي، حيث يحمل النعش على أكتاف أربعة رجال، ويغطى الميت بغطاء صار في أواخر العصر الوسيط مصدر تفاخر بين الناس، فقد أستعمل من الحرير والذّهب وصار البعض يستأجره لتلك المناسبة، وَرغم إباحة الفقهاء له، فإن استعماله للتفاخر والتباهي يجعله مكروها واقتصرت جنازة النساء على وضع مَشْبَك على نعشهن أو قُبة زيادة في تكريمها وسترها.

وقد يتضمن الموكب الجنائزي أكثر من نعش، فكما أن الصلاة تجمع أكثر من ميت، حيث إحتفظ لنا إبن الزيات بصورة عن جنازة عام (550هـ / 1155م) بالسوس الأقصى قال عنها" موكب من الأموات يناهز العشرة"[4].

يَحمل كلّ نعش أقربُ المقربين من الميت بداية من الأبناء فباقي القرابة فالتلاميذ ثم الأتباع، وحظي الزهاد وبعض الأشخاص بعناية أكبر إذ يتهافت أناس على حملهم. ويظهر أن أصدقاء الغرباء المتوفين يضطرون

---

[1] – الزموري، أخبار أهل طيط، (ح.غ)، ص 141.

[2] – المعيار، ج1، ص ص 336-337.

[3] – يوضع النعش في كل مسجد يأخذه كل من حدثت عنده وفاة من غير أجرة وهذه عادة مازالت شائعة في مدن بلاد المغرب وبواديه. ينظر: – أبو العباس التادلي، المعزى في أخبار الشيخ أبي يعزي، ص 136.

– الونشريسي، السابق، ج1، ص 114

[4] – إبن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص 173.

إلى استئجار حَمَلَة النعش ودفع أجرة لهم، كما تؤكد وصية لأحد الغرناطيين (ت. 566هـ / 1171م) بمدينة وجدة حدد فيها أجرة الحمالين وكان من غير وارث[1]. ومنذ القرن (5هـ / 11م)، إشتدت رغبة الناس في حمل نعوش الزهاد والمتصوفة قصد التبرك بها، وصاروا يزدحمون على النعش الواحد بكثافة غريبة ذكرتها المصادر المغربية في أمثال يقال عنها : " كم من حمال على ذا الميت"[2]. ويصل بهم التهافت إلى حد إلقاء ملابسهم من بعيد على النعش ثم التمسح بها، وأحيانا كسر النعش واقتسام أعواده. واحتفظت لنا مصادر التاريخ بعدد كبير من الحالات من هذا النوع تمتد من القرن (3هـ / 9م) حتى نهاية العصر الوسيط، لكنها كثرت بعد القرن (5هـ / 11م).

وَحدثت في كل من جنازة أبي عبد الله محمد بن عيسى التميمي (ت. 605هـ / 1210م) بسبتة [3] وبيبش بن محمد بن علي العبدري (ت. 582هـ / 1186م) في بونة[4] ومحمد بن الزجاج (ق. 6هـ / 12م) وعليم من عبد العزيز بن هاني العميري (ت. 564هـ / 1170م) في القيروان[5] وعبد المنعم بن الفرس (ت. 597هـ / 1202م)[6] وعلي بن أحمد بن أبي بكر الكتاني (ت. 569هـ / 1173م)[7] وابن الحاج الزاهد (ت. 616هـ / 1219م)[8] بمراكش وأبي مروان عبد الملك الصوفي (ت. 602هـ / 1206م) بسلا[9].

---

1 – إبن الزبير، صلة الصلة، ص 36.

2 – الزحالي، أمثال العوام، ج2، ص 265.

3 – عياض، الغنية، دار المغرب الإسلامي، بيروت، 1982م، ص 29.

4 – إبن الأبار، التكملة، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، القاهرة 1955م، ج1، ص 229.

5 – إبن عبد الملك، الذيل والتكملة، ج5، قسم، ص 430.

6 – السابق، ص 36.

7 – نفسه، ص 152.

8 – المقري، إزهار الرياض، ج4، ص113.

9 – المقري، نفح الطيب، ج7، ص 263.

إن الشهادات الكثيرة والمعبّرة التي أوردتها المصادر والتي اقتصرنا على ذكرها لتوضيح أن هناك إختلافا واضحا ما بين ما قبل القرن (5هـ / 11م)، وما بعده فجنائز المتصوفة ألهبت المشاعر بقوة في المرحلة الثانية وبلغت أوجها في القرن (6هـ / 12م)، وعمت كل مدن المغرب على حد سواء، ورغم معارضة العلماء لهذه السلوكات[1]، فإن ذلك لم يجد نفعا واستمرت العامة في ممارستها بسكوت بعض العلماء الذين اكتفوا بفتاوى يصدرونها ولا يتدخلون في تطبيقها، وهذه الموجة من الإقبال الشديد لم تقتصر على الغرب الإسلامي، بل وجدت أيضا في المشرق كما يثبت لنا وصف جنازة أورده ابن عسكر في بيت المقدس[2].

يتحرك الموكب الجنائزي بهدوء وخشوع لكنه مزدحم لا يميز منه إلاّ النعش المرفوع، ويرافق حركته ترتيل وترديد عبارة التهليل والتسبيح[3] والتصلية والتبشير والتنذير[4]وقراءة القرآن [5] وإنّ هذه العادة كانت موجودة منذ أن تحدث عنها ابن حبيب (ت. 239هـ / 854م) وقد إستمرت طيلة العصر الوسيط. لقد كانت هذه الأقوال والأذكار منتشرة في المغرب، ووجدنا أثرها في الجنائز. ففي أغمات حُملت جنازة متصوف (ت. 5هـ / 11م) إلى قبره بالتهليل[6] والتكبير مرفقة بأصوات وهرولة كانت تصدر من غالبية المشيعين التي تهدف إلى تزكية الميت وذكر بعض خصاله، فعند مرور نعش أبي إبراهيم إسحاق بن محمد الهزرجي (ت. 581هـ / 1185م) بمراكش سمع هاتف

---

[1] – إبن الأبار، التكملة، ج2، ص 522.
– إبن الخطيب، الإحاطة ، ج3، ص 341.
[2] – إبن عسكر، أعلام مالقة، دار المغرب الإسلامي ، بيروت 1999م، ص 306.
– إبن عبد الملك، السابق، ص 305.
[3] – التادلي، التشوف، ص 129.
[4] – الونشريسي، المعيار، ج1، ص 313.
[5] – نفسه، ص 336.
[6] – التادلي، التشوف، ص129.

يقول" إرفعوا من رفعه الله "[1] فكل هذه العبارات تثني على خصال الميت وخاصة العلم.

وخلال الموكب الجنائزي أيضا يحرص أولياء الميت والناس على تسجيل كل حادث طارئ وغير عادي لتأويله وإعطائه صبغة الكرامة واعتباره دليل على حسن مصير الميت، وقد جمعنا مجموعة من الأحداث التي اعتبرت كرامات وأغلبها تتمحور حول تحليق طيور غريبة على نعش الميت، ومن الذين نسبت إليهم هذه الكرامة محمد بن يوسف المزدغي الوهراني (ت. 605هـ / 1210م)[2] وأخيرا أبو يوسف يعقوب المنصور[3]. ويلاحظ أن هذه الكرامات ظلت تتكرر منذ القرن (5هـ / 11م) حتى نهاية العصر الوسيط، وهي تذكر بكرامة إبن عباس عندما مات بالطائف فدخل في أكفانه طائر أبيض و لم يوجد بعد[4]. وكذلك الفكرة التي تقول أن أرواح المؤمنين تجعل في أجواف طير تعلق في شجرة الجنة حتى يوم البعث[5]، وفي الحديث عن هذه الكرامات نوع من التزكية للميت وتحديد قصره الذي هو الجنة .

مراسيم الدفن:

تنتهي مسيرة الموكب إلى المقبرة، فتبدأ عملية الدفن. والظاهر أن أفضل أوقات الدّفن عند أهل المغرب هي أوقات الظهيرة[6].

نستنتج مما سبق ذكره أن أهل المغرب يميلون إلى تأجيل الدفن إلى ثاني يوم الوفاة إنطلاقا من القرن (4هـ / 10م)، ونعتقد أن هذا الأمر

---

1 – التادلي، التشوف، ص 242.

2 – إبن عبد الملك ، الذيل، ج5، قسم1، ص 367.

– إبن القاضي، جذوة الاقتباس ، دار المنصور، الرباط، 1973م، ج1، ص 222.

3 – يحي إبن خلدون، بغية الرواد، الجزائر، 1911م، ج1، ص 53.

– إبن مريم، البستان، ص 225.

4 – التادلي، السابق، ص 61.

5 – إبن العريف، كتاب النفائس، المكتبة الشرقية، باريس 1933م، ص102.

6 – السابق، نفس الصفحة.

يرتبط أساسا بالعناية الكبيرة التي تعطى لتجهيز الميت وإعداده، وكذلك بالحرص على تجمع الناس وتمكين أكبر عدد ممكن من الأقارب والأبناء والأصدقاء من حضور مراسم الدفن.

*** الإحتفالات:**

تدل الإحتفالات بالأعياد عند المسلمين على مقدار إرتباطهم وإعتزازهم وتمسكهم بدينهم الذي جعلهم يحرصون على إستمرار خصائص الحياة العامة للمجتمع الإسلامي. وكان سكان بلاد المغرب خلال العصر الموحدي يحتفلون بجميع الأعياد الدينية والإسلامية، وكانت هذه الأعياد مناسبة تتجلى فيها عادات سكان بلاد المغرب، و الأعياد التي كانوا يحتفلون بها هي:

1 - الإحتفالات بالأعياد الدينية :

يقام الإحتفال الرسمي في العاصمة مراكش التي إحتلت المركز الثقافي والعمراني الثاني بعد مدينة فاس منذ أن أسسها السلطان المرابطي يوسف بن تاشفين سنة (454هـ / 1060م). ولكن المدينة شهدت تطوراً عمرانياً سريعاً بعد أن فتحها الموحدون سنة (541هـ / 1146م) وتحولت إلى الحاضرة الأولى على مستوى بلاد المغرب، حيث شيدت بها مساجد كبيرة منها مسجد "الكتيبة الأولى"[1] الذي كانت تقام في ساحته الواسعة الإحتفالات بالأعياد، كالإحتفالات بعيدي الفطر والأضحى التي تبلغ منتهى الروعة و الأبهة[2] في البلاد التي يكون فيها الشعور الإسلامي قوتا، ويتجلى ذلك في إنارة الشموع ذات الأحجام الكبيرة التي توضع في مداخل المسجد وصحنه، وعلى طول الطّرق

---

[1] - بني المسجد بالقرب من قصر الحجر. مقر الخليفة عبد المؤمن بن علي وامتاز هذا المسجد الكبير بسَاحة وَاسعة حيث كان يتكون من سبعة عشرة بلاطا، وصحنهُ عبارة عن ساحة واسعة مفتوحة. من الأعلى به خزان المياه الذي أحدثه الموحدون للاستفادة من مياه المطر . ينظر: - مجهول، الحلل الموشية، ص212.

- Deverdaim , la ville de Merekech: ,op-cit, p p 173 – 174.

2-المجهول، الاستبصار، ص 114

المؤدية إلى المسجد[1]، ويتقدم أهل صِلات البرّ من المسلمين بأطباق من الحلوى مختلفة المذاقات والأحجام، وكذلك الأطعمة والأشربة، ويلبس المسلمون أحسن ما عندهم من الثياب والعمائم، وكان الموحدون يحرصون على إحضار الأبناء إلى المساجد لحضور الإحتفالات. وتَقُوم السلطة من جهتها بتزيين المدينة ، وإشعال الأنوار بها[2] وكانت المتصوفة من المسلمين تحضر هذه الإحتفالات وتساهم بالإبتهال، وقراءة القرآن[3] وبعد أن يكتمل ترتيب المصلين بالمسجد، ويتخذ الفقهاء، وأقارب أشياخ الموحدين، أماكنهم في قاعات الصلاة، وصحن المسجد، يكون موكب الخليفة الموحدي قد بَلَغَ قِمّة الروعة والبهاء، حيث يسير الحراس على اختلاف طبقاتهم في مقدمة الموكب حاملين الأعلام، ثم يليهم أشياخ الموحدين على الخيول، ثم أشياخ القبائل العربية التي تسكن بالقرب من المدينة، وكوكبة من الفقهاء يتقدمهم صاحب الصلاة الذي يتقدم لإلقاء خطبة العيد بالمسجد[4]. وكان الخليفة الموحدي يتقدم الموكب أثناء الدخول للإستماع إلى خطبة صلاة العيد، حيث يستقبل التهاني، ويوزع الهدايا بعد صلاة العيد، وتدوم مدة الإحتفال بالعيد أربعة أيام[5]. حيث يقيم الإمام خطبة جامعة بليغة يشرح فيها فضائل الإسلام، وشمائل النبي صلى الله عليه وسلم، وتعتبر الإحتفالات الدينية ببلاد المغرب مناسبة حقيقية لعقد مؤتمرات في جل المدن الكبرى تحضرها فئات الشعب، وكان للزّهد والتصوُّف حضور أيام الأعياد. [6]

---

1 – آدم ميتز، الحضارة الإسلامية، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ، ط3، القاهرة 1957م، ص 384.

2 – التادلي، التشوف، ص ها34.

3 – السابق، ص52.

4 – عبد الله علي علام، الدولة الموحدية، ص 267.

5 – حسن ابراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج2، ط7، مكتبة النهضة العربية، القاهرة 1964م، ص435.

6 – السابق، ص436.

فقد كان الزاهد أبو العباس (ت. 602هـ / 1208م) بسبتة يجمع الفقراء يوم العيد ويوزع عليهم ما كان قد جمعه من رجال الدولة، وشيوخ القبائل وأهل الفضل[1].

وكذلك يفعل أحمد السبتي (ت. 584هـ / 1189م) دفين مراكش والذي تنسب إليه كرمات غريبة، وأبو مدين دفين تلمسان، ويضاف إليهم الزّاهد عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدي (ت. 592هـ / 1198م).

وكان للمسلمين مناسبات عديدة يجتمعون فيها، وغالبا ما كانت فرصة لإجتماع أعداد كبيرة منهم، وخاصة عندما تصادف ليلة السّابع والعشرين من رمضان حيث يختم القرآن قراءة وتجويداً في مصحف سيدنا عثمان بن عفان [2] - رضي الله عنه - وكان الخليفة عبد المؤمن بن علي قد أحضره من الأندلس ونقله إلى قصره المعروف" قصر الحجر"[3].

وكان خلفاء الموحدين يحملون هذا المصحف الكريم بين أيديهم أنّى توجهوا على ناقة مختارة، عليها الحلي النفيس وثياب الديباج الفاخرة[4]. وكان هذا المصحف بجامع قرطبة الأعظم منذ أيام خلفاء بني أمية بالأندلس، ثم شغف به عبد المؤمن واحتال لنقله إلى المغرب في يوم السبت الحادي عشر من شوال سنة (552هـ / أكتوبر 1157م) وقيل أن هذا المصحف هو أحد المصاحف الأربعة التي أرسلها الخليفة الثالث " عثمان بن عفان" إلى مكة، والكوفة، والبصرة، ودمشق، وقد

---

1 - لَعب عبد الحق بن عبد الرحمن الأزد دوراً مهما في التخفيف من آثار دخول بن غانية إلى بجاية.
- إبن عبد الملك، الذيل والتكملة، ج2، ص19.
- البادسي عبد الحق، المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق سعيد أعراب، الرباط، ج198، ص39.

2 - محمد فتحة، النوازل الفقهية والمجتمع، أبحاث في تاريخ المغرب الإسلامي من القرن (6هـ/12م) إلى (9هـ/15م)، منشورات كلية العلوم الإنسانية، الدار البيضاء، 1999م، ص208.
- القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص161.

3 - "كان الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي قد صنع في مسجد الكتبية المحادي لقصر الحجر نفقين...يدخل من القصر إليها، ومنها إلى الجامع لا يطلع عليه أحد". ينظر: - مجهول الحلل الموشية، ص ص 114-116.

4 - محمد النوني، حضارة الموحدين، ص 179.

اهتم عبد المؤمن بن علي بهذا المصحف إهتماماً كبيراً[1]، لدرجة أنه كان يأخذه معه حتى للحروب والمعارك ليتبركوا به.

كما كان سكان بلاد المغرب يحتفلون بيوم عاشوراء. ومنتصف شعبان، وخاصة المتصوفة والذين كانوا يحتفلون بالمناسبتين احتفالا كبيراً حيث يأتي الناس إلى الأربطة المنتشرة في أرياف المغرب، ليَختمُوا القرآن، ويستمعوا إلى الأناشيد الدينية. ويلتمس الناس بركات الصوفية ويستشفون بهم[2].

وكان يَوم الجمعة عيداً أسبوعيا يتقابل فيه المسلمون ويجتمعون في المساجد، وكان الموحدون يخرجون الخليفة في وقت زوال الشمس من باب في جدار القبلة ومعه خواص حشمه، فيركع ركعتين، ثم يجلس فيقرأ قارئ القرآن عشر آيات قرآنية، ثم يستأذن رئيس المؤذنين لكي يصعد الخطيب المنبر فيقول للخليفة "قد فاء الفيء يا سيدنا أمير المؤمنين والحمد لله ربّ العالمين"، فيَصعد، وَمَتى جلس الخَطيب يؤذن ثلاثة من المؤذنين مُفْتَرِقين، ثم يقوم الخطيب فيخطب خطبة أولى ثم يجلس ثم يخطب خطبة ثانية ثم يدعو ويترل فيصلي، فإذا فرغ دعَا الخليفة بنفسه وأمّن الوزير على ما تقدم ثم ينصرف الجمع[3].

2 - إحتفالات المتصوفة:

كان للمتصوفة مواعيد عديدة يجتمعون فيها، وفي كثير من الحالات كانت تشكل لهم فرصة للإجتماع بأعداد كبيرة تأتي من مناطق عديدة قاصدة بعض الربط المعروفة. وتصادف هذه الإجتماعات مواسم دينية معينة كليلة منتصف شعبان، وليلة سبعة وعشرين من رمضان، ويوم عاشوراء، وعيد المولد النبوي، أما الأماكن التي

---

[1] - الناصري، الإستقصاء، ج2، ص114.

[2] - عبد الله على علام، الدولة الموحدية بالمغرب، ص179.
- التادلي، التشوف، ص 56.

[3] - المراكشي، المعجب، ص 472.

يجتمعون فيها فمتعددة، فلا تكاد مدينة كبيرة تخلو منها كفاس ومراكش، وسبتة، وتاهرت، وبلاد الجريد، وسجلماسة، وغيرها[1].

لقد كانت هذه الاجتماعات تأخذ طابع المؤتمر السنوي بساحل دكالة وأربطة أخرى[2]. وتتيح فرصة الإلتقاء للمتصوفة من كل الأفاق، ويظهر من خلال روايات المؤرخين أن لقاء رمضان كان لختم القرآن[3] في حين كان الجو الاحتفالي يطغى على مناسبة إحياء ليلة المولد التي يصاحبها عادة الإقبال على أنواع الحلويات والمشروبات وكذلك المأكولات المختلفة تتخلل ذلك أناشيد وتسابيح[4].

ويتّخذ اجتماع الفقراء بمختلف الأربطة المغربية طابعا شعبيا، لكثرة إقبال الناس على جمعات الفقراء طمعا في بركاتهم، والاستشفاء بهم من مختلف الأسقام[5]. ولعل أهم ما في هذه المناسبات هو حصول اللقاء بين مختلف الإتجاهات الصّوفية وتبادل الأفكار الخاصة بالمتصوفة وجدير بالإشارة إلى أن اللّقاءات تضفي مزيدا من الشعور بالقيمة المعنوية لهذه الجماعات، وظهورها بمظهر الهيئة الفاعلة في المجتمع ويضطر في بعض الربط حضور رجال من أهل الجاه، والعلماء. تعظيما للأعياد الدينية[6] وتكريما للمتصوّفة.

---

[1] - التادلي، التشوف، ص ص329-377؛ - البادسي، المقصد الشريف، ص101.

[2] - مجهول، الإستقصاء، ج4، ص21.

[3] - التادلي، السابق، ص51.

[4] - البادسي، السابق، ص59.

[5] - ابن قنفد القسنطيني، أنس الفقير، ص71؛ - عبد الغني سليمان، الحياة الاجتماعية في مدينة مراكش في عصر المرابطين والموحدين، الكراسات التونسية، عدد خاص، مجلد 4.

[6] - التادلي، السابق، ص 53.

3 - الاحتفالات بالزواج:

كان الرجل إذا ما أراد الزواج سَعَى لأن يتوسط البعض في مخاطبة العروس[1] أو يرشح له بعض الإخوان إمرأة صَالحة ويحضُّونَه على الزّواج بها[2]. فإن تمت الموافقة من العروس وأهلها، اتخذت الإستعدادات لجعل الزواج رَسْمياً فيُحدّدُ مَبْلغ من المال ليكون صداقاً ويُعين مُوَكل للزوجة كما يُحدد الشهود .[3] فلا يتم النكاح إلاّ بولي وَصداق وشهود[4] ويكون بإتمام صيغة عقد الزواج[5] في المسجد[6].

وكانت المهور مُرتفعة وَ يبدو أن هذا يَرجع إلى إرتفاع تكاليف الزواج وكثرة نفقاته وَرُبّما يَسْعى الأب إلى الإقتراض حتى يُجَهّز إبنته للزواج[7]. كما يبحث لها عن دار تَتَزَوّجُ فيها إن لم يكن هناك مَنزل أعدّه الزوج[8]. وكانت فَتْرة الخطبة والزواج تستلزم الكثير من النّفقات، فكان المتبل عليه يتولى شراء جهاز العروس وملابسها، ثم يحدد موعد الزفاف الذي يتم باحتفال يحضره الأهل، والخلان يفرح فيه مدة أسبوع كامل في منزل العروس حيث تتلقى التهاني[9] يتم إحضار الطبّاخين لتجهيز الطعام اللاّزم لحفل العرس[10]، كما كان أهل العروسين يذهبون لشراء أدوات العروس، وقد اشتهرت كل من مراكش

---

1 - إبن بسام، الذخيرة السنية،ق2، ج1، ص 781؛ - المقري، نفح الطيب ج3، ص ص 395-396..

2 - السابق، ص 345.

3 - إبن الخطيب، نفح الطيب،ج1، ص 53.

4 - إبن عبد الرؤوف، في آداب الحسبة، ص 80.

5 - السابق، ص 82.

6 - إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة ، ص 297.

7 - السابق، ص 298.

8 - Levi Provençal , Histoire de l'Espagne , II, P 403.

9 - ibid, P 403.

10 - إبن سعيد، المغرب، ج2، ص 246.

وتلمسان بصنع هذه الأدوات مثل الأسرّة المرصّعة والحصر والأدوات كالسّكاكين والأمقاص المذهبة [1].

كان حفل الزواج يعبر عن مستوى طبقة العروسين الإجتماعية فهناك أعراس تدل على التواضع، وأخرى تدل على سعة الحال فأعراس مدينة فاس وبجاية تدل على سعة الأحوال والثروات المقدّرة بالآلاف من الأموال وبالمقابل كانت هناك عائلات لا تسمح ظروفها بتزويج بناتهن لضيق ظروفهن المالية الأمر الذي يستدعي تقديم العون لها[2].

ومتى أقيم العرس، كان يؤمر بمنع اللّهو إلاّ ما كان من الدّف العربي غير أن المدعوين للحفل لا يمتثلون لتلك الأوامر فقد كانت أعراس الموحدين بها الكثير من اللّهو، مع أن ابن تومرت نهى عن ضرب الدف واستعمال السلاح[3]، وخوفا من وقوع حوادث كان المنظمون للاحتفالات الزوجية يأخذون لذلك بعض الإحتياطات [4]. وبعد استمرار الإحتفال عدة أيام تزف العروس إلى زوجها وترسل إلى بيتها في موكب من الأصحاب والموسيقى ويَستقبلها الزوج بفرح بهيج[5] ، وتقدم إليها الكثير من الهدايا تهنئة بالزفاف[6].

وفي الحالات التي يتزوّج فيها الرجل بأكثر من واحدة، وَجَبَ عليه أن يسويَ بينهن في كل شيء[7] وقد وجدنا من الزواج ما يمكن اعتباره " زواجا سياسيا " بغرض كسب الأنصار وتهدئة الأمور بين طرفين متخاصمين ، فعندما مات" محمد بن مردنيش"(ت. 584هـ)

---

1 – المقرى، السابق، ج1، ص ص 201- 202.

2 – إبن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص 357.

3 – عندما دخل إبن تومرت تلمسان وجد عروسا تزف لبعلها وهي راكبة على سرج واللهّو والمنكر أمامها، عمد إلى تكسير الدفوف، وأنزلها من السرج.ينظر: – البيدق ، أخبار المهدي، ص 60.

4 – يكلف بعض أعوان الشرطة بحراسة العرس. ينظر: – إبن عبدون، في القضاء والحسبة، ص ص 51- 54.

5 – إبن سام، الذخيرة، ق2، ج2، ص 784.

6 – البيدق، السابق، ص 146.

7 – إبن عبد الرؤوف، في آداب الحسبة، ص 80.

جاء أولاده وإخوته إلى الخليفة" يوسف بن عبد المؤمن"(558هـ، 588هـ)، وسلّموا له جميع بلاد شرق الأندلس التي كانت تحت أيديهم، فأحسن إليهم وتزوج أختهم ورفع من منزلتهم، وقد أقام الخليفة مهرجاناً عظيماً بهذه المناسبة وذلك عام (570هـ / 1174م)[1] وقد يتم الزواج بين عَلية القوم لتوثيق الروابط والمودة ، فقد زوج" المنصور" الموحدي إبنته إلى " محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص الهنتاني"[2] .

وكان البعض يعرض عن الزواج، لجونه واكتفائه بما في يده من صنعة أو ضِيّاع مثل " أبي إسحاق إبراهيم بن خفاجة بن مروان" (ت. 589هـ / 1294م) أو ينقطع للزهد والعبادة والعزلة مثل الزاهد " أبي عمران موسى بن حسين الميرُتُلّي" (ت. 604هـ / 1207م)[3]. بمدينة سلجماسة ومنهم العلماء الذين كرّسوا حياتهم لخدمة العلم فلم يتزوجوا حتى لاَ يظلموا نسائهم.

4 - الاحتفال بالمولود الجديد:

وكان سكان بلاد المغرب يحتفلون بالمولود الجديد ويتبادلون في ذلك التهاني وَيعهدون بالمولود إلى مرضعة ترضعه، فإذا كبر عُهد به إلى فقيه يعلمه، والمولود أيا كان جنسه أنثى أم ذكراً، كان محل اهتمام وَالديه، وإن كان يبدو أن المولود الذّكر يفرح به أكثر، فهذا شاب يقول لابنة عمه" وأعلمي يا بنت عميّ، مَنْ لَمْ يُخَلّفْ مولُودَ ذكر لَيس يُذْكَر "[4] وكان الأولاد محل حب آبائهم ويتشوقون إليهم ويتمنون رؤيتهم.

---

[1] - إبن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 139؛ - إبن أبي الخطيب، أعمال الأعلام، ص 271.
- إبن خلكان، وفيات الأعيان، ج7، ص 131؛ - الناصري، الإستقصاء، ج2، ص 150.

[2] - إبن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص 531.

[3] - الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج2، ص ص 478- 479.

[4] - صلاح الدين المنجد، "قصة من الأدب الشعبي"، (مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الخامس، ج1، ماي 1959م)، ص ص 500-550.

5 - الأحتفال بالختان:

كان الناس يكرهون الإختتان الفردي، ولذلك عمد الرّجال الأثرياء إلى تنظيم إحتفالات ختانية على مستوى الحي السكني الواحد، حيث يجمعون الأولاد الأتراب ويقيمون لهم إحتفالا إختتانياً جماعياً، وكان هذا اليوم يوماً هيجاً. يلبس فيها الأولاد لباسا خاصا، وتخضّب أقدامهم وأكفّ أيديهم بالحناء، ويقام مكان مخصص للنسوة ليحضرن هذا الحفل البهيج، وبعد الختان تنثر الدّنانير على الأولاد، وتقدم الأطعمة إلى الحاضرين. ويعدّ الإحتفال على مستوى الأسر التي تَمّ إختتان أبنائها. وكثيراً ما ينضم أبناء الفقراء والمحتاجين إلى هذه العمليات الختانية دون أن يدفعوا شيئاً مقابل الإختتان [1]. بينما تقوم السلطة المركزية على مستوى العاصمة بحفل إختتان جماعي لأبناء الفقراء والمحتاجين يوم السّابع والعشرين من شهر رمضان، وهي عادة قام بها خلفاء الدولة الموحدية إبتداءً من الخليفة عبد المؤمن بن علي عندما جمع أيتام مدينة مراكش سنة (544هـ / 1149م) وأقام لهم حَفْلَ إخْتِتَان جماعي في مسجد الكتيبة، وأجرى على عائلتهم أعطايات، كما وَزّع على الأولاد دنانير[2]. ونفس العملية كان يقوم بها الولاة على مستوى المدن الكبيرة، وهذه الإحتفالات تعد فرصة لذوي البر والإحسان لتقديم الأموال والهدايا والكسوة للأولاد[3].

لقد أقام الخليفة يعقوب المنصور (580هـ - 595هـ / 1185م - 1199م) سُنّة حميدة على رأس كل سنة حيث يجمع الأيتام في قصره لاختتانهم يأمر لكل صبي بمثقال وثوب ورغيف ورمانة ودرهمين بعقوبيين[4].

---

1 - المراكشي، المعجب، ص 13.

2 - إبن عبد الملك، الذيل والتكملة، ص 266.

3 - نذكر حالة الأمير أبي زكريا بن يوغان الصنهاجي (ت.537هـ/1143م) وهو تلميذ بن عبد السلام التونسي. أنظر:
- التادلي، التشوف، ص 145.

4 - المراكشي، المعجب، ص 176.

وَسَار على نهجه أغنياء عصره، فهذا علي بن إبراهيم التيجي (ت. 600هـ / 1206م) كان يجهز الأيتام وينفق على تَربيتهم واِختتانهم بكيفية مُرضية[1].

أعياد أخرى:

كان سكان بلاد المغرب يحتفلون بعيد يَنّير حيث يفرحون ويمرحون، وكان من عادتهم صنع موائد من العجين ذات ألوان مختلفة وَصور جميلة، وهذا العيد مرتبط بفصول السنة إلى جانب عيد آخر يعرف باسم المهرجان[2] وإلى جانب ذلك شارك أهل المغرب المسيحيين في أعيادهم خاصة عيد ميلاد المسيح عليه السلام الذي يقام كل سنة جديدة، وتقدم فيه التهاني وتصنع أصناف الحلوى كبيرة الحجم تسمى المدائن وهي على شكل مدن ذات أسوار أثارت إعجاب الشعراء[3].

6 - الاحتفال بالمواسم الفلاحية:

لقد ارتبطت أعياد أخرى بالنشاط الزراعي وأوقات جَني المحصول، ومن أهمها الإحتفال بوقت العَصير الذي يكون في فصل الخريف، إذ يخرج أهل القرية إلى الحقول والأودية المجاورة ويقضون عدة أيام وليال. يستغلونها في جَني الثمار، ويخرج معهم معظم السكان للفرجة والنزهة[4].

وَموسم آخر يتم الأحتفال به وهو موسم صباغة الحرير، ففيه يخرج السكان لجمع القرمز ويقيمون خِيامهم في بُطون الأودية والحقول ويصحبون مَعهم دَراريهم وأدوات اللّعب واللّهو حيث يقضون أوقاتهم هناك[5].

---

1 - محمد الرشيد مَلّين، عصر المنصور الموحدي، مطبعة الشمال الأفريقي (د.ت)، ص 259.

2 - عيد بيّنير وعيد المهرجان، معروفان بالمشرق والمغرب والأندلس، وقد تحدث عنها الجرسيفي. ينظر:
- رسالة في الحسبة، تحقيق ليفي بروفسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة، 1995م، ص 124.

3 - إبن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص 294.

4 - إبن الخطيب، الاحاطة، ج1، ص ص 37-38.

5 - المقري، نفح الطيب، ج1، ص 172.

يضاف إلى الاحتفالات بالأعياد المذكورة، بعض الإحتفالات التي كانت تقام بمناسبة عرض عسكري، إذ جاء في النصوص التاريخية أن الخليفة عبد المؤمن بن علي إستعرض جَيْشه إبّان انتصاره على النورمانديين في المهدية وَتَمّ له بذلك توحيد بلاد المغرب وبذلك إحتفل الموحدون في رباط الفتح سنة(555هـ / 1106م)[1].

وكذلك فعل الخليفة المنصور أثناء إنتصاره في معركة الأرْك في (8 شعبان عام 591هـ / 18 يوليو 1195م)[2].

*** وسائل التسلية والترفيه:**

1 - إرتياد المنتزهات والغابات:

إعتاد أهل المغرب على الإستمتاع بأوقات فراغهم بشتى وسائل التسلية والترفيه ومن بين هذه الوسائل إرتياد الحدائق والمنتزهات، حيث تنوعت أوقاتهم بين الصيد البري والبحري، والألعاب المختلفة من خيال الظل، ألعاب السّيف، الفروسية، مصارعة الحيوانات، الشطرنج والنّرد، ثم اللّهو والتنزّه.

ولا يخفى أن العوامل الطبيعية ساعدت على وُجود منتزهات، كان يقصدها العامّة والخاصة، فمدينة مرّاكش لها منتزهاتها منها سقايات دار الحجر والبحيرة[3] فضلا عن تلك التي تطل على السّواقي والمناظر الطبيعية الخلابة[4] واشتهرت طَنجة بمنتزهها المعروف بـ: "قم بحر الزقاق" زيادة على أنهارها وجنّاتها التي إستغلّها السكان في التّنزه والصيد[5]،

---

[1] - إبن أبي الزرع، روض القرطاس، ص 130؛ - المراكشي، المعجب، ص 233.

[2] - إبن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص 202.

- إبن أبي الزرع، السابق، ص 143.

- زوجرلي تورنو، حركة الموحدين في المغرب، ص 76.

[3] - الإدريسي، نزهة المشتاق، ج2، ص 234؛ - مجهول، الإستبصار، ص 210.

- البيدق، أخبار المهدي، ص 79.

[4] - المراكشي، السابق، ص 499؛ - مجهول، السابق، ص 138؛ - العمري، المسالك والممالك، ص 109 .

[5] - المراكشي، السابق، نفس الصفحة.

تلمسان وضواحيها مثل تاجرا، وقصر المشورة[1]. والمهدية التي عُرفت بأسوارها، وَسَوَاحِلها حيث يسكن الأمير الذي أكثر من غراسة البساتين والبحيرات[2] وتُركت زوبية ليسكنها عامة الناس وعرف جبال أوراس وغمارة، وبني راشد بالفيضانات والأودية، والمنتزهات التي لا توجد في أماكن أخرى[3]، لذلك لم يكن غريباً أن تثير هذه المنتزهات إعجاب الشعراء المتعلقين بالطبيعة والتعبير عن أحاسيسهم المرهفة لجمالها[4].

نَاهيك عما عُرفت به جلّ المدن المغربية من غابات تلتف أعصالها ووديان تنساب مع سفوح جبالها، فنهرُ أم الربيع يمتد على أكثر من ستة وأربعين (46) ميلاً[5] جامعاً بين الخضرة والمياه والطيور. ويشاركه في الوصف وَادي السّلف الذي تلف جوانبه أشجار الصّنصاف[6] وغيرها، وغير بعيد عن الوادين حيث السهول وإنبساط الأرض ، نجد وادي مجردة بالجهة الشرقية يشكل بحيرات ترتادها الطيور، والحيوانات[7].

علاوة على ذلك إعتاد سكان الحواضر في بلاد المغرب على الخروج إلى الحمامات والعيون طلبا للاستشفاء والنزهة والترويح عن النفس، وهذا ما يفسر كرائهم بيوتا بهذه الحمامات بمبالغ مرتفعة[8].

أما الخاصة من المجتمع من وُجهاء، وتجار مياسرة، وحاشية الأمراء فكانوا يملكون قوارب للصيد البحري، فَيتلَهُّون بصيد الأسماك والبعض

---

1 - المراكشي، المعجب، ص 148؛ - إبن أبي الزرع، الروض، ج2، ص112؛ - الناصري، الإستقصا ، ج1، ص 155.

2 - تلمسان هي مدينتان في واحدة يفصل بينهما نهر يأتي من جبل يسمى الصخرتين. ينظر:

- الإدريسي، نزهة المشتاق، تحقيق محمد حاج صادق، (د.ت)، ص 100.

3 - مجهول، الإستبصار، ص ص 19-45-36.

4 - إبن الخطيب، معيار الإختيار، ص 109.

5 - النادلي، التشوف، ص 234 .

6 - الإدريسي، السابق، (ط. ليدن)، نفس الجزء والصفحة.

7 - إبن قزمان، ديوان إبن قزمان، تح كوريتطي، مدريد 1980م، زجل 144، ص 90.

8 - الإدريسي، القارة الأفريقية وجزيرة الأندلس، (نزهة، ج1)، ص 192.

منهم يقضي أوقات فراغهم في القنص وسط الغابات[1]. والاستحمام في شواطئ البحر، حيث يَنْصِبُون خَيماتهم للإقامة بها طيلة فصل الصيف[2]. وجدير بالإشارة إلى أن العصر الموحدي عرف كثيرا من الألعاب الترفيهية التي تعود جذورها إلى عصور سابقة نذكر منها لعبة الشطرنج[3]، فرغم نهي الفقهاء عنها واعتبارها من شغل البطالين، عرفت إنتشارا واسعاً، خصوصاً بين طبقة الخاصة فقد اشتهر أبو بكر إبن زهر (ت. 554هـ / 1160م) بأنه جيد اللّعب بالشطرنج[4]، كما اشتهر الفقيه أبو بكر بن العربي بمهارته في هذه اللعبة[5] وانتشرت أيضا ألعاب النّرد والقرق[6].

وكانت ألعاب الفروسية تقام في ساحات الحواضر الكبرى وخاصة بمدينة مراكش فاس، تلمسان، تونس، وعرفت تلك الساحات بإسم باب الرملة حيث إستُصْلِحَتْ وَسُوِّيت أرضيتها بالرّمل[7]، وعرفت هذه الساحات المبارزات الفردية والجماعية والتي تشبه معركة حقيقية، فقد وَصَف الإدريسي أهل قرية أم الربيع بأن "الغالب عليهم الفروسية"[8]. أما مصارعة الثيران التي تعود أصول لعبتها إلى غرناطة بالأندلس فإن إبن الخطيب أشار صراحة إلى وجودها في عصره وانتقلت إلى بلاد

---

1 - التادلي، التشوف، ص 234؛ - المقري، نفح الطيب، ج1، ص 198.

2 - السابق، ص 235؛ - القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 236.

3 - الشطرنج لعبة هندية الأصل أخذ العرب عن طريق الفرس، ودخلت قرطبة في القرن التاسع بواسطة زرياب بعدما انتشرت في المغرب. ينظر: - Levi Provençal, Histoire de L'Espagne, III, p 443.
- مجهول، الإستبصار، ص 194.

4 - إبن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج3، ص 110.

5 - المقري، السابق، ج2، ص 68.

6 - القرق: لعبة عند الأطفال كانت معروفة لدى العرب قديماً ومؤداها أنهم يخطون في الأرض خطوط ويأخذون حُصيات فيصفّونها شبه النحوم. ينظر:
- العبادي، "الأعياد في مملكة غرناطة"، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، ج15، سنة 1970م، ص ص 141-164.

7 - مجهول، السابق، ص 190.

8- الادريسي، وصف افريقيا الشمالية، ص ص 70-71

المغرب وإن كانت بشكل محدود واستمرت في مدينة فاس إلى عصره إلا أنه حصرها ضمن وسائل ترفيه الطبقة الحاكمة وأيده في ذلك مارمول[1] وإبن الأبار[2].

وكانت هناك ألعاب أخرى ينهي عنها الفقهاء مثل لعبة اللّطمة ولعبة المقرع بحجة أن اللّعبتين تندران بالنّفاق والهرج[3] كذلك يُنهى عن لعب النّرد والقرق والأزلام على سبيل القمار، فإنها حرام وتشغل عن الفرائض[4].

هذا وقد عُرفت الطبقة الحاكمة خلال عهد الموحدين بالإتزان وميلهم إلى الجِد والبُعد عن اللهو، والإلتزام بدعوة الإمام إبن تومرت، هذا فضلا عن انصرافهم إلى الحرب ضد النصارى، الأمر الذي يتطلب مظهراً متزناً وسلوكا يُقتدى به، وَفعلا كانوا كذلك و لم يشذّ إلاّ القليل من بينهم "المستنصر بالله" الموحدي الذي أشتغل عن تدبير أمور دولته بالعكوف على الشرب واللّهو ومعاشرة النساء، وكان مولعاً بتربية الحيوان والطريف أنه مات على إثر طعنة من إحدى هذه الحيوانات في صدره فمات في ذي الحجة (620هـ / 1223م)[5].

لكن الاعتدال ومَدّ النفس بشيء من التسلية مطلوب، وَهو ما أعتمده الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي، عندما كان يقضي بعض أوقاته داخل قصره في تربية سبل أسَد وَطائر ببغاء مستعيناً في ذلك بمروض الأسد وخدم لأقفاصه ومعلم للطائر باللسان العربي، وكان الطائر يقول: "النصر والتمكين للخليفة عبد المؤمن أمير المؤمنين"

---

1 - افريقيا، ج1، ص 76.

2 - الحلة السراء، ج2، ص ص 262-263.

3 - إبن عبدون، في القضاء والحسبة، ص 52.

4 - السابق، ص 53.

5 - الذهبي، سير أعلام النّبلاء، ج2، ص 124؛ - الناصري، الإستقصاء، ج2، ص ص 226-228.

- الحسني، تحفة الزائر، ج1، ص 45.

وكان مقصده من ذلك إيهام الناس ليصدّقوا به غَيْباً فيُبايعوه، فقد جمع عبد المؤمن الناس لمّا مات المهدي إبن تومرت وأحضر الطائر فقال قولته، ودخل الأسد على عبد المؤمن، فخاف الناس وصدقوا بعبد المؤمن وبايعوه[1]، ومهما يكن فقد إتخذ عبد المؤمن بن علي نهج التشدد على أهل المجون[2] وَطَلَب الكشف عن أماكن الغواية والملاهي وآلات الطرب وكل ما يفسد النساء، وأستخدم الشدة والغلظة في القضاء عليها.

2 - شرب الخمر:

كانت عادة شرب الخمر منتشرة في الوسط الإجتماعي المغربي بشكل يستدعي الإنتباه ويبدو من خلال السياق العام لنمط حياة السكان سواء في الحضر أو الريف أنها كانت متجذرة في أوساط السكان خلال القرن الخامس الهجري والنصف الأول من القرن السادس الهجري، الحادي عشر والنصف الأول من القرن الثاني عشر الميلاديين.

ولم يجد المراكشي بُدّا من الإشارة إلى ذلك بقوله: "وَصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومَسُوفَة مشتملة على كل مُفسد وشرير وَصَاحب خمر وماخور..."[3] ومما يدل على إنتشار العادة بمختلف ألوانها أن إبن تومرت قد عقد للقضية كتاباً مستقلاً ضمن مؤلفه " أعز ما يطلب" في حين إقتصرت المنكرات الأخرى داخل نفس المؤلف على باب واحدٍ أو أقل لكل منكر[4].

---

[1] - إبن أبي الزرع، الأنيس المطرب، ص 120.

[2] - البيدق، أخبار المهدي، ص 145؛ - إبن الإخوة، معالم القربة، ص ص 88-89.

- واشار إبن الأخوة إلى ذلك بقوله: "أما المجاهرة بإظهار الملاهي المحرّمة مثل الطنبور والعود والصنج وما أشبه ذلك من آلات الملاهي، فعلى المحتسب أن يفصلها حتى تصير خشبا". ينظر: - نفس المصدر، ص 90.

[3] - المعجب، ص 177.

[4] - إبن تومرت، أعز ما يطلب، ص ص 363-376.

وَقد عَمل إبن تومرت منذ البداية على محاربة انتشار الدفوف واللّهو والخمر[1]، فبعد ما أفتى بوجوب إراقة كل مسكر، وكسر الأواني وتحريم الإنتفاع به وبخاسته[2] باشر هو نفسه بضرب النّاس بالأكمام والنّعال وعَسف النخّل[3] ولم يفلح إبن تومرت في إقتلاع جذور هذه العادة، إذ استمر صُنع المسكرات داخل المنازل سواء من عصير العنب أو من مستخرجات عدة أنواع من الفواكه[4].

ومن الواضح أن سكان بلاد المغرب لم يتوقفوا عن معاقرة الخمور طيلة النصف الأول من القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي، سواء في الوسط الأرستقراطي أو العامّي، وإن كان تعاطيها من قبل طبقة الخاصة يرمز إلى حياة البذخ والترف والتفسخ الأخلاقي الذي وَصَلُوا إليه. فإن العامة لم تفعل ذلك إلاّ لِستْر المشاكل والصّعُبات التي اعترضتها في حياتها اليومية[5].وهي حالات تبيّن القفز على الواقع المعاش وإذا أضفنا محتوى رسالة الفصول الموحدية التي حُررّت في منتصف سنة (556هـ / 1161م)[6] وقد ألحت على ضرورة محاربة المشروبات المحرمة بمختلف أنواعها[7] على ضوء هذه الرسالة يمكننا أن نؤكد أن الفترة موضوع الدراسة لم تعرف انقطاعاً فعليا لتعاطي الخمر وما يتبعها رغم محاولة إبن تومرت ومن جاء بعده.

---

1 - البيدق، أخبار المهدي، ص ص 53-60-62؛ - إبن أبي دينار، المؤنس ، ص 108.

2 - إبن تومرت، السابق، 375؛ - إبن أبي الزرع، الأنيس المطرب، ص 221.

3 - السابق، نفس الصفحة.

4 - المرّاكشي، المعجب، ص 282؛ - حسن محمود، قيام دولة المرابطين، ص 442.

5 - الونشريسي، المعيار، ج2، ص 410.

6 - حُررّت هذه الرسالة من طرف أبي جعفر بن عطية بأمر من عبد المؤمن بن علي الموحدي وهي مَوّجهة طلبة بجاية ، ويفهم من خلال ما جاء في هذه الرسالة أنها تعبّر عن واقع بلاد المغرب. ينظر: - البيدق، أخبار المهدي، ص ص 1-8.

7 - إن الإدريسي الذي انتهى من تأليف كتابه نزهة المشتاق سنة (548هـ/1154م) قد أشار إلى أنواع مختلفة من الأشربة المسكرة. ينظر: - نزهة المشتاق، روما 1975م، ص 228.

- وشاركه الرأي صاحب الإستبصار عندما قال، إن أكثرية عيش المصامدة هو العنب والزبيب والرّب عن شربه لشدة برد الجبل وثلجه. ينظر: - الإستبصار، الإسكندرية، ص 211؛ - الحميري، الروض المعطار، بيروت 1975م، ص ص 234-235.

ويضاف إلى عادة شرب الخمر عادة إجتماعية لا تقل عنها خطورة، وهي عشق الغلمان التي انتشرت في أوساط الخاصة، دون انعدامها في أوساط العامة.

فرغم ما عرف عن أبي عبد الله بن عائشة من زهد وَوَرَع فإنه ظل يعشق فتى ويهواه[1] وإذ كانت هذه الظاهرة النفسية الاجتماعية تُعزى بالنسبة للعامة إلى الحرمان الجنسي فمن الصّعب تفسيرها بالنسبة لطبقة الخاصة، والسبب حسب رأينا يعود إلى البحث عن وسائل جديدة للمتعة في غياب الوازع الديني الذي يقتضي حضور الوازع الأخلاقي.

3 - سهرات اللهو والغناء:

تتعاطى المجتمعات الإنسانية قاطبة فنون الغناء والموسيقى تعبيراً عن الأفراح والأتراح إذ للحزن أغانيه وموسيقاه أيضا، وَلاَ يقتصر الغناء على أوقات الراحة أو أوقات الفراغ فحسب بل يتغنى العاملون أيضا أثناء أداء عملهم، فيساعدُهم ذلك على إتقانه وإنجازه بسهولة ويُسر، مع هذا فالغناء يتم عادة خلال مناسبات عديدة تتميز بالرّاحة والفراغ ومثل ذلك حفلات الزّواج والختان، والولادة وحفلات السّمر الخاصة سيقتصر حديثنا على غناء اللّهو في ليالي السمر.

فالموسيقى والغناء ببلاد المغرب يختلفان بإختلاف شكل ودرجة تطور العمران ، فالمجتمع الحضري يحتوي على موسيقى تمتاز بالجودة والتعقيد، في حين تتميز موسيقى العمران الريفي بالبساطة والبداوة، ويتجسّد هذا الفرق من خلال بعض الآلات الموسيقية المستعملة في البادية أو في المدينة.

---

[1] - المقري، ازهار الرياض، ج5، ص ص 151-152.
- إبن رشد، نوازل إبن رشد، ص 76.
- محمد بن عياض، مذاهب الحكام (مخ)- ورقة 158.

ويتحكم في هذا الأمر مستوى الحضارة والعمران في كلي الوسطين. وتكون المدن والأمصار- في الغالب - مزوَّدة بأنواع من الآلات، تختلف بإختلاف وظائفها واستعمالاتها منها "القانون، البريط (العود) والقيثارة، والدفوف والقراقر، والمزامير، والعيدان، والروط، والأربية"[1] عكس الحال في البادية التي تكتفي عادة بآلات النقر (القرع) أو آلات النّفْخ أو الإحتكاك[2].

وإذا كانت مجالس اللهو والغناء قد إنتشرت في الأندلس على الخصوص حيث إشتهرت بعض المدن بكثرة الملاهي والدّعارة[3] مثل برشلونة[4] وأبْذة التي عُرفت بملاهيها وَرَاقِصَاتِها[5]. وبما أن بلاد المغرب ازدادت قُرباً من الأندلس من الناحية السياسية، والإجتماعية خلال عهد الموحدين، فقد تَسَرّبت الموسيقى والأغاني إليها بشكل غزير وأنتشرت في الحواضر الكبرى ومن الأمثلة على ذلك هجرة أبي الصّلت (ت. 529هـ / 1134م) من مدينة إشبيلية سنة (489هـ / 1069م) بعد سقوط طليطلة واستقر في المهدية ببلاد المغرب الأدنى[6]، حيث استقبل بالبلاط الزيري أحسن استقبال ومن تم بُثت الألحان الأندلسية، وهكذا وبعد فترة وقعت بلاد المغرب في مناخ اللّهو والسّمر، فقد أكّد البيدق عند حديثه عن الطريق الذي سلكها ابن تومرت في طريق عودته إلى مراكش أنه شاهد الحوانيت مملوءة دفوفا وقراقر ....»[7].

---

1 - البيدق، أخبار المهدي، ص 52.

2 - إبن خلدون، العبر، ج3، ص 199.

3 - إبن بسّام، الذخيرة، ح4، القاهرة 1945م، ص 132.

4 - قال إبن الخطيب في شأن هذه المدينة، "للمجون بها سوق، وللفسوق ألف سوق". ينظر: - معيار الاختيار، ص 106.

5 - المقري، نفح الطيب، ج3، ص217.

6 -المقري، السابق،ج2،ص ص 105-106؛- حسن حسني عبد الوهاب، الورقات، القسم الثاني، تونس1966م، ص227.

7 - أخبار المهدي، ص ص 23-24.

في هذه البيئة الفاسدة التي صاحبت مرحلة هرم الدولة المرابطية ومرحلة نشأة دولة الموحدين الذين حاولوا التقليص من إنتشارها، وركزوا على جهاد النصارى، ممّا كان يتطلب مظهراً متّزنا وسُلوكا يحتذى به، ومع ذلك فإن البيوتات الخاصة، والساحات الطبيعية المعزولة، والحدائق عرفت مجالس كان الناس يقضون فيها أمسيات يستمعون فيها إلى الموسيقى والغناء، ويتعاطون المسكرات من خمر وأشربة محلية وفي هذا السياق يقول الغبريني: ".. ونحن لاَ نشك في أن إستيطان الأندلسيين الكثيف ببجاية هو الذي جعل منها مدينة تشبه اشبيلية في شغفها بالموسيقى وانصرافها إلى الطرب"[1]. وهكذا شاع الفن واتسعت معه أماكن اللّهو، والغناء، وتعاطي الخمر.

*** الأحوال الصحية للسكان والأسرة:**

1 - الطب العرفي (البدائي):

رغم إقتناع بعض الناس بقيمة علم الطب، فإن السواد الأعظم من سكان بلاد المغرب اعتقدوا جازمين في نجاعة الطب الشعبي[2]، ففضلوا الإستشفاء بالأعشاب. والعقاقير التي إنتشرت والتي اشتروها من العطارين أو من عند أصحاب الحَلْقة[3]، الذين منعهم القضاة

---

[1] - عنوان الدراية، ص ص 8-76،10-77.
- محمد الطالبي، دراسات في تاريخ أفريقيا، ص 197.
- محمد النيفر، عنوان الأريب، ج1، طبعة تونس 1932م، ص ص 103-105.

[2] - الطب الشعبي، هو إدعاء الكثير من الناس معرفتهم بأسباب أمراض معينة كمرض العيون ومرض المعدة، وأوجاع الرأس وما إلى ذلك، واستعملوا لذلك لحوم الحيوانات الوحشية وأعضائها، وخليط الكثير من السوائل لإنتاج شراب مُعين لمعالجة أمراض المعدة وكل هذا لا صلة له بالعلم. ينظر: - الخطيب حنيفة، الطب عند العرب، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت 1988م، ص 40.

[3] - أصحاب الحلقة، يجلس الطبيب الشعبي في مكان ويشرع في إشهار عقاقيره، وأعشابه، فيلتف الناس من حوله على شكل حلقات يسألونه أدوية لعلاج بعض الأمراض. ينظر: - السابق، ص ص 42-53؛ - الماحي التحاني، مقدمة في تاريخ الطب العربي، الخرطوم 1959م، ص 36.

والفقهاء من بيع أدويتهم بسبب فسادها[1] بينما آثر البعض الالتجاء إلى الأولياء والمتصوفة. وزيارة المقابر لعلاج الأمراض المستعصية.

2 - الأمراض الشائعة:

ومن المفيد الإشارة إلى بعض الأمراض الشائعة إبان الحقبة الموحدية كمظهر من مظاهر الحياة الإجتماعية، فقد أشار الإدريسي إلى شيوع أمراض العيون بين سكان سجلماسة فضلا عن مرض الجذام الذي عرف إنتشارًا في بعض المدن المغربية، وقد خصصت حَارة للجَذمَى في ضاحية مدينة فاس[2]، وكانت الأمطار التي تسقط أحيانا في شهري يوليو وَغشت (تموز وأب) تسبب الحمى الوبائية للسكان[3]، بينما ظهرت أمراض أخرى بسبب خلل في النظام الغذائي. أو بسبب الإكثار من بعض أنواع الفواكه الجافة، مثلما حدث لإبن زهرة الذي لم يتفطن رغم باعه الطويل في ميدان الطب - إلى خطورة تناول التّين باستمرار، حتى أصابته نَعْلة بين كتفيه لَقيّ حتفه بسببها[4].

وبالمثل إنتشرت بعض أمراض الأطفال كالقروح التي تصيب رؤوسهم، وداء الحيّة الذي كان يتسبب في سقوط الشعر، وداء السّعفة[5] وهو عبارة عن قروح تخرج في رأس الصبي ووَجهه.

وزيادة على ذلك، شاع الخَذْر الذي توفي بسببه عدد هام من أعلام الفترة موضوع الدراسة[6] ومرض الزّمَانة الذي أصاب عدداً كبير من الفقهاء، ناهيك عن الأمراض الأخرى التي عَمّت مجموع

---

1 - إبن عبدون، رسالة في الحسبة، ص 46.
- الزموري، أخبار أهل " طبط" مخطوط بالخزانة العامة، الرباط 1358م، ص 129.
2 - المقري، أزهار الرياض، ج3، ص86.
3 - مارمول، إفريقيا، ج1، ص 31.
4 - إبن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج3، ص 108؛ - المقري، نفح الطيب، ج2، ص 245.
5 - إبن القاضي جدوة الاقتباس، ق2، ص 381، ترجمة علي بن عبد الله المتيطي الأنصاري.
6 - إبن القاضي، السابق، ص 481.

السكان كالطاعون وداء الجرب[1]، والبرص[2] والفالجية[3] والنغنغة التي تصيب العنق، الصداع، الشقيقة والبرنسام وهو مرض يصيب الدماغ[4] والطفرة التي هي عبارة عن لحم عصبي ينبت في إماق العين، والذبحة التي اعتبرت أخطر الأمراض، والسّعال، وانسداد الكبد[5]، ومرض الإسهال[6]، وداء البطن[7]، والرمد[8].

3 - طرق العلاج:

لا شك في أن كثرة الأمراض، مع عَجز الأطباء عن معالجة بعضها. فتح الطريق أمام الإستشفاء البدائي وَجعله يَعرف رواجاً كبيراً، يتَجلي ذلك في إقدام الناس خلال فترة الدراسة وما بعدها على تعليق العديد من الأجزاء المستخرجة من حيوانات مختلفة مثل تعليق ناب الكلب على عُنق طِفل لكي تنبت أسنانه بلا وَجَع، وتكاد تكون جميع العلاجات بالكي بالنار كما تعالج الحيوانات، وتنحصر عملياتهم الجراحية في ختان الأطفال[9]، وَيَصف إبن الخطيب هؤلاء المتطببين بقوله: "وَفيهم مَنْ استظل بقيطون وَسَلّ سيف لاَطُون وتحدّى برقية لَديغ ومداواة مَبْطون، وبين يَديه غُبَار في جلد فأر..."[10].

---

[1] - إبن الأبار، التكملة، ج2، ص 476.

[2] - السابق، ص 259.

[3] - إبن أبي أصيبعة، ج3، ص 108.

[4] - إبن القطان، نظم الجمان، ص 18.

[5] - السابق، نفس الصفحة.

[6] - إبن عبد الملك، الذيل والتكملة، ص 151، ترجمة محمد بن أبي جعفر بن أحمد بن خلف.

[7] - مجهول، الإستبصار، ص219.

[8] - الصّقلي أحمد، موسوعة الطب الشعبي، تحقيق مُنى عبود، بيروت 1993م، ص ص 7-25،9-26.

[9] - الصّقلّي أحمد، موسوعة الطب الشعبي، ص 27؛ - الحسن الوزان، وصف أفريقيا، ج1، الرباط 1980م، ص 77.

[10] - الإحاطة، ج1، ص 142؛ - الماجي التيجاني، مقدمة في تاريخ الطب العربي، الخرطوم 1959م.

ويضاف إلى هؤلاء المتطببين صنف آخر من الناس يعمل وفق قاعدة تعرف (الزّايْرَجة) أي مُخاطبة الأرواح[1] والتحاور معها بهدف إخراج الداء الذي يعاني منه المريض .

وتوسعت دائرة إعتقاد الرّعية في طرق العلاج البدائية، لا في البادية فحسب، بل في الحواضر تفسها، حيث أنتشر الإعتقاد بالطب الروحاني، فالتجأ المرضى إلى الأولياء والصالحين طمعا في الشفاء، ففي فاس قصد ذوُوا العاهات والأمراض المُزمنة رجالا ونساء الوالي الصّالح أبا يعزى[2]، الذي نجح في إشفاء صبية عمياء حسب ما ذكره إبن الزيات[3]، وكان أبو يعزى يأكل الدّفْلى- نبات ذو طعم مُرّ - ويمضغها ويعالج بها المرضى الذين يقصدونه[4].

كما شاع الإعتقاد في أوساط السكان خاصة العامة في نجاعة ماء الحمّات لعلاج بعض الأمراض كالخذر[5]، وكانت حمة البهاليل ببلاد الجريد تستقطب الكثير من المرضى لأن "الذي يواظب عليها يبرأ من مرضه"[6]، ولَعَلّ نجاعة الأستشفاء بالحمّات جَعل إبن الخطيب يخلص إلى القول بأن الحَمّة هي "للصّيد والحجل والصّحة"[7].

واستعمل سكان السّوس الأقصى زيت الهَرْجَان في معالجة الكلى والبول[8] بينما إستعمل سكان تامسنا شحوم النعام ضد الصّمم وسائر الأوجاع البدنية[9] وفي منطقة الريف بالمغرب الأقصى، وبلاد المغربين

---

1 - الصّفلّي أحمد، موسوعة الطب الشعبي، ص 30.

2 - التادلي، التشوف، ص 215.

3 - السابق، ص 217.

4 - إبن فرحون، الديباج المذهب، ص 40، ترجمة أحمد بن محمد بن عيسى.

5 - إبن زهر (أبو مروان عبد الملك)، كتاب التيسير في المداواة والتدبير، تحقيق الدكتور ميسيل الخوري، الأليكو 1983م، ص 15.

6 - التادلي، السابق، ص ص 36-40-56.

7 - معيار، الإختيار، ص 124.

8 - البكري، المغرب، ص 162.

9 - الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص 72. .

الأوسط والأدنى، جرت العادة أن يضع النّاس الحناء على رؤوسهم كُلّما شعروا بصداع أو ألم.

فيما يخص معالجة أمراض العيون فقد قيل عن إبن زهرة أنه كان يكتحل بشراب الورد لمعالجة بصره وتقويته[1] وكان بعض الناس يُعالجون آلام المعدة بشرب الزيت قبل تناول الطعام خلال مدة أسبوع[2] هذه بعض أنواع العلاجات الطبية البدائية التي كانت منتشرة في بلاد المغرب عامة، زيادة على المعالجة بالرقية حيث كان بعض أشباه الفقهاء والمتصوفة يبيعون أوراقاً صغيرة كتبت عليها كلمات وعبارات ناجعة حسب زعمهم للشفاء من كل داء.

العلاج في السكن:

كان المرضَى في المغرب خلال العصر الوسيط عندما يلازمون الفراشَ يحتجبون عن الناس في بيوتهم وتتكفل الأسرة بتقديم الرعاية اللّازمة، لذلك نجد العيادات الطبية المخصصة للعلاج تكتفي بالفحص وتقديم الوصفة الطبية، فحتى المارستان يبقى خاص بالغرباء وذوي الحاجة، أما من له أسرة فهو لاَ يرضى باللجوء إليه لأن الناس يتقززون من دخوله كما يثبت نص أورده المراكشي "فالتمريض بالبيوت هو أكثر من مجرد تصرف يخضع للصدفة إذ هو إختيار إجتماعي عميق التأصل يتماشى مع التماسك العائلي القوي الذي يعيشه هذا المجتمع"[3]، فلما أصيب الفقيه محمد بن الحسين بن الزبير الثقافي (ت. 563هـ / 1168م) بالعمي وكفّ بصرُه لزم داره نحو سبعة أعوام[4] وأحمد بن أبي عبد الله بن عمر القيسي السبتي نزيل تلمسان (ت. 587هـ / 1192م) توفي بها

---

[1] - إبن ميلاد (أحمد)، تاريخ الطب العربي التونسي في عشرة قرون، تونس 1980م، ص ص 19-25.

[2] - التادلي، أخبار أبي العباس السبتي، ص 114.

[3] - إدريس محمد خليفة، التاريخ المغربي لمدينة سبتة، مطبعة الأمنية 1988م، ص 157.

[4] - إبن عبد الملك، الذيل والتكملة، ج6، ص 385.

بعد خدْرٍ طاولـه واختـلال أصـابه لـزم مـن أجلـهما داره[1] وكانـت الحالـة نفسها بالنـسبة لأبي إسـحاق إبـراهيم بـن أبي يحـيى التّـسُولي (ت. 608هـ / 1213م) عنـدما أصـيب بمـرض ألزمـه مترلـه بفـاس إلى أن تـوفي[2]. لاشـك أن الحالات المعروضـة في كتـب التـراجم كـثيرة وتفيـد كلـها بـأن الظـاهرة واسـعة الإنتـشار ومـستمرة ولا تقتـصر علـى نـوع واحـد مـن أنـواع الأمراض، وتشمل كل الشرائح الإجتماعية.

عيادة المرضى :

حظيت عيادة المرضـى باهتمـام كـبير في المجتمـع المغـربي، وهـي ترفـع من مكانـة مـن يحـافظ عليهـا إذا كـان مـن أولى الأمـر أو أعيـان المجتمـع، فمـثلاً زار الـسيد أبـو إسـحاق إبـراهيم إبـن الخليفـة يوسـف، صـديقه إبن زيدون (ت. 564هـ / 1170م) في مرضـه الـذي أقعـده الفـراش سـنتين، ثم تماثل للشفاء، واعتبر زيارة الأمير له، دليل على حسن أخلاقه وتواضعه[3].

ولعيـادة المـريض قواعـد جـسدها النـاس في الإلتـزام بـآداب زيـارة المريض بحيث تجعلها مرة كلّ ثلاثة أيـام وقـضاء وقـت قـصير معـه والاختـصار في الحديث معه والسؤال عن حاله[4].

ويزور المريض أهل قريته أو ضـاحيته وجيرانـه وعلـى رأسـهم الأصـدقاء كما يظهر من حديث إبـن بـسّام أبي جعفـر ابـن اللّمـائي (560هـ / 1175م) دخل عليه بعض أصحابه في علتـه الـتي مـات منـها[5]، وقـال ابـن المـصحفي

---

[1] - إبن عبد الملك، الذيل والتكملة، ج1، قسم 2، ص 474.

[2] - إبن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص 373.

- إبن القاضي جذوة الأقتباس، ج1، ص 68.

- المقرى، نفح الطيب، ج7، ص307.

[3] - إبن غازي، الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، مطبعة الأمينة، الرباط 1952م، ص 239.

[4] - إبن الخطيب، أوصاف الناس، مطبعة فضالة، المحمدية (د.ت)، ص 123.

- عياض، المدارك، ج6، ص 115.

[5] - إبن الزبير، صلة الصلة، قسم3، ص 70

- إبن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ج5، ص 238.

متحدثا عن زيارته لأحد أصدقائه المرضى، "دخلت عليه يوماً في تلك العلة ومعي غلام وسيم من إخواننا"[1]، وتدفع القرابة أيضا لزيارة المريض، فهذا إسحاق بن يحي اللّبثي يدخل على والده في مرضه فيسأله عن علته[2].

لقد جرت العادة في المجتمع المغربي أن يحمل العائدُ بعض الهدايا وعادة ما تكون شيئا يفتح شهية المريض[3]، ولكنها قد تكون موجّهة للأسرة دون المريض، وتدور أثناء العيادة بين المريض والعواد محادثات عديدة بعضها حول السؤال عن علته وحاله[4] .

وتكون بَعْضُ الأحاديث للتخفيف والترويح عنه، وقد يحاول المريض التنصل من كل أخطائه السابقة ويشهد عوّاده على توبته وندمه أو يطلب منهم الدعاء له بالشفاء العاجل[5]. وقد يمتد الحديث ليستحضر ذكريات جميلة تنسى المريض آلامه لبعض الوقت[6] ويحاول المريض أن يظهر تجلداً وصبراً أمام عَوّاده وخاصة منهم من له خلاف معهم أو صراع خوفًا من الشّمَاتة.

4 - واقع المريض في المجتمع:

إن انتشار المرض داخل المجتمع، يثير مشاعر الناس، يجعلهم يتخذون مواقف مختلفة من المرض، فالمريض الذي ينتظر الموت لا ينظر إلى المرض بنفس الشكل الذي يراه أقاربه وأصحابه، وحرصاً على إبراز بعض تصرفات كل من المريض وأقاربه فقد فَصَلْنا بين الموقفين، وأظهرنا تصرفات كل طرف وأبرزنا التناقضات التي كانت تظهر مباشرة على سلوكات المرضى.

---

[1] - إبن الزبير، صلة الصلة، قسم3، ص 70؛ - إبن عبد المللك المراكشي، الذيل والتكملة، ج5، ص 238

[2] - المقري، أزهار الرياض، ج3، ص394.

[3] - نفسه، ج3، ص395.

[4] - المقري، نفح الطيب، ج7، ص 378.

[5] - إبن الخطيب، أوصاف الناس ، مطبعة فضالة، المحمدية، ص 123.

[6] - المقري، السابق، ص 396.

إن المعلومات المستقاة من المصادر التاريخية لبلاد المغرب خلال فترة الدراسة قد أظهرت غموضاً واضحاً ومستمراً في موقف المريض من مرضه، فهي من جهة تتراوح بين الضّجر وَالرفض وكثرة الشكوى وبين الشكر وتقبل المرض، وَسَتْرِه عن الآخرين، ورفض العلاج وقبوله، وَمن جهة ثانية استغلال المرض للإستعداد للموت والتّوبة، إلاّ أنّ أهم ما يغلب على مواقف المرضى هو القبول على أساس أنه ابتلاء من الله وزواله رَهين بعفوه ورضاه.

ففي خلال القرن (6هـ-12م) ظهرت حالة متميزة، إنها حالة الوالي أبي يوسف عامر (ت. 520هـ / 1125م). المصاب بالفالج، وقد ترك أدباً واسعاً أكثر فيه من الشكوى والتبرّم والتنبؤ بموته القريب. وتوديع الأصدقاء والإخوان والتأسف على أيامه الجميلة[1]، وكل هذا نتيجة شدة ضعف الأنفس وعدم الصّبر، حتى هَمّ بقتل نفسه[2]. وتحدث إبن حزم عن مرضه وما أصيب به من ضجر وقلة صبر وتغير الطبع رغم أنها لم تكن من صفاته أيام صحته[3] وكان لرجل ولدٌ مريضٌ فلما خلا به طبيبه يوماً وسأله عن حاله، ضَجر الغلام من طول مُدّة العلة[4].

ويصل الضجر قمته عندما يرفض المريض العلاج والطعام وينتظر فقط الموت المحتوم كما حصل لأحمد المعافري الفاسي[5] (ت. 579هـ / 1185م)، وتظهر هذه الحالات حجم الضّجر الذي يُرافق المرض وكلّها حالات خاصة بفئة واعية في المجتمع المغربي، فكيف ستكون أوضاع

---

[1] - مجهول، بلغة الأمنية، الطبعة الملكية، الرباط 1984م، ص 205.

[2] - إبن سعيد، المغرب في حلى المغرب، دار المعارف، القاهرة 1964م ، ج1، ص 153.

[3] - إبن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ج6، ص385.

- التادلي، التشوف، ص 269.

[4] - إبن سعيد، السابق، ج1، ص122.

- إبن عبد الملك المراكشي، السابق، ج5، قسم2، ص 638.

[5] - إبن القاضي، جذوة الاقتباس، ج1، ص154.

المرض وسط العامة؟ من غير شك أن دائرة الضجر تتوسع حيث يكثر الجهل ويقل تبعاً لذلك الاهتمام بآداب المرض.

وتقابل حالة الرفض حالة الرضى والتقبل وشكر الله على إختباره واعتبار المرض تجربة يثبت فيها المرء مدى قدرته على الصّبر ومدى عمق إيمانه وأغلب هذا النوع عند المتصوفة الذين إنتشر توسعهم مَعَ تطور الحركة الصوفية خلال القرن السادس الهجري (ق. 6هـ-12م)، ويؤكد التادلي عن أبي يعقوب يوسف بن علي المبتَلى (ت. 593هـ / 1197م) المقيم في مراكش قائلا " سقط بعض جسده في بعض الأوقات فصنع طعاما كثيراً للفقراء شكراً الله تعالى على ذلك"[1]. وكان أبو عبد الله بن جزي في مرضه لا يتوقف عن ترديد كلمات الشكر والحمد لله والتسليم بقدره ويعتبر البرء والسّقم سيان، ويلزم نفسه بالصّبر والتحمل[2]. وما دمنا في هذا السياق نشير إلى أن ظاهرة تفضيل فقدان البصر على العلاج رغبة في الثواب والجنة كانت منتشرة بشكل كبير فهذا أبو زكريا يحي بن محمد بن عبد الرحمن التادلي (ت. 576هـ / 1179م) كان له وَلدٌ فقد بصره و لم يعرضه على طبيب [3]، ويلتجئ كثير من المرضى إلى ستر أمراضهم إمّا عن كل الناس أو فقط عن الأجانب، ويعود هذا التصرف إلى التدين كما هو الشأن عند المتصوفة الذين يرفضون الشكوى ويكتمون عللهم، فهذا أبو الصَالح بن الدلال المراكشي مرض ومات من ذلك المرض فما عرف علّته أحد، فلما مات وجد الجنب الذي كان ينام عليه قد أنفذته الأكلةُ إلى جوفه[4] وما أعلم أحدٌ بذلك إلى أن مات والسبب في ذلك الخجل والحياء كما ينقل الزموري عن أحدهم

---

[1] - التادلي، التشوف، ص 312.

[2] - المقرى، أزهار الرياض، ج3، ص 195.

[3] - التادلي، السابق، ص 120.

[4] - السابق، ص ص184-185.

"أصابتني علة عظيمة في موضع قد أستتر من جسمي وأنا أكره أن يطلع علي أحد إلاّ الله تعالى، وكنت أعالج منذ أمدٍ طويل"[1]. أو قد يكون السبب الخوف من شماتة الأعداء لذلك عملوا على إضفائه وستره خاصة عن الأجانب.

نظرة الناس للمريض:

إنّ تتبع سلوكات الناس المحيطين بالمريض الأقرباء منهم (الأسرة) أو الأجانب عنها كالأصدقاء والجيران تظهر لنا بوضوح، أن المريض كان يحظى بعناية كبيرة تمثلت في إبْعاد كل إحساس بالإهمال الذي يزيد من ألمه، وإحضار الطبيب لفحصه دورياً، وإحاطته علماً بالأخبار السّارة التي تحدث على مستوى التجمع السكاني الذي يقيم فيه، وتجنب كل ما يؤلمه من أخبار أو أفعال[2].

وقد شاعت فكرة إعتبار المرض عيباً يثير سخرية الآخرين، فقد إحتفظ لنا عياض بنص يثبت ذلك ويعود إلى بداية القرن السادس الهجري (6هـ - 12م). جاء فيه "أن أحمد بن يحي الشريف (ت. 528هـ / 1133م) قد عاده بعض جيرانه في علته التي مات فيها، فلما علم بهم قال أقيموني وَتجلّد" وَلَمّا سألوه عن حاله قال: "في عافية والحمد لله". ومن جهة ثانية كان الوسط الذي يعيش فيه المريض يحرص على توفير الخدمات الصحية له[3] وقد انتشر مَثل في بلاد المغرب يقول: "خلق الله الداء وأخلق الدواء"[4] وهو تعبير واضح عن الإعتقاد في العلاج واللجوء إليه عند الحاجة.

---

[1] - الزموري، أخبار أهل "طيط"، ص 124أ.

[2] - السابق، ص ص 120-121.

[3] - عياض، المدارك، ج4، ص 160.

[4] - إبن حلحل، طبقات الأطباء، مؤسسة الرسالة، بيروت 1985م، ص 99.

- مجهول، بُلغة الأمنية، ص 52.

فمثلا ترحل أحد أفراد الأمير الموحدي أبو زيد عبد الرحمن بن عبد المؤمن ويدعى محمد إبن يوسف بن عبد الرحمن سنة (577هـ / 1182م) إلى المشرق ومنه إلى الهند لعلاج قروح في وجهه والتزم بدفع نصف تجارته لطبيب هندي وكانت كبيرة مقابل شفائه ممّا يعاني منه، هذا وتتخذ معاملة المريض صُوَراً عديدة نذكر منها التمريض داخل المنزل، العيادة المستمرة، وتقديم المساعدة المادية والصدقة[1].

5 - الطب العلمي:

لقد أراد الموحدون نشر الثقافة الصحية في بلاد المغرب منذ بداية عهد الخليفة الأول عبد المؤمن بن علي (524هـ - 558هـ / 1128م - 1161م)، فأسسوا مدارس تعليمية كثيرة كمدرسة القرويين بمدينة فاس التي كانت تدرس الطبّ، وعمّموا تدريسه في كُلٍّ مِنْ المساجد، المدارس والبيمارستانات[2]، وقد تميزت هذه الأخيرة بالدراسات الطبية التطبيقية بينما كانت في غيرها نظرية بحتة لا مجال للاختبار العلمي فيها[3].

6 - الفحص الطبي:

ومن بين البيمارستانات التي بنيت لهذا الغرض، ما بناه يعقوب المنصور (580هـ - 595هـ / 1184م - 1199م) بمدينة مراكش وقال عنه المراكشي: "ما أظن أن في الدنيا مثله"[4] وكثر عدد الأطباء المغربيين حتى بلغ عددهم في بلاد المغرب تقريباً عدد الأطباء الأندلسيين في بلاد الأندلس، بل وتابع أطباء بلاد المغرب التطورات العلمية التي

---

[1] - إبن الخطيب، الإحاطة، ج3، ص 178.

- إبن أبي زرع، الأنيس المطرب، دار المنصور، الرباط 1973م، ص ص 376-396.

- مجهول، السابق، ص 53؛ -التادلي، التشوف، ص 261.

[2] - البيمارستان، كلمة فارسية من كلمتين هما بيمار ومعناها مَريض وَ ستان ومعناها دار وتكون الكلمة بمعنى دار المرضى. ينظر:

- أنور الرفاعي، الإسلام في حضارته ونظمه، ص 610.

- الخطيب (حنيفة)، الطب عند العرب، بيروت 1988م، ص 140.

[3] - محمد عادل عبد العزيز، التربية الإسلامية في المغرب، أصولها الشرقية وتأثراتها الأندلسية، الهيئة المصرية، 1987م، ص 21.

[4] - المعجب، ص 287؛ إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص 138.

حدثت في الأندلس فجَمعوا بين علم الطب والعلوم العقلية الأخرى (الهندسية، الرياضيات، المنطق، والحكمة)[1]، وهذا التحول قد أكسب الطبيب القدرة على فهم الطبيعة البشرية وإدارك أسباب الأمراض[2].

وأضاف أطباء بلاد المغرب إلى مكوناتهم العلمية عَاملا آخر عرف باسم ثقافة المنادمة (الشعر، الأدب والتاريخ). وإذا كانت هذه المميزات قد غابت عن أطباء بلاد المغرب لِكثرة الحروب وقلة الاستقرار، فإن عهد الموحدين عَرف عودة قوية لهذه الخصائص[3] حيث أصبح الطبيب منادماً متميزاً للملوك والأمراء ورجال السلطان[4] متمكّناً من تقديم وَصفة علاجية مجدية للإصابة التي أقعدت المرضى[5].

إن تَوجه الخلفاء والأمراء وطبقة الخاصة نحو العلاج عند الأطباء قد فتح المجال أمام بقية فئات المجتمع للتداوي عند الأطباء، فهذا عبد المؤمن بن علي قد أحيط بمجموعة من الأطباء يفحصونه ويتابعون تطورات مرضه عندما أخذَهُ المرضُ وازداد وَجَعَهُ[6]، وأثناء مرض الخليفة أبي يعقوب يوسف سنة (565هـ/1169م)، كان الأطباء لا يفارقونه، بل قدم بعضهم من الأندلس للتدقيق في فحصه إلى أن وَجَد الراحة وتماثل للشفاء[7]. وهكذا كان بالنسبة للفقهاء والتجار الكبار الذين اقتربوا من الأطباء. الأمر الذي جَدّد الثقة في إمكانيات الأطباء العلمية واتسعت دائرة الإقبال عليهم بمجرد الإحساس بالمرض أو الألم. ولذلك فتحت عيادات طبية في بعض المدن الكبرى، ففي

---

1 - إبن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء، ص ص 6-70.

2 - إبن جلجل، طبقات الأطباء، مؤسسة الرسالة، بيروت 1985م، ص 98.

3 - السابق ، ص ص 99-100.

4 - نفسه، ص 99.

5 - Lucien Le cherc, Histoire de la Médecine arabe, imprimerie de fedala 1970, pp 301-304.

6 - إبن عذاري، البيان، قسم الموحدين، ص 79.

7 - السابق، ص 152.

مدينة سبتة كان الطبيب محمد بن عبد المنعم الصنهاجي (ت. 612هـ / 1217م) يدرس الطب، ويفحص أصحاب العلل[1]، وينقل لنا إبن الزيات أن رجلا له أخت أصيبت بمرض فخصص لعلاجها عشرين ديناراً وسافر بها إلى أطباء فاس، فلما فشلوا في معرفة طبيعة مرضها حملها إلى أحد المتصوفة للدعاء لها[2].

ويتحدث أبو القاسم البلوي (ت. 601هـ / 1206م) عن مرضه في مدينة بجاية أنه أحضر أكفأ الأطباء لمعرفة علة مرضه وعلاجها[3]. ومن الأطباء الذين اشتهروا خلال فترة الدراسة نجد أبو عبد الله محمد بن سحنون المعروف بالندرومي الكومي (ت. 580هـ / 1184م) فقد كانت له عيادة بتلمسان ثم انتقل إلى وجدة حيث توفي[4]، ومن أطباء تونس نجد إبن أندراس وهو محمد بن أحمد الأموي وقد كان طبيبا بارزا، تنقل بين مراكش وطنجة ثم بجاية إلى أن استقر بتونس في حدود (ت. 610هـ / 1216م)[5].

إن مثل هذه النصوص التاريخية التي قدمناها تفيد بأن هناك تحولاً نحو الاستفادة من خدمات الطب العلمي سواء من قبل عامة أفراد المجتمع أو خاصتهم، لكن الفئة التي تستفيد منه تبقى محصورة في مرتبة الخاصة[6] (خلفاء، أمراء، وجهاء، علماء، تجار كبار) دون أن يعني هذا عدم إستفادة العامة. ولكن عدد المستفدين من خدماته كان قليلاً والسبب في ذلك يعود إلى العقل الجمعي المحكوم بذهنية الماضي آنذاك،

---

1 - إبن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ج2، ص 385.

2 - التشوف، ص 269.

3 - التادلي، التشوف، ص 476.

4 - إبن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج3، ص 127.

- الخطيب إسماعيل، الحركة العلمية في سنة خلال القرن السابع، تطوان 1986م، ص ص 109-116.

5 - إبن القاضي، جذوة الاقتباس، ج1، ص 88.

6 - عبد الله علي علام، الدولة الموحدية بالمغرب، ص ص 361-362.

فالعامة أكثر بطئًا في تغييرها وتقبلها للأفكار الجديدة عكس فئة الخاصة المستعدة دائما لتقبل الجديد بل لنقله وتداوله بين الأفراد، والسبب الثاني يعود إلى الأطباء أنفسهم، حيث لا يريدون الإقامة في ضواحي المدن، وَلاَ في القرى والأرياف، بل يرغبون في التقرب من الأمراء ورجال الدولة، هذا زيادة على أجرة الفحص وثمن الدواء[1].

أجرة الفحص:

ظلت أجرة الفحص الطبي مبهمة خلال فترة الدراسة وما سبقها، لكنها مرتفعة وليست في متناول الجميع، الأمر الذي مكّن بعض الأطباء من جمع ثروات ضخمة[2] فقد عثرنا على معلومات تفيد بأن كثيراً ما يطرح سعر الفحص لمساومات بين الطبيب والمريض مما يُنتج نزاعات، فقد وَرَد عن إبن جلجل في طبقاته أن امرأة تفاهمت مسبقا مع طبيب لعلاج ولدين لها مقابل إثنا عشرة درهما[3]. لكن المرأة إدّعت أن الأتفاق تمّ على أربعة دنانير، كما ذكر إبن عربي في نازلة جَرَحَ فيها رَجُلاً آخر أن أجرة الطبيب المداوي هي مناصفة بينهما[4]، وعالج الطبيب محمد بن طملون الوهراني (ت. 608هـ / 1213م) إبن الفقيه أحمد بن علي بن مُورَاطُوه (ت. 600هـ / 1205م) من قرح فأعطاه خمسين ديناراً وكسوة[5].

7 - تنظيم الأطباء:

إذا كان المشرق الإسلامي قد استطاع أن يحقق تطوراً كبيراً في مجال تنظيم الأطباء بخلق نقابات خاصة وإحداث نظام للمراقبة والإمتحان

---

1 - إبن القاضي، جذوة الاقتباس، ج1، ص 86.

2 - إبن جلجل، طبقات الأطباء، ص 94.

3 - السابق، ص95.

4 - الإمام الغرناطي، نوازله ، مخطوط بالخزانة العامة، الرباط، رقم 1839-رقم 13.

5 - إبن جلجل، السابق، نفس الصفحة.

- بن عبد الله عبد العزيز، الطب والأطباء بالمغرب، الرباط 1960م، ص ص 14-15.

قبل دخول المهنة وأثناء ممارستها[1] فإن أطباء بلاد المغرب متأخرون في هذا المضمار، إذ اقتصر تنظيمهم على أطباء القصور ففي عهد الخلافة الأموية كان للأطباء ديوان يدعى" ديوان المتطببين"[2] وينضم إليهم كل طبيب يدخل في خدمة الخلفاء، ومن بين المنظمين له أحمد بن حفصون خلال عهد الحكم الثاني[3] وبقي الأطباء يمارسون نشاطهم دون رخص[4].

وبقي الوضع التنظيمي هكذا. حتى ظهر في بلاد المغرب خلال عهد الخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف (ت. 580هـ / 1184م). تنظيم ترأسه أبو بكر محمد بن طفيل (ت. 581هـ / 1185م) الفيلسوف والطبيب المشهور. وكان يعرف هذا الرئيس باسم" المزوار"[5] وكان من مهامه امتحان الأطباء الجدد وتعيين من يستحق الدخول في خدمة الأمراء كما فعل مع ابن رشد الحفيد حينما قدّمه لأبي يعقوب[6]. ولما جاء يعقوب المنصور الموحدي جعل على رأس تنظيم الأطباء أبا جعفر الذهبي[7]، واستمر هذا الديوان حتى في ظل ضعف الدولة. وإذا كان هذا يقتصر على تنظيم أطباء القصور، فإن المحتسب قد تكفل بهذه المهمة حيث كان يراقب عملهم ويحل نزاعاتهم الداخلية. ويظهر من خلال كتب طبقات الأطباء أن التحقيق في علاج مرض معين لم يكن موجوداً، فالطبيب يعالج كل الأمراض[8].

---

1 - Lucien Le clerc, , Histoire de la Médecine arabe, op.cit ,p 573

2 - إبن جلجل، طبقات الأطباء ، ص 98.

3 - السابق، نفس الصفحة.

4 - السابق ،ص 113.

5 - المراكشي، المعجب، ص 350.

6 - السابق، نفس الصفحة.

7 - إبن عبد الله، الطب والأطباء، ص 34.

8 - إبن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج3، ص ص 121-122.

* الأسـرة:

كانت الأسرة المغربية في العصر المرابطي والموحدي تعيش الكثير من الظواهر الإجتماعية التي تمارس فيها عادات وتقاليد معينة مثل الزواج الذي أقره الله تعالى[1] وفي السعي إلى الزواج لم تكن هناك فواصل بسبب اللغة أو الدين، فقد تكون الزوجة سوداء وزوجها رجلاً أبيضًا والعكس[2].

1 - العلاقات الزوجية:

عاش الزوجان في فترة موضوع الدراسة حياة تخللتها علاقة الإنسجام والتفاخر، وتتفق جل النصوص على أن العوامل الإقتصادية كانت تتحكم في نسخ علاقات الودّ وحسن العشرة بين الزوجين[3]، لكن مدة غياب الزوج الذي يُشارك في الغزوات كانت تفسد العلاقات الزوجية[4].

وتشير إحدى الروايات المنقبية إلى إمرأة إشتكت لأبي العباس السبتي أذى زوجها وإعتياده على ضربها باستمرار، إلى أن وَصَلَ بها الأمر أنها كانت تريد إلقاء نفسها في البئر[5]. كما إنتشرت عادة هروب بعض الزوجات من بيت الزوجية وَلاَ يتحرّجن من ترك أولادهن وتُضَاجعن رجالاً آخرين[6].

ومن الأسباب التي كانت تثير المشاكل بين الزوجين خروج المرأة من المنزل لقضاء حاجاتها من غير إذن زوجها، وأثناء عودته من السّفر لا يجدها داخل البيت فيغضب، الأمر الذي يترتب عليه توتر العلاقات الزوجية[7]. هذا ناهيك عن مشاكل أخرى ذات طابع مادي صرف

---

1 - إبن بسام، الذخيرة، ق2، ج1، ص 345؛ - إبن سعيد، رايات المبرزين ، ص116.

2 - التادلي، التشوف، ص 326.

3 - إبن عذاري، البيان المغرب، ج4، ص 30

4 - إبن رشد، نوازل إبن رشد، ص 302.

5 - مجهول، مناقب الشيخ أبي عباس السبتي، ورقة 102 أ.

6 - الوزان، وصف أفريقيا، ج1، ص ص 271-272.

7 - محمد بن عياض، مذاهب الحكام، ورقة 70 ب.

تمخض عنه نزاع وخصُومات نذكر من بينها نفور الزوجة من الإقامة في مسكن غير لائق[1] أو عجز الزوج عن توفير خادمة لمساعدتها في شؤون البيت[2]. وأحيانا أخرى كان في طلب الرزق وتوسيع دائرة الكسب سببا يؤدي إلى إرهاق الزوجة وغضبها ومن ثمّ معاتبة زوجها[3].

ومن المشاكل التي زعزعت كيان الأسرة نجد فساد أخلاق الزوّج أو الزوجة فيعمد أحدهما إلى خيانة الآخر جنسيا، وفي هذا الإطار أورد إبن الزيات جملة من هذه الحالات[4]. ويبدو أن الخيانة الزوجية كانت ظاهرة شائعة لدى النساء اللّائي تزوّجن رجالا متقدمين في السّن، وقد وَردت هذه المسألة في الأمثال العامية[5].

وهناك بعض المشاكل تعود أصلا إلى الزوج مثل تلك التي تتعلق برجل إلتزم في عقد النكاح ألاّ يضرب زوجته. وألاّ يأخذ شيئا من مالها بغير إذن منها، ثم يخَالفَ إلتزامه[6]، ورجل آخر صَدَرَ منه إجحاف في حق زيارة الزوجة لأهلها في أفراحهم[7].

ومن بين الأسباب التي كانت تؤدي إلى توتر العلاقات الزوجية، زواج الرجل مرّة ثانية، ممّا يجعل الزوجة الأولى ترفض أن تكون معها إمرأة أخرى تشاركها حياتها الزوجية بل كانت تفضل الموت على أن تعيش مثل هذه الوضعية، كما رفضت الزوجة أن يتسرى زوجها بجارية من الجواري، وفرضت عليه ذلك في عقد نكاحها[8].

---

1 - إبن سعيد، رايات المبرّزين، ص 39.

2 - التادلي، التشوف، ص274، ترجمة رقم 120.

3 - السابق، ص219.

4 - السابق، ص 214.

5 - يقول المثل: إذا أَزْوَجَ الشّيْخ لَصْبَيّ، يَفْرحُ صَبيان القرية. ينظر: - الزجالي، أمثال العوام، ج1، ص 244.

6 - محمد بن عياض، مذاهب الحكام، ورقة 167 أ.

7 - إبن رشد، نوازل إبن رشد، ص 66.

8 - إبن رشد، السابق، النسحة المحققة، ص 219.

2 - تربية الأطفال:

ظلّت الأسرة خلال العهد الموحدي المؤسسة الأولى التي يتلقى فيها الطفل تربيته ويهيئ نفسه للعيش والعمل داخل المجتمع المغربي. ومن الأدلة على إهتمام المجتمع المغربي بتربية النشأ مَا جاء في كتاب "الإعلام بقواعد الإسلام"، الذي ألّفه القاضي عياض[1] مُوجّهاً نصوصا لتلقين الأطفال تربية دينية منذ الصّغر وَدَعّمه إبن عبدون[2] حينما طالب الآباء أن يأمروا أبنائهم بالصلاة منذ صغرهم وإلاّ أَدّبُوهم على تقصيرهم.

وَقد عمدت الكثير من الأسر الموحدية إلى إتخاد مربيات سودانيات لرحمتهن وحنانهنّ على الأطفال[3] ويبين السِّياق العام لتربية الأولاد أنها إرتكزت على ثلاثة عناصر هي الأسرة، المؤدب ثم البيئة الإجتماعية، ففي أوساط الطبقة الخاصة كان الأب يلعب الدور الهام في تربية الطفل وتوجيهه منذ الصّغر. فأغلبية فئات هذه الطبقة حرصت على توجيه أبنائها وتحضيرهم للوظائف التي كانوا يشغلونها؛ فأبو العلاء بن زهر شغّله أبوه في الطب[4] وفعل أبو العلاء نفس الشيء مع إبنه[5]، كما حرص الفقهاء على توجيه أبنائهم لدراسة الفقه ليصبحوا بدورهم فقهاء[6]. ولتحقيق أهداف الإرشاد والتوجيه لم يتوانى الآباء في تدريس أبنائهم بأنفسهم. فأبو محمد بن عبد الرحمن (ت. 520هـ / 1126م) روى عن أبيه لأنه وَسَمع منه معظم ما عنده[7] وسار على نفس المنهج إبن رشد الذي أخذ عن أبيه كثيراً ولازمه مدة طويلة[8].

---

1 - أعراب، "دور المغاربة في تربية الطفل"، مجلة دعوة الحق، عدد5، ماي 1979م، ص41.

2 - السابق، ص 53.

3 - نفسه، ص 57.

4 - إبن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج3، ص104.

5 - السابق، ج3، نفس الصفحة.

6 - إبن الزبير، صلة الصلة، قسم الغرباء، تح برفنسال، ص 131.

7 - مجهول، طبقات المالكية، ص 267؛ - القاضي عياض، الغنية، ص 46.

8 - السابق، ص 296.

أما على مستوى طبقة العامة فإن أسلوب التربية يختلف ، فقد كان إهمال الأبناء واضحاً مما جعل إبن عبدون[1] يتهم الآباء بأنهم لا يعيرون على الأبناء ما يفعلون من وجوه الشر، ناصحا كل من له إبن " أن يوصيه، وينهاه عن إتيان الشر والضرر" وَيَصُب إنتقاد الأهوائي للأباء في نفس السياق إذ ذكر بأن "الصبيان لا يبذلون جهداً ولا يفقهون رشداً وربّما كان أباؤهم قريبين منهم، فالأطفال بين داخل وخارج، والآباء بين جاف ومهمل"[2] كل ذلك لأن الأب في هذا الوسط العائلي بقي بعيداً عن أبنائه، منشغلاً في تحصيل رزقه غير مهتم بتربيتهم تاركا ذلك إلى زوجته في أغلب الأحيان.

مراقبة الآباء لأبنائهم:

إن آلية مراقبة الآباء لأبنائهم تتجسد أكثر في أوساط الخاصة، وإن كانت معتمدة لدى بعض الأسر في أوساط العامة، فقد وَرَدَ على لسان إبن العربي "أنه كان مع بعض شيوخه، فجلس إليه أبوه يطالع ما انتهى إليه في تعلُّمه على كثرة مشاغله"[3] وذهب إلى ذلك إبن عبد الملك عن محمد بن عبد الملك بن زهر أن أباه "ألزمه موضعا من داره وبناه عليه، ولم يترك منه إلا موضعا يدخل الطعام والشراب إليه، وأقسم ألا يخرج منه حتى يستظهر كتاب حيلة البرء لجالينوس، فلم يمر عليه إلا أمد قليل حتى فرغ من حفظه"[4].

وتذكر كُتب التراجم أن بعض الآباء شجعوا أبناءهم على الجد والمثابرة في دراستهم ورصدوا لهم جوائز في حالة تفوقهم فقد ورد أن أباً

---

[1] - رسالة في الحسبة، ص 54.

[2] - ألفاظ مغربية، ج2، ص 245.

[3] - إحسان عباس، "رحلة إبن العربي إلى المشرق"، مجلة الأبحاث سلسلة 21، ج2، كانون الأول 1978م-1979م، ص ص 73-80.

[4] - - إبن الزبير، صلة الصلة، قسم3، ص 70

- إبن عبد الملك، الذيل والتكملة، ج6، ص399.

قال لأبنائه "وإذا وجدتكم على أهبة من الحفظ والأداء وإلتزام آداب العقلاء جازيتكم بما يرضيكم وما يزيد على أقصى تمنيكم"[1].

و لم تكن البنات في الأسر الوجيهة بعيدة عن هذه القاعدة، فهذه زينب بنت عبَّاد السرمانية السبتية (ت. 591هـ / 1197م) رَوَت عن أبيها وأجاز لها[2]، كما أن أحمد بن عبد الله بن الحطية اللّخمي (ت. 560هـ / 1166م) علَّم إبنته كتابة الخط[3]، ويستشف من خلال كتب المناقب والتراجم أن دور الأم في تربية الأطفال ظل محدودا، وربما عُوض بدور الأخ الأكبر[4] أو العم[5] أو الجد[6].

لكن في الوسط العاميَّ كان الآباء يحدون من طموحات أبنائهم العلمية بسبب فقرهم، ويحثونهم على تعلم أي حرفة للتكسب بها، لمساعدتهم على سدِّ حاجيات الأسرة، وقد أشار إبن عبد الملك صراحة عندما ترجم لعلي بن عبد الله الانصاري (ت. 567هـ / 1173م)[7] أن أباه كان شحاذ السيوف، وأنه أرسله في حاجة إحتاج إليها في عمله فأبطأ عليه فلحق به ووجده في إحدى حلقات الدراسة، فأهانه وصرفه لتلك الحاجة وبالمثل كان أبو العباس السبتي الذي عاش طفولته في بداية العهد الموحدي، فقد نشأ يتيم الأب، وأرادت أمه أن تعلّمه حرفة، فحملته إلى أحد القزازين للتعلم منه لكنه هرب عنه وإلتحق بحلقة أبي عبد الله الفخار (ت. 580هـ / 1186م) فمنعته من ذلك[8].

---

1 - إبن القاضي، جذوة الإقتباس، ج2، ص 384.

2 - إبن عبد الملك، الذيل والتكملة، ج8، ص485.

3 - الذهبي معرفة القراء الكبار، ج2، ص423.

4 - إبن الأبار، التكملة، ج2، ص 833.

5 - السابق، ص ص 12-50؛ - إبن القاضي، السابق، ص 388.

6 - إبن عبد المالك، السابق، ج8، ص 287.

7 - إبن عبد الملك، السابق، ج5، ص229.

8 - السابق، نفس الصفحة.

طرق تربية الأطفال:

لقد إتسمت الطرق التربوية بالعنف وهذا راجع للسلطة الأبوية المطلقة داخل الأسرة ومن الأدلة على ذلك علاقة القمع والعنف السائدة بين الأب وأفراد أسرته فكُتب النوازل أوردت أنواعا مختلفة وكثيرة من الإهانات، الشتائم، اللوم، التهديد والوعيد الذي كان يلوح بها الأب كلما حدث خلاف بينه وبين أبنائه أو بينه وبين زوجته[1].

فقد أُعتبر الطفل في الأسرة دائما مخطئا رغم براءته، وفي هذا الإتجاه أورد إبن الزيات رواية حول الشاعر إبن الزقاق (ت. 541هـ / 1146م) الذي عاتبه أبوه وزجره لأنه كان يسهر ليلا فيضيع زيت القنديل، رغم أن سهره كان من أجل التحصيل العلمي، وكثيرا ما وصل الأمر إلى الضرب[2].

وعلى غرار الأبناء كانت البنات تُجبرن على الطاعة والإمتثال، أساسها الخوف أكثر من كونها مبنية على التقدير والإحترام[3]، وجدير بالإشارة إلى أن طرق التربية خلال فترة موضوع الدراسة إختلفت حسب المستوى المادي لكل عائلة فبقدر ما قامت على العنف والإهانة والضرب في أوساط العامة[4]، إرتكزت على النصيحة والموعظة وإعطاء الإعتبار للطفل في عائلات الطبقة الخاصة[5]، من وجهاء، وأعيان، وفقهاء وغيرهم.

---

[1] - إبن عبد الملك، الذيل والتكملة، ج5، ص ص 385-386.

[2] - التادلي، التشوف، ص98، ترجمة أبو الفضل النحوي (ت. 536هـ/ 1141م).

[3] - أشار التنبكتي إلى أن إبنا سأل والده عن سر غيبته في بعض الأيام فأجاب الأب "دع السؤال عما لا يعنيك"، كفاية المحتاج، ج2، ص ص 198-199.

[4] - إبن القاضي، جذوة الإقتباس، ج2، ص 503.

[5] - السابق، ص504.

كما كانت الوصايا والمواعظ تقدم للأبناء من طرف الأب عند بلوغهم سن الرشد[1] وكانت تدور حول التمسك بالدين وإلتزام قواعد الشريعة والجهاد[2] وطلب العلم[3]، الأمر بالمعروف، الصدق والأمانة، ترك الرذائل، تجنب الظلم[4]، البر بالعائلة والقرابة والجيران.

لكن هذه الحالات لم تكن قاعدة عامة لا يخرج عليها أحد، بل تكشف كتب التراجم عن حالات متعددة من فساد أخلاق الأطفال، وسوء تربيتهم، فقد تظهر أطفال بمشاكسة الرجال الكبار، وذكر صاحب الإستبصار أن أطفال مكناسة فيهم دعارة وسفاهة فإذا أُخرجوا إلى فضاءات واسعة حرّكتهم طباعهم الذميمة[5]، وتعكس بعض الأمثال الشعبية الخصومات التي كانت تحدث بين الإخوة والجيران وتراخي أبائهم عن ردعهم[6].

3 - النزاعات العائلية:

لقد كان الإرث العائلي واحدا من أهم الأسباب المثيرة للنزاعات العائلية خلال العهد الموحدي، إذ كثيرا ما يستحوذ الإبن الأكبر على ما يتركه الوالدان بعد وفاتهما، ومما يؤكد هذه الظاهرة خلال الفترة موضوع الدراسة أن النزاعات تنعدم عند الأسر التي لم تعقب أكثر من إبن واحد أو بنت واحدة أو إبنين على الأكثر، لأن الإرث أو الهبة يذهب إليه مباشرة، مثلما حدث لرجل إشترى لإبن له قطعة أرض صغيرة بمال وهبه له وعَقَدَ له به عقد الشراء[7].

---

[1] - إبن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص 246، ترجمة 104.

[2] - إبن القاضي، جدوة الإقتباس، ج1، ص 174.

[3] - إبن عبد الملك، الذيل والتكملة، ج4، ص22.

[4] - التادلي، التشوف، ص255.

[5] - مجهول، الإستبصار، ص 188.

[6] - قالت أمثالهم – أضَارْبُ الفلاّسَ وصاحب الدار حالس-. ينظر: - الزحالي، أمثال العوام، ج2، ص 63.

[7] - إبن الحاج، نوازل إبن الحاج، ص ص 37-38.

وتشير عقود أوردها عياض إلى أن أبا تصدق على إبنيه بدار في مدينة طنجة[1]، وأبا آخر أوقف مجموعة حوانيت على إبنه[2]، بينما حبس آخر أرضًا على إبنته[3]، في حين عرفت العائلات التي خلفت عدة إخوة بعض النزاعات بسبب الميراث، وإن كان بعض الأبناء تنازل طوعا عن حقه كما فعل القاضي عياض عندما تنازل عن مبلغ مالي ورثه عن أبيه[4].

غير أن مثل هذه الحالات كانت محدودة، فكتب الفتاوى مليئة بمسائل تتعلق بالنزاعات العائلية حول الميراث، فقد استفتى إبن الحاج[5] حول رجل توفي وترك مُلكا إستغله إبنه مدة ثلاثين سنة، فقامت أخته تطلب نصيبها، كما استفتي حول إمرأة أقامت دعوة ضد أخيها الذي باع أملاكاً كانت لأبيها[6] وفي نفس السياق أورد محمد بن عياض[7] مسألة تتعلق بنزاع قام بين إخوة إقتسموا ميراث أبيهم وبينهم أخ غائب، فخرجت في حصته جنة أراد المقدم على القسمة أن يستغلها، فرأى الأخ الغائب أنه أحق بها[8].

وتكشف نازلة أخرى أوردها إبن رشد أن نزاعا وقع بين بعض الإخوة من جهة وأخيهم الأكبر من جهة أخرى، والسبب في نشوب هذا النزاع هو أن الأخ الأكبر حاز الميراث لنفسه بعقد مكتوب[9]

---

1 - محمد بن عياض، مذاهب الحكام ورقة 152.

2 - إبن رشد، نوازل إبن رشد المحققة، ج5، ص 293.

3 - السابق، ص 29.

4 - محمد بن عياض، التعريف بالقاضي عياض، ص ص 112-113.

- المقري أزهار الرياض، ج5، ص84.

5 - نوازل إبن الحاج ص ص، 211-212.

6 - السابق، ص 212.

7 - مذاهب الحكام، ورقة 28.

8 - نفسه، ورقة 10 .

9 - نوازل إبن رشد المحققة، ج5، ص321.

مستغلا نفوذه الذي خولته له سِنُّهُ، ونفهم من خلال هذه النازلة أن هناك تراتبية داخل الأسرة تفرض أن يكون الأخ الأكبر صاحب نفوذ[1].

وقد تركت هذه التراتبية عداوة طيلة حياة الإخوة داخل الأسرة الواحدة بسبب ميراث الأرض والأموال، ولم تخل النزاعات الأسرية من خلاف بين الأب وإبنه فقد أفادت بعض النوازل أن رجلا إبتاع أملاكا لإبن صغير بمال كان قد ورثه من أمه، فلما كبر الإبن وملك نفسه طلب ملكه من أبيه لكن الأب رفض ذلك، وإدّعى أن عقد الأبتياع قد ضاع منه[2].

كما عرفت الأسرة خلال العهد الموحدي نزاعات كان الإبن اليتيم أساسها بسبب بعض حقوقه أحيانا، فقد ورد أن وصِيًّا على الأيتام كان لهم عنده غنم وبقر، ثم عُزل عن إيصائه، وإدعى أنه كان ينفق عليهم من أمواله في حين أثبتت البيِّنة أن غلة المال المصروف عليهم كان من أموالهم[3] لذلك أفتى بعض الفقهاء بأن يكون أمر اليتيم بيد القاضي وتكتب له عقود[4] وكان الفقر عاملا مساعدًا على نشوب النزاعات الأسرية التي واجهت الكثير من العائلات لدرجة أن أحد الآباء إضطر إلى تسليم إبنته لرجل آخر قصد كفالتها[5].

*** المـــرأة :**

لقد تشدد إبن تومرت إمام الموحدين في منع إختلاط الرجال بالنساء [6] والحد من حريتهن. ومنع سفورهن في الطرقات العامة مما يدل على إتباع الموحدين لأحكام الدين بشأن صيانة المرأة وحمايتها، إلاّ أنّ هذا الحد من الحرية لم يمنع الموحدين في مناسبات مختلفة من

---

1 - دندش، "معاهد العلم والتعليم" مجلة دعوة الحق، ع 258، أوت 1986م، ص ص 93 -115.

2 - محمد بن عياض، مذاهب الحكام، ورقة 53 أ.

3 - إبن الحاج، نوازل إبن الحاج، ص ص 108-109.

4 - الجزيري، المقصد المحمود، (مخ) ورقة 120أ.

5 - التادلي، أخبار أبي العباس السبتي، ترجمة أبو العباس أحمد بن محمد بن يونس (ت540هـ/ 1146م).

6 - البيدق، أخبار المهدي ، ص 33.

إظهار تقديرهم واحترامهم للمرأة ، ففي إحدى معارك الموحدين ضد المرابطين سقط كثير من الأسرى في يد الموحدين ومنهم عدد كبير من النساء، وقد قامت إحداهن وهي "تاماكونت" ابنة "ينتيان بن عمر" بالتحدث مع عبد المؤمن بن علي وَذكرته بصنيع أبيها مع المهدي حين تشفع فيه عند أمير المسلمين علي بن يوسف فأطلق سراحه[1]، فأمر عبد المؤمن بإطلاق سراحها، لكنها رفضت حتى يطلق معها كل النساء، وكان عددهن أربعمائة، فامتثل عبد المؤمن لها وأمر بإطلاقهن معززات حتى معسكر المرابطين[2] وكذلك حين استشفع أبو شعيب المتصوف (561هـ / 1166م) عند الخليفة عبد المؤمن في إطلاق سراح نساء على ابن يوسف ونساء أولاده فاستجاب له [3].

وفي بعض الأحيان إتخذ الموحدون من السبايا زوجات لهم حيث يقول البيدق "وقسم الخليفة الغنائم - بعد انتصار الموحدين على المرابطين في إحدى المعارك- وأخذنا فيها مائة بكر وكن عندنا مؤمنات فقسمهن الخليفة على الموحدين وتزوجوهن، وبقيت فاطمة بنت يوسف الزناتية وبنت ماسكن بن المعز فرمى الخليفة القرعة مع أبي إبراهيم على فاطمة فأخذها. وأخذ الخليفة بنت ماكسن بن المعز أم الأمير إبراهيم والأمير إسماعيل"[4].

كذلك أكرم الناصر الموحدي سبايا ميورقة حين أمر بإطلاق سراحهن ومساعدتهن بالأموال على الزواج[5].

---

[1] - العمري، مسالك الأبصار، ج15، ص 39.

[2] - البيدق، أخبار المهدي، ص 88.

[3] - أبو العباس التدلي (الصّومعي)، المعزى في مناقب أبي يعزى، دراسة وتحقيق علي الخاوي، رسالة نيل (د.د.غ) في التاريخ، جامعة محمد الخامس 1989م، ص ص 130-131.

[4] - البيدق، السابق، ص 94.

[5] - المراكشي، المعجب، ص 315.

- وفي نفس السياق يشير البيدق إلى ما وحدته نسوة العرب الهلاليين حين وقعن في الأسر من الخليفة عبد المؤمن وَكل لهن الخدم لخدمتهن حتى وصلن إلى مراكش فأنزلهن المساكن الفسيحة و أجرى عليهن النفقات الواسعة. ينظر:

- البيدق، السابق، ص 118.

إلاّ أن هذا لم يكن دائما قاعدة تتبع مَعَ السّبايا فقد يحدث أن يُبَعن كما تباع السلع والأمتعة وهذا ما حدث لنساء "كزولة" و"لمطة" اللّائي وقعن في أسر الموحدين حيث باعهن الموحدون على أحد أبواب مراكش [1] ويبدو أن بعض تجار الرقيق لاَ يلتزمون بأحكام الشرع، ويسرعون في بيع النساء ومن هنا صدرت رسالة من الخليفة عبد المؤمن سنة (543هـ / 1148م) تشير إلى هذا الخطأ حين قال: "وأنه أُعلمنا بأن من يرضى من تلك الفواحش ربما يرضاه ويستبيحه ولا يبالي أَحَسَنٌ فعله أم قبيح يبتاع المرأة ويبيعها دون إستبراء ولا يتحفظ من مواقعة الزنا المحض ومخالفة الواجب مع الفرض"[2]، وقد بين الخليفة علاج ذلك بقوله "فلا سبيل لأحد ممن هنالك أن يبتاع شيئا منهن أو يبيع حتى يستأذن الحاكم لأمره منكم والشيوخ لئلا يذهب الحق في ذلك ويضيع... وكذلك فليتوقفوا عن بيع النساء في جميع ما تغنمونه منهن في تلك الأرجاء، حتى تخاطبون بأصل أمرهن وكيفيته، وتعلمون من ذلك بجليته يرسم لكم فيه ما يكون عليه اعتمادكم ويجري إليه اقتصادكم"[3].

وقد أشتهر المنصور الموحدي بإنصافه المرأة حيث يقول ابن خلكان في ذلك "ويقف للمرأة والضعيف ويأخذ لهم الحق"[4] ومن هذا يتضح أن المرأة تمتعت بمكانة طيبة ونالت التقدير والاحترام من ولاة الأمر بالمغرب.

1 - تعليم المرأة :

لم تشر المصادر والمراجع التي تَيسَّر الإطلاع عليها إلى موقف عامة النساء من الثقافة المحيطة بهن والمستوى العلمي الذي وصلن إليه، وإنما أشارت فقط إلى بعضهن من بيت الحكم والسّلطة في الدولة وبعض

---

[1] - البيدق، أخبار المهدي، ص 118.

[2] - إبن القطان، نظم الجمان، ص 160؛ - رسائل موحدية، دراسة محمد العزاوي، ج1، ص 114.

[3] - السابق، نفس الصفحة.

[4] - إبن خلكان، وفيات الأعيان، ج6، ص 10.

المقرّبات الموهوبات بقدرات عقلية متميزة، حيث حصلن على قسط وافر من الثقافة[1] لا شتغالهن بالعلوم المختلفة.

وفي فترة نشر الدعوة شاركت المرأة في الإستماع إلى كلام من ابن تومرت ونصائحه فحين أحس إبن تومرت بدنو أجله، جمع الرّجال والنّساء للإستماع إلى نصائحه ووعظه وفي هذا يقول إبن القطان: "وذلك لأنه لمّا تطور مرضه – أي مرض ابن تومرت- خرج راكبا على بغلته وجمع الناس ليسمعهم كلامه ووداعه وأمر أن يكون الرجال أمامه والنساء خلفه ليسمع كلُّهم كلامه"[2].

ومن بنات الخلفاء المثقفات التي أشارت إليهن المصادر، الأميرة زينب إبنة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن- حيث يُذكر بأنها درست علم الأصول عن أبي عبد الله بن إبراهيم (ت. 591هـ / 1196م) وكانت عالمة صائبة الرأي فاضلة[3]، ومن الشّهيرات الشاعرة حَفْصَة إبنت الحاج الرّكونية (ت. 583هـ / 1188م) وهي من الشاعرات اللاّئي مدحن الخليفة عبد المؤمن بن علي[4]، ثم عينت للتدريس في قصر الخليفة المنصور الموحدي لنساء القصر، وأم خيرونة الفاسية التي كانت تحضر مجلس عثمان السّلاجي إمام أهل فاس في الأصول، وقد اقترحت عليه تأليف كتاب في مذهب الأشاعرة فألّف "العقيدة البرهانية"[5]، وكذلك فاطمة بنت عبد الرحمن التي دَرست أصنافا مختلفة من كتب الفقه والأصول، إذ حفظت القرآن بقراءة نافع وكتاب "شهاب الأخبار في الحكم والأمثال والأدب" للقاضي محمد بن سلامة (ت. 606هـ / 1211م) وعدة

---

1 – إبن القاضي، جذوة الاقتباس، ص ص 105-106.

2 – إبن القطان، نظم الجمان، السابق، ص 126.

3 – عبد العزيز بن عبد الله، مظاهر الحضارة المغربية، ج22، ص 9.

– المنوني، العلوم والآداب، ص 33.

4 – المقرى، نفح الطيب، ج5، ص 303.

5 – عبد العزيز بن عبد الله، السابق، ج2، ص 109.

كتب في اللّغة وصحيح مسلم في الحديث وفي التاريخ" سيرة ابن إسحاق" وفي الأدب "الكامل" للمبرد وغير هؤلاء من النساء اللاتي حرصن على التزود من العلوم الإسلامية والدراسات الأدبية المنتشرة في ذلك العصر، وهناك من تخصصت في العلوم الطبية ونبغت فيها مثل: عائشة بنت محمد الجبار[1] التي قرأت الطب على صهرها محمد الشريشي وكانت امرأة عاقلة نزيهة النفس عارفة بالطب والعقاقر[2]. وتذكر المصادر شارة الحلبية وهي من أديبات هذا العصر، وعرّفها أحد معاصريها بقوله: "وهي من المتظرفات، فاقت نساء عصرها، أديبة شاعرة وطبيبة ماهرة تتعرف بيدها في جميع الصناعات فتجيد ذلك، وفدت على الخليفة أبي يوسف يعقوب المنصور بمراكش فأكرمها وخلع عليها"[3].

نفوذ المرأة:

لم يكن للمرأة في المجتمع الموحدي ذلك النفوذ الذي تمتعت به خلال العهد المرابطي وهذا لا يعني جمودها واقتصار نشاطها على الجوانب الإجتماعية، بل وجدنا لها مشاركة في الشؤون السياسية حين ظهرت مبايعة القبائل لعبد المؤمن بن علي، يقول البيدق: "وصاح بالقبائل- أي عبد المؤمن بن علي - بعد رجوعه من غزوة كَزوُلة، وضم الموحدين وجَعَلَ المجلس فاستعمل ركائز وَحالَ بين الرجال والنساء ثم وعظ الناس وقال لهم في آخر كلامه بقي عندكم عَهْدُ بَيْعَةِ المهدي"[4].

لم توضح الرواية هل قامت النساء بالمبايعة أيضا؟ وإنما اكتفت بـ: "فمدَّ يده وَبَايَعهُ أصحابه، ثم تبعه سائر الناس حتى الليل. وكانت البيعة ثلاثة أيام متتالية"[5] ويرجّح أن النساء اشتركن في البيعة لحضورهن

---

1 - محمد الجبار (ت613هـ/ 1218م) كان محتسباً بسبتة، إبن الخطيب، الإحاطة ، ج3 ، ص 27.

2 - إبن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 217؛ - الخطابي، الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية، ص66.

3 - إبن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص ص 284-386.

4 - البيدق، أخبار المهدي، ص 85.

5 - السابق، نفس الصفحة.

هذا الإجتماع يضاف إلى ذلك أن كلمة الناس التي وردت في النّص تشمل الرّجال والنساء.

واحتلت زوجة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن مكانة طيبة بالرغم من عداوة أبيها محمد بن سعد للخليفة. وذلك بعد دخوله في طاعة الموحدين ، فأكرمه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن وتزوج من إبنته، التي كسبت وَدّه واستحوذت على مشاعره حتى كان الناس يضربون المثل بحب الخليفة للزرقاء المردنيشية[1]، واستطاعت بهذه المنزلة أن تشير على زوجها بتعيين بعض أقربائها في بعض المناصب[2].

2 - عمل المرأة:

قامت المرأة في المجتمع المغربي خلال فترة البحث بدورها الأساسي والمتمثل في رعاية الأسرة والإشراف على شؤون البيت وتربية الأبناء إلاّ أنه بجانب ذلك اشتغلت بعضهن في حِرف بغرض الكسب، ومارست بعض المهن فرضتها الأعراف والتقاليد مثل نساء أهل السوس وأغمات[3]، حيث اشتغلت بعضهن بغزل الصوف حيث يقول ياقوت الحموي: "نساؤهم يد صنّاع في غزل الصّوف فَهُنّ يصنعن منه كُلّ حسن بديع من الأُزر يفرق القصيب الذي بمصر ويبلغ ثمن الإزار خمسة وثلاثين ديناراً أو أكثر"[4].

كذلك نساء فاس كن يشتغلن بالتطريز وحياكة الملابس شأنهن في ذلك شأن نسوة أهل تلمسان[5]، كذلك كانت المرأة تبيع بعض أغراضها

---

1 - إبن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص ص 311-312.

2 - إبن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص 413.

3 - إن أهل السوس وأغمات أكثر الناس وأطلبهم للرزق يكلفون نساؤهم وصبيانهم التحرف والكسب. ينظر:
- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 302.

4 - ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص 49.

5 - ياقوت، نفسه، نفس الصفحة.

وبعض المنتوجات الفلاحية، والحيوانية واللّبن[1]، كما اشتغلت بالتجارة، حيث تبيع الكتان والملابس للنساء وهي متجولة. وسمح لها بالتسوّق لشراء بعض الأغراض المنزلية[2].

ونتيجة لحصول بعضهن على ثقافة عالية كالعالمة حفصة بنت الحاج الركوني حيث كانت أستاذة فأسندت إليها مهمة تدريس نساء المنصور الموحدي في قصره وتوفيت بحضرة مراكش سنة (580هـ / 1184م)، وكذلك اشتغلت بعض النساء بالطب ومن هن أخت الطبيب أبو بكر بن زهر وابنتها إذ كانتا بارعتين في الطب وكانتا تداويان نساء المنصور الموحدي[3].

ويقول ابن أبي أصيبعة "كانت أخته أي أبي بكر بن زهر – وابنتها عالمتين بصناعة الطب والمداواة ولهما خبْرة فيما يتعلق بمداواة النساء وكانتا تدخلان إلى نساء المنصور ولا يقبل أن تتولى قبالة نساء أهله أي توليدهن إلاّ المذكورتين"[4].

اشتغال المرأة في ميدان الفلاحة:

في الأوقات التي انعدم فيها الأمن في بلاد المغرب خاصة في المرحلة الإنتقالية لدولة الموحدين أثناء مطاردة القبائل الصنهاجية، في الجهة الغربية لبلاد المغرب، وأثناء القلاقل والثورات التي أحدثها بنو غانية، العرب الهلاليين والغزّ الأتراك في الجهة الشرقية لبلاد المغرب إلتجأ السكان إلى المناطق الجبلية والمناطق الوعرة قليلة الخصوبة وتعاطوا هناك الزراعة والغراسة المحدودة. وكان الهدف منها معاشي قبل كل شيء

---

1 – البيدق، أخبار المهدي، ص 21.

2 – السابق، ص 62.

– البيدق، السابق، نفس الصفحة .

3 – عبد العزيز بن عبد الله، الطب والأطباء بالمغرب، ص 30.

– د/ أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دمشق سنة 1939م، ص 16.

4 – إبن أبي أصيبعة، عيون الأنباء وطبقات الأطباء، بيروت، 1965م، ص 524.

لقد كانت كل قرية وكل منزل يزرع المساحات القريبة منه، ويغرس بعض الأشجار المثمرة حول المنزل أو التجمع السكاني، وهناك شاركت المرأة في معظم الأشغال الفلاحية، من جرّ المحراث إلى البذر إلى تنقية الحقل من الأعشاب الضارة[1] مادامت المساحة لا تتعدى عدة أمتار مربعة، وينسحب الأمر على المساحات الكبيرة وهي أكثر انتشاراً كانت أيضا معظم الإستغلاليات عائلية فالعائلات الأكثر عدداً تستطيع أن تستغل مزارع أكبر مساحة من تلك التي تستغلها العائلات الصغيرة [2] واستعمل في هذا النوع من النشاط الفلاحي جملة من العناصر منها العبيد السود التابع لصاحب الأرض، والزوجة والأولاد[3]. حيث كانت أعمال تنقية الحقل المحروث تسند إلى الشيوخ والمتقدمين في العمر، وتكسير الطوب بواسطة مشط يقوم بها الرجال متوسطي العمر وأصحاب القوة والصّبر، بينما تسير النساء وراء المحراث لتكسير الطوب، واقتلاع الأعشاب[4]، وقد ساد هذا النوع من الأعمال الفلاحية خلال العهد الموحدي وعُرف بالإقتصاد العائلي، ولم تعد ثمة حاجة لليد العاملة الزراعية ولا للعبيد السود حيث حلت محله العائلة بكامل أفرادها من الشيخ إلى الأب والأم والأبناء[5].

وفي أوساط الخاصة كانت المرأة قد تمكنت بفضل حنكتها وإمكانياتها المادية من لعب أدوار طلائعية في كل المجالات، مما جعلها تحظى بالتقدير والإحترام على صعيد المجتمع والأسرة وهذا ما يفسر إعتزاز بعض

---

[1] - محمد الطويل، الفلاحة المغربية في العصر الوسيط، ص 81.

- Dozy, Histoire des Musulmans D'Espagne, op.cit, p 115.

[2] - عز الدين موسى ، النشاط الاقتصادي في المغرب. ص 201.

[3] - التادلي، التشوف، ص ص 11-113.

[4] - محمد طويل، السابق، ص 82.

[5] - السابق، ص 83.

- إبن خلدون، الصبر، ج3، ص 899.

- مارمول، أفريقا، ج1، ص 31.

الرجال من تلك العائلات ذاتها بمكانة زوجته مثل إعتراف القاضي عياض بن موسى المتوفى في مراكش سنة (544هـ / 1149م) بما قامت به زوجته عَاتكة بنت أحمد (ت. 555هـ / 1160م) من مساعدته في تأليف كتبه[1]، وكانت زوجه إبن طفيل أبو بكر طبيب الخليفة عبد المؤمن تساعده في أعماله، تنظم لقاءاته، وتحضّر له مادته العلمية، وتسهر عل ترتيب مواعيده[2]. وكانت المرأة في هذا الوسط أيضا مساعدة لكسب الثروة الناتجة عن التجارة فقد كان تجار أهل أغمات يحبون التكسب ويدفعون بالنساء للبحث عن الإكثار من الأرزاق[3].

وبالمثل فإن ورقاء بنت بنتان (ت. 584هـ / 1189م) كانت إلى جانب فطنتها ورجاحة عقلها إدارية بارعة تقوم بالإشراف على مطاحن الزيتون التي ورثتها عن أبيها بنتان (ت. 576هـ / 1182م)، وتساعد زوجها في أعماله[4].

وأم عَمرو بنت أبي بكر حفيد بن زهر (ت. 602هـ / 1208م) التي ورثت سرّ صناعة الطب عن أبيها وأجدادها، وكانت متخصصة في القبالة وعلل النساء[5].

3 - مظاهر تزين المرأة:

الوشم:

تحصل عليه المرأة عن طريق غرز الإبر في البدن وذر مادة من المواد كالحناء أو تغرز بالإبرة في البدن حتى يسيل الدم ثم يحشى بالكحل، وقد جعله الرسول -صلعم- مكروها فقد قال -صلعم-: "لعن الله الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة"[6] غير أنه ما لبث أن تحولت هذه العادة إلى ظاهرة مرتبطة

---

[1] - التادلي، التشوف، ص ص 136-140-256.

[2] - إبن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص 115.

[3] - المراكشي، المعجب، ص 102.

[4] - إبن القاضي، جذوة، ج2، ص 533.

[5] - محمد العربي الخطابي، الطب والأطباء في الأندلس و المغرب، بيروت 1988م، ص 77.

[6] - إبن أبي زيد، متن الرسالة، ص 13؛ - والحديث رواه أبن مسعود، صحيح البخاري اللّباس، ج4، ص 41.

بالتزين، وإن لم تكن تخلو من بعض الإعتقادات، والنماذج الشائعة في الوشم عند البربر كانت عبارة عن رسوم هندسية بسيطة تتكون من نقط، دوائر، مثلثات، وخطوط مستقيمة ومركبة [1]، وتتخذ شكل الطبيعة كورق الزيتون[2] وقد استمرت بعض هذه التقاليد إلى يومنا هذا، ومن بين المواد المستعملة نجد الحناء والزعفران، الكحل وبعض النباتات الأخرى كلوز العصفة[3]. واستغنى عن الوشم باستعمال هذه المواد دون حفر الطبقة العليا للجلد، وارتبط ذلك ببعض المناسبات كالزواج، أو برغبة الزوجة في التزين لإثارة إعجاب الزوج، "غير أنهن لا يستطعن البروز إلى أقاربهن بتلك الحال، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو أبنائهن ويفعلن ذلك ليكن أكثر جاذبية، متوهمات أن تلك الزينة تزيد كثيرا من جمالهن" [4]، وجرت عادة نساء بلاد المغرب، أنهن قبل الزفاف إلى أزواجهن يخضبن بالحناء وجوههن وأذرعهن وأيديهن إلى رؤوس الأصابع، وقد أخذن هذه العادة عن نساء البلاد، وبالمقابل تأثرت النساء البربريات ببعض طرق الوشم لدى المرأة العربية، وذلك بالتجمل بوشم عدة أرقام ورسوم ملونة باللون الأزرق على الجسم كله بما في ذلك العنق، واليدين، والقدم[5].

1- Stéphane Gsell , op, cit, p.14.
laoust (E.), Mots et choses berbères, p 140.
Susan Searigh, Le tatouage chez la femme Marocaine Etudes et documents berbères, 10 ; 1993 ; pp 31-45.

2- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج1، ص 64.

3- السابق، ج1، ص ص 64- 65.

4- السابق، ص 65.

5- السابق، ج1، ص 64.

- مارمول، إفريقيا، ج1، ص 111.

تصفيفات الشعر:

يظهر من قول المهدي بن تومرت في غطاء وتسريحة شعر المرأة المرابطية، والتي شبهها بسنم الجمل[1]، أنها كانت تجمع شعرها فوق رأسها بشكل السنم ليرتفع بنحو ربع ذراع، وتتخذ غطاء تعصب به رأسها، وتزخرفه بأنواع من حلي الذهب واللؤلؤ، والأحجار الكريمة[2] ومازالت نساء الصحراء المغربية تصفف شعرها على هذه الطريقة بالأثمد لأنه يجلو البصر"[3]، وإن كنا نجهل طرق التزين المتبعة في تكحيل العينين والحاجبين، فالمؤكد أن الكحل كان من المواد المستعملة في مثل هذه الأغراض، حتى أن أحد أبواب مدينة مراكش كان يعرف بباب الكحل [4]، لارتباطه بمكان بيع هذه المادة، وقد استنكر ابن تومرت أثناء عودته إلى العاصمة المرابطية، تزين الصبيان بحماية على هيئة النساء، وذكر إبن القطان التكحل كمظهر من مظاهر التزين[5].

الطّيب:

يعتبر من مكملات التزين المهمة عند المرأة، وتشمل كلمة الطّيب العطور بشكل عام[6]، ويدل استعمالها على الإنبساط والإنشراح، ويمكن التعرف على بعض أنواع العطور المستعملة من خلال الهدية التي قدمها الأمير الموحدي أبي حفص (ت. 598هـ / 1203م) للشيخ عبد الغفور (ت. 613هـ / 1218م) العائد من الصحراء، والتي اشتملت على العود الرطب، والمسك والعنبر[7]. ويعتبر العود نوعا من العصير يُتَطَيَّبُ به

---

1 - إبن تومرت، أعز ما يطلب، ص 259.

2 - Dozy (h) Dictionnaire, p. 239.

3 - إبن سعد محمد، الطبقات الكبرى، مطبعة لندن، أبريل 1914م، ج1، ص 171.

4 - إبن عذارى، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص 322.

5 - إبن القطان، نظم الجمان، ص 93.

6 - إبن منظور، لسان العرب، ج1، ص 565.

7 - مجهول، الحلل الموشية، ص 28؛ - إبن عذارى، البيان المغرب، ج1، ص 26.

وإن تُـرك لِيَـبَـبَسَ فيُتَجـبرُ بـه[1]، أمـا المـسك فهـو لفـظ فارسـي معـرب، وكانـت تـسميه العـرب "المـشموم"[2]، وينبـع العنـبر مـن صـخور وعيـون في الأرض فيجتمـع في البحـر، فـإذا تكـاثف طغـى علـى المـاء، وقطعتـه الـريح وأمـواج البحـر إلى قطـع صـغيرة وكـبيرة[3]، وأشـار الإدريـسي إلى وجود هذا النوع مـن الحجـر بـسواحل المحـيط الأطلـسي[4]، ويـروي البيـدق أن إبن تومرت كان يبيح الطيب للرجال والنساء[5].

الحلي: بعض المواد المعدنية المستخدمة في صناعة الحلي:

ضمن هـذه المـواد نجـد الـذهب، الـذي يـستخرج بكميـات قليلـة بالقرب مـن سجلماسـة[6]، وبإحـدى الجبـال المجـاورة لتـازا[7]، فيمـا ظلـت منطقة الـسودان الغـربي طـوال العـصر الوسـيط، المـصدر الأول الـذي يمـون المغرب بكميـات كـبيرة مـن الـذهب[8]، واسـتخرجت الفـضة مـن ثـلاث منـاطق في الـسوس الأقـصى، مـن زجنـدر[9]، الـذي يعتـبر أهـم مـنجم للفضة في العصر الموحدي، حيـث دار الـصراع حولـه بـين الـسلطة الموحديـة وسـكان المنطقـة[10]، ممـا جعـل الخليفـة أبـا يعقـوب يوسـف الموحـدي يقود حملـة بنفـسه، لإفـشال محاولـة سـيطرة سـكان المنطقـة علـى المـنجم واستغلاله لفائدتهم.

---

[1] - إبن منظور، لسان العرب، ج3، ص 319.
[2] - الفيروز ابادي، القاموس المحيط، ج4، ص 138.
[3] - القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص 117.
[4] - الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص 104.
[5] - البيدق، أخبار المهدي بن تومرت، ص 13.
[6] - البكري، المغرب، ص 151.
[7] - السابق ، ص 118.
[8] - المراكشي عبد الواحد، المعجب، ص511.
[9] - السابق، ص 509.
[10] - السابق، ص ص 364-365.

ومن أنواع الحلي، نجد الأقراط، والخواتم، والأساور، والخلاخل، وتعد أهم أنواع الحلي المستعملة في العصرين المرابطي و الموحدي.

الأقراط:

حلي تعلق في أسفل الأذن، وتسمى أيضا بالأخراص[1]، وكانت نساء الأعيان تضع أقراطا كبيرة من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة[2]، واتخذها المرأة متوسطة الحال من الفضة[3]، واكتفت نساء العامة باستعمال أنواع مصنوعة من الحديد والنحاس[4].

الخواتم:

من حلي اليد، وكانت تصنع من الذهب، الفضة والحديد، وتعد الفضة الأكثر إستعمالا في الخواتم لدى الخاصة والعامة[5].

الأساور:

من حلي المعصم، اتخذها النساء الميسورات من الذهب، ووضعن عدة أساور في كل ساعد، وأحيانا يكتفين بأسورة واحدة، وفي هذه الحالة يصل وزن سوار واحد إلى مثقال، وهو ما يعادل 350 غراما[6]، أما المرأة الفقيرة ومتوسطة الحال، فقد اتخذها من الفضة والحديد[7].

الخلاخل:

لفظة عامة تطلق على كل ما يلبس في الساق من حلي[8]، واتخذت من الذهب والفضة والحديد حسب المكانة المادية للمرأة[9]، وكانت

---

1 - إبن القطان، نظم الجمان، ص 93؛ - الونشريسي، المعيار، ج3، ص 100.

2 - الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج1، ص252.

3 - السابق، ص 110.

4 - السابق، ص ص 110- 359.

5 - السابق، ص ص 64-110-185-294-359.

6 - السابق، ج1، ص 252.

7 - السابق، ص ص 46-185-252-294؛ - مارمول، إفريقيا، ج2، ص 57.

8- ابن منظور، لسان العرب،ج 11،ص 221.

9- الحسن الوزان،السابق،ج 1،ص ص 46-110-252-294.

تدخل ضمن الصداق الذي يقدمه الزوج لعروسه[1]، وأيضا من الهدايا التي يتحف بها الزوج عروسته بعد أن يدخل بها، وتسمى هذه العادة بـ: "حل السراويل"، حيث يقال "فلان صبّح زوجته بكذا"[2]، وقد أثار ذلك جملة من الخلافات، بحيث اعتبرت الزوجة الهدية هبة لها وملكا، ومنعت زوجها من التصرف في هذه الهبة ولو اضطر إلى ذلك، غير أن بعض الفقهاء أفتوا لصالح الزوج، فابن الحاج يرى أن الأزواج إنما يفعلون ذلك "بعد تمكنهم من زوجاتهم ودخولهم بهن من غير امتناع وَلاَ لأجل العطية، وإنما يفعلون ذلك معروفا لهن وإحسانا وإظهارا للرضى بهن [3]، وكانت بعض هذه الخلاخيل ذات صوت، ويعتقد أنها كانت تصاغ مجوفة، ثم تحشى بقطع معدنية، أو حجرية صغيرة، هي التي تحدث تلك الأصوات عند المشي[4]. وإلى جانب ذلك، نجد الدمليج من حلي الذراع، ويعرف أيضا بالسوار[5].

*** لغة التخاطب:**

عرفت بلاد المغرب خلال عهد المرابطين والموحدين إنتشاراً واسعا للّغة العربية خاصة في أوساط الطبقة الحاكمة وساعد في ذلك الأساس الديني الذي فامت عليه الحركتان بإعتبارهما إصلاحيتين، وهكذا وجد الكتّاب الذين يُحسنون العربية والبربرية مجالا واسعا[6] في بلاط السلاطين والأمراء.

وقد شجع الموحدون الأدباء والكتاب الوافدين من الأندلس في التقرب إليهم لحاجتهم لهم في شؤونهم الإدارية، وتواصلهم مع السكان

---

1 - الونشريسي، المعيار، ج3، ص 100.

2 - الونشريسي، السابق، ج2، ص 16.

3 - نفسه، ص 100.

4 - أبو عبد الله سيدي محمد المهدي، النوازل الصغرى، ج1، ص 362؛ ج2، ص16.

5 - إبن منظور، لسان العرب، ج3، ص 292.

6 - إبن عذارى، البيان المغرب، ج4، ص ص 113-114.

سواء البربر أو العرب[1]، فقد كان "المهدي بن تومرت" فصيح اللسان في اللّغتين البربرية والعربية[2]، وألّف كتابه في عقيدة التوحيد بالبربرية، بينما كان من يفهم العربية يقرأ المرشدة[3].

وعمل بنو عبد المؤمن بن علي على تأديب أولادهم وتعليمهم اللغة العربية وآدبها على يد أدباء أندلسين فهذا النحوى والأديب الأندلسي أحمد بن حسن السيد الجراوي المالقي (ت. بعد 569هـ / 1165م) قد إنتقل إلى مراكش ليعلّم بني عبد المؤمن" فسما قدره هناك وإتسعت شهرته[4].

تعرب اللسان البربري:

لقد كان كلٌ من يعرف البربرية والعربية معا يقدَّم ويفضّل خاصة على منابر مساجد البلاد. فلما دخل الموحدون جامع القرويين عزلوا خطيبه "أبا محمد مهدي" وقدموا مكانه الفقيه أبا الحسن بن عطية لأنه يفهم اللغتين البربرية والعربية فكان يخطب بالعربية إلى أن توفي عام (540هـ / 1145م)[5].

فالعربية هي اللغة الرسمية في المكاتبات والمراسلات وهي لغة الدين والتعليم والتخاطب وإن كانت اللغة البربرية هي لغة التخاطب بين القبائل وسكان الأرياف[6].

كما عرف الأندلسيون القاطنون ببلاد المغرب بقدرتهم على الإلمام بالكثير من اللغات مثل محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن المعروف بإسم " إبن محرز" (569هـ - 655هـ / 1173م - 1257م)

---

[1] - إبن عذارى، البيان المغرب، ج4، ص ص 113-114؛ - المقري، نفح الطيب، ج3، ص 201.

[2] - إبن أبي زرع، الأنيس ، ص111.

[3] - الذهبي، سير الأعلام النبلاء، ج 19، ص541.

[4] - السيوطي، بغية الوعاء، ج1، ص 302.

[5] - إبن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ص 42-47-140.

[6] - إبن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص 160.

الذي وصف بالفصاحة مع التفنن في العلوم وحفظ اللغات[1] الأمر الذي جعلهم دعما للعربية.

وجدير بالإشارة إلى أن دخول العرب الهلاليين وإنتشارهم في أقاليم بلاد المغرب قد أعطى دعما قويا لنماء اللغة العربية في المدن الكبرى وأوجدها ببوادي البلاد التي نزلوا بها وإقتسموها مع سكانها.

وبناءاً على ما سبق ذكره فإن لغة المحادثة لهذا العهد غلبت عليها العربية في المدن وبالأخص في الحواضر الكبرى كمراكش، فاس، تلمسان، بجاية، تونس، بونة، طبنة، وفي البوادي التي نزلها العرب الهلاليون.

في حين كانت بعض المناطق المعزولة جغرافياً والآهلة بالسكان لم توفر لسكانها الظروف الملائمة للإحتكاك أكثر بالعرب، كمنطقة تنملل، وجبال حاحا، وغمارة وسفوح مناطق تامسنا، الأمر الذي جعل سكانها أقل إنفتاحا على اللغة العربية رغم إهتمامهم الشديد بالدين الإسلامي وتعطشهم لتعاليمه. هؤلاء السكان البربر ومن هم على شاكلتهم لفتوا إنتباه الخلفاء الموحدين لعجزهم عن فهم اللغة العربية فهما صحيحا الأمر الذي دعاهم إلى تلقين تعاليم الدين الإسلامي باللغتين العربية والبربرية، وهذا ما يفهم من كلام المراكشي "كان من التقاليد المتبعة لدى الموحدين أنهم يقرؤون عند ركوب الخليفة في المحافل الرسمية تواليف إبن تومرت بلسانهم البربري وباللسان العربي"[2] كما يندرج في نفس السياق ما ألّفه إبن تومرت لأصحابه وهو الكتاب المسمى بالتوحيد باللسان البربري[3]، وكتابان هما القواعد وآخر كتاب

---

[1] - الصفدي، الوافي بالوفيات، ج1، ص198.

[2] - الناصري، الإستصقا، ج1، ص 99؛ - المراكشي، المعجب، ص 228.

[3] - إبن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، مطبعة مجريط 1886م-1889م، ص 206.

- إبن القاضي، جذوة الإقتباس، المطبعة الحجرية الفاسية، 1309هـ، ص 324.

الإمامة، دوَّنهما باللغتين العربية والبربرية وكان ينقل إليهم المواعظ والأمثال ويقرَّب لهم المقاصد بالبربرية[1].

وهذا يعني عجزهم التام عن فهم اللغة العربية، فهذا أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن عياش زامن أبي عبد الله حفيد القاضي عياض (580هـ - 654هـ/ 1186م - 1260م) الذي يعتبر صاحب القلم الأعلى والذي حرَّم على نفسه مخاطبة الناس بغير العربية[2].

*** اللباس:**

يشكل اللباس في أي مجتمع نظاماً متعدد المحاور ويخضع لعدة تأثيرات وتطورات، وضوابط وأهم هذه المحاور ما يمكن تسميته بالقيم الروحية والأخلاقية، التي تجلّت في الإلتزام والمنع، والتحريم والتسامح والتروات كما كان متعارفا عليها ويبدو أن اللباس خلال عهدي المرابطين والموحدين قد عرف عدة تطورات يمكن التطرق إليها من خلال ربطها بمستوى عيش السكان أو بشريحة من المجتمع أو رصدها على مستوى بعض القيم الروحية والأخلاقية أو من خلال أنماط العيش المختلفة بين البادية والحاضرة، ومن أجل توضيح الصورة، نتعرض، للباس سكان بلاد المغرب كما يلي.

1- اللّباس العام:

1- 1 - لباس البدن:

البرنس أخذ من الكلمة الإغريقية بيرنو " Burnu " وتعني أسمر، وهو لون قريب من الأسود الذي يطبع لون البرنس، واعتمد بعض المؤرخين والباحثين

---

[1] - إبن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، مطبعة بحريط 1886م-1889م، ص 782.
- البيدق، أخبار المهدي، ص ص147-148.
- محمد المنوني، حضارة الموحدين، ص ص 106-107.

[2] - محمد المنوني، السابق، ص 107.

على هذا المظهر الخارجي في محاولة تفسير الأسس التي دعت العرب إلى تقسيم البربر إلى بتر وبرانس[1].

وكان البرنس لباسا للرهبان المسيحيين[2]، وبالنسبة لبلاد المغرب فهو لباس موغل في التاريخ المغربي القديم[3] ومازالت إحدى المأثورات الشعبية البربرية تقول: "ورثنا عن الجدود حلق الرؤوس وأكل الكسكس وارتداء البرنس"[4] وينطبق ذلك على رواية ابن خلدون في سياق حديثه عن لباس البربر فيذكر أنهم كانوا يرتدون البرانس الكحل ويتركون ورؤوسهم في الغالب حاسرة وربما يتعاهدونها بالحلق[5]. ويبقى غطاء الرأس منسدلا على الظهر ويستعمل في حالة البرد الشديد وإذا كانت العامة تتخذ البرنس من نسيج الصوف الخشن أو الكتان[6]، فإن الفئات الميسورة كانت تسعى للتميز، فاتخذتها من رقيق الصوف والحرير والديباج، ومنها ما كان يختص بالخلفاء الموحدين[7] وجدير بالإشارة إلى أن مدينة نول لمطة بالجنوب المغربي كانت تعد سوقاً مهما للنسيج.

---

1 - (E.F) Gautier, le passé de l'Afrique du nord (les siècles obscurs du Maghreb payot), Paris 1952, P 241.

2 - (A) Sefrioui, costume et parures d'Afrique, Maroc imprimerie Gaillard, casa 1982, P 13.

3 - (E.F) Gautier, op. cit, p p 225-227.

4 - التقي العلوي، "أصول المغاربة"، مجلة البحث العلمي، ع 20، سنة 1992م، ص 18.

5 - إبن خلدون ، العبر، ج6، ص 116.

6 - البيدق، أخبار المهدي بن تومرت، ص 33.

7 - إبن عذاري، البيان قسم الموحدين، ص ص187-329.

(A) Sefrioui, op.cit, p 12. -

(G) Esquer, le Costume Algérois d'après un ouvrage récent , p 93. -

1- 2 - السروال:

أشار البكري إلى السروال بمنطقة تامسنا كزي لأحد أمراء بورغواطة واقتدى به في ذلك أهل بلده[1]، وأشار القاضي عياض إلى أنّه سَنّ في القضاء سُننا وجعل سكان فاس يلبسون السراويلات نساء ورجالا[2].

1 - 3 - الجلابية:

يرى البعض أن أصلها يرجع إلى الكلمة العربية " جلباب"[3] التي وردت في القرآن الكريم: "يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما"[4]. ويعرّف ابن منظور الجلباب أنه القميص، ويقول إنه ثوب أوسع من الخمار دون الرداء، ويعني أيضا الملحفة والإزار والملاءة[5]، ولقد اختص بالمرأة وحدها، ويعتبر تفسير الخطيب الشربيني أكثر دقة، فقد عرف الجلباب بأنه كل ما يُستَر به، فإن كان المراد به القميص، فادناؤه حتى يغطي بدن المرأة ورجليها، وإن كان المراد به ما يغطي الثياب، فادناؤه تطويله، وتوسيعه، بحيث يستر جميع بدنها وثيابها، وإن كان المراد به مادون الملحفة فالمراد ستر الوجه واليدين [6]. ويعني هذا التفسير أن الجلباب لا يقصد به زيّاً محددا، وإنما هيئة معينة، شرّعها الإسلام لتوفير ستر عورة المرأة، ويمكن تحقيقه بأي طراز آخر من الثياب، وهذا ما جعل المفسرين واللغويين، يختلفون في تعريفه بغض النظر عن تأويلاتهم فيما يخص

---

[1] - البكري، المغرب، ص 137.

[2] - القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج8، ص 174.

[3] - (A) Sefrioui, op.cit, p 12.

(G) Esquer, op.cit , p 93.

[4] - القرآن الكريم، سورة الأحزاب، الآية 59.

[5] - إبن منظور، لسان العرب، ج1، ص ص 172-173.

[6] - حول هذا التفسير، يمكن العودة إلى المؤلف: عبد الحليم أبو شقة، دراسة جامعية لنصوص القرآن الكريم وصحيحي البخاري ومسلم، ط1 دار القلم للنشر والتوزيع 1991م، ج 4، ص 37.

طريقة أداءه الواردة في القرآن الكريم[1] .فالجلباب إذا هو نعت للهيئة التي تبدو بها الألبسة، فهل كلمة جلابية في المغرب الأقصى كانت تقصد هذه الهيئة؟ مع العلم أنها كانت مقتصرة على الرجال فقط، والإجابة عن هذا التساؤل ستساهم في تأكيد اشتقاقها من الكلمة العربية "جلباب"، وهو أمر وارد، فابن وانودين، من كبار الموحدين، فر من سجن ازمور الذي وضعه فيه الخليفة الموحدي أبو الحسن المعتضد بالله المدعو بالسعيد، وذلك بعد أن تستر في جلابية بتواطئ مع أحد الحراس الذي اشتراها له، من غير أن ينتبه بقية الحراس[2]، ويعني ذلك أن الستر من بين الأغراض التي يفي بها الجلباب، ونظراً لاختلاف الجلابية عن الجلباب من حيث الشكل، واقتصار الأولى على الرجال، والثانية على النساء، فقد أرجع البعض أصلها إلى الكلمة البربرية "تلبح"، وتعني لباسا[3]. تنسج الجلابية من الصوف فقط، وانحصرت ألوانها في اللونين الأبيض والأسود، وتجلّى دورها في الوقاية من البرد والمطر، وهي تحيط بالجسد، تتسع وتضيق، بأكمام ضيقة، ويستغني عنها بفتحتين لتمرير الذراعين وفتحة في الأعلى يشد إليه غطاء الرأس[4]. وتنسدل إلى موضع الركبتين، وتقصر عن ذلك وتطول حسب رغبات الأشخاص وعاداتهم، وإن لم تكن شائعة الإستعمال، فقد كانت حاضرة ضمن الألبسة في العصرين المرابطي[5] والموحدي[6]، ووردت في أمثال العوام: "أتيس من عبو البايت الذي باع الجلابية واشترى

---

[1] - عبد الحليم أبو شقة، دراسة جامعية لنصوص القرآن الكريم وصحيحي البخاري ومسلم، ط1 دار القلم للنشر والتوزيع 1991م، ج4، ص 35 وما بعدها.

[2] - إبن عذارى، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص 35 وما بعدها.

[3] - (A) Dozy, Dictionnaire ..., p 124.

[4] - Ibid. P 126.

[5] - التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، ص ص 106-367-368.

[6] - إبن العذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص 368.

المقرع" [1]، وأتيس بمعنى أغبى وأجهل، أما عبو فهو إسم عَلَم من الأسماء البربرية ، والبايت تعني الحارس الليلي، والمقرع تفيد العصا، وهو مثل يوضح دور الجلابية في الوقاية من البرد والأمطار خاصة بالنسبة لمن يحترف الحراسة بالليل، ويستفاد من رواية ابن عذاري المراكشي، أن الحراس العشرة لابن وانودين، كانوا يرتدون الجلابيات[2]، وقد استمر هذا النوع من اللباس إلى يومنا هذا، حيث تطورت فنون تفصيله وخياطته[3].

1 - 4 - العباءة:

يعرفها ابن منظور في لسان العرب، بأنها ضرب من الأكسية[4]. والعباءة العربية قصيرة، مفتوحة من الجهة الأمامية، لا أكمام لها، ولكن تستخدم فيها تقويرات لإمرار الذراعين، وتكون في الغالب منسوجة بنسيج غليظ[5]. وهو تعريف يعطيه "دوزي" للعباءة بغض النظر عن امتدادها الجغرافي والبشري[6]. ويبدو أن العباءة في المغرب الأقصى خلال عصري المرابطين والموحدين لم تتميز عن هذا التعريف، فهي قصيرة، مفتوحة من الجهة الأمامية وبدون أكمام. ونستقي ذلك من رواية المؤرخ إبن عبد الملك المراكشي في سياق حديثه عن الهيئة التي دخل بها المتصوف عيسى بن عبد العزيز يلبخت إلى مجلس يعقوب المنصور الموحدي، حيث كان ملتفا في عباءة [7]. ويفيد الإلتفاف أنها كانت فضفاضة[8]، وفي حالات أخرى تكون ضيقة[9]، وتتخذ في الغالب

---

[1] - الزجالي، أمثال العوام، ج2، المثل رقم 491، ص 110.

[2] - إبن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص 368.

[3] - (L) Brunot, Noms des vêtements masculins à Rabat, P P 98-99

[4] - إبن منظور، لسان العرب، ج1، ص118.

[5] - سلام شلابي، ألبسة على مشجب التراث، ط1، ليبيا 1990م، ص125.

[6] - (R) Dozy, Dictionnaire...,p 294.

[7] - إبن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ج1، ص250؛ - إبن مرزوق، المسند الصحيح، ص 342.

[8] - التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، ص 106.

[9] - الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج1 ، ص 58.

من الصوف الخشن[1]، وانحصرت ألوانها في الأبيض والأسود، وهما لونان توفرهما الصوف أصلا[2]، وميزت لباس الفقراء والزهاد والمتصوفة[3]. وتقوّى حضورها لدى فئة الخاصة في العصر الموحدي، ومن خلال ترجمة التادلي لحياة المتصوف أبي الحجاج يوسف ابن موسى الكلبي الضرير، المعاصر للمرابطين، نجد أن العباءة هي اللباس الوحيد الذي كان يستر جميع أعضاء الجسم، حيث كانت تصنع للتادلي عباءة واحدة في السنة تزامنا مع عيد الأضحى[4]. ويتوسط العباءة مئزر صوف[5]. وقد مَهَرَ أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن الصنهاجي (ت. 592هـ / 1200م)، في خياطتها[6]، فاستحق بذلك لقب الجبابي، وميّزت الجبة أزياء العامة على الأخص، وكان نسيجها من الصوف[7]، أما الأعيان فاتخذوها من رقيق الصوف، أو الملف، كتلك التي أهداها الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بن علي لوالي غرناطة الشيخ أبي عبد الله سنة (563هـ / 1168م)[8]، فيم اتخذها المتصوفة والزهاد من الصوف الخشن[9] وتراوح سعر الجبة التي إشترط أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن الصنهاجي في خياطتها، بين خمسة وعشرة دراهم في حين ووصل ثمنها إلى عشرة دنانير[10]. وشمل هذا الزي بعض المتصوفات[11]، وكان من صادرات المغرب إلى المشرق منذ القرن

---

1 - التادلي، التشوف إلى رجل التصوف، ص 106؛ - الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ص ص 58-333.

2 - التادلي، السابق، ص58.

3 - السابق، ص ص 105- 106؛ - إبن عبد الملك المراكشي، السابق، ص ص 249-250؛ - الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص5؛ - الحسن الوزان، السابق، ج1، ص ص 58-333.

4 - التادلي، السابق، ص 106.

5 - التادلي،السابق؛ - الترجمة رقم 191، ص367؛ - الترجمة 159، ص314.

6 - إبن القطان، نظم الجمان، ص 172.

7 - التادلي، السابق، ص 216.

8 - مجهول، الحلل المشية، ص 27.

9 - التادلي، السابق ،ص 216.

10 - السابق، الترجمة رقم 159، ص 314.

11 - السابق، ص 112.

(4هـ - 10م)[1]، حيث كانت من أزياء أبي زيد مخلد بن كيداد من بني يفرن، وإتخذها قصيرة الكمين[2]. وعرفت تطورا مهماً في أواخر العصر الوسيط، إذ أصبحت زيًّا مميزا للفئات الميسورة بمدينة مراكش، اتخذت من الجوخ، وهي ثياب مستوردة، وتعددت ألوانها، وامتدت إلى الأرجل[3]، لكنها لم تذكر بعد هذا التاريخ، ولم تعد من الملابس التقليدية للمغرب [4].

1 - 5 - القميص والتشمير أو التشامير:

لم يكن لبس القميص شائعا في المغرب خلال العصرين المرابطي والموحدي، وقد إنتبه إلى ذلك بعض الجغرافيين العرب القدامى، فالمقدسي في سياق حديثه عن لباس أهل المغرب لم يذكر القميص إطلاقاً[5]، فيما لاحظ اليعقوبي أن القبائل الصنهاجية جنوب مدينة سجلماسة لايلبسون قمصان، وإنما يلتشحون بثيابهم [6]، ولم يكن رجال قبيلة برغواطة يلبسون القمصان[7]، ولم ترد ضمن هدايا يوسف بن تاشفين لابن عمه أبي بكر بن عمر[8]، ولا ضمن الهدايا والهبات التي تقدمها الدولة، ونجد هذا الغياب في العصر الموحدي، فلم تشمله الكسوة التامة التي كان يخلعها الموحدون على بعض رعاياهم[9]، واختلف الأمر مع العرب الوافدين على المغرب في عهد أبي يعقوب يوسف الموحدي، فنجده قد كساهم

---

1 - إبن حوقل، صورة الأرض، ص ص 4-95.

2 - القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج5، ص303 .

3 - مارمول، إفريقيا، ج2، ص57.

4 - مارمول، السابق، نفس الجزء والصفحة.

5 - المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دي كوج ليدن 1967م، ص 339.

6 - اليعقوبي، البلدان، دي كوج ليدن 1967م، ص360.

7 - البكري، المغرب، ص 137.

8 - إبن عذارى، البيان المغرب، ج4، ص 26؛ - مجهول ، الحلل الموشية، ص 27.

9 - إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ص 213-214-215.

القمصان سنة (566هـ / 1174م)[1]، وهذا الإستثناء لا يبرره سوى شيوع لبس القميص لدى العرب الشرقيين[2]، ولذلك أدخلته الدّولة ضمن الألبسة المنعم بها عليهم. ويظهر أن انتشار عادة لبس القميص، إرتبط بهجرات القبائل العربية التي تكثفت في العصر الموحدي[3]، ولا يعني ذلك الغياب المطلق لهذا اللّباس، فقد أشارت إليه المصادر بمناطق متفرّقة، وكان زيّا مميّزا لإبن تومرت [4]، وورد ذكره عند الحسن الوزان أواخر العصر الوسيط .

ويمكن القول، أن القميص لم يكن شائعَ الإستعمال سوى في المراكز الحضرية، لعدة أسباب، ذكر بعضها الحسن الوزّان في سياق حديثه عن سكان منطقة حاحا بإقليم مراكش، حيث لاحظ غياب زراعة الكتّان بالمنطقة، وجهل السكان لتقنيات تفصيله وخياطته. وتتحقّق من رواية الحسن الوزّان إذا علمنا أن القميص شكل اللباس الداخلي للجسد، ولذلك اتخذ من نسيج رقيق[5]، والكتان يفي بهذا الغرض، لكن زراعته تراجعت منذ القرن (4هـ / 10م)[6].

لم يتمّ الوقوف على وصف شامل للقميص. ولكن من خلال الألبسة القديمة المقارنة، نجده لا يختلف كثيرا عن القميص الفارسي القديم من جهة، والقميص القطني الأبيض الذي عرفته بعض مناطق البلقان من جهة أخرى[7]. وتتخذ القمصان نمطا واحدا ويتمثل في إنسدالها من فوق السروال[8] ، لتقترب من موضع الركبتين، وقد تكون ضيقة

---

[1] – إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 348.

[2] – (R) Dozy, Dictionnaire ..., p 374.

[3] – ابراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج1، ص 275.

[4] – التادلي، التشوف إلى رجل التصوف، الترجمة 159، ص 314؛ – إبن القطان، نظم الجمان، ص 172.

[5] – الزجالي، أمثال العوام، ج2، ص 48؛ – الحسن الوزان، وصف افريقيا، ج1، ص 251.

[6] – يمكن العودة إلى الفصل الثاني من الباب الثاني ضمن المادة الخام الضرورية لصناعة الألبسة.

[7] – حسين تحية كامل، تاريخ الأزياء وتطورها، مكتبة نهضة مصر و مطبعتها القاهرة، ج1، ط1.(د.ت)، ص 89.

[8] – إبن القطان، نظم الجمان، ص 172.

وملتصقة بالجسد، كتلك التي يرتديها سكان ناحية كزولة[1] أو أطول من ذلك وعريضة الأكمام، وهذا النوع الأخير كان يستورد من السودان[2]، وقد تكون الأكمام مفتوحة ويصل طول بعضها إلى خمسة أذرع، تشد في الغالب خلف الظهر عند الرغبة في القيام ببعض الأعمال اليدوية[3] وينتهي القميص عند العنق بفتحة مستديرة، من الممكن زركشتها بالحرير الأصفر[4]، فيما اتّخذها سكان جزولة دون أكمام ولا أطواق[5]، وينسج القميص من الصوف[6]، الكتان[7]، القطن والحرير، فكانت العامّة تتخذها، وكان القميص لباسا للمرأة والرجل، واكتفت نساء مدينة فاس، تلمسان وتونس بلبسه وحده في فصل الصيف ويشد بحزام في الوسط[8].

2 - لباس القدمين:

- النعال:

عبارة عن فراش من الجلد أو نحوه توضع فوقه القدم، ويشد إليها بواسطة شريطين من الجلد، يمر أحدهما وسط الرجل، والآخر بين الأصبع الأكبر والثاني الذي يليه. وأشارت إليها المصادر في العصرين المرابطي والموحدي، حيث انتعلها الحكّام[9]، وكان إبن تومرت يضرب بها الناس على الخمر متشبّها في ذلك بالصحابة [10].

---

[1] - الحسن الوزان، وصف افريقيا، ج1، ص 145.

[2] - السابق، ص 58.

[3] - (R) Dozy, Dictionnaire ..., p 373.

[4] - Ibid

[5] - الحسن الوزان، السابق، نفس الجزء والصفحة.

[6] - إبن القطان، نظم الجمان، ص 172؛ - الحسن الوزان، السابق، نفس الجزء والصفحة.

[7] - السابق، ج1، ص ص 97-241.

[8] - السابق، ص ص 158-254؛ - الحسن الوزان، السابق، ج1، ص 251.

[9] - إبن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص 68؛ - إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 117.

[10] - عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص 283.

ولم تكن النّعال المصنوعة من الجلد متيسّرة لجميع سكان البلاد، فاتخذها بعضهم من الأسل (الحلفاء)[1]، عن طريق فتل هذا النبات، فلم تكن متينة ولا تدوم طويلاً، وقد علّق الحسن الوزّان على ذلك بقوله: "وقبل أن يتم فتل الزوج الثاني، يكون الزوج الأول قد بلى"[2]، فيما اتخذها جزء آخر من الناس من خرق مفتولة من الصوف[3]، ويمكن القول إن النعال الجلدية، تطلبت يدا عاملة متخصصة، ولا يتوفر ذلك إلا بالحواضر الكبرى. ومنع صانعوها عن تغليظ حواشيها وتقليل الخرز، كما منع الذين يفصلون الجلد من أن يجدوا على موضع القطع بقفا السكين، أو بحديده ليواروا به رقة الجلد[4]. أما النّعال المتّخذة من الأسل، وخرق الصوف المفتولة، فقد ارتبط إنتاجها بتغطية الحاجيات المحلية في البوادي.

- القرق:

يعتقد أنها مشتقة من الكلمة اللاتينية "كركس" "Quercus"[5] وفي اللغة الإسبانية نجد كلمة " الكرك""Alcorque"[6] ، والقرق نوع من النعال، ويعرف صانعها بالقراق، وقد شاع استعمالها بالأندلس، وتوفرت مدينة فاس في العصرين المرابطي والموحدي على سوق خاص ببيع الأقراق[7]، وارتبط ذلك بالتواجد المكثف للجالية الأندلسية بهذه المدينة، وقد نهى ابن تومرت وهو في بجاية، في طريق عودته من المشرق، الناس عن لبس نوع من الأقراق المعروفة بالزرارية[8]، أي أنهم

---

1 - الحسن الوزان، وصف افريقيا، ج1، ص358.

2 - السابق، ج1، ص368.

3 - السابق، نفس الجزء والصفحة.

4 - إبن عبد الرؤوف، رسالة في آداب الحسبة والمحتسب، ص 103.

5 - (R) Dozy, Dictionnaire ..., p 363.

6 - Ibid, p 364

7 - إبن القطان، نظم الجمان، ص268.

8 - البيذق، أخبار المهدي بن تومرت، ص102

كانوا يتخذونها بأزرار. وتطرقت كتب الحسبة لهذه الصناعة، فنهت القراقين عن خلط جلد العتر مع جلد الضأن، وألزمتهم بأن يفصلوا القرق كاسيا للقدم[1]، وأن تتصل حاشيتا جلده بخرز واحد في ظهره أو بوصل صغير من الجلد لا يبلغ سعة الظهر، ويكون مجموعا بالخرز لا بالتشبيك، ومنعتهم من أن يجعلوا الطين تحت الأطراف لتصلب[2]، ويقصد بالأطراف، قيعان الأقراق[3].

- **الخفّ:**

نهى الرسول ﷺ المحرم عن لبسها،" إلا من لا يجد نعلين فليلبس خفين وليقطعهما من الكعبين "[4]، وتلبسها المرأة [5]. والخفّ هو ما يلبس في القدمين إلى الكعبين، وقد يطول إلى نصف الساق، أو يقترب من موضع الركبتين، سواء كان متّخذا من جلد أو صوف، أو كتان أو غيره[6]. وتفيدنا كتب نوازل الطّهارة في الكشف عن بعض أنواعها من خلال المباحث الخاصّة، بالمسح على الخفّ.

وحسب المذهب المالكي ، فإنه لا يصح المسح على الخف، إلا إذا كان متخذا من الجلد [7]،بمعنى أن يكون أعلاه وأسفله من الجلد، ويشترط أن يكون مخروزا، فلو ألصقت أجزاؤه بمادة بدون خرز، فإنه لا يكون خفا،ولا مانع أن تكون جوانبه مصنوعة من الكتان، أو اللبد أو نحو

---

[1] - السقطي، دراسة في أدب الحسبة والمحتسب، ص 34.

[2] - إبن عبد الرؤوف، رسالة في آداب الحسبة، ص 103.

[3] - إبن عبدون،رسالة في أدب الحسبة والمحتسب، ص 59.

[4] - إبن أبي زيد، متن الرسالة، ص 69.

[5] - (R) Dozy, Dictionnaire ..., p p 157-158.

[6] - إبن أبي زيد، السابق، نفس الصفحة.

[7] - عبد الرحمن الجزيري، كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، دار الرشاد الحديثة (د.ت)، ص 136.

ذلك[1]. والخف الذي يصح المسح عليه، هو ما يلبسه الإنسان في قدمي رجله إلى الكعبين، والكعبان هما العظمتان البرارزتان في نهاية القدم [2].

وكان الخف شائع الإستعمال في العصرين المرابطي والموحدي لدى فئة الخاصة، ويشير الحسن الوزان إلى توفر مدينة فاس، عدة سوق مهم لصانعي وبائعي الأخفاف[3]، و لم تكن الصّناعة مجهولة بالمغرب في القرنين (5هـ - 6 هـ / 10م - 11م)، فقد أشارت إليها كتب الفقه والنوّازل[4]. وكان يلبس فوق الخف، حف آخر أوسع منه ليحفظه من الماء أو الطين، ويطلق عليه لفظ الجرموق، وهي تحريف للكلمة الفارسية "سرموزه"[5].

- القبقاب:

عبارة عن حِذَاء من الخشب، يصل علوه إلى 9,4 بوصات (البوصة مقياس قديم يساوي 27 ملمتر)، ويكون مزينا ببعض الأصداف والجواهر[6]. تمت الإشارة إليه في الأندلس ، فمن أمثال العوام بها: " ازهق من قبقاب الحبس"[7]، وفي ذلك تلميح إلى صعوبة حفظ لابس القبقاب لتوازنه أثناء المشي، مما يفيد شدة علوه عن الأرض. ويقول مثل آخر" قرق وقبقاب وأربعين سوطا في العراقب"[8]، ويمكن القول إن هذا التقليد قد انتقل إلى المغرب، وبالتحديد في مدينة فاس، وتونس التي استقرت بهما أكبر جالية أندلسية، وقد فقد ابن قنفد لباس قدميه بهذه المدينة، وجاؤوا له بقبقاب[9].

---

[1] - عبد الرحمن الجزيري، كتاب الفقه، ج1، ص ص 136-137؛ - إبن أبي زيد، متن الرسالة، ص 24.

[2] - عبد الرحمن الجزيري،السابق، ج1، ص 136 .

[3] - الحسن الوزان، وصف افريقيا، ج1، ص ص 233-234.

[4] - إبن أبي زيد، السابق، ص ص24-69، - الونشريسي، المعيار، ج1، ص ص70-71-72.

[5] - (R) Dozy, Dictionnaire ..., p 202.

[6] - Ibid, p 347

[7] - الزجالي، أمثال العوام، ج2، المثل رقم 513، ص 115.

[8] - الزجالي، السابق، المثل رقم 1817، ص 417.

[9] - الحسن الوزان، السابق، ج2، ص ص 243-244؛ - (R) Dozy, Supplément....T1, p 113.

- **البُلغة:**

نوع من النّعال المتخذة من الحلفاء، ويستفاد ذلك من رواية ابن عبد الملك المراكشي في سياق حديثه عن إبن عسكر مؤرخ مدينة مالقة (584هـ - 636هـ / 1187م - 1239م)، حيث أورد له أبياتا شعرية في صفة النعل المتخذة من الحلفاء، والتي يسميها أهل الأندلس والمغرب بالبُلغة، وهي قصيدة طويلة في مدح المأمون أبي العلاء بن المنصور من بني عبد المؤمن، حيث يقول في أحد أبياته:

وَإنْ قِسْتَ بِالتَّشْبِيهِ شَبَّهْتَهَا نَعْلاً ... لِتَبْلِيغِهَا المُضْطَرَّ تُدْعَى بِبَلْغَة (البحر الطويل)

وهي معروفة منذ القدم، واستمر استعمالها ببعض أرياف البلاد إلى غاية العقد السادس من القرن الحالي، ويطلق عليها لفظ "اركاسن" بالبربرية[1]. ويعتقد أن متحف البطحاء مدينة فاس يحتفظ بنموذج لها، وهي عبارة عن نعل فراشه من خشب الفلين[2].

3 - لباس أهل الذمة :

3 - 1 - الزنار:

هو الحزام الذي يشده الذمي على وسطه[3] ، وقد شرطه نصارى الشّام على أنفسهم في عهد الخليفة عمر بن الخطّاب[4] ، واتخذه أهل الذمة في القرن (5هـ - 11م) بمدينة بغداد من الحرير والقطن[5]، ولا يختلف شكله عن نظيره في المغرب حسبما يستفاد من فتوى للقاضي

---

[1] - علي أمهان، البلغة، معلمة المغرب، ج4، الدار البيضاء، ص ص1337-1338.

[2] - (A) Sefrioui, Les Babouches, (Elbalgha), la grande encyclopédie du Maroc, Imprimé en Italie ; GEP, 12dit 1987, V2, p 126.

[3] - إبن منظور، لسان العرب ،ج4، ص 330.

- (R) Dozy, Dictionnaire ..., p 196.

- Encyclopédie de l'Islam, nouvelle édition, Maisonneuve et Larousse, Paris, 1986, T5, p 196.

[4] - الونشريسي، المعيار، ج2، ص 257.

[5] - السابق، ص257.

أبي بكر بن العربي[1]، المتوفي سنة (ت. 543هـ / 1148م)، في شأن يهودي يقعد في حانوته من غير غيار ولا زنار، مع التنبيه إلى أن هذا الحزام كان في المشرق الإسلامي من أهم القطع المميزة في أزيائهم، خلافا ليهود بلاد المغرب الإسلامي بوجه عام، فنجد الزنار غير مختص بأهل الذمة لوحدهم حسبما يستفاد من شعر لإبن خفاجة فيه:

وكأنها وكأن جدول مائها :. نساء حِسانٌ شد بخصرهنّ زنار

(الشطر كامل) (العجز مختل)

وإليه يشير الشاعر الأندلسي أيضا أبو عبد الله بن الحنط الأعمى في سياق حنينه إلى ليالي الشجن قائلا[2]:

واللّيلُ مَدْرَعٍ ثَوْبًا مِنَ القَار :. كَمْ بِتُّ فِيكَ عَلَى اللّذّاتِ مُعْتَكِفًا

شَدَّ المَجْدُ لَهُ وَسَطًا بِزِنّار :. كَأَنه رَاهِبٌ في المَسْحِ مُلْتَحِفاً (البحر البسيط)

ويدل ذلك على أن للزنار مكانه خاصة ضمن أزياء الأعيان، وأحد هذا التّقليد عن النّصارى المجاورين لهم، خصوصاً وأن المقري دوّن بعض جوانب تأثير الزّيّ النّصراني على لباس المسلمين بالأندلس[3]، و لم يدخل الزّنار ضمن الشكلة التي أمر يعقوب المنصور الموحدي بعملها لليهود[4].

أما الزّنار بمعنى اللّباس كما أشار إليه لسان الدين بن الخطيب[5]، في القرن (8هـ / 14م)، فيظهر أنه كان يطلق على لباس شبيه بالبرنس، يرتديه سكان بعض المناطق الجبلية بالأندلس[6]، علما بأن لفظ الزنار إلى وقتنا هذا يستعمله بعض سكان الجنوب المغربي للدلالة على البرنس.

---

[1] - الونشريسي، المعيار، ج2، ص254.

[2] - المقري، نفح الطيب، ج1، ص ص 503-685.

[3] - المقري، السابق، ص ص 222-223؛ - الونشريسي، السابق، ج11، ص ص 27-28.

[4] - إبن عذارى، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص 228؛ - عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص ص 234-435.

- الزركشي ، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص 11.

[5] - (R) Dozy, Dictionnaire ...,p p 196-197.

[6] - Ibid, p 196.

3 - 2 - الشكلة:

زي فرضهُ الموحدون على اليهود سنة (595هـ / 1198م)، بأمر من يعقوب المنصور الموحدي[1]. ودعت إليه رسالة الكرسيفي[2]، في آداب الحسبة قبل هذا التاريخ، أي في عهد المرابطين، فتكونت شكلة اليهودي من القميص والبرنس والقلنسوة.

أما القميص فقد بلغ طول أردانه ذراع في عرض ذراع، وتميز بأكمام مفرطة في السّعة تصل إلى قريب من أقدامهم[3] فيما احتفظ البرنس بشكله العادي مع اختلاف في اللّون. ولم يسمح لهم باتخاذ العمامة، وبدلا منها كلوتات[4] وتعني القلانس[5]، وكانت تبلغ إلى تحت آذانهم على أشنع صورة، شبهها عبد الواحد المراكشي[6]، بالبردعة، وهي الحلس الذي يلقى تحت الرحال[7].

وتميزت الشكلة بلون موحد، وهو الأزرق[8]، وشاع استعمال هذا الزي لدى جميع يهود البلاد[9]، فلم يرضوا به، وبعد وفاة يعقوب المنصور الموحدي، توسلوا إلى خلفه أبي عبد الله الناصر محمد، " بكل وسيلة، واستشفعوا بكل من يظنون شفاعته تنفعهم "[10]، حتى أمر لهم بثياب صفر وعمائم صفر. وكانوا على هذه الهيئة

---

[1] إبن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص 228؛ - عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص ص 434-435.
- الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص 11.

[2] - الكرسيفي، رسالة في أدب الحسبة والمحتسب، ص 175.

[3] - عبد الواحد المراكشي، السابق ، ص 434.

[4] - السابق، ص 434.

[5] - يمكن العودة إلى الفصل الثالث، الباب الثاني من هذه الدراسة، ضمن أغطية الرأس .

[6] - عبد الواحد المراكشي، السابق، ص 434.

[7] - السابق، نفس الصفحة.

[8] - إبن منظور، لسان العرب، ج8، ص8.

[9] - عبد الواحد المراكشي، السابق، ص 434.

[10] - السابق، ص 433.

سنة (621هـ / 1224م)[1]، وألزموا أيضا باتّخاذ الثياب الكحلية[2]، ويرى إبن عذارى أن سبب إلزام اليهود بهذا الزي، يعود إلى كونهم علوا على زيّ المسلمين[3]، وهي رواية نجد لها سندا في نوازل الونشريسي[4]، غير أن هناك أسباب أخرى، وهي أن الموحدين لم تنعقد عندهم ذمة ليهودي ولا نصراني، فاضطر هؤلاء إلى إظهار الإسلام، وكان يعقوب المنصور الموحدي شاكّا في إسلامهم، فميزهم بهذا اللباس.

3 - 3 - أزياء أخرى:

لم يقتصر أهل الذمة في أزيائهم على العناصر السالفة الذكر، بل استعملوا أزياء العوام ممّا لا تباهي فيها[5]، فلبسوا العباءة، وارتدت نساؤهم الحايك، الإزار، والتشمير[6]، وتقلدوا دنانير النحاس أو الرصاص أو القزدير في رقابهم يدخلون بها الحمام، ودعت فتاوى الفقهاء إلى أن يكون أحد خفي نسائهم أسود والآخر أبيض أو أحمر[7].

وتسمح بعض المؤشرات بالقول إن النصارى قد تمتعوا بوضع أفضل في أزيائهم بالمقارنة مع اليهود، وذلك لقلّة أعدادهم، وللمهام المحدّدة التي كانت تسند إليهم. واستمرت وضعية اليهود المحتقرة إلى نهاية العصر الوسيط، وفي ذلك يقول مارمول[8]، في سياق حديثه عنهم وهذا الرهط (أي اليهود)، يعامل معاملة سيئة في إفريقية يبصقون عليهم في الأزقة ويضربونهم ولا يسمح لهم بانتعال الأحذية ما عدا بعض

---

1 - المراكشي، المعجب، ص ص 434-435.

2 - السابق، ص435.

3 - إبن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص 228؛ - عبد الواحد المراكشي، السابق، ص 434.

4 - إبن عذاري، السابق، نفس الصفحة .

5 - السابق، ج2، ص ص 225-257؛ ج11، ص27؛ ج6، ص53.

6 - (J) Jouin, Le Costume de la Femme Israélite au Maroc, J.S.A, T6, 1936, p p 167 à 185.

7 - الونشريسي، المعيار، ج2، ص 256.

8 - مارمول، افريقيا، ج2، ص 156.

المقربين من الملك وأكابر القوم، أما الباقون فليس لهم سوى أحذية من أسل (حلفاء)، يرغمون على نزعها إذا دخلوا عند الأمير، ويضعون على رؤوسهم عمامات سوداء، وعلى العمامة أو الطاقية خرقة صوف وحتى على ملابسهم، كي تميزهم عن غيرهم "ويؤيد ذلك الرأي الذي يذهب إلى أن اليهود عرفوا أكبر محنة لهم في العصر الموحدي[1]. ولم يترددوا في بدل كافّة الجهود المادية والمعنوية، عن طريق أداء الضّرائب، وقبول الزيادة فيها، التّوسل إلى السلطة في سبيل إلغاء مظاهر الإحتقار في أزيائهم، واستمرت هذه الوضعية إلى عهد أحمد المنصور الذّهبي، حيث تساءلوا عن سبب السماح للسّجناء من النصارى بلباس حسن والمشي بأحذية، فأرغموا على المشي حفاة، ولم يسمح لهم باتخاذ نعال من الحبال إلا بعد أدائهم لضريبة جديدة[2] وهذا يؤكد ما سبق أن أشرنا إليه من أن النصارى تمتّعوا بوضع أفضل في أزيائهم من اليهود، ويعود ذلك إلى قلّة أعدادهم، و إلى الأغراض المحددة التي كان يتم جلبهم واستقدامهم من أجلها كجباية الضرائب، والاستعانة بهم في بعض الشّؤون العسكرية، خلافا لليهود الذين تحصلت لديهم خلال القرنين (5هـ - 6هـ / 11م - 12م)، ثروات مهمة، حاولوا الإستفادة منها في حياتهم العامة، في اللباس، والأكل، والركوب. غير أن المجتمع الإسلامي كان يرى في ذلك تحديا له ولشعوره الديني، في زمن تأججت فيه الدعوة إلى تطبيق أحكام أهل الذمة بالمشرق الإسلامي، وهو سياق ضروري للكشف عن بعض أوجه وخلفيات علاقة المسلمين من أهل الذمة، مع الأخذ بعين الاعتبار نداءات عدد من الفقهاء إلى عدم ظلمهم.

---

1 - Haim Zafrani, Mille ans de vie juive au Maroc, p 17.

2 - Anonyme Portugais M., Une description du Maroc sous le règle de Moulay Ahmed Elmansour (1596), d'après un manuscrit Portugais de la bibliothèque nationale, texte Portugais et traduction Française, Edit. Ernest Leroux, 1909, p 119.

وخلاصة القول لقد كان أهل الذمة على علم تام بالحدود الواجبة عليهم بما فيها اللباس، وتجاوزهم تلك الحدود أُعْتُبر تمرّداً على الحكام والتزامهم بما يبطل ظلمهم والتعدي عليهم، وظلم أهل الذمة لا يجوز شرعاً[1].

ولم يكن لجميع شرائح المجتمع حريتها في إختيار أزيائها، فأحكام الشرع وسياق الأحداث، وطبيعة المجتمع عناصر يتعين اعتبارها عند تحليل مظاهر تَزْيي بعض عناصر المجتمع خلال عصر الموحدين، وخضع اللباس لتقنين صار متعارفاً عليه.

4 - لباس الجند:

أما الجند البربري فقد حافظوا على زيهم المغربي التّقليدي الذي يرجع إلى قبائلهم[2]، فالجند المرابطين يلبسون اللثام مع الغفائر القرمزية وهي أردية واسعة تعينهم على سرعة الحركة كما لبسوا العمائم[3]، والجند الموحدي كانت تصرف لهم كسوة كاملة للرأس والجسد[4]، فقد كسا "أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن" جميع عسكره من الموحدين "بالقباطي، القميص، الغفاير والعمائم، وإعطائهم السيوف المحلاة، الدروع السابقات، البيض، القناص والرماح الطوال"[5].

كما كان ينعم على كل فارس بغفارة، عمامة، كساء، قبطية وشقة[6] وفي عام (566هـ / 1170م) أعطى الخليفة يوسف كل واحد من الجنود الموحدين ستة أثواب تمثلت في العمامة، الغفارة، الكساء والقبطية بالإضافة إلى مقطعين مهدَوِيين.

---

1 - الونشريسي، المعيار، ج2، ص 223.

2 - إبن الخطيب، الإحاطة ،ج1، ص 28.

3 - الذهبي، سير الأعلام النبلاء، ج19، ص 253.

4 - إبن صاحب الصلاة، كتاب المن بالإمامة، ص 253.

5 - السابق، ص 291.

6 - السابق، ص437؛ - القباطي: جمع قبطية وهو الثوب الأبيض الرقيق من الكتان الشقة هي عبارة عمّا شق من الثياب على شكل مستطيل. ينظر: - السائح حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، ص 442.

والكساء كلمة عامة على اللباس الذي يكسو الجسم كله[1] ويعتقد دوزي – Dozy – أن الكساء والحايك والملحفة كلمات لها نفس المعنى مع فارق بسيط[2] فقد ذكر ابن القطان أن إبن تومرت أمر الموحدين برفع أكسيتهم – عكس أكسية المرابطين – مع الحفاظ على وظيفتها كاملة في تغطية أعضاء الجسد. وقياس هذا النوع من اللباس ثمانية عشرة (18) قدما في طول ومن خمسة إلى ستة (5 6 أقدام) في العرض، علما بأن القدم هي وحدة قياس تساوي (33) سنتمتراً. وجدير بالإشارة إلى أن أغراض الكساء متعددة فقد يكون لباسا في النهار وغطاءاً في الليل للوقاية من البرد[3].

5 - لباس الفقهاء:

يعتبر اللّباس عاملاً من عوامل التّواصل الحضاري، الذي سهّل إنتقال كثير من طرق التزيي المختلفة إلى المغرب. غير أن العصر المرابطي والموحدي لم يشهد الإقبال الواسع على هذه الفنون، فقد إنتشرت عادة لبس الحرير، وكذا الثياب الموشاة، والمُلْف وغيرها من الأزياء الرفيعة، لكن ذلك لم يهم الفئات العريضة من الأعيان. وحتى الحكام الموحدين، فقد أشارت المصادر التاريخية إلى إحتفاظهم بالملبس الخشن[4]، ويمكن القول إن العهد المرابطي والموحدي يمثل مرحلة إنتقالية من حياة البساطة ورفع التكلف إلى حياة البذخ والترف، وهي مرحلة ستستمر في التبلور خلال العهد الموحدي، حيث ستتوضح معالم جدية من السلوك في التّزيّ.

---

1 - (A) Sefrioui, Costume et parures d'AFrique, p p 13-6

2 - (R) Dozy, dictionnaire ...p 150

3 - التادلي، التشوف، ص 33.

4 - إبن عذاري، البيان المغرب، ج4، ص 46؛ - إبن زرع، روض القرطاس، ص 136؛ - المقري، نفح الطيب، ج4، ص ص 374-375.

- لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ص 243- 256.

أما عن أزياء الفقهاء، فقد كان الشّائع بينهم لبس البرنس الأبيض الرفيع[1]، والعمامة[2] والكرزية[3]، ورغم نهي بعض الفقهاء عن لبس الثياب المطرزة[4]، فإن ذلك لم يحل دون الإقدام على اقتنائها، وأيضا على التّزيي بأجود أنواع المنسوجات، وخاصة فقهاء الحواضر الكبرى ممن غص بهم البلاط المرابطي والموحدي، واضطر أحدهم في إحدى مجالس الوعظ أن يرد على استفسار أحد الحاضرين حول سبب إقدامه على اتخاذ الثياب المطرزة، فأجاب: " أن لبس ذلك الثوب ليس فيه غرض أهم من أنه لائق بالتجمل المطلوب في ذلك اليوم الذي يقع فيه لبسه، ولم أتكلف شراءه ، وإنما جاءني صفوا فلبسته لذلك الغرض"[5]، وأشار عليه بعض الحاضرين باختلاف لسان الحال مع لسان المقال، وأمروه بأن " لا ينه عن حلق ويأتي مثله "[6].وجعلت بعض الفتاوى من لباس أهل الدّين ثياب الفقهاء المعلمة سببا للامتثال إلى أمر الله تعالى، والإنتهاء عما نهى الله عنه[7].

6 - لباس المتصوفة :

6 - 1 - المرقعة:

تعتبر المرقعة أهم قطعة إشتهر بها المتصوفة في لباسهم، مما أثبته التادلي في أحوالهم[8]. وفي اللغة الرقاع أصل يدل على سد خلل

---

1 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص203؛ - المقري، أزهار الرياض، ج5، ص 47.
- أبو عبد الله سيدي المهدي، النوازل الصغرى، ج1، ص 70.
2 - المقري، نفح الطيب، ج1، ص 223؛ - القلقشندي، السابق، نفس الجزء، ص 204.
- الونشريسي، المعيار، ج12، ص ص 321-322.
3 - مجهول، الحلل الموشية، ص 105؛ - إبن عذاري، السابق، نفس الجزء، ص 59.
4 - الونشريسي، السابق، ج11، ص 187.
5 - الونشريسي، المعيار، ج11، ص 188.
6 - الونشريسي، السابق، ج11، ص ص 188-189.
7 - السابق، ج12، ص 322.
8 - التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، ص 51.

لشيء، يُقال: رقعت الثوب رقعا [1]، والخرقة المرقعة عبارة عن زي من خرق الصوف الخشن أو غيره، وتبقى الرُّقعُ ظاهرة عليه[2]. وكانت شائعة الإستعمال في الشرق الإسلامي[3]، فالمتصوفون الراغبون في التوبة يفضلون إرتداء المرقعة[4]، لهذا يضع الشيخ أحيانا خرقة على كتف المريد، الذي يدخل في طريقة دينية معينة[5]، فلبس الخرقة هي إرتباط بين الشيخ والمريد، وتحكيم من المريد للشّيخ في نفسه، وفيها معنى المبايعة، وهي عتبة الدّخول في الصحبة، وبالصحبة، يرجى للمريد كل الخير، ويأخذ الشيخ على المريد الوفاء بشرائط الخرقة ويعرفه حقوقها[6]، وبها كانت تتم أسانيد بعض المتصوفة عن طريق الصحبة والإقتداء ولبس الخرقة، وتلقين الذّكر والمصافحة، أو الصحبة ولبس الخرقة من غير إقتداء[7]. وكان لبس الخرقة أو المرقعة رغبة في الإقتصاد، و لم يكن أمرًا إلزاميا، فأبو محمد صالح "ندب الفقراء لها على وجه النصيحة والإرشاد". وكان الملبس يقول عند إلباسها "بسم الله كسوتك أو ألبستك خرقة التصوف"[8]،

وهكذا، إكتفى أغلب المتصوفة ورواد السلوك الزهدي بالمغرب في العصرين المرابطي والموحدي، بلبس الخرقة، وارتداء الأزياء المرقعة، مقتدين

---

1 - سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، ص 719.

2 - التادلي، السابق، نفس الصفحة.

3 - (R) Dozy, Dictionnaire ..., p p 189-190.

4 - أبو نصر السراج الطوسي، اللّمع، تحقيق عبد الحليم محمود، القاهرة 1960م، ص ص 248-249.
(R) Dozy ,op. cit, p p153-155.

5 - (L.) Massignon, Essai sur les origines du lexique technique de la Mystique Musulmane, Librairie Philo. J., Paris, 1968, p 169.

6 - (J) Chevalier, Le Soufisme et la tradition Islamique, Paris 1974, p 204.

7 - إبن قنفذ، معجم المصطلحات الصوفية، دار المسيرة، ط2، بيروت 1987م، ص 89.

8 - أبو العباس أحمد بن إبراهيم المحاري، المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح، تحقيق محمد بن شريفة، ط1، المطبعة المصرية 1953م.

في ذلك ببعض الصحابة، حيث كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يلبس قميصا يضم أربعة رقاع بين الكتفين لا يشبه بعضها بعضاً[1].

6 - 2 - أزياء أخرى:

لم تختلف أزياء المتصوفة عن لباس العامة من الناس إلا في جانبها التقشفي، فتميزت بالخشونة، والرقع، وكان يظهر عليها الوسخ، وتتخذ من الصوف أساسا. فمنذ القرن (3هـ - 9م) صار الصوف الأبيض لباسا دينيا معروفا ومحترما. لأن موسى عليه السلام، كان يرتديه ومن بعده الرسول محمد صلى الله عليه وسلم[2]. وبالنسبة للمغرب الأقصى، كان اللون الأسود المفضل لدى أغلب المتصوفة في عصري المرابطين والموحدين[3]. وهو لون يرمز إلى "سواد الوجه في الدارين"، وهو الفناء في الله بالكلية، بحيث لا وجود لصاحبه أصلا ظاهرا وباطنا دنيا واخرة، وهو الفقر الحقيقي والرجوع إلى العدم الأصلي[4]. ولهذا أنكر على أبي محمد عبد الخالق بن ياسين الدغوغي لباس الثياب البيض[5]، فكانت هناك دعوة إلى هجر اللون الأبيض[6]، والالتزام باللون الأسود الذي هو أيضا تعبير عن الحزن.

واقتصر لباس العامة من المتصوفة على ما ينسج من الصوف مثل البرانس الكحل[7]، وفي هذا الصّدد ذكر ابن صاحب

---

1 - التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، ص ص 50-51-181-216-377-418. - ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 276؛ - ابن قنفذ، أنس الفقير وعز الحقير، ص ص 91-93؛ - أبو العباس التادلي الصومعي، المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى، ص ص ص 82-90-91؛ - المراكشي، الاعلام، ص ص 340-369.

2 - محمد زوزيو، التصوف، ص 8.

3 - التادلي، السابق، ص ص 216- 254- 390.

- ابن القنفذ، السابق، ص 94.

4 - عبد المنعم الحنفي، معجم المصطلحات الصوفية، ص 135.

5 - التادلي، السابق، ص 222.

6 - السابق، ص 97.

7 - ابن خلدون، العبر، ج6، ص 116.

الصلاة عن عبد المؤمن بن علي أنه "ما لبس قط الثياب الصّوف. عن قميص وعن سراويل وعن جبة تواضعا لله تعالى وزهداً"[1]. ولمقاومة الأمطار كان العوام يلبسون برانيس من جلد[2]، وأكّد الفقيه أبو بكر الطّرطوشي[3] أن "التقنع بالثوب على الرأس شائع في بلاد المغرب".

وتنوعت ملابس البدن لهذه الشريحة من المجتمع، فنجد الكساء[4]، البرنس[5]، الجبة[6]، والعباءة[7]، الجلابية[8]، المئزر[9] والسروال[10]. أما بالنسبة لأعطية الرأس، فكان بعضهم حاسري الرؤوس، غير أن أهم غطاء للرأس اشتهروا به: الشاشية[11]، والقلنسوة[12] المتخذة من العزف، وهو الخوص والدّوم عند أهل المغرب[13]. وإلى جانب ذلك، يضعون قطعة من

---

1 - إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 132.

2 - إبن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص 141.

3 - كتاب الحوادث والبدع، ص 66.

4 - التادلي، المنسوف إلى رجل التصوف، ص ص 132-145-147-386؛ - إبن القنفذ، أنس الفقير وعز الحقير، ص 87.
- التادلي، أخبار أبي العباس السبتي، ص 455؛ - أبو عبد الله بن تكلات، إتحاد العينين ورحلة الناظرين في مناقب الأخوين، تحقيق ودراسة محمد رابطة الدين، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، جامعة محمد الخامس، 1988م، ص 405.

5 - التادلي، السابق، ص ص 216-254-292-390؛ - إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص 267.
- إبن قنفذ، نفس المصدر، ص ص 21-78؛ - إبن القاضي، جذوة الاقتباس، ص 562.

6 - التادلي، السابق، ص ص 100-112-150-295-367؛ - إبن قنفذ، نفس المصدر، ص ص 21-77-78-80.
- أبو القاسم التادلي الصومعي، المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزي، ص ص 82-88؛ - أبو عبد الله بن تكلات، السابق، ص236.

7 - التادلي، السابق، ص ص101-106؛ - إبن مرزوق، المسند الصحيح، ص 342 ؛ - إبن عبد الملك ،الذيل والتكملة، س 8، الترجمة رقم 43؛ - أبو عبد الله بن تكلات، نفسه، ص 262.

8 - التادلي، السابق، ص 367.

9 - السابق، ص ص79-81-367؛ - السابق، ص 129؛ - إبن مرزوق، نفس المصدر والصفحة.

10 - التادلي، السابق، ص ص 386-405.

11 - التادلي، السابق، ص ص 216-356-367؛ - إبن القنفذ، أنس الفقير وعز الحقير، ص 21.

12 - التادلي، السابق، ص 138؛ - إبن عبد الملك، الذيل والتكملة، ق1، ص 249؛ - أبو عبد الله محمد، التعريف بالقاضي عياض، ص 42.

13 - (R) Dozy, Supplément ..., T_2, p 125.

الثّـوب علـى رؤوسـهم[1] ، وأحيانـا العمامـة[2]، وكـان أكثـرهم حـافي القدمين[3]، وينتعـل بعـضهم بلغـة خلقـة[4]، أو النّعـل المرقعـة[5]، ولم تختلـف أزياء النّساء المتزّهدات عن ذلك، وارتدين الكساء [6]، والجبّة[7]، والخمار[8].

إذا كانت هذه هي أهم تجليـات اللّبـاس لـدى المتـصوّفة، فـإن الحـسن مـن الثّيـاب، لم يكـن يـشملهم جميعـا، فمنـهم مـن كـان يفـضّل الثّيـاب النظّيفـة ذات اللّـون الأبـيض[9]، وأن يظهـر بـزي حـسن[10]، غـير أن ذلـك أعتبر سـلوكا شـاذّا بالنّـسبة لـروّاد الـسّلوك الزّهـدي ومعهـم فئـات مـن المجتمع، وإن كـان ابـن قنفـذ يـرى أن درجـات الـصّالحين تختلـف بـالترقي إلى درجة حـصول الـورع التـام، " ولـذلك منـهم مـن لـبس زي المجـانين، ومنهم من قلـد زي مـن الـصالحين علـى اخـتلاف آرائهـم ومقاصـدهم"[11] ولإبن قنفـذ رأيـه، فيـضيف قـائلا:" فالـذي يتزيـا بـزي مـن يحتقـر هـو الذي إذا بحثـت عـن ظـاهر أمـره وجدتـه مـشغولا بطاعـة ربـه، ثم يـدري بمـا يظهـر لـه، أمـا إذا كانـت حالتـه في البـاطن مـساوية لحالتـه في الظاهر، أو أردأ فلا يوصف بالخير بوجه "[12] .

وهكـذا كانـت شـريحة المتـصوفة مميـزة داخـل التركيبـة الإجتماعيـة بجوانبها الظـاهرة والباطنـة، وشـكل اللبـاس أهـم العناصـر الظـاهرة ، بطاقـة

---

1 - إبن عبد الملك، الذيل والتكملة، س8، ج2، ص 415؛ - التادلي، التشوف، ص 181.

2 - التادلي، السابق، ص 244.

3 - التادلي، السابق، ص ص297-298.

4 - إبن عبد الملك، السابق، ج1، ص 298.

5 - التادلي، السابق، ص ص 112 - 339؛ - أبو عبد الله بن تكلات، إلمد العيش، ص 262.

6 - التادلي، السابق ، ص ص 112 - 266؛ - إبن القنفذ، أنس الفقير وعز الحقير، ص 86.

7 - التادلي، السابق، ص 112؛ - إبن القنفذ، السابق، ص 80.

8 - التادلي، السابق، ص 112.

9 - التادلي، السابق، ص ص 97-222.

10 - السابق، ص 222.

11 - إبن قنفذ، إبن القنفذ، أنس الفقير وعز الحقير، ص 3.

12 - السابق، نفس الصفحة.

هوية، وتأكيد إنتماء من غير حاجة إلى تعبير أو إفصاح، فما هو الباطن في هذا الجانب الظاهر؟

من تواضع في لباسه، ألبسه الله تعالى من حلل الجنّة "[1]، ومن رقّ ثوبه،رقّ دينه والصّادق لا ينبغي أن يلبس ثوبا إلا لله[2]، أما من لبس ثوبا للتفاخر بالدّنيا والتّكاثر بها، فقد ورد فيه وعيد، روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أزرة المؤمن إلى نصف السّاق لا حرج عليه فيما بينه وبين الكعبين، وما كان أسفل من الكعبين، فهو في النار، من جر إزاره بطرا لم ينظر إليه يوم القيامة"[3].

فالمتصوفة كانت لهم ثقافة خاصة في اللّباس مستوحاة من المجال الذي عاشوا فيه، ومحكومة في جزء غير ضئيل بالتّعاليم الإسلامية. لقد خرج المتصّوفة عن حياة العامة من أضيق الأبواب، ولكنّهم عادوا إليها من المنافذ الرّحبة بالبذل والإيثار، مما أكسبهم شهرة واسعة، أقلقت سلاطين الدّوليتين المرابطية والموحدية، فامتحن كثير منهم، وضايقهم الموحدون في أدق خصوصياتهم بما في ذلك لباسهم، ويبدو أن شكل المتصوفة الظاهر، يؤكد أهمية اللباس كلغة للتواصل، لم يكن يستوعبها ويفهمها غير المتصوّفة والعامّة من النّاس، فارتأت السّلطة في ذلك غموضا يقتضي التدخل لفك بعض ألغاز هذا التّلاقي.

7 - لباس الخاصّة في العصر الموحدي:

7 - 1 - الغفائر الزبيبية:

اختص الحكّام المرابطون بلباس الغفائر القرمزية، وتغّير هذا اللّون في العصر الموحدي إلى اللون الزربيي أي العسلي، وأشارت إليه

---

[1] - الغزالي، احياء علوم الدين، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط.د.ت، ج5، ص 180.

[2] - السابق، ص 181.

[3] - نفسه، نفس الصفحة.

المصادر منذ بداية الدولة في عهد عبد المؤمن ابن علي[1] وقد أنكر الخليفة يعقوب المنصور الموحدي على أقربائه ملازمة هذا الزي بنفس اللّون المخصص له، وذلك سنة (582هـ - 1185م) في رحلته إلى مدينة قفصة، وألزموا بتجنب ذلك والمحافظة على عوائد الأمر،" فلم يعد أحد منهم يلبس تلك الألوان المختصّة بالسّلطان"[2]. وشمل هذا المنع جميع أفراد المجتمع، فقد اقترن هذا اللون بالشّخص الحاكم، وأصبح رمزا وشعارا له، والإقدام على تقليده يعد إستخفافا بالخليفة، ورفضا صريحا لسلطته من دون حاجة إلى إفصاح، ولذلك كان الخلفاء الموحدون يحرصون بشدة على ترسيخ هذه التّقاليد، وفرض احترامها وقد سجل لنا إبن خلدون[3]، كيف أن بني ورتاجن من زناتة ببلد الحمة - غرب مدينة قابس - كانُوا يظهرون في زيّ السّلطان أيام الزّينة تهاونا بشعار الملك، وسعيا للسخرية منه. وهو ما يوضح بجلاء وظيفة اللّباس كرمز من رموز السّيادة، وانتهاك حرمة هذا الرمز يعد تطاولا حقيقيا على سلطة العاهل.

7 - 2 - البرانس المسكية:

إختص الخلفاء الموحدون أيضا بلبس البرانس ذات اللون المسكي ومنع هذا الزيّ عن الخاصّة والعامة، وحتى عن أقرب الأقرباء إلى الخليفة[4]. وهكذا أرى أن الحاكم الموحدي، إختصّ في لباسه بألوان ارتبطت بالمادة التي تكون لحمة السدي. الذي تنسج منه هذه الأنواع من الملابس، وتتخذ في الغالب من الصوف الرفيع الناعم، أو من بعض المنسوجات المستوردة كالملف.

---

[1] - المقري، نفح الطيب، ج6، ص 12.

[2] - إبن عذاري، البيان المغرب،قسم الموحدين، ص 44.

[3] - إبن عذاري، السابق، ص 187.

[4] - نفسه، نفس الصفحة.

7 - 3 - العمامة:

إحتفظت العمامة بتلك المكانة التي كانت لها في العصر المرابطي، والمستمدة من تأثير الشرق، ويقوى حضورها في أزياء الخلفاء الموحدين منذ عبد المؤمن بن علي[1]، كمااحتلت الذؤابة إهتمام الخلفاء، وهي الطرف الذي يبقى منسدلا بعد طيها ولفها حول الرأس ثلاث أو أربع مرات ، وتُعرف الذؤابة أيضا بالعذبة، وكانت ترمز إلى العلو وسمو المكانة والمرتبة والشرف، وأستدلُّ على ذلك بنكبة الوزير إبن عطية، الذي أزال عمامته عن رأسه بعد عزله من مهامه، " وبقي حاسرا بعد التعميم خاملا بعد التقدم في الأمر الكريم"[2] .أما إبن وقاريط، زعيم هسكورة الذي قدم إلى مراكش سنة (558هـ 1041م) في عهد أبي يعقوب يوسف، وقوي نفوذه بها عقب مشاركته في الخلافات السياسية حول السلطة بين أفراد الأسرة الموحدية، نجده قد أطلق ذؤابة من عمامته، وينقل إبن عذاري قول الكاتب أبي عبد الله التلمساني في وصفه لهذا المشهد :" ولقد عاينت عمامة إبن وقاريط وطرفها مع ركبته، وفيه من التيه والزهو والعجب والأغترار ما لا يصفه الواصفون"[3]. وهو إشارة إلى تطاول ابن وقاريط على إحدى التقاليد المختصة بالخليفة الموحدي. وقد كان ملوك بجاية من صنهاجة أكثر عناية بما ترمز إليه العمامة، كشارة من شارات النفوذ وعلو المكانة، وتفنن صناع المدينة في صنع عمائم مشربة وَمذهبة خاصة بالملوك واتخذوا لها قوالب من عود يسموها الرؤوس، يعممون عليها تلك

---

[1] - إبن عذاري، البيان المغرب، ص ص 344-359-452.
- إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ص 148-315-316.
[2] - إبن عذاري، السابق، قسم الموحدين، ص 58.
[3] - إبن عذاري، السابق، ص 328.

العمائم، فتأتي تيجانا، ويصل ثمنها إلى أزيد من 600 دينارا[1]. واتخذها الموحدون من الصوف الجيد الناعم[2].

فزي الفقيه يرمز إلى أحكام الدين، لأنه يُعرف بزيه، فيسأله الناس عمّا غاب عنهم من أمور الدين، ولذلك دعت الفتاوى الفقهاء إلى عدم تغيير أزيائهم المعتادة في البلد، والاقتصاد في الملبس، والاقتداء بالرسول ﷺ في ذلك، واعتبرت المبالغة، وتحسين الخياطة من فعل "أهل الرعونة والالتفات إلى الأغراض الخسيسة التي لا تليق بأولي الألباب "[3]. وكان اللون الأبيض المميز لأزياء الفقهاء، أما عن بقية الألوان في العصر المرابطي، فقد تنوعت إلى اللون الأسود[4]، الذي كان مختصا بالفئة الحاكمة والأعيان من المرابطين، وكان يرمز إلى التعلق بالخلافة العباسية، كما تعددت ألوان ملابسهم بين الكحلية[5]، البيضاء[6]، القرمزية[7] والحمراء[8].

لباس الأعيان في العصر الموحدي:

تغيرت التركيبة الإجتماعية لفئة الخاصة من غير الحاكم في العصر الموحدي، وأصبحت تشمل السادة من بني عبد المؤمن، وأشياخ الموحدين[9]، وأبناء الأسر السابقة ممن حكمت البلاد[10]، ثم الفقهاء المالكيين اللذين لم يحافظوا على مراكزهم المتميزة السابقة فحسب، بل إن منهم من تولى خططا كبرى زادت في ثرائه، فقد كان دخل أحدهم من

---

1 - مجهول، الإستبصار، ص 192.

2 - عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص 133؛ - الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص 224؛ - مجهول، الحلل الموشية، ص 105.
- إبن عذاري، البيان المغرب، ص 44.

3 - الونشريسي، المعيار، ج2، ص 322.

4 - مجهول، الحلل الموشية، ص 27.

5 - السابق، ص 27؛ - إبن عذاري، السابق، ص 24.

6 - إبن القاضي، جذوة الإقتباس، ص 145 .

7 - إبن غازي، الروض الهتون، ص 19.

8 - مجهول، السابق، نفس الصفحة.

9 - عز الدين أحمد موسى، الموحدون في المغرب الإسلامي، ص 144.

10 - السابق، ص ص 291-292-302؛ - البيدق أخبار المهدي بن تومرت، ص ص 77- 78.

رياعه في مراكش وحدها خمسمائة درهم في اليوم الواحد[1]. كما حباهم الموحدون بالإقطاعات والعطايا الكبيرة فضلا عن الرواتب الشهرية والكسوة والمواساة. وعلى سبيل المثال كان ابن طفيل يتقاضى أكثر من مرتب، فيأخذ مع المهندسين، والأطباء، والشعراء، والرماة، والجند [2]. ويضاف إلى هذه العناصر كبار رجال الدولة من كتاب وولاة وقادة الجيش، دون أن ننسى كبار التجار.

ويجمع عدد من الدارسين[3] ، على أن العصر الموحدي عرف فيه المستوى المعيشي للسكان تحسنا واضحا، ومن المفترض أن يتجلى ذلك في كثير من المظاهر الحضارية كالتغذية ، والنقل، والسكن، واللباس، والتي تعتبر مؤشرات هامة لقياس هذا التحسن، وقد وردت نصوص تاريخية ، وإشارات كثيرة في مصادر هذه الفترة تسلط الضوء على بعض جوانب هذا الموضوع، فابن صاحب الصلاة يقول في معرض حديثه عن عهد أبي يعقوب يوسف الموحدي، "فزاد الإنبساط والنشاط عند الناس بفضله وصفحه وعدله، وزادت المخازن على إثر ذلك وفوراً، ونمت الأرزاق، وعمرت الأسواق بالبيع والتجارة الرابحة وذرّت على الناس الخيرات، وكثر المال في أيدي من تَوالَى سمحه وبركته، وابتنوا الديار العتيقة، وأغترسوا خارجها أينع الحدائق"[4]. وتتطابق هذه الرواية مع إشارة المؤرخ عبد الواحد المراكشي إلى أنه لم يَرَ أياما قط مثلها، واستمر هذا صدرا من إمارة أبي يوسف"[5] . وانعكس أثر هذا الرخاء الاقتصادي في أزياء الناس، وَيُضيف نفس المؤرخ أن

---

1 - إبن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر 1، ص ص 301 - 307.

2 - عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص 350.

3 - محمد الطويل، الفلاحة المغربية في العصر الوسيط، ص ص 190-191.
- عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي، ص ص 339-340.

4 - إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 266.

5 - عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص 371.

النـــاس تنافـــسوا " في شـــراء البيـــوت حـــتى بِيعـــت شـــقة بثمـــانين دينـــاراً مـــن الـــدراهم، وذلـــك لإتـــساع الأحـــوال والآمـــال "[1]. ورغـــم ارتفـــاع مستوى عيش السكان في العصر الموحدي، فإن ذلك لم يهم إلا قاطني المـدن، كمـا اتـسعت الهـوة بـين لبـاس العامـة والخاصـة، حيـث ظهـر توجـه المتـرفين نحو البذخ، الترف، والإقبال على الحيـاة الدنيويـة منـذ أوائـل الدولـة الموحديـة. وخير ما يصور الوضـع المعيـشي لهـذا التوجـه، وصـف ابـن سـعيد المغـربي لقصور مـراكش الموحديـة، حيـث كـان يـستقل كـل قـصر منـها بالـديار والبـساتين والحمامـات والإسـطبلات، حـتى أن صـاحب القـصر. ليغلـق بابه عل جميع مـا لـه ولأقاربـه، فـلا يحتـاج إلى شـيء مـن خـارج داره، ولا يشتري شيئا مـن الـسوق لمأكلـه، ولا يقـرئ أولاده في مكتـب خـارج بيتـه، ولا يخرج من بابه إلا راكبا[2].

أما على مستوى الملبس ،فقد تطـورت أزيـاء الفئـة الخاصـة، فبالإضـافة إلى اسـتعمال الملـف، القبـاطي، القمـاش الإفريقـي، الأكـسية السفـسارية، الغفارة وثياب الصوف الرفيعة، شاع استعمال ثياب الحرير الموشـاة بخيـوط الفـضة والذهب، وتفنن النـاس في اتخـاذ الأزيـاء وتغييرهـا لتكـون مناسـبة للفـصول، ففي فصل الـشتاء جـرت عـادة المتـرفين باسـتعمال الفـراء، وثيـاب الملـف والقبـاطي والـبرانس[3]. والجديـد في هـذه الأزيـاء بالمقارنـة مـع العـصر المرابطي، هو لباس الفـراء الـذي كـان يـصنع مـن جلـود بعـض الحيوانـات وخاصة الفنك[4]، وهو مـن فـصيلة الثعلـب، ذو فـراء جميـل، وقـد اشـتهرت الأندلس باسـتعمال هـذا النـوع مـن الفـراء[5]، وكانـت مدينـة نـول لمطـة

---

[1] - إبن عذاري، البيان، ج4، ص 347.

[2] - العمري، مسالك الأبصار، ص 131.

[3] - إبن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر 1، ص564.

[4] - البكري، المغرب، ص 171؛ - ولقـد أصـدرت وزارة البريـد المغربيـة طابعـا بريـديا يحمـل صـورة هـذا الحيـوان سنة 1961م، في إطار التعريف بالحيوانات النادرة في المغرب، المتحف الدائم للطوابع البريدية، وزارة البريد، الرباط.

[5] - المقري، أزهار الرياض، ج5، ص 192.

بالجنوب المغربي، أهم مركز لتجميع جلود هذا الحيوان، ومعالجتها وتصديرها إلى المشرق والأندلس[1]. ولم تفت التادلي الإشارة إلى لباس الفراء، والإعراب عن أمنيته في الحصول عليه لعدم قدرته على شرائه[2]. أما في فصل الصيف فقد استعملت الملابس الحريرية، والسفسارية[3]، وما شاكل ذلك من خفائف الثياب ذات اللون الأبيض [4]. ورغم نهي الشرع الذكور عن لباس الحرير[5]، فقد شهد العصر الموحدي إقبالا على هذه المادة، ولعلّ ذلك ما حدا بالخليفة الموحدي يعقوب المنصور إلى أن يمنع لباس الحرير، ويأمر بقطع الغالي منه، ومنع النساء من الطرز الحفيل، والاكتفاء منه بالساذج [6] ويعتقد أن قرار المنصور هذا يهدف إلى دعم الصناعة المحلية بالحد من استهلاك الأقمشة المستوردة، ما لم يكن القصد منه سوى منع الإسراف المخل بالتواضع[7]. ومما لا شك فيه أن مثل هذه التدابير من شأنها أن تنعكس إيجابا على صناعة المنسوجات المحلية، لكن المرجح أن قرار المنصور يخرج عن هذا التوجه، فسلسة الإجراءات التي واكبت هذه التعليمات، كأمر أصحاب الشرطة بقطع الملهين، والقبض على من شهر من المغنيين[8]، نجدها مواقف ترتبط بتدين المنصور وتقواه. ويشير إبن عذاري إلى بعض أعماله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتصديه للإصلاح بمجرد حلوله بمراكش إثر بيعته: " لما رأى التساوي في الإنهماك والإغترار، وسمع المجاهرة بالإستهتار، والتنافس في الشهوات، ونفاق سوق الغانيات والملهيات، تنكر وغضب في الله

---

1 - البكري، المغرب، ص 171؛ - الحميري، الروض المعطار، ص 584.

2 - التادلي، التشوف، ص 131.

3 - المقري، نفح الطيب، ج2 ، ص ص 701-702؛ - العمري، مسالك الأبصار، ص ص 85-97.

4 - العمري، السابق، ص 159.

5 - إبن أبي يزيد، متن الرسالة، ص 136.

6 - إبن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص 174.

7 - محمد ناصح، جوانب من الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمغرب، ص 387.

8 - إبن عذاري، السابق، نفس الصفحة.

لذلك المنكر، وأضرب عن القال والقيل، وجعل الإنذار والإعذار مكان السف الصقيل[1]. فهذه أنماط جديدة في سلوك المجتمع : التساوي في الإهمماك والإغترار، الإستهتار، والتنافس في الشهوات، ونفاق سوق الغناء واللهو، ففي إطار هذا السياق يجب إستيعاب قرار يعقوب المنصور، الرامي إلى تقويم ما انحرف في سلوك المجتمع الموحدي، الذي أخذ يبتعد كليا عن تعاليم زعيمه الروحي المهدي بن تومرت، فسياسة المنصور "بقطع الغالي من الحرير، والإجتزاء منه بالرسم الرقيق الصغير، ومنع النساء من الطرز الحفيل... والإكتفاء منه بالساذج"[2]، تدخل في إطار تطبيق أحكام الشرع، وعلة المنع هي خوف الكبر والسرف، ولئلا يتشبه بالنساء، ولما فيه أيضا من الخيلاء[3]. وهي صفات أقر ابن عذاري شيوعها في المجتمع الموحدي [4] وقد نفذت تعليمات العاهل الموحدي فأخرج "ما كان في المخازن من ضروب ثياب الحرير والديباج المذهب، فبيعت منه ذخائر لا تحصى بأثمان لم توف ولم تستقص"[5] . وَشَمَل المنع أيضا الديباج، وهو نسيج مقصب خيط الحرير والذهب، أما عن عبارة الاجتزاء منه بالرسم الرقيق الصغير، فتعني مزجه مع منسوجات أخرى من الصوف والكتان والقطن، كالثياب السفسارية، وهي قماش من حرير وقطن، أو حرير وصوف[6]، وثياب الخز، التي اختلف الفقهاء في شأنها. ويطلق الخز على ما سداه الحرير[7]، واعتبر ابن رشد لبسه مكروه، وعند الشافعية مباح، وأجازه البعض

---

1 - عبد الواحد المراكشي، المعجب، الصفحة من 407 إلى 411.

2 - إبن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين ، ص ص 172-173.

3 - السابق ، ص 174.

4 - أبو عبد الله سيدي محمد المهدي، النوازل الصغرى، ج1، ص 32.

5 - إبن عذاري، السابق، ص ص 172-173.

6 - العمري، مسالك الأبصار، ص 97.

7 - إبن أبي زيد، متن الرسالة، ص 136؛ - العمري، السابق، ص97؛ - إبن مرزوق، المسند الصحيح ص 130.

- الونشريسي، المعيار، ج11، ص 92؛ - أبو عبد الله سيدي المهدي، السابق، ص 30.

كإبن العربي الذي استدل على ذلك بأن النهي عن الحرير جميعه في الخالص[1]. واعتبر البعض ذلك تحايلا على أحكام الشرع لأن الحرير "حرام والصوف والكتان حلال، فإذا مزجا جاء منهما نوع لا يسمى حريراً، فلا اسم الحرير يتناوله، ولا السرف ولا الخيلاء يدخله، فخرج عن الممنوع اسما ومعنى، فجاز على الأصل، وكره على الشبهة"[2]. وتسمى هذه الأنواع من الثياب كذلك بالمحررات[3]، أي التي يكون سداها حرير وطعمها قطن أو كتان، ويطلق عليها لفظ ابريسيم [4].

ويبدوا جليا أن البلاد وخاصة المراكز الحضرية الكبري، قد نهلت من تقاليد الترف عن طريق الأندلس وافريقية والمشرق ما أهلها لتنفلت عن أي برنامج إصلاحي بهدف مقاومة هذا التيار. فالرخاء الإقتصادي، وإنفتاح البلاد، من العوامل التي ساهمت في تغير أساليب الحياة، وقد فطن إبن خلدون إلى بعض أسباب هذه التحولات في قوله: "...ثم إذا اتسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش، وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه دعاهم ذلك إلى السكون والدعة وتعاونوا في الزائد على الضرورة، واستكثروا من الأقوات والملابس، والتأنق فيها وتوسعة البيوت... ثم تزيد أحوال الرفه والدعة فتجيء عوائد الترف البالغة مبالغها في التأنق في علاج القوت، واستجادة المطابخ، وانتقاء الملابس الفاخرة في أنواعها من الحرير والديباج وغيره ..."[5].

وتكثف حضور المنسوجات والأقمشة المستوردة في أسواق المراكز الحضرية الكبرى، فالإدريسي في القرن (6هـ - 12م)، يقول عن مدينة

---

[1] - أبو عبد الله سيدي المهدي، النوازل الصغرى، ج1، ص 201.

[2] - السابق، ص 29؛ ص 37.

[3] - أبو عبد الله سيدي المهدي، السابق، ص 33؛ - المقري، نفح الطيب، ج1، ص 201.

[4] - أبو عبد الله سيدي المهدي، السابق، ص 34.

[5] - إبن خلدون، المقدمة، ص 150.

فاس :" وتجلب إلى حضرتها كل غريبة من الثياب"[1]. ويمكن حصر هذه المنسوجات في الملف، الحرير، الأقمشة الإفريقية والسفسارية، القباطي، الفراء والديباج، وإذا كان تأثير الأندلس قد بدا واضحا منذ انضمامها إلى المغرب الأقصى في العصر المرابطي، فإن توحيد إفريقية في العصر الموحدي ساهم في اخضاع البلاد لمزيد من التأثير والتأثر. ويكفي أن نذكر أن الخلفاء الموحدين حينما يتعلق الأمر بتجهيز مشروع عمراني (مسجد، أو قصر ، أو بيمارستان)، أو الاستعداد لحملة عسكرية، كانوا ينظرون في استجلاب الفرش والملابس والأسلحة من العدوة وافريقية[2]. وتزايد هذا الانفتاح بعد أول اتفاقية للسلام وحسن العلاقات، عقدها الموحدون في عهد عبد المؤمن بن علي في حدود سنتي 1153م أو 1154م مع جمهورية جينوا الإيطالية[3]. وتضمن الإتفاق الإشارة إلى حرية تنقل الأشخاص والسلع، وحددت الواجبات الجمركية في 8% على واردات البلاد من المنتوجات الإيطالية[4]. وانطلاقا من أواسط القرن 12م، تكونت بجينوا بواسطة عقود مسجلة، شركات للتجارة واستئجار السفن لنقل السلع إلى عدة نقط على الساحل الإفريقي، واستفادت مدينتا سبتة وسلا من هذا الرواج[5]. وفي سنة (559هـ / 1166م)، عقد أبو يعقوب يوسف اتفاقية للتجارة والسلم مع جمهورية بيزا[6] . وجددت الإتفاقية في عهد يعقوب المنصور الموحدي سنة 1186م، حيث تغيرت الحقوق الجمركية إلى 10%، بالنسبة للسلع

---

[1] - الإدريسي، نزهة المشتاق ،ج1، ص 246.

[2] - إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 147.

- عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص 412.

[3] - Mas. Latrie, Traité entre ..., p 47.

[4] - ibid, p 47.

[5] - Mas. Latrie, traite entre...p 78.

[6] - ibid, p p 49-50

التي يتم بيعها لتجار مغاربة. غير أن هذه الإتفاقية حددت ميناءاً واحدا بالساحل الشمالي للبلاد هو ميناء مدينة سبتة[1]، فهل لذلك علاقة بالحد من استيراد السلع الأجنبية؟

يمكن القول، إن إقصاء ميناء سلا من قائمة المرافئ التي يتردد عليها الإيطاليون، هو إجراء استراتيجي، فمن المعلوم أن الإستعداد للجواز إلى الأندلس واستطلاع أخبارها، كان يتم من مدينة سلا، ويدخل في هذا الإطار تأسيس مدينة الرباط، التي يرجع الفضل في استكمال بنائها إلى يعقوب المنصور الموحدي، لذا فمن غير المستبعد أن يكون الموحدون قد حرصوا على السرية في استعداداتهم، حتى لا تنكشف عوراتهم للعدو، لذلك ألغي ميناؤها من بنود الاتفاقية.

ومن واردات المغرب من المنتوجات الإيطالية، نجد الملف، والثياب الرقيقة، والحرير، والديباج، وخيوط الذهب والفضة[2]. واعتمادا على شهادة بعض جغرافيي ومؤرخي القرنين (6و7 هـ / 12و13م)، وكذا الوثائق الهامة التي جمعها ماس لاتري، أمكن القول أن الإنتاج الأجنبي من الملابس والمنسوجات الرفيعة، كان حاضرا بقوة في العصر الموحدي واقتصر الأمر على كبريات المدن، كفاس، مراكش، سبتة وسلا، باعتبارها مراكز لإستهلاك الكماليات، حيث تتواجد فئة الخاصة، وتزايد تعامل الناس بالمذهب المسكوك لترقيم الثياب، واختلف في تقدير قيمتها [3]. وتفننوا في تفصيل الثياب وخياطتها[4]. واحتلت العمامة مكانة عالية ضمن مظاهر الزي، فتعدت دور غطاء الرأس ووقايته إلى مستوى التزيين والإفتخار، وهو ما يستفاد من نكبة أحد وزراء عبد المؤمن التي يقول عنها إبن عذاري

---

1 - Mas. Latrie, Traitée entre ..., p 5

2 - ibid, p p 210-11.

3 - الونشريسي، المعيار، ج6، ص ص 310-311.

4 - السابق، ج12، ص 321.

"وسئلوا عن إبن عطيلة وأحواله وهو حاضر، فقد أزال عمامته بالأمر عن رأسه، وبقي حاسرا بعد التعميم، خاملا بعد التقدم في الأمر الكريم"[1]. أما إبن وقاريط زعيم هسكورة، الذي استبد بالسلطة في عهد يحيى، إبن الناصر الموحدي، فقد أطلق ذؤابة من عمامته، وينقل ابن عذاري قول الكاتب أبي عبد الله التلمساني في وصفه لعمامة ابن وقاريط: "ولقد عاينت عمامة إبن وقاريط وطرفها مع ركبته، وفيه من التيه والزهو والعجب والاغترار ما لا يصفه الواصفون"[2] .

وهكذا كان من الطبيعي مع تمركز الدولة واستقرار الأوضاع السياسية، ونمو النشاط الإقتصادي، وتعدد خطوط الإتصال مع الخارج أن تتجه الفئات الميسورة إلى ميادين البذخ والترف، أمام الوضعية، كان لا بد للخلفاء الموحدين من أن يختصوا بلباس[3] يميزهم، والملاحظ أن عهد يعقوب المنصور الموحدي يعتبر بداية تحول الدولة في رسومها وتقاليدها من البساطة إلى التعقيد، وسيتم الكشف عن بعض جوانب هذا التحول، من خلال محاولة التعرف على مكانة اللباس في النظم الموحدية، وكل القرائن تدل على أن الموحدين منذ أيام هذا الخليفة، لم يعد ينطبق عليهم قول ابن خلدون حول عدم اتخاذهم الطراز شارة لهم[4]. فأزياء الخلفاء المختصة بهم، ومكانة اللباس في نظمهم، تؤكد وجود دار طراز في العصر الموحدي، ويظهر أن الإشراف على هذه الدار لم يكن يستدعي إحداث وظيفة صاحب الطراز، وفي الغالب، فإن هذه المهمة يمكن أن تسند لأحد موظفي الدولة، ونستدل على ذلك بأهمية الكميات

---

[1] – إبن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص 58.

[2] – السابق، ص 328.

[3] – السابق، ص 44.

[4] – إبن خلدون، المقدمة، ص ص 226-267.

التي أمر يعقوب المنصور الموحدي بإخراجها من مخازن الدولة من الحرير والديباج[1] ، ولا شك أن ذلك كان يتطلب مشرفا لتنظيم خزائن الكسوة والطراز .

* الأطعمة والأشربة:

1 - الأطعمة:

عُرفت بلاد المغرب الشمالية بطبيعتها الزراعية، مما يعني وفرة الطعام وتنوعه، وإختلاف نوعية الطعام ترتبط بإختلاف الطبقات السكانية قبل أن يدخلوا الأندلس ومعهم قبائل الصحراء كما يقول البكري[2]" كان طعامهم ضعيف اللحم الجاف مطحوناً، ويصب عليه الشحم المذاب أو السمن وشرابهم اللّبن قد غنوا به عن الماء" وحتى ملوكهم إعتمدوا على ذلك فكان طعام " يوسف بن تاشفين " الشعير ولحم الإبل وألبانها"[3] وقد رأى " ابن خلدون" وجود علاقة بين الغذاء والعقل وصحة البدن فيرى أن المنغمسين في الأدم والحنطة مثل البربر أقل حسناً في عقولهم وأجسادهم من أهل الأندلس المفقود بأرضهم السمن وغالب عيشهم الذرة والزيت. فيجد لأهل الأندلس ذكاء العقول وخفة الأجسام وقبول التعليم كما أن النجاعات لا تنال منهم كثيراً[4].

كانت صنعة الطبخ في بلاد المغرب تقوم على معرفة كاملة بأنواع الطبيخ، فمائدة الخاصة غنية وشهية ومتنوعة، يقدم إلى أفرادها الطعام في أصناف منفردة، صنفاً بعد آخر مرتبة بدلاً من وضعها جميعها على المائدة دفعة واحدة، فكانت أجمل وأكثر تأدبا وكانت تلك عادتهم منذ بداية عصر الموحدين[5]، وكانت تقدم الأنواع المخلوطة بالحل ثم الأطعمة

---

[1] - إبن عداري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ص 172-173.

[2] - البكري، المغرب، ص 170.

[3] - إبن أبي زرع، الأندلس المطرب، ص 87.

[4] - إبن خلدون المقدمة،، ص ص 153-154.

[5] - مجهول، كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين، تحقيق أمبروزيو أويبي ميرانـدا، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، المجلد 9، (510 هـ/1961م-1692م)، ص 85.

الحلوة المذاق[1] وتعد موائد مليئة بأنواع الطعام وأطيبه في مجالسهم وفي ضياعهم على ضفاف الأنهار[2] ومن أجل الضيوف تقام الولائم التي تذبح فيها الثيران[3] حتى عانى الأغنياء من التخمة، فهذا الكاتب المشهور " ابن المرخي " (ت. 536هـ / 1144م) يخشى التخمة من كثرة وتنوع الأكل فينوي الصوم ليخفف من هذه التخمة[4].

وكان الملوك والخاصة يأكلون مَا يظهر من أمخاخ الحيوانات والطيور بطرق مختلفة[5] فضلا عن معظم الأكلات التي تحتوي على اللحوم بأنواعها مثل الطواجين المحشية من اللحم[6] والأطعمة من الأسماك أو السلاحف البحرية[7]، ولحم الحوت[8] فضلا عن اللحوم المشوية على نار الفحم أو في الفرن سواءاً من لحوم البقر أو الكباش والخراف أو الأرانب والدجاج[9] وعرفت بعض الأطعمة الخاصة مثل " شواء الملوك" المكون من لحم الخروف والبيض، والتوابل[10] وكذلك " الصنهاجي الملوكي" و هو من لحم البقر والدجاج والطيور[11].

وانتشرت أكلات في بلاد المغرب ، إشترك فيها الخاصة والعامة منها ما يعرف باسم "المنونية" وتصنع من جميع أنواع الطيور وتطبخ على نار فحم معتدلة ويتفتت معها الرقاق والزبيب والتوابل وتزيّن بالجوز

---

[1] - مجهول، كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين، تحقيق أميروربو أويتي ميرانـدا، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، المجلد 9، (510 هـ/1961م-1692م)، ص 85.

[2] - إبن حاقان، قلائد العقبان، ص 217.

[3] - إبن سعيد، اختصار القدح، ص 2.

[4] - إبن الأبار، المعجم، ص ص 138-139.

[5] - مجهول، السابق، ص ص 36-37.

[6] - نفسه، ص132.

[7] - نفسه، ص ص136-137.

[8] - نفسه، ص 137.

[9] - نفسه، ص ص 28-33.

[10] - نفسه، ص 63.

[11] - نفسه، ص 24.

واللوز والجبن المحكوك، وتمرغ في المرق وتغطى بورق الأسفريا المصنوعة بالبيض[1]، كما أن الولائم في مراكش وفاس وتلمسان كانت تعتمد على نوع من المحلل وهو مكون من اللحم البقري السمين أو الغنمي السمين ويقطع قطعاً صغيرة مع التوابل ويغمر بالخل ويسوى ثم يخمر بالبيض والقرفة والسنبل ويصبغ بالزعفران ويترك حتى يعقد ويجف مرقه ويظهر دسمه، وكان يعيش مدة طويلة ويسمى باسم " طعام الفرس"[2]، كما انتشرت أكلات تعتمد على اللحوم والحشو والتوابل مثل " المركاس"[3]، وهو يشبه السجق في مصر والمركاز في وقتنا الحاضر وعرفت بلاد المغرب أكلات مشهورة نسب بعضها لليهود مثل "الحجلة اليهودية" " والفروج اليهودي" وكلاهما يعتمد على الحشو والتوابل والبيض[4] كما نسبت أكلات للمصريين. مثل " الفروج المصري"[5] ونسبت أكلة إلى " زرياب" باسم تقلية زرياب" وتصنع من اللحم والتوابل وتخمر[6]، كما اشتهرت " المجبنات " في المغرب وهي نوع من القطائف يضاف إليها الجبن في عجينها وتقلى بالزيت[7] وهي أنواع عديدة قد تؤكل بالسكر أو بالعسل أو شراب الورد [8].

---

1 - مجهول، كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين، تحقيق أمبروزيو أويبي ميرانـدا، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، المجلد 9، (510 هـ/1961م-1692م)، ص ص 187-188.

2 - مجهول كتاب الطبيخ، ص 26.

3 - نفسه، ص 24.

4 - نفسه، ص 187.

5 - نفسه، ص 72.

6 - نفسه، ص 160.

7 - نفس، ص ص199-203؛ - المقري، نفح الطيب، ج1، ص 184؛ - والسقطي، كتاب في آداب الحسبة، ص31.
ويظر: - أرسلان، الحلل السندسية، ج1، ص 221؛ - ويصف أبو البركات إبن الحاج الأندلسي (ت 573هـ-1179م) المحنات بقوله:

وَمُصْفَرَّةُ الخَدَّيْنِ مَطْوِيَّةُ الحَشَا :. عَلَى الجُبْنِ وَالصُّفْرُ يُؤْذَنُ بِالخَوْفِ
لَهَا بَهْجَةٌ كَالشَّمْسِ عِنْدَ طُلُوعِهَا :. وَلَكِنَّهَا فِي الحِينِ تَغْرُبُ فِي الجَوْفِ (البحر الطويل)

- إبن خاقان، قلائد العقيان، ص 146.

8 - مجهول، السابق، ص ص 199-202.

أما الطعام الغالب على عامة الناس من الفقراء والبدو والعمال والفلاحين فيعتمد على الذرة والحبوب [1]. وكانت مائدة الزهاد متواضعة لا تهتم بالفاخر من الطعام بل تركز على قليله وخشنه فالزاهد " أبو عمر أحمد بن هارون بن احمد بن جعفر بن تمات النفزى الشاطبي" (542هـ - 609هـ / 1147م - 1212م) الذي غلب عليه الورع ولبس الخشن كان " يأكل الحشب" أي الغليظ من الطعام[2] واجتمع قوم من الزهاد حول مائدة عليها مجبنات بالعسل[3] وكان الورع " عبد الله بن أحمد بن محمد من عطية المالقي" (573هـ - 648هـ / 1177م - 1250م) قد قاطع أكل اللحم[4].

لقد عرفت المائدة المغربية في المجتمع الحضري أنماطاً من تنظيمها، متأثرة في ذلك بما وفد من الأندلس فاستبدلت مفارش المائدة المصنوعة من الكتان بأخرى من الجلد الرقيق، واستخدموا الكؤوس المصنوعة من الزجاج الثمين بدلاً من الأكواب الذهبية والفضية[5] وروعيت آداب المائدة عند الطعام وروعي في صنعة الطبيخ الحفظ من الأوساخ والعفونات، وتنظيف الأواني المستعملة لذلك مع نظافة المطابخ.

وكان الطّباخ على معرفة جيدة بأنواع الخلول والتوابل[6]، وروعيت التّقاليد في تقديم الطعام فلا تقدم أصناف سهلة الهضم مع أخرى ثقيلة حتى لاَ يُؤدّي ذلك إلى التّخمة وآلام المعدة[7]، كما عرف تزيين الطعام بالبندق واللّوز والفستق وغيرها[8] وحذّر الطّبّاخون من أكل الطّعام البايت في آنية من النّحاس وذلك لتأثيره السّام على بعض الأطعمة وكذلك

---

1 - إبن الخطيب الإحاطة، ج2، ص 37؛ - اللمحة البدرية، ص 40.

2 - الدهبي، سيرة أعلام النبلاء، ج22، ص ص 13-14.

3 - إبن عربي، روح القدس، ص 112.

4 - السيوطي، بغية الوعاة، ج2، ص 33.

5 - المقرى، نفح الطيب، ج3، ص 728؛ - حسن ابراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج3، ص 496.

6 - مجهول، كتاب الطبيخ، ص ص 79-80.

7 - نفسه، ص 76.

8 - نفسه، ص ص 101.

الطعام البايت المكشوف، والطّبخ الدّائم في قدر واحد لاسيما إن كانت غير زجاجية و لم تنظف[1].

ولا شك أن المائدة المغربية عند طبقة الخاصّة كانت تزيّن بمجموعة من ورود خاصّة تشتهر بكثرتها، فجبل غمّارة تواجد به الورد العطِر[2]. وجبل تينملل غرست فيه أنواع عديدة من الأزهار [3] وقد وصف "إبن بصال" مجموعة من الورد توضع في آنية فاخرة مغطاة بالشمع تغرس فيها أجناس من النّوار مثل الخيرى والياسمين والنرجس وغيرها فتبدو في شكل حسن ويستمتع بها[4].

كما عرفت المائدة أنواع الحلوى، فوجدت حلويات منها أنواع بالتمر والعسل وحلاوة سكرية وحلاوة مشرقية وحلاوة تسمى " المعمودة" وحلاوة شامية [5]، حلاوة تعرف بالمشمع وكان يصنع بمراكش بدار الخليفة" يعقوب المنصور" نوع من الحلوى يسمّى " السّنبوسك" ويُأخذ من السّكر الأبيض يحلّ ويحلّب بماء الورد، ثم يجعل عليه اللّوز المدقوق كالعجين وعرفت المائدة المغربية أيضا أنواعاً عديدة من الفاكهة الموجودة طوال العام مثل البطيخ، العنب، التين، الزبيب، التفاح، الرمان، القسطال، البلوط، الجوز، اللوز وغيرها.

ويحرك برفق حتى يلتف ثم يترل على النار ويزين بالسنبل والقرنفل والزنجبيل والمصطكي وشيئا من الكافور والمسك واللّوز ويعجن الجميع حتى يصير قرصا على قدر الكعك ثم تكوّر [6]. وكان للعامة "سنبوسك" على ثلاثة أنواع، هو أن تُحشى الرّقاق بالثّوم المدقوق والتوابل وتلف شكلا

---

[1] - ص ص 83-84.

[2] - الحميري، الروض المعطار، ص 105 .

[3] - إبن غالب، فرحة الأنفس، ص 296.

[4] - إبن بصال ،كتاب الفلاحة، ص 181.

[5] - إبن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص37.

[6] - مجهول، كتاب الطبيخ، ص 213.

مثلثاً تُقلى في الزيت، ومنه ما يعمل بالعجين مخلوطاً ومضروباً باللّحم والتّوابل والبيض ويُقلى، ومنه ما يعمل بالعجين المعجون بالسّمن أو الشّحم المذاب ولا يقلى بل يترك نيئاً كذلك كانت هناك معاجين (مربات) مثل معجون الجزر ومعجون الجوز الأخضر ومعجون السّفرجل ومعجون البنفسج ومعجون النّعنع ومعجون الكرويات والنارنج[1].

أما أدوات الطّعام المستخدمة فكانت الأواني من النحاس أو الفخار، والمهراس من الرخام أو الخشب، ومن هذا الأخيرة تكون أيضا المغارف والملاعق ، والعود الذي يقطع عليه اللّحم، واللّحوم الذي يمدّ عليها الكعك وأطعمة الخبز، كذلك الآلة التي يُصنع بها المرّكاس تكون من الزجاج الأبيض أو من فخّار مزجّج، وكان يُحشى من النحاس حتى لا يتزنجر[2] وفي حضرة فاس كانت توجد مقاطع للرّخام اللّين الأبيض تُصنع منه الأقداح، الأطباق، الأكواب، الأسطال والحقاق، وكل ما يخرط من الخشب يخرط منه[3].

2 - الأشربة:

أما الأشربة، فكانت منتشرة في عصر المرابطين والموحدين، بين الخاصة والعامة فكانت الخمور[4] تباع بأسواق المغرب باستثناء بدايات الدولتين حيث كانت النزعة الدينية قَويّة ومسيطرة .

---

[1] - مجهول، كتاب الطبيخ، ص ص 248-252.

[2] - السابق، ص ص 248-252.

- يوجد في متحف قرطبة وعاء أسطواني مزدان بحواشي خشنة يرجع للعصر المرابطي الموحدي، عليه عبارات مديح، وهو من نوع الخزف ذو الفواصل الحافّة أي أنه يحمل رسوما مخططة بفرشاة مغموسة في أكسيد المنغنيز دون ذوبانه فيصبح مصمتا بعد خروجه من الفرن. نقلا عن: - مورينو، الفن الإسلامي، ص 385.

[3] - إبن غالب، فرحة الأنفس، ص 283 .

[4] - الخمر: يصنع من أكثر أنواع الفاكهة، لا سيما العنب والتمر والتفاح، والمشمش، والذرة وهو عصير بعض هذه الثمار أو منقوعها. وقد يضاف إليه العسل أو الدبس أو يصنعونه من أحدهما ويصفى ثم يشرب، ويقال أن أول من استخرج الخمر الملك" جمشذ" ملك السريا السابق ثم انتقل إلى المغرب.

ولكن بعد مضي قليل من الوقت فتر كل شيء ، إنتشرت الحضارة تفاسدها وضعف وازع السلطان في التّصدي لتلك الآفة في مجتمع المغرب وخاصة الحواضر، "فالمرّاكشي" يقول عن المرابطين: "وتفشى الخمر بينهم وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة على كل مُفسدٍ وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور" [1]، واستغل ابن تومرت تفشّي الخمر عند المرابطين وأعتبرهم مفسدين، فأنكر على "علي بن يوسف" أن الخمر تباع جهارا في بلدانه[2] ونَصّ في كتابه "أعز ما يطلب" على إراقة الخمر بكسر أوانيه وتحريم الانتفاع به وبنجاسته[3] وحرم كل ما ينتج عنه خمر مثل العسل والعنب والتمر والقمح والشعير[4]، واتخذ من الخطوات العملية ما يؤيد قولَه، فلما دخل المهدية " رأى سوقاً يباع فيه الخمر فكسر دنَانَها وأراقها وغَير المنكر"[5].

بعد البدايات القوية في تحريم الخمر، بإعتبارها تبعد عن ذكر الله وتوقع العداوةَ والبغضاءَ بين القَوْم، وتُقَبّحُ الحسن وتُحسّن القبيحَ، وتغري بالفسق وتعدّي حدود الله الذي حرّم الخمر بقوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخَمرُ والميْسِرُ والأنْصَابُ والأزْلاَمُ رِجْسٌ من عَمَلِ الشّيطان فاجتنِبُوه لعلكم تُفلحون﴾ [6]، وقد شربت جماعة من الشعراء الخمر في دار "ابن الأعلم" وكانت منهم جماعة من الوزراء أبناء الشرفاء فوقع بينهم عتاب وامتهان أثناء المشاجرة أدّى بالأديب "أبي بكر عبد المعطي" (ت. 588هـ / 1194م) أن يجّرد سيفه ويكرّر حَفْوَهُم [7] وأن يتذوق بعض الكرم لظنه أنه مسموم فَسَقَى

---

1 - المراكشي، المعجب، ص 226.

2 - الأندلسي، الحلل السندسية، ط1، مخطوط، ورقة 173.

3 - إبن تومرت، أعز ما يطلب، ص ص 375-376.

4 - إبن تومرت، السابق، ص ص 373-374.

5 - إبن القطان، نظم الجمان، ص 40.

6 - أنظر الآيات القرآنية التي تحرم الخمر في، سورة البقرة، آية 219، سورة النساء، آية 43 سورة المائدة آية 91.

7 - المقري، نفح الطيب، ج 4، ص ص 235-236.

منه شخصاً وَجَبَ عليه القتل فطرب ورقص وَأظهر الفرح والسرور ثم نام طويلاً، ثم إنتبه فسُرَّ الملك وأمر بغرسه في البلاد وأهل النّوبة كانوا يقولون لقصير العنب أو ما يعصر "مِصْطار"، والمصطار هو الخمر الذي فيه حموضة وحلاوة وعربت الكلمة في الشرق ثم انتقلت إلى المغرب وجاء على لسان "الأهواني"[1] أن الخمر تذكر باسم " القهوة" فيقول "إبن قزمان".

اِسْقِنِي ذَا الْقَهْوَةَ حَتَّى تَنْشَطَ :. وَأُخْلُطْ بِمَا أَرَدْتَ أَنْ تَخْلُطَ

(الشطر: رمل) (منسرح) (مختل)

وقد إنتشرت الخمور وكان يقوم ببيعها اليهود فيذكر أن " إبن عبد الرؤوف"[2] كان يمنع الجلوس عند أبواب من اليهود المتهمين ببيع الخمر، لتجنب التعرض للخمور كما أن النصارى كانوا يملكون حانات الخمور[3] واشتهرت مدنٌ بصناعة الخمور لسبتة وفاس وَقُصور سجلماسة[4].

وَمع إنتشار الخمر كثرت قصائد الخمريات وتعددت أوصاف مجالس الندماء ولياليهم[5] فكان الشراب والإجتماع حول الكؤوس في الصّباح والمساء، في مجالس واسعة أو في رَحْبة الدّار أو في مواضع النّهو في الرّياض مثل الأودية حيث يتناولون الشراب بين الرقص والغناء وموائد الطعام الشهية والساقي يمر بينهم[6].

ومن خلال ما سبق يتضح جليا أن ظاهرة تعاطي الخمر في بلاد المغرب كانت متجذّرة والأشربة المسكرة متنوعة[7]، وأن خطاب الفقهاء

---

1 - ألفاظ معربة، ص 315

2 - إبن عبد الإله، آداب الحسبة، ص 114.

3 - كانت مصانع الخمر بمراكش وفاس وغيرها من المدن، بدعوى التداوي بها. ينظر:

- إبن تومرت، أعز ما يطلب، ص ص 363-376.

4 - إبن سعيد، المغرب، ص 424، - إبن تومرت، السابق، ص 372.

5 - إبن خفاجة، ديوان إبن خفاجة، ص 25؛ - إبن سعيد، ريات المبرزين، ص200.

6 - إبن بسام، الذخيرة، ق3، ج1، ص 615؛ - إبن سعيد، السابق، ص 166.

7- ابن تومرت، السابق، ص 373

والأئمة والخطباء زيادة على رجال الدولة الموحدية كان ينعتها بأنها "هي جماع الإثم والفجور والباب المفضي إلى الفسق والشّرور"[1] وكثيرا ما كان الإمام المهدي يستشهد بقول الرسولﷺ: "لَعَنَ اللهُ الخَمْرَ وَعَاصِرَهَا وَحَامِلَهَا وَالمَحْمُولَةُ إِلَيْهِ"[2].

ونخرج بفكرة مؤكدة على أن الخمر كانت شديدة الوطأة على سكان بلاد المغرب خلال عهد المرابطين وعرفت تراجعا خلال عهد الموحدين، وأن أهل بلاد المغرب بأقاليمه ظلّوا يتعاطونها حتى بداية عهد المنصور الموحدي الذي أصدر أوامره بمصادرة وإراقة جميع أنواع الأشربة المحرمة[3].

وجدير بالإشارة إلى أن بعض أمراء الدّولة الموحدية كانوا يشربون الخمر، فقد كان محمد ابن عبد المؤمن بن علي الموحدي يشرب الخمر المحرمة علنا ويظهر السكر عليه على مرأى شيوخ الموحدين، الأمر الذي سبب خلعه[4]، وتناول بعض الكتاب والمدرسين والشعراء الخمر، فقد كان الشاعر المشهور محمد بن غالب الرصافي (ت. 541هـ / 1145م) يشرب على أنغام الطرب[5]، وجاهر بن كليم السبتي (ت. 549هـ / 1151م) الذي خرج سكرانا في رمضان فقتله العامة بجرة الخمر[6].

ولقد اختصّ المصامدة ببعض الأشربة منها شراب يسمى " آنزير"[7] كذلك شراب "الرّب"[8] الذي انتشر بين خاصة الموحدين، ففي ربيع

---

[1] - البيدق، إخبار المهدي، ص ص 1-8.

[2] - رواه الإمام محمد في مسنده، بهذا اللفظ، ج4، مؤسسة قرطبة، مصر.

[3] - الزركشي، تاريخ الدولتين، ص 306.

[4] - إبن صاحب الصلاة، كتاب المن، ص 216؛ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج21، ص99.

[5] - المقري، نفح الطيب، ج3، ص 515.

[6] - إبن سعيد، رايات المبرزين، ص ص 179-180.

[7] - يتم صنع الأنزير من عصير العنب الحلو، ويطبخ بالنار إلى أن يذهب منه الثلث ثم يزال عن النار فيرفع ويشرب ولا يمكن تناوله إلاّ إذا خلط بقدر يناسبه من الماء. ينظر: - الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 62.

[8] - شراب الرب هو السائل الخاثر من عصير العنب. ينظر: - مجهول، كتاب الطبيخ، ص 525.

الآخر من عام (566هـ / ديسمبر1170م) خرجوا إلى قصور البحيرة في حفل حضره أزيد من ثلاثة آلاف رجل فصنع لهم كما يقول " إبن صاحب الصلاة"[1] نهرٌ من " رُب" ممزوج بالماء كلّما أكلت طائفة قامت ومشت إلى الخليفة رضي الله عنه فسلمت عليه ودعا لها ثم نهضت إلى ساقية الرُبّ تشرب وتطرب.

كما تميز سكان منطقة جربة وسوسة ببلاد المغرب الأدنى بصنع الخمور عن طريق إستعمال كميات كبيرة من العنب المسمى العسلي " Mielleuse Asli " أو المعسول وعصرها حتى يحصلون على عصير مسكر[2]، كما اشتهر عرب أفريقية الهلاليين بصنعهم لنبيذ سموه "المريس"[3] ويعود إنتشار الأشربة المحرمة لكثرة غراسة الكروم في الوطن القبلي من تونس، والمهدية، وقفصة وطرابلس وبترت[4].

وغير بعيد عن شمال بلاد المغرب الأدنى، عرف سكان منطقة الجريد بإقبالهم الشديد على شرب نبيذ النخيل الذي يسمونه بإسم "اللاّقمي" ويصفه البرزلي بقوله: "وبعد أربعة وعشرين ساعة يتعاطى أهل جربة شراب اللاقمي مخمرا مثلهم مثل أهالي الجنوب بكل لذة ونشوة وهو مسكر"[5].

وإنتشر هذا الشراب المفضل عند أهل الواحات، وجربة ومدينة قفصة حيث يتم بيعه والمتاجرة به في مدن الشمال كتونس، وسوسة، وطبرقة وبونة[6] وكان القضاة يمنعون بيعه بصفة عامة، وخاصة في شهر رمضان حيث يزداد الإقبال عليه بعد الفطور.

---

[1] - إبن صاحب الصلاة، كتاب المن بالإمامة، ص 433.

[2] - مجهول، الإستبصار، ص ص 18-31.

[3] - الأبي (محمد بن خلفة بن عمر)، إكمال الأكمال42، طبعة مجربة القاهرة 1910م، ص ص 316-319.

[4] - المازري، المعلم بفوائد مسلم ج1 تونس بيت الحكمة 1968، ص 140.

[5] - جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، تح. حسن حسني عبد الوهاب، الكراس، رقم 32، ص 6.

[6] - (N) Jalloul, « permanences antique et mutation médiévales agriculture » Romma 1996, T_1, p p 500-501.

وإلى جانب تلك الأشربة المسكرة، إنتشرت أشربة أخرى ذات فوائد صحية، إنتخبها العطارون والعارفون، وصنفها بعض الأطباء وأدرجوها في كتب مثل ما أورده الطبيب مروان بن عبد الملك بن زهر (ت. 557هـ / 1162م)[1]، كما صنف بعضها في جداول أثبت بعض قوائمها الباحث أبروان إدوارد[2]، ومن بين تلك الأشربة الإستشفائية نذكر شراب العود القماري الذي كان يعتقد أنه يقوي المعدة والكبد وسائر الأعضاء ويفرح القلب[3]، وشراب العسل الذي ينفع في تسكين وهج الصفراء، وقطع العطش والحميات الصفراوية[4] وكذلك شراب العناب الذي ينفع من حميات الدود ويصفى الدم العكر ويسكن السعال[5].

- الخلع والهدايا:

كانت الخلع والهدايا تتبادل بين الملوك والخلفاء، وتقدم من طرف الأمراء والأعيان هدايا إلى مساعديهم وكتابهم مقابل أعمال أنجزوها أو مواقف ناجحة إتخذوها كما يتهادى أفراد طبقة العامة فيما بينهم أثناء مناسبات عائلية كأفراح الزواج أو حفلات الختان، أو حتى بغرض قضاء حاجات بعضهم البعض، فهذا الشيخ محمد بن أحمد بن هشام اللخمي السبتي (ت. 570هـ / 1176م)[6] يقدم هدية لأخيه يونس بن أحمد بن هشام (ت. 584هـ / 1190م) بمناسبة نجاحه في مساعي الصلح الذي أعاد إليه زوجته التي غادرت البيت الزوجية بعد نزاع عائلي.

---

1 - أبو مروان بن أبي العلاء بن زهر، كتاب التيسير في المداواة والتدبير، تحقيق، مبشيل الخوري المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دمشق 1983م، ص ص 105-108.

2 - كتاب الأشربة والمعاجين، تعريب إبن شقرون كامبريدج1921م، ص ص 406-408.

- Lucien Le clerc, Histoire de la Médecine arabe, T II, p 86.

3 - مجهول، كتاب الطبيخ، ص235؛ - الخطابي، الطب والأطباء، ص 481.

4 - مجهول، السابق، نفس الصفحة.

5 - نفسه، نفس الصفحة.

6 - محمد بن أحمد بن هشام اللخمي السبتي هو صاحب كتاب الفصول والجمل في اللغة وبعد من الأوائل الذين درسوا اللغة العربية في بلاد المغرب خلال القرن السادس الهجري. ينظر: - إبن الأبار، التكملة، ص215.

ولما إنضم أبو جعفر بن عطية (ت. 553هـ / 1158م) إلى جنود الموحدين أثناء ثورة "الماسي" سنة (542هـ / 1147م) التي إنتصر فيها الموحدون، وكتب أبو جعفر بن عطية رسالة الإنتصار باسم القائد أبي حفص إلى عبد المؤمن بن علي، ولما وفد إبن عطية على الخليفة عبد المؤمن، بالغ في إكرامه وأهداه مالا وكسوة[1].

وفي سنة (559هـ / 1164م) قَدم أبو محمد (صاحب بجاية) والسيد أبو عبد الله، صاحب قرطبة تائبين مبايعين، الخليفة عبد المؤمن فاَستقبلهما بحفاوة بالغة، وَوصلهما بالأموال والخلع[2].

وأعطى الخليفة "عبد المؤمن بن علي" الفقيه أبا عبد الله محمد بن أبي العباس التيفاشي الذي أنشد شعرا بمناسبة إنتصار عبد المؤمن بن علي.

مَا هَزَّ عَطْفَيْه بَيْنَ البَيْضِ وَالأَسَلِ :. مِثْلُ الخَلِيفَةُ عَبْدُ المُؤْمِنِ بنَ عَلِي (البسيط)

ألف دينار على هذا البيت وحده وأخذ يزيده بعد ذلك حتى وصله إلى أربعين ألفا[3] خَافَ من ألسُنِ الناس فهرب ولَما عَلِم "عبد المؤمن" قال: "لو طال مقامه لزدناه على ذلك"[4] . كما أجزل " عبد المؤمن " العطاء " لأبن فرجون المالكي". فولاّه الخزانة المالية وهي من المهام الجليلة، وربما وصله في المرة الواحدة بخمسمائة دينار، كان يصرفها الشيخ على الأقرباء والضعفاء والمساكين (ت. 569هـ / 1173م)[5].وَلَمّا قدم وفد اشبيلية على " عبد المؤمن" لتقديم البيعة قبل طاعتهم وانصرفوا بالجوائز

---

[1] - المراكشي، المعجب، ص 136.

- عبد الله على علام، الدولة الموحدية، ص 323.

[2] - إبن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 137.

[3] - إبن سعيد، المغرب، ج1، ص ص 336-337.

[4] - إبن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج3، ص 239.

[5] - المراكشي، السعادة الأبدية، مخطوط، ورقة 237-238.

والإقطاعات لجميع الوفد " سنة (542هـ / 1147م)[1] كذلك منح الشعراء والفقهاء الذين وفدوا على جبل الفتح لتهنئته بالأنعام والخيرات الكثيرة[2].

ونال الفقيه " أبو محمد المالقي" على قصيدة لامية قالها" ليوسف بن عبد المؤمن "، إقطاع بمدينة مالقة كما أنصرف مملوء الحقائب[3] ومنح " يوسف" أهل سوسة أموالاً وبقراً وأسلحة وقمحا وشعيراً[4]، أما " المنصور الموحدي" عندما سعى لمحو مذهب مالك وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث أمر العلماء بعمل مجموع يجمع أحاديث الصلاة وما يتعلق بها على نحو الأحاديث التي جمعها " إبن تومرت " في الطهارة، وأملى ذلك بنفسه على الناس فانتشر هذا المجموع في المغرب وحفظه الناس من الخاصة والعوام، فكان يجعل لمن حفظه كساءً وأموالاً[5] وعند تمام بيعته أخرج مائة ألف دينار ذهبا من بيت المال وفرقها عل جميع الضعفاء[6].

واهدى الأديب "أبا البحر صفوان بن إدريس" من المال فأغناه عن الخلق[7] وكانت هناك هدايا عينية يتبادلها الناس فيما بينهم مثل الصنّا[8] أو التمر مصحوباً ببعض النظم[9] أو الخمر[10] أو البازي (السفز)[11]

---

1 - الزركشي، تاريخ الدولتين، ص 6.

2 - إبن صاحب الصلاة، كتاب المن بالإمامة، ص ص 170-171.

3 - السابق، ص 428.

4 - إبن صاحب الصلاة، السابق، ص ص 505-506.

5 - المراكشي، المعجب، ص 335.

6 - إبن أبي الزرع، الأنيس المطرب، ص 143؛ - الناصري، الإستقصا، ج2، ص ص 158-159.

7 - إبن سعيد، المغرب، ج2، ص ص 260-261.

8 - إبن الآبار، الحلة السرّاء، ج2، ص ص 282-285.

الصناب: هو صباغ يتخذ من الخردل والزبيب وهو صباغ يؤتدم به، والمراد بالصباغ هنا ما نسميه في اللغة الجادية" صلصة". ينظر: - إبن الآبار، السابق، ص 285

9 - نفسه، نفس الصفحة.

10 - إبن سعيد، السابق، ص 36.

11 - إبن بسّام، الذخيرة، ق2، ج2، ص 769؛ - إبن السعيد، رايات المبرزين، ص 96.

وحتى الكحل[1] أو إهداء فرس[2] أو جرآة[3]. وهدايا يكون الهدف منها طلب المساعدة والعون السياسي والعسكري مثلما حصل عندما أرسل صلاح الدين الأيوبي سفارة بقيادة شمس الدين بن عبد الرحمن ابن نجم الدولة أبي عبد الله بن مرشد طالبا مدد الأساطيل الموحدية وحمل معه رسالة ومعها هدية من تحف وألطاف، وعندما وصل إلى بلاد المغرب بتاريخ (20 ذي الحجة 588هـ / 8 يناير 27 يناير 1192م) وأقام حتى عاشوراء من محرّم سنة (588هـ / 27 يناير 1192م) من غير أن تُقْضى حاجته ومع ذلك ناله إكرام وقدمت له هدايا ثمينة[4].

الخلاصة:

أبانت دراسة الحياة الإجتماعية العامة لأهل بلاد المغرب خلال القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي عدة حقائق أولها المظاهر الإجتماعية التي تشرف الدولة على تنظيمها وإحيائها وتتمثل في الحفلات والمواكب إذ حرصت الدولة على إبراز مسألتين أساسيتين الأولى على المستوى الخارجي إذ يتضح من خلال إظهار العظمة والقوة في محاولة إدخال الرهبة وفرض الإحترام على خصوم وأعداء الدولة.

أما على المستوى الداخلي فتتجلى بوضوح رغبة الدولة وحرصها على التواصل مع الأمة بإشراك أعيانها، وشيوخ قبائلها، وعلمائها، في تراتيب الحفل دون تجاوز العامة من الناس حيث يتفقدون بالكسوة

---

[1] - إبن بسام، الذخيرة، ق2، ج2، ص 772.

[2] - الأصفهاني، الخريدة، ج3، ص 446؛ - ويقول إبن خفاجة في إهداء مهر لهيم أدهم :

تَقَبَّلِ المهْرَ مِنْ أخي ثِقَةٍ ❁ وأرْسِلْ رِحَابَهُ إلَى مَطَرِ

مُشْتَمِلاً لَوْنُهُ وَغُرَّتُه ❁ إلَى سَوادِ الفُؤَادِ وَالبَصَرِ (البحر المنْسَرِح)

- إبن خفاجة الأندلسي، ديوان أبن خفاجة، تحقيق سيد غازي، ط2، نشأة المعارف الإسكندرية 1960م، ص 24.

[3] - إبن سعيد، رايات المبرزين، ص 74.

[4] - إبن خلكان، وفيات الأعيان، ج7، ص 12.

والأطعمة والمال، وثاني الحقائق يتمثل في روح التطور الحضاري، إذ يلمس القارئ تطورا في مجال تنظيم الإحتفالات والمواكب من خلال الدقة في التنظيم وإزدياد حجمها ومدتها وعددالمشاركين فيها ونوع الألبسة التي يلبسونها والرايات التي يحملونها.

وعلى مستوى العادات والتقاليد فإن شيوخ الموحدين وخلفائهم منعوا أنفسهم من الإنغماس في حياة الترف والبذخ، تجلّى ذلك في نوع الأطعمة التي يتناولونها[1] والألبسة التي يرتدونها[2]، فرغم إمتياز خاصة الموحدين بلباس خاص إلا أنه لم يتجاوز سقفًا معينًا من الزينة ومظاهر الترف وعلى إعتبار أن اللباس مظهر حضاري فقد عبَّر لباس الموحدين عن تطورات حصلت في حواضر البلاد دون أن يتجاوزوا القيم الروحية والأخلاقية وأنماط العيش التي كانت سائدة.

وهذا لا يمنع من وجود مظاهر محدودة من حالات الترف والبذخ تمثلت في تنوع موائدهم وكثرة السوائل التي يشربونها سواء المسكرة أو الإستشفائية.

كما كشفت الحالة الصحية في البلاد عن مدى الوعي الثقافي والصحي الذي إنتشر في أوساط السكان الأمر الذي أفضى إلى ظهور أطباء وعلماء ذوي كفاءة عالية أهلتهم لشهرة تجاوزت حدود البلاد.

---

[1] - إبن خلدون، العبر، ج6، ص116.

- ويشير إبن صاحب الصلاة إلى إبن عبد المؤمن بن علي "مالبس قط إلا ثياب الصوف عن قميص وسراويل وعن جبة التي تلبس تحت الحلابية والعباءة والبرنوس والشاشية السلهامية التي هي شبيهة بالبرنس": المن بالإمامة، ص 132.

- التادلي ، التشوف ص368.

[2] - التادلي، السابق، ص ص 351-352.

- مجهول، الإستبصار، ص215.

الباب الثاني

الحياة الإقتصادية لسكان بلاد المغرب

خلال الفترة

515هـ - 595هـ / 1120م - 1199م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الأول

الفلاحة في بلاد المغرب

خلال الفترة

515هـ - 595هـ / 1120م - 1199م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تقديـــــم:

يشكل القطاع الزراعي المصدر الرئيسي لإقتصاد بلاد المغرب خلال القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي (6 هـ - 12م) ونظرة سريعة على إقتصاد الفترة يدل على أن هناك نقلة حضارية واضحة عرفها سكان البلاد، قياسا بما عرفت به ذهنية أغلبية القبائل من العزوف عن الحرف اليدوية، و الأعمال الفلاحية[1]، إعتزازهم بالفروسية وفن القتال، وخير مثال على ذلك تشكيل فرقة من الفرسان لكل قبيلة تظل مستعدة للقتال للدفاع عن كيانها ونفسها وممتلكاتها.

وفي ظل هذا الجو ظهر الموحدون، ومنذ البداية عملوا على إضعاف العصبية القبلية دون الإستغناء عنها أو محاربتها، الأمر الذي يسّر الإنتقال إلى مستوى أكثر حضارة، وترتب على ذلك إندماج الكثير من البربر في الحرف الصناعية، والإقبال على تعلم اللغة العربية وتعاطي العمل الفلاحي الذي نال إهتمام الدولة الموحدية فيما بعد[2] حيث تفتحت عين الخارج وخفّفت الضرائب، ونشرت الأمن. وسوف أتناول النشاط الزراعي في بلاد المغرب خلال عصر الإزدهار الموحدي بالتعرض إلى النقاط التالية:

1- التنظيم الزراعي وملكية الأراضي : - الإستغلاليات المختلفة

- العمل الفلاحي - المناطق الزراعية، ومحاصيلها

- وسائل العمل وطرق الإستغلال - السقي.

2 - الرعي، المواشي، الدواب

3 - تربية النحل والدواجن

4 - الصيد وإستغلال الغابة.

---

[1] - من الأمثلة على ذلك نجد قبيلة "أكسيلة" التي تقطن الجهة الجنوبية الغربية للمغرب الأقصى كان سكانها من أفصح وأردل سكان المغرب، سكانها يحترفون اللّصوصية وقطع الطريق ولا يلبسون المخيط، لأنه لا يوجد بينهم من يحسن الخياطة.

- الإدريسي، نزهة المشتاق، ج2 ، ص 107.

- الحسن الوزان ، وصف أفريقيا، ج1، ص 130.

[2] - أبو خير، كتاب الفلاحة، نشر سيدي محمد النهامي، طبعة فاس 1357هـ ، ص 116.

أولا/ تنظيم الأراضي الزراعية:

تجمع المصادر التاريخية على أن بلاد المغرب عرفت تطورا كبيرا في ميدان الزراعة خلال عهد الموحدين، ثم تراجعت المساحات المخصصة لها أثناء بداية إنقسام الدولة وسقوطها وذلك لصالح الرعي الذي كان سائدًا إبّان الفتح الإسلامي وما بعده، والسبب في رأينا يعود إلى التنظيم الزراعي وَوَضعية الأراضي، وطبيعة الملكية الجماعية للأراضي.

1 - ملكية الأراضي:

نجد عدة أنواع من ملكيات الأراضي، أولها الملكية الخاصة التي تُحصَّلُ عن طريق إستيلاء أعيان وشيوخ القبائل البربرية، وهو عُرْف قديم والذي يؤكد هذا الرأي، أن هذه الأراضي توجد خارج الخط الروماني[1] وتمتاز بمساحات كبيرة، تقارب ملكيات السلاطين والأمراء وإلى جانب هذه الملكيات توجد أخرى لكنها محدودة المساحة، تمتاز بموقعها القريب من القرى والتجمعات السكانية الريفية[2]، ويوجد نوع آخر من الملكيات الخاصة، حُصِّل عن طريق إحياء الأرض الموات وقد كان العمل بهذا الأسلوب قبل الفتح الإسلامي وامتد العمل به خلال الفترة الوسيطة[3].

أما النوع الثاني من الملكيات فيتمثل في الملكيات الجماعية للأرض. وهو النمط السائد في بلاد المغرب. حيث يشمل مساحات واسعة في السهول والجبال، وخاصة أماكن الإستقرار، وَيظهر أن مساحتها كانت متفاوتة، تتحكم في ذلك طبيعة المنطقة ومكانة القبيلة، وغالبا

---

[1] - إبن حوقل، صورة الأرض، ص ص 80-81-88.
- إبن عذاري البيان، ج1 ، ص ص 176 -177.

[2] - محمد البشير شنيتي، التغيرات الإقتصادية والإجتماعية ، ص53.

[3] - لقد إستمرت حيازة الأرض الموات عن طريق الإستصلاح (بقلع النباتات المضرة وتنقية الأحجار، والسقي، ولكن تلك الحيازة تخضع إلى ترخيص من الإمام). ينظر:
- الونشريسي، المعيار، ج8 ، ص ص 35 - 286.

ما كانت هذه الملكيات الجماعية ذات خدمات فلاحية متكاملة، يعني (زراعية، رعوية، غابية) وهي ملك جماعي للقبيلة، وتختلف طريقة الإستفادة منها حسب الأعراف السائدة[1].

ويتعدى الإتفاق ليشمل الأراضي المخصصة للحبوب والمستعملة للغرْس، والمتروكة للرعي الجماعي، وهذه الأراضي لا يحق لأي كان أن يبيعها أو يؤجرها لفرد آخر من خارج القبيلة[2].

وأما الطريق الذي دعم هذه الملكيات هو إقطاع الأراضي ونعني به إقطاع القبائل وزعمائها لبعض العائلات النازحة. وقد تركزت هذه الملكيات في شمال البلاد و في المناطق التي إستوطنتها زناتة سواء في نطاق المغرب الأوسط أو الأقصى بعد نزاعها الطويل ضد صنهاجة الشمال[3].

و يظهر أن هذا النوع لم يحصُل نفس الأسلوب، فقد وجدت قبائل في تفاش عاصمة كتامة تمنع الإقطاع تماما بين أفراد قبيلتها وتتشدد كثيرا في بيع الأراضي، و ينسحب الأمر أيضا إلى قبيلة مصمودة البربرية[4].

---

[1] - في بعض القبائل يتم توزيع الأراضي في بداية موسم الحرث بين المستفيدين بواسطة القرعة، إذا كانت الأراضي متفاوتة الخصوبة ومن غير قرعة إذا كانت الأراضي الجيدة وافرة، وقد يتم توزيع الأراضي بصفة نهائية بين أعضاء القبيلة حسب عدد أفراد الأسرة فقط:

البكري، المغرب، ص 125.

ابن عذاري، البيان، ج1، ص 233.

الحميري، الروض المعطار، ص ص 470-544 .

[2] - لقد حدث أن تعاملت قبيلتا هرميرة و هيلانة مع قبائل صنهاجة الحبوب و تقويتهم جزءا من أرض القبيلة الأمر الذي أغضب الموحدين من القبيلتين.

البكري، السابق، ص ص 91-92 .

إبن خلدون، العبر، ج6، ص439.

[3] - محمد بن شريفة، "أسرة بني عشرة"، مقال بمجلة البحث العلمي. كلية الآداب و العلوم الإنسانية، عدد خاص رقم 20، الرباط، 1967م، ص ص 134-146 .

[4] - إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 437.

- الحميري، السابق، ص 540.

- الكراء المستديم:

هو نوع آخر من ملكية الأراضي وهي حالات محدودة وقليلة الإنتشار، حيث يَعْمَلُ فيها الشيوخ المسنون، أو رجال التصَوف أو حتى بعض أصحاب الجاه، كما فعل يعقوب المنصور الموحدي مع الشيخ رباح بن سعدات (ت. 601 هـ / 1205م) أثناء دخوله بجاية[1].

- الأرض المشاعة:

وهي أراضي شاسعة بعيدة عن القرى والمداشر، وتعتبر ملكا مشاعا[2] ومن هذه الأراضي بدأ إقطاع الدولة.

- الأراضي المصادرة:

لقد إعتبر الموحدون البلاد المفتوحة التي لم تبادر القبائل التي تسكنها إلى الدعوة الموحدية ملكا للإمام، و إمتلاك فعلي لأراضيهم مما أحدث ردّ فعل عنيف جسّدته الثورات التي قامت ضدّهم في كل جهات المغرب، الأمر الذي جعلهم يغيرون سياستهم اتجاه الأراضي المفتوحة، فقد إتبع الموحدون سياسة الإقطاع منذ بداية الثورة فكان أول إقطاع وزع أيام المهدي هو إقتسام أملاك قبيلة هزميرة وكان هذا الإقطاع شبيه بالمكافأة[3].

وبعد أن نجح الموحدون في ثورتهم وكونوا دولة قوية غيروا سياستهم الإقطاعية مرة أخرى حيث توضّحت أراضي الدولة أكثر من ذي قبل، وخاصة بعد عملية التكسير[4] التي اتبعها الخليفة

---

[1] - الونشريسي، المعيار، ج5، ص 37.

[2] - المراكشي، المعجب، ص ص 214-227.

- إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ص445- 446.

- إبن حوقل، صورة الأرض، ص ص 99- 100.

[3] - يقول إبن القطان في هذا الشأن:"فقتل منهم في ذلك اليوم نحو خمسة عشر ألف... وسبي حريمهم وغنم أموالهم، فقسّم أرضهم وكرومهم بين الموحدين، وأصفى ديارهم جوائز لكل قبيلة حائزة"، نظم الجمان، ص96.

[4] -إعتبر بعض المهتمين بالإقتصاد المغربي الوسيط بأن عبد المؤمن بن علي هو أول من أجرى عملية إحصائية دقيقة للأراضي بعد الفتح الإسلامي وقد عرفت ذلك سابقا منذ العهد الروماني، ينظر:محمد البشير شنيتي، التغيرات الاجتماعية، ص ص 56 -57- 58.

عبد المؤمن بن علي، وهي عملية سمحت بتقدير الأراضي الزراعية والمراعي وملكيات الدولة وتقدير مدا خيلها الجبائية من النشاط الفلاحي، ذلك أن عبد المؤمن أزال الثلث من مساحة أراضي الدولة وهو الذي يوافق الأراضي غير الفلاحية، فهذا الثلث من مساحة أراضي الدولة يعتبر نظريا ملكا للدولة تضاف إليه أراضي الإقطاعات والأراضي المستصلحة والمستخلصة، والأراضي التي إنقرض ورثتها إلى غير ذلك من أشكال حيازة الدولة، على أن الموحدين قد تراجعوا بعد ذلك عن سياستهم الأولى التي تعتبر كل الأراضي المفتوحة ملكا لهم، فاكتفوا بمشاركة الفلاحين في أراضيهم، تأخذ الدولة ما بين الثلث والثلثين من المحاصيل، فأصبح الفلاحون مجرد حمّاسة و رباعة مع المخزن، فتضررت بعض المناطق من هذه المشاركة حتى أهمل الفلاحون أراضيهم فاستعاض المخزن عن ذلك بمقاطعة الفلاحين في بعض المناطق على أموال معلومة[1] يدفعونها سنويا في حين نجحت سياسة المشاركة في جهات أخرى.

عرفت الفترة كذلك إتساع ملكيات الخلفاء والأمراء وكبار الموظفين[2] فبلغت مساحات شاسعة، و في جهات مختلفة[3] معظم هذه الأراضي نتجت ملكيتها عن استصلاح الأراضي وإحياء الموات فعبد المؤمن (526هـ 558هـ/ 1130م - 1163م) كانت له بحائر متسعة في مراكش ومكناسة وفاس وتازا ويعقوب المنصور(580هـ 595هـ/ 1184م 1199م) كانت له أملاك

---

[1] - من المفيد هنا ايراد النص إذ عارني وكانوا (أهل زرهون) قد سقفهم (لما أرسلوا بعضهم لعند المؤمن وهو بأحواز تلمسان) أحرازا من المغارم ... ولم يعرض لأموالهم كما فعل بالأملاك التي أحدث عوضا لكنهم كلفوا "أجر من الكلف الطارئة ما لم يكن لهم تحمله طاقة ولم ينتفعهم بمراهم...." وعلى مكناسة قال "...وعمر في الفل والبشر عقد بقاء الناس وجلا بعضهم واستعمل بطلب المعايش وتعلقوا بالحرف والصنائع وتملك الموحدون الدلاة والأموال وصار الناس عمارا في أملاكهم يوحد منهم سقف الغواكه الضيفية والخريفية وملت عدلت الزيتون...." طغوا بعد ذلك على الغواكه وحيف عليهم في شركة الزيتون..."؛ - الروض المعطار، ص 133.

[2] - النادلي، التشوف، الرباط، 1958م، ص 194.

[3] - مجهول، الإستبصار، ص 209.

- يقول إبن صاحب الصلاة أن محيط بحيرة عبد المؤمن بمراكش 6 أميال، ص 46؛ - ابن بالإمامة، ص 46.

في مراكش ورباط الفتح وقصر ابن عبد الكريم وغيرها إضافة إلى الأراضي المحيطة بقصور الخلفاء ومنازل توقفهم في أسفارهم.

لم يكن الموحدون يقطعون الجنود في بداية دولتهم من غير الموحدين، و أن أول من دشن هذه السياسة و التي سيكون لها دور في تدهور الزراعة في ما بعد يعقوب المنصور، الذي أقطع قادة الأغزاز إقطاعا كبيرا لدرجة أنه أثار معارضة الموحدين ويعكس نص أورده عبد الواحد المراكشي عن مدى غنى الموحدين وترفهم، فقد ورد على لسان يعقوب المنصور معاتبا أشياخ الموحدين: "... والفرق بين هؤلاء (الغز) وبين الموحدين أن هؤلاء غرباء لا شيء لهم في البلاد يرجعون إليه سوى هذه الجامكية، و الموحدون لهم الإقطاع والأموال المتحصلة..."[1]

ورغم تعدد الإقطاعات و أنواعها في هذه الفترة (إقطاع الإنتفاع - إقطاع التملك – وإقطاع مقابل خدمة المخزن....) فإن دولة الموحدين كانت متحكمة فيها وتراقبها، لذلك كان أسلوب المصادرة واسترجاع تلك الإقطاعات والأموال الناجمة عنها إلى الدولة وسيلة فعّالة لضمان مدا خيل الدولة وممتلكاتها والمحافظة على التوازنات المالية. واستمرت فعالية هذا الأسلوب طيلة فترات قوة الدولة وسيادتها.

أمّا باقي أنواع حيازة الأراضي فقد إستمرت هي الأخرى عما كانت عليه في الفترة السابقة مع إختفاء الأراضي الجراح وتوسع الملكيات الخاصة، فانتشار الزراعة المسقية أشاع معه تملك الخواص لمساحات تصغر أو تكبر حسب مكانة الشخص الإجتماعية التي يستمدّها من قوة أو ضعف السلطة المحلية، إلاّ أن القاعدة التي تحكّمت

[1] - المراكشي، المعجب، ص238.

فيها باستمرار هي تقلص تلك المساحات كلما تدرجت من القمة إلى القاعدة، و تتلاشى ملكيتها عند انتقال السلطة من عصبية إلى أخرى[1]

أمّا أراضي الوقف فقد بقيت على وضعيتها خلال هذه الفترة ذلك راجع لحساسية الموقف ذاته و للموقوفة عليه. الأمر الذي أجّل تعرض الدولة الموحدية لهذا النوع من الأراضي التي يُنظر إليها بشيء من الخصوصية إن لَمْ نقل التقديس[2]

إن إزدياد وإتساع القطع الأرضية، وتنوع الضيعات الفلاحية الخاصة في المدن وأحوازها كان نتيجة اللإستقرار السياسي الذي عرفته الجهة الغربية لبلاد المغرب والقسم الغربي للمغرب الأوسط هذا التوسع في إمتلاك الأراضي فتح المجال أمام النزاعات والإغتصاب والتعدي على المسالك الترابية و الحدود بين الضيعات[3].

إن تَوسّع الملكية الخاصة للأراضي خلال فترة موضوع الدراسة أفرز نوعًا من الإستغلالات غير المباشرة لتلك الأراضي وذلك عبر ملاكين غائبين، الأمر الذي دفع إلى إنتشار ظاهرة كراء الأراضي الزراعية لعدم قدرة مُلاّكها الحقيقيين على إستغلالها مباشرة. والسبب في ذلك يعود إلى إرتباطهم بأنشطة أخرى في أجهزة الدولة[4]. أو لأسباب خاصة كالمرض، والملكية المشتركة الناتجة

---

[1] – تحسدت مسألة تمليك الأرض في سياسة المرابطين ومن بعدهم الموحدين، حيث أسكنوا أشياخهم وكبار رجال دولتهم في أراضي حازوها بالقوة في المدن، واستغلوا إقطاعات وأملاك ترابية بكيفية غير مباشرة. ينظر:
– الإدريسي، نزهة المشتاق،ج2 ، ص ص233- 234.

[2] – كانت أحباس مسجد، رباط تازا، تُدرّ على المسجد أموالا تغطي نفقات القائمين عليه، و عابري السبيل، هنري تيراس، الجامع الأعظم في تازا، الرباط 1942م، ص 106.

[3] – الونشريسي، المعيار، ج6 ، ص ص 44-46-234؛ ج8، ص ص 164-169-170.
– محمد بن عياض. مذاهب الحكام ورقة رقم 53.

[4] – إبن رشد ، نوازل إبن رشد ، النسخة المحققة، ج5 ،ص 105.

عن إرث الآباء[1]، وجدير بالملاحظة أن ظاهرة كراء الأرض توسعت لتشمل حتى أراضي الوقف الخاصة ببعض المساجد[2].

أرض الأحباس:

لم تعرف تطورًا ملحوظا خلال القرن السادس الهجري – الثاني عشر الميلادي – ولعل ما يفسر ذلك هو إنتشار الملكية الخاصة قد كان في بدايته. وأن الازدهار الذي عرفته الفلاحة في هذه الفترة إنعكس مباشرة على المساجد والمرافق الإجتماعية وقد أشار المراكشي إلى هذا بقوله:" لقد حبس عبد المؤمن بن علي أرضًا لعَقب رجل زوّدهم بزاد في رحلة قفول إبن تومرت من المشرق"[3]، وزادت عدد القطع الأرضية المحبوسة على النساء والمرضى والمساجد بعد إنتشار التصوف الذي يأمر أتباعه بالزهد والورع[4].

وإذا كان لا يجوز تحويل الأراضي المحبوسة عن الغرض الذي وضعت له ولا يحق لأي كان أن يدخل في ملكيته شيئا من نفعها، إلاّ أن الرواية التاريخية التي أوردها ابن أبي زرع تنفيد بأن الموحدين إستغنوا أو حوّلوا أموال أحباس مسجد القرويين بفاس عندما عمدوا إلى ترقيم وإصلاح مسجد القرويين سنة (571هـ / 1175م)، وانفقوا على ذلك من بيت المال[5]. كما بيّنت مصادر تلك الفترة التاريخية أن الوكلاء على أراضي الوقف كانوا يقتطعون جزءاً من دخل أراضي الوقف دون وجه حق[6].

---

1 – أورد إبن رشد أن أبًا حبس عدة ضيعات على إبنه، و لم يتمكن هذا الأخير من إستغلالها فأجرها و نجم عن ذلك مسائل.
– السابق، ج5، ص106.

2 – كراء أراضي الوقف الخاصة بمسجد القصبة: محمد المنوني، العلوم والآداب، ص 107.

3 – المعجب، ص 158.

4 – إبن الأبار، التكملة، ج1، ص 117.

5 – روض القرطاس، ص 36.

6– ابن أبي زرع، السابق، ص 32.

وكان الوقف قد استمر ازديادًا ونقصانًا تبعا للظروف السياسية والإجتماعية، وكان صاحب الوقف يخاف على مصير أبنائه ورغبة منه في المحافظة على أملاكه يحبسها في عَقِبه من الذكور[1]، ويتم الوقف أحيانا إبتغاء مرضاة الله وخوفا من اغتصاب ذوي النفوذ للمتلكات الموقوفة.

وفي المناطق التي ينعدم فيها الأمن، كانت أراضي الأحباس تُكْرَى لذوي النفوذ القادرين على حمايتها[2].

2 - تهيئة الأرض:

لقد شهدت أراضي بلاد المغرب خلال عصر الموحدين أعمالا فلاحية أفضت إلى تطور الفلاحة وإرتفاع نسبة الإنتاج الفلاحي، وكان ذلك بسبب أعمال السّقي وما ينجر عنه من مدّ القنوات المائية. وبناء الصّهاريج، خاصة في الجهة الغربية من البلاد، فقد أنشأ الموحدون بحائر كثيرة في عدة أمكنة، وفي مناطق بلاد المغرب كافة بما فيها الجهة الشرقية[3] وإذا كانت جهود عبد المؤمن بن علي الإستصلاحية قد تركزت في الرباط، ومراكش وجبل درن[4] وتوسعت خلال عهد إبنه الخليفة يوسف أبي يعقوب فإستصلحت مناطق في مكناسة وفاس[5] وما أن حل عهد الخليفة المنصور الموحدي حتى إتجه نحو الجهة الشرقية مستصلحا الأراضي مما يدل على أن الدولة قد رتبت سياسة معينة في ميدان تهيئة الأراضي، فقد شيد المنصور صهاريج وأحواض مائية بمدينة بجاية[6]، وجلب عشرات الآلاف من المغروسات

---

[1] - إبن الحاج، فيض العباب، الرباط 1984م، ص ص 16-18.

[2] - إبن الزيات، التشوف، ص 89.

[3] - إهتم الموحدون بإنشاء البسَاتين حول قصور الأمراء، وداخل المدن الكبرى كمراكش وفاس، وتلمسان، وبجاية، وأجروا فيها المياه، وكانوا يُسَمُّونها بالبحيرات أنظر: - مجهول، الإستبصار، ص 187.

[4] - البيدق، أخبار المهدي، ص 119؛ - إبن البصال، كتاب الجغرافيا، ص 120.

[5] - إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ص 433- 464.

6- المراكشي، المعجب،ص 287؛ - إبن أبي زرع، روض القرطاس،ص 18.

إلى بجيرته، وسار على سياسته إبنه الناصر الذي زاد اهتمامه بالجهة الشرقية حيث أقام منشآت مائية في كل من تلمسان وقسنطينة[1].

ولقد ترتب عن هذا التوجه نحو تهيئة الأراضي لتكون صالحة للفلاحة تحفيز للسُّكان وتحول بعضهم إلى ممارسة الأعمال الفلاحية فبادروا إلى الإستثمار في الفلاحة وإستصلحوا الأراضي التي لم تكن فلاحية أصلاً فقد توسعت الزراعة لتشمل الأراضي المالحة بعد تهيئتها ونقيت بعض المنحدرات الجبلية من الحجارة والأشجار، ثم جُرّت إليها المياه كما حدث في سهول جبل بني راشد[2] بأحواز تلمسان وعلى إثّر ذلك توسعت الزراعة لتشمل مناطق الأحراش. والأراضي المالحة وعمّت الزراعة سُهول البلاد خاصة تلك التي كانت بعيدة عن الثورات والقتال.

3 - إستغلال الأرض:

إستعملت المصادر عدة ألفاظ ومصطلحات للدلالة على أنواع من الإستغلاليات لكنها لا تساعدنا على إعطاء تصنيف واضح لهذه الأخيرة لأن المصطلح الواحد يستعمل أحيانا للدلالة على أنواع من الإستغلاليات في مصدر واحد وللخروج من هذا الغموض نحاول أن نفرق بين نوعين من الإستغلاليات: الحقول الزراعية المفتوحة والأراضي المغروسة بالأشجار المثمرة، فبالنسبة للنوع الأول غالبا ما تتحدث المصادر عن فدّان، وأحيانا تتحدث عن أراض بيضاء للخضر أو الكتان أو المسقية أما النوع الثاني فيُستعمل للدلالة عليه عدة مصطلحات كالجنان، البحيرة، الحائط، الحديقة، البستان والغرسة.

---

[1] - إبن خلكان، وفيات الأعيان، ج7، ص ص 15- 16، - إبن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص 419.

[2] - إبن صاحب الصلاة، السابق، ص 435.

ويضيف إبن صاحب الصلاة قائلا:« وامتدت يد الموحدين لإستصلاح المناطق التي تكثر فيها الخلفاء في سنات بلاد المغرب».

- المن بالإمامة، ص 436 .

ينتشر النوع الثاني من الإستغلاليات في المناطق المسقية حول المدن وفي مناطق الإستقرار القديم حول البحر الرومي وعلى طول ساحل المحيط. وإزدهار إستغلاليات الأشجار المثمرة كان في الفترة الوسطية بسبب تبني الدولة الموحدية له، فالخلفاء الموحدون وباقي الأمراء والسادة وكبار رجال الدولة أعطوا المثل بأنفسهم فأصبحت (بجيراتهم) تحيط بالمدن الكبرى[1]، وانتشرت الحوائط والبساتين خارج الأماكن التقليدية لغراسة الأشجار المثمرة، لتشمل الأودية الجبلية والسفوح والسهول الداخلية وسهول المراكز العمرانية ووجدت بساتين وجنات حتى في مناطق يصعب سقيها.

أمّا الإستغلاليات الصغيرة للحبوب فغالبا ما وجدت في الواحات حيث زراعة الحبوب المسقية[2] وفي الجبال، كجبال غمارة وبن راشد حيث زراعة الحبوب تتم في مدرجات يصنعها الفلاحون. وعن مساحة الإستغلاليات بنوعيها، لا نملك إلاّ إشارات قليلة، تسعفنا بعضها في معرفة مساحات الإستغلاليات السلطانية وإستغلاليات الأمراء وأصحاب الإقطاعات لكنها لا تساعدنا على معرفة الإستغلاليات العادية وأغلب الإشارات مقتضبة فبحيرة عبد المؤمن في مراكش والتي غرسها بنفسه وجلب الماء إليها من أدوية جبل درن- يبلغ محيطها 6 أميال[3]، وفي مكناسة كانت بحائر الخلفاء الموحدين في نهاية الإتساع[4] ويبدو أن إستغلاليات الخلفاء وأملاكهم في مراكش كانت أكبر

---

[1] - البكري،المغرب ، ص ص 148- 149-151-162 ؛ - الإدريسي ، نزهة المشتاق، ج3، ص ص 226-227.
- الحميري، الروض المعطار، ص ص 128-306 ؛ العمري، مسالك الإبصار ص 127.
- وصف إفريقيا، ج1، ص 90،ج2، ص127.

[2] - مجهول، الإستبصار، ص ص 209- 210.

[3] - السابق، نفس الصفحة.

[4] - أكبر هذه البحائر: حنان الصالحة في مراكش وحنان المسارة في فاس ينظر: - مجهول، الإستبصار، ص210.
-الجزنائي، جني زهرة الأس،ص 146

مما في سواها وتجلى ذلك من مبيعات المحاصيل، فزيتون غراسة عبد المؤمن في مراكش أكثر من غراسة مكناسة وتازا ربما أحسنها جودة[1] كما أن السادة والأشياخ وكبار رجال الدولة الموحدية كانت مساحات زراعاتهم متسعة لدرجة أن أحدهم يمكنه أن يستغني بما في قصره عمَّا في خارجه[2] وبصفة عامة فإن هذه الإستغلاليات تصغر بالتدرج من الأعلى إلى الأسفل في هرم المخزن الموحدي أما خارج هذا الهرم فيمكن أن نقيس مساحات الإستغلاليات عن طريق بعض الإشارات المتحدثة عن (الزوجة) حسب دراسة أعدها الباحث الفرنسي "R.Grand"[3] فإن مُعدل ما يحرثه زوج من الثيران في حوض البحر الأبيض المتوسط هو 10 هكتار[4] وبسبب إختلاف وحدات القياس حسب الأعراف من منطقة إلى أخرى، فإن التقدير المعتمد على الزوج والمردودية يبقى الوسيلة الأكثر دقة في معرفة مساحات الإستغلاليات والأملاك عمومًا والحسن الوزان الذي كان مهيئاً أكثر من غيره ليفيد في هذا الميدان. فإنه لم يتحدث إلا عن الأراضي الخصبة ومقدار ما تنتجه أو أنها تكفي حاجيات السكان أو لا تكفي[5] أما المساحات فلم يهتم بها إلا عندما يتعلق الأمر بإقليم أو منطقة داخل الإقليم أو مساحة جبل حيث يتحدث عن الطول والعرض[6]، ويبدو أن الإستغلاليات (إستغلاليات الحبوب) خارج الفئات الحاكمة وبعيدا عن المدن الكبرى كانت متفاوتة المساحات فهي في المناطق الجبلية صغيرة جدّا لقلّة الأراضي الزراعية

---

1 - مجهول، الحلل الموشية، نفس الصفحة.

2 - إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، بيروت 1964، ص432 .

3 - L'agriculture à travers, les âges, t8 Paris 1950-P330

4 - يناقش : R.Grand صآلة الإنتاج فيعطي إنطباعا بأن ما تحرثه الزوجة من الشعير يتفق في المحافظة عليها و في ذلك مبالغة واضحة لا تراعي التطور التاريخي l'ibid. P332

5 - الوزان، وصف أفريقيا، ج1، ص ص 89-97-169-233-237-252 . وما بعدها.

6 - أمثلة من ذلك عند: الوزان، السابق، ص ص 218-250-153 . وغيرها .

بسبب الطبيعة الجبلية المتضرسة، أما في السهول فإن المساحات تفاوتت في الأراضي الجماعية بتفاوت الأسر فالمشكل هنا ليس مشكل الأرض بل المشكل في الأيدي العاملة ووسائل العمل (الزوجة - الأدوات - الزريعة..)

ونرى أيضا بأن العوامل نفسها تحكمت في مساحة الإستغلاليات في غير الأراضي الجماعية.

وما يمكن إضافته في الموضوع، أن مساحات الإستغلاليات المشار إليها سواءًا لدى الأغنياء أو لدى الفئات المتوسطة بل حتى الاستغلاليات الجماعية وإستغلاليات الأحباس كانت تتأثر بالظروف السياسية والطبيعية، وعلى العموم فالمساحات الإستغلالية قد تناقصت في آخر الفترة الوسطية وقد إرتبط هذا التناقص بشيوع الإستغلال البشع للفلاحين من طرف الإقطاعيين الذين كان هدفهم زيادة مداخيلهم دون مراعاة حالة الفلاح أو الإهتمام بتطوير وسائل الإنتاج، والرفع من المردودية، مضاف إلى ذلك قهر المخزن لهم بالضرائب، ومرتبط كذلك بقساوة الطبيعة (قحط - مجاعات - أوبئة).

أمّا الذي ساد في قرون الفترة الوسيطية، فهو إستغلال مباشر لبساتين والمزارع، بسبب إنتشار الملكية الجماعية للأراضي والنظام العائلي أمّا الإستغلال غير المباشر فكان ضعيف وبالمقابل فقد إنتشر العمل المأجور و ظهرت اليد العاملة الزراعية المتخصصة[1] حتى أن كثيرًا من المتصوفة كان يفضّل العمل بنفسه في إستغلا ليته أو إلى جانب خادم له[2] تواضعا منه وحبا للعمل مخالفا في ذلك العادة

[1] - أمثلة من ذلك عند: الوزان، وصف إفريقيا، ج1، ص ص 103-423-466-470.

[2] - نفس المصدر، ص ص 134- 140.

السائدة لدى الأغنياء والأعيان، و في حالة إستخدام العمال في أراضيهم كانوا لا يعتبرون ذلك تطوعا[1].

ويبدو أن إستغلاليات الأشجار المثمرة كانت مُسيّجة بأنواع مختلفة من السّياجات حسب المناطق، ففي الجبال والسهول الداخلية حيث تكثر الأشجار والأحراش تستعمل النباتات الشوكية وأغصان الأشجار في التسييج أو تغرس حول الإستغلالية بعض الشجيرات الشوكية، وغيرها تتخذ دعامة يحيط بها (الزرب) وأحيانا يُستعمل القصب مغروسا أو منسوجا، وفي المناطق التي تتوفر فيها الحجارة تستعمل الجدران أو الحوائط المبنية بالحجارة والطين أو بالحجارة المُصفّفة حتى أن البساتين قد عرفت بالحائط [2]، وقد إنتشر هذا المصطلح في المصادر إبتداء من العهد الموحدي مما يعد دليلا آخر على إنتشار الغراسة وإنتشار التسييج خاصة بواسطة الحجارة، أما إستغلاليات الحبوب والخضر فكانت مفتوحة إلاّ أن هناك تعليمات رسمية مشددة لدى الموحدين بإحترامها[3] وقد كانت كذلك في فترات الإستقرار وإذا تتبعنا التوزيع الجغرافي للإستغلاليات فإننا نجدها قد إستقرت بكيفية واضحة حول بعض المدن أما خارجها فقد خضعت للتقلبات السياسية ففي العهد الموحدي كانت أهم مناطق الإستغلاليات الكثيفة هي تادلا ووادّاي وتوسعت الإستغلاليات بنوعيها في المناطق القديمة حول فاس ومكناسة وتازا وتبقى المدن والقرى المناوئة للدّولة ضعيفة الإستغلال بسبب موقف الموحدين من سكانها و لم تتعش إلاّ بعد

---

[1] - نفس المصدر، ص ص 113- 134- 409 ؛ - فهجة الناظرين، ص ص 100-110-126.

[2] - إستعملت كلمة حائط للدلالة على البستان سواء كان محاطا بسور من حجارة أم من غيرها:

- التادلي، التشوف ص ص134- 174.

- الونشريسي، المعيار ج5، ص203. ج4، ص13- 14 . ج7 ، ص 484.

[3] - دخلت مسألة احترام المزارع ضمن تعليمات الموحدين إلى جنودهم منذ قيام الحركة الموحدية ثم تعززت بتأييد المنصورة والفقهاء، باعتبار رعي المواشي في أرض الغير حرام سواء كانت مزارع أم مراعي: - التادلي، السابق، ص ص 112 - 166.

حصول الإستقرار ونفس التدهور عرفته الاستغلاليات المحيطة بالمدن في الجهة الشرقية من بلاد المغرب حيث ثورات الهلاليين وبني غانية.

غير أن هذا الإنتقال للإستغلاليات في شكلها ومساحتها وطرق إستغلالها المتمثل في كونها أصبحت غير مُسيّجة في معظم القرى والمداشر ولا تشتغل بها اليد العاملة الخارجة عن العائلة الأمر الذي جعل إستغلالها مباشرًا.

4 - طريقة الإستغلال:

تتم عملية الحرث بعد الحصاد في المناطق ذات التربة الهشّة وبعد سقوط الأمطار في غيرها، وتعرف العملية بالقليب[1] وتتم كذلك بعد نشر الأزبال في الحقول وقد تكون مرة أو مرتين والهدف منها تحضير الحقول للموسم القادم وكانت العملية مُكلفة، ويعتبر عمل القليب في الكثير من المناطق ضروريا خاصة حول المدن الكبرى وفي الواحات والأودية الجبلية وفي المناطق المستغلة منذ وقت طويل، لذلك كان التزبيل[2] من الأعمال التي يشترطها أصحاب الأراضي على شركائهم فكانت الأزبال تُطلب من المدن بمقابل، أما في الإستغلاليات الكبيرة فتتم عملية التزبيل بكيفية موازية لتربية المواشي، فحول المساكن تنتشر أوراث البهائم بكيفية تدريجية تتسع حول المسكن حسب أهمية القطيع فتعرف الأرض المشبعة بالأزبال بالدملة ولها قيمة أكبر من الأراضي العادية[3]. وبعيدا نسبيا عن المساكن تتم عملية تزبيل الحقل عن طريق نقل زريبة المواشي من مكان إلى آخر، بكيفية تجعل الإستفادة من أرواثها تشمل أكبر مساحة ممكنة[4]، وبعد ذلك تأتي عملية البذر

---

[1] - السبتي، إختصار الأخبار،ص87، إبن الخطيب نفاضة الجراب القاهرة (د.ت)، ص ص 121 -122.

[2] - الونشريسي، المعيار المغرب، ج8، ص ص 79-90-162-169-170-138 .

[3] - نفس المصدر، ج5، ص25؛ - المغرب، كتاب الفلاحة لأبي خير، ص ص 10-11.

بلغ ثمنه في سجلماسة أواخر عهد الموحدين3 آلاف دينار: التادلي، التشوف ، ص 279 .

[4] - التادلي، السابق، ص423؛ - البادسي، المقصد الشريف، ص87.

التي تختلف وقتها حسب نوع الحبوب المراد زراعتها وغالبا ما تتم العملية في بداية الشتاء بالنسبة للقمح والشعير، وفي فصل الربيع بالنسبة للقطاني والذّرة وأحيانا القمح والشعير[1]، ويتم زرع البذور وغراسة الأشجار بنفس الطريقة المتبعة اليوم في الفلاحة التقليدية نثر الحبوب بكيفية عشوائية في الأراضي المشتة قبل حرثها ثم تتبعها عملية تمشيط أو حراثة خفيفة لتغطية البذور، أما في الغراسة فإن لكل نوع من المعروسات موعدا وطريقة لزراعته[2].

يقوم صاحب الأرض وأفراد عائلته بعملية الحرث والبذر ثم عمليات الغراسة في الإستغلاليات المباشرة، وعن طريق العمل المأجور أو عن طريق الشراكة (مزارعة أو مغارسة) في أراضي الإستغلال غير المباشر. و قد توسع الإستغلال غير المباشر عن طريق المشاركة إبتداء من العهد الموحدي لينتشر أكثر ويتعقد في العهد المريني وما بعده، فجاءت نوازل الفترة حافلة بالكثير من المنازعات والفتاوى المتعلقة بالمزارعة والمغارسة والمساقات[3].

ويتضمن هذا الإنتشار الكبير للإستغلال غير المباشر للأراضي الزراعية مع إنتشار الإقطاع والمالكين الغائبين وأراضي الأحباس، ويتفق أيضا مع غلاء تكاليف الإستغلال، من حبوب وبهائم الحرث بالإضافة إلى المحاظر الطبيعية وتعسفات المخزن، فكثر كراء الأراضي واشتراك أكثر من شخص في كراء الأرض والبحث عن شريك لإستغلالها إلى غير ذلك من الأشكال التي تنمّ عن صعوبة الإستثمار في الميدان الزّراعي أمّا في المناطق الجبلية والواحات فالزراعة مسقية والإستغلاليات صغيرة

---

[1] - ابن الحاج، رسالة الأنواء، نشر ريبوداريس 1948، وكتاب الفلاحة لأبي خير، ص ص 69-70-71 .
- ابن بصال، كتاب الفلاحة، بغداد 1955م، ص60 وما بعدها.
[2] - الوسرتي، المعيار، ج5، ص ص39-40 .
[3] - الوسرتي، نفسه، ج8، ص ص 137-138-140-141-142-150-151-155. وما بعدها .

وَعائليـــة، غـــير أن الفتـــرة الوســـيطية الأخـــيرة أتـــت بتغـــييرات في منطقـــة الواحات حيث جعلت الكثير مـــن الأراضـــي الزراعيـــة تتركـــز في أيـــدي كبـــار شـــيوخ قبائـــل صـــنهاجة وعـــرب معقـــل فتحـــول إســـتغلالها إلى الأســـلوب غير المباشـــر عـــن طريـــق العبيـــد، لأن أســـيادهم أوليـــاء الأرض، أمـــاّ الرّحـــل وَأصحاب القوافـــل، فيعتـــبر الإشـــتغال بالزراعـــة عنـــدهم مهنـــة المستـــضعفين[1] ونتيجة لتكاثر أعداد العبيد السود في هذه الفترة انتشرت في السفوح.

ثانيا/ الإنتاج الزراعي:

1 - الحرث والبذر:

إستمر بنفس الطريقة التي كـــان عليهـــا قبـــل العـــصر الوســـيط، فالعمليـــة تـــتم علـــى مراحـــل بواســـطة (الزوجـــة) وهـــي عبـــارة عـــن محـــراث خـــشبي تجرّه بقرتـــان أو ثـــوران وفي غالـــب الأحيـــان زوجـــان مـــن الأبقـــار (4 أبقـــار) لم تعـــرف هـــذه الزوجـــة تغـــييرا هامـــا منـــذ القـــديم بـــل يمكـــن القـــول أن المحراث الخـــشبي بأجزائـــه المعروفـــة حـــتى اليـــوم في الفلاحـــة التقليديـــة المغربيـــة لا زال نفـــسه، وقـــد كـــان مـــزودا بـــسكة مـــن حديـــد وأحيانـــا بـــدونها خاصـــة في منـــاطق التربـــة الرمليـــة والتربـــة الهـــشة، الـــتغير الكـــبير الذي عرفتـــه الزوجـــة، وهـــو تغـــيير ســـلبي – حـــول الحمـــير في جـــر المحـــراث محل الأبقـــار، وربـــط المحـــراث إلى صـــدور بهـــائم الجـــر[2] وقـــد كـــان يـــربط من قبـــل إلى قـــرون الأبقـــار، والمعـــدة للحـــرث والأشـــغال الفلاحيـــة الأخـــرى قد قل عـــددها وغـــلا ثمنـــها[3] في الفتـــرة الوســـيطية الأخـــيرة للأســـباب الـــتي ذكرناهـــا مـــن قبـــل (الإضـــطرابات الـــسياسية والإجتماعيـــة ولجـــوء النـــاس إلى المنـــاطق الـــوعرة و تربيـــة المواشـــي الملائمـــة وهـــي أساســـا المـــاعز)، وأن

---

[1] - إبن البناء، رسالة الأنواء.ص119؛ - إبن بصال، كتاب الفلاحة، ص60.

[2] - أنظر مقال في الموضوع AM ، المجلد 17، سنة 1911 بعنوان:

G.Salmon, « quelques tribus de montagne de la région du Habt » PP311-330. -

[3] - الونشريسي، المعيار، ج5، ص203؛ ج4، ص13؛ ج7، ص408.

هذه الأبقار لم تكن في متناول الجميع لذلك كثرت المنازعات حول الأبقار وإعارتها، وعدم صلاحيتها وكثرت النزاعات حول هذه المسألة[1] لدرجة أن الأبقار المعارة على الأعمال الزراعية أصبحت تُكرى وكانت نظارة الأحباس من أهم المُكْترين لها، وقبل أن يصبح الحرث بالدّواب فقد مرّ بفترة انتقالية كانت الزوجة فيها تضم خليطا من الثيران والأبقار والحمير والبغال والخيول ولعل عهد الوزان هو الذي عرف التحول من الحرث بالأبقار إلى الحرث بالحمير في إقليم حاحا[2] فاسترعى ذلك إنتباهه فسجله .

لقد أثر هذا التغيير في الزوجة على المردودية، فالأبقار أصلح لعسة الحرث من غيرها فهي تجر المحراث بقوة وعمق وبطء ولها فوائد عديدة أكثر من غيرها إلى جانب القيام بالحرث، وأن التحكم فيها أثناء الحرث أسهل[3] ولعل إنتشار العمل بالبقر في الفلاحة في حوض البحر الأبيض المتوسط له ما يبرّرُه من مناخ وطبيعة الأرض، وأيضاً لغلاء الخيول والحاجة إليها في التنقل والحروب وأساسا لمزايا الأبقار المتعددة المنافع كما ذكرنا[4].

أما عن سكة الحديد التي إنتشر إستعمالها في المحارث الخشبية منذ عهد الرومان وتوسع إستعمالها أكثر في العهد الموحدي بسبب إزدهار صناعة التعدين من جهة والحاجة الماسّة إلى الحديد في مختلف الأعراض وإزدهار الزراعة من جهة أخرى.

هنالك من جعل العبيد وسيلة من وسائل العمل الفلاحي، وبالغ بعضهم عندما أشار إلى إستخدامهم في المحراث مثل البهائم وذلك تأويلا لبعض النوازل الواردة عن العبيد والدواب للحرث، فقد ورد

---

1 - الونشريسي، السابق نفس، الأحراء والصفحات.

2 - الحسن الوزان، وصف أفريقيا، ج1، ص77.

3 - Roger Grand : l'agriculture à traners les âges t8 Paris 1950, P272

4 - ibid, pp 280-284

عن الونشريسي " إيجاز الحيوان أو العبد بطعام غير موصوف"[1].

(وفي العهد الموحدي كان العمل المأجور شائعا وظهرت يد عاملة زراعية متخصصة تتنقل حسب العرض والطلب ويتم إقتناؤها من أسواق المدن الكبرى).

وأُستعملت الأبقار في الحرث والدرس وفي النقل وجدير بالإشارة إلى أن تربية الأبقار قد إزدهرت خلال العهد الموحدي[2].

وتتم عملية الحرث على مرحلتين في غالبية المناطق إذ يتم الحرث بعد نزول الأمطار الخريفية الأولى للقضاء على النباتات الضارة ويسمى بالقليب، حيث يكون مرة واحدة أو عدة مرات، وفي المرحلة الثانية يتم الحرث في أوائل فصل الشتاء بعد زرع الحبوب فيعرف بالحرث الكبير، أو في بداية الربيع، حيث تحرث الأرض بعد الزرع حرثا خفيفا لتغطية البذور، أما البذر فكان يتم عن طريق النشر بالنسبة للحبوب (القمح والشعير) أما القطّاني (الفول والعدس والحمص والذرة) فيتم بذرها بطريقة منتظمة حبة حبة.

وتتمُّ عملية الحرث في دورة ثنائية في الزراعة الخفيفة إذ تقسم المساحة إلى قسمين يترك القسم الأول بدون حراثة أو قليب ويزرع قسم ثاني و يتم التناوب بينهما في الموسم الموالي أما في الزراعة المسقية فالعملية تتم في دورة ثلاثية تتبادل فيها الحبوب قمح أو شعير والفول والذرة وغيرها حسب المناطق، وقبل البذر يقوم الفلاح بتنقية الحقل المحروث وتكسير الطوب بواسطة مشط تجره البهائم أو يجره الإنسان مصنوع من خشب وغالبا ما تتخذ لهذا الغرض شطبات من نبات شوكي كالسدرة مثلا وتوضع فوقها صخرة لتقوم بالعمل المراد منها، وفي

---

[1] - المعيار ،ج8، ص 221.

[2] - الونشريسي ، المعيار، ج5، ص158.

- الرقيق القيرواني، تاريخ أفريقيا والمغرب، ص82.

الإستغلاليات الصغيرة يقوم أفراد عائلة الفلاح زوجته أو أبناؤه بتكسير الطوب وراءه وهو يحرث، أما الإستغلاليات المراد زراعتها خضرا أو المراد غراستها بالأشجار المثمرة فتتم تسوية الأرض بالحراثة والمشط وقياس ميلها بالمرجيقل[1] وتقسيمها إلى أحواض متقاطعة بشكل هندسي.

2 - السّقي:

إنّ مُشكلة بلاد المغرب الحقيقة في مجال السّقي تكمن في كيفية الإستفادة من المياه واستغلالها على الوجه الأنفع[2] لذلك لاحظنا وجود المنقبين على المياه الجوفية في المغرب منذ وقت مبكر، وقد كان كل مبدّع في هذا الميدان يحظى بمكانة اجتماعية وتكريم خاص في المجتمع وترك البكري يقدم لنا وصفا لأحد المنقبين عن المياه ناله كرمُ سكان مرسى بادس حيث يقول: «... وأخبرني غير واحد أنه رأى بمرسى بادس رجلا قصير القامة مُصْفَرَ اللّون يُكرِّمه أهل ذلك الموضع ويقدمونه ويذكرون أنّه يخرج في المواضع التي لم يُعهد فيها ماء، عيونًا وآباراً وانه يخبر بقُرب الماء وبُعده وانه إنما يستدَلّ على ذلك باستنشاق هواء ذلك الموضع لا غير...[3]» إن بداية التوسع الحقيقي للزراعة كان في العهد المرابطي والموحدي، فقد أضيفت مناطق جديدة، واستحدثت مدن وحصون نمت حولها المشاريع الزراعية، كمدن وحصون المغرب وحوض ملوية الأعلى، وحصون وجدة ووهران، وتنس وعلى طول وادي سوس وعلى طول روافد نهر سبو، وقد ساعد الإستقرار السياسي واستتباب الأمن على هذا التوسع إذِ اطمأن سكان

---

[1] - أنظر عنه: (Dozy) : Supplément aux dictionnaires arabes 2 T Paris leide1927 P120

[2] - صالح بعيزيق، بجاية في العهد الحفصي، ص ص 124 – 125.

[3] - المغرب، ص 148.

البوادي والحواضر، فانصرفوا إلى العمل والإنتاج مستغلين إمكانية جهاتهم الطبيعية ومنها استغلال الموارد المائية[1].

لقد استفادت الزراعة من سياسة الدولة الموحدية، فبالإضافة إلى الإستقرار السياسي والأمن خاصة الجهة الغربية، كان هناك إصلاح ضريبي وعقاري، وأساسا فك الحصار المضروب على سكان الجبال وقد بلغت فترة الاستقرار السياسي والاجتماعي أقصى امتداد لها خلال فترة الدراسة فكان هذا العهد أكثر العهود السّابقة واللاّحقة تعبئة و استغلالا للمياه وتوسع المساحات الزراعية المسقية، فالصامدة الجبليون تكونت لديهم عبر السنين خبرة في استغلال مياه الأودية الجبلية بإقامة الحواجز والسدود الصغيرة (أكوك) ومدّ القنوات والسّواقي وتسوية الأرض وبناء المدرجات[2] كما تكونت لديهم عبر التاريخ أعراف وتقاليد في توزيع المياه وتنظيم الإستفادة منها وصيانة منشآتها أضيفت إلى هذه الخبرة والتقاليد خبرة الأمم الأخرى بعد تكوين الإمبراطورية الموحدية، فأسلوب (الخطارات) الذي بدأ مع المرابطين في مراكش إنتشر أكثر خارجها، كما تعددت مصادر المياه المجلوبة إلى مراكش والحوز فجلبت من مسافات بعيدة وحفرت الآبار وشقت القنوات والسواقي وبنيت الصهاريج الكبيرة[3] لتجميع المياه وتنظيم السقي، بل أن الموحدين استغلوا حتى مياه الأمطار فجمعوها في صهاريج أسفل البايات كالمساجد والأسوار أو في الأماكن التي تقلّ فيها المياه للإنتفاع

---

1 - ياقوت الحموي، معجم البلدان، 22، طبعة مصر ، 1906م، ص 338.

2 - إبن حوقل، صورة الأرض، مصدر سابق، ص ص 78-79-80-81-82-89-90-91.

- الإدريسي، نزهة المشتاق، ج3، ص ص 233-234.

3 - الإدريسي، السابق ، نفس الصفحة.

- مجهول، الإستبصار، مصدر سابق، ص ص 209-210 .

- معجم البلدان، طبعة مصر 1906م، لياقوت الحموي، ج2، ص 338.

- أبو الفداء، تقويم البلدان، نشر ريناودي سلان ليدن، ص 134.

- مجهول، الحلل الموشية، مصدر سابق، ص 145 .

بها في مختلف الأغراض، وفي عهدهم انتشر بناء السدود[1] الصغيرة التي يقيمها الفلاحون بأنفسهم على الأنهار الصغيرة و الجداول، وطوّر المخزن الموحدي هذا الأسلوب فأقام سدودا كبرى على الأنهار الكبيرة فقد استعمل الخليفة عبد المؤمن خبرة الموحدين في أغراض عسكرية إذْ بَنَى سَدّاً كبيرًا على وادي فاس ثم هدّمه ليحطم بمياهه أسوار المدينة التي استعصى عليه فتحها[2].

ومنذئذ إنتشر استعمال السدود في تلك الناحية وغيرها ونفس الخبرة استعملها حفيدهُ يعقوب المنصور لاستصلاح و سقي مساحات شاسعة في منطقة شبه جافة تشمل الحوز الجنوبي المعروف اليوم جغرافياً باسم (البحيرة) فقد أقام سدّا على وادي تساوت والواد الأخضر بهندسة و تقنية متطورة جدّا ومنه اتخذت القنوات الرئيسية الضخمة فحملت المياه إلى مسافات بعيدة.

وقد وردت إشارات عن صاحب الإستبصار، وَهو أحد موظفي المخزن الموحدي تفيد أن هناك مشاريع للرّي كانت مخططة عند الخلفاء الموحدين، أوعلى الأقل كانت لهم نية استغلال الإمكانيات المائية بشكل أوسع وفي هذا يقول صاحب الإستبصار:" وموقع وادي فاس بوادي سبو كان على ثلاثة أميال من المدينة، وهذا الوادي نهر عظيم من أعظم أنهار بلاد المغرب ولو كان هذا النهر يخرج في البطاح لكانت البلاد التي يسقيها أشرف البلاد وأخصبها، ومَا أسهل خروجه في بعض المواضع لو تنبه له صاحب الأمر العالي و هذا لابُدَ منه"[3].

---

[1] - مجهول، الحلل الموشية، ص 145.

[2] - مجهول، الحلل الموشية، ص 136.

[3] - مجهول، الإستبصار، ص187.

- إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 448 .

وهكذا فقد عرفت طرق استغلال المياه خلال العهد الموحدي تطورا كبيراً ويستدل على ذلك بالمخلّفات الأثرية التي تحتفظ لنا تمواد السدود ومقاييسها وأنواع السواقي- والخطّارات ومد القنوات تحت الأرض واستعمال أدوات الفخار[1].

وعلى الرغم من أن استعمال الآبار كان قديما في المغرب، فإنّ التطور الحاصل في هذه الفترة قد شمل وسائل جرّ المياه من الآبار إذ أصبحت البهائم تستعمل لجرّ الدلاء في المناطق ذات الآبار العميقة كما استعملت الدواليب والبكرات في المناطق ذات المياه القريبة من السطح، على أن أهم وسيلة لاستخراج المياه الجوفية في هذه الفترة كانت (الخطارات)[2].

لذلك كان الإشتراك في ساقية أمرًا معمولا به، و لا يستطيع شراء ساقية خاصة إلا الأغنياء أو المحزن على أن الإشتراك في السواقي له أحيانا أسباب أخرى منها المِلْكية الجماعية للمياه التي تجري في أرض قبيلة، ويتم الإنتفاع بالمياه وفق أعراف وقواعد قديمة تكيفت مع الشرع الإسلامي، وقبل الخوض في القوانين والأعراف المنظمة للمياه نشير إلى أن الفترة الوسيطة الأخيرة عرفت تراجعا كبيرا في ميدان استغلال المياه و تطوير تقنياته، فالمرينيون الأولون إستفادوا من مجهودات الموحدين في الميدان الزراعي.

ومن القواعد والأعراف الجارية في استعمال المياه تقسيم مياه القبيلة بين عشائرها وعائلاتها وفي بعض المناطق توزع حسب الأراضي المراد سقيها فإذا لم تكن لعائلة أو جماعة القدرة على سقي أراضيها لا تمنح نصيبها من الماء، وفي بعض المناطق وخاصة الواحات والمناطق

[1] - إبن أبي الزرع، روض القرطاس، ص 70.
[2] - مجهول، الإستبصار، 135 .

الجافة توزع المياه حصصا حسب العائلات سواء كانت تستعمله للسقي أم لا، فتتصرف في حصتها بالبيع والشراء والرهن والكراء إلى غير ذلك[1].

واختلف توزيع المياه كذلك بين المياه العامة التي ليست ملكًا لأحد. كمياه الأنهار الكبيرة ومياه السيول، فالاستفادة هنا من هذه المياه تتم حسب السبق إليها (الأعلى فالأعلى) ولا تتم بذلك ملكية الماء وحيازته، إذ لا تكون الحيازة أو الملك بالانتفاع[2].

توزع حصص الماء بالطريقة التي أشرنا اليها - ويتم ضبط الحصص عن طريق شخص مكلف بذلك يتقاضى أجرته من فائض الماء الذي يتصرّف فيه بالبيع والكراء[3]، ويستعمل العدّ بالحصى لمعرفة مقدار حصة كل عائلة، وله دراية بالموضوع ويعرف ترقب (النوبات) وعدد الحصص الأصلية والحصص المتولدة عنها بالإرث.

3 - الحصاد:

تتم العملية في الحقول الزراعية الصغيرة العائلية في الواحات والمناطق الجبلية عن طريق الإقتلاع، و في الإستغلاليات الكبيرة تتم عملية الحصاد إمّا عن طريق إستئجار الحصادة مقابل أجرة عينية أو نقدية أو عن طريق التضامن بين القبائل (التويزة)، وتتمّ العملية عن طريق العمل المأجور[4] فالحصادة يخرجون جماعات مصطفّة ويقومون بقطع السنابل بالمناجل وفق رغبة صاحب الحقل إما يقطعون السنابل فقط أو يقتلعونها من جذورها إلى غير ذلك، ويبدأ العمل من طلوع الشمس إلى ما بعد الزوال ويتفق عادة مع

---

1 - الونشريسي، المعيار، ج 8، ص ص 385- 393، ص17.

2 - مجهول، الإستبصار، ص137.

3 - الونشريسي، المعيار، ج 8، ص ص 385- 393، ص17.

4 - التادلي، التشوف، ص ص 11-113 .

الحصادين[1] على التموين و طريقة أداء الأجور والملاحظ أن عنصر العبيد أو العمال الزراعيين السّود قد تطورت خبرتهم بالعمل الزراعي منذ أن أدخلهم المرابطون إلى المغرب كعبيد الخدمة أو رعاة[2].

وكذلك الحال في الأراضي الجماعية حيث تتم عملية الحصاد عن طريق (التويزة) أيضا فيتطوع شباب قرية أو قبيلة لمساعدة قبيلة أخرى في عملية الحصاد والجمع والنقل، ويتم تبادل هذا العمل بين المشاركين (في التويزة)، أما العمل المأجور فيتفق مسبقا على تحديد نوع العمل ووقته وأجرته وطريقة تسديد الأجور إما عينا أو مقاطعة وغالبية العمل كانت بالمقاطعة على فدان معين (حصادا وجمعا ونقلا) وتؤدّى الأجور إما عينا، أي بجزء محدد من المحصول أو مقابل التبن والإلتقاط وغير ذلك من الأشكال التي اختلفت حسب الظّروف والفترات التاريخية، وفي البساتين ومزارع المنتجات الصناعية كقصب السّكر والقطن والكتان وغيرها فإن الأجور عادة لا تكون عينية وفي الاستغلاليات الصغيرة تتم جل الأعمال عائليا[3]، بعد عمليات الحصاد وجني الثمار، تأتي عملية الإلتقاط، التي كانت في مرحلة الإزدهار الفلاحي مباحة للفقراء والمساكين وفي نهاية العصر الوسيط أصبحت اللقطة تباع أو تعطى مقابل خدمة معينة[4]، أو تحبس.

4 - الدرس:

كانت عملية الدّرس تنجز بنفس الطريقة التي تُستعمل اليوم في الفلاحة التقليدية، فبعد تجميع أغمار الزرع وأكوام السنابل في مكان مخصص لها يختلف تبعا للمناطق والقبائل، ففي المناطق الجبلية

---

[1] - الونشريسي، المعيار، ج8، ص ص 137-138-140-141-142-150-151-155-156-158-171-174-175. وما بعدها.

[2] - إبن القطان، نظم الجمان، ص ص 211-242؛ - التادلي، السابق، ص ص 111-113-119-245-248.

[3] - البادسي، المقصد الشريف، ص141.

[4] - الونشريسي، المعيار، ج8، ص ص 265-266.

والواحات تُكوّمُ السنابل بالقرب من الأندر (نادر) وهو مكان مبلط بالحصى ومبنية جوانبه بالحجارة و يثبت في وسطه عمود تربط إليه البهائم عند الدرس فتقوم بحركة دائرية، وفي الإستغلاليات الكبيرة كانت الأندر متنقلة، إذ يتم تبليط مساحة صغيرة في عين المكان الذي تُكوّمُ فيه السنابل أو بالقرب من المسكن، كانت حيوانات الدّرس خلال معظم القرون الوسطى: الأبقار[1] التي تسحق السنابل تحت أظلافها وكانت عملية الدّرس تبدأ وقت الظهيرة أثناء ارتفاع درجة الحرارة وبعد أن تكون السنابل قد جفت بما فيه الكفاية.

وبعد الدّرس أي فصل الحب عن التبن، تأتي مرحلة التذْرِيَة التي تتوقف على هبوب الرّياح لذلك يشترط في الأنْدر أن تكون مكْشوفة مُعَرّضَة للرياح الأربع[2].

و لم تكن المِدّارة تتخذ من الحديد بل من أخشاب معروفة بصلابتها أو سهلة التشكيل كالبقس والزّبوج والأرز والعرعار[3] وإلى يومنا هذا رغم انتشار أدوات الحديد فلا زال بعض الفلاحين التقليديين في المناطق الجبلية يتخذون أغلبية الأدوات الفلاحية من الخشب.

بعد تصفية الزّرع بواسطة مكانس أو شطبات من أغصان الشجيرات يوضع في حفرة مستطيلة معدة لهذا الغرض جانب الأندر ومنها يتم كيله والإحتفاظ بالديون والأعشار المستحقة، ثم يرفع الباقي إلى المخازن، عملية الدرس[4]، تنجز مقابل أجرة معلومة متفق عليها، عينية أو نقدية في الاستغلاليات الكبرى المباشرة أو مقابل جزء من المحصول أو مقابل التبن[5]، في الاستغلاليات العائلية

---

1 - الونشريسي، المعيار، ج5،ص 158.

2 - الونشريسي، نفسه، ج5، ص188.

3 - تستعمل المدرات و العوارات من الخشب في بعض المناطق التي تكثر فيها الأخشاب و يدعي الفلاحون أنّ في استعمالها بركة

4 - الونشريسي، السابق، ج8 ، ص ص 233-234.

5 - نفس المصدر، ج5، ص24 ؛ ج6، ص ص 428-429؛ ج8، ص ص265-266 .

الصّغيرة خاصة في الواحات والجبال، وبالنسبة لبعض المزروعات كالكتان أو الذرة يكون الدّرس يدويا بنفض أغمار الزرع وحزم السنابل، فمثلا الكتان يراد من العملية الاحتفاظ بالألياف وسيقان النبات لتستعمل في النسيج[1]، أما في الزرع (قمح وشعير) فقد يستعمل النفض بالهروات التي يتم بها سحق السّنابل وغالبا ما تركب فيها فصوص من الصّلّد، وبالنسبة للمنتجات الأخرى كقصب السكر فإن حصده يكون بواسطة المناجل أو المزبرة ويلتقط القطن يدويا أما الفواكه فتقطف باليد أو تلتقط بعد إسقاطها كالزيتون، معظم هذه العمليات كانت تتم في أوقات معلومة وبالعمل المأجور في الفترة الوسيطية.

وأدوات الحصاد والدرس هي نفسها التي نجدها اليوم في الفلاحة التقليدية فالمنجل[2] لاَ زال على حاله، والأدوات المرافقة له في الحصاد (التباندة) وهي وزرة من الجلد توضع لوقاية الحصاد من الأشواك، و أغطية من الخشب أو من قصب توضع على بعض الأصابع في اليد اليسرى وقاية لها من ضربات المنجل الطائشة وتعرف اليوم "بالصّباعيّات" أما أدوات الدرس فهي المدراة والجاروف أو المجرفة وقد كانت من خشب صلب نسبيا كالبقس أو الزبوج أو من أخشاب سريعة التشكيل كالأرز والعرعار، وقد تستعمل المدرات لنقل أغمار الزرع (حزم السنابل) إلى الأندر بينما تستعمل المجرفة أو مدرات معدلة ذات أصابع قصيرة وكف عريض للتذرية وتستعمل شطابات من أعشاب خاصة لتصفية الزرع.

وفي ميدان البستنة تستعمل نفس الأدوات التي ذكرناها في عملية الحرث، وفي عملية جني المحصول يستعمل المنجل والمقص أو المزبرة وتعرف

---

[1] - أبو خير، كتاب الفلاحة، ص141.

[2] - التادلي، التشوف، ص ص 85 - 103.

- البادسي، المقصد الشريف، ص 141.

كذلك بالحديدة لقطف بعض الفواكه[1] وتقليم الأشجار وفي بعض الغراسات تستعمل لقطع القضبان ولإعدادها للغرس أو في التركيب.

5 - التّخزين:

أما وسائل الخزن والنقّل فهي التّلّيس والجرار والسلاّل والقفّاف والشباك الكبيرة لنقل حزم السنابل والتبن[2]، أما وسائل الخزن فقد إختلفت حسب المناطق والفترات التاريخية والمستوى الإقتصادي، فعند الفقراء والمتصوفة كانت الجرار أهم أدوات خزن الحبوب والدقيق[3] ، وفي المناطق الجبلية وعند القبائل أستعملت بنايات خاصة للخزن الجماعي للحبوب والعلال وسائر المنتوجات الفلاحية عرفت باسم إغرم وأثادير واستعمل المخزنُ والأغنياء الأمراء المطاهير[4] خاصة في العهد الموحدي، أثناء الإضطرابات السياسية و الإجتماعية . أما الفواكه فقد عرفت فائضا في الإنتاج طيلة العصر الوسيط لذلك كانت بعض أنواعها تجفف كالعنب والقن والخوخ[5] وما يعصر منها، أو يصير (يرقد) يخزن في جرار خاصة عرفت صناعتها تطورا كبيرا ففي بعض المدن أصبحت من الخزف المدون أو من الخشب. وتتبع وسائل النقل وخزن المنتجات الفلاحية يعكس مثل باقي الأدوات التطورات الحاصلة في هذا الميدان، وتعكس أيضا الأوضاع السياسية والإجتماعية، فإستعمال الأواني الفخارية لخزن الحبوب تقنية متبقية عن القرون الأولى حيث كان الإنتاج ضئيلا لا يكاد يفي حاجيات الأسرة، ثم تحول إلى مايُشبه السلال الكبيرة المبطنة بالطين أو المبنية بالحجارة على شكل جرة كبيرة تشبه أفران شوي

---

[1] - التادلي، السابق ، ص 414.

[2] - التادلي، التشوف، ص ص 372 - 352 - 229 - 198 - 127 - 415.

[3] - أبو العباس الماحري، المنهاج الواضح، ص294.

[4] - السبتي، إختصار الأخبار، ص ص105 - 71 ؛ البكري، المغرب، ص ص 117 -149.

- التادلي، السابق، ص ص 62-166-196؛ - الوزان، وصف أفريقيا، ج2، ص288.

[5] - الوزان، السابق، ج1، ص ص 184-191.

الأغنام المستعملة اليوم في البوادي، ثم إستعملت الكهوف لخزن الحبوب والتبن في أوقات الإضطرابات السياسية، وفي المناطق الجبلية الباردة استعدادا لفصل الشتاء، ثم تطورت الأساليب إلى المخازن الجماعية[1].

وإستعملت المطامير و الأهراء بكثرة في العهد الموحدي وما بعده. ويبدو أن الأهراء التي عرفتها بعض المدن الكبرى كمراكش وسبتة وتلمسان وبجاية للمخازن الجماعية التي كانت معروفة ومستعملة لدى المصامدة[2]، كما إستعملت المطامير بشكل واسع في بعض المدن والسهول.

لقد إزدادت هذه الوسيلة إنتشار في أواخر العصر الوسيط، إذ أصبحت مسألة إخفاء الحبوب مشكلة الكثير من القبائل وحتى سكان المدن. في مجتمع تسوده الإضطرابات السياسية والإجتماعية والمناخية وقد إختلفت أحجام المطامير وسعتها باختلاف المناطق والفترات وقد إتبع السلاطين أنفسهم هذا الأسلوب فعرفت مجموعة المطامير بالمرس ووجدت مطامير يكريها أصحابها لمن يرغب في خزن الحبوب كما خصّصت بعض القبائل حرّاسا مسلحين على أمْراسها، وكان حفر المطامير يخضع لمواصفات خاصة كأن تكون المطمورة في مكان لا يثير الإنتباه وتسهُل عملية الدّفاع عنه وحراسته وأن يكون المكان من تربة معينة وصخور تمتص الرّطوبة كالطفل والصخور الجيرية.

6 - الفلاحون:

ارتبط امتلاك الأرض خلال العهد الموحدي بالتشريعات الإسلامية التي استمر العمل بها بفعل عوامل تاريخية وهي أن الفقهاء قد اهتمّوا منذ وقت بعيد بوضعية أرض المغرب و اعتنوا

---

[1] - أنظر عن المخازن الجماعية: - إبن بصّال، كتاب الفلاحة، ص ص 61 - 66.

[2] - البيدق، أخبار المهدي، ص 32-33-45-91؛ - إبن القطان، نظم الجمان، تطوان بدون تاريخ، ص ص 242-211.
- إبن عذاري، البيان، القسم الموحدي، ص ص 454-455.

تمعرفة ما إذا كانت صلحية أم عنوية والصفة الغالبة أن المُلاك لا يفلحون ما يملكون من أراضي عَدَى أصحاب الملكيات الصغيرة الخاصة، والسؤال عن حكم الأرض بالمغرب يرتبط بالتطورات السياسية لهذه المنطقة ويعبر عن ورود فعل المجتمع المغلوب عن أمره ومقاومته لما فرض عليه بالقوة. وخلص فقهاء الفترة إلى أن حكم الأرض "ليست بالعنوية ولا بالصلحية و إنما أسلم عليها أهلها إذا خفي أمر الأرض و لم يعلم هل هي أرض صلح أم عنوة أو أسلم عليها أهلها فهي لمن وجدت بيده"[1] وإن كان لا يدري بأي وجه صارت له[2] أو ينظر إلى ما توالت عليه القرون من بيع الأرض وشرائها وتحديدها فتحمل تلك الأرض عليه[3].

والراجح أن صغار المُلاك كانوا يتعاونون على أعمال الزراعة حرثا وبذراً وتنظيفاً وحصاداً [4] في حين اكتفى كبار الوكلاء المُلاك بوكلاء اتخذوهم على أراضيهم فيقوم هؤلاء بالإشراف على كراء أراضي موكليهم أواستغلالها في الزراعة والمغارسة [5] وأبانت كتب الجغرافيا، و كتب الرحلات و النوازل أن عمال الأرض كانوا ثلاثة أصناف- فلاحون يستأجرون أراضي غيرهم مع تحديد فترة الإستغلال[6].

---

[1] - المغيلي أحمد بن جي، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، مخطوط، الرباط، د 883 .

[2] - الونشريسي، السابق، ج6، ص 134.

[3] - العقباني محمد بن احمد، تحفة الناظر وغنية الذاكر تح علي الشنوفي، ص 188.

- Bulletin d'études orientales, XI X,1965-1966

[4] - التادلي، التشوف، ص ص 80-91-113.

[5] - الونشريسي، المعيار، ج3، ص191؛ ج8، ص106.

[6] - السابق، ج6، ص 310.

- فلاحون مشتركون: قد يدخل الفلاحون مشاركين لأصحاب الأملاك في الغلة وتختلف حصة هؤلاء المشاركين حسب نوعية الأرض وقربها من الماء، ومساهمة المالك[1].

وفي أغلب الأحيان كان نصيب الفلاح هو الخُمس، وقد تعود تسمية «خماساً» لهذا السبب[2].

- وهناك صنف ثالث من الفلاحين يشتغل بمُقَابل أجرة للحرث أو البذر أو التنظيف والتربيل والقطف والحصاد[3] وتشير المصادر التاريخية إلى أن المشاكل الفلاحية كانت تحدث بين أفراد هذه المجموعة وأصحاب الأراضي، خاصة أثناء الأزمات السياسية والاضطرابات القبلية، حيث يضيف العمّال الأجراء شروطاً أخرى يصفها الونشريسي بالتعجيزية[4] وكانت مساكنهم منتشرة في القرى على مستوى الريف المغربي وفي القصور وعلى مستوى الواحات[5]، حيث يخرج الفلاحون من منازلهم متجهين نحو مزارعهم، وحقولهم خلال مواسم القطف أو الزرع أو الحصاد، مستفدين من أجواء الأمن الذي وفّره الموحدون وبسطوه على معظم القرى والقصور[6].

لقد كان تصنيف العمل الزراعي يقوم على طبيعة الأرض. حيث وردت عدّة تسميات لمجالات بُورِيّة كالأرض البيضاء[7] والحقل والقاعة[8]

---

1 - أنظر: ابن رشد، نوازل ابن رشد(قح) رقم 11؛ - الونشريسي السابق، ج5، ص49 .

2 - نوازل ابن عاصم، 59ظ، 59ق.

- الونشريسي، السابق، ج5، ص 149.

3 - التادلي، التشوف، ص 170 .

4 - المعيار، ج8، ص 127.

- عز الدين أحمد موسى، النشاط الإقتصادي في المغرب الإسلامي، ص 188 .

5 - الإدريسي، نزهة المشتاق،(ط. د)، ص ص 76-77.

6 - مجهول، الإستبصار، ص ص136-153.

- عز الدين موسى، النشاط الإقتصادي في المغرب الإسلامي، ص189.

7 - الونشريسي، المعيار، ج5، ص ص 44- 142.

8 - السابق، ج9، ص589.

والغنّاء والفدّان والدّمنة وأرض البور والقليب والأرض المعمور، ويهمنا هنا أرض البور التي لا تصلح إلاّ بالقليب والتّزبيل[1]، والقلب ومعناه حرث الأرض مرّتين إلى أربع مرّات حسب الأرض ونَوع الزرع ضروري لأن بعض المحاصيل لا يكثر إلاّ في الأرض القليب، كالقمح والشعير والعدس[2] وبعد الحرث تعدل الأرض ليستوي جري الماء عليها، وقد إهتم مُلاّك الأراضي الفلاحية ببناء أرض البساتين وتشييد العرائم حتى تستوي القطع الأرضية المنفصلة عن بعضها وإستُعملت لذلك جذوع الأشجار والأحجار كما أستعملت لبناء أسوار البساتين[3] هذا زيادة على تشييد العرائش الخاصة بالكروم[4]، واهتم الفلاحون بعد ذلك بالتزبيل حيث يجمع من زبل الخيول، والبغال والحمير وحتى الآدمي والغنم والطيور[5]، ويعرف الفلاحون أي نوع من التزبيل يصلح لنوع من التربة دون غيره، ويقوم الفلاحون بقلع الأعشاب الضارة أو حرقها[6]. وتشير كتب الفلاحة إلى أن الموحدين طوّروا أساليب الزراعة، فعرفوا خصائص الثّمار وغرائزها، ففرقوا بين المتنافرة وجمعوا بين المتقاربة والمتناسبة[7].

وإعتبر السكان أيام الحصاد أعياداً، وفيها يُقَيِّم الفلاحون منتوجَهم وربطه بعوامل مناخية وجغرافية وأمنية وعلى ضوء ذلك يلجئون إلى تخزين الطعام لإعتباره من ضروريات الحياة، فالمطمورة عمل فلاحي يدخل

---

1 - السابق، ج6، ص255، نوازل إبن عياض، مخ، ورقة 62 .

2 - أبو خير، كتاب الفلاحة، ص ص 56-57.

3 - إبن الأبار، التكملة، ج1، تح كوديرا مدريد (1988-1989)، ص 193.

4 - زيادة على ما ذكر فقد كان الفلاحون يولدونه من الحشيش و التراب بعد تعفينها مدة من الزمن، ينظر:
- إبراهيم بصال، كتاب الفلاحة، تح. بيكروتا ومحمد عزيمان، تطوان 1955م، ص 49.

5 - السابق، ص ص 51- 102.

6 - الونشريسي، المعيار، ج6، ص132.

7 - إبن بصال، السابق، ص 92.

في صميم نشاط المزارعين[1]، وقد تنحت المطامير في الصخور[2]. أو يشيد مخزن فوق الأرض ويطين عليه فيحفظ لعدة سنين[3]. وتعددت عملية التخزين لتشمل الفواكه. مثل القسطل، والبلوط، والجوز واللّوز والتفاح والرّمان[4]. إن عمل الفلاحين كان متواصلاً يستغرق أيام السّنة كاملة فهو ينقل نشاطه من الحرث، إلى البذر، إلى التنظيف والتزبيل فالحراسة، والحصاد إلى الدرس و هكذا ومن هذا المنطلق فإن عامل الإستقرار، وتوفير الأمن الذين وفّرَهُمَا الموحدون للفلاحين كان وراء إزدهار الزراعة، خاصة في الجهة الغربية من بلاد المغرب لأنها سبقت الجهة الشرقية في الإستقرار والتوجه نحو تعمير الأرض وفلاحتها.

7 - المحصول الزراعي:

الجهة الشرقية:

تحدث الجغرافيون عن طبيعة الجهة الشرقية لبلاد المغرب، ووقفوا على النشاط الفلاحي وتنويع المحاصيل الزراعية، وجاءت شهاداتهم متطابقة حول إزدهار الزراعة[5] وذكروا عدة مدن منها بجاية، تونس، سطيف، وباغاية، طُبنة وبسكرة حيث أشاروا إلى إنتاجها الوفير من الشعير، القمح والحنطة والقطن[6] وإشتهرت مدينة جَلولا بوفرة قصب السكر والقطن[7] وَصَاحَبَتْها في إنتاج الحرير مدينة قابس[8] ونالت سهول بونة وقسنطينة

---

[1] - البيدق، أخبار المهدي، ص 71؛ - الإدريسي، نزهة المشتاق،(ط. د)، ص95؛ - ينظر الجدول الأول، ص ص 623-625.

[2] - المقري، نفح الطيب، ج1، ص 206؛ - إبن بصال السابق، ص 84.

[3] - العمري، مسالك الأبصار، ج4، ص42.

[4] - إبن بصال، كتاب الفلاحة، ص ص 175- 180.

[5] - إبن حوقل، صورة الأرض، ص99.

Marçais, GM Constantine avant la conquête française, Constantine 1879 pp. 202-

- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 134 ؛ - ينظر الجدول الأول، نفس الصفحات.

[6] - القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 264، دائرة المعارف الإسلامية، ط2 ، (الإنجليزية). 661/1.

- يقول عنها العمري: "تلمسان زكية الزرع والفرع"، مسالك الأبصار، ص ص 299-298.

[7] - عز الدين أحمد موسى، النشاط الإقتصادي، في المغرب، ص 193.

[8] - السابق، نفس الصفحة.

شهرة فائقة في إنتاج القمح والشعير والحنطة. وهكذا كانت الأراضي الزراعية بالجهة الشرقية مصدراً خصبا لكثير من المحاصيل الزراعية وشهدت البلاد وفرة في المحاصيل الزراعية[1].

لكن عدم إستقرار المنطقة سياسيا حال دون إستمرار وتحسن النّشاط الفلاحي عموماً فإبتداء من إنهيار دولة بني زيري الصّنهاجيين ومن بعدهم الحمادين، إنفلت النظام وعاد العرف القبلي والإجماع العائلي يقود الحياة الإجتماعية والسياسية، الأمر الذي فتح مجالاً واسعاً أمام الصراعات القبلية بين صنهاجة الشرق، وزناتة، والعرب الهلاليين ثم النورمان الذين إحتلوا المدن الساحلية لإفريقية، وهكذا إشتعلت البلاد وصحب ذلك تدمير وهلاك للمنتوج الفلاحي ونتيجة لما تستلزمه الإستعدادات العسكرية من تجنيد لثروات البلاد، وباشتغال الرجال في الثورات والحروب، إنحصرت المساحات الزراعية في تلك البلاد، رغم سياسة الموحدين الفلاحية فإن ذلك لم يفلح في إعادة الإزدهار لهذه المناطق إلا نسبيا حيث عرفت هضاب التل الشّرقي إنتعاشا جزئيا حيث توسع سكان المنطقة في زراعة القمح والشعير والحنطة وقصب السكر[2]. و يبدو أن منطقة قابس، وبلاد الجريد قد عرفت إستقرارًا بعد غزو الموحدين لها وتحريرها من أيدي بني غانية والأغزاز ولهذا عاد إليها تحسن إنتاج الحرير وتوسع سكان بلاد الجريد في زراعة القطن، كما عرفت منطقة الوسط ببلاد المغرب الأوسط تحسنا ملموساً في إستعادة نشاطها الإقتصادي الفلاحي تمثلت في سهول متيجة التي عرفت إنتعاشا في زراعة القمح والشعير والحنطة[3].

---

[1] - إبن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص125؛ - البكري، المغرب، ص 223.

[2] - عز الدين أحمد موسى، النشاط الإقتصادي في المغرب، ص 194.

[3] - إبن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص 107؛ - مجهول الإستبصار، ص 152.

- ينظر الجدول الخامس، ص ص 637-638.

ويتضح مما سبق ذكره أن سكان الجهة الشرقية من بلاد المغرب كانوا شديدي الحرص على التمسك بأراضيهم، فرغم الحروب الدائرة بين القبائل البربرية، وتحركات قبائل بني هلال العربية التي حاصرتهم وحالت دون تمكنهم من التّحكم في نشاطهم الزراعي الأمر الذي جعل معظم سكان هذه المناطق يتحولون إلى عمل البستنة وغراسة الأشجار مع استغلال المساحات البيْنية في زراعة الخضر.

لقد تحولت المحاصيل الزراعية الرئيسَة في بلاد المغرب الأوسط والأدنى خلال النصف الثاني من القرن السادس الهجري – الثاني عشر الميلادي من إنتاج الحبوب إلى إنتاج الزيتون ومشتقاته فقد ظهرت مدينة قابس وصفاقس بوجه جديد، حيث زاد إنتاج الزيتون والتّمر[1]. والزعفران وزراعة الزهور، وماء الورد وغيرها، ويمكن أن نستنتج من هذا التحول أن اليد العاملة قد قلّ إستيعابها في الحروب وإستهلاكها زيادة على نزوح القبائل والجماعات نحو جهات مختلفة من البلاد بحثا عن الأمن[2].

الجهة الغربية:

لم تكن الجهة الغربية من بلاد المغرب شبيهة بنظيرتها الشرقية من حيث النشاط الفلاحي وازدهار الزراعة بهَا منذ بداية حكم المرابطين حيث عرفت الجهة رخاءاً اقتصاديا وإنتعاشا حياتيا نتيجة إنتشار زراعة القمح والشعير والحنطة في السهول، وسفوح الجبال زيادة على توفر الثّرْوة الحيوانية والسمكية، والأمر الذي جعل بلاد المغرب الأقصى مصدر للمنتوج الفلاحي وتصديره إلى جهات مختلفة داخليا وخارجيا.

---

[1] – إبن سعيد: كتاب الجغرافيا، ص108.

[2] – إبن أبي زرع: روض القرطاس، ص ص 54-56 63.

– وفي هذا السياق أشار الونشريسي إلى أن أصحاب الأرض كانوا يضطرون إلى استئجار عمال زراعيين للحصاد، أو لقطف الزيتون، وعصره بعد حمله إلى المدن. ينظر: المعيار، ج1، ص ص 302-304.

لقد أشارت المراجع إلى وفرة المنتوج الفلاحي في المدن مثل مكناسة[1]، والسوس الأقصى التي زاد إنتاجها من الغلات على حاجة السكان[2] وجبال درن التي أنتجت أرضُه أجود المحاصيل الزراعية[3]، وكانت مراكش قد كثر فيها الزرع والضرع[4] ومن المزروعات التي إزداد إنتاجها في الجهة الغربية خلال العهد الموحدي نجد الحبوب التالية:

- القمح:

الذي تنتشر زراعته بمناطق متفرقة من أرض الجهة، فقد إشتهر أهل طنجة بزراعة القمح، ومدينة البصرة و سبتة حيث كان أهلها يَزرعون القمح[5] وإلى الشرق من فاس كانت قرى ومداشر يزاول أهلها زراعة القمح على جانبي طول الطريق الذي يربط مدينة فاس بمدينة تلمسان[6] ونفس الصورة نجدها إذا ما اتجهنا نحو الجنوب فبلاد السوس تزخر بالمدن التي يقبل أهلها على العمل الفلاحي، كأهل مدينة نفيس، وسجلماسة فهذا صاحب الإستبصار يقول« وقمحهم رقيق الحب يسع مد النبي صلى الله عليه و سلّم من قمحهم 75 ألف حبة»[7] ويصف إبن صاحب الصلاة وفرة القمح خلال عهد الموحدين يقول « وأعدّ- يعني عبد المؤمن بن علي- من القمح والشعير والمواساة للعساكر على وادي سبدو بالمعمورة ما عاينته مكدساً كأمثال الجبال بما لم يُقدم لملك قبله ولا سمعنا به في جيل من الأجيال...»[8].

---

[1] - الإدريسي، وصف المغرب، ص 77؛ - إبن سعيد، نزهة الأنظار، ج 1، ص 17.

[2] - الإدريسي، السابق، ص 81؛ - ينظر الجدول الأول، ص ص 623-625 / الجدول الثالث، ص ص 630-633.

[3] - إبن خلدون، العبر، ج 6، ص 24.

[4] - الحميري، الروض المعطار، ص 540.

[5] - السابق، ص 209.

[6] - إبن سعيد، نزهة الأنظار، ج1، ص ص 17-19-24.

[7] - إبن سعيد، السابق، ج1، ص 12.

[8] - تاريخ المن، ص ص 215-221.

- الشعير:

كثرت زراعة الشعير بالجهة الغربية و خاصة في طنجة و البصرة[1] وبلاد السوس عامة للدرجة أن ابن سعيد أطلق عليها إسم بلاد الحنطة والشعير[2] وكذلك إنتشرت حقول الشعير على جانبي الطّريق الذي يربط مدينة فاس بمدينة تلمسان[3].

- الذرة:

زرعت الذرة بمنطقة سجلماسة[4] و بجانبها أنواع أخرى من الحبوب كَالسّمْسَم و غيره من البقول[5] التي تكثر زراعتها جنوباً نحو أغمات[6] وأهتم سكان المغرب بزراعة القطن وخاصة بالمناطق الوطيئة المنخفضة من بلاد المغرب[7]، ويعود انتشاره الواسع إلى العرب الذين عملوا على زراعته، وحسب قول عثمان الكعاك أن زراعة القطن إنتقلت من العرب إلى المغرب ومنه إلى إسبانية[8].

- قصب السكر:

لقد كثرت زراعته بمدن متفرقة من المغرب، وكان إنتشاره أوسع بمدينة سبتة، ولكثرته غطى حاجات المدن والقرى المجاورة لها[9] ويصف صاحب كتاب الإستبصار إحدى إنتاج قصب السكر بإحدى مدن المغرب بقوله: « وهي أي- تارودانت- أكثر بلاد الله قصب السكر وفيها

1 - إبن حوقل، صورة الأرض، ص ص 80-81.
2 - إبن سعيد، السابق، ج1، ص ص 10-12.
3 - السابق، ج1، ص 13.
4 - المقدسي، أحسن التقاسيم، ج2، ط1، ص 232.
5 - السابق، نفس الجزء و الطبعة، ص 236.
6 - المقديسي، أحسن التقاسيم، ص83 .
7 - إبن سعيد، نزهة الأنظار، ج1، ص 13.
8 - الحضارة العربية في حوض البحر المتوسط، ص ص 63-72-81.
9 - إبن سعيد السابق، ج1، ص 15.

معاصر السكر كثيرة»[1]. ويضيف قائلا عن مدينة إيجلي: "... وبها معاصر كثيرة وأكثر شراب أهلها أنما هو ماء قصب السكر"[2].

– الزيتون:

تنتج الجهة الغربية من بلاد المغرب كميات وفيرة، والأكثر من ذلك فإن الموحدين إهتموا بغراسته في مدن كثيرة، وقد سميت مدينة مكناسة بمكناسة الزيتون[3] وكثر محصول الزيتون بالمدن نتيجة لسياسة الدولة في الميدان.

– الكتان:

لم تنل زراعة الكتان الإهتمام الكافي من قبل سكان الجهة الغربية لبلاد المغرب، وقد إنعكس ذلك على كمية المحصول الذي بقي دون تلبية حاجات السكان إليه[4] إذ لم تتحدث المصادر التاريخية التي أمكننا الإطلاع عليها إلاّ عن قرية أم الربيع[5] وقد أشار صاحب كتاب الإستبصار إلى أن مدينة كُرْت كانت مشهورة بالكتان لدرجة أنها عرفت به فيقال عنها بصرة الكتان لأنّ أهلها يتاجرون بالكتان[6] والأمثلة الدالة على ازدهار الزراعة في الجهة الغربية كثيرة والمناطق الخصبة التي جاءت بها منتشرة في الشمال وعلى سواحل المحيط وحتى في السهول الداخلية التي أنتجت كميات وفيرة من الحبوب الجافة، والقطن، وقصب السكر والزيتون والكتان والذرة وغير ذلك.

---

1 – مجهول، الإستبصار، ص ص 213-214.

2 – السابق، نفس الصفحة.

3 – إبن غازي، الروض الهتون، ص 13؛ – ينظر الجدول الخامس، ص ص 635-637.

4 – إبن سعيد، كتاب بسط الأرض، تح. د.خوان قرنيط، ص 315.

– إبن سعيد، كتاب الجغرافية، تح. إسماعيل العربي، الجزائر 1970م، ص ص117-118.

5 – مجهول، السابق، ص 202.

6 – إبن سعيد، السابق، ج1، ص 11.

- الفواكه:

حافظ الموحدون على مستوى الإنتاج المرابطي، وزادوا في كمية إنتاج بعض المحاصيل وذلك بتشجيعهم على زراعته في مناطق جديدة فقد إهتم خلفاء الموحدين بغرس البساتين وزراعة الفواكه، فقد شجع الخليفة عبد المؤمن بن علي هذا التوجه بغرسه بستاناً كبيراً خارج مدينة مراكش يقول عنه البيدق: " وفي عام خمسين زار- عبد المؤمن بن علي – قبر الإمام المهدي و هبط إلى سلا و بقي فيها عامين إثنين ثم رجع إلى مراكش وغرس البحيرة ثم رجع إلى سلا"[1]، وذهب إبن الخطيب إلى القول بأن مساحة هذا البستان و مقدار الفواكه التي ينتجها بقوله: " إن الخليفة عبد المؤمن غرس خارج مراكش بستانا طولهُ ثلاثة أميال وعرضه قريب منه فيه كل فاكهة تشتهيها الأنفس وجلب الماء إليها من أغمات واستنبط عيونا كثيرة"[2].

واستمر اهتمام الخلفاء الموحدين بغراسة الفواكه فقد غرس المنصور الموحدي بستانا كبيراً طوله اثنتا عشرة ميلا، وعلى جانبيه أربعمائة شجرة بين كل شجرتين ليمونة أو ريحانة[3] ولم يكن اهتمام ولاة الأمر بالغراسة قاصراً على المدن الكبرى، بل تعداه إلى مدن أخرى كمدينة فاس[4]، ومكناسة – فقد جاء على لسان صاحب الإستبصار: « وأحدث الأمر العالي – أيد الله دوامه- بحائر عظيمة في غاية من الإتساع وجلب لها الماء، وغرسها زيتونا وكروماً»[5]، وامتلأت

---

[1] - أخبار المهدي، ص 141.

[2] - الإحاطة، ص ص 110- 112؛ - و قد أحدث الخليفة بن عبد المؤمن بحائر من الغرس و جلب إليها الماء وبنى صهاريج أعظم مما بناه أبوه. ينظر:- مجهول، الإستبصار، ص 210.

[3] - محمد المنوني، العلوم و الآداب، ص 241؛ - ينظر الجدول الثالث، ص ص 630-632.

[4] - مجهول، السابق، ص 181.

[5] - إبن سعيد، نزهة الأنظار، ج1، ص 16.

بساتين فاس ومكناسة بأنواع كثيرة من الفواكه الصيفية والخريفية[1]. وقد توفر الإنتاج بكميات كبيرة من الفواكه المختلفة من الثمر والعنب والتين والرمان، والتفاح والبرقوق والخوخ وغالب ذلك على عدة أنواع والتوت على قلة والجوز والبطيخ»[2]. وفي شمال الجهة الغربية نجد نفس الإهتمام بالغراسة والفواكه، حيث كثرت الثمار. فَجبل غمارة كان كثير الأعناب والفواكه[3]، وتليه مدينة سبتة وضواحيها، فقد كانت تصدر الفواكه إلى ما حولها لكثرة ما يغرس بها من أصناف الفواكه المختلفة[4]، وكذلك كانت منطقة نكّور وهي تجاور غمارة حيث اشتهرت بكثرة الكمثري والرمان[5].

في جنوب الجهة الغربية نجد العاصمة مراكش، ومدينة أغمات وما بها من كثرة البساتين والفواكه ومنها الجوز واللوز[6]، وجبل درن الذي تنوعت فيه الفاكهة، وقد أشار إلى ذلك الإدريسي بقوله: « ... وفي هذا الجبل – أي درن – من الفواكه، التين الكثير الكبير الطيب المتناهي في الطيب البالغ الحلاوة، وفيه العنب المستطيل العسلي الذي لا يوجد في أكثره نوى ومنه يتحذ الزبيب الذي عليه يتنقل ملوك المغرب لرقة قشرته وعذوبة طعمه واعتدال غرائه[7].

---

1 – إبن عاري، الروض الهتون، ص ص (3، 13، 15).

2 – القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص ص 175- 176.

3 – مجهول، الإستبصار، ص 190.

4 – الإدريسي، وصف المغرب والأندلس، ص166؛- إبن سعيد، نزهة الأنظار، ج 1، ص 27.

5 – مجهول، الإستبصار، ص 137.

6 – إبن حوقل، صورة الأرض، ص 90.

7 – وصف المغرب، ص ص 65-66.

ثالثا/ الرّعي وأنواع المواشي:

1- الرعي:

لقد عرف القرن الخامس الهجري – الحادي عشر الميلادي أكبر اكتساح سكاني انطلق من الصحراء إلى شمال بلاد المغرب بزعامة قبائل لمتونة ومسوفة الصنهاجيتين لذلك انتعشت حياة الرّعي بسبب انتشار تربية الإبل وانتقالها إلى جبال الشمال كجبال دَرن، وفزاز، وَبني راشد[1]. وأسفر ذلك عن مُزَاحمة سكانية بين القبائل الصنهاجية وباقي القبائل التي تقطن تلك المناطق، وأكثر مِنْ ذلك فإن بعض القبائل الصّنهاجية تقدمت جماعات جماعات نحو سهول دكالة، ووهران وحاصروا قبائل غمارة في جبالها، ومَنَعُوا قبائل مصمودة من النزول إلى السهول المجاورة فحُرموا من مَراعيها الشتوية ومزارعهم التكميلية[2].

لقد تنوعت بذلك مواشي القبائل الصّنهاجية، فَلم تعد مقتصرة على الإبل وبدأ نمط عيشهم يَعرف تحولاً كَبيرا، حيث بدأت بعض قبائلهم وأشياخهم يمارسون الزراعة، وسكنوا المدن[3] والحصون التي أقامتها الدولة على طول مناطق التقاء الجبال بالسهول.

لَمَّا جاء الموحدون وضعوا حَدًّا للزحف الصنهاجي، فقد تَمّ غلق الممرات الجبلية في وُجوههم وبقيت القبائل الصنهاجية المحترفة للرعي والتنقل في الحدود التي وُجدت فيها وراء الجبال، بل أن بعض قبائلهم لم تتكيف مع البيئة الجديدة، فعادت إلى مناطقها الأصلية. ولما كان عهد الموحدين عَهد ازدهار الزراعة وتراجع الرعي والترحال وضبط مجال القبيلة، الأمر الذي حَدّد مساحات المراعي العامة

---

[1] – إبن خلدون، العبر، ج6، ص 461.

[2] – البيدق، أخبار المهدي، ص 104.

[3] – إبن القطار، نظم الجمان، تحقيق محمود علي مكي، ص 112.

والخاصة وأدى إلى تعدد أساليب الرعي فكان أسلوب الرعي القديم المناسب للمراعي الواسعة وأسلوب الرعي في الأراضي البراح – رعي دون راعي – كما استخدم العبيد السّود في الرعي[1] واستخدم الرعاة المستأجرين من طرف الكسابة الكبار، من شيوخ القبائل وسادة الموحدين[2].

خاصة وأن الشيوخ والأمراء كانوا يتخذون لمواشيهم ودوابهم مراعي خاصة وهي عادة قديمة كانت متبعة من قبل شيوخ وأعيان القبائل احتفظوا بها اثناء انتقالهم إلى المدن خلال عهد المرابطين ثم الموحدين[3].

ونتيجة لتقلص المراعي المباحة إزداد الصراع بين القبائل والإمارات حَول ترسيخ مجالاتها، وَحول السيطرة على الطرق التجارية [4]. واشتهرت بعض الجهات بجودة مواشيها ودوابها كمنطقة السوس الأدنى، وتلمسان، وتاهرت[5] وتماشيها مع هذه التغيرات في مجالات الرعي، ازداد انتشار أسلوب تربية المواشي داخل أحواز وضواحي المدن، وَتبعَهُ انتشار استعمال العلف وكانت مواد العلف هي الشعير والعشب والحشائش الخضراء في فصل الربيع، والمجففة خارج فصل الربيع[6] زيادة على التبن والنخالة التي زاد الطلب عليها في المدن[7].

لقد إنجرَّ عن هذا التحول كَثْرةُ حوادث التّعدي على المراعي والمزارع، وازدادت المشادات حولها بين السّكان جماعات وأفرادًا خاصة أثناء النّزاعات والحروب[8] وأصبح الفلاحون يخصّصون أراضي شاسعة للرعي، وكثر الحديث في كتب النّوازل وخاصة تلك التي

---

1 – مجهول، الحلل الموشية، ص25.

2 – مجهول، المصدر السابق، نفس الصفحة.

3 – إبن خلدون، العبر، ج 6، ص 427؛ – البيدق أخبار المهدي، ص ص 43، 47.

4 – إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص 531.

5 – إبن عذاري، البيان، ج4، ص ص 16-17.

6 – إبن عذاري، البيان، ج4، ص ص 16-17.

7 – الونشريسي المعيار، ج5، ص25.

8 – البيدق، أخبار المهدي، ص 46- 47.

تتحدث عن المتصوفة الذين اقتحموا فلاحين ووَصفوهم بقلة الورع لإعتداءاتهم عن أراضي غيرهم بإدخال مواشيهم إليها دون إذن ملاّكيها[1].

ومن نتائج هذا التحول أيضا، اشتغال أفراد الأسرة في تنقية المزارع من الأعشاب الضّارة في فصل الربيع مقابل أخذ تلك الأعشاب حشيشا لبهائمهم أو مقابل نصيب في الحصاد[2].

أما الجهة الشرقية من بلاد المغرب فقد اشتهرت بتربية الأغنام والأبقار شأنها في ذلك شأن منطقة الوسط كتلمسان، وجبال غمارة ومنطقة فاس وتادلا في المغرب الأقصى [3].

أما في المناطق الجافة وشبه الجافة فيسود رعي الإبل التلقائي (دون راعي) حيث استمر إلى نهاية الفترة الوسيطة ، حيث يتم ضبط القطعان وتجميعها عند الحاجة من قبل العبيد أو الرعاة المستأجرين عن ترصدها عند نقاط الماء، لكن هذا النوع من الرعي عرض القطعان إلى الحيوانات المفترسة الأمر الذي حد من انتشاره[4] فقد اقتصرت منطقة بلاد الجريد بالجنوب الإفريقي على تربية الإبل رغم توفر العلف والمناخ الذي يشبه جنوب العراق على حد قول ابن خلقان[5].

وتبعا لكثرة تنقلات القبائل وهجرة الجماعات وخاصة نحو شمال المغرب الأقصى فقلّت مساحات الرعي، وتوسعت الرقعة الزراعية وكثرت الحيوانات المفترسة ، وازداد خطر اللصوص ، وقُطّاع الطرق وأدّى ذلك إلى انتشار تربية المواشي في الحضائر وكثر طلب العلف

---

[1] - التادلي، التشوف، ص ص 101، 146، 388.

[2] - أبو خير، كتاب الفلاحة، ص 135، - الوشتريسي، المعيار، ج5، ص 103.

[3] - موسى عز الدين، النشاط الإقتصادي في بلاد المغرب، ص 198.

- عبد الرحمن حميدة، جغرافية الوطن العربي، ص46.

- موسى عز الدين، السابق، ص 199.

[4] - إبن القطان، نظم الجمان، ص 86.

[5] - الوفيات، ج6، ص 255.

خاصة في المدن وضواحيها، ويتمثل العلف في الشعير والعشب والحشائش الطرية ، إضافة إلى التبن والنخالة التي كثر الطلب عليها في المدن[1].

أصبح الفلاحون يخصصون أراضي بأكملها للرعي وازداد اندماج المرأة في الأعمال الزراعية فقد اشتغلت النّساء في الأعمال الفلاحية من حرث وبستنة ورعي وتربية مواشي وذلك لمساعدة أزواجهن سواء كانوا ملاّكين أو أجراء مقيمين[2] في المدن أو الأرياف.

وعرفت المرحلة الجمع مابين الرعي والعلف.فالرعي يقوم به راعي جماعي أمّا العلف فيشمل مجموعة من دواب الركوب والنقل ، وتعيش البهائم عنى العلف في كل الأوقات ما عدى في بداية فصل الأمطار حيث تزرع بعض الحقول بالشعير المبكر، حتى إذا ظهرت خضرته وغطّت الأرض ترك للمواشي وخاصة الأبقار والدواب ترعاه ويعرف عندئذ بالقصيل[3].

2- المواشي:

- إيواء المواشي:

يختلف إيواء المواشي من منطقة إلى أخرى، ففي الجبال غالبا ما تستخدم المغارات والكهوف عند المستقرين لخزن الأعشاب الجافة والتبن وإيواء المواشي عند سقوط الأمطار أو الثلوج . أمّا الأبقار فيخصص لها بناء مستقل أو أسفل المساكن عند الفلاحين الأغنياء، وتسكن في جناح من المساكن ذات الطّابق الواحد عند بقية الفلاحين الذين لا يملكون أكثر من بقرتين [4]. أما الدواب فيكون امتلاكها عند الرُّحل وأنصاف الرُّحل أكثر من غيرهم فمأواها هي الزرائب التي أُعدّت لهم أمام المساكن، ولهذه الزرائب فوائد جمة فبالإضافة إلى حماية

---

1 - الونشريسي، المعيار، ج5، ص ص 28-66.

2 - النادلي، التشوف، ص ص 101-146.

3 - أبو الخير، كتاب الفلاحة، نشره الفقيه سيد محمد التهامي، طبعة فاس 1357هـ ، ص 135.

4- أبو الخير ، كتاب الفلاحة، ص 135.

المواشي من الوحوش، فهي توفر مكان موحد لجمع أروات البهائم في مكان معين، حتى تتم الاستفادة منها في تزبيل المزارع والبساتين [1].

ويظهر أن التوسع في الزراعة المسقية، تمّا الطّلب على الأزبال ، حتى أصبح الفلاحون يطوفون في أنهج المدن طلبا لها وأحيانا بمقابل[2]. وهذا يوضح بطبيعة الحال إزدهار في تربية المواشي وفي النشاط الفلاحي بصفة عامة ويعود إلى الإستقرار السياسي والتوجه الإقتصادي للدولة الموحدية.

وبتتبعنا لمختلف الإشارات في المصادر وتوطينها خلال القرن السادس الهجري يمكننا أن نصنف مناطق تربية المواشي والرعي كما يلي:

تنتشر تربية المواشي في مناطق جبال درن وأحوازها(غمات، نفيس شبشاوة، مراكش وما يحيط بها وسهول دكالة، جبال هسكورة، سهل الهبط، وجبال عمارة) وتأتي بعد هذه المناطق الرئيسية مراكز متفرقة: حوض ملوية الأعلى، سجلماسة، درعة، تليها الهضاب الشرقية لتمتد إلى نواحي سطيف والمسيلة وهي مجال للرعي الواسع والترحال.

كما أن الأمراء كانوا يتحذون لمواشيهم ودوابهم مراعي خاصة وهي عادة قديمة كانت متبعة من قبل من طرف شيوخ وأعيان القبائل البربرية. لكن ظهور المجموعات الصنهاجية والوافدة من الصحراء رعامة المرابطين. أثّر بشكل جذري على المجالات الرعوية في الجهة الغربية من بلاد المغرب، حيث إنتعشت المراعي بوضوح بسبب انتشار تربية الإبل وانتقالها، فوقعت الزحمة بين الصنهاجيين الوافدين وباقي القبائل المستقرة وغير المستقرة في مزارعها ومراعيها بل تم انتزاع مناطق بأكملها من يد زناتة وهكذا حوصرت القبائل المصمودية الشمالية ومنعوا من النزول إلى السهول المجاورة وتنوعت

---

[1] - الونشريسي، المعيار، ج5، ص26.
- الحسن الوزان، وصف أفريقيا، ج1، ص181.

[2] - السابق، ص 182.

مواشي القبائل الصنهاجية، فلم تعد مقتصرة على الإبل وبدأ نمط عيشهم يعرف تغييرا كبيرا، حيث بدأت بعض قبائلهم وأشياخهم يمارسون الزراعة وسكنوا المدن والحصون[1] التي أقامتها الدولة على طول مناطق إلتقاء الجبال بالسهول. و في العهد الموحدي وضع حد للزحف الصنهاجي. فقد أوقف الموحدون تدفقهم نحو الشمال بإغلاق الممرات الجبلية في وجوههم، ولما كان العهد الموحدي عهد ازدهار الزراعة وتراجع الرعي والترحال وترتب على ذلك اتضاح مجال القبيلة وتحددت أراضي الدولة، والمراعي العامة والخاصة، وتنوعت أساليب الرعي تباعا لذلك، فإلى جانب الرعي بدون راعي استخدمت القبائل وبعض الأعيان العبيد السود في الرعي[2].

واستخدم الرعاة المستأجرين من طرف أصحاب القطعان الكبيرة من الأغنام والأبقار وكذلك من طرف شيوخ القبائل وسادة الموحدين وأشياخهم، كما استخدم الراعي المشترك في بعض القبائل، في هذا النوع يجمع راعي واحد مواشي وأبقار، ودواب عدد معين من الملاكين وأصحاب القطعان لمدة معينة، وتتم العملية بصفة دورية حيث يقوم راعي قبيلة وشيخ آخر برعي مواشي باقي الملاكين.

وقد كان الراعي متخصص في رعي الأبقار أو الأغنام أو الماعز ثم رعي الدواب وفي المناطق الإنتقالية لا يقتصر على كسب الغنم ورعيه وإنما يتعدى إل كسب أكثر من نوع واحد.

---

[1] - البيدق، أخبار المهدي وبداية دولة الموحدين، الرباط 1971م، ص ص 44-45.

[2] - الثادلي، النشوف، ص 290.

- إبن عذاري، البيان المغرب، ج4، ص 22.

- مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، الدار البيضاء، 1979م، ص 25.

- إبن القطان، نظم الجمان، ص 210.

- أنواع المواشي والدواب:

تدل كلمة مواشي على الأبقار والأغنام والماعز والإبل في حين تدل كلمة دواب على حيوانات الركوب من نحو الإبل (الخيول، البغال، الحمير) وتبقى الحيوانات الأخرى الداجنة غير البرية.

وقد وجدت المواشي في بلاد المغرب بنسبة كبيرة غير أن توزيعها يخضع لعوامل جغرافية معينة. يقول اليعقوبي:" إن الصحراء المغربية هي منطقة إبل"[1] ويقول ابن الفقيه: "لأهل المغرب الخيل العراب والإبل العراب... ولهم القمح والشعير والأغنام والبقر..."[2] وانتشار الأغنام والبقر بنسبة أعلى في الجهة الشرقية ... في المناطق الممتدة من برقة إلى بجاية[3].

عندما نتحدث عن الخيول وانتشار تربيتها بكثرة فإننا نلمس بسهوله أنها تتركز في زغوان ومنطقة المسيلة وبلاد الزّاب وتمتد حتى تصل إلى وسط بلاد المغرب الأوسط خاصة قبائل بني راشد في هضاب منطقة الونشريس[4] وتقل نسبة الخيول في بلاد المغرب بعد فتحهم مدينة تلمسان[5] وهي منطقة الخيول في بلاد المغرب الأقصى، وقد استعمل الموحدون الخيول في غزواتهم بصفة قوية واتخذوا الخيالة كقوة ضاربة.

لقد كثرت الأبقار في شمال بلاد المغرب وإن كانت بلاد المغرب الأقصى أكثر ملائمة لتربيتها، فقد تحدث ابن حوقل عن ذلك فيقول: "إن قلعة كرباطة فيها الزرع والضّرع والسائحة الكثيرة..."[6]، ويضيف قائلا:

---

1 - كتاب البلدان، ط3، النجف 1957م، ص111.

2 - إبن الفقيه، ضمن مقتطفات الحاج الصادق الجزائر 1949م، ص ص 40-42-106.

3 - موسى عز الدين، النشاط الإقتصادي في بلاد المغرب، ص196.

4 - إبن خلدون، العبر، ج6، ص314.

5 - إبن سعيد، كتاب المغرب، ج2، ص 246.

6 - صورة الأرض، ليدن 1938م، ص 88.

- قلعة كرماطة هي إحدى قلاع القبائل المنتشرة في سهل المبط. ينظر: - محمد طويل، الفلاحة المغربية، ص118.

"ولهم البقر والغنم والإبل"[1]، ويعتبر عهد الموحدين أزهى عهود تربية الأبقار في بلاد المغرب، لأن قبائل المصامدة كانت لهم تقاليد راسخة في هذا المجال زيادة على كثرة الطلب لاستعمال الأبقار في الحرث، وتزويد المدن بالحليب وما يستخرج منه، وحاجة الجند إلى اللحوم والجلود[2] لدرجة أن الخلفاء الموحدين تعاطوا تربيتها وتحسين نسلها واعتبروا اللبن والسمن مواد أساسية في التغذية وخاصة في مواسم الحرث والحصاد[3] أمَّا اللحوم فقد تزايد استهلاكها في المدن والبوادي، وتوسعت عادة ذبح الأبقار في المناسبات والولائم[4] زيادة على الإستهلاك العادي في الاسواق وارتبط هذا التحسن في تربية المواشي الذي انعكس على تحسن مستوى المعيشة بالإستقرار السياسي الذي عرفته بلاد المغرب خلال العهد الموحدي خاصة المغرب الأقصى ويليه المغرب الأوسط في حين مازالت مناطق إفريقية تعرف فتنا وحروبا ضد بني غانية ومن لَفّ حولهم.

الماعز:

إن تربية الماعز خلال عهد المرابطين والموحدين قد عرفت تفاوتا و لم تكن رغبة السكان فيها واضحة.

وعندما يقول المؤرخون يكثر في بلاد المغرب "الزرع والضرع" يدخل الماعز تحت هذا العنوان لكن طبيعة التغذية تفرق بين مكوناته ذلك أن أفضل المراعي بالنسبة للماعز هي الغابات والسهوب الشجرية، وعلى العكس من ذلك فإن الأغنام تفضل المراعي المكشوفة ذات الأعشاب القصيرة، إضافة إلى أن الماعز أكثر حركة وسرعة من الأغنام فأهم مناطقه هي الغابات، في جبال كل من درن بالنسبة

---

[1] - إبن حوقل، السابق، ص 91.

[2] - R. Grand, l'agriculture à travers les âges Paris 1950, p 332.

[3] - إبن القنفد، أنس الفقير، ص 105.

[4] - ذكر البكري أن سوق الأحد بأغمات أو ريكة يذبح فيها أكثر من مائة ثور وألف شاة وينفذ ذلك كله في ذلك اليوم:
- إبن عذاري، البيان المغرب، ج4، ص 154.

للمغرب الأقصى وجبال البابور وبني راشد بالنسبة للمغرب الأوسط[1] وجبال الزغوان في المغرب الأدنى[2]، ويمكن للأغنام أن تنتشر في المناطق شبه الصحراوية التي يصعب على الماعز أن يعيش فيها، ولكن الماعز أنسب من الماشية في حالة كثرة التنقلات التي ترافق الاضطرابات السياسية والتقلبات المناخية، فالماعز يتكيف مع الترحال أكثر من غيره.

الأغنام:

كانت أكثر المواشي إنتشارا في الفترة الوسيطة أي منذ الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الموحدية[3]، وأجود أنواعها هي التي ذكرت في سجلماسة (حصن يرارة) وعرفت بالأغنام البرابرة[4]. والكباش الدامانية[5]. وسوس الأقصى، وأغنام وجدة وفازاز[6] وأحواز تلمسان وتاهرت والملاحظ هنا أن مناطق إزدهار تربية الأغنام هي مناطق قبائل زناتة وصنهاجة أما من حيث أهمية القطعان فإن سهول الهبط وأزغار ووهران وممر تازا تأتي في الدرجة الأولى تليها سهول تامسنا ودكالة ثم جبال المَصامدة وهَكسورة وجبال غمارة تليها المناطق شبه الجافة (سوس الأقصى، حوض ملوية، سجلماسة ودرعة).

---

1 - المراكشي، المعجب، ص 339.

2 - د. عز الدين موسى، النشاط الإقتصادي في المغرب، ص 201.

3 - عرفت تربية الأغنام إنتعاشا كبيرا مع مجيئ الموحدين إلى المغرب. أنظر: - الناصري، الإستقصا لأخبار المغرب الأقصى طبعة الدار البيضاء، 1955م، ج4، ص66.

4 - نسبة إلى حصن يرارة من عمل سجلماسة ويقول البكري إن اصول أغنامهم من قيس من أرض فارس وصوفها من أجود الأصواف. ينظر: - المغرب، ص147.

5 - نفس المصدر، ص 171.

يقول عن الأغنام الدامانية "حلقها حلق الضأن إلا انها أجمل وشعرها شعر الماعز لا أصواف فما وهي أحسن الأغنام خلقا وألوانا"

6 - البكري، المغرب، ص87؛ - مجهول، الإستبصار، ص187.

لقد إزدهرت تربية الأغنام في الفترة الوسيطية من الفتح الإسلامي إلى نهاية العهد الموحدي بسبب ملائمة المراعي والمناخ بالدرجة الأولى وأساسا لتزايد إستهلاك اللحوم والأصواف والجلود، بعد أن تم ربط المغرب بالطرق التجارية بعيدة المدى وبعد نمو شبكة من المدن والقرى والمداشر ليصل هذا النمو في الإستهلاك إلى أقص درجاته في العهد الموحدي، أما بعد هذه الفترة فقد نمت القطعان بسبب تمركزها في يد شيوخ القبائل البربرية والعربية وبسبب التراجع الحاصل في الميدان الزراعي ولتزايد الطلب على الجلود والمنسوجات سواء في الداخل أوالخارج[1] وأيضا بسبب تراجع زراعة القطن والكتان[2]، إلاّ أن ذلك لا يعني أن قطيع الأغنام يتصدر أنواع المواشي بل إن الماعز كما أشرت إلى ذلك كان أكثر المواشي إنتشارًا أواخر العصر الوسيط.

لقد أشارت وثيقة وَاردة في كتاب دي ماس لاَتري "معاهدات سلم وتجارة" إلى تربية الماعز، والوثيقة تحمل تاريخ (19 ماي 1181م / 03 محرم 577هـ)[3].

الأبقار:

عرفت المناطق الجبلية في المغرب ومنذ القديم بأنها منطقة رعاة البقر (البوفيديون – الكوشيون)[4] وعند الفتح الإسلامي كانت الإشارات إليها قليلة، مما يعني تقلصا في تربيتها لدرجة أن بعض الدارسين نفى وجود تربية للأبقار في المغرب ولعلّ هذا التقلص يرجع إلى ما أشاعه الفاتحون عرب وبربر من عادات خاصة بهم. لكن العهد الموحدي يمكن

---

1 - الناصري، الإستقصا لأخبار المغرب الأقصى، ج4، ص ص 147-153.
- الإدريسي، نزهة المشتاق، ج3، ص ص 228-229-240-243-245. ومابعدها.
- مجهول، الإستبصار، ص 207.
- إبن سعيد، كتاب بسط الأرض ، ص79.

2 - إبن الخطيب، معيار الإختيار في كر المعاهد والديار، طبعة فضالة 1976م، ص ص 150-152.

3 - De Mas latrie, Traités, op. cit, docIII, p27.

4 - أحمد التوفيق ابنولتان، ج1، ط 1978م، ص 340-346.

إعتباره عهد إزدهار تربية الأبقار لعدة أسباب منها أن المصامدة الّذين حكموا المغرب يعتبرون منحدرين من أولئك السكان (البوفيديين) أي أن هناك تقاليد مترسخة لديهم في هذا المجال يضاف إلى ذلك أن التوسع الزراعي الذي بلغ ذروته في هذا العهد إرتبط جدليا بنمو تربية المواشي وخاصة الأبقار التي تستخدم في مختلف عمليات الزراعة إلى جانب الفوائد الأخرى كتزويد المدن بالحليب ومشتقاته وباللحوم والجلود[1] لدرجة أن خلفاء الموحدين تعاطوا تربيتها وتحسين نسلها كما أشرنا إلى ذلك من قبل، ولم يقتصر إستهلاك منتجات الأبقارعلى المدن بل تعدّاها إلى البوادي، حيث يعتبر اللّبن الحامض والسمن مواد أساسية في التغذية وخاصة في مواسم الحرث والحصاد[2] أما اللحوم فقد تزايد إستهلاكها في المدن والبوادي وفي هذا العهد إنتشرت عادة ذبح الأبقار في المناسبات والولائم[3] إضافة إلى الإستهلاك العادي في الأسواق والقرى[4].

الإبل:

تعتبر الصحراء والمناطق الجافة عموما الممتدة على مشارف الصحراء شمالا مرتعا مناسبا للإبل، وقد عرفت بلاد المغرب هنا الحيوان الأسيوي الأصل منذ العهد الروماني، واستطاع السكان أن يتدربوا على تربيته حتى أتقنوها، وأصبح بعد ذلك الثروة الأساسية التي يُعتمد عليها في عيشهم[5]. وخاصة قبائل صنهاجة وزناتة حتى أن قطعات الإبل كانت تفوق مثيلاتها في البلاد العربية، كما يستدل

---

[1] - R. Grand, l'agriculture à travers les âges Paris 1950, p330.

[2] - التادلي، التشوف، مصدر سابق، ص ص(80-115-150-237-723).

[3] - السابق، ص ص (141-120-248-368).

[4] - ذكر البكر أن سوق الأحد باغمات أوريكة ذبح فيه أكثر من 100 ثور و1000 شاة ويعتد ذلك كله في ذلك اليوم.
- المغرب، مصدر سابق، ص 153.

[5] - اليعقوبي، كتاب البلدان ، ص 112.
- صورة الأرض، ص ص 97-98.
- إبن خلدون، العبر، ج6، ص174.

ابن حوقل على ذلك بقوله :" وعند أهل المغرب من الجمال الكثير في براريهم، وسكان صحاريهم، التي لا تدانها في الكثرة إبل العرب..."[1].

وتظهر كثرة قطعان الإبل في ضَيعَات الأمراء وشيوخ القبائل وأعيانها، وتختلف أعدادها حسب مجالات القبائل ووفرة مراعيها وحسب التقلبات المناخية ، والملاحظ أن القبائل الصنهاجية مثل (لمتونة لمطة، كدالة، مسوقة) كانت أكثر تملكا للإبل من سواها ثم تليها قبائل زناتة خاصة بعدما سيطرت على المناطق الممتدة ما بين سجلماسة ودرعة، وفي إقليم الهقار بجنوب المغرب الأوسط، وحسب تقديرات إبن أبي زرع فإن أمير سجلماسة كان له قطيع من خمسين ألف ناقة وجمل أثناء ظهور المرابطين على مسرح الحياة السياسية[2] وقد شكلت هذه القطعان أهم الغنائم أثناء قيام دولة الموحدين ففي إحدى غزوات الموحدين غنموا أزيد من ثمانية آلاف ناقة (8000)[3].

لقد إنتشرت تربية الإبل في كل مكان منذ العهد المرابطي في السهول الداخلية والساحلية[4] ثم تدعّم وجود الإبل بمجيئ العرب الهلاليين، وإزدهار قوافل التجارة، وقد تحدث إبن القطان على أن هناك أنواعا من الإبل يتميز بها المغرب وهي التي لا تحتاج إلى علف عندما

---

[1] - إبن خلدون، العبر، ج6، ص174.

[2] - الأنيس المطرب، روض القرطاس، ص 128.

- إبن خلدون، السابق، ص103.

[3] - إبن عذاري، البيان، ج3، ص21.

- البيدق، أخبار المهدي، ص77.

[4] - البيدق، السابق، ج3، ص21.

- الإدريسي، نزهة المشتاق، ج2، ص237.

توفر بالأحمال وتسافر عبر الصحراء لعدة أيام[1] وقد استعملت الإبل في الحروب كما فعل المرابطون في معركة الزلاقة[2].

ومازال الجيش المرابطي ومن بعده الموحدي يستعمل الجمل في تنقلاته، ورعاة الجمل يعتمدون في معاشهم على الإبل زيادة على ثمور الواحات ولا يتعدون غير ذلك، والحقيقة أن رعاة الابل هم البدو دون غيرهم كما يصفهم صاحب الإستبصار[3] وينتمي إليهم من يشتغل برعي الجمال من فئة الزراع أو رعاة الغنم في المناطق الإنتقالية.

الخيول:

إن المصادر التاريخية المغربية قليلة التحدث عن الخيول خاصة خلال القرن السادس الهجري، وربما يعود ذلك إلى قلّة إنتاج الخيول، فقد كان المرابطون في بداية أمرهم يحاربون على الإبل وراجلين[4] و لم يكن للموحدين في بداية دعوتهم خيولا إلا فيما إعتبروه من المرابطين ولعلّ حاجة المرابطين والموحدين إلى الخيول هي من بين الأسباب المباشرة التي دفعتهم إلى غزو جبال فازاز وغمارة في المغرب الأقصى، وسهول وادى شلف وجبال الونشريس في المغرب الأوسط حيث إنتاج الخيول وفير[5].

إلا أن هذه القلة ليست طبيعية، ومن بين الأسباب المباشرة : إستهلاك الخيول بكثرة في الحروب ، وتزايد الطلب عليها لإنتشار الرفه وتحسن مستوى المعيشة للسكان حيث كانت الشرائح المنتمية إلى الفئات الخاصة تقتني الخيول الفارهة فارتفعت أثمانها، واستعملت

---

[1] - يقول إبن القطان"وإبل إفريقيا أفضل من إبل آسيا لأنها تحمل الأثقال مدة أربعين إلى خمسين يوما دون أن تستلزم علفا:
- نظم الجمان، ص ص 154-166-173.

[2] - الحميري، الروض المعطار، ص141.

[3] - مجهول، الإستبصار، ص ص 213-214.

[4] - السابق، ص 187.
- إبن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص75.

[5] - إبن عذاري، البيان، ج4، ص11.

في الهدايا السلطانية[1]، ورغم إدخال العرب أنواع منها إلاّ أن النقص بقي ملحوظا، وأصبح إمتلاك الفرس يكسب صاحبه وجاهة ومكانة إجتماعية متميزة، واعتبرت القبيلة التي تملك خيولا وفرسانا مستقلة يمكنها الدفاع عن نفسها دون الحاجة إلى الدولة أو إلى قبيلة أخرى[2].

لقد إرتفعت أثمانها بسبب تكاليف تربيتها الباهضة، والعناية بها لذلك كانت مركزة في أيدي الذين يتوفرون على إمكانيات مادية وزراعية كبيرة، وفي مقدمتهم رجال الجاه من شيوخ الموحدين، والسادة أبناء عبد المؤمن بن علي، وأبنائهم والولاة ، والكتاب وغيرهم واعتبر إمتلاك الخيول وركوبها في غير أوقات الحرب ، مؤشرا على إرتفاع المستوى المعيشي والمكانة الإجتماعية العالية[3].

وكان تجريد القبيلة من خيول من بين الأهداف العسكرية الأولى لأن ذلك يؤدي بالضرروة إلى هزيمتها وإذلالها[4]، ومما تجدر الإشارة إليه إلى أن العرب ومعهم القبائل الزناتية قد تعرّضوا إلى تهجير، ومطاردة خلال العهد الموحدي مما أفقدهم إمكانيتهم التي كانوا يحتكرونها في ميدان تربية الخيول[5].

إن هناك خيولا جيدة كانت في أيدي شيوخ القبائل، حتى أن الدولة الموحدية كانت تضطرللإعتماد عليهم في تجنيد الفرسان وتتحدث المصادر على أنواع الخيول وأسمائها عند العرب في المغرب هما فصيلة "البربرية"

---

[1] - إبن عذاري، البيان، ج4، ص26.
- إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص103.
[2] - الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج1، ص ص 279-287.
[3] - إبن خلدون، العبر، ج6، طبعة دار البيان، (د.ت)، ص238.
- إبن أبي زرع، السابق، ص 395.
- الحسن الوزان، السابق، ص 122، ص 80.
[4] - مجهول، الإستقصا، ج2، ص 238.
- إبن أبي زرع، السابق، ص 395.
[5] - الحسن الوزان، السابق، ص 252.

وهي خيول محلية تعرف في الخارج بهذا الإسم وفصيلة الخيول "العربية" وهي خيول متوحشة في الأصل تم تدجينها في القرون الغابرة وإنتقلت تربيتها إلى المغرب[1].

البغال:

تأتي من حيث القيمة والأهمية بعد الخيول، فهي تستعمل في عدة خدمات منها الركوب في المناطق الجبلية، والنقل، وفي الحروب. وكانت تحظى بعناية كبيرة، لقد تخصصت بعض المناطق في إنتاجها كجبال درن وجبال غمارة، وجبال بن راشد، وسهول المسيلة وجنوب إفريقية، وبونة (عنابة) وقد تأتي أهميتها أحيانا في الدرجة الأولى في المناطق الجبلية ومناطق الزراعة المسقية، إذ لا يمكن لغيرها أن تقوم بالخدمة في هذه المناطق الجبلية وقد تجاوزت شهرتها بلاد المغرب، حيث بعثها السلاطين في هدايا إلى الخارج[2].

الحمير:

وهي أكثر الدواب إنتشارا بسبب تعدد الأغراض التي يقوم بها وبساطة تكاليفها فهي تستخدم في الركوب والنقل وإستخدمت في نهاية العصر الوسيط في الحرث والدرس وفيها أنواع أجودها الحمير المصرية، وقد أصبح الإعتماد عليها أكثر بسبب غلاء الدواب الأخرى[3].

3 - تربية الدواجن والنحل ودودة القز:

3 - 1 - الدواجن:

إن الإشارات الخاصة بتربية الدواجن التي وردت في كتب الجغرافية والفلاحة وحتى الرحلات كانت تفيد بأن تربية الدّجاج صاحبت

---

[1] - الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج2، ص ص 262-263.

[2] - إبن عذاري، البيان المغرب، ج4، ص 26.

- العمري، مسالك الأبصار، ص 299.

[3] - لاحظ الوزان استعمال الحمير في الحرث: - وصف أفريقيا، ج1، ص77.

حياة الإستقرار، ولذلك كانت أهم مناطق إنتاجه هي تلك التي عرفت الإستقرار منذ القدم، كجبال المصامدة في تينملل ودكالة، وجبال غمارة وحول المدن الكبرى، فقد وردت إشارة عند الادريسي عن أهل السوس تقول :"إنهم يعتنون بشعورهم، ويغسلونها برقيق البيض"[1] مما يعني كثرة البيض والدجاج. وورد مثال عن دجاج أهل الأوراس وقد يكون لعدم إنتشار تربية الدجاج إرتباط بعادات وتقاليد تحرم أكل لحم الديوك[2].

وقد عرفت تربية الدجاج بعض التطور في العهد الموحدي بسبب الإزدهار الزراعي ووفرة الحبوب الذي يعود أساسا إلى انتشار حياة الإستقرار والأمن. وكان الفلاحون يربون الحمام والدجاج بغرض أكلها وبيعها والإستفادة من زبلها في إصلاح الأرض، وتحقق هذه التربية فائضا يروج في أسواق خاصة به[3] وتحدث العمري عن سعر الدجاج بأنه رخيص، وأصبح يربى في التجمعات السكنية ويعتبر من المواد الغذائية وأحسن ما يهدى للضيوف ويقدم في الوجبات الفاخرة بالبوادي والمدن[4].

لقد استعملت كدواء (مرق الفلوس) لنزلات البرد والزكام[5] وربط الفلاحون بين طرق الغذاء وإنتاج الدجاج، فيقول ابن خلدون : " أن مما اكتشفوه أن الدجاج إذا غذيت بالحبوب المطبوخة في بعر الإبل، واتخذ بيضها ثم حضن، جاء الدجاج منها أعظم ما يكون في الحجم"[6].

---

[1] - الإدريسي، نزهة المشتاق، ج3، ص288.

[2] - الحميري، الروض المعطار، ص 176.

- التادلي، التشوف، ص 85.

[3] - الحسن الوزان، وصف أفريقيا، ج1، ص191.

[4] - مسالك الأبصار (آيا صوفيا)، مكتبة الجامعة الأمريكية في بيروت رقم MA 13 ، ص 298.

- الباديسي، المقصد الشريف، ص 124.

[5] - إبن الخطيب، نفاضة الجراب، ص43 .

[6] - العمري، مسالك الأبصار، ص299.

ونشير إلى أن تربية الدجاج ارتبطت بإزدهار الزراعة وإنتاج الحبوب وتراجعها كان في فترة التراجع الزراعي، ويظهر هذا في نوازل الفترة حيث تحدث عن تعدي الدجاج والبط على مزارع الغير، واحتدم النزاع بسبب الحمام الذي يغادر أبراجه إلى أبراج الجيران. أما باقي الطيور الداجنة فقد كانت موجودة بكثرة كالإوز والحمام والكركي[1] الذي ربما يكون هو نفسه اللقلق لأن ابن الخطيب أشار إليه ضمن المأكولات التي قدمت له في ضيافة أمير هنتانه[2]. وقد حاول سكان المغرب تدجين النعام وأكل لحمه[3] وتدجين النعام قد تكون له دلالة خاصة وهي إرتفاع الطلب على ريش النعام وبيضه في الأسواق الخارجية مما دفع بالبعض إلى القيام بتجربة احتضان بيضه وتدجينه. أما الحمام فيضهر أن ولع أهل بلاد المغرب بتربيته لم يبدأ مبكرا، إذ يعود عهد إنتشار تربية الحمام إلى هجرة الأندلسيين إلى بلاد المغرب، والذين كانت لهم تقاليد في تربيته وتسخيره في المراسلات[4]. واستعمال ريشه في زخرفة الأواني الفخارية، حيث يوضع في سائل لزج وملون، وتصقل زوائده ثم تبسط وتترك عرضة لأشعة الشمس حتى تجف تماما فترفع وتستعمل كأشكال للزينة والزخرفة، خاصة على جوانب الصحون، والكؤوس[5].

وقد حرص الفلاحون على تجميع الحمام بشكل أكبر على الأبراج وسقوف المنازل والقصور لتسهيل الإستفادة من زبلها الذي

---

1 – هو طائر يشبه اللقلق وقد ذكر أنه من بين الطيور التي تصطاد. ينظر ذلك في: – العمري، مسالك الابصار، ص 299.

2 – إبن الخطيب، نفاضة الجراب، ص43.

3 – إبن الخطيب، السابق، ص44.

4 – الحسن الوزان، وصف أفريقيا،ج2، ص120.

– الونشريسي، المعيار، ج9، ص 58.

5 – زكي محمد حسن، فنون الاسلام، دار الرائد، بيروت (د.ت)، ص509.

يدخل بشكل مباشر في تسميد أرض البساتين والحقول، خاصة تلك التي كانت ملكا للخلفاء، ورجال الخاصة[1].

3 - 2 - النحل:

هناك نوعان من النحل، أحدهما بري يصطاد، وآخر يُربى، ولقد كان النحل من صادرات المغرب منذ وقت مبكر، فابن الفقيه تحدث عن أهل المغرب بقوله :" ولهم القمح والشعير والأغنام والرمال والبقر والعسل ..."[2] وتحدث البكري أيضا عن عسل المغرب بقوله « ... عسل يفوق عسل الأمصار"[3] وقد واكب إنتاج العسل وتربية النحل إزدهار الزراعة، وخاصة البستنة التي إتجه إليها الفلاّحون إضطرارا خاصة في الجهة الشرقية من بلاد المغرب وذلك لإنعدام الأمن الناتج عن الثورات التي أشعل فتيلها إبن غانية والأغزاز الترك ومعهم العرب وشهدت منطقة درعة وسجلماسة بدورها هذا التحول بسبب الخراب الذي أصاب المدن أثناء مداهمتهم من قبل الموحدين[4] ومع ذلك فقد كانت الجهة الشرقية تنتج كميات وفيرة وإشتهرت مدينة جلولا وبونة بكثرة إنتاج العسل وجودته وأضيفت إليها منطقة هضاب تل أطلس الشرق خاصة قسنطينة حيث تبوأت الصدارة في إنتاج العسل، ونتيجة لظروف المنطقة الشرقية هاجر بعض مربي النحل إلى المنطقة الوسطى ثم إلى الجهة الغربية، فقد كثر إنتاج العسل في ساحل تلمسان ممتدًا إلى منطقة البصرة وتادلا وأصبحت المدن والقرى عامرة بأجباح النحل[5] الأمر الذي جعل بلاد المغرب تصدر النحل إلى البلاد المجاورة، وإزداد الطلب

---

[1] - التادلي، التشوف، ص ص (426-430-441).

[2] - الأعماق النفسية ضمن مقتطفات، حاج صادق (صفة المغرب وأوروبا في القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي، الجزائر) 1909م، ص 40.

[3] - إبن عذاري، البيان، ج3، ص162.

[4] - الإدريسي، نزهة المشتاق ،(ط.ب)، ص 61.

[5] - التادلي، التشوف، ص ص 249-339.

على مادة الشمع ولعل إزدهار تربيته يعود إلى سهولة العناية به وقلة تكاليفه[1] وإعتماد السكان على العسل إلى جانب الزيت والشعير في تغذيتهم[2] خلال هذه الفترة، وأصبح العسل مادة تقدم للضيوف[3] في متناول الجميع، حتى أن الفقهاء نهوا الناس عن رمي الشمع في المزابل[4].

وقد تطور الإنتاج الموجه الى السوق، وتخصصت بعض المزارع في تربية النحل وأبرمت عقود الشراكة في النحل وفي تقديم العلف له[5]، ومن الناحية التقنية لا تتطلب تربية النحل في الغالب إلا معرفة بطبيعة النحل وسلوكه والأمراض التي تصيبه وتوفير الظروف الملائمة له، فالأجباح تصنع غالبا من جذوع الأشجار المفرغة ومن الدّلم (الفلين) والغالب أنها تصنع من الفخار، ويتم وضع الأجباح في مكان ملائم وبعيدا عن الرطوبة والأشجار ومعرض مباشرة للهواء وأشعة الشمس على أن يتم تغطية الأجباح شتاء لتدفئتها وصيفا لتوفير الظل لها ووجدت حالات سجلتها النوازل الفقهية يقدم فيها العلف للنحل وتتم إحاطة الأجباح في الإستغلاليات المتخصصة أو عند تزايد أعدادها بسياج من الأشواك أو من الحجارة يعرف ذلك بالزريبة[6] أو دار الأجباح ولعل اللفظة دخلت في اللهجة البربرية بصفة محرفة، حيث تعرف زريبة النحل عندهم بـ:"ترَارت"[7].

---

1 - التادلي، التشوف، ص 415.

- إبن عذاري، البيان، ص 163.

2 - إبن الخطيب، نفاضة الجراب، طبعة القاهرة(د.ت)، ص ص 43-46.

3 - السابق، نفس الصفحة.

4 - الونشريسي، المعيار، ج8، ص36.

5 - السابق، نفس الجزء، ص ص 192-194.

6 - التادلي، السابق، ص46.

7 - الونشريسي، السابق، ص 195.

- الحسن الوزان، وصف أفريقيا، ج1، ص ص 89-110-132.

ويمكن الحديث عن التربية المتخصصة التي أشرنا إليها خاصة حول المدن الكبرى وفي مناطق الطلب على الشمع إمتلاك أحد المربين مائتي خبحا(200)[1] وفي القرى والمدن كان النزاع حول الضرر الذي يتسبب فيه النحل وحول فراخ النحل الذي يطير من جبح إلى جبح[2] وأما طريقة قطع الشهد من الأجباح فكانت مثلما هي عملية اليوم تستعمل الدخان لإبعاد النحل[3].

وقد أشارت بعض الدراسات الحديثة إلى إستعمال المغاربة للنحل في الأغراض العسكرية وصادفت هذه الدراسات أن منطقة دكالة في الجهة الغربية، وقفصة في الجهة الشرقية من بلاد المغرب كانتا مشتهرين قبل الأحداث التي مرت عليها بكثرة النحل وغزارة إنتجها من العسل[4].

3 - 3 - دودة القز:

لقد إرتبط إنتاج الحرير بزراعة شجر التوت وتربية دودة الحرير وأيضا بارتفاع المستوى المعيشي للسكان وخاصة فئة الأعيان والخاصة وقد وردت في المصادر إشارات تفيد أن مادة الحرير إنتشرت أكثر في العهد الموحدي الذي يُعتبر عهد إرتفاع في المستوى المعيشي وتنوع في الملابس والمنسوجات لدرجة أن الخليفة أبي يعقوب يوسف وابنه المنصور من بعده منعا التمادي في لباس الحرير وغيره من مظاهر التأنق والبذخ[5] وقد أثرت الفتن والحروب على إنتاج الحرير خاصة في الجهة الشرقية، حيث أخفق الموحدون في إحياء طرز الحرير في قابس على الرغم من محاولاتهم الناجحة في إنعاش إنتاج الحرير

---

[1] - الونشريسي، المعيار، ص 196.

[2] - السابق، ج5، ص85.

[3] - التادلي، التشوف، ص322.

[4] - لقد وردت إشارة في: المناهل ع 35، ديسمبر 1986م، ص ص 87-119. تحدث فيها عبد الهادي الباري عن استعمال المغاربة للنحل ضد غزوات العدو.

[5] - إبن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص ص 145-148.

في كل من مدية تونس والمهدية وبونة وبجاية[1]. وقد يكون تحسن إنتاج الحرير في الجهة الشرقية من بلاد المغرب راجعًا إلى بعدها عن مركز الخلافة التي كانت لا تشجع هذه الصناعة، والدليل على ذلك إختفاء دور الطراز الحريري الرسمية من مدن الجهة الغربية[2]. لقد إرتفع سعر أوراق التوت بالجهة الشرقية فالمنسوجات الحريرية كانت تستورد من الأندلس وأفريقية والمشرق، وتأخر دخول دودة الحرير إلى الجهة الغربية إلى غاية القرن التاسع الهجري - الخامس عشر الميلادي وقد أثار دخولها كثيرا من المشاكل والمنازعات بين المزارعين والمنتجين للحرير سجلتها كتب النوازل[3] وأعتمد سكان المغرب خلال العصر الموحدي على حرير مدينتي مرسية ومالقة حيث تنوعت أصناف الحلل والديباج ومنها كانت تجهز العروس في المغرب[4] وكان ثمن الخلة الموشية من إنتاجها يتجاوز آلاف الدنانير وهو نوع ينتج برسم الملوك والخاصة[5] لكن تطور هذه الزراعة وإنتاج الحرير إرتبط أكثر بحياة الخاصة وبمستوى عيش مرتفع[6].

رابعا/ إستغلال الغابات والصيد البري والبحري:

1 - إستغلال الغابات:

كان استغلال الإنسان المغربي لمجاله الطبيعي فوضويا وشديدا ذلك ما يفسر لنا تراجع الغابات وتدهورها في الكثير من المناطق وأهم مجالات الإستغلال، الإستغلال الصناعي (النجارة، صناعة السفن).

---

[1] - إبن صاحب الصلاة، المن بالامامة، ص448.
- مجهول، الإستبصار، ص130.

[2] - إبن خلدون، المقدمة، طبعة دار الفكر، بيروت (د.ت)، ص ص 266-267.

[3] - الونشريسي، المعيار، ج5، ص ص 36-37- 60.

[4] - المقري، نفح الطيب، ج3، ص222.

[5] - السابق، نفس الجزء، ص219.

[6] - إبن البناء، رسالة في الأنواء، نشر رينو باريس، ص5. حيث يقول:" وفي شهر فبراير تبدأ النساء بحصد بيض دود الحرير في تحورهن".

والإستعمالات المنزلية التي تطلب المزيد من الخشب والحطب والفحم. ومن مجالات الإستغلال أيضا: المناجم، التعدين، صناعة السكر الحمامات. الأفران. دُور صناعة النسيج[1].

وتتركز أهم الصناعات والأنشطة المستعملة للحطب والأخشاب في المدن الكبرى وخاصة منها المدن القديمة التي تعد عاملا من عوامل تراجع الغابات من حولها مثل مدينة طنجة، سبتة، أصيلا وتلمسان. فقد أصبحت هذه الأخيرة تستورد الفحم والأخشاب من المدن المجاورة لها[2] وكانت المدينة من قبل محاطة بالغابات ومكتفية ذاتيا في هذا المجال، ونفس المصير عرفته غابات المناطق المجاورة للمدن.

وهناك شكل آخر من إستغلال الغابات كان أكثر عنفا وإتلافا للأشجار، ويتعلق الأمر بتوسيع المساحات الزراعية[3] أو البحث عن أراضي جديدة أكثر خصوبة بإحراق مساحات كبيرة من الغابات أو للحصول على مراعي مكشوفة وإزالتها لأسباب أمنية وعسكرية[4] كانت تقوم بها الدول ومنها الموحدون، وهذا أسلوب مازال معتمدًا في عصرنا الحالي، حتى لا تستخدم كمكامن للصوص وقطاع الطرق وملاجئ للقبائل الثائرة.

وفي شمال الصحراء الكبرى كان الضغط شديدًا على الغابة، فقد استغلت في شتّى الأغراض كجمع الحطب والأخشاب للطبخ والصناعات المحلية وأساسا كان استغلالها لرعي الماعز الذي يَعتبر الأشجار الشوكية من أفضل النباتات إليه ومنها شجرة الطرجان (أركان)، كما استغلت ثمارها في استخراج الزيت الذي كان الوحيد المستعمل في المنطقة في العصر

---

[1] - الإدريسي، نزهة المشتاق، (ط،ب)، ص230.

[2] - الحسن الوزان، وصف أفريقيا، ج2، ص232.

[3] - إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص 260.

[4] - Roget, le Maroc chez les autres anciens, Paris 1924, p 200.

الوسيط، وقد ازداد تدهور هذه الغابات خاصة في أطرافها الجنوبية بعد تقدم القبائل اللمتونية خلال عهد المرابطين نحو سهول سوس وكذلك الأمر أثناء الهجرة العربية، وكما هو معلوم فإن هذه القبائل كانت تعتمد على تربية الإبل فوجدت في هذه الغابات أحسن مرعى.

وتستهلك كمية كبيرة من الأخشاب المستقيمة والألواح العريضة والأعمدة من مختلف الأحجام وحسب مواصفات خاصة في النقل البحري التجاري والنهري أدّى إلى ازدهار الصيد البحرى، أما الإستغلال الأكثر تأثيرا فهو الإستغلال.

وبالرجوع إلى مواقع هذه المدن يتضح لنا مدى التراجع الذي عرفه القطاع النباتي الغابوي من حواليها[1]. وازداد ضرر الغابة باستغلال ما تحت الغابة، فالشجيرات تستغل في فصل الصيف كحطب للأفران بالبوادي والمدن[2] كما تستغل للمرعى في فصل الربيع وخاصة الماعز والأبقار التي كانت بعض المناطق دون راع، وقد تضررت غابات عديدة بسبب الإستغلال العشوائي والعنيف للغابة وفي مقدمة المناطق المتضررة جبال غمارة، جبال الونشريس، جبال كتامة وكذلك جبال فازاز...

لقد تحدث الوزان عن غابة الخرّوب في جبال المغرب الأوسط وقال أنّه الغذاء الرئيسي للسكان[3]. إلا أن ذلك قد يجوز في ظروف المجاعات والحروب والحصار الذي تعرضت له بعض القبائل خاصة تلك التي دارت بين الأغزاز وبني غانية وبعض القبائل العربية من جهة والموحدين من جهة ثانية، وينسحب الأمر على العلاقات السيئة بين قبائل زناتة وصنهاجة والتي دامت فترة طويلة. وإضافة إلى ذلك فإن شجرة الخروب تنبت عادة في المناطق الرطبة وفي بطون الأودية وبجوار المياه.

---

1 - Roget, le Maroc chez les autres anciens, pp 120-125.

2 - إبن القنفذ، أنس الفقير، ص 81.

3 - وصف أفريقيا، ج2، ص43.

وقد كانت الجبال تضم أشجارًا ضخمة من الخروب تعقد تحتها الإجتماعات البرية لما توفره من ظلال وقد كان المهدي بن تومرت يعقد إجتماعات الموحدين الأولين تحت شجرة الخرّوب، وقد ذكر العمري أن الخروب من جملة الفواكه المتوفرة في المغرب[1]، وإضافة إليها كان البلوط واسع الإنتشار والإستهلاك، لأنه ذو قيمة اقتصادية وغذائية منذ وقت مبكر وقد اعتبر من الفواكه الخريفية التي كانت تباع منه كمية كبيرة بالمدن المغربية العريقة، واعتبر غذاءً رئيسيا للسكان في أوقات المجاعات حيث يعتمد عليه إلى حين انفراج الشدة[2]كما كان سكان الجبال يعتمدون على زيت اللوز منذ القدم وفي معظم مناطق بلاد المغرب وإلى عهد الموحدين وهم يتخذونه في طهي الأغذية والأذهان للعلاجات والإنارة[3]، أما النّبق فيأتي بعد هذه المواد من حيث الأهمية والإنتشار[4] بسبب اتساع مساحات السهوب وخاصة سهوب السّدرة وإضافة إلى ذلك فإنها تمدنا بفاكهة التُّبْن.

وهي من المواد الملتقطة والتي تعتبر من الفواكه الشتوية[5] والتي تؤكل أو تستعمل في البخور والعلاج وفي بعض الصناعات كالترفاس وتختص

---

[1] - الإدريسي، نزهة المشتاق، (ط،ب)، ص236.
- البادلي، التشوف، ص 85؛ - إبن عذاري، البيان المغرب، ج4، ص19.
- مجهول، الحلل الموشية، ص16.

[2] - ذكر إبن عذاري أن بوار الخروب كان واسع الإستهلاك أيام الشدة، إذ يصنع السكان منه عصيدة مما يدل على كثرته في الجبال والغابات السهلية.
- البيان المغرب، ج3، ص 316.

[3] - أحمد عزاوي، رسائل موحدية، ج1، ص199.
- الإدريسي، نزهة المشتاق، (ط،ب)، ص231.
- البكري، المغرب، ص163.
- مجهول، الإستبصار، ص210.

[4] - يذكره السبتي بالزنبوع بنظر اختصار الاخبار، عما كان في سبتة من سني الأثار، الرباط (د.ت)، ص 90.

[5] - الوزان، وصف أفريقيا، ج2، ص 281.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

به الأراضي الرملية المجاورة لسلا، وينتشر في بعض المناطق الجبلية وفي الصّحاري مثل منطقة ورجلان وتوات، وقفصة، وزويلة كما تستعمل أنواع التّمْن في البحور. ويذكر المؤرخون بعض النباتات المستعلمة في التغذية ولا تزال إلى يومنا تستهلك كالبقلاء الحبقاء والخبازي[1] ولا يظهر أن الأصل في تناول هذه المواد في التغذية يرجع إلى المجاعات، لأن هذه النباتات لا تنمو إلاّ بعد سقوط الأمطار وفي فصل الربيع، ولأن إشارات كثيرة ذكرت استهلاكها في غير أوقات الشدة وذكرت النباتات والجذور التي تؤكل عادة في وقت المجاعات مثل تامود، وايراي واثلي وبرامر[2].

وهكذا قدمت الغابات مواد لعبت دورا أساسيًا في إقتصاد المغرب خلال العصر الوسيط ولا يزال بعضها إلى اليوم، وقدمت موارد تكميلية أو احتياطية لغذاء الإنسان على طول السنة، ففي فصل الشتاء هناك الأبوز والترفاس والبلوط، وغيرها وفي فصل الربيع هناك البقول البرية والعساليج كالبقلاء الحبقاء، والخبازي. وفي أواخر الربيع هناك الخرّوب والجوز، في فصل الصيف هناك الثمار والفواكه كالعنب والتوت وغيرها أما في الخريف تستمر بعض المواد الصيفية إلى جانب النبق وبداية البلوط، لقد قدمت الغابات المغربية مواد أساسية وحيوية مثل الأخشاب وزيت الجوز والحطب والقمح وبذلك زودت الصناعات المختلفة بما تحتاجه من أخشاب وفحم، كان ذلك ركيزة من ركائز المظاهر الحضارية للمغرب وساهمت بشكل

---

[1] - ورد في هامش ص35 من كتاب الفلاحة لأبي خيرانة المعروفة اليوم بالرحلة والتي مازلت تستهلك إلى اليوم. ينظر أيضا في كتاب: التادلي، التشوف، ص297.

[2] - إبن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص 316.

- التادلي، السابق، ص ص 207-263.

كبير في التطورات التاريخية التي عرفتها البلاد وخاصة في الفترة الممتدة من بداية الدولة المرابطية إلى نهاية المرينيين مرورا بدولة الموحدين.

ولا يقلّ دور النباتات والأعشاب أهمية عن الأشجار المختلفة. لأنها أدّت أدوارا ولا تزال في الصناعة التقليدية وخاصة الشعبية منها في البوادي والحواضر، إلى جانب هذه المنافع كان النشاط الرعوي خاصة أثناء نهاية مرحلة الدولة الموحدية لكثرة الفتن والحروب وفي زمن القحط يتركز على الغابات كما تلجأ إليها القبائل والفئات المغلوبة على أمرها في زمن الحروب والإضطرابات السياسية والإجتماعية[1].

لم تكن الغابة والصيد موارد تكميلية إلا في بعض الأنشطة. وفي بعض المناطق والفترات لكن كان لها دورًا رئيسيا في النشاط الفلاحي وغيره كمراعي ومصدر للأخشاب والطاقة وموردا للصيد التجاري لكن الإستغلال المكثف للأخشاب وحرق الغابة واقتلاع الأشجار لتوسيع الرقعة الزراعية وإحداث المراعي المكشوفة أثّر بشكل سلبي على المجال الطبيعي فنشطت عملية التعرية وانجراف التربة وتغيير المناخ في مناطق كانت فيها رطوبة فأصبح أكثر جفافا زيادة على الإخلال بالتوازن البيئي الجغرافي الذي أحدثه الصيد الفوضوي المكثف وانقراض بعض الحيوانات نتجة لكل ذلك تراجعت ثروات بلاد المغرب الغابية والحيوانية، فلم يكن الإنسان وحده المسؤول عن هذا الإخلال بالتوازنات الطبيعية بل أنّ عامل المناخ والكوارث الطبيعية الأخرى كان لها دور أكبر في بعض الأحيان[2].

---

[1] - استعملت القبائل التي تعرضت للغزو والحصار الغابات الوعرة كمخابئ وملاجئ ينظر في:
Hamida Bouloual : quelques tribus de montage de la région du Djebel el Faath, Rabat. -

[2] - التادلي، التشوف، ص 126، هـ 125.

2 - الصيد البري:

لقد شكل الصيد دورا ثانويا في تغذية العامة من الناس، خاصة في البوادي وفي أوقات الشدة وارتفاع أسعار اللحوم، أما الصيد التجاري فقد تطور وتعددت أشكاله خلال العصر الوسيط، بسبب ارتفاع الطلب الداخلي والخارجي على جلود بعض الحيوانات لإدخالها في صناعة الدباغة وغيرها من الإستعمالات.

وتوسع الصيادون في ثلاثة أنواع رئيسية هي اللّمط والفنك والنّعام وهذه الأنواع تتوزع على مناطق إشتهرت بها، كجبال درن وامتداداته جنوبا وشرقا، جبال بني راشد وسفوحها كذلك جبال قبائل كتامة[1] وأيضا الغابات الساحلية المحيطية وسهوب المناطق الداخلية كقهرت وجنوب تلمسان والمسيلة وسطيف وماوراء جبال درن[2] تضاف إلى ذلك مناطق الصيد الترفيهي (تسلية) أو صيد الخاصة الذي كان يتم في مواسم معينة[3] أو حسب أهواء ورغبات السلاطين والأمراء الذين كانوا يزاولونه أثناء أسفارهم، فقد كان يعقوب المنصور الموحدي يسكن صيفا في قصر عبد الكريم ويمارس الصيد، أما إبنه عدنان فكان في سفره يخرج عن الطريق ليقوم بحملات الصيد[4] هذا و لم يكن باقي السادة أبناء عبد المؤمن والولاة أقل ولعًا وممارسة للصيد من رؤسائهم، كما أن بعض الشرائح من الفئة المتوسطة كانت تتبع خطوات هؤلاء الخاصة مما يدل على ذلك ما جاء في كتاب (أنس الفقير وعزُّ الحقير) أن المتصوف أبو هادي يشّو (ت.591هـ/1196م) كان

---

[1] - إبن الخاج، فيض العباب، إعداد وتحقيق بنشقرون، الرباط 1990م، ص225.

[2] - الثادلي، التشوف، ص237.

[3] - الإدريسي، نزهة المشتاق، ص239.

- الحميري، الروض المعطار، ص605.

[4] - إبن مرزوق، المسند الصحيح، الجزائر، 1981م، ص131.

- إبن الخاج، السابق، ص223.

قد اتخذ راحلة تشبه راحلة القادة، وقيطونا، وخباءا وآلة طبخ وكلاب صيد[1] ولم تتحدث المصادر عن الحيوانات المصطادة ولا تذكر أسماءها إلا قليلا الأمر الذي لا يعطي فكرة واضحة عن الحيوانات المنتشرة في المناطق المختلفة من بلاد المغرب، وتركزّ الصيد البري على:

- حيوان اللّمط:

كثر صيد اللّمط في منطقة نول حيث مَوْطنه انتشاره إلى جانب الفنك والنعام، فقد توسع الإدريسي وصاحب الإستبصار في ذكر أعداد هائلة من النعام في جنوب المغرب الأقصى والأوسط[2] واللّمط وهو حيوان يشبه البقر[3] يتم صيده غالبا في فصل الصيف، أي أثناء شدة الحرارة حيث يطارده الصيادون بخيول مدربة فيمسكون به مثله مثل الغزلان والوعول وذلك من شدة حرارة رمال الصحراء فلا يقوى على المشي[4].

وقد برع سكان المنطقة وخاصة القبيلة المنسوبة إلى اللمط في صيده وصناعة الدرق من جلوده واشتهرت مدينة نول لمطة بهذه الصناعة إلى جانب تصديره إلى مناطق أخرى اشتهرت بصناعة الجلود كفاس، وهسكورة وتونس. وأجود هذه الجلود ما كان منها بلونين الأبيض والأسود، وأحسن الدرق اللمطية هي المصنوعة من جلود الإناث المسنات لأن قرونها المعقوفة تطول فلا تترك الفحل يعتوها وبالتالي لا تلد فتبقى في صحة جيدة وجلدها أمتن واستمر صيد هذا الحيوان بشكل كثيف بسبب تزايد الطلب الداخلي والخارجي على الدرق اللمطية طيلة العصر الوسيط إلا أن الإنتاج تناقص أواخر هذا العهد بسبب الإستنزاف الكبير الذي تعرض له، وبسبب ظهور

---

1 - إبن القنفد القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير، الرباط، ط1965م، ص ص 51 - 64.

2 - الإدريسي، نزهة المشتاق، (ط،ب)، ص124؛ - مجهول، الإستبصار، ص103؛ - إبن الخطيب، نفاضة الجراب، ص43.

3 - الوزان، وصف أفريقيا، ج2، ص262.

4 - السابق، نفس الصفحة.

الأسلحة النارية، وقد ورد ذكر اللمط عند الحسن الوزان مقتضبا وحصر موطنه إلى الجنوب من المناطق التي أشارت إليها باقي المصادر مما يفسر أن هذا الحيوان قد تعرض إلى مطاردة السكان الذين عمروا البيئة الأصلية وخاصة العرب[1] الذين تعرضوا هم بدورهم إلى مطاردة وتهجير من قبل الدولة الموحدية تارة، وتارة أخرى من طرف القبائل البربرية المتاخمة لقراهم، التي هاجروا إليها نتيجة الصراعات الداخلية وسياسة التهجير القسري التي اتبعها الموحدون[2].

النعام:

النعام من أضخم الطيور المعروفه اليوم، وقد وصف الإدريسي كثرته، وكثرة بيضه في سهل تامسنا حيث قال:" قبالة قرية تيمنلل فحص طويل، قد انحصرت إليه طيور النعام فهي في أكنافه سارحة وعلى مراقيه دراجة وهي لا تعدُّ ولا تحصى"[3] وينتشر النّعام في شمال الصحراء الكبرى على طول جنوب بلاد المغرب[4] ومنافعه متعددة وسكان المناطق التي إستوطن فيها النعام يارعون في صيده حيث يستعملون لذلك الخيل، كما تتميز لحوم النّعام ببرودتها وصلابتها وشحومها نافعة عندهم من الصمم تقطيرا ومن سائر الأوجاع البدنية[5].

إن هذه الطيور كانت غالية الثمن، فقد أكد البيدق في كتابه "أخبار المهدي بن تومرت" أنّ الوزير المرابطي يُحيى بن قانوا أغرم

---

1 - ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص311.

2 - محمد رزيّ"الصناعة في نص إبن خلدون الإجتماعي" أعمال ندوة إبن خلدون، نشر كلية الآداب، الرباط 1998م، ص ص 277 - 324.

- الحبيب الجنحاني، مجلة دراسات تاريخية العدد8، تونس 1981م، ص ص 50-54.

3 - الإدريسي، نزهة المشتاق، (ط.ب)، ص 237.

- الحميري، الروض المعطار، ص ص(35-46-141-234)

4 - التادلي، التشوف، ص103.

- البادسي، المقصد الشريف، ص140.

5 - السابق، ج3، ص247.

الناس في مدينة أكرسيف وأحوازها مائة مثقال عن ضياع نعامة له[1] الأمر الذي يفيد أن هذه الطّيور كانت صعبة المنال، وأنّ وجودها في منازل الكبار وقصورهم كان يهدف إلى تحقيق الفرجة. وتجارة ريش النعام التي كانت من أهم صادرات بلاد المغرب خاصة الجهة الغربية إلى بلاد الفرنج[2] مما جعل نشاط صيد النعام ينتعش.

الفنك:

هو من فصيلة الثعلب، لكنه أقل حجما يمتاز بفراء جميل يعيش في نفس موطن اللّمط ويعرف بثعلب الصحراء، وقد تعرض للصيد المكثف خلال العصر الوسيط لكثرة الطلب على فرائه الذي كان بين صادرات المغرب إلى المشرق[3] وكانت مدينة نول أهم مركز تجاري لجمع جلوده ومعالجتها، وصيدها الذي كان يتم عن طريق نصب الكمائن والشباك الأمر الذي جعله يتعرض إلى استنزاف كبير[4].

3 - الصيد البحري والنهري:

لقد كانت موانئ البحر الرومي والجزء الشمالي للبحر المحيط من أنشط المراسي، ليس في صيد الأسماك فقط بل أيضا في تصنيفها وتصديرها وبلغ هذا النشاط ازدهارا كبيرا لدرجة أن النقود القديمة حملت كشعار لها السمك والعنب والقمح. لقد تطورت صناعة السمك وصيده منذ الأمم القديمة كالفينيقيين والقرطاجيين والرومان؟ ثم جمدت وعرفت التراجع، وبعد إستقرار الموحدين عادت المراكز والمصايد إلى نشاطها، وتوسع مجال الصيد ليشمل مراكز جديدة.لقد كانت المصايدة

---

[1] - أخبار المهدي، من ص 20-21.

- P.Pascon, la Maison d'illigh,SMER,Rabat 1984,P15.

[2] - النادلي، التشوف، ص133.

[3] - البكري، المغرب، ص171.

- مجهول، الإستبصار، ص123.

[4] - الحميري، الروض المعطار، ص584.

موجودة على طول سواحل بلاد المغرب بأعداد متفاوتة بدليل أن المصادر التاريخية تحدثت عنها أثناء فتح المسليمن لبلاد المغرب فقد تحدث المقدسي[1] عن استخراج المرجان من مرسى مُوسى بجوار سبتة والعنبر وطبرقة من البحر المحيط جنوب المغرب[2] وتحدث الإدريسي عن مصايد الأسماك في نهر المسيله[3] وسواحل تونس[4] وبترت[5] ومصايدة الاسماك في بونة[6] واستخراج المرجان من سواحل أفريقية[7]، وتحدثت المصادر أثناء وصول جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله الفاطمي وهو يقود حملته العسكرية على بلاد المغرب الأوسط والأقصى أنه اصطاد أنواعا من الأسماك بعث بها حية في جرار من الماء إلى إفريقية[8] كدليل على وصوله إلى البحر المحيط وهي إشارة إلى أن المصايدة استمر نشاطها خلال القرن السادس الهجري – الثاني عشر الميلادى.

إن مصادر الفترة الوسيطية خاصة البكري والإدريسي، وصفت لنا بدقة طريقة الصيد، ووفرة الأسماك في البحيرات والأودية[9] كما يشير إلى ذلك صاحب الإستبصار والروض المعطار[10] وإبن أبي زرع الذي

---

1 – أحسن التقاسيم في معرفة الإقليم، ليدن، 1905م، ص238.

2 – السابق، نفس الصفحة.

3 – الإدريسي، نزهة المشتاق، (ط.ب)، ص 86.

4 – البكري، المغرب، ص58.

– مجهول، الإستبصار، ص121.

5 – إبن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص 107.

– مجهول، السابق، نفس الصفحة.

6 – السابق، ص127.

7 – إبن سعيد، السابق، ص108.

8 – الناصري، الإستقصا، ج1، ص199.

9 – البكري، السابق، ص 105.

– الإدريسي، السابق، ص229.

10 – مجهول، السابق، ص 140.

– الحميري، الروض المعطار، ص 141.

– إبن أبي زرع، روض القرطاس ، ص ص 35-36.

أشار إلى عدد أنواع الأسماك المصطادة في وادي فاس ووادي سبو وإلى أهمية الصيد هناك والذي تزود به مدينة فاس ووردت عند ابن الخطيب إشارات عن وفرة الأسماك في مصب وادي اسمير "أبو رقراق" ووادي وانسيفي (أم الربيع)[1]، وبحيرة بترزت و صولا الى ساحل بونة[2] ورغم هذه الاشارات المتعددة فإن تكوين صورة حقيقية عما كان عليه الصيد البحري خلال العصر الوسيط، تبقى ناقصة لاعتمادها على النصوص التاريخية وحدها فمعظم الإشارات الواردة في المصايد لا تبين لنا التطور في الصيد من حيث إتساع رقعته وعدد المصايد إلى نهاية العصر الوسيط[3]، ويمكن أن نستنتج من مختلف هذه الاشارات وجود عاملين تحكما في هذه الوضعية، هما عامل الطلب على الأسماك والإستهلاك الداخلي، فقد كان الطلب والإستهلاك ضعيف في بداية الفترة الوسيطية لقلة السكان عموما، وسكان الحواضر بصفة خاصة، وأيضا لوفرة المواد الفلاحية الأخرى، ثم بعد ذلك جاءت التحولات الإجتماعية خلال العهد الموحدي فتزايد عدد المصايد والصيادين ويعزى إرتفاع مردودية الصّيد إلى إقبال الصيادين على صيد السمك بسبب إرتفاع الطلب الخارجي على بعض أنواع الأسماك وتوسع استهلاكه في الداخل[4].

طرق الصيد:

إن صيد المرجان في مدينة سبتة والمراسي المجاورة على مستوى الجهة الغربية وسواحل إفريقية على مستوى الجهة الشرقية، سمح بظهور صناعته وتسويقه بكميات كبيرة ليس في بلاد المغرب فحسب بل

---

1 - إبن الخطيب، نفاضة الجراب، ص 43.

2 - البكري، السابق، ص33؛ - مجهول، الإستبصار، ص120.

3 - ينظر في ذلك في:- الحسن الوزان ، وصف أفريقيا، ج1، ص (127-234-252-253)، ج2، ص 247.

4 - قال إبن الخطيب في معيار الاختيار، ص 155."...مغارمها أرفق... السمك رخيص ويعم حتى القرى والمداشر النائية.." وأشار الحسن الوزان إلى نفس الملاحظة ينظر: - وصف أفريقيا، ج1، ص (252-253-254).

في البلاد المطلة على البحر الرومي[1]، وتتم عملية صيده بواسطة القوارب وبطريقة خاصة برع فيها أهل المنطقة التي اكتشفوا فيها شجيرات المرجان، ويصف ذلك المقدسي بقوله: "... من خصائص الإقليم المرجان الذي يستخرج من قاع البحر ويخرج الصيادون إلى جمعه في قوارب ومعهم صلبان من خشب وقد لفوا عليها شيئا من الكتان المحلول، وربطوا في كل صليب حبلين يأخذهما رجلان فيرميان بالصليب ويديران القوارب فيتعلق بالقرن ثم يجذبونه"[2] وهذه براعة ودربة في هذا النوع من الصيد لا شك أن مراحل تمهيدية تسبقها في العادة لتحديد أماكن المرجان.

وهناك نوع آخر يتعلق بالصيد حيث عرف سكان بعض المناطق في بلاد المغرب بصيد التنين، الذي تطورت عملية صيده وتسويقه، فهذا الإدريسي يحدثنا عن ذلك قائلا:"وصيدهم له (أي التنين) يكون زرقاً بالرماح وهذه الرماح لها في أسنتها أجنحة بارزة تنشب في التنين ولا تخرج وفي أطراف عصيها شرائط القنب الطوال، وللسكان في ذلك دربة وحكمة سبقوا فيها جميع الصيادين..."[3].

وقد تكونت لدى الصيادين وأصحاب المراكب والشباك تقاليد وأعراف تنظم العلاقة بينهم وتعلمهم كيفية الإستغلال والتسويق[4].

ومن الوسائل الأخرى المستعملة في الصيد، نجد الصنارة والقصبة أو الصنارة والخيط فقط، الشباك والسلاسل، بل وأحيانا حتى بالحجارة واليد المجردة إلا أن اختلاف الوسائل يتبع عادة اختلاف المصايد والمناطق ونوع السمك المراد صيده أو المتوفر في المنطقة. وتبين الوسائل البدائية

---

[1] - إبن سعيد، بسط الأرض، ص 45.

[2] - أحسن التقاسيم في معرفة الإقليم، لبدن، ص 238.

[3] - نزهة المشتاق، ص 229.

[4] - المقري، إزهار الرياض في أخبار عياض، ج1، ص 146.

- إبن سعيد، السابق، ص 47.

عادة أن المنطقة المستعملة فيها حديثة العهد بالصيد. فمثلا يقول الحسن الوزان عن بحيرة الجبل الأخضر "أن الصيد فيها يتم بواسطة الأقمصة المخاطة الأكمام والأعناق، لأن السمك في البحيرة قريب من المحذر بسبب كثرة أرواث البهائم التي تفرغ في البحيرة"[1].

أما المناطق القديمة التي توفر فيها الصيد، فقد تطورت فيها الوسائل لدرجة أن امتلاك الشباك لم يعد في متناول الجميع لتعدد أنواعها وغلاء ثمنها، لذلك كان كراء الشباك من أصحابها واشتراك جماعة من الصيادين لكرائها أو شرائها[2]، وينسحب القول على القوارب فغلاء الأخشاب وتكاليف صناعة القوارب جعلها لا تكون بيد الجميع لذلك وجدت قرى من الصيادين المشتغلين لحساب أرباب الشباك والقوارب ووجدت معاملات يدفع فيها أحد شركاء الشباك مبلغا ماليا والآخر يعمل مقابل النصف أو الخمس أو أقل أو أكثر مما يصطاد حسب الإتفاق، و لم تكن حرفة الصيد سهلة بل كانت تتطلب معرفة بالمناخ وبالبحر وأنواع الاسماك وأوقات خروجها وأنواع المصايد.

وقد كان الصيادون يفرقون بين الصيد الساحلي وصيد أعالي البحار[3] إلى غير ذلك من التقنيات والخبرة التي لم تكن متوفرة للجميع. وقد كانت كميات الأسماك المصطادة في بعض المراسي كبيرة، وأسعار بعض الأنواع كانت دائما مرتفعة بينما عرفت أنواع أخرى بوفرتها ورخصها وقد تتحكم الأسعار والوفرة في مواسم صيد بعض الأنواع[4].

---

1 - وصف افريقيا، ج1، ص127.

2 - الونشريسي، المعيار، ج8، ص189.
- المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض، ص42.
- إبن الخطيب، معيار الإختيار، ص155.

3 - التادلي، التشوف، ص 139.

4 - يشير الإدريسي، إلى أن بعض أنواع السمك وضروب من الحيتان، والحوت لا يكاد يباع ولا يشترى لكثرته وجودته:
- نزهة المشتاق، (ط،ب)، ص239.

إن ذلك لا يعني فائض في الإنتاج. وإشباع الإستهلاك بقدر ما يعني تركز إستهلاك الأسماك في المدن ومحدودية القوى الشرائية وقلة الطلب الخارجي إضافة إلى المعوقات التي تحول دون تصديره طريا ومنها وسائل النقل، وبلاد المغرب تصدّر السمك مجففا ومقددًا، وقد إزدهر هذا التصدير بالنسبة لبعض الأنواع كالتون في العهد الوسيط[1].

ولقد إرتفع الطلب الداخلي على الأسماك لأسباب عديدة منها التراجع في الميدان الزراعي وتربية المواشي وتوالى القحط والمجاعات ولقد أشار ابن الخطيب إلى استهلاك أسماك الرباط في المناطق الداخلية البعيدة عن الساحل[2] ومما يدل ويؤكد على وفرة الأسماك أن أسرة آل العزفي كان دخلها من مبيعات الأسماك مرتفعا[3] وعليه فإن المصايد كانت منتشرة على طول الساحل الغربي نذكر بعضها، مصايد سبتة[4]، مرسى موسى، مرسى قصر عبد الكريم وعلى طول الساحل الغربي من سلا إلى الجنوب خاصة مرسى فضالة[5] ومرسى تونس. بنزرت، وسواحل أفريقيا[6].

والجدير بالاشارة إلى أن أهمية المرسى تعود إلى القرب من المدن الكبرى ذات الإستهلاك الواسع مثل فاس، تلمسان، تونس وغاية كما وجدت بعض المصايد على مستوى الأنهار مثل مصايد نهر المسيلة[7]. ومصايد نهر أبي الرقراق، وتكمن أهمية مصايد الأنهار في أنها قريبة من سكان المدن الداخلية التي يجتهد أهلها في صيد الأسماك

---

1 - الإدريسي، نزهة المشتاق، ج2، ص239.

2 - معيار الاختيار، ص155.

3 - أسرة آل العزفي هي أسرة عريقة ينتمي إليها العالم الفقيه أحمد بن محمد العزفي (ت.601هـ/1205م) استوطنت في مدينة سبتة، وكان بعض أفرادها يتعاطون التجارة ويجوبون البحر الرومي إلى الأندلس ثم يعودون أنظر: المقري، أزهار الرياض، ص 44.

4 - الإدريسي، نزهة المشتاق، ج2، ص 81.

5 - السابق، طبعة د،ص74؛ - التادلي، التشوف، ص423.

6 - إبن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص 144.

7 - الإدريسي، السابق، ص86.

ونقلها عبر مياه الأنهار إلى مدن أخرى لبيعها هناك، كما أن مصايد المدن الساحلية تمتاز بكبر حجمها واتساع نشاطها في ميدان الصيد البحري.

أصناف الأسماك:

تعددت أنواع الأسماك في بلاد المغرب وتتحدث المصادر عن أسماك تفوق المائة نوع في مراسي بعض المدن، ويعد عدم ذكر المصادر التاريخية لأسماء هذه الأنواع إلى المسألة اللغوية، فكثير من الاسماك إما أنها تحمل أسماء لاتينية أو رومانية أو لها اسماء محلية، ومن الاسماء التي ركزت المصادر التاريخية على ذكرها : اللؤلؤ [1] والمرجان[2] والصدف[3] المرجان الاحمر[4]، السلباح[5] والقمرون[6].

ونشير إلى العبارة التي كانت المصادر التاريخية تنهي بها حديثها عن الأسماك بقولها وهناك أنواع أخرى، الأمر الذي يفيد بأن هناك أنواعا لم تكن أسماؤها معروفة.

---

[1] - كان يستخرج من سواحل مليلة، وسبتة وتونس وبونة ينظر المقري ، أزدهار الرياض، ص44.
- إبن حوقل، صورة الارض، ص78.

[2] - المرجان، وجد بشكل وفير في سبتة وبونة، مسالك العمري، مسالك الأبصار، ص79.
- مجهول، الإستبصار، ص127.

[3] - الصدف: يوجد في وادي المسيلة ووادي فاس ووادي مجردة، إبن ابي زرع، روض القرطاس، ص134.

[4] - الحسن الوزان، وصف أفريقيا،ج1، ص127.

[5] - السابق، ج1، ص228.

[6] - السابق، ج1، ص ص 185-130.

الخلاصة:

من خلال ما سبق نستنتج أن المواد المصدرة من المغرب ظلت ترتكز على المواد الفلاحية والمصنوعات المرتبة بها، وهناك مواد توقّف تصديرها وظهرت مواد أخرى فالفراء والبقر والغنم والإبل والحبوب كلها مواد صدرت إلى المشرق في الفترة الوسيطة كما صُدّرت بعض المصنوعات المرتبطة بالفلاحة كالمنسوجات والمصنوعات الجلدية والمرجان والأسماك وقد استمر تصدير الحبوب خلال العصر الوسيط، أما الدواب والمواشي فلم يعد تصديرها إلاّ في أواخر العصر الوسيط عن طريق الإحتكار والتهريب الذي كان يقوم به الجنويون والبندقيون، وغيرهم من العملاء في ضواحي الثغور البحرية، وقد نشط أيضًا تصدير الأسماك في هذه الفترة ونفس الطلب كان على مواد أخرى كالشمع والزيت والجلود والمنسوجات الصوفية.

أما الفراء فقد تضاءل إنتاجه ومن ثم تصديره بسبب تراجع أعداد حيوان الفنك ونفس المصير عرفه الدرق اللمطية ذات الشهرة العالمية والمصنوعة من جلد اللمط فإنها فقدت هذه الشهرة بسبب ظهور الأسلحة النارية.

ومن النتائج الهامة التي ظهرت في الفصل: أن الخشب كان من صادرات المغرب طيلة العصر الوسيط. فقد كان الولاة الأولين المبعوثين من الشرق يرفضون على البربر كلفة دائمة بتزويد الأوراش البحرية لصناعة المراكب وتزويد المدن بما تحتاجه من الأخشاب.

أما بقية المنتوجات الفلاحية فقد كانت تروّج داخليا، واشتهرت بعض الأسواق بتخصص معين، فأغمات، سجلماسة، تامدلت، نول، إيجلي، مراكش وفاس هي أكبر الأسواق التي يتجهز منها إلى الصحراء وبلاد السودان، وتخصصت مدينة بادس في تجارة الأخشاب، ونول

في تجارة جلود الحيوانات المصطادة وجلود الإبل، ومدينة المسيلة في إنتاج الحبوب. وبلاد الجريد عامة في إنتاج التمور، واشتهرت مناطق جنوب تلمسان بتمر فجيج واشتهرت مدن واحوازها بإنتاج القطن كمدينة وادي أم الربيع ووادي تادلا على مستوى الجهة الغربية. ومنطقة مستغانم عند مصب نهر الشلف واشتهرت مدن بإنتاج السكر وسلجلماسة بجودة تمورها وأعنابها ومنسوجاتها الصوفية الرّفيعة واشتهرت المسيلة وفحصى المتيجة بالكتان الذي جعل المنطقة تصدر منسوجاتها إلى جهات مختلفة من البلاد.

صحيح أن المجال الطبيعي لم يتم استغلاله إستغلالا مناسبا في هذه الفترة لكن ذلك لم يشكل إلاّ مرحلة إنتقالية لا يمكن تعميمها على كل العصر الوسيط ولا على كل البلاد إذ لو كانت الحالة كذلك لَمَا تمكّن المغرب من الإكتفاء ذاتيا في مادة الحبوب وتصدير الفائض[1] ولم يكن هذا ممكنا لولا حرص وسياسة الدولة الموحدية في ميدان الفلاحة الذي تفاوتت وفرة إنتاجه من منطقة إلى أخرى، والذي استمر طيلة العصر الوسيط، مع تقطع في بعض فتراته، بسبب التقلبات الطبيعية والثورات السياسية وهكذا فإن وفرة الإنتاج الفلاحي لم تكن وليدة الصدفة أو سخاء الطبيعة كما يخلو للبعض وإنما كان لسياسة الدولة ومجهود الفلاح المغربي الذي استطاع أن يسخّر الطبيعة لفائدته. وبالنّسبة للرّي فإن العصر شهد الموحدي تطورا ملموسا في ميدان الري، فكانت سياسة الدولة تهدف إلى توفير المياه بشكل عام. وسلكوا في ذلك طريقتين أولهما استخراج المياه الجوفية والثانية

[1] - الإدريسي، نزهة المشتاق، (ط،ب)، ص ص 239-240-241.
- مجهول، الإستبصار، ص137.
- الحسن الوزان، وصف أفريقيا، ج1، ص79.
- الونشريسي، المعيار المغرب، ج9، ص ص 114-115.
- التادلي، التشوف، ص 169.

مَـدُّ القنـوات وجلـب الميـاه مـن أمـاكن وجودهـا إلى منـاطق الزراعـة والعمران، فقـد أمـر عبـد المـؤمن بـن علـي بجلـب الميـاه وتزويـد مدينـة مراكش، وسلا والرباط واتبع خلفاؤه نفس السياسة.

وجـدير بالإشـارة إلى أن الموحـدين حـاولوا كـسب الرعيـة بـالتركيز على تخفيف الضريبة وتوحيـد الـضرائب علـى الفلاحـين وغيرهـم بـل ذهبـوا إلى إلغاء بعض أنـواع الـضرائب، فقـد ركـز عبـد المـؤمن علـى مـن هـو في طاعـة الموحـدين "... لا يطلبـون إلاّ بمـا تُوجبُـه الـسُنّة وتطلبـه. ولا يلزمـون مكـسًا ولا مغرمـا ولا قبالـة" وإلتـزم الخلفـاء مـن بعـده بهـذه التوجيهـات و لم يتراجـع الموحـدون عـن هـذه الـسياسة إلاّ بعـد هزيمتـهم العسكرية والسياسية في معركة العقاب سنة (609هـ / 1204م).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثاني

الصناعة في بلاد المغرب

خلال الفترة

515هـ - 595هـ / 1120م - 1199م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تقـــديم:

عرفت بلاد المغرب خلال القرن السادس الهجري – الثاني عشر الميلادي قَفْزة صناعية نوعية، وليس مَرَدُّ ذلك إلى عناية الدولة الموحدية بالنشاط الصناعي فحسب بل يعود الأمر إلى عوامل أولها الأرضية الصناعية التي ورثها الموحدون عن المرابطين، وثانيها سياسة الدولة المتفتحة على العالم الخارجي، وهذا زيادة على إنتشار الوعي الحضاري في مجتمع بلاد المغرب، والذي جسده خلفاء وأمراء الدولة في حِرصهم على توفير الظروف المناسبة للنهوض بالصناعة والحرف إنطلاقا من الإستغلال الأمثل لمصادر الثروة الطبيعية التي تتوفر عليها البلاد.

معلوم أن مجالات الصناعة والحرف خلال الفترة موضوع الدراسة كانت متنوعة تتراوح بين ما هو مرتبط بالمعادن، وما هو مرتبط بالنسيج، والخشب والنبات، والفخار، والتساؤل الرئيسي الذي تجيب عنه الدراسة من خلال هذا الفصل. هو كيف استطاعت الدولة الموحدية خلال نصف قرن من الزمن أن تُحدِثَ هذه النهضة الصّناعية وَتَنالُ التقدير والإعجاب من جهة الأصدقاء والمهابة من جهة الخصوم؟ ثم ما هي سياسة الدولة في تسويق المنتوج الزراعي والحرفي على المستويين الخارجي والداخلي؟

هذه التساؤلات وغيرها هي محاور هذا الفصل الذي يَكشف عن مخزون الثروة الطبيعية التي تزخر بها حواضر وَبوادي بلاد المغرب، ويوضع طريقة الوصول إلى المنتوج الصناعي والحرفي، وكيفية توزيعه لتلبية حاجات السكان.

سياسة الدولة الموحدية في مجال الصناعة:

يبدو من خلال محاولات الموحدين تطوير الحياة الإقتصادية، أن الوعي بضرورة تزامن وتَلازم الأنشطة التجارية والفلاحية والصناعية. كان حاضرا بقوة وبصفة مبكرة، وهو الأمر الذي يُؤكده مؤسّسو الدولة منذ بداية عهدها.

لقد حرص الخليفة عبد المؤمن بن علي على حماية الصناع وسعى إلى توفير ظروف حياتية مناسبة لهم ، تجلى ذلك بوضوح عندما استولى الموحدون على العاصمة مراكش وقضوا على المرابطين وفي هذا السياق يقول إبن الأثير:" لما فتح عبد المؤمن بن علي مراكش أقام بها واستوطنها واستقر ملكه، ولما حاصر أهل مراكش أكثر فيهم القتل إذ إختفى كثير من أهلها وَبعد سبعة أيام أمر فَنُودِيَ بأمان على من بقي من أهلها فخرجوا فأراد أصحابه المصامدة قتلهم فمنعهم وقال:" هؤلاء الصّناع وأهل الأسواق ممن ننتفع بهم فتركوا وأمر باخراج القتلى فأخرجوهم"[1].

مما يؤكد أن حماية الصناع كانت سياسة متبعة، أن عبد المؤمن بن علي جرّد حملة عسكرية لمحاربة قبيلة مكناسة على إثر إقبال رجالها على قتل الفحّامين في جبلهم وعقابهم بكل قسوة[2]. وسار على نفس السياسة الخليفة الثاني يوسف بن عبد المؤمن إذ قام بحملتين قادهما بنفسه على قبيلة صنهاجة الجبل وأهل السوس لّما اعتدوا على عُمَّال في المنطقتين[3]، وبنى قصرا على مقربة من مكان التعدين في زنجدَر بالسوس الأدنى ليسكن به الصّناع[4].

---

[1] - إبن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص 301.

[2] - البيدق، أخبار المهدي، ص ص 122-123.

- موسى عز الدين، النشاط الإقتصادي في المغرب، ص210.

[3] - البيدق، السابق، ص ص 123- 128.

[4] - إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص 139.

لقد ورث الموحدون توجها فاترا نحو النشاط الإقتصادي في بلاد المغرب، وإدراكا منهم بضرورة مواكبة الصناعة للنشاط التجاري، والإزدهار الفلاحي، عمدوا إلى إزالة أعباء الضرائب، فحسنوا من أسلوب تحصيلها، وَخَفّضُوا من ثُقلها، إذ ربطوها بمقدار دخل الصناع[1] وإلزام مستخرجي المعادن بدفع خمس قيمة المادة المستخرجة [2].

ومن أجل متابعة أحوال الصّناع، ومعالجة المستجدات التي يمكن أن تحدث خصّص الخليفة يعقوب المنصور مَجْلسًا يجمع فيه بأصحاب الصناعات والحرف، مرتين كل شهر، يستمع فيه إلى آراء الصناع والحرفيين[3].

وضمانا لتنفيذ تلك السياسة عيّن الموحدون قاضيا على كل معدن وكان القاضي أبا عبد الله الرّعيني (ت 591هـ - 1196م) قد تولى قضاء معدن عوام الذي تستخرج مادته من ضواحي مدينة فاس[4] وَقَصْد العدالة والمساواة في فرض الضرائب والتدقيق في مستحقاتها، قام عبد المؤمن بن علي بإجراء مسح عام للبلاد الشرقية والغربية[5].

إستقدام المهندسين والخبراء والفنيين:

من العوامل التي وضعها المرابطون ومن بعدهم الموحدون بهدف تطوير الصناعة، إستقدام الخبراء والفنيين في مختلف مجالات الصناعة فقد إستقدم الموحدون الصّناع المهرة إلى العاصمة مراكش، وغيرها من المدن الكبرى، ومن الأمثلة على ذلك استقدام الخليفة عبد المؤمن

---

1 - إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص 24.

2 - المراكشي، المعجب، ص 285.

- موسى عز الدين، النشاط الإقتصادي في المغرب، ص211.

3 - إبن أبي زرع، السابق، ص ص 25-26.

- إبن الأبار، التكملة، ج2، ص 560.

4 - إبن الأبار، السابق، ج2، ص 560.

5 - رسائل موحدية، جمع وتحقيق ليفي بروفسال، الرباط 1941م، ص 97.

- موسى عز الدين، النشاط الإقتصادي في المغرب، ص212.

بن علي المهندس المعماري الحاج يعيش المالقي والمهندس إبن باسة وهُما من أولئك الذين قاموا بتشييد مدينة جبل طارق بأمر من الخليفة[1].

وفي نفس المجال إستفاد الموحدون من خدمات المهندس الكبير أبو جعفر أحمد بن حسان القاضي (ت 598هـ / 1203م) الذي شيّد المسجد الأعظم بالرباط خلال عهد الخليفة يعقوب المنصور[2].

وهكذا اتسع نطاق العمران وأمتدت آثار الحضارة الأندلسية إلى جميع فئات السكان بنسب مختلفة[3]، وتمكن حرفيو الصناعة المغاربة من إستيعاب الخبرة الصناعية في العصر الموحدي، فقد توقف بعض المهندسين المغربيين في ميادين معينة، نذكر من بينهم على سبيل المثال السيّد أبا الحسن علي بن يوسف بن عبد المؤمن الخبير في البناء وجرّ المياه[4]، وفي نفس التخصص نبغ أبو علي المراكشي الذي ألّف كتابا في القطوع المخروطة[5].

ومن العوامل المباشرة التي شجعت الصناعة في الفترة التاريخية لموضوع الدراسة، هي سياسة الدولة الموحدية التوسعية، الأمر الذي أدى إلى إزدياد الحاجة إلى الصناعة العسكرية، المتمثلة في مدّ القناطر لتجوز عليها العساكر[6]، وصناعة الآلات الحربية والمجانيق والبارود والدبابات[7].

---

[1] - إبن صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، ص ص 139-306-481.
- السلاوي، الإستقصاء، ج2، ص 128.
- المقري، نفح الطيب، ج3، ص153.

[2] - عبد الله علي علام، الدولة الموحدية، ص 369.

[3] - القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص ص 112-113.
- المقري، نفح الطيب، ج3، ص 153.

[4] - محمد المنوني، العلوم والآداب، ص106.

[5] - السابق، نفس الصفحة.

[6] - مجهول، الإستبصار، ص 300.
- المراكشي، المعجب، ص 240.

[7] - رسائل موحدية، مجموعة جديدة، ج2، أحمد العزاوي، ص 204.
- يوسف اشباخ، تاريخ الأندلس، ج2، ص 58.

وطبيعي أن يرافق التوسع العسكري توسع عمراني الذي يدفع إلى تراكم المال وتنوع أدوات الزينة والزخرف. ويزداد الإقبال على الأسواق لاقتناء ما جادت به أيدي الحرفيين في كل مجال فتخصصت أسواق بكاملها بصناعة واحدة مثل أسواق الشواشية وأسواق العطارين، وأسواق الدباغين وأسواق السيوف وغير ذلك.

*** المناجم والصناعة المعدنية:**

عرفت بلاد المغرب خلال العصر الوسيط عدة مناجم لمعادن مختلفة ساهمت بشكل كبير في إنعاش الحياة الإقتصادية، فقد دلت الآثار والشواهد المختلفة على تلك الفترة المتمثلة في الكهوف والمغارات المنتشرة في نواحي مختلفة من مناطق البلاد المغربية على الأهمية التي كانت تكتسيها المعادن والصناعة المعدنية، وتعود جذور بعض الحرف التي نراها في الوقت الحاضر إلى كثير من الأسر التي كانت تزاول تلك الحرف اليدوية في مجالات مختلفة حسب ما تصرح به زاعمة أنها موروثة عن أسلافها الغابرين.

وقد تناولت جل المصادر الوسيطية مختلف المناطق في الفترة الممتدة بين القرن الرابع والسادس الهجريين – العاشر والثاني عشر الميلاديين، ورغم ما يعتري كلامها من قصور، فإنها على العموم توحي بأن البلاد كانت عبارة عن مستودع للمعادن، ولهذه الأهمية فقد أولت كل الأنظمة الحاكمة التي تعاقبت على حكم المغرب عناية فائقة بمعادن المناطق ومن ذلك مثلا ما قام به أبو يعقوب المنصور الموحدي (580هـ - 595هـ / 1185م - 1199م) من تجهيز حملة عسكرية على منطقة السوس الأقصى لحماية معادنها من سيطرة المتمردين[1].

[1] – إبن عذاري، البيان، قسم الموحدين، تحقيق زنيبر وآخرين، الدار البيضاء 1985م، ص 147.

1 - مناجم الحديد:

يتسم الكلام عن مناجم الحديد في المصادر التاريخية - الإجتماعية بنوع من الشح وفي البعض الآخر بالعموم والتلميح، خاصة خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين، وقد يعود السبب في ذلك إلى عدم إستقرار المنطقة، فبإستثناء منطقة بجاية التي وجد بها معدن الحديد بكثرة[1] إلى جانب مدينة الأربُس[2]، وأشار البكري إلى وجود مناجم الحديد والصناعات الحديدية في جهة مدينة بونة التي كان مرفأها يستقبل ويصدّر العديد من المواد الأولية مثل الخشب والمرجان والمعادن[3].

أما على مستوى الجهة الغربية، فقد أشار البكري أيضا إلى منجم الحديد وحدّد موضعه على الطريق الواصل بين درعة والسودان في جبل يُسميه " أزال "[4]، والإدريسي الذي قال:" إن الرجل السوسي لا يمشي إلاّ وفي يده رمحان قصار العصي طوال الأسنان رقاقها ويتخذونها من أطيب الحديد"[5].

2- مناجم النحاس:

أغلب مناجم النحاس كانت تتوزع في الجهة الشرقية للبلاد المغرب، وكانت حرفة النحاس قديمة تعود إلى الفترة الغينية، وقد شهدت

---

[1] - أشار كل من الإدريسي والحميري إلى وجود مناجم الحديد ببجاية وهو من النوع الطيب.
- نزهة المشتاق (د)، ص ص 90-92.
- الحميري، الروض المعطار ، ص 81.
- مجهول، الإستبصار، ص 129.
- عز الدين موسى، النشاط الإقتصادي في المغرب، ص 245.

[2] - الأربس: مدينة تبعد عن القيروان بمسيرة ثلاثة أيام، وبينها وبين مدينة باجة مرحلتان وُجد بها معدن الحديد بكثرة ومنها كان يصدر إلى المدن المجاورة.
- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 86.
- الحميري، الروض المعطار، ص 24.

[3] - البكري، المغرب، ص ص 54-55.

[4] - السابق، ص 169.

[5] - السابق، ص ص 78-79.

انتعاشة كبيرة طوال الفترة الوسيطية عدا فترة الثورات العربية الهلالية ضد بن زيري والموحدين من بعدهم حيث أهملت معظم مناجم المعادن[1].

فقد كانت جبال كثامة تغطي حاجات المنطقة من النحاس[2] وكذلك أشار البكري إلى وجوده في مدينة تلمسان[3] كما وُجدت معادن النحاس في مناطق تونس والقيروان وصفاقس[4]، وقد حاول الموحدون توفير أسباب إعادة النشاط إلى مثل هذه المناجم لكن ذلك لم يحصل بصفة كافية إلاّ بعد إستقرار الحفصيين بتونس[5].

أما على مستوى الجهة الغربية فقد كانت المناجم النحاسية تتركز بالأطلس الصغير.

وقد أشار المراكشي إلى وجود منجمين للنحاس بالمنطقة بقوله: " وبسوس أيضا معدنان من النحاس ومعدن التوسَيا"[6]. ويستنتج من خلال ما قاله صاحب الإستبصار[7] إن أحد المنجمين يوجد بمنطقة تُسمى إيكلي[8].

---

1 - (l) Golvin, « Note sur l'industrie du cuivre en Occident Musulman au Moyen âge » in (c.l.o.s) Université Aix-en-Provence 1973, p p117-121.

2 - الإدريسي، نزهة المشتاق، (ط.د)، ص ص 116-117-118.

3 - البكري، المغرب، ص 130.

4 - إبن سعيد، كتاب الجغرافية، ص 142.

5 - المراكشي، المعجب، ص 352.

- (l) Golvin, op.cit, p129.

6 - السابق، ص 224.

7 - مجهول، الإستبصار، ص 234.

- الحميري، الروض المعطار، ص71.

8 - إيكلي: هي قاعدة بلاد السوس الأقصى، وهي مدينة كبيرة يعمل بها النحاس المسبوك ويتجهز به إلى السودان.

- الحميري، السابق، نفس الصفحة.

واشتهرت مدينة الدّاي[1] بوجود منجم للنحاس الخالص الذي لا يعدله غيره من النحاس في أقطار الأرض[2]، وإلى جانب ذلك وُجد منجم للنحاس في مدينة أغمات وريكه وامتاز نحاسها باللون الأحمر والملوّن[3].

3- مناجم الذهب:

كانت بجاية مدينة تمثل النهضة الصناعية التي عرفتها الجهة الشرقية وذلك إلى غاية نهاية النّصف الأول من القرن السّادس الهجري- الثاني عشر الميلادي حيث فقدت ريادتها بسبب الإضطرابات السياسية التي رافقت توسع الموحدين نحو الجهة الشرقية[4]، لكنها سرعان ما تعافت واستعادت مكانتها إلى جانب تونس، ومدينة قفصة التي قصدها التجار لجودة ذهبها[5] الذي كان يُصدّر إلى المغربين الأوسط والأقصى وإلى مصر، وليس من المستبعد أن تكون للأوروبيين إمكانية التجار يلتقون بهم مباشرة في بجاية نفسها[6].

رغم إشارات عدد من النصوص التاريخية إلى توفرّ بلاد المغرب على معدن الذهب وخاصة بمنطقة سوس قريبا من مدينة تامدولت حسب رواية اليعقوبي[7] أو بين تازرارت وبلاد السودان كما أشار

---

[1] - الداي: مدينة بأرض المغرب الأقصى بينها وبين أغمات أربعة أيام، وهي قريبة من تادلا.
- الحميري، الروض المعطار، ص 231.

[2] - الإدريسي، السابق، (ط،د)، ص ص 74-75.

[3] - مجهول، الإستبصار، ص207.
- إبن القطان، نظم الجمان، ص 116.
- الحميري، السابق، ص46.

[4] - مجهول، السابق، ص 153.
- عز الدين موسى، النشاط الإقتصادي في المغرب، ص 250.

[5] - (P) Masson, Histoire des établissements et du commerce, Paris 1903, pp 309-313.

[6] - (T.H) MaGGill, An account of Tunis of its Government Manners Customs and antiquities especially production Manufacture and commerce, London 1811, p p 320-325.

[7] - كتاب البلدان، ص 359.

إلى ذلك المقدسي[1] أو بعض المناطق القريبة من تلمسان حسب رواية البكري[2]، إلاّ أن الذهب السوداني ظل هو المصدر الفعلي فيما شهدته بلاد المغرب – خاصة منذ العصر المرابطي إلى نهاية فترة موضوع الدراسة – من ثراء نقدي، وهذا الذهب الإفريقي الذي كان يستخرج من مناجم غلام والبامبوك[3]، كان يحصل عليه التجار المغاربة مقابل بعض المواد التجارية التي كانت تحملها القوافل من الشمال الإفريقي، حيث كانوا يستبدلونها بمواد سودانية كالرقيق والصمغ والعاج وغيرها من المواد إلى جانب الذهب الذي كان يعتبر الأهم على الإطلاق[4].

لقد تمكنت بلاد المغرب وخاصة الجهة الغربية بحكم موقعها الجغرافي في المتميز من توفير الأمن حيث كانت تعتبر منطقة عبور القوافل التجارية العابرة للصحراء وبذلك أصبحت أكبر مستفيد من الذهب السوداني لأن الذهب الذي كانت تحصل عليه، لم تكن تعيده إلى موطنه الأصلي على شكل قطع نقدية، وَلأن المبادلات التجارية بين بلاد المغرب والممالك السودانية في غرب أفريقية لم تكن تعتمد على الوساطة النقدية وإنما كانت تعتمد على نظام المقايضة[5] وهكذا أصبحت كثير من المراكز المغربية المتاخمة للصحراء، مثل لمطة وسجلماسة، أسواقا مهمة لتجارة الذهب[6] وسعت أغلب الأسر الحاكمة التي تولت حكم البلاد للسيطرة على هذه المنافذ[7].

---

[1] – أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ليدن، هولندا 1906م، ص231.

[2] – كتاب المغرب، ص 118.

[3] – (Raymond) Mauny, « Tableau géographique de l'ouest africain au Moyen âge », IFAN, N° 61, 1961, p 300.

[4] – Jean Devisse, « les routes de commerce », p 49.

[5] – موريس لومبار، الإسلام في عظمته الأولى، ترجمة ياسين الحافظ، دار الطليعة، بيروت 1977م، ص 96.

[6] – Rosemberger, Tamdult, op. cit, p p 123-126.

[7] – ibid, p 127.

4 - مناجم الفضة:

تدل الآثار العديدة المختلفة عن الإستغلالات المنجمية القديمة التي كان يتمتع بها الإقتصاد المعدني في بلاد المغرب منذ أقدم العصور[1] وهذه متوفرة أكثر في الأقاليم الجنوبية، حيث ظلت معادن الفضة من أهم المعادن المستخرجة، وقد إتسع نطاق إستثمارها وحظيت باهتمام خاص من قبل الخلفاء الموحدين[2] لارتباط معدن الفضة بالمجال النقدي.

- منجم تادمولت:

تحدث البكري عن معدن الفضة بمنطقة تامدولت ووصف ذلك بغزارة المادة وغناها بذلك المعدن، ويعتبر غنى هذه المناجم الفضية من بين العوامل المباشرة التي ساعدت على ازدهار مدينة تامدولت[3]، وتعود نشأتها التي كانت خلال منتصف القرن التاسع الميلادي إلى وجود هذه المناجم.

وأشير إلى أن هذه المنطقة عرفت نشاطا اقتصاديا مُهمّا خلال العهد الموحدي ولا شك أن الموحدين قد اعتنوا بهذه المناجم عناية كبيرة وعملوا على استخراج معادنها خاصة إذ علمنا أن خلفاءهم كان لهم إعتناء كبير بهذه الصناعة[4].

ويبدو أن الإنتاج قد ظل مستمرا بهذه المناجم حتى بعد عهد الموحدين حيث أن أحد المصادر التي عاش مُؤَلّفه في بداية القرن 14م[5] تشير إلى وجودها مما يدل على استمرار استغلالها حتى ذلك

---

[1] - مجهول، الإستبصار، ص 207.
- إبن القطان، نظم الجمان، ص 116.

[2] - إبن عذاري، البيان المغرب (قسم الموحدين)، ص 147.
- إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص 212.

[3] - كتاب المغرب، ص 163.

[4] - محمد المنوني، حضارة الموحدين، ص 174.

[5] - الوطواط محمد بن إبراهيم بن يحيى، مباهج الفكر ومناهج العبر، تحقيق Frangnan، ص ص 46-47 نقلا عن:
Tamdup Rosemberger, p106.

العهد، غير أنه بعد هذه الفترة لا نجد إشارات تتحدث عن هذه المناجم ولا عن المدينة نفسها وهو ما يمكن إعتباره مؤشرا على توقف نشاطها.

- منجم جبل عوام:

توجد هذه المناجم على بعد حوالي مائة وعشرين كيلومتر جنوب مدينة مكناس[1] وتعتبر هذه المناجم من أكبر الإستغلالات المنجمية التي عرفتها بلاد المغرب خلال المرحلة الوسيطية[2]، وإذا كان تاريخ بداية استغلالها، يحتمل أنه يعود إلى عهد الأدارسة، فإن هذه المناجم لم يتم استغلالها بشكل واسع، إلاّ خلال القرنين السادس والسابع الهجريين - الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، أي إبان الحكم الموحدي[3] وقد أشار إلى هذا المنجم كثير من الجغرافيين أمثال إبن سعيد المغربي[4] وصاحب الاستبصار[5] والمراكشي[6] مما يدل على شهرته.

ويلاحظ أن الموحدين قد اعتنوا عناية هامة بمعدن عوام ونصبوا في جهته قاضيا كان يعرف بقاضي المعدن[7] الأمر الذي مكّنهم من الحصول على كميات مهمة من معدن الفضة.

- منجم زجندر:

يقع هذا المنجم على إرتفاع 2000م بجبل سيروا، قريبا من المنطقة المعروفة بأسْكاون[8] ويعتبر من بين أكبر مناجم الفضة التي تمّ

---

1 - Rosemberger (B), « Autour d'une grande mine d'rgent du moyen âge Marocain », le Djebel, Aouan, Hesperis-Tamuda, v, 1964,p18.

2 - ibid, p71.

3 - ibid, p76.

4 - بسط الأرض، تحقيق حوان قرنيط خنيس، مُولاي الحسن، تطوان 1959م، ص 75.

5 - المجهول، ص 85.

6 - المعجب، ص 410.

7 - إبن عذاري، البيان المغرب (قسم الموحدين)، ص 158.

8 - Rosemberger (B), «les vieilles exploitations », p82.

استغلالها بالمغرب قبل مجيء الموحدين[1] وقد تحدثت عنه كثير من النصوص حيث أشار كل من المراكشي[2] وابن سعيد المغربي[3] وابن عذاري[4].

وقد أولى الموحدون عناية بالغة لهذا المعدن، وتتمثل هذه الأهمية فيما قام به أبو يعقوب سنة (578هـ / 1182م) عندما جهّز حملة إلى بلاد السوس بقيادته لحماية معادنها من سيطرة المتمردين وقد أشار إلى ذلك إبن عذاري بقوله:" كمَا صحّ عند أمير المؤمنين (أبي يعقوب يوسف) أن المعدن الذي بجبل السوس على مقربة من بلاد هرغة قد أخرج منه شيئاً" ولم يعهد في قديم الزمان، وظهر أهل هذا الجبل بما تحصل في أيديهم منه وأغتصبوه لأنفسهم دون حق منه للخليفة فعسكر في أول صَفَر من سنة (578هـ / 1182م) وخرج من حضرة مراكش لتحصينه وتحصيله فوصل إلى المعدن المذكور فنظر الخليفة في بناء حصن عليه وأسكنه بالأجناد واستعد لتحصينه غاية الاستعداد[5].

ويمكن أن نستنتج من هذه الإشارة، الأهمية البالغة التي كان يُوليها الخلفاء الموحدون لمادة الفضة التي كان لها إرتباط بالميدان النقدي وحمايتها ممّا استدعى إقامة حِصن عليها وتدعيمها بحرس من الجيش في عهد يوسف بن علي كما نستنتج منها كذلك ارتفاع حجم الفضة المستخرجة من هذا المنجم ابتداء من عهد الخليفة يوسف بن علي وهذا ما يؤثر إيجابيا على وضعية دور السكة بالمغرب خلال العصر الموحدي، وينعكس بالتالي على كمية النقود الموضوعة رهن التداول[6].

---

1 - Rosemberger(B), op. cit, p83.

2 - المعجب، ص ص 509-510.

3 - بسط الأرض، ص 75.

4 - البيان المغرب (قسم الموحدين)، ص 147.

5 - السابق، نفس الصفحة.

6 - Rosemberger(B), op. cit, p85.

* الصناعة المعدنية:

إن النهضة الزراعية التي قامت في العصر الموحدي كانت من العوامل التي ساعدت على قيام صناعات جديدة خاصة وأن الدولة كانت بحاجة إلى صناعات حربية، ونهضة عمرانية الأمر الذي أدى إلى البحث عمّا احتاجه الترف الذي دبّ في حياة الموحدين من متطلبات، لقد ازدهرت الصناعات في العصر الموحدي، خاصة وأن المعادن المكتشفة قد ساعدت على مضاعفة الإنتاج.

1 - صناعة الحديد:

إن الاستعمال المكثف لمناجم الحديد في سبتة ووهران، وبالقرب من مراكش وكذلك ببجاية[1] كان نتيجة لتحسّن الطرق التقنية لمعالجة المناجم وتخليصها مما يشوبها من الأدران[2]، وزيادة على المنتوج المغربي فإن التجار قد استوردوه بكميات ضخمة إلى جانب ما استوردته الدولة نفسها[3] سواء بالنسبة إلى المعدن الخام أو الحديد الخالص المطرق ومن ثمّ قام الحرفيون الصناعيون بتحويله إلى :

- أدوات حربية:

إستجابة لسياسة الدولة التوسعية، الأمر الذي ساهم في تطوّر الصناعة الحربية، فكثرت دور صناعة السيوف والخوذات والدروع وهكذا فإن الموحدين ضاعفوا من إنتاجها في كل حاضرة إقليم[4]، فقد قال ابن أبي زرع أنه كان يُضرِبُ لعبد المؤمن بن علي كل يوم عشرة قناطير

---

[1] - المراكشي، المعجب، طبعة القاهرة 1949م، ص 362.

[2] - إن الطريقة المتبعة في معالجة معدن الحديد تتمثل في دهن المعدن المستخرج بالزيت فتتشبع جزئيات المعدن وتخفف وتصير هي المحمولة من تيار الماء وترسب المواد الترابية عند المصب:

cl. Cahen, le commerce dans le Monde Musulman, à son apogée, F.G.E.L. 1966, p14.

[3] - ibid, p p16-20.

[4] - عز الدين موسى، تنظيمات الموحدين، ص ص 382-383.

من الأسلحة في عواصم أقاليم بلاد المغرب[1]، وامتاز رجال السوس بالمغرب الأقصى بحمل رُمحَين مصنوعين من أخلص أنواع الحديد[2]، ولقد استمر تطور الصناعة الحديدية الحربية ليصل إلى صناعة القناطر التي يستعملها الجيوش الموحدية أثناء العبور، حيث يتم تطعيم المصنوعات الخشبية بأعمدة وعِصِيّ حديدية طويلة تُصْلَبُ عليها الألواح والفُرش[3].

واستعمل الموحدون المنجنيق التي ترمي كرات حديدية ملتهبة تَدُكُّ بها الحصون[4].

ومن الصناعات الحديدية الحربية صناعة البارود، حيث شاع استعمال آلات تقذف كرات حديدية ملتهبة بواسطة البارود[5].

- أدوات فلاحية:

السّكة واحدة من الأدوات الفلاحية الحديدية التي انتشر استعمالها في المحارث الخشبية بسبب ازدهار صناعة التعدين خلال العهد الموحدي من جهة والحاجة الماسة إلى الحديد في مختلف الأغراض ، حيث تركزت صناعة الأدوات الفلاحية الحديدية في أيدي الحدادين[6] الذين يطوفون في مختلف الجهات لعرض خدماتهم ومصنوعاتهم.

بالإضافة إلى صنع سكة المحراث الخشبي الحديدية، كانت أيضا صناعة المنجل[7]، وفي ميدان البستنة استعملت أدوات حديدية كالفأس،

---

1 - روض القرطاس، ص ص 131-136-202.

2 - الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ص 78-79.

3 - المراكشي، المعجب، ص 240.

- يوسف اشباخ، تاريخ الأندلس، ج2، ص 254.

4 - إبن أبي زرع، الروض القرطاس، ص 156.

- رسائل موحدية، ج2، ص ص 105-107، 204-205.

5 - يوسف اشباخ، تاريخ الأندلس، ج2، ص ص 57-59.

6 - Roger Grand : l'agriculture à travers les âges, T3, Paris 1950, p 272.

7 - التادلي، التشوف، تحقيق أحمد التوفيق الرباط 1984م، ص 414.

المعول والقادوم لجني المحصول مثل المنجل والمقص أو المزبرة وتعرف أيضا بإسم الحديدة لقطف بعض الفواكه وتقليم الأشجار أو بِقطع القضبان وتهيئتها للغرس.

ويفهم من إشارات أوردها الحسن الوزان أن مناجم الحديد كانت لا تكفي حاجيات السكان نظرا لقلة عددها وكثرة إستعمال الحديد في مجالات مختلفة ولقد أصبح الحديد في بعض جهات بلاد المغرب عُملة للتداول وحُلي تتزين بها النساء[1]، ومع أن الحسن الوزان متأخر عن فترة الدراسة إلاّ أن المعلومة لها دلالتها مادامت تتعلق بالمعادن الغير قابلة للتلف بفعل العوامل الطبيعية.

وخاصة إذا علمنا أن مجال إستعمال الأدوات الحديدية توسع إلى خارج ميداني الصناعة المعدنية الحربية والفلاحية ليشمل صناعة السفن، والأقفال الكبيرة[2] لأبواب المدن، الحصون وأبواب المساجد كما دخلت الأدوات الحديدية في صناعة السّروج والأجمة لتسهيل قيادة الخيول وكذلك بعض الأدوات المترلية[3].

2 - صناعة النحاس:

تدخل صناعة النحاس في مجال خدمة المعادن، واحتلت صناعة الأواني النحاسية مكانة مرموقة، إذ تُعد من الحرف الأصلية بجُلّ الحواضر المغربية، وهي ذات إشعاع داخلي وخارجي ولا تزال إلى اليوم تحتل مكانة هامة[4].

لقد كانت بعض مدن الجهة الشرقية تزخر بصناعة النحاس قبل أن تتوسع دائرة الحرب بين الموحدين من جهة والقبائل الهلالية

---

[1] - الحسن الوزان، وصف أفريقيا، ج1، ص ص (88-95، 129-146).

[2] - (Dozy) :supplement aux dictionnaires arabes 2T, paris leide 1927, pp 109-123.

[3] - السبتي، إختصار الأخبار، ص 105.

[4] - Golvin « L » Not sur l'industrie du cuivre en occident Musulman au Moyen age in c.l.o.s. université aix en provence 1973, p p 117-126.

المتحالفة مع بني غانية والأغزاز الترك ونذكر من بين هذه المدن مدينة تونس التي ظهرت فيها صناعة النحاس مبكرا، وراجت تجارته لدرجة أنه خصص له سوق خاصة عُرفت بسوق الصّفارين (النحاسين)[1]، وكانت مصانع النحاس تنتج الأواني والأدوات النحاسية بمختلف أنواعها[2] كما عرفت مدينة بجاية صناعة أدوات النحاس الموجهة إلى أصحاب الجاه والسلطان والأثرياء لإستعمالها في تجميل الموائد، والجدران وأواني الشراب[3]، وانتقلت هذه الصناعة إلى مدينة لَبْدَة[4].

وأشير أيضا إلى أن مدينتي تاهرت وتلمسان عرفتا صناعة النحاس وراجت تجارته في أسواقهما لأنهما كانتا ملتقى تجار المغرب الأقصى وتجار الصّحراء[5] وكانت المواد النحاسية متبادلة بين أفريقية ومراكز التجارة العالمية[6].

هذا على مستوى الجهة الشرقية التي كانت مسرحا لأحداث عسكرية حالت دون إزدهارها وتوسع صناعة النحاس في مدن أخرى أما على المستوى الجهة الغربية فقد كانت مدنها الكبرى تضم عدّة دُور لصناعة النحاس تطورت خاصة في العهد الموحدي مثل مراكش التي وصفها ابن فضل الله العمري بقوله:"مراكش حاضرة بلاد المغرب وأعظم مدن الدنيا بهجة وجمالا، عمايرها جليلة ومصانعها عظيمة"[7]، وإلى جانب مراكش كانت مدينة فاس مركزا

---

[1] - الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص117.

[2] - إبن مامي محمد الباجي، أسواق مدينة تونس، مجلة افريقية، سلسلة الفنون والتقاليد الشعبية، عدد12، المعهد الوطني للتراث، تونس 1958م، ص ص 69-80.

[3] - السابق، ص 82.

[4] - لبدة: مدينة قديمة بناحية طرابلس. ينظر: - الإدريسي، نزهة المشتاق (د.ب)، ص ص 129-97.

- اليعقوبي، معجم البلدان، ص 316.

[5] - الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 258.

[6] - L'ombard (M),le bois en Méditerranée, un problème cartographie III, XI siècle, 1959, pp 230.

[7] - مسالك الأبصار، السفر12، ص 86.

- محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين، مطبعة لجنة التأليف والنشر والترجمة، القاهرة 1964م، ص 420.

للصناعات المعدنية إذ بلغ عدد دور سكّ النحاس فيها خلال عهد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أزيد من إثنتي عشرة دارًا[1].

وإذا اتجهنا نحو الحدّ الشرقي لصحراء قبيلة لمتونة حيث منطقة السوس الأقصى[2] نجد مناجم النحاس منتشرة وتمول المصانع التي يطرق فيها النحاس بعد تصفيته من الشوائب، وأهم مدنه التي يُصنع فيها النحاس مدينة إيكلي[3]، سجلماسة، تاقرسيت ومدينة تارودانت، من هذه البلاد يجلب النحاس ومنها يخرج تجار العبيد والذهب حيث يدخلون إلى بلاد جناوة وغانة والحبشة.

ويعتبر جنوب المغرب الأقصى مستودعا كبيرا للنحاس الخام أو المصنوع على حدّ سواء فقد وصف الإدريسي مدينة أغمات بقوله: " أغمات أهلها هُوّارة يدخلون بلاد السودان بأعداد الجمال الحاملة لقناطير الأموال من النحاس الأحمر والملوّن "[4].

ويصف المراكشي حرفيي السوس بقوله: " كانت أغلب الأواني التي يستخدمها سكان بلاد السوس الأقصى في حياتهم اليومية من معدن النحاس الأحمر "[5].

---

[1] - المراكشي، المعجب، ص 362.
- إبن أبي زرع، الروض، ص 160.

[2] - منطقة السوس الأقصى تمتد من الحدود الشرقية للصحراء المتصلة ببلاد لمتونة إلى الصحراء التي تتصل ببلاد زناتة في الجنوب وحده من الغرب البحر المحيط وحده في الشمال جبال درن.
- الحميري، الروض المعطار، ص 71.

[3] - إيكلي: هي قاعدة بلاد السوس الأقصى، يتجهز منها إلى بلاد السودان.
- السابق، ص ص 71-72.

[4] - نزهة المشتاق، ج1، ص ص (231، 66-67).
- الحميري، الروض المعطار، ص 46.
- مجهول، الإستبصار، ص 207.

[5] - آفا عمر، مسألة النقود في تاريخ المغرب، ديبلوم دراسات عليا، أكادير 1989م، ص 119.

ويعود السبب في ذلك لتوفر جبالهم على عدة مناجم هامة زيادة على كوْن المغرب الأقصى مركز السلطان السياسي الذي نقل الصناعات الجديدة إلى المدن الكبرى لتشجيع الحرفيين المغربيين والخبراء الأندلسيين الذين استقدمتهم الدولة.

3 - صناعة النقود:

لم ينطلق الموحدون في تأسيس دور سك النقود الذهبية والفضية من فراغ بل استفادوا من الدّور التي كانت خلال عهد المرابطين ودعّموا الصناعة النقدية بالخبرة المرابطية، فقد ورث الموحدون دُور سك الدينار الذهبي المرابطي في كل من نول لمطة، أغمات، مراكش فاس، الوليجة (تقع على وادي ورغة)، سبتة سلا وتلمسان، بينما كانت دُور سك الدرهم الفضي إلى جانب الدينار في كل من سجلماسة مكناس، طنجة وسَلاَ[1] فزادت دولة الموحدين داريين لسك الدينار والدرهم وأجزائهما في كل من تونس وبجاية[2].

وأشير إلى أن أغلب دور الضرب الموحدية التي ظهرت في بداية عهد الدولة ظلت تصدر الدّنانير الذهبية حتى نهاية عهد الخليفة الثاني أبي يعقوب يوسف الذي عزّز ذلك بإقامة دور جديدة في سجلماسة وتلمسان ونَول لمطة[3].

وقد تطورت عملية إصدار النقود الذهبية والفضية خلال عهد الخليفة المنصور[4] والملاحظة هي أن الوضع النقدي في عهده قد عرف انتعاشا متميزا لم نجد له مثيلا خلال عهدي عبد المؤمن، وأبي يعقوب يوسف[5].

---

[1] - حسان حافظي، مقال في مجلة كلية الآداب، الرباط 1999م، العدد 23، ص ص 109-138.

[2] - « des Monnaies de la BN paris » Revue Numismatique, pp 101-113.

[3] - ibid, p 114.

[4] - ben Romdan(k) les monnaies Al mohades, p 169.

[5] - ينظر المبحث الخاص بالعملة ، فصل النشاط التجاري، ص.....

وقد أشار إبن رمضان في دراسة أجراها على جانب من النقود الموحدية غير المنشورة بالمكتبة الوطنية بباريس حيث يقدم لنا حوالي 446 دينارا يوسفيا، وهو ما يمثل نسبة 62% من مجموع العدد الإجمالي للنقود الذهبية الموحدية.

وبعد أن كانت معامل الضرب في عهد الخليفتين عبد المؤمن ويوسف لا تخرج سوى الدنانير المؤمنية واليوسفية، وهي الدنانير التي لم يكن وزنها يتجاوز(35،2غ) إضافة الى أجزاء هذه الدنانير،و قد شرعت هذه الدور منذ سنة (581 هـ / 1187م) في سكّ عُملة جديدة تزن ضعف الدنانير السابقة وهي الدنانير اليعقوبية وإن الإصدارات النقدية في عهد الخليفة المنصور قد شهدت تطورا متميزا حيث ترك لنا العهد حوالي 201 دينارا يعقوبيا ويمثل هذا العهد حوالي59%،11 من العدد الإجمالي[1]، ونظرا لوفرة هذه الدنانير فإن الدور لم تنتج كثيرا فقد أشارت الدراسات إلى أن الإصدارات اقتصرت على مدن بجاية وفاس ومراكش وقطعتين لا تحملان مكان الضّرب[2].

وقد يعزى تقلص هذه الوحدات النقدية إلى توفر الدنانير اليعقوبية بكثرة بالنظر إلى حجم هذه الدنانير التي وصلتنا فإن عددا قليلا منها يحمل اسم مدينة الضرب، ضربت كلها بمدينة فاس، والباقي وعددها 197 قطعة خالية من ذكر مدينة الضرب.

---

[1]- شعبان عبد الرحيم، المصكوكات الموحدية، دبلوم لنيل الدراسات العالية، كلية الاداب العلوم الانسانية، الرباط 1995م، ص 274.

[2]- مجهول، الإستبصار، ص 210.

- عثر على قطع نقدية مَضْروبة في بجاية تُهُم فترة الموحدين

- Feraud (ch.L.) « conquète de Bougie par les espagnoles… », p 256.

دور الضرب:

- سجلماسة:

هذه المدينة التي اعتبرت من أهم المحطات التجارية الواقعة على الجانب الشمالي للصحراء، هي أكبر سوق لتجارة الذهب خلال العصر المرابطي، ويظهر أنها فقدت كثيرا من أهميتها الإقتصادية خلال العصر الموحدي لأنها عرفت تراجعا ملحوظا في مجال الصناعة النقدية الذهبية.

وجدير بالإشارة إلى أنه بالرغم من سقوط المدينة في يد الخليفة عبد المؤمن منذ سنة (543هـ/1149م)[1] إلا أنه يلاحظ من خلال ما تبقى من المسكوكات الموحدية أن دار الضرب بسجلماسة لم تقم بإصدار العملة الذهبية الموحدية إلا في عهد ثاني الخلفاء الموحدين أبي يعقوب يوسف، وتدل ضآلة هذا العدد عن تقلص دور سجلماسة في المجال النقدي، ومرد ذلك في رأينا إلى تحول الطرق التجارية الرابطة بين سجلماسة والجنوب المغربي والمناطق الواقعة جنوب الصحراء، في اتجاه واركلان والواحات[2]، هذا زيادة على تنامي حوادث قطع الطرق على التجار بين سجلماسة وغانة، وبالإمكان الإستدلال على تضرر تجارة الذهب مع السودان أيضا من خلال تراجع دور كل من مدينة أغمات ونول لمطة اللّتين عرفتا إزدهارًا منقطع النظير خلال العصر المرابطي لتخصصهما بتجارة الذهب، وتراجعهما المواكب لصعود الموحدين.

وقد كانت مدينتا تونس وبجاية مُفَضّلتين لمبادلة الفضّة في شكلها النقدي أو المعدني بالذّهب. وتركّز مَرْيَان مَلُويسْت "M. Malowist" على أهمية هذا التبادل[3].

---

[1]- إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص 190.

[2]- ben ramdane (k) les monnaies almohades op cit p 168.

[3]- le commerce de l'or dans soudan occidentale au moyen âge Annales ES.C N°6, 25ème Année1970, p 630.

فمدينة أغمات كانت مرتبة في الدرجة الثانية بعد مدينة سجلماسة في إصدار النقود الذهبية، ونجدها قد توقفت نهائيا عن إصدار النقود الذهبية خلال العصر الموحدي[1].

- مدينة نول لمطة:

لم تستفد مدينة نول لمطة من موقعها الجغرافي المتقدم جنوبا ودورها في جلب وجذب تجار الذهب الوافدين من السودان، خاصة بعد صعود الموحدين إلى جبال الأطلس والدليل على ذلك أنها لم تتمكن من إصدار عملة ذهبية واحدة باسم الموحدين إلا بعد وفاة الخليفة الأول عبد المؤمن بن علي، ولا يمكن تفسير ضعف إصداراتها النقدية إلا بتراجع دورها التجاري الذي تأثر بانقطاع تجارة الذهب عنها.

لعلّ الصعوبات التي صادفت التجار المغاربة في مملكة غانة قَدْ ساهمت في تقلص كميات الذهب الواردة إلى سجلماسة بوجه خاص[2] لكنه عندما تحسن الوضع الإقتصادي لسجلماسة واستؤنفت أسفار التجارة، أخذت دار السكّ بهذه المدينة تصدر الدنانير الذهبية وهو ما يدل على عودة الإنتعاش للطريق التّجاري المارّ بسجلماسة عبر الصحراء مجددا وهذا بعد فترة من الركود استمرت من بداية عهد الخليفة يعقوب المنصور إلى بداية عهد الخليفة المرتضى.

- مدينة مراكش:

لقد حققت دور سك النقود بمراكش أكبر إصدار نقدي خلال عهد الخليفتين الأولين عبد المؤمن وأبي يعقوب يوسف، والواقع أن

---

[1]- يشير إبن القطان إلى أن الموحدين عندما أقدموا سنة (524 هـ/ 1130م) على قتل عدد كبير من أهل آغامات و لم يستثنوا حتى التجار منهم وقد مات 3000 من العبيد المسخرين لمرافقة القوافل.
- نظم جمان، ص 116-117.

[2]- المقري، نفح الطيب، ج 3، ص 105.
- إبن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص 324.

ارتفاع عدد القطع التي أنشأها المدينة (08 قطع في عهد عبد المؤمن 09 في عهد أبي يعقوب يوسف)[1]، يدل على تطور الحياة الإقتصادية والعمرانية، ففي هذا العهد وفد الناس إلى مراكش من كل مكان وتفاخروا بسكناها، فصارت أوسع البلاد معاشا وأكثرها خلقا، وأربحها تجارة، فضاقت بالناس فلم يجدوا موضعا ولا محلا للسكنى[2].

- مدينة فاس:

لقد حققت مدينة فاس أكثر إصدار نقدي خلال عهد الخليفة عبد المؤمن، حيث وصلنا عن هذا العهد ثمانية وثلاثين دينارا (38) دينارا مؤمنيا من بين أربعين (40) دينارا مؤمنيًا.

وجدير بالإشارة إلى أنه بالرغم من دور مدينة فاس الريادي في التجارة وكثرة الأسواق، حيث تقصدها القوافل ويجلب إلى حضرتها كل غريبة من الثياب والبضائع والأمتعة الحسنة[3]، إلا أن دورها في الصناعة النقدية الذهبية بدأ بالتراجع منذ عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف، بعد أن كانت تضمّ معمَلَين لسكّ العملة الذهبية، أحدهما بمدينة فاس القرويين والمعمل الآخر بضاحية أهل الأندلس،لكنها أصبحت منذ سنة (600هـ/1206م) لا تحوي سوى معمل واحد[4].

- مكناسة:

ضرب الخليفة عبد المؤمن بن علي ثمانية(08) قطعا نقدية بمدينة مكناسة ويظهر أن سك العملة الذهبية بهذه المدينة قد أرتبط بالأهمية

---

[1] - إبن عذاري، المعيار المغرب، ص 153.

[2] - قال عنها صاحب الإستبصار : (لم يكن في مدن الأرض أعظم منها) وقد أمر المنصور بعمارتها سنة (585 هـ/ 1190م)، الإستبصار، ص 210.

[3] - الادريسي، وصفة إفريقيا الشمالية والصحراوية، ص 53.

[4] - أبو الحسن علي إبن يوسف الحكيم، الدوحة المشتبكة، ص 68.

التجارية التي كانت تحتلها، فذكر ابن غازي أن أسواقها كانت نافقة، وتجارها قوية والمسافرون إليها كثر[1].

إن الرواج التجاري الذي عرفته المدينة كان يتطلب إقامة دار للضرب قادرة على إخراج العدد الكافي من النقود الذهبية اللازمة للتداول، غير أن موقعها الجغرافي القريب من مدينة فاس قد أثر سلبا على حجم إصداراتها النقدية، الأمر الذي يفسر الفارق العددي بين حجم النقود الذهبية المضروبة بفاس وكمية النقود المسكوكة بمكناسة خلال عهد الخليفة الأول عبد المؤمن بن علي وقد توقفت المدينة عن سك النقود بعد وفاة الخليفة الأول بينما استمرت في إصدار المسكوكات الفضية[2].

- سلا ورباط الفتح:

ضرب الخليفة عبد المؤمن بن علي قطعة ذهبية واحدة في مدينة رباط الفتح ويظهر أن وقوع هذه المدينة بمحاذاة مدينة سلا قد أثّر على حجم إصداراتها النقدية، فهي سوق تجاري، ومرفأ ترسو به المراكب القادمة من مختلف المدن وخاصة الساحلية من بلاد الأندلس[3] فكان طبيعيا أن تتولى دار الغرب بمدينة سلا إصدار ما يكفي حاجيات أسواقها من النقود المتداولة، ورغم ازدهار أسواقها فإن مدينة سلا لم تصدر لنا أكثر من ستة (06) قطع نقدية ذهبية، كلها في عهد الخليفة عبد المؤمن، لكن دورها تراجع بعد وفاته.

- بجاية:

منذ سقوط المدينة في يد الموحدين سنة (547هـ / 1153م)، وهي في نمو مُطرد ففي عهد الخليفتيين عبد المؤمن وابنه يوسف عرفت المدينة

---

[1]- إبن غازي، الروض الهتون في أخبار مكناس الزيتون، المطبعة الملكية الرباط 1964م، ص 24.

[2]- Doukali (r),« monnaies almohades et hafsides découvertes à Tunis »,Bulletin d'archéologie Algérienne III 1968, pp 202- 210.

[3]- إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص 193.

إصدار أربعة عشرة (14) دينارا من جملة سبعة عشرة(17) دينارا حيث قام الخليفة الأول بإصدار ثمانية (08) دنانيرا في حين ضرب إبنه أبو يعقوب يوسف ستة (06) دنانير ذهبية، و لم يصلنا إلا قطعتان ذهبيتان وزن كل واحدة 35،2غ وذلك خلال عهد الخليفة يعقوب المنصور.

ويبدو أن دور بجاية في سك النقود الموحدية خلال العهدين المؤمني واليوسفي يرتبط بالأهمية التجارية التي عرفتها هذه المدينة قبل وقوعها تحت نفوذ بني غانية سنة (581هـ / 1186م)[1]، ويتجلى لنا هذا الدور الذي كانت تقوم به بجاية من خلال الوصف الذي أورده الإدريسي فهو يقول: "بجاية مدينة المغرب الأوسط، السفن إليها مقلعة و بها القوافل منحطة، والأمتعة إليها برا وبحرا مجلوبة والبضائع بها نافقة، وأهلها مياسير و بها الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد، وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالأموال المقنطرة"[2].

ولا شك أن النّشاط التجاري الذي عرفته مدينة بجاية يعتبر من الأسباب التي جلبت اهتمام المسيحيين، وخاصة البيشانيين والجنوبيين للقدوم إليها بواسطة سفن محملة بالبضائع والمواد التجارية، وحسب الإتفاقيات المبرمة بين الموحدين وبعض التجار المسيحين، فقد كانت مدينة بجاية من بين أهم المدن المتوسطية التي حافظت على التواصل التجاري بين بلاد المغرب ومدينة جنوة وبيزة ومرسيليا وكذلك تجار بروڤانس[3].

---

[1] - إبن خلدون، العبر، ج6، ص 287.
- صالح بعيزيق، بجاية في العهد الحفصي، ص 258.

[2] - وصف إفريقيا الشمالية الصحراوية، ص 63.

[3] - Mas Latrie traité de paix et de commerce et documents divers concernant les relation des Chrétiens avec les Arabes de l'Afrique au Moyen Age, Paris 1965. pp 65-114.

إن دخول بني غانية إلى بجاية في بداية عهد الخليفة المنصور قد أفقرها[1] وتقلّصَ دورها التجاري السابق بفعل الدمار الذي خلّفه الصراع الذي دار بين الموحدين وثوار العرب الهلاليين المتحالفين مع بني غانية والترك الأغزار.

– تونس:

رغم الأهمية الحضارية الكبيرة التي عرفتها مدينة تونس، ورغم ازدهار التجارة بها فإنها لم تعرف ما يناسب هذا في ميدان الصناعة النقدية، فقد كان نشاطها محدودا، إذ لم تخلّف دورها النقدية سوى قطعتين ذهبيتين، إحداهما من ضرب الخليفة الأول عبد المؤمن بن علي والقطعة الثانية من ضرب الخليفة الثاني أبو يعقوب يوسف[2].

– سبتة:

لعبت مدينة سبتة دورا مميزا في ميدان التجارة لعلاقتها المتينة مع المناطق المغربية الداخلية أو مع العالم المتوسطي[3]، فقد حقق الموحدون بهذه المدينة أكبر إنجاز نقدي حيث خلّفت لنا هذه المدينة ستين (60) قطعة نقدية ذهبية ما بين دنانير (37) قطعة وأنصاف الدنانير (21)قطعة، وأرباع الدنانير قطعتان، وجدير بالإشارة إلى أن تطور وازدهار دور الضرب بهذه المدينة كان مُطردا بدءًا من عهد عبد المؤمن بن علي وبلغ ذروته خلال عهد الخليفة أبي حفص عمر المرتضى.

---

[1] - إبن عذاري، البيان المغرب، (قسم الموحدين)، ص 181.

[2] - Mas latrie op cit pp 115-120.

- عبد العزيز الدولاتي، مدينة تونس في العهد الحفصي، ص ص 72 – 74.

[3] - Cherif (mohamed), l'importance de Septa dans le réseaux du commerce méditerranéen XII,tetouan 1991- p 92.

والواقع أن قوة المركز التجاري لسبتة تعود لأهميتها الإقتصادية وإن كان جزء من رواجها التجاري قد تحول لصالح مدن ساحل إفريقية أو لصالح المغرب الأوسط، لتحسن الأوضاع الأمنية بها نسبيا[1].

عيّار النقود:

ساعدت الدراسات التحليلية المخبرية التي أجريت على بعض القطع النقدية في معرفة مكوناتها المعدنية فقد تمكّنا بفضل الدراسة التي قام بها ميسييه (R.A.Messier)[2] من معرفة عيار عدد من القطع النقدية الذهبية الموحدية تهم بالأساس عددا من الدنانير المؤمنية (09 دنانير) وبعض الدنانير اليوسفية (04 دنانير).

ويستنتج من هذه الدراسة التحليلية أن عيار هذه الدنانير كان عاليا حيث أن بعض هذه القطع النقدية بلغ عيارها نسبة 99,7% وهو معدل يتجاوز عيار الدنانير المرابطية، حيث يظهر أن الخلفاء الموحدين كانوا يحرصون على جودة عيار نقدهم الذهبي للإرتقاء به إلى مستوى جودة عيار الدنانير الفاطمية المضروبة بمصر كالدنانير الأميرية[3].

فقد أثبتت هذه الدراسة من خلال تحليل أربعة نماذج نقدية من الدنانير المؤمنية على أن معدل عيارها كان يتراوح مابين 93,8%، 98,65% وتبين من خلال تحليل ثلاثة نماذج نقدية ضُربت باسم الخلفة أبي يعقوب يوسف أن نسبة العيار أصبحت تتراوح بين 98,7% ، 98% .

أما خلال عهد الخليفة المنصور فيمكن أن نستخلص انطلاقا من رواية ابن بعرة المصري الكاملي أن عيار الدنانير اليعقوبية كان عاليا[4]، ويتبين من خلال تطور مراحل جودة العيار النقدي الموحدي

---

[1]- أحمد عزاوي، مجموعة جديدة من الرسائل الموحدية، ج1، ص 168.

[2]- Messeer (r.a) westgold african london 1962, p 31.

[3]- إبن بعرة، كشف الأسرار العلمية، تحقيق د. كمال حودة، القاهرة 1972م، ص ص 49-50.

[4]- السابق، ص 59.

أن هذا العيار ظل يتميز بجودته العالية رغم تقلص كميات الذهب التي كانت متوفرة لدى الموحدين، وأصبحت العملة الموحدية أكثر من أن تكون مجرد "بضاعة" كما كان عليه الحال خلال العصر المرابطي[1].

إن هذا النظام كان من بين مستلزماته الحفاظ على نقاء المعادن النقدية وصفائها إذ أن إضافة أي معدن آخر للمعدن الأصلي يدخل فقهيا في باب العيوب وتطبق عليه أحكام الغش[2].

4 - صناعة الحلي:

لقد ارتبطت صناعة الحلي الذهبية والفضية والتي انتشرت في الحواضر الكبرى لبلاد المغرب بالأقلية اليهودية المستوطنة في البلاد، ويعود احتكار اليهود لهذا القطاع إلى الإهتمام الكبير الذي يُولونه إلى الأنشطة المالية (قرض، صرف) التي التصقت بالذهب باعتباره شكلا من أشكال العملة، ووسيلة إدخار وضمان، وبالتالي سيطرتهم على مسالك توزيع الذهب. إنّ وصناعة المصوغ هي حرفة شاقة ودقيقة وتتطلب حسّا فنيا[3].

والأمر الّذي يُفَسّرُ هذا التخصص المهني هو وضعية اليهود داخل المجمعات الحضرية إذ كانوا يمثلون دائما أقلية ذات تأثير محدود من الجانب الإجتماعي وقد دعت ضرورة الحياة إلى امتهان مهن شاقة ليتمكنوا في فرض الوجود ولن يكون لهم ذلك إلاّ بالتوجه

1- Ben ramdane (k) les monnaies almohades p 168.

2- عز الدين موسى، النشاط الإقتصادي ، ص 273.

3 - عبد الوهاب، ورقات في الحضارة العربية، ص ص 415-416.

Goitein (s.p) Artisana en Mediteranées orientale au haut Moyen age, in Annales, - p547.

- إبراهيم حركات، الحياة الإقتصادية في العصر المريني، ص 132.

نحو القطاعات التي يوجد بها فراغ أو إلى تلك التي تتطلب دقة وإتقانا وتحتاج إلى صبر على مشقّة الإنتاج[1].

ومن أنواع الحلي التي برع فيها الحرفيون اليهود، نجد الأقراط والخواتم والأساور والخلاخيل وهي من أدوات الزينة التي اشتهرت خلال العصرين المرابطي والموحدي[2]، حيث كانت تقدم بعضها كهدايا ثمينة لزوجات الخلفاء والأمراء ورجال الجاه على صفة العموم.

بينما استعمل الخلفاء الذهب في صناعة الأواني مثل الأباريق والأقداح وزخرفوا بعض الثياب الخاصة بالإحتفالات، كما استعمل الموحدون الذهب في زخرفة راحلة مُصحف عثمان الذي كانوا يحملونه بين أيديهم على ناقة حمراء عليها من الحلي النفيس[3] وثياب الديباج الفاخرة أثناء مواكبهم الإحتفالية، وأدخلوه في تحلية بعض المصنوعات الأخرى مثل الوشي والحُصر.

واستغل الموحدون بعض المواد غير المَعدنية لتلبية حاجات السكان إليها من جهة ولتوسيع دائرة وتنويع مصادر الدخل من جهة ثانية، فقد استخرجوا الملح من ملاحة قريبة من مدينة فاس كانت تغطي مساحة واسعة، وتنتج عدة أنواع مختلفة من الملح[4] ونظرا لكثرة الإستخراج والمعالجة عرفت الملاحة نقصا بل عجزا عن تلبية حاجات السوق الأمر الذي دفع الموحدين إلى البحث عن ملاحات جديدة في مناطق عديدة.

---

[1] - تتطلب الصبر على الجلوس لساعات طويلة مما يتعب البصر والظهر والرجلين لأن الحرفي يفترش حصيرا وتكون جلسته جلسة القرفصاء (الركبة مثنية تحت الساق المثنية نحو الأعلى) هذا زيادة على روائح الحوامض الكيميائية الكريهة التي يشتمها الحرفيُ وهو ينفخ في الكير لإشعال النار التي تستعمل في تطوير المدن ولعل ذلك ما جعل المحليين ينفرون من هذه الحرفة.

chambat de lauvre (J) Tableau des sindicat indigenes d'Alger et de Tunis in R.E.I. - 1936, C_{II}, pp 187-197.

[2] - إبن القطان، نظم الجمان، ص 93.

[3] - محمد المنوني، نهضة الفنون، ص 179.

[4] - الإدريسي، نزهة المشتاق، (ط.د)، ص 168؛ - إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص ص 17-28.

لقد ظهرت عدة ملاحات خلال العصر الموحدي في مناطق متفرقة، ففي بلاد المغرب الأقصى ظهرت واحدة في بلاد حاحة[1] والثانية في جبال مراكش[2]، ونقّب الموحدون في أراض تشتمل على الملح في المغربين الأوسط والأدنى، فطوروا استخراجهُ من جبال أوراس حيث كانت قبيلة جراوة البربرية تستعمل ملاحة بن وَرْد الواقعة على بعد عشرين ميلاً من جنوب شرق سفوح الجبل[3] وكذلك ملاحة تبسة التي يعود استعمالها إلى ما قبل الفتح[4]، والتي عَيّن عليها عبد المؤمن بن علي أمناء عندما قام بمسح الأراضي سنة (555هـ / 1160م)[5]. ويرجع ذلك إلى أهمية الملح خلال فترة الدراسة ، ويُدّعم هذا الرأي ما ذهب إليه الباحث لويكي " leuicki " إذ أشار إلى أن الملح كان يشكل أساس ثروة الملك، فقد كان يُحتفظ به في مخازن أعدّت لذلك لأنه يُعتبر في نظر السكان بمثابة النقود لأنه السلعة الوحيدة التي تقايض ثمن الذهب المجلوب من بلاد السودان[6]، وفي نفس السياق يشير بوفيل " Bovill " إذ يقول :" كان التجار يبادلون الملح بوزن أو وَزنين من الذهب أو أكثر حسب عدد التجار"[7].

---

1 - إبن سعيد، كتاب الجغرافية، ص ص 124-136.

2 - السابق، نفس الصفحة.

3 - إبن أبي زرع، السابق، ص ص 198-199.

4 - إبن الأثير، الكامل، ج9، ص 63.

5 - إبن الأثير، السابق، نفس الجزء ونفس الصفحة.

6 - جودت عبد الكريم يوسف، الأوضاع الإقتصادية والإجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين- التاسع والعاشر الميلاديين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1992م، ص 220.

7 - Bovill, Gervans of the old sahra, london 1935,p 46.

* الصناعة الخشبية:

(1) المادة الأولية:

إن تطور العمران خلال الفترة موضوع الدراسة وتَفَنُّنُ البنائين في تشييد القصور يُعتبر مظهرا حقيقيا للتقدم الحضاري. فقد قال ابن سعيد:" وحضرة مراكش مما سكنت بها وعرفتها ظاهرا وباطنا ولا أرى العبارة تفي بما تحتوي عليه ويكفي أن كل " قصر " من قصورها مستعل بالديار والبساتين والحمام والإسطبلات والمياه..."[1] هذا التقدم دفع السكان إلى التطلع لمعرفة النباتات وخاصة تلك التي تتصل بالصناعات الخشبية كالقناطر، والسفن والأبواب، والنوافذ...إلخ.

ومن أهم وأشهر الأخشاب التي استعملت في أغراض صناعية متعددة، خشب الأرز حيث دخل في صناعة السفن، وصناعة الأثاث والأواني المترلية، وفي صناعة البناء فمنه كانت سقوف القصور والمساجد. ودور الأعيان وطبقة الخاصة بصفة عامة[2]، وكان إقبال سكان الحواضر الكبرى وحتّى بعض الأغنياء في الريف على استعماله في صناعة النوافذ والأبواب، وترجع أهمية هذه الأخشاب إلى خصائصها ومميزاتها كالمنظر الجميل، واللّون البني المفتوح وشدة مقاومة للتسوس وبسهولة تشكيله[3].

من أهم مراكز استهلاكه المدن الكبرى لكثرة حاجة الناس إليه وكذلك مراكز صناعة السفن (سبتة، قصر مصمودة، سلا المهدية بافريقية، بجاية ووهران) وترتب على كثرة الطلب ارتفاع

---

[1] - كتاب الجغرافيا، ص 240.

[2] - كنفس المرجع، نفس الصفحة.

[3] - لقد ذكر ابن أبي زرع أن خشب الأرز من أجود الأخشاب بقوله:" والأرز من أطيب خشب الأرض يُعمر العود منه في سقف البيت ألف سنة ولا يُسوس ولا يعتريه شيء ما لم يَصِبه الماء. ينظر: - روض القرطاس، طبعة الرباط 1957م، ص 43.

أسعاره، وتدهور الغابة خاصة غابة الأرز التي تضاءلت خاصة جبال كتامة، وبني راشد[1].

ويلي خشب الأرز خشب الصنوبر من حيث الجودة، كان استعماله مُكثفا هو الآخر في مختلف الصناعات إلاّ أن غاباته، كانت أكثر انتشارًا في أقطار المغرب كله[2]. فقد ظلت غاباته تتجدد و لم تؤثر عليها إلاّ التغيرات المناخية والإستغلالات العنيفة كاقتلاع الأشجار وإحراقها قصد الحصول على الأراضي الزراعية أو المراعي المتوزعة في السهول وسفوح الجبال وخاصة شمال الصحراء[3].

واستعمل السكان خشب البقس بعد الأنواع السابقة لتوفره على خصائص جعلته صالحا لتسقيف البيوت، وصناعة بعض الأدوات التي تدخل في البناء كالأبواب والنوافذ، وكذلك التي تستعمل في المجال الفلاحي كالمحراث. والقادوم، والدّرّاية ومقابض الأدوات الحديدية، وصناعة الأثاث المترلي.

ويلي العرعارُ خشب البقس من حيث الأهمية فقد استعمله الموحدون في أسقف منازلهم[4]، وصناعة أدوات أنشطتهم إلى جانب خشب البلوط الذي توزّعت غاباته بشكل واسع عبر مناطق مختلفة من الأطلس التلي الممتد من الغرب إلى الشرق وأدخله الموحدون في صناعة السفن[5]، وإضافة إلى ما سبق أستعمل السكان أنواعا

---

[1] - التادلي، التشوف، ص 133.
- إبن الخطيب، معيار الأخبار، ص 140.

[2] - إبن بطوطة، رحلة إبن بطوطة، طبعة بيروت(د.ت)، ص 650.

[3] - إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص 31.

[4] - محمد المنوني، الإمبراطورية الموحدية في طور الإضمحلال، مقال في مجال دعوة الحق، وزارة الأوقاف، الرباط 1964م، العدد 2، ص ص 107-123.

[5] - جاء في كلام إبن خلدون:" لمّا استفحلت دولة الموحدين في المائة السادسة، وملكوا العدوتين أقاموا خطة الأسطول، على أتم ما عرف وأعظم ما عهد، أساطيل المسلمين حينئذ في الكثرة والإستجادة إلى ما لم تبلغه من قبل ولا من بعد فيما عهدناه ". ينظر:
- إبن خلدون، المقدمة، ص ص 222-223.

أخرى من الأخشاب أقل أهمية في ميادين محدودة، كالملاعق، العصي والمخاطف[1]...إلخ.

واستعملت بعض الأعشاب التي تنبت في الغابة في كثير من الصناعات والأغراض الفلاحية، تأتي في مقدمتها السّدرة، الحلفاء الدّوم، العَسَف، السمّار والقصب[2] إلى جانب الأعشاب الطويلة التي استعملت في صناعة الغرابيل والأطباق وتنتشر الحلفاء في سهوب الغرب الأوسط مع زيادة توسعها نحو السهوب الداخلية الرطبة[3] وقد تدهورت نبتتا الحلفة والسدرة مع قدوم المرابطين، واستقرارهم في مناطق انتشارها كسجلماسة ودَرعة وأحواز مدينة نول لمطة[4] وأرياف تاهرت والمسيلة، وجنوب القيروان وغيرها كثير، وقد أدرك الموحدون أهمية هذه الأعشاب فعملوا على حمايتها لما فتح عبد المؤمن بن علي هذه المناطق[5] وتوسع انتاجها في السهول الغربية ومرتفعات تامْسَانا، وشرقي دكالة لقرب هذه المناطق من مركز السلطة الموحدية.

(2) أنواع الصناعات الخشبية:

تطلبت سياسة الدولة الموحدية التوسعية خلال القرن السادس الهجري- الثاني عشر الميلادي تطوير صناعة الخشب لحاجة الدولة

---

1 - الإدريسي، نزهة المشتاق (ط.د)، ص 160.
- إبن سعيد، كتاب الجغرافية، ص 143.
- عز الدين موسى، النشاط الإقتصادي، ص 232.

2 - إبن سعيد، السابق، نفس الصفحات.

3 - عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية، ج1، ص ص 208-209.
- بن عبد الله، الإقتصاد المغربي، ص17.

4 - إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 449.
- العمري، مسالك الأبصار، ج4، ص 32 وما.

5 - مجهول، الإستبصار، ص 130.
- عز الدين موسى، السابق، ص 220.

إلى توفير أدوات التوسع والحرب، أسلحة وما يتعلق بها، وبناء على ذلك ازدادت حاجتهم للصناعات العسكرية صادفت امتداد أثر لحماية المكتسبات الحضارية الوافدة من الحضارة الأندلس إلى بلاد المغرب، وكانت أول الصناعات العسكرية التي أولاها الموحدون اهتماما فائقا هي:

1 - صناعة السفن:

لقد فرضت الضرورات العسكرية والعمرانية على الموحدين بناء السّفن، ففي الميدان الحربي نشبت عدة معارك بحرية بين الموحدين والمسيحيين وانتصر فيها الموحدون، واستطاعوا التفوق وافتكاك النصر وطرد التّورمانديين من سواحل إفريقية، وكان أمير البحر آنذاك عبد الله بن ميمون يقود أسطولا كبيرا من السفن المغربية[1].

ومن الأدلة على قوة وحجم الأسطول البحري الموحدي، أن صلاح الدين الأيوبي تقدم إلى يعقوب المنصور يَطْلُبُ مساعدة الأسطول الموحدي[2]، كما استنجد أدفونس الإسباني بخدماته[3]، أما في مجال النشاط التجاري، فقد شهد النقل البحري إنتعاشا وحركة كثيفة لنقل البضائع والسلع بسبب العوائق الأمنية التي تعرضت القوافل التجارية الصحراوية، وكذلك الداخلية الرابطة بين شرق وغرب بلاد المغرب[4].

---

[1] - يوسف اشباخ، تاريخ المغرب، ج2، ص 247.
- إبن خلدون، المقدمة، ص 223.
[2] - إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص140
- الناصري، الإستقصاء، ج1، ص 176.
[3] - يوسف اشباخ، السابق، نفس الجزء، ص249.
[4] - الناصري، الإستقصاء، ج1، ص 177.

هذه الأوضاع وغيرها دفعت الموحدين إلى إقامة مصانع السفن على طول مراسي الدولة الموحدية. حيث أوجدت على طول الشريط الساحلي للبحر الرومي ابتداء من مدينة سلا بالمغرب الأقصى إلى المهدية بإفريقية نذكر من بينها (سلا، طنجة، سبتة، باديس تونس، بجاية، عنابة ووهران)[1] ويذكر الإدريسي أن الموحدين أنشأوا دُورا لصناعة المراكب البحرية لنقل المسافرين[2] في كل من مَرْسى الجبّلات القريبة من وادي فاس عند مُرُورِه، بأرض بني عبود والدار الأخرى بقصر مصمودة[3].

وما كان ذلك ممكننا لولا وجود ثروة خشبية ذات نوعية جيدة وكمية يسيرة فقد أنشأ عبد المؤمن سنة (557هـ / 1162م) مائتي سفينة[4] متنوعة الأحجام بين صغرى وكبرى[5]. وكالعادة تسكت المصادر التاريخية عن ذكر الجوانب الفنية (التقنية في الصناعة) كعمق السفينة وسرعتها، طوابقها ومقاومتها للرياح، مكتفية بوصف الجانب الخارجي[6].

أمّا فيما يتعلق بالنهضة العمرانية، فيكفي أن نشير إلى خطط المدينة الجديدة بمراكش بعد تقسيم أزقتها على الموحدين سنة

---

1 - إبن أبي زرع، ورض القرطاس ، ص 125.
- الناصري، السابق، ج2، ص 11.

2 - الإدريسي، نزهة المشتاق، (د)، ص 111.
- إبن القاضي، جذوة الإقتباس، ص24، - زهرة الآس، ص27.

3 - الإدريسي، السابق، نفس الصفحة.
- إبن القاضي، جذوة الإقتباس، ص24.
- زهرة الآس، ص27.

4 - إبن صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، ص 215.
- عز الدين موسى، النشاط الإقتصادي، ص 233.

5 - عز الدين موسى، السابق، ص 311.
- إبن أبي زرع، السابق ، ص 130.

6 - peyssonnel (J.A) relation d'un voyage sur les lotes de Barbarie, paris 1838, p 554.

(541هـ / 1146م)، حيث شرع الموحدون في إعادة بناء المدينة في المرحلة الأولى ثم عرفت مرحلة التوسع لاحتواء جميع الأفواج البشرية التي استوطنت المدينة إلى حدود سنة (579هـ / 1183م) حينما استقدم الخليفة أبي يعقوب يوسف أفواجا كبيرة من سكان صنهاجة وهكسورة[1] وأنزلهم المدينة إلاّ أن هؤلاء لم يجدوا حيّا فارغا ليسكنوه، فاضطر الخليفة إلى بناء حي سكني لهم، ونقتصر الحديث هُنا عن استعمال الخشب في مثل هذه العمليات التي شملت المدن المغربية التي قاومت الحصار الموحدي مثل وهران، سبتة وتلمسان.

2 - صناعة الأبواب:

إهتم الموحدون بصناعة الأبواب الخشبية المختلفة في الأحجام والإتساع. وفي القدرة على مقاومة العوامل الطبيعية فكثر الطلب على الأخشاب من أجل ذلك، وتصنف الأبواب الخشبية بناء على الوظيفة التي تؤديها فكانت أبواب المجازات (الممرات) الواصلة بين الفضاءات الخاصة وقصور الخلفاء في مدينة مراكش التي بناها المرابطون، ووسعّها الموحدون الذين أكثروا من الأبواب أذكر من بينها على سبيل المثال باب الريّاض[2]، باب البستان[3]، باب الوَرّاقين[4] وباب الغَدر[5] هذه الأبواب كانت تربط قصر الخليفة عبد المؤمن بن علي بمجالات عمرانية مختلفة، ثم أبواب قُصور أصحاب الجاه والثروة التي كانت تشكل تجمعات سكانية مُتميزة وتعرف

---

1 - العمري، مسالك الأبصار، ص 146.

2 - دفردان، مدينة مراكش، ص 220.

- إبن عذاري،البيان، قسم الموحدين، ص ص 358-315.

3 - العمري، مسال الأبصار، السفر 4، ص 147.

4 - يعرف أيضا بباب صَابغي الاحذية. ينظر: - إبن عذاري، البيان، قسم الموحدين ، ص ص 358-315.

5 - السابق، ص 315.

بإسم أسراك[1] حيث نجد فيها دار الوزارة ودور أهل الجماعة ومحلات أهل الكتب وإسطبلات لخيولهم، وَمواشيهم ومدارس يتعلم فيها أبناء الخاصة زيادة على معرض له عدة أبواب خشبية "للزرافات والفيلة والأسود والأيول المختلفة"[2].

وأبواب الفصل بين الفضاءات الرسمية وغيرها من المساحات المخصصة لفئات إجتماعية ومن أهم تلك الأبواب نذكر أبواب السّادة[3]، وهي مجموعة الأبواب المختلفة توصل إلى مساكن السادة بني عبد المؤمن، ثم تليها أبواب السّقايف التي تربط بين منازل الجماعة الموحدية المنظَمَّة إلى الهرم الطّبقي الذي وضعه المهدي بن تومرت وهذه الأبواب الخشبية توصل إلى سقايف السّكان على إختلاف طبقاتهم[4]، واضعةً حدًّا فاصلا بين العامة من الناس والجيش، والسقايف التي هي مساكن الجماعات الموحدية على مختلف مستوياتهم[5].

ومن الأبواب الخليفية أبواب القصور مثل أبواب قصر أمة العزيز وقصر ابن جامع[6] الذي وصفه ابن سعيد يقوله:" إنه قصر كان في ساحته يلعب فيها خمسمائة جارية على خيل الخشب وتتطاعن"[7]. وأبواب قصور مدينة جبل طارق التي تمت في عهد عبد المؤمن. ومن الروائع بهذه المدينة بناء السور والباب الخشبي

---

[1] - أسراك: معناه الساحة الكبيرة وقد وَرد في البيان المغرب، أمّا رَاج القباب وموقعه جنوب قصر الخليفة وهو محاط بمجموعة من البنايات الإدارية.ينظر: - إبن عذاري، السابق، ج4، ص 114.

[2] - العمري، مسالك الأبصار ، ص 147.

[3] - إبن أبي عذاري، السابق، ص ص 300-385.

[4] - دفردان، مدينة مراكش ، ص 227.

[5] - العمري، السابق، ص 148.

[6] - إبن جامع هو أحد وزراء بني عبد المؤمن، ينظر: - محمد المنوني، نهضة الفنون، ص 169.

[7] - الجغرافيا، ص 144.

- العمري، مسالك، الأبصار، السفر4، ورقة 50و.

النحاسي المسمى بباب الفتوح[1] وأبواب قَصْر المشور الذي أقامه عبد المؤمن سنة (540هـ) بمدينة تلمسان[2].

زيادة على مَا سبق ذكره في مجال الأبواب الخشبية نشير إلى أن المدن المغربية كانت تفتح على فضائها الريفي بأبواب عدة، وهذه الأبواب تمتاز بالمتانة والقوة حيث تدعم الألواح الخشبية طولا وعرضا تدعمها صفائح حديدية مدكوكة بمسامير طويلة وغليظة. وهذا ما نشاهده على أبواب مدينة مراكش، فاس، مكناسة الزيتون مدينة جبل طارق، مدينة تلمسان وتاجرا[3](مسقط رأس عبد المؤمن) والبطحاء على نهر الشلف شمال شرق غليزان[4] وأبواب المساجد.

وكانت قصور رجال الجاه والثروة تشمل على شبابيك خشبية وأثاثاً وتحف زُخرفية في جل المدن المغربية.

وتظهر لنا مسألة الأبواب جانبا من حضارة الموحدين، إذ كانت تشكل تصنيفا إداريا لرجال الدّولة المودية، وفواصل إجتماعية مخصصة لفئة دون أخرى فهناك أبواب مخصصة للموحدين "العامة" يدخلون منها إلى قصبة المدينة.

أما النخبة فتدخل من باب السّادة – باب أكْنَاوْ (كْذا) الذي لا فخامة ولا إرتفاع عليه[5] وتمتاز بالمتانة والإتساع مع الزخرفة، في حين تكون أبواب العامة من الناس إما بالأخشاب العادية البسيطة أو من ألواح وأخشاب متشابكة محكومة بأربطة.

---

[1] – إبن صاحب الصلاة، تاريخ المن، ص 128.

[2] – عبد الله علام، الدولة الموحدية بالمغرب، ص 383.

[3] – السابق، نفس الصفحة.

[4] – السابق، نفس الصفحة.

[5] – الناصري، الإستقصاء، ج2، ص 194.

واستعمل الخشب الجيّد في بناء المساجد المغربية بشكل واسع فكانت منه الأبواب الخارجية لساحاتها، والداخلية لصحونها، وكانت السّرايا العمودية الواصلة بين السّقف والأسواق الخارجية، وتحمل قبابا خشبية كبيرة فوق المحراب الخشبي وعلى جانبيه[1] كما هو الحال في جامع القصبة الذي بناه أبو يوسف يعقوب المنصور بمدينة مراكش[2]. وجعل المنصور حول محراب جامع الكتبيين الأول مقصورة من الخشب تترل إلى مستوى الأرض للمسجد فتحجب الخليفة أو الإمام عن غيره ثم ترتفع عند الحاجة[3] وصنع للمسجد محراب جليل الصنعة، صنعه من عود الصّندل الأحمر المصفح بالذهب[4].

وجدير بالإشارة إلى أن هذا الإهتمام بأبواب ومحاريب ومقصورات المساجد خلال عهد الموحدين إمتد عبر مدن بلاد المغرب، فجامع بلاد الحضر قرب توزر وجامع مدينة صفاقس وجامع باجة الذي مازال أحد أبوابه إلى اليوم أحد أبوابها يعرف باسم" باب سيدي يعقوب"[5].

وهكذا كانت عمارة المساجد، المستشفيات وقصور أصحاب الجاه والثروة قد أثرت بصفة جلية على إزدهار الحرف والصناعات الخشبية، فقد تجاوزت شهرة تلمسان في صناعة ما يتعلق بركوب الخيل[6] من أدوات خشبية. آفاق بلاد المغرب وعرفت سروج

---

1 - العمري، مسالك الأبصار، ج4، ص 147.
- مجهول، الحلل الموشية، ص 144.
2 - دفردان، مدينة مراكش، ص 233.
- محمد المنوني، العلوم والعنون، ص 107.
3 - تختفي المقصورة بعد مُغادرة الخليفة وتعود للظهور عندما يلتحق الخليفة مرة ثانية. ينظر:- مجهول، الحلل الموشية، ص 144.
4 - محمد بن أبي زرع، روض القرطاس، ص 230.
- محمد المنوني، السابق، ص 107.
5 - سليمان مصطفى زبيس، آثار المغرب العربي، دار الكتب الوطنية التونسية، تونس 1958م، ص ص 16-56.
6 - إبن سعيد، كتاب الجغرافية، ص ص 140-149.

نـــول لمطـــة الخـــشبية رواجـــا كـــبيرا مـــن قبـــل تجـــار القوافـــل[1] وأقبـــل تجـــار الـــداخل والخـــارج علـــى شـــراء أقـــلام تـــونس المـــصنوعة مـــن قـــصب طبرقـــة وخـــشبها[2]، وقـــد يكـــون تعـــبير صـــاحب الاستبـــصار فيـــه شـــيء مـــن المبالغـــة عنـــدما قـــال عـــن خـــشب مدينـــة فـــاس:" ... وكـــان يـــدخل فاس من خشب الأرز كل يوم م لا يُحصى كثرة"[3].

3 - صناعة السقايف:

أشار الباحـــث دفـــردان إلى ســـكان بـــلاد المغـــرب القـــاطنين بالحواضـــر وخاصة الكُبْرى أنهـــم كـــانوا يـــستعملون خـــشب الـــزان، والعرعـــار في صـــنع سُـــقوف بيـــوتهم[4] ومنـــهم مـــن يتعـــدى المـــستوى الأرض إلى المـــسكن ذو طـــابقين. كـــل ذلـــك يقـــام بالخـــشب المـــدعّم بـــصفائح حديديـــة وأحجـــار كـــبيرة مـــصنوعة خصيـــصا للبنـــاء[5] وتقريبـــا لـــصورة مـــدى اســـتعمال الخـــشب في ســـقايف المـــساكن نـــشير إلى أن الموحـــدين، خصّـــصوا فـــضاءا واســـعا تمتـــد مـــن ســـور جـــامع الكتبيـــة الثـــاني إلى الجنـــوب وهـــو مغطـــى بـــسقف خـــشبي مـــن الـــزّان وتحفـــه مـــساكن الجماعـــة علـــى اخـــتلاف طبقـــاتهم، والـــذين يتجهـــون إلى الخليفـــة في أزقـــة مُـــسَقّفة تقـــيهم حـــرارة الـــشمس أوالأمطـــار[6] وبعـــدها ســـقايف أبنـــاء العـــشرة (أهـــل الجماعـــة)، تليهـــا ســـقايف أهـــل الخمـــسين، ســـقايف الطلبـــة وســـقايف الحفـــاظ وخـــارج هـــذا الفـــضاء نجـــد ســـقايف القبائـــل وأعيـــان العـــرب

---

1 - الإدريسي، نزهة المشتاق، (ط.د)، ص 159.

2 - إبن سعيد، السابق، ص 143.

- موسى عز الدين أحمد، النشاط الإقتصادي، ص 234.

3 - مجهول، ص 187.

- إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص ص 17-18.

4 - العمري، مسالك الأبصار، ج4، ص 134.

5 - إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص 260.

- الناصري، الإستقصاء، ج2، ص 196.

6 - دفردان، مدينة مراكش، ص 229.

والأغزاز ثم سقايف قبيلة خنفيسة وجدميوة، هكسورة وصنهاجة وكانت السقايف الخشبية مغطاة بالقصدير وملونة بالأصباغ.

4 - صناعة الأدوات المترلية:

استمر الموحدون في استعمال الأدوات الخشبية المترلية التي استعملها سكان بلاد المغرب قبل عهدهم[1]. فقد عُثر على معلومات في مصادر الفترة التاريخية كموضوع الدراسة تفيد بأنهم كانوا يستعملون الموائد، الأسرة، الكراسي والقباقيب، كما تناولوا الأطعمة بالمغارف، الملاعق والخشبة المسطّحة التي يُقطع عليها اللّحم ومسطحات خشبية تُضع عليها الحلوى[2]، واختاروا لمثل هذه الاستعمالات أخشابا كالبلوط، البطم، الزيتون والبقس خاصة صناعة الهوادج والصحون.

إن الإستخدامات المتزايدة للخشب في بلاد المغرب خلال القرن السادس الهجري- الثاني عشرة الميلادي خير دليل على تطور الصناعة الخشبية. وتعدى استعمال الخشب المجالات الضرورية إلى الكماليات حيث صنعت التحف الموجهة إلى مُتعة الأولاد باللّعب بها[3] أو بغرض تجميل جدران القصور، وتطعم حشوات الأثاث كالأرائك والمنابر والمقصورات بالعاج وخشب الصّندل وأنواع أخرى من الخشب مثل مل فعل يوسف بن عبد المؤمن في منبر جامع مراكش[4].

ومن الشواهد الدالة أيضا على تفنن الموحدين في الصناعة الخشبية، وضع مصحف عثمان -رضي الله عنه- في تابوت له باب

---

[1] - إبن خلدون، المقدمة، الفصل السادس والعشرون، ص 334.
- الدرجيني، طبقات، ج2، ص 398.

[2] - حودت عبد الكريم يوسف، الأوضاع الإقتصادية والاجتماعية - خلال القرنين الثالث والرابع المجريين، التاسع والعاشر الميلاديين - ديوان المطبوعات، الجزائر 1992م، ص 220.

[3] - الونشريسي، المعيار، ج6، ص 52.

[4] - إبن صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، ص 179.

بدفتين يفتحان بمفتاح، ومتى خرج كُرْسِيٌّ وتُرَكّبُ المصحف عليه تلقائيا، ويظل الكرسي بما حمل يتحرك ذهابا وإيابا، وإذا عاد إلى موضعه ينغلق الباب تلقائيا[1].

إن الإستخدام الواسع للخشب في بلاد المغرب أدى إلى تأثر الغابة المغربية، ودفع الدولة الموحدية إلى إستيراد الخشب لتلبية ما تتطلبه الصناعات المستحدثة كصناعة السّكر، ومد الجسور[2] وغيرها.

5 - صناعة آلات الموسيقى:

لم تمنع حملات الفقهاء خلال العهد الموحدي من انتشار الغناء بين النّاس، فقد أقبل عليه الناس وخاصة الشباب وبعض سادة بن عبد المؤمن، حيث أقاموا حفلات بمناسبة أعيادهم[3]، ومما يدل على ذلك زيادة الإقبال على شراء المغنيات خلال عهد أبي يوسف يعقوب المنصور[4]، وقد ترتب عن ذلك تعدد آلات الموسيقى ومنها صناعة الطبول التي كانت تستخدم أثناء الحملات العسكرية تَرْهيبا للعدو قبل بداية المعركة، كما استعملت وسائل لإعلان عن بشرى تُزف أو تنظيم لسير جيش أو احتفال بأعياد النصر[5] وقد تميزت بالفخامة مع كثرة العدد، وقد حاول صاحب الحلل الموشية وصفها فقال:" طبل الرحيل عند الموحدين كبير مستدير الشكل دوره خمسة عشر ذراعا، مُنشأ من خشب أخضر اللّون مهب، فإذا ضرب فيه ثلاث ضربات علم أنه طبل الرّحيل فيرحل

---

1 - إبن الخطيب، نفح الطيب، ص ص 612-617.

2 - G. Marçais, la conception des villes d'islam, p p 526-532.

3 - البيدق، أخبار المهدي، ص ص 60-62.
- إبن الزيات، التشوف، ص 307.

4 - المقري، نفح الطيب، ج3 ص 231.
- عز الدين موسى، السابق، ص 236.

5 - ينظر: عز الدين موسى عمر، تنظيمات الموحدين، ص 272.

النـــاس وكـــان يُـــسمع علـــى مـــسير نـــصف يـــوم مـــن مكـــان مرتفـــع في يوم لا ريح فيه"[1].

*** الصناعات الخزفية والزجاجية:**

جـــاء في كتـــاب لـــسان العـــرب " أن الخـــزف مـــا عُمـــل مـــن الطـــين وشوي بالنار فـصار فخـارا"[2] وقـد أعطـى حرفيـو هـذه الـصنعة أشـكالا مختلفة للطـين قبـل حرقـه، وتبقـى هـذه الأشـكال محفوظـة لـزمن طويـل ويُطوّر الخـزف ليُـصنع منـه الآجـر والإسمنـت وقـد عرفـت بـلاد المغـرب التربـة الـصالحة لـصناعة الخـزف منـذ وقـت طويـل يعـود إلى العـصر العباسـي فقـد زودتنـا الحفريـات الـتي أجريـت في آجُـر سـيف: الجنـوب الـشرقي لإفريقيـة بـأنواع مـن القطـع الخزفيـة الـتي تعـود إلى عهـد الدولة الأغلبية[3].

والخـزف أنـواع، منـه الطـيني وهـو الـشائع لكثـرة اسـتعماله وانتـشار الطـين الـصالحة لـصناعته في معظـم جهـات بـلاد المغـرب ويفـضله النـاس لـسهولة طِلائـه بالـسائل الزجـاجي الـذّهبي، والنـوع الثـاني هـو الخـزف الحجـري الـذي يمتـاز بالـصّلابة والثقـل ويـصنع غالبـا مـن الطـين الحجـري وتتطلـب عمليـة إحراقـه درجـة عاليـة من الحرارة[4].

أمـا صـناعة الأدوات الخزفيـة فأغلـب النظريـات تـشير إلى اسـتخدام اليـدين في تـشكيل جِبـال طينيـة أو شـرائح تـضم بعـضها باليـدين أو

---

[1] - مجهول، ص 126.

[2] - إبن منظور، ج3، ص 111.

[3] - الموسوعة العربية العالمية، ج10، ص ص 57-58.

- زكي محمد حسن، فنون الإسلام، ج3، ص ص 263-264.

- محمد الطيب عقاب، الأواني الفخارية، بيروت 1981م، ص 63.

[4] - زكي محمد حسن، السابق، نفس الجزء، ص 114.

صفائح تقليدية حتى يتشكل الماعون المطلوب أو الأداة التي يُراد صنعها[1]، في حين تمّ استعمال القوالب والدواليب في المدن الكبيرة [2].

وقد حاول الحرفيون الخزفيون إظهار المستوى الفني الذي عرفته الزخرفة في بلاد المغرب خلال عهد الموحدين، على جوانب الأدوات الخزفية التي تصنع، حيث يتم تغوير الخطوط التي تشكل الرسم المراد إبرازه على واجهة الإناء مثلا، ويتم تلوينها باستعمال مواد لا تتلفها الحرارة أثناء عملية الحرق ومن بين هذه المواد نذكر الميناء والطلاء الزجاجي.

وبعدما تطلى القطعة الخزفية بطلاء زجاجي يحرقها الخزّاف وبذلك يكون الخزف صلبا، ويمتاز هذا النوع بالبريق المعدني الذي عادة ما يكون على جوانب الأباريق.

1 - انتشار مراكز صناعة الخزف:

امتاز الخزف المغربي ببساطته في أول ظهوره، فكان خاليا من الطلاء المعدني ومن الزخارف وإن وجدت فلا تتجاوز اللّون الواحد[3]، على شكل أشرطة من حُبيبات وفُروع وأوراق نباتي أو هذا النوع عادة ما يكون على واجهات الأزيار[4] والنوع الآخر كان معظمه من الصّحون وأكواب صغيرة مغطاة تحمل رسم زهرات مصحوبة بثلاث سعفات نخيل أو قد يكون الرسم مكون من نواشين متداخلة مكوّنة لطابقين من أشكال المعيّن[5] بطلاء أخضر أو أصفر[6] أما الخزف

---

1 - J.L. Miège : « le libye et le commerce », Revue de l'occident Musulman et de la Méditerranée, N19, 1975, p 167.

2 - Recueil de lettres officielle AlMohades, Analyse et commentaire Historique in Hesperis, p 1941.

3 - زكي محمد حسن، فنون الإسلام، ج3، ص ص 345-347.

4 - نفسه، نفس الجزء،و الصفحة.

5 - هذه الآنية محفوظة في متحف سيرتا بقسنطينة.

6 - نفسه، نفس الجزء، ص 350.

ذو البريق المعدني فقد وُجد أبدعه في المدن الكبرى كمراكش[1]، فاس، تلمسان، بجاية[2] وتونس.

ويعود الفضل في إنتشار الصناعة الخزفية في بلاد المغرب إلى الفاطميين، حيث ازدهرت هذه الصناعة في مصر مُتأثرة بالأساليب الفَنّية العراقية، وكانت أفخر صناعة الفخار في العصر الفاطمي هي ذات البريق المعدني[3]، فقد كانت مدينة الفسطاط بمصر مركزا لصناعته، وكان أكثر إنتاجها يعود إلى بداية القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي[4].

ومن جهة أخرى كان الخزف يُصنع بكيفية جميلة وأنيقة في الأندلس وخاصة في مدينة مَرسِيّة[5]، وهكذا توفر مصدران لصناعة الخزف في بلاد المغرب حيث كانت الجهة الشرقية تتموّل بالخزف المشرقي الذي ساعد على تطوير الصّناعة الخزفية في كل من تونس وقفصة التي اشتهرت بخزفها الأبيض[6].

أما الجهة الغربية فكانت قد استفادت من خزف مرسية فظهرت مدينة فاس كمنطقة هامة مُنتجة للصناعات الفخارية، إلى جانب مدينة طنجة المشهورة بكثرة وجودة رُخامها[7].

---

1 - دفوردان، مدينة مراكش، ص 102.

2 - إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص 26.
- القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 155.

3 - زكي محمد حسن، السابق، ج3، ص ص 340-341.

4 - السابق، ج3، ص ص 342-344.

5 - إبن الخطيب، نفح الطيب، ج2، ص202.
- القلقشندي، ج5، ص 220.

6 - عز الدين أحمد موسى، النشاط الإقتصادي في المغرب، ص 253.

7 - مجهول، الإستبصار، ص 138.
- الحموي، الروض المعطار، ص 396.

وجدير بالإشارة إلى أن الحفريات التي أجريت في قلعة بني حماد بالمغرب الأوسط قد أبانت نوعا من البلاطات الخزفية ذات البريق المعدني تعود إلى القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي إن الكميات الكبيرة من خزف قلعة بني حماد والقيروان كانت تتميز بخصائص ذات سمات مستقلة بيّنت الدراسات أنها أُنتجت في مصانع خزفية ببجاية خلال القرن السادس الهجري- الثاني عشر الميلادي[1].

2 - أنواع المنتجات الخزفية:

1- أباريق كبيرة وقِدر لاستخراج المياه من اللآبار وكان بعضها بغير طلاء وبعضها الآخر بطلاء أخضر وزخارفها عبارة عن أشرطة من الرسوم البارزة[2] والراجح أن هذا النوع كان يصنع في مراكز مختلفة من الصناعات الخزفية بالأندلس قبل انتقالها إلى بلاد المغرب.

2- صناعة الصحون والقدور والكؤوس والأقداح، لقد كانت مثل هذه الأدوات تصنع بطريقتين أولا بسيطة يُستعمل فيها الطين الأبيض أو الخوخي وتكون خالية من الزّخارف ومنتشرة بشكل واسع في المجتمع الريفي والحضري، في حين تلك التي تصنع من الخزف ذي البريق المعدني واللّون الذّهبي، أو اللونين الأزرق والذهبي معا هذا النوع يكون فقط لدى الأسر الغنية والطبقة الخاصة بصفة عامة، ولا يوجد في الأرياف[3].

3- صناعة الجِرَار، البرادت، المزهريات، العقلال والكوانين، هذه الأدوات وغيرها كانت منتشرة الاستعمال لحاجة الناس إليها، وهي

---

[1] - رابح بونار، بجاية من خلال بعض الرحالة المسلمين، مجلة الأصالة، عدد خاص رقم 11، ص ص 65-75.
- صالح بعيزيق، بجاية في العهد الحفصي، ص ص 143 – 144.

[2] - زكي محمد حسن، فنون الإسلام، ص 333.

[3] - محمد الطيب عقاب، الأواني الفخارية، دراسة تاريخية فنية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1984م، ص 195.

أيضا على نوعين أحدهما بسيط خال من الزخرفة والآخر يحمل زخارف نبات وهندسية من ألوان وبريق معدني اختصت بها الأسر الغنية وقصور الأمراء[1]، وقد دلّت الحفريات التي أنجزت في مدينة تاهرت على وجود أواني فخارية مصنوعة من طين أبيض ومُزينة بزخرفة على شكل خطوط متوازية ومستقيمة أو منحنية وشملت هذه القطع المستخرجة من تلك الحفريات، قطعة من جرّة وصحون، وبرّادة[2].

3 - الآجر:

لقد دخلت صناعة الخزف المجال المعماري منذ وقت مُبكر فقد عُثر على الآجر في جدار محراب مسجد عقبة بن نافع الفهري (ت 63هـ / 683م) بالقيروان لكنّ الدراسة لم تنشر إلى تاريخ تركيبه[3] وقد انتشرت نماذج كثيرة منه منها ما هو على شكل مستطيل أو غير ذلك، مذهونة باللون الأزرق، أو مختلف الألوان مكسوّ بقشرة ذهب على رصاص مزجج أبيض[4] وخير مثال على ذلك كمية الرخام التي استعملت في ترصيع جوانب سواري جامع حسان بالرباط حيث بلغت مائتي سارية رخامية[5] وإلى جانب البلاطات الصغيرة (الفسيفساء)، واستعمل

---

1 - إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص28.
- عبد الرحمن بن عبد الله آل محمود، بحاية في الحضارة، ج6، قطر (د.ت) 1985م، ص 13.

2 - رشيد بورويبة، الفن الرستمي، ص 184؛ - السيّدة عالمة، "نظرة على تاريخ بحاية"، مجلة الأصالة، عدد خاص ببجاية عبر العصور، رقم 11، ص ص 88-102؛ - وعن القدر يقول صاحب الإستبصار:" يكون المرق واللّحم معا في قدر من الفخار يتناول كل واحد منهم قطعة اللحم التي تعجبه". ينظر: - مجهول، 301.

3 - فيرون ميرون، الصحراء الكبرى، ترجمة جمال الدين الناصوري، مراجعة نصري شكري، مؤسسة سجل العرب، القاهرة 1963م، ص ص 24-26.

4 - إبن الخطيب، معيار الاختيار، تحـ محمد كمال شبانة، الدار البيضاء 1992م، ص 152.

5 - محمد بن علي الدكالي، الإتحاف الوجيز، ص 76.
- المقري، نفح الطيب، ج1، ص 202.
- محمد عبد الستار عثمان، المفهوم الإسلامي لتخطيط المدينة، مجلة المنهل، العدد 454، سنة 1979م.

الموحدون نوعا من الزّليج المذهون بالألوان المختلفة[1] كما كانوا يفرشون أرضية المساجد والقصور وبيوتات الأسر الغنية ببلاطات رخامية[2].

وعرفت جوامع بلاد المغربين الأوسط والأدنى نفس الأهتمام بإدخال الصناعة الخزفية لترصيع جدرانها وتبليط أرضها، كما هو الشأن في جامع الخضر قرب توزر الذي بقي محرابه شاهدا على جمال الزخرفة[3]، وكذلك عرفت زاوية سيدي قاسم الزّليجي[4] وانتقلت الصناعة الخزفية المعمارية إلى مساجد وقصور المغرب الأوسط كما هو الشأن في جوامع الحواضر الكبرى كتلمسان[5]، بجاية تونس وبونة[6]. اتجه الحرفيون الخزفيون في بلاد المغرب إلى زخرفة شبابيك القلال، وأبدان الأباريق، والصحون والكؤوس حيث صاغوها بزخارف محفورة أو مطبوعة بالقالب وكانت الزخرفة الأكثر شيوعا هي الأشكال الهندسية كالربع والمعين والمضلّع والثماني، زيادة على ذلك الأشكال النباتية كالتوريق والسّعيفة والزهيرات، وبعدها تأتي العناصر الكتابية[7].

---

[1] - بنى عبد المؤمن بن علي، مدينة رباط تازا سنة (529هـ / 1135م)، وشيد بها مسجدا كبيرا وبلّط أرضيته وأرضيه صحنه ببلاطات رخامية كبيرة. ينظر قدور أحمد، المدن الموحدية وعلاقاتها بالأقاليم، ص 171.

[2] - قال التيجاني وهو يتحدث عن قصر العروسين بقابس:" وقد وقفت في بعض أبواب القصر على أشطر كتبت نقشا على حجر رخامي ونصها" أمر بعمل هذا الباب الأمير رافع سنة (500هـ / 1105م) رحلة التيجاني، ص 98.

[3] - سليمان مصطفى زبيس، السابق، ص 107.

[4] - قاسم الزليجي هو أحد اللاّجئين الأندلسيين الوافدين إلى مدينة تونس خلال القرن السادس الهجري وكان يتعاطى صناعة الزليج، توفي بتونس سنة (610هـ / 1215م)، السابق، ص ص 119-120.

[5] - لقد شيد المرابطون الجامع الكبير بتلمسان سنة (530هـ / 1136م) وجاء الموحدون بعدهم فزخرفوا جدرانه وبلّطوا ارضيته.
- سليمان مصطفى زبيس، آثار المغرب العربي، دار الكتب التونسية، تونس 1998م، ص106.

[6] - جودت عبد الكريم يوسف، الأوضاع الإقتصادية الاجتماعية في المغرب الأوسط، ص 118.

[7] - زكي محمد حسن، فنون الإسلام، ص 337.

Marçais(G), les poteries et faïences de Bougie (collection Debruge), contribution à - l'étude de la céramique musulmane, D. Braham éditeur, Constantine 1916, p303.

4 - صناعة الزجاج:

تعتبر العصور الوسطى مرحلة مهمة في صناعة الزجاج، حيث أخذت المصانع تطور صنع الأواني وأكواب الشراب والمسطحات الزجاجية، وانحصر وجود المصانع في المدن القريبة من مصدر المادة الأولية المتمثلة في الرمل وبعض الأملاح و لم تكن معرفة الحرفيين دقيقة بل كان كل ما يعرفونه هو استخدام نوع خاص من الرمل الموجود في أماكن خاصة حتى يحصل على نتائج مرضية في صناعته[1].

وكان الحرفيون يجمعون المواد اللاّزمة ويخلطونها مع جفنات من الخزف ثم يُسخن المخلوط تسخينا شديدا في فرن خاص إلى أن ينصهر الخليط بصفة تامة، وتصير كتلة الزجاج الناتجة صافية ومتجانسة[2]، وإن أراد الفَرّانُ زخرفة الإناء فإن ذلك يتطلب القيام بالعملية والزجاج لين، وقد اشتهرت الأواني الزجاجية المغربية بالزخرفة ذات اللّون الأخضر والأزرق العسلي[3].

ولما كانت الإسكندرية ثم بعدها الفسطاط مركزين كبيرين لصناعة الزجاج في الجهة الشرقية لبلاد المغرب، إلى جانب المراكز الكبرى لصناعة الزجاج المنتشرة في الأندلس خاصة مدينة المرية ومرسية خلال القرن السادس الهجري[4]، فإنه لا يُستبعد انتقال الصناعة الزجاجية على بلاد المغرب من الجهتين المشار إليهمَا

---

[1] - الحسن السايح، الحضارة الإسلامية في المغرب، الدار البيضاء (د.ت)، ص ص 241-242.

R Aymond (A) Aetisanas et commerçant au caire au Moyen age danas 1973, p 120. -

[2] - يعرف الشخص الذي يقوم بالعملية بـ "الفران الزجاجي". ينظر: - وكانت الأواني تصنع من الطين الرملي الملفوف داخل قطعة من القماش مربوطة بخيط يُشد إلى ساق من النحاس أو الخشب الصلب، ثم يغطس الكيس بما فيه الزجاج المنصهر ويدار بسرعة حتى يوزع الزجاج على سطحه توزيعا متساويا، فيحصل على الشكل الزجاجي المطلوب. ينظر:

Goitein (S.P) Artisans eu Méditerranées orientale au haut Moyen age, Annales N° - 4 , 1986, p 347.

[3] - ibid, p 350.

[4] - ibid, p 351.

خاصة إذا علمنا أن مدينة فاس في الجهة الغربية لبلاد المغرب كانت مضرب الأمثال في صناعة الزجاج إذ وصل عدد المصانع بها إلى أحد عشر مصنعا زجاجيا[1]. الأمر الذي جعل أسواق الحواضر المغربية في تلك الجهة تتوفر على مختلف أنواع الزجاج وأدواته المترلية وكدليل على تطور صناعة الزجاج بتلك الجهة نجد الثّريا التي صُنعت للخليفة أبي يعقوب يوسف من مادة النحاس يصل وزنها إلى أثنين وثلاثين قنطارا من النحاس بها خمسمائة واثنا عشر مصباحا زجاجيا[2].

أما على مستوى الجهة الشرقية فنجد مدينة قفصة التي يَتوسط موقعها الطريق الرابط بين القيروان وقابس هذه المدينة التي اشتهرت بعدة صناعات من بينها صناعة الزجاج، وفي ذلك يقول عبد المنعم الحميري : " ويُصنع بها زجاج حسن وأواني وهي حاضرة في جميع أمورها وأهلها ذوو يسار.."[3]. وقد أشار عز الدين أحمد موسى إلى أن المائدة الأولية كانت تستخرج من نفزاوة[4] التي تبعد عن القيروان بحوالي ستة أيام[5] قد يكون ذلك صحيحا لأن أرض نفزاوة تشمل على سباخ وعدة ملاّحات وهي تنفرد بذلك وقريبة من قفصة[6].

---

[1] - إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص 155.
- عبد الأحد السبتي، المدينة في العصر الوسيط، ص109.
[2] - عز الدين أحمد موسى، النشاط الإقتصادي في المغر . الإسلامي، ص 254.
[3] - الروض المعطار، ص 478.
- مجهول، الإستبصار، ص 151.
- الإدريسي، نزهة المشتاق (د)، ص 104.
[4] - النشاط الإقتصادي في المغرب الإسلامي، ص 254.
[5] - الحميري، السابق، ص 578.
[6] - مجهول، الإستبصار، ص 159.

أما عن أنواع الزجاج المصنوع بالجهتين الشرقية والغربية فيتوزع بين الزجاج المسطح الذي يستعمل بشكل رئيسي في النوافذ والمرايا[1] والزجاج المحدّب والمقعّر حسب القوالب التي تحدد الأواني المنزلية الزجاجية من جرار، صحون وكؤوس[2].

وكان الزجاج يستعمل للزينة حيث يتم صنع حلقات زجاجية أو أجسام متعددة الأشكال والألوان تكون أسطوانية أو كروية أو أحجام مستطيلة بها غرز وتجمع عدة أشكال لتصنع أساور أو سلسلة توضع على رقبة المرأة.

وقد تحدث عن ذلك الحميري واختص به نساء مدينة أدغشت حيث قال: " ... وحُلَيِّهم من النحاس وخرز الزجاج"[3]، ولا نملك سببا يحول دون إنتشار هذه المادة عند بقية سكان تلك الجهة على الأقل؟

رغم شهادة الإدريسي على أن تجار مدينة أغمات كانوا يدخلون بلاد السودان بأصناف عديدة من النّظم الزجاجية والأصداف والأحجار[4].

*** صناعة النسيج:**

لقد دخلت بلاد المغرب عدة أنواع من النباتات النسيجية مع الفاتحين المسلمين وصاحبتها تقنيات جديدة أضيفت إلى مكان

---

1 - C. vanacker, Geographie economique de l'afrique du nord «AnnAle» E.S.C, Mai-juin 1973, p 440.

2 - ibid p 442.

3 - تقع مدينة أدغشت بين السودان وسجلماسة، سكانها مزيج من عرب المغرب وبرابرة لواتة وزناتة ونفوسة ونفزاوة ومن أقلية زنجية، أسلم أهلها على يد عبيد الله الشيعي.ينظر: - الروض المعطار، ص 136.
- إبن حوقل، صورة الأرض، ص 10.

4 - نزهة المشتاق، (د.ب)، ص ص 231-232.

معروفا محليا، وبذلك تمكنت بلاد المغرب من الظفر بصناعة النسيج ونموها حتى أصبحت موردا إقتصاديا هاما للسكان[1].

وخلال القرن السادس الهجري عرفت بلاد المغرب تغيرا في مناطق زراعة الكتان والقطن، إذ كثر إنتاج هذا الأخير في السهّول الغربية مثل أم الربيع وتادلة، ومنطقة وادي[2]، وانتشر نبات الحناء في درعة وسجلماسة حيث تنتج المنطقة ما يكفي لسد حاجات سكانها ويتجهز بما يزيد إلى جهات مختلفة من المغرب[3] واشتهرت مدينة أنكلاس[4] بالشّب الخالص المتناهي في الطيب، وهو ينبت نباتا يزيد في كل حين بمقدار ما يؤخذ منه في ساعات وهو يكفي حاجات المنطقة ويصدّر إلى باقي جهات بلاد المغرب[5].

وإذا توجهنا نحو الجهة الشرقية فإننا نجد مساحات واسعة من القطن في المسيلة وضواحيها، وقد اشتهرت برقة بإنتاج القطن الطيب الأمر الذي دفع التجار إلى التسابق لشرائه والإتجار به في أنحاء بلاد المغرب[6]. وإلى جانب إنتاج القطن فإن منطقة متيجة تنتج كميات كبيرة من نبات الكُتان، وهي أكثر النواحي كتانا ومنها يحمل إلى جهات مختلفة من المغرب[7].

---

1 - العلوي عبد العزيز، صناعة النسيج في العصر الوسيط، مجلة كلية الآداب بفاس، عدد خاص بتاريخ المغرب، 1985م، ص ص 43-47.

2 - الإدريسي، نزهة المشتاق (د)، ص 225.

3 - جليلة يعقوب، نظرة الإدريسي إلى المغرب الإسلامي، (ش، ك،ب)، كلية الآداب مُنّوبة 1993م، ص 105.

4 - أنكلاس: هي مدينة من أكبر مدن بلاد كوّار، وهي قريبة من ورجلان.
- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 39؛ - الحميري، الروض المعطار، ص 39.

5 - الحميري، الروض المعطار، ص 39.

6 - الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 255.
- جليلة يعقوب، السابق، ص 111.

7 - الحميري، السابق، ص 523.
- مجهول، الإستبصار، ص 132.

وأشار القلقشندي إلى أن سكان مدينة صفاقس كانوا قد انفردوا بصناعة ثياب من نبات يستخرجونه من البحر، وينشرونه في الشمس حتى تتفتح أوراقه وتعطي خيوطا شبيهة بالوبر، فيقطعونها ثم ينسجون بها ثيابا لها رواجا كبيرا في أسواق أفريقية[1].

1 - صناعة الحرير:

يجمع عدد من الباحثين على أن العصر الموحدي عرف فيه المستوى المعيشي للسكان تحسنًا واضحا ومن المفروض أن يتجلى ذلك في كثير من المظاهر الحضارية، ومن بينها صناعة النسيج والتي تُعتبر مؤشرا هاما لقياس هذا التحسن ويتمثل في:

ارتفاع مستوى مَعِيشة السكان خلال العصر الموحدي، إلاّ أن ذلك لم يشمل إلاّ قاطني المدن، فقد اتسعت الهوة بين أهل الحضر والريف في اللباس والفرش، بين الخاصة والعامة في المجالين حيث توجه المترفون نحو البذخ، وقد شاع لبس الحرير في أوساط الخاصة مع أنّ المهدي بن تومرت قد نهى الرجال عن لبسه[2]، لكن الناس أقبلوا على هذه المادة ولعلى ذلك هو الذي حدا بالخليفة الموحدي يعقوب المنصور إلى أن يمنع لباس الحرير ويأمر بقطع الغالي منه[3].

ومنع النساء من الطرز الحفيل والاكتفاء منه بالسادج[4] وهكذا فإن بداية فترة موضوع الدراسة عرفت منعا لصناعة الحرير وكذلك جاءت نهاية الفترة، الأمر الذي عاد بانحصار صناعة الحرير في مركزين على مستوى الجهة الغربية هما مدينتي فاس التي أُسس بها عدد من دور

---

1 - صبح الأعشى، ج5، ص ص 106-109.

2 - إبن القاضي، جذوة الاقتباس، ج1، ص51.

3 - إبن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص 174.

4 - السابق، ص ص 172-173.

صناعة الحرير[1] والمدينة الثانية هي مدينة سبتة المغربية الساحلية التي ساعدها موقعها الجغرافي على أن تكون بوّابة الدّخول إلى الأندلس[2].

في حين تصدّرت مدينة قابس وَسَبْخَة[3] مدن الجهة الشرقية في تربية وصناعة الحرير[4] ومنها يتجهز به إلى بقية المدن الكبرى في أفريقية، وعلى العموم فإن إنتاج الحرير بقي محدودا على مستوى بلاد المغرب كلها لنهي الشرع عن لبسه ومن جهة أخرى لم تكن عوائد الترف قد استحكمت في الفئة العريضة من المجتمع الغربي.

2- صناعة القطن والكتّان:

أشار المؤرخ عبد الواحد المراكشي إلى أن أيّام الخليفة أبي يعقوب يوسف تميزت بكثرة " الخصب ودُرور الأرزاق واتساع المعَايش، و لم ير أهل المغرب أياما قط مثلها، واستمر هذا صدرا من إدارة أبي يوسف"[5]، ويبدو جليا أن البلاد المغربية وخاصة المراكز الحضرية الكبرى، قد نهلت من تقاليد الترف عن طريق الأندلس وأفريقية – بعد ضمها – والمشرق، فالرخاء الاقتصادي وانفتاح البلاد من العوامل التي ساهمت في تغيير أساليب الحياة، وفي هذا المجال قال ابن خلدون" ثم إذا اتسع أحوال هؤلاء المتمولين للمعاش، و حصل

---

[1] – إبن أبي زرع، الأنيس، ص 160.
– السبتي عبد الأحد، المدينة في العصر الوسيط، ص 263.

[2] – الإدريسي، نزهة المشتاق، (ب)، ص 529.

[3] – سبخة: مدينة تبعد عن قابس بحوالي ثلاثة أميال من جهة البحر.
– حليلة يعقوب، نظرة الإدريسي إلى المغرب، ص 136.
– أنْجَل ياسين، مدينة قابس وناحيتها حتى سنة (555هـ / 1160م) (س،ك،ب)، كلية الآداب، تونس 9 أفريل 1998م، ص 110.

[4] – السابق، ص 112.

[5] – عبد الواحد المراكشي، المعجب ، ص 371.

لهم ما قوى الحاجة من الغنى والرفه دعاهم ذلك إلى ... وانتقاء الملابس الفاخرة في أنواعها من الحرير وغيره..."[1].

وإذا كانت صناعة الحرير قد عرفت مضايقة واحتشاما بسبب موقف العلماء من لبسه فإن حضور المنسوجات القطنية والكتانية تكشف مدى التطور الذي شهده القطاع. فقد اتجهت مصانع النسيج إلى مزج الحرير بمنسوجات أخرى من الصوف والكتان والقطن مثل القماش السفساري الذي يُصنع من الحرير والقطن أو الحرير والصوف[2] وثياب الخزّ الذي يطلق على القماش المصنوع من القطن والكتان ثم تخلط خيوط من حرير على ظهره وصدره[3] ويطلق على مثل هذه الأنسجة إسم أبرسيم[4]. ويَكْشِف هذا الحضور عن تطور المستوى الحضاري لسكان بلاد المغرب، وهو ما يدعم الرأي الذي يقوله الإدريسي عن مدينة فاس: " وتجلب إلى حضرتها كل غريبة من الثياب [5]، ويمكن حصر هذه المنسوجات غير الحريرية في الملّف والأقمشة الأفريقية، السفسارية والقباطي، ويَظهر أن توحيد إفريقية وضمه إلى بقية بلاد المغرب قد أضاف شيئا من التحسين للصناعة النسيجية.

---

[1] - المقدمة، ص 150.

[2] - العمري، مسالك الأبصار، ص 97.

[3] - إبن مرزوق، المسند الصحيح، ص 130.

- أبو عبد الله سيدي المهدي، النوازل الصغرى، ج1، ص 30.

[4] - السابق، نفس الجزء، ص 34.

[5] - نزهة المشتاق، ط(د)، ص 346.

لقد كان خلفاء الموحدين حينما يتعلق الأمر بتجهيز أرضية مسجد أو قصر أو بيمارستان أو الاستعداد لحملة عسكرية، ينظرون في استجلاب الفُرش[1] والملابس من أفريقية[2].

وتزايد هذا التطور في ميدان الصناعة النسيجية بعد أول اتفاقية للسلام وحسن العلاقات عقدها الموحدون خلال عهد عبد المؤمن بن علي في حدود سنتي (548هـ / 1153م)، (549هـ / 1154م) مع جمهورية جينوا الإيطالية[3]، وتضمّن الإتفاق الاشارة إلى حرية تنقل الأشخاص والسّلع وحُددت الواجبات الجمركية 8% على واردات البلاد من المنتوجات الإيطالية[4] وانطلاقا من أواسط القرن السادس الهجري – الثاني عسر الميلادي تكونت بجنوا شركات للتجارة[5].

ومن أهم مراكز الجهة الغربية نجد بلاد المغرب التي اشتهرت بصناعة النسيج نذكر مدينة مراكش، فاس ومدينة وجدة التي يقول عنها صاحب الروض المعطار:" يصنعون أكسية ليس لها نظير"[6] كما انتشرت دور صناعة النسيج في السهول الغربية مثل أم الربيع ومدينة ودّاي[7]، وتادلة

---

[1] – أمر المنصور الموحدي بتغطية أرضية البيمارستان، بفرش نفيسة من أنواع الصّوف والقطن والكتان مما يزيد عن الوصف.
– عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص 287.
– إبن أبي زرع، القرطاس، ص 138.

[2] – إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 147.
– عبد الواحد المراكشي، السابق، ص 412.
– Fleury (v), « les Tapies de kairouans et de l'industrie de la teinture en Tunisie », Revue Tunisienne, N° 9, Janvier 1896, p 181.

[3] – Mas. Latrie : op.cit, p 47.

[4] – ibid, p 47.

[5] – ibid, p 48.

[6] – الحميري، الروض المعطار، ص 607؛ – مجهول، الإستبصار، ص 177.

[7] – ودّاي: مدينة بأرض المغرب الأقصى بينها وبين مدينة أغمات أربعة مراحل، وبينها وبين تادلا مرحلة واحدة.
– الإدريسي، نزهة المشتاق، ط (د)، ص 74.

وذلك لانتشار زراعة القطن بالمنطقة[1]. وتفنّن حرفيوا الصناعة النسيجية في تفصيل الثياب وخياطتها خاصة في مدن سبتة وسلاّ بإعتبارهما مركزين للصناعات النسيجية الرفيعة واحتلت العمامة مكانة عالية لدى فئات المجتمع المغربي، حيث تعدّت دور غطاء الرأس ووقايته إلى مستوى الإفتخار والتباهي بها[2].

أما مراكز صناعة النسج على مستوى الجهة الشرقية فمتعددة وهامّة تتصدرها كل من مدينة بوسة التي تنسب إليها الثياب الرفيعة والمعروفة بالثياب البيضاء[3] تليها المهدية وتونس اللّتين يُعسر الإتيان بأجمل ما تصنعانه من الألبسة القطنية والكتانية[4]، واشتهرت بجاية بصنع عمائم الشّرب المذهبة التي كانوا يغالون في أثمانها فوصل ثمن العمامة إلى خمسمائة دينار، كان السكان يُعمّمونها بأتقن صنعة فتأتي كأنها تاج[5]، وامتاز صنعة تلمسان وقلعة هوّارة بالقرب من تاهرت بالجودة والإتقان، فعرف كساء تلمسان بخصوصية الدّقة والرّقة والختم[6].

3- صناعة الصّوف:

انتشرت صناعة الثياب من الأصواف في البلاد الغربية حيث اشتهر سكان منطقة أزكي من بلاد الصحراء بنسج ثياب يسمونها

---

1 - جليلة يعقوب، نظرة الإدريسي، إلى المغرب الإسلامي ص 225.
2 - إبن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص58.
3 - مجهول، السابق، ص119.
4 - إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 450.
- إبن سعيد، كتاب الجغرافية، ص 109.
5 - الإدريسي، نزهة المشتاق، ط (د)، ص ص 90-92
- صالح بعيزيق، بجاية في العهد الحفصي، ص ص 346 347.
- الحميري، السابق، ص 81.
6 - السابق، ص 62.

بلغنهم "القدوار"[1]، وتوسط سكان منطقة السوس الأقصى بصناعة أكسية من الصوف يلفونها على رؤوسهم ويحتزمون في أوساطهم بمآزر يسمونها أسفاقس[2]، في حين اشتهرت لمتونة في الصحراء بأثواب الصوف والعمائم المعروفة بالكرّازي

وفي الشمال تجلت صناعة النسيج في نسج أثواب من الصّوف الخاصة بتغطية البدن مع نسيج جلموس غليظ يوضع على الرأس وحزام عُرف بالحزام التلمساني وعمامات صوفية[3]. وتجنبا لشدة البرد عُرف سكان حاحة بصناعة ثياب صوفية لا تقل خشونة عن عطاء الفراش، ويضعون على جلدهم إزارا من الثوب نفسه يسترهم من الحزام إلى نصف الساق[4]، ويغطون رُؤوسهم بعمامات من الصوف عرضها زهاء نصف قدم يلفُ لها خمس أو ست مرات[5].

وتجلت صناعة النسيج الصوفية في منطقة جزولة في تشكيل وخياطة معاطف صغيرة أو قمصان من صوف ضيقة وقصيرة لا تغطي الركبتين، وليس لها كمام ولا أطواق[6]، وكان سكان بلاد المغرب يحرصون على لبس القلنسوة أو الكرزية[7] المصنوعة من الصوف وبها تزيّن إبن تومرت عندما رحل إلى المشرق[8] وشهد إبن صاحب الصلاة بأن الخليفة عبد المؤمن بن علي "ما لبس قط

---

[1] - الإدريسي، نزهة المشتاق، ط (د)، ص 60.

[2] - الإدريسي، نزهة المشتاق، ط (د)، ص 62.

[3] - البادسي، المقصد الشريف، ص 59.

[4] - السابق، ص 72.

[5] - السابق، نفس الصفحة.

[6] - مارمول، افريقيا، ص ص 7-19.

[7] - الكُرزية: هي عبارة عن عمامة نسيج مستطيل الشكل مصنوعة من صوف.ينظر:
- إبن الزيات، التشوف، ص 46.

[8] - إبن القطان، نظم الجمان، ص 17.
- البيدق، المهدي بن تومرت، ص 41.

إلاّ ثياب الصوف لقد اقتصر على قميص وسروال وجُبّة"[1]، وكان الفقهاء يلبسون البرانس ذات اللّون الأبيض، وطيلسان وهو ثوب موصول بغطاء الرأس[2].

أما على مستوى الجهة الشرقية فقد عرفت صناعة النسيج تراجعا واضحا بسبب تعرض بلاد افريقية إلى هزّات سياسية وفترات حروب شاركت فيها عدة قبائل بربرية، وعربية هلالية وغيرها ولكن سرعان ما استرجعت دورها الريادي في صناعة النسيج بصفة عامة والصوفي على الخصوص. وضربت مدينة قفصة الأمثال في صناعة الأردية الصوفية الرقيقة[3] والطيالس البيضاء[4]. والعمائم الطويلة[5]، كما اشتهرت مدينة نفزاوة بأنواع الثياب الصوفية[6].

ونالت قلعة بني حماد شهرة واسعة في مجال صناعة الأكسية وصفها صاحب الروض بالمفرد في الكثرة والجودة ولا تناظرها صناعة النسيج الصّوفي إلاّ مدينة وجدة بالمغرب الأقصى[7]، وكذلك كانت سوسة التي يضرب المثال بصناعتها النسيجية[8]، وبجاية التي كانت بها دور لصناعة النسيج الصوفي وقد اشتهرت عمائمها المذهّبة التي تلقى رواجا بسوق الصّوافين كما ذكر الغبريني[9].

---

[1] - تاريخ المن بالإمامة، ص 368، ص 216.
- القاضي عياض، المدارك، ج8، ص 168.
- القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 281.
[2] - العمري، مسالك الأبصار، ج12، ص 141.
[3] - إبن سعيد، الجغرافية، ص 113؛ - مجهول، الإستبصار، ص (170-159-154).
[4] - السابق، ص 170.
[5] - السابق، نفس الصفحة.
[6] - السابق، ص 113.
[7] - الحميري، ص 470.
[8] - مجهول، الإستبصار، ص 119.
[9] - الإدريسي، نزهة المشتاق، (ط)(د)، ص 140؛ - صالح بعيزيق، بجاية في العهد الحفصي، ص 139.
- عنوان الدراية، ص 77.

وتبعًا لكثرة المزارع والضياع بتاهرت فإن البقر والغنم بها كثير ومن ثم فإن صناعة النسيج الصوفية كانت بها متوفرة[1].

ونالت صناعة أثواب تلمسان الصوفية شهرة تجاوزت حدود المدن الداخلية لبلاد المغرب[2]، الذين كانوا يتخذون أثواب الصوف في فصل الشتاء[3] وتوسع الناس في استعمال النسيج الصوفي لدرجة أنهم صنعوا البُسط (الفرش) مثلما هو شأن سكان جبال الونشريس عند بني توجين[4].

وجدير بالإشارة إلى أن صناعة النسيج الصوفية كانت موجهة إلى العامة من الناس أكثر من غيرها لأن لباسها بسيطا يقتصر في الغالب على الكساء الصّوفي وأحيانا أخرى على البرنس وتحته سروال وقميص، وكانت هذه كسوة المعوزين من قاطني الحاضرة أيضا[5].

*** صناعة الجلد:**

1- المادة الأولية:

تحتل الصناعة الجلدية مكانة بارزة بين الصناعات الأساسية في بلاد المغرب وذلك لوفرة المواشي من أغنام وأبقار وَلَمَطٍ[6] ونمور[7] وفنك[8]، فمعظم المناطق الساحلية والأطلسية تزخر بالمواشي

---

1 - الحميري، الروض المعطار، ص 129.

2 - عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، ج1، ص 257.

3 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 141.

4 - الإدريسي، نزهة المشتاق، (ط،د)، ص 140.

5 - د/ إبراهيم الفادري بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص ص 65-85.

6 - نسبة إلى نول لمطة الذي يعرف باسم اللمطي المتوفر بكثرة في نول لمطة وسجلماسة وفي بلاد لمتونة.
- الإدريسي، نزهة المشتاق، ط(د)، ص 39؛ - إبن حوقل، صورة الأرض، ص 91.

7 - حودت عبد الكريم يوسف، الأوضاع الإقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط، ص 229.
- وأشار الحميري والإدريسي إلى وجود النمور ببرقة.ينظر : - الروض، ص 91.
- نزهة المشتاق، ط(د)، ص 31.

8 - الفنك: هو حيوان بري من فصيلة الثعلب ويمتاز بفراء جميل.
- البكري، المغرب، ص 171؛ - المقري، أزهار الرياض، ج5، ص 129.

فهذه زويلة[1] قد اشتهت بكثرة المواشي والزروع[2] وينطبق الوصف ذاته على بجاية والمسيلة وبونة وتونس والجزائر وتلمسان وتاهرت ووهران حيث تقول في حقها جليلة يعقوب:" ويكثر في وهران المنتوج الحيواني من سمن وزبدة لكثرة المواشي بها"[3]. وكانت ذبائح أهل الإسكندرية من أغنام برقة لكبر حجمها وكثرة شحمها[4].

وقد كانت بلاد السوس الأقصى تتوفر على الأبقار والأغنام بما يزيد عن حاجة سكان المنطقة وذلك بسبب تربية الماشية على نطاق واسع، وكان أهل فازاز الذين سيكونون الجبل الذي تسمون باسمه وهو جبل ممتد ومرتفع تسكنه أمم كثيرة من البربر يكسبون البقر والغنم والخيل[5]، وإلى الجهة الشرقية من بلاد المغرب الأقصى نجد وجدة المعروفة بكثرة البساتين والجنات وأراضيهم بها مراعي غنية بالعشب ترعى بها الغنم وتسمن لدرجة أن واحدة من شياههم تنتج مائتا أوقية من الشحم[6].

وجدير بالإشارة إلى أن ظاهرة اتساع الرعي شبه الصحراوي في الجهة الشرقية لبلاد المغرب، حفزّ الفلاحين على تربية المزيد من

---

[1] - تعرف مدينة زويلة بأنها إحدى المهديتين، لأنها كانت متصلة بالمهدية في التابعة لبلاد المغرب الأدنى، وكان السلطان وخاصته وجنوده يسكنون المهدية أما زويلة فهي لعامة الناس، و بها زروع ومواشي كثيرة.
- الإدريسي، نزهة المشتاق، ط(د)، ص 109.

[2] - الحميري، الروض، ص 296.

[3] - نظرة الإدريسي على المغرب الإسلامي، ص 306.
- مجهول، الإستبصار، ص 133.

[4] - جليلة يعقوب، السابق، ص 307.

[5] - مجهول، الإستبصار، ص 187.

[6] - البكري، المغرب، ص 87.
- الحميري، السابق، ص 607.
- مجهول، السابق، ص 177.

المواشي من أبقار وأغنام وخيول الأمر الذي دفع السكان إلى تأسيس مراكز جديرة للصناعات الجلدية[1].

2 - الصناعة الجلدية:

كان من الطبيعي أن تزدهر الصناعات الجلدية ببلاد المغرب خلال فترة موضوع الدراسة وذلك لتوفر عاملين أساسيين أولهما المادة الأولية المستخرجة من الثروة الحيوانية التي كانت تزخر بها البلاد، والعامل الثاني يتجسد في التطور الحضاري لسكان بلاد المغرب، خاصة سكان الحواضر.

تضم الصناعات الجلدية الدّباغين والبلاغجية والقرّاقون والسراجين والغرابلية، وتعد هذه المهن الجلدية وغيرها من المهن المهمة والضرورية لارتباطها بالمدينة التي لها صلة بحاجيات الريفيين وسكان الحضر على السواء.

فالدّباغة كانت من الحرف المزدهرة والمنتشرة في جميع المدن المغربية، وقد حظيت الجلود المدبوغة بشهرة واسعة، وكانت مدينة تونس أكثر المدن الشرقية شهرة بهذه الصناعة، تليها بجاية والمسيلة فبونة، في حين تقدمت مدينة تلمسان على غيرها من مدن المغرب الأوسط، وفاس على رأس مدن المغرب الأقصى.

وتتم عملية الدبغ بطرق بسيطة تقوم على تغلية قشور الشجر التي تكون في الغالب من شجر الصنوبر أو الرمان أو ثمر شجر التاكوت أو البلوط أو قشور جذور السّماغ[2]، أما البلاغجية فهم حرفيون مختصون في صناعة البلغة وهي حذاء خفيف من الجلد الأصفر

---

[1] - الإدريسي، نزهة المشتاق، ط(د)، ص 106.

[2] - يستخرج من مناطق شحرية معينة وهو سائل مركز يستعمل لدبغ الجلود البيضاء.
Dozy (R), dictionnaire, p360. -

وهو خاص بالرجال[1] وهي تتألف من الفرش والرقعة والتبطين وتفنن الخرازون في صنعها[2].

وزاد البَلغَاجيون صناعة لنعال وهي عبارة عن فراش من الجلد أو نحوه، توضع فوقه القدم ويشد إليها بواسطة شريطين من الجلد يمر أحدهما وسط الرجل والآخر بين الإصبع الأكبر والثاني الذي يليه وقد اتعلها الحكام الموحدين[3]، وكان ابن تومرت يضرب بها الناس على الخمر متشبها في ذلك بالصحابة[4]، و لم تكن النعال المصنوعة من الجلد متيسرة لجميع سكان البلاد، وأنّها تطلبت يدا عاملة متخصصة ولا يتوفر لك إلا بالحواضر الكبرى.

أما القراقون فهم حرفيون يصنعون القرق[5] وهو نوع من النعال وقد توفرت مدينة أدي في العصرين المرابطي والموحدي على سوق خاص ببيع الأقراق[6] وأرتبط ذلك بالأندلسيين المجودين بهذه المدينة وعرف لدى سكان بجاية باسم الزّرارية وقد نهى ابن تومرت الناس عن لبسه[7].

---

[1] - كانت قبل القرن السادس الهجري تتخذ من الخلفاء، وهي معروفة منذ القديم واستمر استعمالها ببعض أرياف بلاد المغرب إلى القرن الثامن عشر الميلادي ويطلق عليها لفظ"إركاسن" بالبربرية. ينظر:
- علي أمهان، البلغة، معلمة المغرب، ج4، الرباط 991 م، ص 337.
- sefrioui (A) : les Babouches (Elbalgha), la grande encyclopédie du Maroc, imprimé en Italie, G.E.P1 édit. 1987, V_2, p 126.

[2] - النادلي، النشوف، ص ص 297-298.

[3] - إبن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص 68.
- إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 117.

[4] - عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص 283.

[5] - القرق: مشتق من الكلمة اللاتيني كركس Quercus) وتوجد في اللغة الإسبانية كلمة الكرك "Alcorque"
- Dozy (R), dictionnaire, p 363.

[6] - إبن القطان، نظم الجمان، ص 268.

[7] - البيدق، أخبار المهدي بن تومرت، ص 13.

لقد أشارت كتب الحسبة لهذه الصناعة، فنهت القراقين عن خلط جلد العنز مع جلد الضأن وألزمتهم بأن يفصّلوا القرق كاسيا للقدم[1]، وإلى جانب حرفي ألْبِسَة القدمين، كان السّراجون وهم صانعوا السّروج الجلدية التي تسابق حرفيو صناعة الجلد إليها وتناسوا في إخراج السروج على أحسن شكل وأجمل صورة وذلك لأنها واحدة من الصنائع الموجهة لأعيان الحواضر، وقد كان الحرفيون التلمسانيون ينقشونها ويزينونها[2] مثلما يفعل في فاس، وتونس وتشير بعض المصادر التاريخية إلى أن الأندلسيين، وأهل الذمة أعطوا اهتماما كبيرا لهذه الحرفة لأنها عامل إثراء هام لهم[3]. وقد حافظ الأندلسيون على هَيمنتهم في مجال صناعة السروج خاصة في بعض المدن الكبرى، كفاس وتلمسان وتونس[4].

لقد تخصصت بعض المدن المغربية في صناعة بعض أنواع الأدوات الجلدية مثل تلمسان التي تفنن حرفيوها في صناعة مستلزمات الفارس[5] ومراكش في صناعة بعض الفرش الزاهية الألوان[6]، وتعدى ذلك إلى اختصاص سوق بكاملها بمستلزمات تجهيز الخيل من سروج وأحزمة جلدية، وقرب لحفظ المياه أثناء السفر.

وانفردت مدن أخرى بصناعة جلدية معينة، فمدينة بترت التابعة إلى افريقية امتازت بصناعة الفراء الثمين الذي كان يصنع من جلود بعض الحيوانات خاصة الفنك وطير الحواضر[7] وكانت

---

[1] - السقطي، رسالة في آداب الحسبة والمحتسب، ص 4 .

[2] - عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، ج1، ص 212.

[3] - BEN Achour (Med.elaziz) catégories de la société tunisienne PARIS 1938, p 139.

[4] - Goitein (Sp) , « Artisans en Méditerranées orientale au haut Moyen âge » E.S.C. N° 4 1986 p447.

[5] - إبن سعيد، المغرب، ج2، ص 245.

[6] - أشار المراكشي إلى أن أرضية البيسمارستان كانت مروشة بفرش الأدم، المعجم، ص 287.

[7] - إبن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر1، ص 564.

نـــول لمطـــة بـــالجنوب المغـــربي أهـــم مركـــز لتجميـــع جلـــود هـــذا الحيـــوان[1] ومنـــه أيـــضا كانـــت تـــصنع الـــدرق اللمطيـــة، فقـــد ذكـــر الإدريـــسي أنـــه بمدينـــة نـــول لمطـــة كانـــت تـــصنع الـــدّرق الـــتي لا شـــيء ابـــدع ولا أصـــلب منـــها ظهـــرا ولا أحـــسن منـــها صـــنعا وبهـــا اشـــتهر أهـــل المغـــرب لحـــصانتها وخفّـــة محملـــها وهـــي تـــصنع مـــن جلـــد حيـــوان اللّمطـــي المتـــوفر في بـــلاد لمطـــة[2] وهـــذه الـــشهادة تؤكـــد مـــا جـــاء بـــه ابـــن حوقـــل عنـــدما قـــال: "يوجـــد الـــدرق اللمطيـــة بـــين سجلماســـة ولمطـــة والمـــسافة بينـــها عـــشرون يومـــا"[3]، ونظـــرا لكثـــرة الـــدّرق اللمطيـــة وجودتهـــا كانـــت تـــصدر إلى بلاد الأندلس والمشرق الإسلامي[4].

وتتطلـــب حرفـــة الطحـــن، والدّباغـــة صـــناعة الغرابيـــل الـــتي انتـــشرت في جـــل المـــدن المغربيـــة لحاجـــة ســـكان المـــدن والأريـــاف إليهـــا وتعـــد تـــاهرت وتلمـــسان والقـــيروان ومـــراكش مـــن المراكـــز الهامـــة في صـــناعة الغربـــال. وهـــي صـــناعة تكامليـــة بـــين النجّـــار والغربـــالي حيـــث يقـــوم النجـــار بـــصناعة الإطـــار الخـــشبي للغربـــال، ثم يكمـــل الغربـــالي بالـــسّيور الجلديـــة المتقاطعـــة المـــساحة الدائريـــة الداخليـــة للإطـــار الخـــشبي[5] وأشـــير إلى أن مدينـــة تـــونس قـــد اشـــتهرت بالغربـــال المـــصنوع مـــن ســـيور الجلـــد[6]، الـــذي يحـــضر بـــالتمليح لمـــدة ســـتة أشـــهر والتـــشييح ثم التغطـــيس

---

[1] - العمري، مسالك الأبصار، ص 59.

- عز الدين موسى أحمد، النشاط الإقتصادي في المغرب، ص 230.

[2] - الإدريسي، نزهة المشتاق، (ط،د)، ص 59.

- المقري، أزهار الرياض، ج5، ص 129.

[3] - إبن حوقل، صورة الأرض، ص 91.

- البكري، المغرب، ص 171.

[4] - حودت عبد الكريم يوسف، الأوضاع الإقتصادية والاجتماعية في بلاد المغرب الأوسط، ص 228.

[5] - Golvin (l), « Aspet de l'Artisanat en Afrique du Nord », Tunis 1997, p13.

[6] - Fleury (v), « les Tapies de kairouan et l'industrie de la teinture en Tunisie » Revue Tunisienne N° 9 Janvier 1896, p 181.

في الماء ثم إعادة التشييح مرة أخرى قبل مرحلة التقطيع بالطريقة التي تسمح بالحصول على سيور طويلة ورفيعة، وبعدها تكون مرحلة التطليع وهي آخر مرحلة يحصل فيها المربعات المتساوية داخل الشبكة[1].

وجدير بالإشارة إلى أن مواقع الصناعة الجلدية تكون عادة خارج المدن وقريبة من مصادر المياه، لأن هذه الحرفة تحدث روائح كريهة وتحتاج إلى الماء و إلى مساحات واسعة تبنى فيها الأحواض التي تستعمل في تغطيس الجلود.

3 - الصباغة:

إن تطور الصناعة النسيجية أفضى إلى إدماج حرفة الصباغة باعتبارها من الحرف التي لها صلة بحرفتي الصناعيتين النسيجية والجلدية لأنها تهتم بتلوين الصوف المغزول وأحيانا المنسوج مثل البرنوس والجبة والعمامة وكذلك تدخل الصباغة في الصناعة الجلدية كالسروج، النعال والبلغات التي كان لونها أصفر خلال العهد الموحدي[2] وبذلك يتأكد أن سكان بلاد المغرب وخاصة سكان الحضر قد عرفوا الألوان الأولية والمركبة[3] والمواد المستعملة، وتتمثل في النيلة والقرمز والزعفران[4] واكتفى الموحدون بتغيير ألوان الأكسية ومختلف الثياب، فبدل الغفائر القرمزية التي اتخذها المرابطون اختص الخلفاء الموحّدُون باللّون الزبيبي أي العسلي، والبرانس ذات اللّون المسكي فيما احتفظت العمامة بمكانتها ولونها[5].

---

1 - Fleury (v), « les Tapies de Kairouan et l'industrie de la teinture en Tunisie » Revue Tunisienne N° 9 Janvier 1896, p 189.

2 - إبن صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، ص ض 03-109-213.

3 - Coustillac (L), « l'exposition d'arts tunisiens au Musée pédagogique de Paris », Bulletin économique de Tunis n° 60, 1952, p 335.

4 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 144.

5 - العمري، مسالك الأبصار، ص ص 85-97؛ Dozy (R) Dictionnaire.. p 245.

- إبن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص 187؛ - إبن صاحب الصلاة، السابق، ص ص 148-315.

وكانت الصباغة تتم عبر التغطيس في حوض من الماء ومواد الصباغة ثم تنقل القطع المصبوغة إلى أحواض أخرى لامتصاص الصباغة الزائدة، وتعاد عملية الصباغة عدة مرات[1]، ويكون الماء بارد بالنسبة لصبغ الحرير الذي يغسل بالصابون قبل أن يصبغ، والأمر نفسه بالنسبة لصبغ الأقمشة القطنية والكتانية النيلة[2]، وعادة ما يصبح الحرير في موضع إنتاجه في حين تصبغ بقية المصنوعات في مواضع صناعتها[3]. واستعمل سكان الأرياف مادة الكبريت لغسل أكسية الصوف لتصبح بيضاء[4]، وعرفت حرفة الصباغة تطورا ملحوظا خلال عهد الموحدين الذي تفنن حرفيوهم في تركيب الألوان. فكانوا يحضرون مادة القرمز ويخلطونه بالنيلة مع كمية من الحمض ثم يضاف إلى المركب سَائل مستخرج من التمر وتغطس القطع في هذا المحلول لمدة تتراوح بين عشرة وعشرين يوما. وفي الأخير يحصل على اللّون الأخضر، هذا وعادة ما تكون دور الصناعة على الأنهار لحاجتها إلى الماء من جهة وإلى أبعاد آثارها السلبية على الناس من جهة ثانية[5].

*** الصناعة الغذائية:**

تقوم هذه الصناعة على الإنتاج النباتي والحيواني، فكان القمح والشعير واللّحم ومشتقات الحليب هي مواد أساسية في غذاء السكان، وتقوم عليها بعض الصناعات والحرف نذكر من بينها:

---

1 - Coustillac (L), « l'exposition d'arts tunisiens au Musée pédagogique de Paris », Bulletin économique de Tunis n° 60, 1952, p 337.

2 - عز الدين موسى، النشاط الإقتصادي في المغرب، ص 231.

3 - التادلي ، التشوف، ص 445.

- القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 143.

4 - الونشريسي، المعيار، ج6، ص 40.

5 - إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص 27.

1 - الأرحية:

كانت الإرحاء تنصب ب مصبات الأودية لتديرها المياه، وهذا النوع من الإرحاء هو المفضل لدى سكان المدن التي تمر بها الأودية وذلك لسهولة تفريغ المياه إلى جداول تكفي لتدوير المطحنة[1] وهكذا لا تكاد مدينة تخلو من عدة مطاحن ففي الجهة الشرقية، نصبت عدة أرحاء على طول وادي ملاّق بمدينة تبسة[2]، بونة[3]، القالة وطبرقة[4] وغيرها من المدن، كما نصبت إرحاء على طول الوادي الذي يشق مدينة قسنطينة[5].

وكذلك كانت جل المدن الإفريقية كتونس، وتاجرا[6]، وجُلولاَ والمهدية وزويلة تضم عشرات المطاحن المائية، والشأن نفسه بالنسبة لمدن المغرب الأقصى كفاس ومراكش التي أدخل عبد المؤمن بن علي المياه إليها[7] وزيادة على المطاحن المائية العامة، فقد عمدت الأسر الغنية إلى تركيب مطاحن مائية بالقرب من مساكنها.

وعن تاريخ بداية استعمال هذا النوع من المطاحن يَبْدوا أنها كانت محدودة العدد قبل القرن السادس الهجري- الثاني عشر الميلادي، لتكلفتها العالية ولقة الرّعاية بنقل المياه من المنابع إلى المدن أو تفريغ الأودية[8]، فقد ذكر ابن الصّغير أن أهل تاهرت قد شرعوا منذ عهد الإمام عبد الرحمن بن رستم في اتخاذ الرحى

---

1 - المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ص 125-228.
- إبن الأحوة، معالم القربة، ص 89.
2 - الحميري، الروض المعطار، ص 130.
3 - الإدريسي، نزهة المشتاق (د)، ص ص 82-84.
4 - الحميري، السابق، ص 143.
5 - مجهول، الإستبصار، ص ص 159-160.
6 - تاجرا: مدينة بين القيروان والمهدية يمر بها وادي الماّلح. ينظر: - البكري، المغرب، ص 29.
7 - إبن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص120.
8 - (G) Marçais, « la Berbéris Musulmane et l'Orient au Moyen âge », Paris 1946, p 203.

وجموعهـا في موقـع واحـد يـؤدي إليهـا أحـد أبـواب المدينـة حـتى أطلـق عليه " باب المطاحن "[1].

ونتيجـة لتطـور العمـران وانتـشار الـصناعات المختلفـة في مـدن المغـرب، وازدهـار الفلاحـة خـلال عـصر الموحـدين إرتفـع عـدد الإرحـاء المائيـة في جـل المـدن، فقـد زاد عـددها في مدينـة فـاس إلى أكثـر مـن أربعمائـة رحـى هوائيـة[2]، وكـذلك الحـال في تلمـسان ووهران التي اشتهرت بالمياه السائحة و لإرحاء المائية[3].

وقد كانـت الأرحيـة تنـصب علـى مغبـات الأنهـار، وعنـدما يخـرج المـاء يُـديرها، وقـد يـضطر النـاس إلى رفـع منـسوب الميـاه إذا كـان ناقـصا بفـتح جـداول فرعيـة وإيـصالها إلى المجـرى الرئيـسي لتتـساقط فتعمـل تلـك القـوة علـى إدارة الـدولاب[4]، وكانـت الإرحـاء مبنيـة بالحجـارة وأمـا سـقوفها فتكـون مـن خـشب البلـوط المـدعّم بالحديـد والمغطى بالقرميد[5].

وتجـدر الإشـارة إلى أن هـناك اسـتخدامًا آخـرَ للإرحـاء في المـدن والقـرى الـتي يقـل فيهـا جريـان الميـاه، حيـث يعمـد الـسكان إلى الإرحـاء الـتي تـديرها الحيوانـات كـالأحمرة والبغـال والـثيران، وقـد اشـتهرت مدينـة مجانـة في صـنع المطـاحن، حيـث كانـت حجارتهـا تُقطع من جَبَلِها الحجري، وهي حجار في منتهى الجودة وحسن الطحن[6].

---

1 - إبن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، باريس 1908، ص 33.

2 - إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص 36؛ - الإدريسي، نزهة المشتاق، (د،ب)، ص 83.

3 - العمري، مسالك الأبصار، آيا صوفيا، سفر4، 43ق.

4 - إبن صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، ص 143.

5 - عز الدين أحمد موسى، النشاط الإقتصادي في المغرب ص 238.

6 - المقري، ازهار الرياض، ج5، ص 79.

عباس بن إبراهيم، الأعلام، ج9، ص ص 383، 384؛

الحميري، الروض المعطار، ص 525.

- مجهول، الإستبصار، ص121.

2 - صناعة الزيوت:

اهتم سكان بلاد المغرب بغراسة الزيتون، وكثرت بساتينه في جُل الأرياف المغربية، غير أن الجهة الشرقية هي التي أعطت سمعة واسعة لزيوت بلاد المغرب، فمدينة لبدة الحدودية. شرق طرابلس الغرب، كانت بها بساتين الزيتون التي تنتج زيتا مطلوبا ويُتجهّزُ به إلى عدة مدن داخلية[1] كذلك مدينة قابس التي كان بها زيتونٌ كثيرٌ يكفي حاجات سكانها وما جاورهم[2]، وانتشرت أشجار الزيتون في غابات قفصة وقصورها إلى جانب أشجار النخيل[3].

ولا نغادر الجهة الشرقية دون الإشارة إلى انتشار أشجار الزيتون في كل من مدينة تيمْلِيمَن[4] (Témlimene) ونيقوس من بلاد الجريد ومنطقة زويلة الواقعة في الجنوب الشرقي لإفريقية حيث يستخرج منها زيت عَجيب يَعُمُّ سائر البلاد الأفريقية وكان يتجهز به إلى المشرق[5]. بالإضافة إلى ما ذكر فإن صفاقس كانت مركزا كبيرا لجمع الزيت ومنها كان يُصدّر إلى مختلف الجهات خارج بلاد المغرب[6].

---

[1] - سبق التعريف بمدينة لبدة في ص 466 الهامش 4، أما عن زيتونها وزيتها، فينظر إلى:
- اليعقوبي، معجم البلدان، ج6، ص 346.
- مجهول، الإستبصار، ص 231.
- الإدريسي، نزهة المشتاق (د)، ص 129.

[2] - عبد المنعم الحميري، روض المعطار، ص 450.
- الإدريسي، السابق، ص 106.
- عز الدين موسى أحمد، النشاط الإقتصادي في المغرب، ص 239.

[3] - الحميري، السابق، ص 478.
- الإدريسي، السابق، 239.

[4] - تيملمن: مدينة من مدن نفزاوة اشتهرت ببساتين النخل والزيتون.
- الحميري، السابق، ص 146.

[5] - زويلة: هي أحدى المهديتين بشرق أفريقية. ينظر: - الإدريسي، السابق، (د)، ص 109.

[6] - عز الدين أحمد موسى، السابق، نفس الصفحة.

أمـا علـى مـستوى المغـرب الأوسـط فبالإضـافة إلى انتـشار أشـجار الزيتـون في منطقـة سـطيف، طُبنـة والمـسيلة، فـإن جبـال بجايـة ومنطقـة كتامة توفر كميات كبيرة من الزيت سد حاجات سكان تلك المناطق[1].

أمـا في وسـط بـلاد المغـرب الأوسـط فنجـد مدينـة تـاهرت ومـا يجاورهما من مدن وأرياف قد عرفـت نـشاطا واسـعا في ميـدان عـصر الزيتـون وغيره من الغلات، فقـد تحـدث صـاحب الاستبـصار بقولـه: " قلعـة هـوّارة منيعة في جبل خصيب فيه بساتين الزيتون وثمار وأشجار ومزارع وأعناب"[2].

أما الجهـة الغربيـة مـن بـلاد المغـرب فقـد عرفـت تحـولا كـبيرا في غراسـة أشـجار الزيتـون منـذ مجـيء الموحـدين وبـسط نفـوذهم علـى تلك الجهـة، فقـد ظهـرت بـساتين الزيتـون في تينملـل[3]، وكثـرت زراعتـه في مكناسـة[4]. وتوسـع الخلفـاء وأصـحاب الثـروة في غراسـة أشجاره في مراكش[5].

وكـان لهـذا التوجـه أثـر واضـح علـى اسـتغلال الـسكان للزيـت فبعـد انتـشار معاصـره في جـل المـدن كفـاس، مـراكش، مكناسـة وبـلاد حَاحَـة، تحـول الـسكان مـن اسـتعمال الزيـت المـستخرج مـن نبـات الأرجـان[6]، الـذي ينتـشر بكثـرة في بـلاد إيكلـي، ويـستخرج في معاصـر تلك المنطقـة ليتجهـز بـه إلى مختلـف جهـات بـلاد المغـرب الأقـصى ومـن المدن التي اشتهرت بصنعه نجد جبال درن[7] وبلاد حَاحَة[8].

---

1 - العمري، المسالك والممالك، القاهرة 1961م، ص 3-4.

2 - مجهول، ص 178.

3 - إبن سعيد، كتاب الجغرافية، ص 125.

4 - مجهول، الاستبصار، ص 188.

5 - إبن سعيد، السابق، ص 117.

6 - نبات الأرجان، (الأرقان): يشبه الكمثري إلاّ أنه لا يعلو شجره وأغصانه من أصل الشجرة (لاساق) لشجرته، ولها شوك وثمرته تشبه الإجاص. ينظر: - عبد المنعم الحميري، الروض المعطار، ص 71.

7 - إبن خلدون، العبر، ج6، ص 246.

8 - مجهول، السابق، ص 212.

ويبدوا أن تحول السكان من استعمال الزيت المستخرج من نبات الأرجان إلى الزيت المستخرج من شجر الزيتون يعود إلى سببين أولهما إنتشار أشجار الزيتون بتشجيع من الدولة الموحدية وثانيها يعود إلى صعوبة استخراج زيت الإرجان الذي يتم علة مراحل ، فبعد أن يُجمع يُترك حتى يذبل، ثم يوضع في مقلاة فخّار على النار، مستخرج دُهنه، وهو بعد هذا يشبه طعم القمح المقْلي، ويفيد في تسخين الكلى ودرِّ البول[1].

أو تترك ثماره للماعز فتأكل قِشرته الخارجية، ثم يُجمع مرة ثانية بعد تصلّبه بفعل حرارة الشمس، أو النار فيكسر ثم يُطحن فَيُسْتَخرج زيته[2].

وأما عن صناعة الصابون فقد ارتبطت بوفرة الزيت وهي مرافقة له فقد ازدهرت في الحواضر الكبرى لبلاد المغرب، بشهادة إبن أبي زرع أَحْصَى سَبعة وأربعين دارا لصناعة الصابون في فأس[3] وأشار الإدريسي إلى انتشاره في كل من بجاية ومراكش[4].

3 - صناعة السكر:

تعتبر صناعة السكر من أنشط الصناعات التي عرفتها بلاد المغرب منذ وقت مُبكر، فقد كانت موجودة أيام المرابطين، وبلغت أوجها في عهد الموحدين الذين شجعوا زراعة قصب السكر وتصنيعه، وأقاموا مشاريع للري ووحدات لِصناعه. غير أن انتشار مراكز صناعته تغيرت

---

1 - الحموي، الروض المعطار، ص 144.
2 - الإدريسي، نزهة المشتاق (د)، ص 64.
3 - الأنيس المطرب، ج2، ص 160؛ ص 26.
4 - نزهة المشتاق، (د)، ص 70.

بفعل التأثيرات السياسية التي كانت ملازمة للثورات الداخلية والتراعات المتواصلة خاصة في الجهة الشرقية لبلاد المغرب، الأمر الذي أثر سلبا على إنتاجه[1].

أما على مستوى الجهة الغربية فقد كثر عدد معاصرها وتوزعت في عدة مدن فقد أرتفع إنتاج معاصر مدينة مراكش [2]، وكذلك أنشئت معاصر في مدينة سلا وجزائر بني مزغنة[3] وقد اشتهرت منطقة إيجلي التي تعتبر قاعدة بلاد السوس بإنتاج السكر الجيد والذي يُصدر داخليا إلى إفريقية والمهدية، وخارجيا إلى الأندلس وغيرها[4] ويؤكد الإدريسي ذلك حينما يقول:" إن السكر السوسي يُساوي السليماني ويشف على جميع أنواع السكر في الطيب والصفاء"[5]، ويشترك صاحب الاستبصار مع الإدريسي من التنويع بجودة وكثرة السكر بقوله:" تارودانت أكثر بلاد الله قصب السكر وأخصب بلاد المغرب وأكثرها فواكه وخيرات ومنها يجلب السكر إلى جميع بلاد المغرب"[6]. وعرفت جبال درن وجبال موسى من بلاد السوس أيضا زراعة قصب السكر وتصنيعه وقد أشار إلى ذلك الإدريسي [7].

أما فيما يتعلق بمصانع السكر من حيث شكل البناء، نوع مادة البناء والسّقافين، ونمط التجهيزات فإن المصادر التاريخية وكتب الرحلات تحجم عن ذكرها عدا ما كتبه BERTIER (PAUL) عندما قال:" مصانع السكر هي عبارة عن منشآت ضخمة ذات

---

[1] - عز الدين موسى، النشاط الإقتصادي في بلاد المغرب. ص 240.

- نوحي الواقي، بلاد السوس الأقصى في العصر الوسيط. (شهادة الكفاءة في البحث) كلية العلوم الاجتماعية، تونس (1990م-1991م)، ص ص 114-116.

[2] - القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 176.

[3] - العمري، مسالك الأبصار، ج4، ورقة 57ق.

[4] - البكري، المغرب، ص 161.

[5] - نزهة المشتاق، (د.ب)، ص 62.

[6] - الإستبصار، ص ص 211-212.

[7] - الاستبصار، ص 590.

تصاميم مُحكمة وبنايات نالت إعجاب الذين زارُوها وعاينوها في إيجلي وتارودانت"[1].

*** الصناعة النباتية:**

1 - صناعة العقاقير والعطور:

وضع الموحدون المادة الأولية بين أيدي علماء الكيمياء، عندما اهتموا بالغراسات فبَنُوا البساتين والبحائر ومن الأمثلة على ذلك البَحَائر التي أنشأها أبو أيوب يوسف[2]، والبحيرة التي أحدثها المنصور بمراكش الجديدة[3]، ولم تكن بساتين مراكش هي الوحيدة فقد كانت بساتين أخرى غرسها الموحدون في مكناس والمقرمدة وتازا. وجملة القول، فإن الجنات والبساتين ووفرة الفواكه والمشمومات هي ظاهرة حواضر بلاد المغرب[4].

وفي هذه الفترة ظهر علماء في الكيمياء وبرعوا في إدراك خصائص الأعشاب من بينهم أبو جعفر أحمد بن محمد الغافقي القرطبي (ت 561هـ / 1166م)، وكذلك أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرج الأموي المعروف بإبن الرومية[5] الذي تخرّج على يديه كثير من علماء النبات من بينهم أبي البيطار المالقي[6]، وهكذا توفرت الظروف لتطوّر صناعة الأدوية والعقاقير المستخرجة من

---

1 - les anciennes sucreries du Maroc et leur réseaux Hydraulique 2Tomes ; RABAT, Ministère de l'éducation Nationale, 1966, p p 120-130.

2 - محمد منوني، العلوم والآداب، ص ص 121-124.

- إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص 144.

3 - إبن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص 219.

4 - مجهول، الإستبصار، ص (174، 184، 101، 113).

5 - درس إبن الرومية النبات وتصنيفه، وطاف من أجل ذلك في بلاد الأندلس والمغرب وافريقية ثم رحل إلى المشرق بعد سنة (580هـ / 1185م). ينظر: - إبن الأبار، التكملة، رقم 241.

6 - السابق، رقم 304.

- إبن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص ص 215-221.

النباتات المختلفة مُفرَدَة كانت أم مُركبة على أفضل تركيب وأطلق على ممارسة هذه الحرفة الصيدلانية[1] وهو مُعَرّب من جَنْدَلاَني وقد كان لِكل بيمارِسْتان صيدلية تسمى "شَرَابْخَانَاه" ومعناها خزانة الشراب والمعاجين النّفيسة والمربّيات الفاخرة و أصناف العطور[2].

ويغلب على الظن أن هذا التطور في ميدان صناعة العقاقير والعطور تركزت في الجهة الغربية لقربها من دار السلطان، وقد بدأت مع ظهور دولة الصنهاجيين الصحراويين الذين استفادوا من تجارب غيرهم في هذا المجال[3].

ونتيجة لتطور صناعة العقاقير، ظهرت طبقة من الناس عرفوا خلال عهد المرابطين والموحدين بإسم "العطّارون" لأنهم اختصوا بيع الأعشاب أو النباتات. ومعالجتها بسوائل أو عَجنها مختلطة بغرض تشكيل معجون معين مثل معجون قِشْرَ الإتراج، معجون الزنجبيل، معجون الحِبْقُ القرنفلي، ومعجون الكمّون[4]، وقد تكون معالجة النباتات والأعشاب مفردة أو مركبة لاستخراج أشربة مُعينة مثل شراب الصندل الذي ينفع في تقوية المعدة وفي قطع القيء[5] وشراب العُود القماري الذي يقوي المعدة والكبد وسائر الأعضاء[6].

---

[1] - لفظ الصيدلة مُعرب جاء من الهند عن طريق الفرس وذلك من لفظ "جَنْدل" فقُلبت الجيم صادًا فأصبحت صَندل، وهو خشب العطر المعروف الذي يجلب من الهند. ينظر:
- الخطابي محمد العربي، الطب والأطباء في الأندلس والمغرب، ص 481.

[2] - أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، بيروت 1981م، ص ص 611-614.

[3] - وضع الطبيب إبن زهر كتابه" الإقتصاد في صلاح الأجساد " للأمير أبي إسحاق إبن يوسف، إبن الأبار، الذيل والتكملة، ج5، ص 18.

[4] - الخطيب حنيفة، الطب عند العرب، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت 1988م، ص 143.
- أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ص 44.

[5] - مجهول، كتاب الطبيخ، ص ص 220-223.

[6] - السابق، نفس الصفحات.

لقد إنتظم العطارون في مجالات على جانبي الطرق في الأسواق وقد شكلت محلاتهم حيزا خاصا بهم بالقرب من محلات الشماعين والكتبيين. بعيدا عن محلات الحرفيين وتجار المعادن كالنحاس والحديد[1] الذين يُسبّبون الثلوث والإزعاج للمتسوقين.

لقد أصبح العطارون يتلقون الوصفة الطبية من الطبيب المعالج ويُحَضَّرون الدواء للمريض مع تبيان طريقة الإستعمال[2]. ويصف السقطي هذا التطور الحاصل في هذا الميدان بقوله:" لقد بلغ عدد العقاقير نحو الثلاثة ألف في العدد والاختراعات لا تنقطع[3] وقد أكدت المصنفات العُشبية الموحدية المعلومات التي أوردها السقي وذلك بجداول تحمل أسماء العقاقير والعطورات بأسماء يونانية وعربي وبربرية ومكان انتشار كل نوع مع ذكر خصائصه[4] كما أدخلوا العَنبر الذي يصطاد نباته من البحر في صناعة الروائح العطرية حيث يخلط بمواد أخرى ليصبح له دور في تقوية القلب والدماغ وهو نافع أيضا لعلاج البلغم الغليظ[5].

2 - صناعة الورق والوراقة:

يشير حسن حسني عبد الوهاب إلى أن الجهة الشرقية لبلاد المغرب كانت بها مصانع الورق المستخرج من القطن والكتان خلال القرنين الرابع وبداية الخامس الهجريين- العاشر والحدي

---

[1] - إبن الشماع، الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربي للكتاب، 1984م، ص 57.

[2] - الخطابي محمد العربي، الطب والأطباء في الأندلس والمغرب، ص ص 465-481.

[3] - عمدة الطبيب في معرفة النبات لكل لبيب، مخطوط. (خ،ع)، الرباط، رقم 3505د.

[4] - إبن الأبار، التكملة، ج1، ص 123.

- إبن الخطيب، الاحاطة، ط1، ص 220.

- الصقلي أحمد، موسوعة الطب الشعبي، تحقيق من عبود، بيروت 1993م، ص ص 26-28.

[5] - إبن البيطار، الجامع، ج1، ص 134؛ - موريس لومبار، الإسلام في مجده الأول، ص 282.

عشر الميلاديين، وأنها كانت منتجة، ثم تراجع إنتاجها خلال القرن السادس الهجري- الثاني عشر الميلادي، ويعزو ذلك إلى غزو الهلاليين[1]، يبدو أن الأمر يكون صحيحا إذا أرجعناه إلى عدم استقرار المنطقة بسبب التوترات السياسية التي صنعها عدة أطراف من بينها العرب الهلاليين[2]، الأمر الذي أنعكس على هجرة الصناع والحرفيين من المنطقة، وترتب على ذلك تجميد زراعة القطن والكتان ومع ذلك فقد احتفظت مدينتا تونس وبجاية بصناعة الورق ولو بالشّكل القليل الذي لا يُلبي حاجات السكان في ميدان المراسلات، التأليف وغيرها[3].

غير أن الجهة الغربية قد عرفت إقبالا متزايدا على صناعة الورق وأن المواد الخام المتمثلة في القطن والكتان قد توفرت لاتساع زراعتها، وانتشار الأمن وضبط الإستقرار السياسي لوجود دار الخلافة الموحدية بمراكش واعتماد إدارتها على الورق المستعمل في الرسائل الإدارية، وعلى الكتب والدّفاتر لنشر الدعوة الموحدية وتعليم الأبناء والحفاظ وغير ذلك من الأنشطة المعرفية[4].

وتجدر بالإشارة إلى أن الموحدين اعتمدوا على العلماء الأندلسيين والخبراء في صناعة الورق عندما نقولهم إلى العاصمة مراكش، كما فعلوا سابقا في ميدان العمران والفلاحة لذلك ظهرت مراكز

---

1 - ورقات عن الحضارة العربية، ج1، ص ص 208-209؛ ج2، ص ص 165-168.

2 - ينظر ص.... من الفصل الأول.

- Terrasse (Henri),Histoire du Maroc,Casablanca 1949, p300.

3 - إبن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص 94.

- إبن الخطيب، ج3، ص 533.

- إبن الشماع، الأدلة البينة، ص ص 141-143.

- Bosquet,Histoire et institutions les Berbères, Alger 1955, p 20.

4 - السبتي عبد الأحد، المدينة في العصر الوسيط، ص 307.

جديدة لصناعة الورق في كل من سبتة[1] وفاس[2] اللّتين كانتا تضم أربعمائة دارا لصناعة الورق، وعرفت مراكش مثل هذا العدد من الدور التي تصنع الورق[3]. ونشطت مدينة سبتة في هذا الميدان إذ يصفها القاضي عياض بأم الحواضر ويتحدث عن المكتبات التي تضم المجلدات والملفات الأندلسية[4].

الورّاقة:

- الزخرفة:

لعله من الأهمية بما كان أن نشير إلى أن الموحدين صبّوا جهودهم الفنية على زخرفة المصحف العثماني الذي كان بجامع قرطبة الأعظم منذ أيام خلفاء بني أمية بالأندلس، ونقله عبد المؤمن بن علي إلى مراكش في 11 شوال / 552هـ، وقيل أن هذا المصحف هو أحد المصاحف الأربعة التي أرسلها الخليفة الثالث " عثمان بن عفان " - رضي الله عنه - إلى مكة والبصرة ودمشق[5] وشرع عبد المؤمن في اختيار حليته، فاجتمع له من المهندسين والصّباغين والنقاشين والمرصعين، والنّجارين والزوّاقين والمجلدين، ولم يبق عبد المؤمن بن علي ممن يوصف ببراعة إلاّ واستدعاه وأحضره للعمل فيه[6] وصنع له كرسيا على نمطه[7].

---

[1] - بن عبد الله، الاقتصاد المغربي في مختلف العصور، الرباط 1988م، ص ص 36-38.
- السبتي عبد الأحد، المدينة في العصر الوسيط، ص 212.

[2] - إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص 26.

[3] - السبتي عبد الأحد، السابق، نفس الصفحة.

[4] - المدارك، ج6، ص 301.

[5] - جاء في الإستقصا عن إبن عبد الملك عن أبي القاسم التجيبي السبتي قال " أما المصحف- الشامي فهو باق بمقصورة جامع بني أمية بدمشق- كما عاينت- المصحف- المكي بقبة الشراب فلعله- أي المصحف الذي بالمغرب، السلاوي، ج2، ص 113.

[6] - السابق، نفس الجزء، ص ى114.

[7] - محمد المنوني، نهضة الفنون، ص 175.

- **الخطاطون:**

لقد ترتبت عن النهضة العلمية في بلاد المغرب خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين- الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين ظُهُور صناعة الخط الخاصة بأهل البلاد بعد ما كانوا يستعملون الخط الأندلسي والمشرقي[1]، وأخذت مهنة الخط تنمو وتتطور حتى بلغت درجة عالية من الجودة والاتقان، ومما زادها شأنا إهتمام خلفاء الموحدين بالخط فقد وجّه الخليفة عبد المؤمن بنية نحو الاهتمام بالخط، فنشئوا خطاطين.

وكان من أثر ذلك أبرز خطاطين مهرة نَذكر من بينهم عبد الله بن محمد بن عيسى التادلي الفاسي (ت 597هـ / 1202م)[2] وعُقيل بن عطية القضاعي المراكشي (549هـ - 605هـ / 1154م - 1210م)[3].

ولما كثر الخطاطون إختص بعضهم في النّساخة، فقد كان محمد بن جرير المعروف بابن تَاخْمست الفاسي[4] (ت 608هـ / 1213م) ينسخ المصاحف بيده ويهديها لمن يراه أهلا لها[5].

لقد ساعدت كثرة الخطاطين على ظهور مهنة الكتبيين الذين انحصرت أنشطتهم في تجليد الكتب، وتصنيفها وزخرفة عناوينها وقد ارتزق الكثير من هذه المهنة أذكر من بينهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الرحمن ابن الصقر الأنصاري الخزرجي المراكشي

---

1 - إبن خلدون، المقدمة، ص 367.
2 - إبن القاضي، جدوة الاقتباس، ص 286.
3 - السابق، نفس الصفحة.
4 - إبن القاضي، جدوة الاقتباس ، ص 288.
5 - إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص 175.
- إبن القاضي، السابق، ص 138.

(ت 590هـ / 1195م)[1] وكذلك عيسى بن واصل المراكشي (ت 637هـ / 1142م) الذي كتب بخطه دواوين عدة في مختلف الفنون[2].

- **المكتبات:**

لقد امتلأت المكتبات المغربية خلال عهد الموحدين بالدفاتر والكتب، وَصَارَت تنافس نظيراتها الأندلسية، وكانت مدينة مراكش تَضُم مِئَات المكتبات مثل ما هو موجود بمدينة الفاس العريقة حيث ضمت كتبًا مُجلدة وأخرى دون تجليد[3] ولم يكن تعمير هذه المكتبات بهذا الشكل ممكنا لولا سياسة الدولة الموحدية التعليمية المشجعة.

لقد كان الخلفاء الموحدون مهتمين باقتناء الكتب وتملكها[4] ولم يتوقف اهتمامهم بصيانتها بل كانوا يقترحون تأليف الكتب وعرضها في المكتبات العامة للاقتناء أو المكتبات الخاصة للإطلاع والإعارة[5] ومن الأمثلة على ذلك أن الخليفة أبي يعقوب يوسف (558هـ - 580هـ / 1163م - 1184م) الذي أمر بتأليف شروح إبن رشد الثاني على كتب أرسطو[6]، وكذلك كان الأمر مع شروحه على ألفية إبن سينا التي تمت بتوجيه من السيّد أبي الربيع بن أبي محمد بن عبد المؤمن بن علي (ت. 611هـ - 1210م).

وتجدر الإشارة إلى أن مثل هذا الأهتمام بتطوير المعرفة ونشر الوعي بين السكان أعطى قيمة كبيرة للكتاب، وأصبح من الهدايا المحببة لنفوس المتهادين فعمد بعضهم إلى إهداء الكتب إلى زروّاه

---

[1] - إبن خلكان، وفيات الأعيان، ج7، ص 114.
- الزركلي، الأعلام، ج3، ص65.
[2] - إبن خلكان، السابق، ج8، ص 103.
[3] - إبن الخطيب، نفح الطيب، ج1، ص ص 574.
[4] - المراكشي، المعجب، ص ص 155-156.
[5] - المراكشي، المعجب ، ص 159.
[6] - السابق، نفس الصفحة.

وأصدقائه، ومنهم من قدم الكتب هدايا لخزانات الخلفاء والأمراء والعلماء، فقد أشار بن القاضي إلى أن محمد بن علي بن العابد الأنصاري الفاسي (ت. 609هـ / 1215م) لم يفتر قط عن قراءة أو دِس أو نسخ أو مطابقة لبلة ونهاره، ولهذا كان الخليفة المنصور يشجعه ويهدي له الكتب[1].

*** حرفة البناء:**

أكثر الموحدون من تشييد البنايات الضخمة، وترميم الحصون التي تركها المرابطون ببلاد المغرب الأمر الذي جعل البناة أظهر صفاتهم[2] وميزهم عن غيرهم ولعلى بناء جامع الكتبية[3] وجامع حسان بالرباط[4] خير دليل على ذلك ويشهد صاحب الاستبصار " أن قيسارية مدينة مراكش الجديدة ليس في بلاد الإسلام أعظم منها".

وبني الموحدون القصور بمراكش وأحاطوها برعاية فائقة لم يكن مثلها يملك ممن تقدمهم من الملوك، وهذا ابن سعيد يصف مباني مراكش فيقول: "إنها بغداد المغرب وهي أعظم ما في برّ العدوة"[5] وأكثر مصانعها ومبانيها الجليلة إنما ظهرت في ملك بني عبد المؤمن ولم يقتصر الموحدون على البناءات الضخمة في مراكش فحسب بل بنو القصور في فاس والرباط ومكناسة وتلمسان[6].

---

[1] - جذوة الاقتباس، ص ص 111-112؛ 126-130.

[2] - محمد المنوني، حضارة الموحدين، ص 163.

[3] - كان الشروع في بناء جامع الكتبية الثانية في العشر الأول من شهر ربيع الآخر سنة(553هـ / 1158م) واكتمل بناؤه في لآخر نفس السنة.

[4] - كتب المراكشي بقوله:" أن مسجد حسان ليس في مساجد المغرب أكبر منه"، المعجب، ص 176.

[5] - الجغرافية، ص 124.

- المقري، نفح اليب، ج2، ص 124.

- محمد المنوني، حضارة الموحدين، ص 163.

[6] - بنى عبد المؤمن بن علي قصر المشور سنة (540هـ / 1145م) بمدينة تلمسان ليكون مقرا الاجتماعات.

- عبد الله علي علام، الدولة الموحدية، ص 383.

واستجاب الموحدون إلى التطور الحضاري الذي عرفه سكان البلاد، وبنو لهم مدنا بكاملها، فقد وسعوا مدينة مراكش حينما ضاقت بسكانها أثناء استقدام الخليفة أبو يعقوب أفواجا كبيرة من سكان صنهاجة القبلة وهكسورة[1] وأنزلهم المدينة إلاّ أن هؤلاء لم يجدوا حيّا فارغا ليسكنوه، فبني لهم حيّا سنة (579هـ / 1183م).

وكان الموحدون قبل هذا قد مدّنوا القرية التي انطلقت منها الدعوة الموحدية وهي مدينة تينملل، حيث أحيطت بالأسوار، وشيد مسجدها[2]، ومن المدن التي بناها الموحدون رباط تازا الذي بُني بعد تينملل، وبناه عبد المؤمن ليَكون مكانا يجمع فيه المقاتلين الموحدين، وكان بناؤهُ سنة (529هـ / 1136م)[3] وقد أحاطه عبد المؤمن بأسوار دفاعية قوية مبنية بالحجر وفتح فيها أبوابا كبيرة لا تزال قائمة.

وكانت هذه المدينة محلّ عناية الخلفاء الموحدين بعد وفاة عبد المؤمن، فقد أكمل أبو يعقوب يوسف بناء سورها سنة (568هـ / 1172م)[4] ونظرا لأهمية المدينة فقد أقام الموحدون فيها عددا من المؤسسات التجارية والإجتماعية وقصورا لسكن الخليفة ودورا أخرى لحاشيته، وكانت هذه المدينة قد بلغت قمة ازدهارها في عهد يعقوب المنصور[5].

---

1 - دفردان، مدينة مراكش، ص 203.
- إبن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص 154.
2 - الإدريسي، نزهة المشتاق (ط،ب)، ص 230.
3 - إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص 187.
- الناصري، الإستقصاء، ج2، ص 110.
4 - المراكشي، المعجب، ص 370.
- مجهول، الإستبصار، ص 186.
- الإدريسي، نزهة المشتاق (ط،ب)، ص129.
5 - إبن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص 187.

ومن المدن التي تدل على قوة وحضارة الموحدين مدينة جبل طارق أو مدينة الفتح[1] تعتبر هذه المدينة من المنشآت العظيمة التي شيدها الموحدون أثناء فترة توسعهم[2] حيث أحكم البناءون بناء القصور والدّيار، واستعملوا الحجر المنحوت والجير، واتصل بهذا العمل بناء سور وأبواب سمي أحدهما باب الفتوح[3].

واستمر البناءون في تشييد المدن برغبة من الحكام فقد بنيت مدينة قصر مصمودة خلال عهد يعقوب المنصور الموحدي سنة (586هـ / 1191م)، وأقام فيها عددا من البنايات ليحل فيها هو وحاشيته، بالإضافة إلى بنايات عسكرية مخصصة لمؤونة الجيش[4] كما أنشأ بها أسواقا تلاءم متطلبات الجيش ورغباته[5].

وتعدى اهتمامهم بتشييد المدن بالمغرب الأقصى إلى بلاد المغرب الأوسط إلى ومن أشهر منشآتهم بها مدينة البطحاء[6] وكانت تعرف بإسم "السّدرة" وموقعها على نهر "شلف" شمال شرق غليزان وكان بناؤها سنة (555هـ / 1160م) وفي نفس الوقت عمد الموحّدون إلى تجديد كثير من أبنية بلدة "تاجر" مسقط رأس عبد المؤمن بن علي، وكذلك تشييدهم لجامع الكبير بندرومة[7].

---

1 - كانت بداية بناء المدينة في اليوم التاسع من شهر ربيع الأول سنة (555هـ / 1160م) وانتهى بناؤها في ذي القعدة من السنة المذكورة. ينظر: - إبن أبي زرع، القرطاس، ص 161.

2 - بنيت هذه المدينة لتكون مترلا للجيش الموحدي الرابط لتحدة جيوش المسلمين في الأندلس.
- إبن صاحب الصلاة، تاريخ الصلاة، تاريخ المن، ص 109.

3 - السابق، نفس الصفحة.

4 - إبن عذاري، البيان، ج4، ص 204.

5 - إبن الخطيب، معيار الأختيار، ص 144.

6 - عبد الله علي علام، الدولة الموحدية بالمغرب، ص 383.

7 - السابق، نفس الصفحة.

1 - التنظيم الداخلي للحرفيين:

الحرفيون هم أهم مجسد للفئة الإجتماعية المتوسطة خلال الفترة موضوع الدراسة وقد عرفت عدة تحولات إرتبطت بقوانين الأعراف المحلية لتجمعاتها السكانية المحلية من جهة، وبقوانين الفقهاء وأراء المفسرين من جهة ثانية، وخضعت الأنشطة الحرفية لسلطة المحتسب، والحرفة تتصف ببعد إنساني لَصِيق بها وبالتالي فإن العمل الحرفي لا يمثل بضاعة مستقلة عن صانعها، بل المنتوج الحرفي هو تعبير شامل عن الذات البشرية، ومسألة النشاط الحرفي بكل جوانبه ظلت حاضرة بصفة جلية في المصادر التاريخية المختلفة[1] لكنها لا توفر لنا معلومات كافية تتعلق بالتنظيم، وتكتفي بالوّصف المهني، وكمية المنتوج دون التعرض إلى قوته، وطريقة صنعه.

يجد الباحث في الأنشطة الحرفية صعوبة كبيرة في تقديم وصف لهيكلة الجماعات الحرفية، وإذا كان معلوما أن لكل حرفة رئيسٌ يسمى أمين الحرفة تُسند إليه أمور النزاعات التي قد تحدث بين الحرفيين[2]، ويتكلم بإسمهم إذا كانت هناك مسائل عامة، ويدافع عن حقوقهُم يُعْرِضُها على المحتسب والتَحاور معه.

لكننا نجهل كل شيء عن موقع أمين الحرفة في الجهاز الحاكم وطريقة تعيينه، وصلاحيته بالنسبة لمجموع الحرفيين المنتظمين تحت تمثيله. مثل أمين الحدادين وأمين النحاسين وأمين الحيّاكين[3].

---

[1] - السقطي، رسالة في أداب الحسبة، ص ص 48-51.
- إبن رشد، فتاوى إبن رشد، ص 183.
- الونشريسي، المعيار، ج8، ص 102.

[2] - الونشريسي، المعيار، ج5، ص 360؛ ج4، ص 93.

[3] - يعتبر كتاب Bourgon (J)، بن أحسن من تحدث عن موضوع التنظيم الحرفي، وهو يقدم عدة مقاربات دون الفصل في فكرة محددة.
- Précis de l'art arabe et Matériaux pour servir à l'histoire à la théorie et à la techniques des arts de l'Orient Musulman, Paris 1892, p p106-180.

ومع ذلك فإن المعلومات المتوفرة تكشف لنا جانبا مهما في حياة الحرفيين، تتجلى في علاقاتها مع السلطة عبر المحتسب[1]، والمغارم التي يَتعين عليها دفعها بشكل دوري مُنْتظم، وتكون الطوائف ملتزمة بالتشريعات والأعراف المنظّمة لأنشطتها على المستوى الداخلي وعلى مستوى علاقاتها مع الزبائن وفقا لما أصدره كل من المحتسب أو المفتي، وهما طرفان أساسيان في صياغة الأحكام التي تنظم أنشطتهم.

2 - الشركة بين الحرفيين:

يتمثل ذلك في اقتسام فضاءات الإنتاج، فالعديد من الحرفيين كانوا يشاركون غيرهم في حوانيتهم مقابل دفع الجزء من قيمة الكراء، ويتبين من خلال التراعات التي بتّ الفقهاء فيها إذ أن الأمر يتعلق بشركات في أنشطة متنوعة تهم جميع القطاعات منها ما يتعلق بتدبير رأسمال كبير ومنها يتعلق بأنشطة بسيطة وسطحية.

وعلى سبيل المثال تكون الشركة في كراء الحانوت إما بانضمام الطرف الثاني إلى الحرفي المكتري للحمل والذي مكّنه من نصف الحانوت الذي يستغله[2] أو الإكتفاء بكراء نصف حانوت لممارسة حرفته مستقلا عن المكتري الأصلي للحانوت[3].

وقد تكون الشركة في البهائم والماشية، وهي كثيرة في أرياف بلاد المغرب وتحصل في إتفاق مع مبادئ الشرع[4]. وقد شاعت بين الناس بالمدن والأرياف على حدّ سواء شركات في النّحل

---

1 - R. Le Tourneau, « les villes Musulmanes d'Afrique du Nord », Revue d'Alger 1957, p 124.

2 - Masson (P), Histoire des Etablissements et du commerce, Paris 1903, p 165.

3 - ibid, p 166.

4 - الونشريسي، المعيار، ج8، ص 198.

وفي إنتاج الحرير، وقد كانت تحصل على الوجه التالي، يدفع المالك أجباح النحل أو بعض أشجار التوت لقاء جزء من العسل أو الحرير[1].

وقد اعتاد الناس إعطاء أجباح النحل لمن يقوم بها على المناصفة أو بجزء من غلتها[2] ونلاحظ أيضا في نفس السياق أن الشركات في مجال إنتاج الحرير كانت كثيرة، وكان بعض الحرفيين عاجزين عن امتلاك وسائل الإنتاج الخاصة بهم فالتجأوا إلى الإشتراك في ملكيتها مع حرفيين آخرين ينتمون إلى نفس القطاعات. وعلل الباحثون ذلك بأن كلفة وسائل الإنتاج كانت باهظة الثمن وكان إستعمال هذه الوسائل بالتداول وفقا لاتفاق بينهما[3].

لم تقتصر ظاهرة الشركة بين الحرفيين على أولئك الذين ينتمون إلى نفس القطاعات فحسب بل شملت كذلك حرفيين يعملون في مجالات مختلفة منها ما هو متقارب كالحدّادين الذين يصنعون الفؤوس، سكة المحراث والمنجل[4].

في الغالب يكون الحرفيون المشتركون متقدمين في السن وعاجزين عن مواجهة ما تتطلبه الحرفة من العمل الشاق لذلك اشترك حرفيون في فضاءات الإنتاج مع أطراف تمتهن أنشطة أخرى كما حدث بين النحاسي أَزْتَامَن عمر الزّناتي التاهرتي (ت 591هـ / 1196م) والحداد فَنّاك أبو بكر (ت. 604هـ / 1210م) اللّذان كانا يقتسمان حانوتا لصناعة المناجل[5]. ومن خلال هذه الأمثلة يظهر أن الباحث الحقيقي لهذا النوع من الشراكة بين

---

[1] - الونشريسي، المعيار ، ج10، ص 261؛ ج9، ص 106.

[2] - إن هذا التعامل لا يجوز لأنه عمل بأجرة مجهولة الأصل والقدر.ينظر: - الونشريسي، السابق، ج8، ص 192.

[3] - Fleury (v). l'industries tunisienne des chechias in Revue du commerce, Avril 1895, p p 201-215.

[4] - Fleury (V), l'industries Tunisienne des chahiat, op-cit, p 217.

[5] - ibid

[6] - الونشريسي، المعيار، ج9، ص ص 108-110-182-196.

الحرفيين كان أساسا إقتصاديا و لم يخضع لاعتبارات مهنية أو عرقية أو مذهبية، وأن الهدف منها هو توفير جزء من رأس المال.

خلاصة:

عرفت المدن المغربية خلال القرن السادس الهجري- الثاني عشر الميلادي تنوعا جَليا وجودة في المنتوج الصناعي والحرفي، وقد كانت الصناعة مصدر قوة الموحدين، وعيش قسم كبير من سكان المدن، زيادة على توفير حاجياتها من الأنشطة الحرفية وكان إشعاع بعض المنتوج الحرفي قد تجاوز حدود المدينة إلى جهات داخلية وخارجية مثل النحاس والشاشية والمرجان والسيوف والأقمشة والسروج.

و لم يكن قطاع الصناعات والحرف ببلاد المغرب خلال الفترة موضوع الدراسة مغلقا على نفسه، بل كان منفتحا على ما يحدث من تطور في العالم الخارجي، فتطوّر بذلك قطاع العمران وصناعة السفن الحربية والتجارية، وازدهرت صناعة الزجاج بفضل تواصل الجهة الشرقية مع ما يُنْتَج في الفسطاط والأسكندرية، كما استفادت معامل الزجاج بفاس بنظيراتها في الأندلس، وما توجيه البنّائين إلى قنطرة على مَمَرّ الزقاق لتربط بين ساحل مدينة طنجة وساحل الأندلس إلاّ لتحقيق التواصل بمفهومه الواسع[1].

لقد حصل تكامل واضح بين الحرف المتقاربة فقد ضمّ قطاع النسيج حرفة الخياطة، والصباغة والصّدارة. وهي تهتم بخياطة الملابس الريفية الصوفية وحرفة غزل الصوف، وتميز بوضوح لباس الخاصة بما أضيف إليه من زخرفة وطرز، وحياكة.

---

[1] - مجهول، الإستبصار، ص 138.

- الحموي، الروض المعطار، ص395.

ونفس التحول عرفه قطاع الصناعات الجلدية التي ضمت أعدادا كبيرة من الحرفيين كالدباغين والبلاغجية والسراجين والسكاجين والسباولية والغرابلية.

وهنا أيضا تجدر الإشارة إلى نوع من المنتوج الصناعي الحرفي قد وُجِّه إلى الفئة الخاصة حيث أضيفت تحسينات وتجميلات للمنتوج الخاص بالخلفاء ورجال الجاه والسّلطان أما القطاع الثالث فيتمثل في الصناعات المعدنية، فلم يتخلف عن النهضة التي عرفتها القطاعات الأخرى. فقد ضمّ هذا القطاع صناعة النحاس وكل ماله صلة بالحدادة ويضاف إلى ذلك معدن الذهب والفضة لقد ساعد إزدهار الفلاحة خلال هذه الفترة على تطوير عمل الحدادة لحاجة الناس إلى الفأس وسكة المحراث والمنجل كما ساعد تطور العمران على تشجيع هذه الصناعة لحاجة الناس إلى الصفائح والشبابيك والأقفال.

ونتيجة لوفرة المنتوج الحرفي في جل الحواضر المغربية ظهرت أسواق متخصصة إستحوذت على ساحات مربعة تتناسب مع طبيعة الحرفة التي أعدت لنشاط معين وحافظت عليه واختصت به مثل أسواق الشواشية، والعطارين[1]، وانحاز السراجون في مكان مخصص والتزموا به حتى عرفت مساحتهم بسوق السراجين وزادوا عليها كل مستلزمات وتجهيز الخيل، وعرفت هذه السوق تطورا واضحا لتوجيه بعض

---

[1] - تميزت أسواق العطارين عن بقية لأنها تميزت بأوقات عملها فهي السوق الوحيدة التي كانت تعمل ليلا وتبقى دكاكينها مفتوحة إلى منتصف الليل، وكانت النساء يخرجن ليلا للشراء حاجاتهن من العطر، وتمكينا للزبائن من شراء العطر، لأن المسلم مولع باستعمال العطر وهو عمل يرغب فيه الشرع. ينظر:
- إبن مامي محمد الباجي، "أسواق مدينة تونس"، مجلة إفريقية، عدد 12، المعهد الوطني للتراث، تونس1998م.
- هلك السيد أبو سعيد في مراكش في الطاعون الذي ضربها في تلك السنة (569هـ / 1173م) ويذكر صاحب عيون الأنباء فيقول:" حدثني القاضي أبي زرع أبي مروان الباجي قال:" كنا في تونس مع الناصر وقل وجود الشعر فأنشد أحد الشعراء، فقال: إنما العيد في التلاقي مع الشعر. فأطلق له الناصر كمية من الشعير. ينظر: - إبن أبي صبيعة، ج3، ص 127.

منتوجها إلى ذوي الجاه والسلطان، وكثر الحرفيون الأندلسيون بهذه الحرفة لدرجة أنهم كادوا يحتكرونها، وظهرت أيضا أسواقا القفلة الذين يحترفون صناعة الصفائح والمفاتيح الكبيرة لأبواب المدن والسكنات.

لقد ساهم تطور الصناعات الحرفية في سدّ حاجات سكان بعض الجهات الداخلية ببلاد المغرب أثناء الأزمات مثل الطاعون الذي ضرب مراكش سنة (569هـ / 1173م) وكذلك الحال عندما احتاج سكان بلاد المغرب الأدنى أثناء الفتن والحروب الناجمة عن عدم تقديم الولاء للموحدين، حيث عاشت المنطقة حروبا أفسدت النشاط الحرفي خلال النصف الثاني من القرن السادس الهجري- الثاني عشر الميلادي. ولولا مسالك التوزيع الداخلية التي كانت تربط بين مدن بلاد المغرب لهجر السكان مدنهم الشرقية.

وفيما يخص أوضاع الحرفيين فإنه بالرغم من المجهود الكبير الذي قاموا به والذي أدى إلى نهضة حقيقية في بلاد المغرب فإن الدراسة أبانت وضعيتهم المادية التي لم تكن متماشية مع إنتاجهم والسبب في ذلك قد يعود إلى أن السياسة الإقتصادية الموحدية كانت مبنية على ما يسمى باقتصاد المغازي، فهي حركة إصلاحية قامت على أساس الجهاد والتوسع، الأمر الذي امتص أموالا كبيرة.

ومن النتائج التي يمكن أن نَخْلُص إليها هي أنّ انتشار المصانع والورشات في جل الحواضر المغربية خلال العهد الموحدي قد أثر على طبيعة علاقة القبائل المستقرة في المدن وخفّف من حدة العصبية القبلية لتَوْفير مجال التّلاقي والتعامل اليومي.

الفصل الثالث

التجارة في بلاد المغرب

خلال الفترة

515هـ - 595هـ / 1120م - 1199م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تقـــديم:

إن إزدهار بـلاد المغـرب خـلال عهـد الموحـدين، في النـصف الثـاني مـن القـرن الـسادس الهجـري – الثـاني عـشر المـيلادي، قـد أعطـى للمغـرب أهميـة إضـافية فقـد ازدادت حاجيـات الـبلاط وأصـبح أصـحاب الجاه والـسلطان ترغـب في حيـاة التـرف الـتي سـاعدت علـى نمـو الفنـون والحرف ودعمـت التجـارة داخـل الأسـواق الـتي كثـرت وتنوعـت مقارنـة بـالعهود الـسابقة الأمـر الـذي أعطـى للمـدن المغربيـة إمكانيـة الإسـتقلال وتكوين الخصوصية الذاتيـة للمدينـة ممّـا أوجـب إحـداث دور لـصك العملـة التي هي أساس المعاملات التجارية.

إن الأربـاح الكـبيرة الـتي نالهـا بعـض تجـار المـدن مـن إسـتغلال الأرض عملـت علـى تنميـة ثـروات الطبقـة الخاصـة في مجتمـع الموحـدين ويـسّرت لهـم سُـبل إسـتهلاك المـواد الكماليـة ويـضاف إلـيهم مـستغلي الأرض، أربـاب الـصّناعات ومـسيري الورشـات الـذين تيـسرت ظـروفهم الماديـة، وانتقلـوا إلى تـصدير سـلعهم عـبر الـصحراء، إلى إفريقيـا الغربيـة والوسطى وكانـت القوافـل التجاريـة مربحـة ومَـصدر ثـراء حيـث اتـصفت بضخامة رؤوس الأموال.

ومن جهـة أخـرى سـعت أوروبـا بطـرق متنوعـة للتـزود بالـذهب ورحـب الموحـدون بـذلك لأنهـم يبيعونـه غاليـا مقارنـة بكلفتـه ولأنهـم يأخذون السّلع الأوروبية إلى بلاد السودان لمبادلتها بالذهب.

سـتجيب دراسـة الفـصل عـن العوامـل الـتي أدت إلى إزدهـار الإقتـصاد المغـربي خـلال الفتـرة ومـا نـصيب النـشاط التجـاري في ذلـك؟ ما هي طبيعة الـسوق المغربيـة؟ وهـل لهـا وظـائف غـير التجـارة؟ مـا هـو تـأثير العوامـل الـسياسية والأمنيـة والقبليـة علـى شـبكة الطـرق التجاريـة الداخليـة والخارجيـة؟ ثم أتعـرض إلى النقـل التجـاري وهـل كانـت

المعاملات التجارية مع أوروبا بين أيدي التجار المسيحيين فقط؟ هل كانت السّلع المستوردة بواسطة المسيحيين أوروبية فقط؟ (هذه الأسئلة وغيرها) أجيب عنها وعن غيرها من خلال هذا الفصل المتعلق بالنشاط التجاري عبر المحاور الكبرى الآتية:

1- الأسواق: أنواع الأسواق – تنظيم الأسواق ومراقبة الأسواق – الفروض الشرعية والجباية.

2- الحسبة: دور المحتسب وعلاقته بالفقيه المفتي – تضامن التجار- مقوّمات الوضع الإقتصادي – اختلاف العملة والمكاييل والأوزان.

3- المسالك التجارية: المسالك التجارية الداخلية – الخارجية – الصحرواية – البحرية.

4- وسائل النقل.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

* الأسواق:

1 - أنواع الأسواق:

عرفت بلاد المغرب خلال العصر الموحدي أربعة أنواع من الأسواق منها أسواق دائمة وثابتة، كانت تقع داخل المدن، وفي هذه الأسواق نجد نمطا من الاختصاص، فكل جانب من السوق يختص بسلع معينة [1] ورغم سكوت المصادر التاريخية الغربية عن ذكر أوصاف هذه الأسواق فإن صاحب الروض يقول: عن أسواق مدينة فاس: "كانت أسواق مدينة فاس مجتمعة حيث تغسل بماء النهر فتبرد حجارتها وجميع ما بها من الفواكه والغلال والمطاعم والمشارب والتجارات والمرافق والخانقات"[2].

وقد دعّم هذا التفصيل "البيدق" عندما تحدث عن "المهدي بن تومرت" أثناء عودته من المشرق ودخوله مدينة فاس حيث وجد بأسواقها "حوانيت مملوءة دفوفا وقراقر ومزامير وعيدانا وأربية وكيتارات" فأمر تلاميذه بكسرها[3]. ومن هذا الوصف نستنتج بوضوح أنّ الأسواق كانت فعلا مقسمة إلى أجنحة متخصصة في سلعة واحدة فالأدريسي يرد هذه الفكرة عندما يقول: في سنة (533هـ / 1139م) وقع حريق في سوق بونة فاحترق من رأس عقبة الخرازين، وأحترق جناح سوق الثياب، وسوق الدخان وسوق المغازل[4]، ويعرج على سوق مدينة سبتة فيصفها قائلا: " وفي سبتة سوق لتفصيل المرجان وحكّه وصنعه خرزا وثقبه"[5].

---

[1] - مجهول، الإستبصار، ص 212 .
- عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي، ص293.

[2] - إبن أبي زرع، روض القرطاس ، ص 141.

[3] - البيدق، أخبار المهدي ، ص ص 23-24.

[4] - نزهة المشتاق، ج1، ص235.

[5] - السابق، ج2، ص529.

والأسواق الدائمة عادة ما تكون منتظمة في حوانيت مصطفة على جانبي الأزقة الرئيسية وفي قصبة المدينة وقرب الجوامع[1]، تباع المنسوجات الحريرية، الكتانية، القطنية وتباع الصوف، العطور، الذهب الفواكه، الخضر والحبوب وهناك رحبات مخصصة لبيع الدواب والماشية والجواري والعبيد[2].

أما النوع الثاني من الأسواق فهو الأسواق الأسبوعية حيث كانت تنعقد مرة واحدة في كل أسبوع، وغالبا ما تكون خارج أسوار المدينة وكانت تشكل تجمعا كبيرا للتجار وخاصة المتجولين[3]، ومن الأمثلة على ذلك سوق أغمات الذي كان يقام كل يوم أحد وسوق المركاض (سوق الخيل) بتونس[4]، وسوق الماشية بتاهرت الذي كان ينعقد كل يوم خميس[5].

والنوع الثالث يتمثل في الأسواق الموسمية التي كانت تقام بالقرب من المدن، حيث يَعرض الحرفيون مختلف السّلع الموجهة لسكان الريف، كالصّفارين (بائعي النحاس) والنجارة والقفّالة (بائعي الأقفال) والأبارين والسراجين وبائعي الحُصر والحلفاء والتبن والأقمشة والماشية[6]، وكثيرا ما كان كبار رؤساء القبائل يتعاطون التجارة أثناء تنقلاتهم إلى الأسواق الموسمية كما هو الشأن بالنسبة لسوق مدينة ماسة بالمغرب الأقصى، الذي تحدث عنه صاحب الإستبصار بقوله: "كان سوق ماسة عظيما ومجتمعا جليلا"[7].

---

[1] - إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص 141.

[2] - إبراهيم القادري بوتشيش، إضاءات حول تراث المغرب الإسلامي، دار الطليعة، بيروت 2002م، ص100.

[3] - عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي، ص296.

[4] - R.Brumschvig, la berberie orientale, T_{II}, P209.

[5] - أحمد قدور، المدن المغربية وعلاقتها بالإقليم، رسالة جامعية غير منشورة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ج2، الرباط 1987م، ص489.

[6] - السابق، ج2، ص492.

[7] - مجهول الإستبصار، ص213.

وإلى جانب هذه الأسواق كان نوع آخر عرف بصفته المتنقلة "الأسواق المتحركة" لأنها كانت تصحب الجيوش في غزواتها وتنصب بالقرب من المحلات العسكرية لتُوَفّر للجند بعض المواد والمنتوجات التي تهم الجيش مثل الطعام والعلف، السيوف، الثياب المناسبة[1]، الماعون أدوات الحفر ونشر الخيم.

وقد كانت هذه الأسواق والمواسم تعرف حركة تجارية دؤوبة حيث كان يرتادها عدد من التجار والمستهلكين، ونتيجة لتنوع البضائع والسلع التي كانت تعرض داخلها، وكثرة الواردين عليها، فقد عرفت رواجا كبيرا في مقادير النقود المتداولة وأن المغرب في عهد الموحدين قد حقق تقدما واضحا في مجال التعامل النقدي، ويظهر أنه نتيجة لهذا التداول قد عرفت الأسواق الموحدية كثرة من الناس كانوا يعملون في صياغة الذهب والفضة ويعرفون بالصرافين[2].

وساعد إهتمام الموحدين وخاصة في بداية الدولة، بتطوير التجارة من خلال حماية مصالح التجار وتأمين الطرقات وقطع المغارم والمكوس والقبالات[3]، على إنتعاش الحركة التجارية داخل هذه الأسواق فنمت بذلك أرباح التجار وتحسنت حالهم، ومن الملاحظ أن صغار التجار الذين ساءت وضعيتهم كثيرا خلال العصر المرابطي، نجدهم خلال عصر الموحدين قد انتعشت حالهم نسبيا لإزدهار التجارة ونشاط الأسواق[4]. ومن الأمثلة على ذلك ما حقّقَتْهُ خمسة عشرة (15) درهما التي أقرضها عبد المؤمن من علي قبل توليه أمر الخلافة لأحد التجار فأدرّت عليه حوالي مائة (100) دينار ربحا[5]، وصلح حَالُ بعض طلبة

---

[1] - أحمد قدور، المدن المغربية وعلاقتها بالأقاليم، ص498.

[2] - عز الدين موسى، النشاط الإقتصادي، ص297.

[3] - أحمد عزاوي، مجموعة جديدة من الرسائل الموحدية، ج1، ص ص 14 - 21.

[4] - عز الدين موسى، السابق، ص279.

[5] - إبن القطان، نظم الجمان، ص149؛ - إبن عذاري، البيان المغرب، (قسم الموحدين)، ص ص81-82.

الحضر لإشتغالهم بالتجارة بعد أن دفع الخليفة عبد المؤمن ألف دينار لكل واحد منهم على وجه الإقراض[1] وبلغت أرباح الخمسمائة دينار التي أقرضها أحد تجار تلمسان لأبي شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي (ت. 561هـ / 1167م) حوالي ستمائة دينار[2].

ولا شك أن إهتمام الموحدين أيضا بأحوال الأسواق وتقلبات الأسعار كان لخدمة مَصالح المستهلك كما كان عليه الشأن خلال عهد أبي يوسف يعقوب المنصور[3]، وقد ساعد على تطور الحركة التجارية إختفاء مظاهر الغش والفساد في السلع والأثمان ويظهر أيضا أن إنتظام تحصيل رواتب الجند وباقي موظفي الدولة قد ساعد على انتعاش العملية التجارية وحركة الأسواق[4].

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الأسواق والمواسم كانت تعرض فيها المنتوجات الفلاحية وبعض المواد الحرفية كالمنسوجات بجميع أصنافها، زيادة على بعض السلع والبضائع المستوردة[5]، كالأقمشة التي كانت ترد من جنوة وبلاد الفرنج والثياب الصوفية التي كانت تصل من فنلندا[6].

غير أنه في أوقات الشدة والأزمات كانت الأسواق تتأثر سلبا حيث تضعف القوة الشرائية، وتتدهور حالة الأسواق لانعدام الأقوات أو قلتها[7]، وتقل حركة القوافل التجارية لإنعدام الأمن أو خوفا من

---

1 - إبن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص81.

2 - التادلي، التشوف، ص190.

3 - كان المنصور الموحدي يستقبل الأمناء مرتين كل شهر يسألهم عن حالة الأسواق والأسعار، المراكشي المعجب، ص ص 371- 409.

4 - عز الدين موسى، النشاط الإقتصادي، ص272.

5 - السابق، ص328.

6 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

7 - إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص273.

- إبن عذاري، البيان المغرب (قسم الموحدين)، ص ص267-325.

انتشار الأوبئة والمجاعات، فيظهر أن الناس غالبا ما كانوا يستدنون[1] حتى أصبح بيع السّلف من أكثر البيوع إنتشارا[2]، وبالرغم من ظهور هذا النوع من التعامل في الأسواق الموحدية، سواء بين التجار أنفسهم أو بين التجار والمستهلكين، فإن انتعاش الحركة التجارية داخل هذه الأسواق ظل ملحوظا واستمر استعمال الواسطة النقدية التي يظهر أنها ظلت واضحة في التعامل التجاري اليومي.

أما على مستوى الجهة الشرقية من بلاد المغرب فقد عرفت نشاطا تجاريا مكثفا امتصّ الكثير من العاطلين عن العمل وقد مرت مدن الجهة بمراحل مختلفة من حيث المساهمة في دعم النشاط التجاري، فقد كانت أسواق القيروان قبل عصر الموحدين قبلة للتجار سواء المحليين أو الوافدين باعتبارها محطةً تجاريةً كبيرة تتوقف بها القوافل التجارية فتحدث عملية التبادل التجاري، الأمر الذي أعطاها ديناميكية متميزة أتاحت لتجارها فرصة جمع ثروات طائلة[3].

وازدهرت التجارة في القيروان بفعل النشاط الفلاحي المتنوع الذي كان الريف ينتجه ويزود المدينة بمختلف أنواع الخضر، الفواكه، الحبوب والأعلاف والحيوانات، كما ساهمت شبكة الطرق المتطورة في ربط المدينة المدن المجاورة وأقاليمها[4]، ولا نغادر مدينة القيروان دون الإشارة إلى دور موقعها الجغرافي الذي يتيح لها الفرصة للتعامل مع الكثير من

---

[1] - التّادلي، التشوف، ص100.
- إبن أبي زرع، السابق، ص270.
[2] - عز الدين موسى، النشاط الإقتصادي، ص295.
[3] - القاضي عياض، تراجم أغلبية، تونس 1968م، ص296.
[4] - نجاة باشا، التجارة في المغرب الإسلامي، تونس 1976م، ص106.

المدن، خاصة مدينة تونس التي تعامل كثيرا مع جزيرة صقلية[1] من جهة والمشرق الإسلامي من جهة ثانية بالإضافة إلى بلاد الأندلس[2].

لقد اكتسبت أسواق القيروان أهمية بالغة لاَ من حيث عددها وتنوع اختصاصاتها فحسب، ولكنها كانت تلعب دور المؤثر في أسعار أسواق المدن الأخرى مثل تونس، المهدية، قابس وبونة[3]، وبهذا يمكن القول أن التجارة في القيروان ساهمت بشكل أساسي في تطوير العمران ووفرت حاجات استهلاكية للسكان مما أدى إلى تطور قطاع الحرف والصناعات المهنية، لكن هذه المكانة الإقتصادية لمدينة القيروان تراجعت بفعل التقلبات السياسية خلال العهد الموحدي، وتركت مكانتها لمدينة تونس التي فتحت مجالاً واسعًا أمام التجار الأوروبيين من صقلية وجمهوريات إيطاليا.

ومما زاد في أهمية مدينة تونس التجارية هو اختيارها من قبل الخلفية الموحدي عبد المؤمن لبناء قلعة تشبه القلاع التي بناها الموحدون في جهات مختلفة من بلاد المغرب[4].

والجدير بالإشارة إلى أن إبن خلدون قد نوّه بعائدات التجارة البرية لمدينة تونس مع بلاد السّودان بواسطة القوافل التجارية التي تشتري الذهب بالمقايضة وتعود إلى تونس[5]، قاصدة بلاد المشرق الإسلامي[6]. كما نالت تجارة المدينة حظها الواسع من التعامل مع كل من جمهورية بيزا وجنوة الإطاليتين[7].

---

[1] - إبن الشماع، الأدلة البينة في مبادئ الدولة الحفصية، تونس 1984م، ص 105.

[2] -السابق، ص ص 106-108-119.

[3] - الاصطرخي (أبو إسحاق إبراهيم)، المسالك والممالك، القاهرة 1961م، ص 36.

[4] - F. Ben Slimane« ibn al-Rami et l'art de Bâtir » p 203.

[5] - إبن خلدون، المقدمة، ص 659.

[6] - R. Brunshvig : la Berbéris Orientale, T_{II}, pp234-36.

[7] - De Mas latrie, op.cit

وقد عادت هذه المعاهدات بفوائد جمة على مدينة تونس والمدن المجاورة لها تجسدت في تطور نشاط الفنادق في كل من تونس، المهدية، بجاية وبونة، وقد كانت مراكز التجارة في المغرب الأوسط تلعب دور الوسيط بين جهات المغرب، مثلما فعلت مدينة تاهرت المرتبطة بمدن مغربية كثيرة خاصة مع الجهة الغربية، والجنوبية، ودعّم[1] هذا الدور موقعها الجغرافي الرابط بين الشرق والغرب من جهة وبين الجنوب والشمال من جهة ثانية[2].

هذا الموقع أهّل مدينة تاهرت للقيام بنشاطين مهمين هما النشاط الفلاحي والتجاري فقد عُرف سكان هذه المدينة بنشاطهم التجاري بين بلاد السّودان ومدن وواحات الصحراء من جهة ومنطقة المغرب الأوسط زيادة على ما سبق فإن المدينة إرتبطت مع مدن الجهة الشرقية عن طريق الساحل حيث كانت القوافل لا تتوقف عن نقل الذهب والعبيد.

أما عائدات الزراعة فهي كثيرة خاصة الحبوب، الثمار، الفواكه الدواب البغال، الماشية والغنم حيث كانت التجارة رائجة في هذه المدينة الأمر الذي رشّحها لتصدير اللحوم إلى المغرب كلها وكذلك الأندلس[3]. وشهدت مدينة تاهرت تطورا عمرانيا واضحا الأمر الذي أدى إلى تدعيم النشاط التجاري والفلاحي والدليل على ذلك تطور الصناعات الحرفية حيث اشتهرت بالأواني الخزفية[4].

وقد أثرت التجارة إيجابيا على مستوى معيشة السكان إلى درجة التباهي باللباس والطبيخ، المسكن والمركب وإنتشار المنتزهات والبساتين[5].

---

1 - Brunschuig, « Urbanisme Médiéval et droit musulman », études d'islamologie, 1976, pp 7-36.

2 - M. Lombard, l'islam dans sa première grandeur, Paris 1971, p 61

3 - M. Lombard, « les bases monétaires d'une suprématie économique l'or musulman du ville au de secte », Annales, E.S.C. II, 1947, p123.

4 - G.Marçais, « Revue Africaine », p55.

5 - M. Lombard, op. cit, p 76

ومما زاد في إزدهارها إمتداد السلطة السياسية لولاة الأمر خلال عهد الموحدين حتى حدود طرابلس شرقا وجنوب الصحراء والأندلس شمالا، هذا التوسع أعطى امتدادا للحركة التجارية بين مدن المغرب الأوسط والأدنى وجدير بالإشارة إلى أن مدينة تلمسان قد نافست مدينة تاهرت واقتطعت منها قسما من الشّهرة واستقطاب التجار تبعا لتوجه السلطة السياسية الموحدية. فقد أنشأ الخليفة عبد المؤمن بن علي قصر المشورَ في تلمسان سنة (540هـ / 1145م)[1]. وأحاط المدينة بسور واستمر إهتمام الموحدين بالمدينة خلال عهدي أبي يعقوب يوسف، ويعقوب المنصور اللذان عملا على تجديد الأسواق والقصور[2].

ومما سهّل هذا الإنتقال الوظيفي للمدينتين وقوعهما على مسالك تجارية متقاربة مثل الطريق الذي يمر عبر هضبة تاهرت إلى تلمسان وكذلك قُرب تاهرت من المسلك الذي كان يربط مدينة فاس بكل من أغمات وتلمسان[3] لقد كانت الأسواق في المدينة بالإضافة إلى دورها التجاري تقوم بوظائف إجتماعية وسياسية ودينية حيث تشكل مجالا لتبادل المعلومات والتشهير[4] والمنافرة، والغدر، والثأر[5]، والإغاثة، والوعظ والإرشاد (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)[6] والنقاش الفقهي[7]، وقراءة القرآن وطهي الطعام[8] ومكانا لسكن بعض الضعفاء من التجار[9].

---

1 - حسين أحمد إلياس، طرق التجارة عبر المنطقة الشرقية من الصحراء الكبرى، طرابلس 1979م، ص 212.

2 - عبد الله علي علام، الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن، دار المعارف، القاهرة 1971م، ص 389.

3 - أبي الحسن الخزناني، زهرة الأس في بناء فاس، ص 139.

4 - يحيى بن عمر، أحكام السوق، الدار البيضاء 1981م، ص 44.

5 - إبن إبراهيم العباس، الأعلام بمن حلّ بمراكش و أغمات من الأعلام، ج10، ص 18.

6 - إبن القطان، نظم الجمان، ص 40.

- البيدق، أخبار المهدي، ص 110.

7 - التادلي ، التشوف، ص 87.

8 - السابق، نفس الصفحة.

9 - المصدر السابق، ص ص 228-230.

وما قيل عن الأسواق يمكن أن ينسحب على الفنادق فمن جملة المشاريع التي قام بها الأمراء الموحدين هو بناء الفنادق حيث كانت ملتقى التجار ومكانا لإنطلاق أنشطة أخرى.

والفنادق في أصلها مرافق تجارية تصلح لإيواء الناس وبهائمهم كما تصلح لخزن أنواع السلع والتجارات حيث كان التجار الغرباء يخزنون بضاعتهم بها لتوزيعها بعد ذلك على تجار الجملة. ولكن مع ذلك كانت بعض المدن خالية من هذا النوع من المرافق حيث كان التاجر الغريب يضطر للنزول عند أحد سكان المدينة الذي أصابته القرعة[1].

من هذه الإشارات التاريخية يظهر أن المرافق التجارية كانت ضمن المهام الأساسية للسلطة السياسية بالمدينة من بناء، وتنظيم، ومراقبة وتحصيل المال عن طريق الأكرية والقبالة كما كانت تساهم في حل النزاعات المرتبطة بذلك[2] حيث كانت أكثر الصنائع بالمدن الكبيرة كمراكش، تلمسان وتونس مُتَقَبِّلة[3] ونستنتج أخيرا أن المدن المغربية شكلت مجالا حيويا للنشاط التجاري وفضاء للتبادل الداخلي والخارجي ومحطة لإقامة التجار ومستودعا لتخزين البضائع ورحابا تمارس فيها السلطة السياسية رقابتها وتنظيمها.

2 - علاقة الأسواق بالمرافق العامة:

إن التجارة تحتاج لمجال البيع والشراء المتمثل في حوانيت التجار والرحبات، القيساريات والأسواق، وكذلك تحتاج الدولة تحتاج للأموال لبسط نفوذها وتلبية حاجاتها وتعتبر المدينة الفضاء الأمثل لممارسة هذا النشاط.

---

1 - البكري، المغرب، ص 88.

2 - إبن رشد (الجد)، الفتاوى، ج3، ص ص 1282-1283.

3 - الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص 235.

إن فضاء المدينة تطلب تنظيما ومراقبة من لدن السلطة سواء في المجال التشريعي أو التنفيذي ولا تخلو مدينة مغربية خلال العصر الموحدي من أسواق[1] فأبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أراد بناء مدينة كبيرة متصلة بالقصبة[2] تضاهي مراكش وتنافس الإسكندرية عمارة وتجارة[3] فقد تحدث صَاحبُ المعجب أن المدينة هي رباط الفتح المشيدة بالقرب من قَصبة المهدية التي بناها عبد المؤمن بن علي سنة (545هـ / 1152م) وهذا بعد نهاية الفتن والإضطرابات مباشرة[4].

والسوق هو المركز الإقتصادي للمدينة يتردد عليه ويعمل فيه الصّناع، والعمال، والعبيد، والحمّالون. ويستنتج من مختلف الإشارات المتعلقة بالمدينة كالأسواق والرّحبات والفنادق، والحمامات، والمساجد والسور أنها من المرافق العامة التي تشيدها السلطة السياسية لأنها تعتبرها من الركائز الأساسية لِمُورْفولوجية المدينة[5]. والمدن التي بنيت لتكون مقرا للخليفة ومكان إدارته فإنها تنعم بمميزات خاصة تجعل منها مدينة كبيرة وسوقا مقصودا.

وهذه الميزة لن تشمل المدن الأخرى التي قامت على أساس حركة تجارية وتطورت إلى مدينة بحيث يرتبط مصير هذا النمط من الأسواق بتلك الحركة التجارية ومن الأمثلة على ذلك بناء مدينة سجلماسة التي أقيمت على أساس تجاري حيث بنيت في فضاء يتسوق فيه البربر[6].

---

1 - R.Brunschvig, « urbanisme médiéval et droit musulman » etudes d'islamologie 1976 p p 9-30

2 - إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص 192.

3 - هده القصبة أول مشروع عمراني سياسي في العهد الموحدي؛ نفس المصدر السابق، ص 193.
- إبن أبي زرع، المصدر السابق، ص191.

4 - البيدق، أخبار المهدي بن تومرت، ص 73.
- المراكشي، المعجب، ص 506.

5 - البكري، المغرب، ص ص 97-98-112-114-142.

6 - إبن عذاري، البيان المغرب ص 156.

وفي مراكش بنيت قيسارية سنة (584هـ / 1189م) مع بناء القصبة وكانت قيسارية عظيمة حسب وصف صاحب الاستبصار الذي ذكر أن الخليفة أبا يوسف يعقوب أمر بعمارتها سنة(585هـ / 1189م)[1].

وتحدث عنها إبن عذاري مظهرا الإهتمام الفائق الذي أبداه الموحدون تجاه هذه القيسارية حيث اجتمع فيها اغلب كبار التجار وتنافسوا في اقتناء أنفس السلع وأغلاها.

وبذلك أضحت تشكل معلمة من معالم الأزدهار الموحدي في هذه المدينة بما احتوت عليه من أموال كثيرة متمثلة في السّلع المعروضة فيها ومن أنواعها ثياب الحرير والديباج المذهب ، بالإضافة إلى الثياب المطرزة على النمط الأندلسي[2] كما أن جَميع الثّياب الرفيعة كانت تُباع فيها مِثل الغفائر والبرانس المسكية وهي الثياب التي تخص الخليفة وحده زيادة على ما تلبسه الخاصة من المجتمع المغربي[3] ولهذا السبب كان احتراقها سنة (607هـ 1214م) كارثة وطنية ترتب عنها ضياع أموال لاَ تُحصى وافتقر جُلّ الذين كانت لهم سلع فيها مما ساهم في أحداث رُكود تجاري في المدينة وأصبحت الفئة التجارية المتضررة بالحريق تعيش أزمة اقتصادية حقيقية ويبدو أن القيسارية اِنهارت تجاريا رغم إعادة بنائها، فقد تقلصت أهميتها التجارية بسبب الأزمة الاقتصادية والسياسية في البلاد[4].

3 - المكاييل والأوزان في العهد الموحدي:

يبدو أن الدولة الموحدية لم تقم باصلاحات كبيرة ومباشرة في ميدان المكاييل والأوزان ذلك لأنها قامت على الأمر بالمعروف

---

1 - مجهول، الإستبصار، ص 210.

2 - إبن عذاري ، المصدر السابق، ص 174.

3 - التادلي، التشوف ص 101.

4 - إبن أبي زرع ، روض القرطاس، ص 160.

والنهي عن المنكر، وهو الأساس الذي قامت عليه الدولة المرابطية التي سبقتها، فالروايات التاريخية لم تشر الى عمل إصلاحي في هذا الباب غير أن هناك تلميح أورده ابن أبي زرع عندما تحدث عن عبد المؤمن بن علي حينما دخل فاس، حيث تفقد أسواقها وهذب بناءها[1].

ومن المؤكد من خلال ما ورد في الوثائق الموحدية أن المقاييس والأوزان والمكاييل في العهد الموحدي كانت مختلفة من بلد لآخر ومن سوق لأخرى، فقد أغفل المشرع الحديث عن ذلك وكرس نظرته على شروط البيع أو العقد الضرورية لتوضيح نوع الكيل والوزن والمقياس، ونوع المادة وصفاتها وحجمها أي "بكيل سوق كذا" و"بوزن سوق كذا" و " بحاضرة كذا بكيلها".

ونفس الشيء بالنسبة للقياس بذكر "ذراع فلان"، وإلا أعتبر البيع فاسدا شرعا[2]. إن سعة رقعة الدولة الموحدية، والإرث الذي ورثته من الفترة السابقة في المجال التنظيمي المرتبط بتعدد السلطات السياسية حصرت مفعول العمل الموحدي في هذا الميدان على ما يظهر في المجال التشريعي، وتنظيم وظائف التدخل لتنفيذ الشريعة ومحاربة الغش والتدليس، وما كتبه السقطي الذي عاش في هذه الفترة يبين بوضوح أنواع الغش والتدليس المنتشرة في عهده في مجال التجارة وأدواتها كالكيل والوزن وتجارة الرقيق والخبز والجزارة وبيع الحوت وأنواع المطبوخات والعطر والصيدلية[3]، وطريقة مراقبة ومواجهة ذلك عن طريق المحتسب هذا يدفعنا إلى القول بأن الموحدين ربما اعتبروا هذه الأمور وغيرها من توابع الحسبة فلم يبادروا لتوحيد المكاييل والأوزان والمقاييس، وضبطها كما

---

[1] - روض القرطاس، ص 141.

[2] - عبد الواحد المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين. ص ص 283-288-296-303.

[3] - في آداب الحسبة، ص ص 11- 16.

وقع في العهود اللاحقة إبتداء من عهد المرينين والحفصيين[1] وتركت بذلك التنوع والإختلاف الإقليمي الذي كانت عليه من قبل[2].

ولكن هذا لا يعني إمتناع الدولة عن التدخل في هذه المسائل لأن نظرية تدخل الدولة في أمور المكاييل والأوزان وحدوثها تظهر بجلاء وقد بدأ ممارستها المهدي بن تومرت[3]، وتناول الفقهاء ذلك ففي كتاب الونشريسي نجد:"إن السلطان إذا أبطل المكاييل بأصغر أو أكبر والموازيين بأنقص أو أوفى وقد وقعت المعاملة بينهما بالمكيال الأول أو الميزان الأول، أنه ليس للمبتاع إلا بالكيل الآخر وإن كان أصغر، وإن على البائع الثاني أيضا وإن كان أكبر وهذا مما لا شكّ ببطلانه وبالله التوفيق"[4].

وإذا كان هذا المثال يوضح تدخل السلطة في أمور المكاييل والأوزان بإبطال بعضها والتغيير في أخرى زيادة أو نقصانا، فإن ذلك يكون محصورا في حدود مدينة معينة أو منطقة خاصة، وهي من اختصاص الوالي أو القاضي أو المحتسب أو السلطان في دار الملك ولم يصل هذا الأمر إلى التوحيد العام في مجال السلطة المركزية.

الأسعار:

إن السعر هو المحدد لقيمة البضاعة وتعتبر الأسعار أو التسعير من المسائل المعقدة الأمر الذي يجعل معرفتها وتحديدها صعبا والسبب في ذلك موقف التشريع من التسعير من جهة والإكراهات المتصلة بذلك من جهة ثانية، فالتسعير خاضع للظرف السياسي، والتقلبات

1- j.l.Miége, note sur l'artisant marocain au 1970, B.E.S.M 99/1953, p93.

2- إسماعيل بن الأحمر، بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1972م، ص 31.

3- البيدق، أخبار المهدي، ص 29.

4- الونشريسي، المعيار، ج7، ص 236.

المناخية والحالة الإقتصادية، زيادة على كل ما سبق فإن عملية التسعير مرتبطة بتنوع المكاييل والموازين وتعدد العملات وإختلافها[1].

فمثلا نجد القول:" لا يسعر على أحد، وكل من حط في السعر الذي في السوق يخرج من السوق"[2]، وعند الاحتكار يكون:"الأمر أن يباع على المحتكرين فيكون لهم رأس أموالهم والربح يؤخذ منهم ويتصدق به أدبا وينهوا عن ذلك فإن عادوا كان الضرب والطواف والسجن لهم[3].

ولضبط السعر ومحاربة الاحتكار نهى يحي بن عمر عن البيع في الفنادق والدور لتنقل البضاعة إلى السوق ليدركها الضعيف والقوي والشيخ الكبير والعجوز لقول رسول الله –صلعم- :" لا يلتقي الركبان لبيع بعضكم على بيع بعض ولا تناجشوا، ولا يبيع حاضرٌ لِبَادٍ"[4].

يستنتج مما سبق منع تدخل الحاكم في تحديد سعر السلع وحتمية عمومية البيع والشراء ومحاربة الاحتكار، ولكن أمام هذه الحرية التي يتمتع بها التاجر لتقويم السلع نجد جوهرَ ومفهومَ الحسبة يَصطدمُ مع هذه الحرية، وذلك لحماية المستهلك من الاحتكار والتاجر من المنافسة ورفع الظلم الإجتماعي، الأمر الذي يدفع باتجاه مشروعية تدخل الحاكم في فترات معينة، فإلى أي مدى يسمح بتدخل السلطة؟

يظهر من خلال الواقع، وصعوبات الحياة المرافقة لحدوث كوارث طبيعية وماترتب عنها من مجاعات وحروب دامية أفرزت مواقع سكنية جديدة نتيجة هجرات قسرية، في مثل هذه الحالات تفنن التجار في أساليب الغش والتلاعب في الأسعار وسارعت السلطة لفرض نوع من المراقبة والتدخل في بعض الأحيان وهذا ما

---

[1]- J.L. Miège, note sur l'artisan marocain, op.cit, p 303

[2]- يحي بن عمر، أحكام السوق، ص 44.

[3]- السابق، ص ص 116-118.

[4]- صحيح مسلم، ص 34.

تظهره أعمال المحتسبين في بعض مناطق بلاد المغرب من شرقها إلى أقصى غربها، فقد كان يحدد سعر الخبز وتوضع الأسعار على اللحوم ويعاقب المتلاعبون في ذلك[1]، وأمام هذا الوضع المعقد في مجال الأسعار والتسعير والإكراهات المرتبطة بذلك فإنه من الصعب جدا معرفة الأسعار في الفترة المدروسة، ومع ذلك يمكن التعرف على خطوطها العامة، حيث تتوفر بعض الإشارات التاريخية تتحدث عن الأسعار المنخفضة، وبالمقابل أيضا نجد فترات عرفت فيها الأسعار ارتفاعا ويتجلى ذلك في:

- أوقات الكوارث الطبيعية فمثلا كان الجذب وغلاء السعر سنة (534هـ/1139م) حيث أدى إلى مجاعات وغلاء الأسعار لقلة العرض[2] وكان الجفاف دوريا فدارت قصة الأسعار أيضا[3].

ولم يكن الجفاف وحده المؤثر على الأسعار، بل أنضاف إليه كوارث أخرى كالعواصف والفيضانات والجراد، ففي سنة (536هـ/1142م) بلغ في المعسكر الموحدي سعر الشعير ثلاثة دنانير للسطل، وبلغ الحطب دينارا للرطل[4].

وبسبب الحرب أيضا ترتفع الأسعار، فقد ارتفعت في بلاد المغرب بسبب تقدم الموحدين نحو شرق البلاد وهو ما يشير إليه صاحب الحلل الموشية" وبسبب هذه الفتنة تواصلت الحروب، وغلت الأسعار، وعم الجذب وقلت المجاني وكثر على أهل الإسلام المحن"[5].

1- المقري، نفح الطيب، ج1، ص ص 203-204.
2- إبن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص ص 16-255.
3- مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص ص 119-120.
4- البيدق، أخبار المهدي، ص ص 52 - 53.
5- مجهول، السابق، ص ص 119-120.

وبسبب هذه الاضطرابات بلغ سعر الربع من الدقيق مثقال حشمي في مدينة مراكش[1] ومن هذه النماذج نرى ما يترتب عن الحروب من جهة، ومن جهة أخرى نرى أن رخص الأسعار في سلعة معينة قد يؤدي إلى ارتفاع الأسعار في سلعة أخرى كما حدث أثناء حصار الموحدين لطنجة ومراكش[2].

وإذا تجاوزنا هذه الظروف الإستثنائية، وبعض الفترات التي كانت فيها بعض القبائل تتصارع سياسيا وعسكريا، يظهر على العموم أن بلاد المغرب عرفت رخاء وإنخفاضا في الأسعار، ففي بداية الدولة المرابطية يذكر البكري بعض الإشارات التي تؤكد على رخص الأسعار في هذه الفترة، ففي طريق فاس سجلماسة، تباع ألف حبة إجاص بربع درهم[3]، وأغمات راخية الأسعار كثيرة الخير، وترد عند الإدريسي مجموعة من الإشارات توضح رخص الأسعار، ففي درعة نجد الحناء والنيلج رخيص، في السوس وبلاد نفزة تكثر الحنطة والشعير والأرز وأسعارها رخيصة، في تلمسان وتارودانت الفواكه واللحوم رخيصة، وفي جبال درن وراشدحمل الرمان والسفرجل يباع بقيراط، والأرتج والقصب الحلو لا يباع ولا يشترى لكثرته ويصف الإدريسي منطقة سلا قائلا:"سعة أموال ونمو أحوال والطعام بها كثير رخيص جدا والحوت بها لا يكاد يباع ولا يشترى لكثرته وجودته وكل شيء من المأكولات في مدينة سلا موجود بأيسر قيمة وأهون وتلمسان حسنة لرخص أسعارها وإنفاق إشغالها ومرابح تجارها"[4].

---

[1]- إبن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص 16.

[2]- السابق، ص ص 23-26.

[3]- البكري، المغرب، ص ص 155-158.

[4]- إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص 167.

- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ص 227-230.

1- التجار والسلطة:

لقد تعرض سكان بلاد المغرب أثناء توسعات الدولة الموحدية خاصة في المدن لِثُنائِيَةٍ واضحة المعالم، فمن جهة كان التّقتيل والأستئصال وتتبع الخصم السياسي في كل مكان والإستيلاء على كل ممتلكاته و أمواله، ومن جهة ثانية إلغاء الفروض غير الشرعية من مكوس ومغارم وغيرها، وبهذا نكون أمام وضعية تمّ فيها القضاء على الخصم باستعمال القوة وترضية بعض الفئات الفاعلة من سكان المدن برفع الضرائب عليها ، ولعل فئة التجار هي المستفيدُ الأول من هذه الوضعية.

ويتضح من المعلومات الواردة في كتاب نزهة المشتاق، أن المدن المغربية كانت تتمتع بنشاط تجاري قوي أعطى التجار مكانة في مسار تطور الإقتصاد المغربي خلال القرن السادس الهجري، حيث تمكّن التجار الكبار من لعب دور مزدوج فهم يمثلون فئة خاصة[1] وفي نفس الوقت يمثلون الفئة المعارضة عندما تتعارض مصالحهم مع مصالح السلطة الحاكمة خاصة عندما تمارس السلطة نوعا من الضغط أثناء فرض ضرائب مرتفعة .

ومن الأمثلة على ذلك موقف المدن المغربية من الدعوة الموحدية حيث اتخذ تجار بعض المدن مَوقفا معاديا على عكس تجار الأرياف والمناطق الجبلية التي سارعت إلى تأييد الموحدين[2].

واعتمد الموحدون أسلوب فرض الأمر الواقع على جل المدن المغربية التابعة لسلطة المرابطين،فقد سقطت مدينة سَلاَ وتادلا ثم أجزاء واسعة

---

[1] - سعيد باشر، المدن المغربية خلال العهد المرابطي و الموحدي ص ص 41-58.

- لقد دفع تجار المدن ثمنا باهظا في إتلاف ممتلكاتهم، ومصادرة بعضها وتعرض البعض منهم إلى الهلاك نتيجة الصراع الحاد بين المتحاربة ويتجسد ذلك بوضوح في كل من مدينة وهران أثناء فتحها سنة (539هـ / 1145م)، وتلمسان سنة (539هـ / 1145م)، وفاس سنة (540هـ / 1146م) ومراكش (541هـ / 1146م) والمهدية سنة (555هـ / 1160م)، وفيها يظهر أن التجار هم الذين قادوا التأييد أو المعارضة لمزيد من المعلومات ينظر:

- سعيد باشر، السابق، ص ص 60 – 63.

[2] - المؤذن ، البادية المغربية قبل الاستعمار، ص65.

لتلمسان التي كانت تسكنها قبائل زناتية ثم وقع الحصار الشامل على مدينة مراكش سنة(541هـ / 1146م) والذي دام سبعة أشهر[1]. وكان قبل هذا قد سيطر الموحدون على المدن الواقعة في غرب بلاد المغرب الأوسط مثل وهران وتلمسان[2]. ونفس الأسلوب اعتمده الموحدون أثناء فتح البلاد الشرقية[3].

ويمكننا القول بأن موقف التُجّار من الحركة الموحدية مبدئيا لم يكن مبنيا على مواجهة قوى سياسية تأييدا أو معارضة، بل كان موقفا متباينا مبنيا على المصالح الخاصة، ويصف ابن غازي حال سكان مكناسة بقوله : "وكان أهلها آمنين مطمئنين في عيش رغد ونعمة تامة منذ مَلك الموحدون"[4] في حين نجد تجار مدينة أغمات قد قاوموا الحركة الموحدية وتضرروا تبعا لذلك[5].

ومِن تَتَبع مَا وَرَدَ في بعض الإشارات التاريخية في الفترة المدروسة نستنتج أن التجار قد لعبوا أدوارا سياسية ربطتهم بالسلطة فقد ورد في المعجب أن التاجر جَنّا الصّقلي (ت 602هـ) لما إنتقل إلى طنجة وسبتة ترك عند أمير فاس التاجر السّطيفي مبلغا كبيرا من المال وكان يثق به[6] ولعب التاجر عيسى بن أحمد الرازي دورا في السفارة بين الأندلس وبعض أمراء المغرب[7] وكان التجار الكبار يُعتبرون من وجهاء المدينة

---

[1] - إبن خلدون ، العبر، ج1، ص 374.
- روجلي تورنو، حركة الموحدين في المغرب، تعريب أمين الطيبي، ط2، الدار البيضاء 1998م، ص ص 57-58-75.
- حسين مؤنس معالم تاريخ و الأندلس، مطابع المستقبل، الإسكندرية، ص 190.
[2] - محمد إبن عاري، الروض الهتون، ص ص 17 -18.
[3] - المصدر السابق ، ص19.
- الياقوت الحموي ، معجم البلدان، ج5، ص103.
[4] - المراكشي ، المعجب، ص 97.
[5] - المصدر السابق، ص 97.
- ياقوت الحموي ، السابق، نفس الجزء والصفحة.
[6] - المراكشي ، المعجب، ص 97.
[7] - رسائل موحدية ، أحمد عزاوي، ج2، ص 110.

عموما يُستدعون للمناسبات الكبرى[1] حيث نجد أن الشيخ محمد فرحون الموحدي (ت584هـ) وهو أمير منطقة تاهرت[2] كان تاجرا.

لقد كانت التجارة عموما مرافقة للسلطة الموحدية في إستقرارها وترحالها فالحصن أو المدينة التجارية يتعرض للزوال لتراجع التجارة و هجرة التجار منه، ويرافق التجار انتقالَ الجيوش والسلطان لإقامة وتلبية حاجيات الأتباع والجند[3] ويستمر في تمويل الجيش طوال العمليات العسكرية[4].

وعلى العموم فإن سلطة التاجر تتجلى بشكل واضح على مستوى البنية الفكرية العامة التي تعود إلى الأصول الأولى للفكر الإسلامي. فقد ورد على لسان أبي عثمان المعافري عن مالك بن أنس أنه قال: " إن الخاتم لثلاث، التاجر أو القاضي أو السلطان"[5] والخاتم هنا يرمز لنوع من السلطة، وفي البنية الفكرية الخاصة ببلاد المغرب يذكر الزهري، أن الشعراء بالقيروان لا يمدحون الملوك والأمراء وإنما يمدحون التجار وأولادهم[6] وقد تولدت هذه البنية الفكرية من جراء النفوذ الذي كان يتمتع به التجار ودورهم الإقتصادي والإجتماعي الذي يتجسد في قوتهم المالية حيث كانت أرباح البضائع تصل إلى ضعف ثمنها فيما يتعلق بالتجارة الداخلية[7].

وتصل أضعاف ذلك فيما يتعلق بالتجارة الخارجية مثلما حصل في نقل القمح من مرسى المهدية سنة (575هـ/1181م) وبيعه في مالقة

---

1 - مجهول، واسطة السلوك في سياسة الملوك، تحقيق عبد الله عود ومحمد الزاهي، دار بوسلامة للطباعة والنشر، تونس، ص 113.

2 - السابق، ص 115.

3 - لقد كانت الأسواق والتجار تنتقل مع الحملات العسكرية وفي هذا الصدد ورد قول الحميري "ثم عبر البحر عبورا هينا حتى أتى الجزيرة الخضراء ففتحوا له وخرج اليه أهلها بما عندهم من الاقوات والضيافات وجعلوا سماطا أقاموا فيه سوقا جلبوا اليها ما عندهم من سائر المرافق . ينظر: - الحميري، روض المعطار ، ص 289.

4 - إبن عذاري، البيان المغرب، ج4، ص35.

5 - المالكي، رياض النفوس، تح بشير البكوش، دار المغرب الإسلامي، بيروت 1983م، ص 233.

6 - الزهري، الجغرافية، ص 108.

7 - المالكي، رياض النفوس، ج1، ص ص 263-264.

وشراء بثمنه تينا وبيعه في نفس المرسى بالمهدية[1]. وقد تصل تركة التجار إلى أكثر من ألفي دينار كما حصل لتاجر العَاج أبي البركات أحمد بن عمر (ت. 540هـ / 1147م)[2].

ولعب التجار دورا إجتماعيا واضحا خلال العهد الموحدي. مثلما فعل أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المهدوي الذي باع في أيام المجاعة بفاس ألف صفحة من القمح للضعفاء دون أن يقبض ثمنها، كما كان التجار يوزعون أموالا وخاصة زكاتهم على الفقراء[3] وزيادة على الأعمال المتعلقة بالفقراء. فقد أشار التادلي إلى أن الكثير من التجار كانوا يحبسون جزءً من أموالهم على المرافق العامة كالمساجد مثلما فعل محمود بن سمعون اللخمي[4] (ت. 600هـ / 1207م).

وجدير بالإشارة إلى أنه كان التجار مثل يوسف بن خالد الفاسي (ت. 580هـ / 1187م)[5] وعمر بن طلحة الوهراني[6] (ت. 542هـ / 1149م) لا يمانعون مشاركة الفقهاء لهم في تجارتهم بإرسال البضائع مع القوافل و الاستفادة من ذلك[7].

ويمكن اتخاذ تجار أغمات خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين كنموذج يمثل التجار فهم أغنياء و سلعهم تعد بالقناطير، وتجارتهم تحتاج إلى توظيف طاقم من الرجال والعبيد لضخامتها الأمر الذي شكل منهم فئة واسعة تجاوزت ثروتهم ثروة أهل السلطان أنفسهم. وقد أوضح لنا الإدريسي كيف يصرف هؤلاء ثرواتهم، بقوله:" وذلك أن

---

1 - التادلي، التشوف، ص 191.

2 - القاضي عياض، الغنية، ص ص 181-183.

3 - التميمي، المستفاد في ذكر مناقب العباد، تح محمد الشريف أطروحة دكتوراه الدولة ، كلية الآداب بتطوان سنة (2000م-2001م)، ج2، ص 91.

4 - التادلي، السابق،ص 112.

5 - يذكر المراكشي أن للشاعر إبن الانة أخ إسمه يوسف بن خالد، كان يقرض الشعر و لم يتخذه مكسبا بل كان من حملة التجار، المعجب، ص219.

6 - إبن بشكوال، كتاب الصلة، تح عزت العطار، القاهرة 1994م، ص ص 279-287.

7 - التميمي، المستفاد في ذكر مناقب العبّاد، ج2، ص 21.

الرجل منهم إذا مَلك أربعة آلاف دينار يمسكها مع نفسه و أربعة آلاف يصرفها في تجارته أقام على يمين بابه وعلى يساره عرصتين من الأرض"[1].

وهكذا فجزء من أرباح التجارة يوجه إلى شراء العقار وجزء آخر يوجه للحاجيات الاستهلاكية. إن طريقة التعامل بهذا الشكل في الأرباح التجارية يؤثر ولا شك في عملية الإستثمار ويقلل من التراكم المالي، ويبقى التاجر صاحب " نخوة واعتزاز"[2] دون أن يساهم في تغيير البيئة الاقتصادية.

وإذا كان التجار يقومون بتشغيل فئة واسعة من السكان، ويوفرون خَدمات إجتماعية وفعلا للخير وينفقون بسخاء ويعيشون عيشة رغدة ويملكون ثروات هائلة الأمر الذي يؤهلهم لمكانة إجتماعية مرموقة ورغم ذلك كله فإنهم لم يشكلوا فئة تهيمن على السلطة السياسية وتذيب التّكتلات الإجتماعية (القبلية). إن غياب وعي التجار في المغرب كفئة إجتماعية وغياب التراكم المالي يرجع إما لأسباب متعلقة ببنية السلطة الحاكمة وعلاقتها المتذبذبة بالتجار ولغياب ذهنية الإستثمار وتغلب ذهنية الإستهلاك أثر واضح على تطور الحركة التجارية نفسها حيث بقي التجار مجرد وسطاء مما حدّ من نفوذهم وربما يكون المنظور الفقهي قد لعب دورًا في ذلك حيث كان يحد من تنقل التجار إلى أرض العدو، وقد ورد في هذا الصدد أنه عندما سُئل مَالك ابن أنس عن الخروج إلى أرض العدو للتجارة قال:" أرى أن يمنعوا من ذلك"[3]، ويشير أبو زيد القيرواني أن سحنون قال : " من ركب البحر في طلب الدنيا إلى أرض العدو فتلك جرحة" [4] ولعل العوامل السابقة تُفَسّر

---

[1] - الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص 232.

[2] - الإدريسي، السابق، نفس الصفحة ونفس الجزء.

[3] - أبو زيد القيرواني، كتاب الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ، تح محمد أبو الأحفان وعثمان بطيخ، مؤسسة الرسالة ، بيروت 1985م، ص 257.

[4] - المصدر السابق، نفس الصفحة.

تقاعص التجار عن تشكيل قوة سياسية واقتصادية مؤثرة بشكل فعّال في مسار تطور المغرب.

يدفعنا ما تقدم إلى وضع تصور منطقي لمجريات كثير من الأحداث ، إذ أن التجار شكلوا على ما يظهر القوى المحرّظة على "الثورة" تحت غطاء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[1]، وذلك كلما تعرضت تجارتهم لضغوطات من طرف السلطة الحاكمة مستعينين بالفقهاء الذي يشكلون جزء منهم أو على الأقل كانت مصالحهم مرتبطة بمصالح فئة التجار، ومن المعلوم أن التجار شكلوا قوة إقتصادية مؤثرة داخل المدينة التي كانت هدفا للحركات الثورية المتصارعة حولها.

إن مواقف التجار تلتقي بالضرورة مع القوى المهيأة للقيام بالإصلاح ماديا وأدبيا والمتجسدة في قبائل الخَفْر، المسلحة على الدوام والمتعاركة من أجل حماية القوافل تحقيقا لمصالحهم المشتركة، فالتجار بهذا المعنى هم المحرضون على الدوام والعاملون على التغيير كلما إشتدت عليهم أعباء السلطة وفروضها، أمّا قبائل الخفر فهي أداة تنفيذ بمعية عصبيتها التي تشكل عادة حلفا يتبلور في مجال الحركة لتشكيل قوة بديلة وسلطة جديدة والفقهاء هم المؤطرون والمنظّرون لشرعية الحركة ، وقد تجسد هذا الأمر في سلجماسة حيث إستنجد فُقَهَاؤُها وصلحاؤها بالسلطة الموحدية لتطهير بلادهم من الجماعات المارقة[2].

ولما دخل الموحدون المدينة ألغوا المكوس والمغارم، مع العلم أن بنية سكان المدينة كانت مركبة في هذه الفترة من شريحتين أساسيتين، شريحة الحكام المتمثلين في السلطة الزناتية وقبائلها وشريحة التجار والقائمين بخدماتهم كفئة

---

[1] - محمد فتحة، الأحكام و النوازل ص ص 592-595.

- محمد ناصح، "مكانة التجار بين الفئات الإجتماعية المكونة للمجتمع الحضري المغربي خلال القرن(6هـ/12م)"، أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب، كلية الآداب عين الشق، الدار البيضاء، ج2، 2004م، ص80.

[2] - التميمي، المستفاد في ذكر مناقب العباد ، ج2، ص ص 94-96.

تستمد قوتها من الثراء التجاري للمدينة، ويلتقي مع هؤلاء التجار دائما الفقهاء والصلحاء الذين ينشدون التقرب من الخلافة فالبعد الإقتصادي لحركة الموحدين يتجلى في إلغاء المكوس والمغارم في بعض المواقع التي نشأت فيها[1]. فالإصلاحات الإقتصادية التي قامت بها أثناء دخولها لبعض المدن كانت من العوامل التي ساعدت على إنتشار الدعوة نفسها بل أن العامل التجاري من منطلق هذا الإصلاح كان له دور كبير وأساسي في مسار التطور السياسي بل وفي مسار ما كان يطلق عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أي الإصلاح الديني نفسه[2].

2 - شراكة التجار:

يتبين من خلال كتب النوازل أن بعض الشركات التجارية عكست أوضاعا مختلفة من التبادل التجاري منها ما يتصل بتدبير رأسمال كبير ومنها ما يتعلق بأنشطة عادية، فشركاء البادية أكثر وأهم من شركاء الحضر، ومردُّ ذلك إلى أن الشركة في البهائم والماشية كانت تشكل أحد مظاهر الإنتاج الأكثر إنتشارًا عبر أرجاء بوادي بلاد المغرب مشرقه ومغربه، وأشكال الشركة متعددة منها:

1) اتفاق بين مالك البهائم وشريكه على أن يخدم الشريك المالك مدة معينة نظير جزء معلوم.

2) اتفاق بين مالك البقر أو الأغنام أو النوق على أن يكون الخلف للمشتري ويدفع لصاحب البهائم جزءا من السمن والزبدة[3] والظاهر من خلال كتب الفتاوى والنوازل أن مراعاة أحكام الشرع لم يتقيد بها دائما، بل الغالب هو أن ذلك كان يتم وفق الأعراف

---

[1] - عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي، ص ص 278-287.

[2] - تكرر هذا الأمر في فترة الناصر إبن المنصور الموحدي وخاصة بعد الهزام المسلمين في موقعة العقاب سنة 609هـ حيث عادت و انتشرت المفاهيم والقبالات والجبايات. بعد ما توقف العمل بها خلال عهد إبن عبد المومن وخلفائه. ينظر:
- محمد ناصح، مكانةالتجار بين الفئات الإجتماعية، ص 16.

[3] - الونشريسي، السابق،ج 8 ، ص 195.

وتتسع الشراكة في البهائم أحيانا لتشمل أعدادا كبيرة من الأبقار والأغنام، وقد تكون الشراكة بقصد إنتاج اللحوم أو السمن وأنواع الزبد[1]، وبعكس ذلك كانت الإشتراكات في البهائم تصغر لتشمل أحيانا البهيمة الواحدة، وأغراض ذلك متعددة، قد تكون بهدف استعمالها في أمور الفلاحة أو النقل أو السفر، وقد يحصل أن يشترك ثلاثة أشخاص في بهيمة واحدة[2] ، فهل مرد ذلك إلى عدم القدرة على امتلاك البهيمة الواحدة؟ أم بسبب ندرتها[3] ويكثر الحديث عن اللحوء للإستعارة ممن توفرت لديه البهائم وكثيرا ما يكون هؤلاء من أصحاب الجاه والسلطان[4]، وزيادة على ما سبق فقد شاعت الشراكات في النحل وفي إنتاج الحرير بين الناس[5].

لم يكتف الناس بالشراكة في الميادين السالفة الذكر، بل تعدُّوها إلى أنشطة أخرى كالمعادن والإرْحَى والمعاصر والحمامات والحوانيت للإتجار في نفس البضاعة أو القيام بحرف مختلفة[6] ، واتفقوا على شراكات عمل، كاشتراك الحمَّالين في أجرة ما يحملونه، واشتراك الصيادين فيما يصطادونه من سمك على التفاوت في شباكهم[7] ، وشراكة النساء في غزل الصوف[8].

إن أنواع الشراكات المشار إليها تختلف من ناحية انسجامها مع استقرار السوق من جهة ومع أحكام الشرع من جهة ثانية فمنها ما هو جائز ومنها ما عرض على الفقهاء بسبب خلافات مثل الشفعة أو الهبة أو التعدي على نصيب الشريك الغائب ومنها بشراكات لا يجيزها الشرع مثل شراكات العمل.

---

[1]- العقباني، تحفة الناظر ، ص ص 230-239.

[2]- الونشريسي، المعيار، ج 8 ص 179.

[3]- السابق، نفس الجزء والصفحة.

[4]- الزركلي، تاريخ الدولتين، م س، ص (103 ، 105 ، 110).

[5]- الونشريسي، السابق ج، 8 ، ص 186.

[6]- الونشريسي، السابق، نفس الجزء، ص 181.

[7]- السابق، ج8، ص 182.

[8]- العقباني، تحفة الناظر ، ص 264.

3 - تضامن التجار:

ساهمت ثقافة التضامن في الحد من انتشار ذهنية الإحتكار والتقليص من آثارها، وقد مرت الحياة الإقتصادية خاصة جانبها التجاري بأوقات صعبة عرفها المنتجون بسبب بعض الجوائح التي تُعِّرض إنتاجهم للتلف، وقد تجسدت في كل الظواهر الطبيعية التي أصابت المحاصيل الزراعية وعرضتها للهلاك، مثل السيول الناتجة عن كثرة الأمطار، والجفاف والبرد والطير والخنزير وإنتشار الجراد أو بعض الحشرات والأمراض[1]، كما تعود أسبابها الى عوامل بشرية كإجتياح الجيوش للأراضي، أو هجوم العدو، وغيرها من الأسباب التي يظهر أنها كانت تثير النزاعات بين المتعاقدين بالكراء أو الشراكة أو العمل، وأن الجوائح لم تكن تهم جميع المنتجين بنفس القدر، بل شريحة محددة منهم وتتكون من أولئك الذين كانوا يباشرون عملهم بكراء الأراضي من مالكيها، وبكراء بعض المرافق الإقتصادية بالمدن، كالفنادق والحوانيت[2].

والأراضي والحمامات،ويحاولون في حالة وقوع الجائحة أن يقللوا من آثارها عليهم على الأقل من جهة الكراء الذين كانوا ملزمين به، ولهذا فهم لم يكونوا يجدون مفرا من استفتاء الفقهاء فيما قُدّر عليهم، بل نجدهم أحيانا يتقاضون أمام القضاة حينما لا يكون لهم حل آخر[3].

وقد ساهم الفقهاء في استقرار الوضع الإجتماعي عندما أفتوا بسقوط الكراء في حالة توالي القحط أي شح المطر[4]، وفي حالة الكراء لسنة عندما تتعذر الزراعة إبانها لسبب خارج عن إرادة المكتري[5]. وقد

1- الونشريسي، المعيار، ج5 ، ص 237.

2- Levi provençal, seville, op. cit, p 121

- R. Brunschvig, la berbéris orientale, T_2, p 203.

3- إبن سهل، نوازل، ص ص 25-28.

4- الونشريسي، السابق ، ج8، ص 165.

5- السابق، نفس الجزء والصفحة.

عكست الفتاوى تسامحا ورفقا أكبر بالتجار غير المالكين لحوانيتهم ولعلّ السبب في ذلك يعود على ما يبدو إلى الأوضاع الخاصة التي كانت تتميز بكثرة الحروب وآثارها خاصة بالجهة الغربية (المغرب الأقصى وجزء من المغرب الأوسط) خلال قيام الدولة الموحدية ونفس الأوضاع عرفتها الجهة الشرقية بسبب تمرد العرب الهلاليين والفتن التي أثارها غزو الأتراك وبنو غانية[1].

وقد حاول بعض التجار التملص من التزاماتهم تجاه مالكي بعض المرافق التي كانوا يستغلونها[2].

ورافق ذلك كساد كبير في الكثير من السلع لدرجة أن بعض المُكترين للحوانيت ذهبوا إلى اعتبار الكساد في التجارة مبررا للتخفيف من الكراء باعتباره جائحة أصابتهم في سنة معينة بسبب ضعف القدرة الشرائية للناس[3]، وهذا الأمر يوضح مرونة في التشريعات المتعلقة بمختلف مظاهر الحياة الإقتصادية، على الرغم من الصعوبة الظاهرة في إثبات الجائحة وآثارها، الأمر الذي يعكس الرغبة في التقليل من آثار الأزمة على شريحة من الناس[4].

*** النقود:**

يبدو أن عهد الخليفة عبد المؤمن قد عرف تطورا في المجال النقدي، والدليل على ذلك وجود عدد مهمّ من دور سك العملة في بلاد المغرب، التي أصدرت قدرا مهما من الدنانير المؤمنية، وأجزائها زيادة على الدراهم الفضية المربعة، وهذه المدن هي رباط الفتح،

---

[1]- إبن خلدون، العبر، ج6، ص ص 391-406 .
- العبريني، عنوان الدراية، ص 78.
- مجهول، الإستبصار، ص ص 110 - 111 .

[2]- الونشريسي، المعيار، ج6 ، ص 104.

[3]- السابق، ج8، ص 288 ؛ - وفتاوى إبن رشد، ص 283.

[4]- إبن سهل، نوازل إبن سهل، ص ص 30-39.

وفاس، ومراكش، وسبتة، ومكناسة، وسلا زيادة على مدينة تونس وبجاية وقد بلغ مجموع الدنانير المؤمنية التي وصلت إلينا حوالي 133 دينارا من بينها 41 دينار لا يحمل مكان الضرب[1].

1 - إختلاف النقود:

رغم الجهود التي بذلها عبد المؤمن بن علي وخلفاؤه من بعده في جميع أرجاء دولتهم وتوقفهم عن التعامل بالعملات التي كانت متداولة بالمغرب، إلا أن ذلك لم يمنع حدوث مشكلة اختلاف العملة وتعددها[2].

فمنذ البداية ضرب الخليفة عبد المؤمن دراهم فضية تزن دراهم النصاب[3]، وحدث أيضا في عهد المنصور أن ضرب دراهم جديدة[4] كان كل منها يعدل ثلث الدينار اليعقوبي، ويزن ثمانية وعشرين حبة من الشعير الوسط[5].

وفي عهد المنصور لم يعد اختلاف العملة وقفا على الدرهم الفضي بل تعداه إلى الدنانير، إذ أقدم المنصور على مضاعفة وزن الدينار الموحدي القديم (المؤمني) وعمد إلى ضرب دينار جديد سمّاه باسمه[6].

ويظهر أن الموحدين قد أكثروا من ضرب الدراهم وأجزائها منذ خلافة أبي يعقوب يوسف[7]، وخاصة بعد انتشار معدن الفضة وتمكن الصناع من استغلال المناجم المعدنية نذكر من بينها منجم

1- Ben Ramdane (K), « les monnaies almohades » Bibliothèque de Paris p 169.
- لقد ذكر ابن خلدون أن استحداث ضرب العملة في بجاية كان سنة (543هـ/1148م):- العبر، ج4، ص363.

2- عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي، ص 30.

3- المراكشي، المعجب، ص 336.

4- السابق، ص 411.

5- أبو الحسن علي بن يوسف، الدوحة المشتبكة، ص ص 102-105-110.

6- إبن القطان، نظم الجمان، ص 183.
- ما قرره يعقوب المنصور هو أن يصب الدينار الذهبي للدولة الموحدية مساويا للمثقال أي ضعف الدينار السابق وبذلك صار وزنه 4,72غ وهو ما يقابل 80 حبة من القمح.

7- (ch.E) Dufourcq, la couronne d'Argon et les Hafsides, Barcelona, 1952, p74.
- عز الدين موسى، السابق، ص 300.

عوام، ومنجم زجندر[1]، وكانت هذه الدراهم تضرب في جميع الجهات الأمر الذي سبّب اختلافا في السك والوزن.

وقد ذكر صاحب الدوحة أن الناس كانوا يتعاملون بكل سمة منها[2] ولم يمنع هذه التعامل من نشوب خصومات ونزعات بسبب اختلاف وتعدد هذا الوحدات وتفاضلها في الأوزان، وتذكر كتب النوازل أن الدنانير إذا امتحنت بالوزن منفردة، وجد بعضها أوْفَى من بعض، فإذا جُمعت المائة منها بالصنجة ربما صدقت أو نقصت من الوزن[3]، وهذه الحالة كانت تنطبق على السلوكات الموحدية، ويبدو أن ذلك يرجع إلى انعدام الدقة في أغلب الموازين المستعملة في دور الضرب.

ورغم أن طريقة التعامل بالنقود كانت تتم عدّا، إلاّ أن الناس كانوا يضطرون للتعامل موازنةً لحسم الخلاف الناتج عن التفاوت في الأوزان[4]، خاصة أن الأسواق الموحدية لم تكن تخلو من وجود دراهم ناقصة[5].

2 – غش النقود:

تؤثر عملية تزوير السكة وتؤدي حتما إلى وفرة النقود المتداولة مما يترتب عنه التضخم الذي لا تخفى مضاره الإقتصادية ومن بينها ارتفاع الأسعار، وانخفاض القيمة النقدية للسكة المتداولة وسقوط قدرتها الشرائية زيادة على ما يجلبه التزوير من الوقوع في كثير من المخاصمات بين المتعاملين في التجارة نتيجة فقدان الثقة في السكة[6].

---

[1] – منجم عوام يقع بجبال الأطلس المتوسط على بعد 10 كلم غرب منطقة مريرت؛ ومنجم زجندر يقع هذا الجبل على ارتفاع 2000 متر بجبل يسيرو قريبا من المنطقة المعروفة باسكاون ويعتبر من اكبر مناجم الفضة التي تم استغلالها ،انظر :

(b) Roseuberger, « Autour d'une grande mine d'argent du moyen âge marocain, le djebel Ascaoune », Hesréris tamuda 1964, p 18. -

[2] – أبو الحسن علي بن يوسف، الدوحة المشتبكة، ص 69.

[3] – إبن رشد، نوازل إبن رشد، ص 106.

[4] – التادلي، التشوف، ص 257.

[5] – إبن أبي زرع، الروض المعطار، ص 124.

[6] – عمر آفة، مسألة النقود في تاريخ المغرب، ص 186.

(A) Bel, « contributions a l'étude des dirhams de l'époque almohade » p p 6-10 -

وقد عرف المغرب حالات التزوير عبر مختلف مراحله التاريخية منذ ما قبل عهد المرابطين، غير أن هذه الظاهرة قد اتسعت خلال العهد الموحدي[1]، بحيث أن التزوير أصبح يمارس بشكل كبير بالرغم من أن عقوبة التزييف والغش كانت شديدة[2]، ولم يكن تزوير العملة الموحدية من طرف الموحدين فقط بل تعداه إلى المسيحيين الذين كانوا يتعاملون مع التجار المغاربة[3].

ومما يلاحظ أن تزوير العملة قد ازداد خطورة حينما لم تسلم منه حتى دور الضرب الحكومية[4]، إذ ضرب أبو يعقوب يوسف ستة وثلاثين (36) ألف دينارا مموَّهَة لما طالبه بها عرب إفريقيا مقابل فداء وَاليهَا[5]، ويبدو أن غش العملة أصبح عادة عند خلفاء الموحدين كلما طولبوا بفداء، وأظهرت دراسة الدراهم المكتشفة قرب تلمسان أن تزوير العملة في دور الضرب الموحدية لم يكن يقتصر على السكة الذهبية بل كان يشمل الفضية كذلك[6].

ورغم أن الموحدين قد بذلوا جهدا كبيرا في مراقبة نقودهم ومتابعة المزورين بالعقاب حيث سجنوا عددا ممن غشوا العملة[7] ومع ذلك انتشر ترويج الدراهم المزورة داخل الأسواق ويبدو من خلال المصادر التاريخية، أن أعمال التزوير والتدليس كانت تتم على مستوى القرى والأرياف، حيث تضعف السلطة وتتلاشى قوة المراقبة[8]

1- (A) Bel, « contributions a l'étude des dirhams de l'époque almohade », p 15.

2- الونشريسي، المعيار، ج5، ص 28؛ ج6 ، ص 175.

3- عز الدين موسى، النشاط الإقتصادي، ص 301.

4- (A) Bel, op. cit, pp 6-10.

5- المراكشي، المعجب، ص ص 390-391.

6- عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي، ص 302.

7- السابق، ص 301.

8- التادلي، التشوف، ص 243 .

- البادسي، المقصد الشريف، ص 73.

وكانت أعمال التدليس متنوعة، فقد تصنع دراهم من الفضة غير أنها تكون مشوبة بنحاس، أو قد تصنع دراهم من نحاس ثم تموّه بالفضة[1].

وجدير بالإشارة إلى أن المسيحيين شاركوا بشكل كبير في الإرتباك الحاصل من تداول العملة خلال عهد الموحدين، إذ أقدم نصارى إسبانيا، وفرنسا على ضرب عملة تشبه الدراهم الموحدية المربعة عُرفت في العقود المسيحية باسم "الميلاريس"[2]، وكانت هذه العملة تصنع في عدة جهات من أوروبا، وكان صنع هذه القطع النقدية الفضية متقنا بشكل جيد يصعب كشفها[3].

ويبدو أن الموحدين لم يقوموا بأي رد فعل اتجاه هذه البلدان المسيحية للحد من سيولة هذه العملات المزورة التي كان المسيحيون يحملونها معهم سواء التجار منهم أو المسافرون الوافدون على بعض الموانئ الموحدية، وكان الموحدون يكتفون بمصادرتها في حالة كشفها[4] ومن دون ريب فإن مثل هذه الحالات كانت تتكرر أثناء فترات الحروب الداخلية، وانشغال السلطة بإخماد الثورات، وتمرد القبائل.

3 - كنز العملة:

من الصعوبات الكبيرة التي واجهت الحركة التجارية الداخلية خلال عهد الموحدين، ظاهرة كنز النقود، ويظهر أن هذه العملية كانت تظهر بشكل مثير أثناء فترات الأزمة والاضطرابات السياسية[5]

---

[1] - أبو العباس أحمد بن إبراهيم، المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح، المطبعة المصرية، الطبعة الأولى، القاهرة 1933م، ص267.

[2] - Blancard (louis), le millarès, étude sur une monnaie du XI s'imitée de l'arabe par les chrétiens pour besoins de leur commerce, Paris 1883, p 480.

[3] - Maroc black, esquisse d'une histoire monétaire, Paris 1954, p 201.

[4] - عبد الهادي التازي، العلاقات الدبلوماسية، ج6، ص 252.

[5] - Ahmed Khanboubi, les premiers sultans mérinides (1269-1331), histoire politique et sociale, Paris 1987 p 129

- إبن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ص 29-443.

فيخاف الناس والتجار لغياب الأمن فيلتجئون، إلى إخفاء ما يمكن إخفاؤه من نقود ودفنها في أماكن خاصة، على شكل أموال سائلة وهو ما تدل عليه الإكتشافات النقدية المستمرة في جهات وأماكن مختلفة[1].

ويبدو أن هذه الظاهرة قد تعددت خلال الحكم الموحدي بسبب كثرة الإضطرابات وانعدام الأمن، وبعيدا عن فترات الأزمة فإنه في الوقت الذي كان لزاما فيه على التجار من ذوي رؤوس الأموال الضخمة، وبعض الموظفين الذين تولوا خططا رسمية مهمة[2] توظيف ما يملكونه من نقود واستثمارها في مجال التبادل التجاري، فإنهم يجمدونها عن طريق استعمالها في مجالات غير منتجة كبناء المنازل والقصور الفخمة وهو ما كان يؤثر على كمية النقود المتداولة وينعكس بالتالي على نشاط الأسواق.

وبصفة إجمالية، فإن هذه المظاهر تعتبر من بين أهم المشاكل التي عانت منها حركة المبادلات التجارية خلال عهد الموحدين، ويمكن إضافة صعوبة أخرى اقتصرت على عهد الخليفة الأول عبد المؤمن وهي تتمثل في ندرة الصرف، فقد أشار صاحب كتاب العجب إلى أن الناس كانوا يشكون كثيرا من قلة الصرف وتصيبهم ضائقة شديدة بسبب ذلك[3]، ويظهر أن هذا المشكل قد اختفى بعد ذلك إذ لم تعد هناك شكوى من قلة الصرف في عهد الخليفة الثاني خاصة بعد استغلال المناجم المعدنية خلال عهد أبي يعقوب يوسف[4].

1- Bel (A). Contrubtion à l'étude, op-cit, pp 22-25.

- توجد قطعتان من الدنانير الموحدية في متحف سيرتا بقسنطينة جناح نقود العصر الوسيط اكتشفتا في منطقة تاديس شمال قسنطينة على بعد 20 كلم.

2- عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي، ص 342.

3- المراكشي، المعجب، ص 302.

4- السابق، نفس الصفحة.

* الحسبة:

هي عمل ووظيفة تطبق فيها قواعد الحسبة في الإشراف على السلوك الأخلاقي وخاصة في الأسواق، والشخص الذي يعهد له بذلك يسمى المحتسب[1] والحسبة واسطة بين أحكام القضاء والمظالم[2]،وانطلاقا من هذا فهي خادمة لمنصب القضاء، وقد كانت في كثير من الدول الإسلامية داخلةٌ في عموم ولاية القاضي، ويُولّى فيها باختياره، ثم لَمّا استقلت وظيفة السلطان عن أمور الخلافة، وصار نظره الى أمور السياسة إندرجت في وظائف الملك وأفردت بالولاية[3]، بل إن الحسبة لها أيضا صِلة بصاحب الشرطة لاشتراكها في المحافظة على الأخلاق وقمع أهل الفساد، وقد كان الجمع بين المنصبين أمرا مألوفا في التاريخ الإسلامي[4]، ومن مهام المحتسب في المجال التجاري السهر على تنظيم التجارة ومراقبة الأسواق ومحاربة الغش والتدليس في المعايش وغيرها وفي المكاييل والأوزان[5].

وهي تختص بثلاثة أنواع من الدعوى: الأول أن يكون فيما يتعلق ببخس وتطفيف الكيل أو الوزن، والثاني يتعلق بغش أو تدليس في بيع أو ثمن، والثالث فيما يتعلق بمماطلة وتأخير الدين المستحق مع الإمكان[6]، قال عبد الرؤوف: " المحتسب يمنع الناس من الجلوس على الطرقات والإحداث فيها

---

1 - للمحتسب شروط تتمثل في "العدالة، النزاهة، معرفة فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومعرفة طرف من الحساب لاختبار قيم المبيعات، ونسب الأسعار، واليقظة في إقامة الموازين بالقسط، والتفطن بغش المتحايلين، والصرامة في الحكم، وعدم الالتفات إلى الشفاعات". ينظر: - إبن رضوان، الشّهب اللاّمعة في السياسة النافعة، تحقيق علي سامي النشار دار الثقافة، الدار البيضاء، 1984م، ص 327.

2 - السابق، نفس الصفحة.

3- إبن خلدون، المقدمة ، ص 28.

4- يقول السقطي : "إن الحسبة وسيطة بين خطة القضاء والمظالم، فهي تجمع بين نظر شرعي وزجر سلطاني"، في آداب الحسبة، ص ص 2 - 5.

5- إبن خلدون السابق، نفس الصفحة.

6- الماوردي، الأحكام السلطانية، ص 301.

ويمنع الناس من طرح الأزبال والجيف وما أشبهها، ويمنع الصباغين ومن في معناهم من نشر الثياب المصبوغة المبلولة على الطرقات، ويمنع الناس من الدخول إلى القيساريات والأسواق على ظهور الدواب.."[1] وجدير بالإشارة إلى أن هذه الخطة قد أُطّرت بمرجعيات دينية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية[2] وأكد عليها الفقهاء والمفتون، كما يظهر من كتب الفقه والنوازل حيث جعلوها من الفروض الواجب على السلطان القيام بها، فهي فرض عين على المحتسب بحكم الولاية وفرض كفاية بالنسبة للمتطوع. ورغم الإشارات المتعددة عن وجود الحسبة في بلدان المغرب إلاّ أننا لا نجد الروايات التاريخية التي تؤكد وجودها كوظيفة أو كخطة مستقلة، رغم أن هناك إشارات واضحة تؤكد ممارسة الحسبة كمهنة ولكن تلك الإشارات لا ترقى إلى تأكيد أو نفي وجود نظام الحسبة خلال فترة الدراسة.

لقد تابع قادة الموحدين نهج تغيير المنكر في البلاد المفتوحة[3]، وقطع المزامير وإحراق الديار التي تباع فيها الخمور، وإزالة المكوس، وإسقاط المغارم، ولكن هذه الروايات المتعددة الواردة حول الحسبة بمفهومها العام عند الموحدين أثناء قيام دولتهم لم ترد بنفس الحجم وبنفس الموضوع فيما يتعلق بالحسبة كتنظيم ويظهر أن القاضي كان يقوم بمهام الحسبة في أسواق المدن الكبرى، فقد ورد عند إبن القطان أن عبد الحق بن عبد الله بن معيشة (ت. 549هـ / 1156م) لما وُلي قضاء فاس سنة (529هـ / 1136م) أراق الخمر وكسر الدنان، وشدد على أهلها ومما يؤكد أن ولاية الحسبة كانت موجودة في الفترة موضوع الدراسة ومرتبطة

---

[1] - إبن عبد الرؤوف، الحسبة، ص ص 110 – 112 .

[2] - مثل الآيات: الآية 156 من سورة الأعراف، الآية 104 من سورة آل عمران، الآية 71 من سورة التوبة والآية (1، 2، 3)، من سورة المطففين، والأحاديث النبوية مثل من غشنا فليس منا، ونهي صلع، عن بيع الطعام قبل أن يستوفي، وعن بيعة في بيعة، وعن بيع الحيوان باللحم. ينظر: - السقطي، في آداب الحسبة، ص 4.

[3] - إبن الخطيب، تاريخ المغرب الوسيط، ج 3 ، من أعمال الإعلام، ص 227.

بتكليف السلطة ما ورد في رواية روض القرطاس، أن المهدي بن تومرت كان يقوم بالحسبة بدون إذن السلطة[1]، وقد سُئل المهدي أثناء وجوده في بجاية عن من "أمرك بالحسبة" فقال :الله ورسوله[2]، وقد ورد في نوازل إبن الطاهر المكناسي (ت613هـ / 1220م) أن أحد قضاة طنجة ومكناسة الزيتون قام بالإحتساب على المؤذن بن سعد المكناسي (ت 589هـ / 1196م) الذي كان يقوم بالأسحار والإبتهال والدعاء في جوف الليل وقام القائم عليه عند الوزير القاضي علي بن زهوان (ت 596هـ / 1203م) وهو في خطة أحكام السوق أن ذلك ضررا على الجيران[3].

وقد برز في هذه الفترة فقهاء وقضاة لا زال صدى صيتهم مستمرا لحد الآن أمثال القاضي عياض وابن رشد الجد، ويظهر من خلال هذا العرض الموجز للحسبة في الفترة المدروسة أن مفهومها كان يطغى عليه الطابع العام المتعلق بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، غير أن عمل الحسبة كمفهوم خاص كان قائما كمهنة أقرتها التشريعات الفقهية ومورست بطرق متنوعة في إطار تنظيم الحياة العامة وأسندت في الغالب لخطة القضاء[4]، ولكن هذا لم يمنع وجود خطة الحسبة كما كان عليه الحال في سبته ومراكش وتلمسان وتونس[5]، مما يؤكد من جديد لا مركزية الأنظمة الإدارية في العهدين المرابطي والموحدي وسياسة مسايرة أعراف وتقاليد وعادات كل بلد ولكن السلطة الحاكمة لم تكن غائبة، بل كانت تشرف على تنظيم ومراقبة الحياة العامة، ومنها الحياة الإقتصادية التي تشمل النشاط التجاري على الخصوص.

---

[1] - إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص 174.

[2] - البيدق، أخبار المهدي، ص 14.

[3] - عبد الرحمن الفاسي، خطة الحسبة في النظر والتصنيف والتدوين، دار الثقافة الدار البيضاء، 1984م، ص 81.
ويقدم المراكشي إلى ذلك بقوله : كان بجانب القضاة فقهاء للمشورة في أمور الحكم، المعجب، ص ص 252- 253 .

[4] - الأزموري محمد، نهجة الناظرين ، تحقيق علي الجاوي، كلية الرباط 1986م، ص104.

[5] - الحكيم أبو الحسن، الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة 1986م، ص76.

قيمة النقود الموحدية:

إن الوضع النقدي الموحدي كان جيدا خلال فترة الدراسة ويرجع ذلك إلى عدة أسباب من أهمها قطع الطريق على القوافل التجارية بين سجلماسة وغانة ونتج عن ذلك تحول نشاط الطريق الغربي إلى وسط الصحراء في اتجاه واركلان والواحات باتجاه المشرق وتبعه انتقال تعدين الذهب من جنوب غانة إلى مالي الأمر الذي أثّر على كميات الذهب التي أصبحت تصل إلى بلاد المغرب[1] وزيادة على ذلك فإن مدخرات المرابطين المتراكمة، وثروات الزيريين من أهم مقوماتها[2]، كل ذلك يدفع باتجاه تأكيد القول بأنّ هذه الثروات وفّرت سيولة نقدية مكنت الموحدين من تغطية مصاريفها وتلبية حاجيات التجار.

فالثّراء النقدي الذي تميز به العصر الموحدي الأول، فيما بين عهد الخليفة عبد المؤمن وحفيده المنصور، يبدو أنه لا يرتبط أساسا بتجارة الذهب مع السودان، التي كانت قد تضررت كثيرا، وإنما يرتبط بالنمو الإقتصادي الذي يدلّ عليه تطور المبادلات التجارية مع العالم المسيحي وخاصة مع التجار الإيطاليين[3]، وبفعالية السياسة المالية التي فرضها عبد المؤمن من جمع موارد مالية هامة، ضمنت مستقبل البلاد حيث استولى عبد المؤمن على ذخائر تاشفين وأمراء لمتونة، فلما فتح العاصمة مراكش جعل الأمناء على أبوابها مدة شهرين كاملين حتى أجتمع له فيؤها وماهلها[4]، وفي سنة (555هـ / 1160م) فرض الخليفة عبد المؤمن بن علي الخراج على بلاد المغرب بعدما قام بمسح أراضي الدولة ثم أسقط منها ثُلثي الأراضي وفرض على الباقي

---

[1]- عبد الله العروي، تاريخ المغرب، ص 189.

[2]- Ben Ramdane (k) : les monnaies almohades, op cit, p168.

[3]- مجهول، الحلل الموشية، ص 144.

[4]- إبن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص 30.

خراجا يُدفع نقدا أو عينا[1]، ولما فتح مدينة تونس، ترك أهلها في منازلهم، لكنه جعلهم يدفعون إيجارا يؤخذ على نصف مساكنهم[2] ورغم أننا لا نملك تقديرا للموارد المالية التي جُمعت بأيدي الموحدين إلا أن المؤشرات تسمح لنا بأن نتصور حجم هذه الثروات التي لم يسبق أن تجمعت لدى أحد غير عبد المؤمن بن علي وأبناءه من ملوك المغرب السابقتين واللاحقتين[3].

إن ازدهار الوضع النقدي في عهد عبد المؤمن له ما يبرره وهو استفادته من الثروات الذهبية التي خلّفها المرابطون والزيريون وكذا أمراء الطوائف بالأندلس ولا شك أن الإزدهار التجاري الذي عرفه المغرب في عهده قد تطلب تعددا في الإصدارات النقدية ونفس الإرتياح النقدي عرفه عهد الخليفة أبو يعقوب يوسف، فالثراء الذي شهده المغرب في دولته هو الذي كان يسهل عليه بذل الأموال ومنح الأعطيات للجند[4]، وأشار المراكشي إلى أن الذي كان يسهل عليه بذل هذه الإنعامات هو سعة الخراج وكثرة الوجوه التي كان يتحصل منها على الأموال[5].

فمن جملة ما كان يرفع إليه من خراج إفريقية في كل سنة "حمل مئة وخمسين بغلا"، هذا زيادة على ما كان يتحصل عليه من بجاية وأعمالها، وتلمسان وأعمالها.

---

[1]- إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص 198-199.

[2]- إبن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9 ، ص 63.

[3]- عبد الله العروي، تاريخ المغرب، ص 184.

[4]- عندما احتفل أبو يعقوب يوسف بمقدم أخيه السيد أبي حفص من الأندلس سنة(51 هـ/ 1156م) أنعم الخليفة على جنده الغازين والقاطنين بمراكش وعلى طلبة الحظر وأفاض عليهم المال الكثير فأعطى للفارس 20 دينارا وللأعيان 100 دينار لكل واحد وللأشياخ العرب مثل ذلك.

- إبن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 291-292.

[5]- المعجب، ص 370.

ولما وُلّي إبنه أبو يوسف يعقوب، كان مُلك الموحدين قد تمهد وآتسق والمال قد توفر[1]، ولذلك كان أول شيء فعله بعدما تمت له البيعة أن أخرج مائة ألف دينار من بيت مال الموحدين وفرّقها على الضعفاء من بيوتات بلاد المغرب[2]، ونظرا لوفرة المال في دولته أكرم الفقهاء والصلحاء، وأجرى على أكثرهم بالإنفاق من بيت المال، فعلى سبيل المثال، كان جملة ما وصل إلى القاضي أبي عبد الله الحسيني (ت 608هـ/1213م) من الخليفة المنصور من يوم أن عرفه إلى أن مات تسعة عشر ألف دينار خارجا عن الخلع والمراكب والإقطاع[3].

وذكر الناصري أن أيام الخليفة المنصور، كانت أيام دعة وأمن ورخاء ورفاهية، فقد حصّن البلاد، وضبط الثغور وأمّن الطرقات حتى أن الظعينة تخرج من بلاد نول إلى برقة وحدها دون أن تجد من يتعرض لها ولا من يسومها بسوء[4].

وهذا يعني توفر الأمن وانتشاره في الطرقات الأمر الذي ساعد على تحرك الأشخاص، وانتقال السلع وهو ما سيترتب عنه ازدهار في الحركة التجارية وتعدد في الإصدارات النقدية.

لقد إستطاع الدينار الموحدى أن يصبح في صدارة العملات المعاصرة له سواء الإسلامية منها أو المسيحية، وقد تكاملت عدة عوامل لتجعله في هذا المستوى، فقد كانت العملة المصنفة مع العملات الأولى على مستوى العالم آنذاك، وليس أدلّ على ذلك أكثر من شيوع الثقة بها وانتشارها حتى صار ذكرها في جميع الأفاق، وقد نال الدينار الموحدى ومن قبله المرابطي من الشهرة الواسعة ممّا جعل

1- إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص 230.
2- السابق، ص 217.
3- المراكشي، المعجب، ص 217.
4- الإستقصاء، ج 2 ، ص 198.

الباحث (Goitein) يعتبره دولار العصور الوسطى[1]، فقد أصبحت العملة الموحدية عملة التداول في منطقة البحر الأبيض المتوسط خلال القرن الثاني عشر 12م[2] وتدعم الدينار الموحدي بعد قيام الخليفة يعقوب المنصور باصلاحه النقدي، حيث تغلب الدينار الموحدي على معظم العملات الذهبية المعاصرة سواء على مستوى العالم الإسلامي أو المسيحي نتيجة نفوذه ودوره في التعامل الدولي.

ومن العوامل التي ساعدت على تقيوية نفوذه عجز الدينار المصري، زمن بني أيوب عن استعادة مركزه الدولي كما كان في عهد الفاطميين، وتقلصت قيمة العملات الذهبية التي أصدرها بعض الملوك المسيحين كما هو الشأن بالنسبة للرباعيات الصقلية أو الدنانير التي ضربها ملك قشتالة[3].

* المسالك التجارية:

1 - المسالك التجارية الداخلية:

يكون العنصر الطبيعي محدِّدًا لمسار الطرقات وإختيار مواقع القرى والمدن[4]. فنجد كلاّ من الأطلس التّلي والأطلس الصحراوي يشكلان موانع أمام الامتداد الطولي لشبكة الطرقات، إذ أن السهول كثيرا ما تكون متقطعة بالمرتفعات الجبلية في غير إنتظام.

إن هذه الحالة الجغرافية المتكررة خاصة الجهة الغربية لإفريقية وُصولا إلى وسط بلاد المغرب الأوسط[5]، فرضت على السكان أن

1- Goitein, letters of Medieval Jewish, Traders Princeton university, p 325.

2- أمين توفيق الطيبي، النقود العربية، ط1، القاهرة 1987م، ص 13؛ ص 27.

3- Malowist marocain « quelque observation sur le commerce de l'or dans le soudan occidental au moyen âge » annales E.S.C. nov. des 1970 p 166.

4- Le Febure (l), « la terre et l'évolution humaine », introduction géographique à l'histoire. Edit. albin. Udrel, Paris 1944, p55.

5- إبن حوقل، صورة الأرض، ص87؛ - إبن سعيد، كتاب الجغرافية، ص138.

يَسْلكوا بعض الممرات الطبيعية وهو ما ساهم في تحديد مسار الطرقات التي غالبا ما تكون عبارة عن مسالك جبلية ضيقة تتميز بكثرة الإلتواءات، وهذا عكس الطرقات في المنطقة بين برقة وطرابلس وإفريقية وُصُولا إلى بونة وتبسة حيث تتميز في أحيان عديدة بامتداداتها المستقيمة وذلك بسبب غياب موانع طبيعية عائقة[1].

وفي شرق المغرب الأوسط أين تنتشر قبائل كتامة وصنهاجة تلْكاته تقل الطرق المستقيمة[2]، وتحدد الجبال والأودية مسارها كما هو الشأن بين بجاية وقسنطينة[3] سواء كان عبر مدينة سطيف أو مدينة جيجل فقد كانت قسنطينة مفترق الطريقين هذا من جهة ومن جهة أخرى بين بجاية وجزائر بني مزغنة حيث تنتشر قبائل صنهاجة تلْكَاتة[4]، وتَحُول الجبال المشرفة على المسيلة دون إستقامة الطريق الواصل إلى قلعة بني حمّاد[5].

وهذه الميزة الجغرافية تستمر معنا أثناء تنقلنا نحو الغرب حيث تبدأ سلسلة جبال دَرن الشرقية (الأطلس الأوسط) أين يتشكل ممرّ تازَا[6]، وإلى أعلى جهة الغرب نجد مواطن المصامِدَة الذين استوطنوا جبال دَرن (الأطلس الأعلى) في جنوب المغرب الأقصى

---

[1] - إبن سعيد، كتاب الجغرافية، ص140.
- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص172.

[2] - إبن حوقل، صورة الأرض، نفس الصفحة.

[3] - G. Marçais, la Berbéris et l'orient Musulman. pp133-135.
- الإدريسي، السابق (ط،د)، ص ص 116 – 140.

[4] - مجهول، الإستبصار، ص ص128 - 136.
- إبن خلدون، العبر، ج6، ص153.

[5] - Gautier, le passé de l'Afrique, p 282

[6] - ibid, pp 237-238

(جنوب مدينة مراكش)، وفي الشمال حيث الأقاليم الجبلية الموحشة المواجهة للبحر المتوسط المعروفة بجبال الريف التي تحاصر مساكن قبائل غمارة[1].

أما بلاد المغرب الأقصى والقسم الغربي من المغرب الأوسط فتتميز بالواجهة الشمالية البحرية وواجهة ثانية غربية مطلة على البحر المحيط، تتخللها جبال درن الأمر الذي يجعل جميع الطرق والمسالك محددة بالموانع الطبيعية من جبال وأودية. نذكر من بين الجبال، جبال الأطلس التلي[2]، التي تشقها أنهار مثل وادي سبّو[3]. أمّا أشهر أنهار المغرب الأوسط فهو وادي الشلف[4] الذي ينبع من جبال الونشريس، وفي إفريقية لا نجد من الأنهار الهامة إلاّ نهر مجردة الذي يصب بالقرب من مدينة تونس[5].

في حين نجد الإقليم الصحراوي يمتد من واحات مصر إلى واحات برقة ففزّان ثم زويلة ليواصل امتداده نحو ورجلا[6] (جنوب المغرب الأوسط) ثم يتصل بسجلماسة ليشمل وادي درعة (جنوب المغرب الأقصى)[7]. وهكذا نجد العوامل الطبيعية هي التي تسمح بالإتصال المباشر بين الأقاليم الصحراوية حيث تكون المسالك والطرق التجارية مستقيمة، وعامرة، وتتجسد هذه الصفة في الجهة الشرقية من بلاد المغرب أي من الحدود الغربية لمصر إلى الجهة الغربية

---

1 - إبن سعيد، كتاب الجغرافية، ص139.

2 - البكري، كتاب المغرب، ص100.

- الزهري، كتاب الجغرافية، ص200.

- الإدريسي، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، طبعة ليدن1984، ص ص 170-171.

- مجهول، الإستبصار، ص190.

3 - الإدريسي، السابق، ص172.

4 - مجهول، السابق، ص 172.

- إبن خلدون، العبر، ج6، ص102.

5 - إبن سعيد، السابق، ص ص 142-143.

6 - إبن خلدون، السابق، ص100.

- إبن سعيد، السابق، ص126.

7 - إبن خلدون، السابق، ج6، ص102.

لبلاد المغرب الأدنى[1] في حين نجد المسالك متقطعة، ومُلْتوية ومُوحشة في فترات الإضطراب السياسي الذي عادة ما يرافقه فقدان الأمن[2]، وقلة إمكانيات الرّبط بين مختلف المدن والقرى التي عادة ما تنشأ حول نقاط منابع المياه، وهذا ما دفع السكان الوافدين على بلاد المغرب إلى اعتماد بعض شبكات الطرق التي يعود استعمالها إلى ما قبل الفتح الإسلامي لبلاد المغرب.

تطور المسالك التجارية الداخلية:

إن هجرة العرب إلى بلاد المغرب بشكل جماعي أثناء الفتوح وبعدها واستقرارهم في القلاع الرومانية التي استولوا عليها، والمدن القديمة، كتونس، وبَغايا وتيفاش، وطنجة[3] وتحول السكان من الإقامة في هذه المدن بتشجيع من السلطات الحاكمة[4] إلى الاستيطان الدائم والتوجه نحو امتلاك الأراضي المحيطة بالمدن عن طريق الإقطاع أو الشراء. ومن هذه الوضعية بدأت الحياة تدب في الأرياف، حيث نزل البربر إلى السّهول واندمجوا مع العرب[5]، وظهرت الحاجة ملحة إلى تنظيم أسواق تجارية لتسويق المنتوجات الفلاحية وبعض الأدوات الحرفية المجلوبة، حيث أصبحت لا تخلو مدينة من أسواق بدأت بسيطة ثم توسعت[6] لتظهر أسواق البادية تشكل الظهير

---

1 - Van Berchem (D), "le développement des voies de communications et son influence sur l'habitat" les sources archéologiques de la civilisation européenne, paris 1970, p136.

2 - Ibid, p140.

3 - بوخالفة نور الهدى، "استقرار العرب وإنشاء المدن والقرى في المغرب الأوسط"، مقال في أعمال ملتقى التغيرات الاجتماعية في البلدان المغاربية، ص ص51-62.

4 - السابق، ص53.

5 - عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب، ص306.

6 - موريس لومبار، الإسلام في مجده الأول، ترجمة إسماعيل العربي، منشورات دار الآفاق، المغرب 1990م، ص225.

التجاري لأسواق المدن ومن الأمثلة على ذلك أسواق القيروان وتونس، المهدية، المسيلة، وفاس[1].

ورافق هذا التطور في الأسواق نشاط القوافل التجارية فبعد ما كان التجار يتخذون المحور الرئيسي الوحيد خلال القرنين الأول والثاني الهجريين، السابع والثامن الميلاديين والذي يربط القيروان ببلاد المغرب والذي يمر بكل من بغايا وبلزمة وطبنة، وتاهرت وتلمسان ومنها إلى منطقة السوس[2].

وبعد القرن الثالث الهجري يدخل مسلك جديد ليدعم المسلك السابق ونعتقد أن هذا التطور مرتبط بالتغيرات السياسية الرامية إلى بسط النفوذ على منطقة كتامة التي كانت محل أطماع الدولة الأغلبية[3]. والطريق الجديد يربط مجّانة وجيجل ويصلها بتيجَس وسطيف والجزائر ثم تلمسان وطنجة[4].

وبقي هذا الطريق مستعملٌ من قبل القوافل التجارية والحجيج طيلة الفترة الممتدة من القرن الثالث إلى الخامس الهجريين[5]، وقد أضاف العبدري وابن بطوطة في رحلتهما[6] انعطافا يبدأ من مدينة

---

1 - إبن حوقل، صورة الأرض، ص89.
- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص235.

2 - المالكي (أبو بكر)، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، تحـ بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983م، ص48.

3 - اليعقوبي، كتاب البلدان، ط3، م س، المطبعة الحيدرية- النجف، 1957م، ص ص103-105.
- مجهول، الإستبصار، ص109.

4 - إن هذه الطريق لم تكن آمنة. فاليعقوبي يقول: «للذهاب من القيروان إلى الأندلس يجب التحول نحو تاهرت ومنها تنس والإبحار منها»
- اليعقوبي، السابق، نفس الطبعة، ص102-103.

5 - إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص16.
- الزهري، كتاب الجغرافيا، تح. محمد الحاج صادق، دمشق، 1958م، ص109.

6 - العبدري، الرحلة المغربية، ص ص22-35.
- رحلة إبن بطوطة، دار صادر، ودار بيروت 1960م.

بجاية بالنسبة للقوافل المنطلقة من غرب بلاد المغرب. أي من طنجة والمتجهة نحو المشرق، حيث تنحرف الطريق نحو الداخل أي إلى مدينة ميلة[1]، ومنها إلى قسنطينة، فبونة[2]، ثم تونس، فقابس فطرابلس ثم إقليم برقة. ويبدو أن هناك طريقا أخرى تمر جنوب هذا المسلك أشار إليها العبدري بقوله: "تجنبنا طريقا كانت تتجه نحو المدينة وسرنا إلى اليسار منها حتى وصلنا إلى مليانة"[3].

وذكر الإدريسي طرق القوافل التي تربط المدن المغربية ببعضها وكثيرا ما كانت تتفرع من مدينة القيروان لتلتقي مرة ثانية عند المسيلة، ومن المسيلة يستمر المسلك إلى أن يربط مدينة تنس عبر وادي الشلف، في حين يلتف طَرِيق آخر حول هضبة تاهرت ليصل هو الآخر إلى تلمسان[4].

وقد ذكر الإدريسي طرق القوافل التجارية التي تربط المدن المغربية ببعضها وقال عن تلمسان بأنها "قفل بلاد المغرب فلابدّ للداخل أو الخارج من المرور بها"[5].

فالطريق من مدينة فاس إلى تلمسان مدته تسع مراحل ويمر بنهر سبّو وبَاب زَنّاتة ووَادي ملوية، وضياع جراوة، وبرقانة ثم تلمسان[6]، أما من تلمسان إلى تنس فسبع مراحل، حيث يمر بقرية العلويين وبِبَلُوت. قرية سِنَى على ضفاف نهر وغيت، وإفكان، ومعسكر ثم مدينة يَلل، فسوق إبراهيم[7].

---

[1] - الإدريسي، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، ص93.
[2] - الإدريسي، السابق، ص(107-109) ، ص (112-115).
[3] - العبدري،رحلة العبدري، ص22.
[4] - الإدريسي، السابق، ص120-122.
[5] - السابق، ص122.
[6] - مجهول، الإستبصار، ص161- 166.
[7] - الإدريسي، السابق، ص ص148-149.

وجدير بالإشارة إلى أن مسالك القوافل التجارية عرفت تراجع القوافل عن إستعمالها خلال النصف الأول من القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي بسبب فقدان أمن الطرقات، حيث نشطت عصابات من اللصوص، التي تفتك بالمارين من هناك حيث أشار الإدريسي إلى القوافل التجارية التي تخرج من قسنطينة قاصدة بلاد الحرير وهي محملة بالأقمشة الصوفية والمادة المخدّرة التي تدعى الحشيش، هذه القوافل تتعرض للسّطو رغم وجود بعض الخُفَراء من الأتراك مسلّحين، مستأجرين بأغلى الأثمان[1].

وزيادة على اللصوص وقطاع الطرق، فإن بلاد المغرب الأدنى عرفت وضعا متوترا بسبب تمرد العرب الهلاليين، وثورة بني غانية المدعّمة بالأغراز التركية[2]، الأمر الذي أخر سيطرة الدولة الموحدية وبسط نفوذها على هذا الجزء من بلاد المغرب[3].

وقد تأثر إقتصاد المنطقة، حيث اختفى دور قلعة بني حماد التجاري، وتحوّل الإنتاج الزراعي إلى داخل المدن بعدما كان في الأرياف والبوادي[4]. وعاد النشاط التجاري إلى المدن الساحلية ليحفّز النشاط عبر المسالك التجارية البحرية[5].

---

[1] - الإدريسي، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، ص 120.
- الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تح. محمد ماضور، تونس 1966م، ص 109.

[2] - عبد الحق المريني، الجيش المغربي عبر التاريخ، مرجع سابق، ص ص 36-40.
- الناصري، الاستقصاء، ج1، مرجع سابق، ص 142.

[3] - إبن صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، ط3، ص 440.

[4] - عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب، ص 306.

[5] - مجهول، الإستبصار، ص ص 161-166.

Tadeuz-lewicki, « les voies Maritimes de la Méditerranée dans le haut Moyen âge - d'après les «sources- arabes », la navigation nelalto. Medievo Spoleto, p447.

- العدوي إبراهيم، الأساطيل العربية في البحر الأبيض المتوسط، سلسلة التاريخ، مكتبة النهضة، مصر 1957م، ص 56.

لقد إنجرّ عن إزدهار مدينة سَلاَ نشاط متميّز للقوافل التجارية الإقليمية التي تتخذ الطريق الرابط بين أزمور[1]، وآسفى[2] وسبتة[3] وصولا إلى مدينتي تَنّس ووهران وهكذا إنتقل النشاط التجاري نحو البلاد الغربية وكثر عدد القوافل التجارية الأمر الذي أدى إلى ظهور طرق جديدة تربط بين أسواق استُحدثت وعلى رأسها أسواق مدينة مكناسة[4]، واستقطبت مدينة مراكش أعيان تجّار مدينة أغمات، وكبار علمائها وخيرة بنّائيهَا، فكبرت وتطوّرت على حسابها[5].

وتجدر الإشارة إلى أن مدن الجهة الغربية والشرقية لبلاد المغرب الأوسط قد تأثرت كثيرا بما يجري بالقرب منها سلبا وإيجابا، فقد وقفت مدينة تلمسان صامدة أمام هذه التغيرات، حيث حافظت على صلتها التجارية القوية مع مدينة فاس، وظلت تزوّد المنطقة بمنتوجها الفلاحي، كما استفادت تلمسان بموقعها الجغرافي الذي أهلها لتكون منفذا لتجارة البلاد الغربية وربطها مع البلاد الشرقية وتندمج في هذا المحور الشمالي من الشرق إلى الغرب أجزاء من طريق الساحل والطريق الداخلية لأنه يرتكز على محطتين متميزتين هما قسنطينة وميلة[6].

---

[1] - أزمور، مدينة بساحل المحيط الأطلسي، تبعد بحوالي خمسة وسبعين (75) كلم عن الدار البيضاء، وتعني أزمور بالبربرية "ريتوسة" برية قامت حول ضريح مولاي شعيب". ينظر: - اليعقوبي، معجم البلدان، ج1، ص 216.

- عبد العزيز بن عبد الله، الموسوعة المغربية، معلمة المدن والقبائل، ملحق (2)، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، المملكة المغربية، 1977م، ص 24.

[2] - آسفى، هي مدينة تقع على ساحل المحيط الأطلسي بها مرسى مشهور، تسكن حوله قبائل الرّحراحة البربرية. عبد الأحد السبتي وحليمة فرحات، المدينة في العصر الوسيط، ص 101.

[3] - سبق التعريف بها في ص

[4] - لقد اتسعت مساحتها وازدهر عمرانها، وزاد عدد سكانها.ينظر: - مجهول، الإستبصار، ص ص 187-188.

[5] - الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ص 80-81.

- إبن سعيد، كتاب الجغرافية، ص 118.

[6] - لقد ظل الطريق الذي يصل بين تلمسان وفاس عبر تازا عامرا ومقصودا طوال القرن السادس الهجري.

- إبن سعيد، السابق، ص 114؛ - أبن بطوطة، تحفة النظار، ص 19.

- الحميري، الروض المعطار،ص 127.

- مجهول، الإستبصار، ص 186.

لقد إنجرّ عن إزدهار مدينة سَلاَ نشاط متميّز للقوافل التجارية الإقليمية التي تتخذ الطريق الرابط بين أزمور[1]، وآسفي[2] وسبتة[3] وصولا إلى مدينتي تَنّس ووهران وهكذا إنتقل النشاط التجاري نحو البلاد الغربية وكثر عدد القوافل التجارية الأمر الذي أدى إلى ظهور طرق جديدة تربط بين أسواق استُحدثت وعلى رأسها أسواق مدينة مكناسة[4]، واستقطبت مدينة مراكش أعيان تجّار مدينة أغمات، وكبار علمائها وخيرة بنّائيهَا، فكبرت وتطوّرت على حسابها[5].

وتجدر الإشارة إلى أن مدن الجهة الغربية والشرقية لبلاد المغرب الأوسط قد تأثرت كثيرا بما يجري بالقرب منها سلبا وإيجابا، فقد وقفت مدينة تلمسان صامدة أمام هذه التغيرات، حيث حافظت على صلتها التجارية القوية مع مدينة فاس، وظلت تزوّد المنطقة بمنتوجها الفلاحي، كما استفادت تلمسان بموقعها الجغرافي الذي أهلها لتكون منفذا لتجارة البلاد الغربية وربطها مع البلاد الشرقية وتندمج في هذا المحور الشمالي من الشرق إلى الغرب أجزاء من طريق الساحل والطريق الداخلية لأنه يرتكز على محطتين متميزتين هما قسنطينة وميلة[6].

---

[1] - أزمور، مدينة بساحل المحيط الأطلسي، تبعد بحوالي خمسة وسبعين (75) كلم عن الدار البيضاء، وتعني أزمور بالبربرية "ريتوسة" برية قامت حول ضريح مولاي شعيب". ينظر: - اليعقوبي، معجم البلدان، ج1، ص 216.

- عبد العزيز بن عبد الله، الموسوعة المغربية، معلمة المدن والقبائل، ملحق (2)، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، المملكة المغربية، 1977م، ص 24.

[2] - آسفي، هي مدينة تقع على ساحل المحيط الأطلسي بها مرسى مشهور، تسكن حوله قبائل الرّحراحة البربرية. عبد الأحد السبتي وحليمة فرحات، المدينة في العصر الوسيط، ص 101.

[3] - سبق التعريف بها في ص

[4] - لقد اتسعت مساحتها وازدهر عمرانها، وزاد عدد سكانها.ينظر: - مجهول، الإستبصار، ص ص 187-188.

[5] - الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ص 80-81.

- إبن سعيد، كتاب الجغرافية، ص 118.

[6] - لقد ظل الطريق الذي يصل بين تلمسان وفاس عبر تازا عامرا ومقصودا طوال القرن السادس الهجري.

- إبن سعيد، السابق، ص 114؛ - أبن بطوطة، تحفة النظار، ص 19.

- الحميري، الروض المعطار،ص 127.

- مجهول، الإستبصار، ص 186.

2 - المسالك الصحراوية الغربية:

بالرغم من حالة الإستقرار السياسي الذي عرفته بلاد المغرب الأقصى والجزء الغربي لبلاد المغرب المتوسط، خلال الفترة موضوع الدراسة، ومع أن القطاع الإقتصادي قد تحسَّن. إلا أن الإنتاج الفلاحي والحِرَفي بَقِيَا قاصرين عن تغطية حاجيات السكان[1]، الأمر الذي دعا الموحدين لفتح منافذ التجارة، والسعي لتوفير الأمن الضروري للقوافل التجارية[2]، القادمة من الصحراء لتتجمع في ثلاثة مراكز كبرى هي المركز التجاري في فاس[3]، وفي أغمات ثم تلمسان، ومنها تخرج أيضا إلى بلاد السودان، فمن تلمسان إلى سجلماسة ثم إلى بلاد السودان مباشرة أو من سجلماسة إلى درعة ثم إلى بلاد السودان. أما المسلك الذي يخرج من فاس فهو طويل وشاق حيث يمر مباشرة إلى تادلا[4] ثم إلى تامدوت[5] ثم إلى سجلماسة ومنها إلى السودان أو قد تتّخذ القافلة التي تخرج من فاس مسلكا آخر أقل خطورة وأطول مسافة، يصلها بالرباط ثم تتحول إلى مراكش ومنها إلى السودان مرورا بدرعة[6].

---

[1] - لقد كانت القبائل تسهر على أمن وضيافة التجار العرباء ولو بلغ عددهم ألفا، وهيّئ الظروف لعقد الأسواق الموسمية، حيث تعقد هدنة بين القبائل المتحاربة وتضبط قوائم الحراس والمحافظة على الأمن في الأسواق والطرقات هذا على مستوى المسالك التجارية الطويلة والأسواق الخارجة عن المدن ينظر:

- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 182.
- إبن سعيد، كتاب الجغرافية، ص ص 119-130.
- المراكشي، المعجب، ص 347.
- إبن خلدون، العبر، ج6، ص ص17-72م 103؛ - مجهول، الإستبصار، ص150.

[2] - (A) Marçais, la Berbéris Musulmane et l'Orient au Moyen âge, p152.

[3] - عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي، ص 313.

[4] - تادلا: مدينة قريبة من مدينة داي وتقع في أسفل جبل خارج من جبل درن جنوب المغرب الأقصى.

- الإدريسي، السابق، ص 69.

[5] - تامدوت: مدينة لطيفة تبعد عن مراكش بيومين، ومنها يصعد إلى جبل درن.

- الحميري، الروض المعطار، ص 128.

[6] - درعة: هي قرى متصلة وعمارات متقاربة تبعد عن السوس الأقصى بأربعة أيام.

- السبتي عبد الأحد ، المدينة في العصر الوسيط، ص 140.

وجدير بالإشارة إلى أن تطور المسالك التجارية الصحراوية في هذه الجهة قد أثر على تلك التي كانت سابقا بين سجلماسة وتلمسان[1] وتأثرت تبعا لذلك سهول دَرْعة بسبب تحول الإهتمام نحو مدينة نول والتي شاركت في تطور المسالك التجارية نحو السودان[2]. وهكذا تصبح مدينة نول في العصر الموحدي مركز التقاء المسالك الصحراوية بالمسالك الساحلية التي تمتد من نول لتمر بسبتة ووهران وتنس حتى تصل إلى مدينة طرابلس[3].

- المسالك الصحراوية لبلاد المغرب الأوسط:

هناك عدة مسالك تجارية تخرج من بلاد المغرب الأوسط لتربط عدة مراكز تجارية ثم تتصل بإحدى مدن بلاد السودان ونقتصر هنا على ذكر المسالك التي تربط مدينة جزائر بني مزغنة وما يحيط بها من مدن مثل تلمسان بأسواق مدينة تمبكتو في السودان الأوسط[4]، حيث يمر هذا المسلك بعد تلمسان إلى سجلماسة أو يتفرغ نحو فاس فمدينة سلا الساحلية فمراكش ومنها أغمات ثم الصحراء ليلتقي أخيرًا بطريق تُؤدي إلى أدغشت التي تعطلت خلال عهد الموحدين فحوّل هذا المسلك إلى فروع تتجه نحو شرق بحيرة تشاد[5].

وهناك طريق تجاري كبير يربط بين مدينة قسنطينة وتوات مارة بوارجلان حيث تستغرق الرحلة التجارية عبره ستة وثلاثون يوما، ويمر بأمقيد، والهقار ليتصل بتمبكتو بعد ما يكون قد ضمّ إليه قوافل

---

[1] - عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي، ص314.

[2] - نول: ويقال لها نول لمطة وهي مدينة تقع على ساحل المحيط الأطلسي، وهي آخر مدن المغرب الأقصى الساحلية وأول الصحراء.
- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 75.
- إبن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص 115.

[3] - المراكشي، المعجب، ص ص349-355.

[4] - محمد عوض محمد، السودان الشمالي، ط1، القاهرة، ص ص (36 -38، 41-52).

[5] - السابق، ص39.
- إبراهيم علي طرخان، إمبراطورية غانة الإسلامية، القاهرة 1970م، ص106.

منطقة الأوراس، وبلاد الزاب[1]، يتفرع أثناء خروجه من منطقة الزّاب متّجهًا نحو غدامس وغات أين يلتقي مع القوافل القادمة من طرابلس[2].

أما القوافل التجارية القادمة من الجهة الغربية لبلاد المغرب الأوسط فكانت تنطلق من مدينة وهران متخذة مجرى وادي زوزْفانة طريقا لها حتى تلتقي بالقوافل التي تخرج من مدينة فاس متجهة نحو تمبكتو[3]، مرورا بمكناس إلى أن يتصل بتوات ومنها إلى المحطة السودانية تمبكتو[4]،حيث تتم عمليات البيع والشراء لتعود القوافل محملة بسلع أخرى [5]. وتتمثل شهادات البكري (القرن 11/5)، وياقوت الحموي (بداية القرن 13/7) وابن بطوطة (النصف الأول للقرن 14/8) تطور الطريق عبر سجلماسة، وتدهور الطريق المارة بأغشت منذ احتلالها سنة (446هـ / 1054م) من قبل المرابطين.

- المسالك الصحراوية الشرقية:

لقد عرفت الجهة الشرقية لبلاد المغرب خلال القرن السادس الهجري- الثاني عشر الميلادي- نشوء حركات بدوية متعددة الأصناف والأجناس، تحترف العنف والقتال لتحقيق الذّات وبسط النُفوذ، الأمر الذي أدّى إلى إضطراب شبكة المواصلات، وتضرر الإقتصاد والعمران بوجه عام، فتقوّت النزعة إلى الإستقلال الإقليمي.

---

1 - محمد عوض، السودان الشمالي، ص ص39-40.

2 - حسين أحمد إلياس، الطرق التجارية عبر المنطقة الشرقية من الصحراء الكبرى، طرابلس 1979م، ص102 .

- بادل دافد لأسن، إفريقيا تحت أضواء جديدة ، ترجمة جمال محمد أحمد دار الثقافة، بيروت(د.ت) ص19.

3 - محمد عوض محمد، السابق ص41.

- حسين أحمد الياس، السابق ص103. - إبراهيم علي طرخان، السابق، ص ص 109-11.

4 - محمد عوض محمد، السابق، ص 42؛ - إبراهيم علي الطرخان، السابق، نفس الصفحات.

5 - تلتقي القوافل التجارية القادمة من طرابلس مع تلك التي انطلقت من قابس بالجنوب التونسي في محطتين أولاهما محطة قرزق والأخرى محطة غات. وأثناء توقفهما(انتظارهما) للقوافل العائدة من بلاد السودان، حيث تتم عمليات تجارية مهمة.

- حسين أحمد إلياس، السابق، ص209.

- محمد عوض، السابق، ص ص46-48؛ - البكري، المسالك والممالك، ص 863.

فبعد أن كانت مراكز الإنتاج في البلاد الشرقية مركزة في المناطق الداخلية، تربطها طرق رئيسة داخلية تصب في أغلب اتجاهاتها عند القيروان، وقلعة بني حماد ثم المسيلة[1] التي كانت بحق تمثل التقاء الطرق الصحراوية والجبلية وحتى السهلية. حيث يواصل أحد المسالك امتداده عبر بلاد الجريد والزاب[2] ومنه نحو بلاد السودان الأوسط. والحديث عن المسالك والمراكز التجارية المؤدية إلى بلاد السودان يختلف بعض الشيء عمّا هو عليه الحال في شمال البلاد حيث تظهر القبيلة في مسالك السودان بمنظر إيجابي تتخلله فترات من التدافع والصراع ويمكن التركيز على مسلكين تجاريين صحراويين ينطلقان من الشمال إلى الجنوب.

المسلك الأول:

يبدأ هذا المسلك من مدينة طرابلس وينتهي في كوكا(البورنو) مرورا بكل من المركزين التجاريين مرزق[3] وبيلم[4]، حيث تكون مدينة مرزق وسط هذا الطريق الصحراوي، وكانت محط رحال القوافل السودانية والصحراوية وهي منتصف الطريق لمن يخرج من طرابلس قاصدا مدينة بورنو. ويعتبر هذا المسلك أقصر الطرق الصحراوية لبلوغ السودان الأوسط، وكانت مدينة مرزق مركزا

---

1 - Cilerier, l'Atlas et la circulation au Maroc pp420-425.

- يتبين حسب الإدريسي أن القلعة مازالت محطة هامة في عهده أي في النصف الأول من القرن (6هـ/12م). ينظر:
- نزهة المشتاق، (ط،د)، ص 118.

2 - مجهول، الإستبصار، ص 189.

- إبن جبير، الرحلة، ص48.

3 - تقع مدينة مرزق شرق غَدامس بحوالي ستُّ مراحل وتبعد المدينة عن أغمات بمسيرة ثلاثة عشر يوماً وتقطع القوافل التجارية هذا المسلك في مدة ستة أشهر ذهابا وإيابا، وتتوفر المياه بمراحل مسلك(مرزق-البورنو) ينظر في: - فيرو، الحوليات الليبية، ص 717.

4 - بيلم: مركز تجاري صحراوي يقع جنوب مدينة مرزق ويتصل مباشرة بمدينة البورنو في السودان الأوسط والتي تبعد عن بيلم بمسافة عشرين يوما، وتقطعها القوافل التجارية في تسعة أشهر تقريبا، ينظر: - بيهغل، رحلة تجارية إلى حوض تشاد، ترجمة ومراجعة، سعد زرارقة، الرباط 1964م، ص 112.

تجاريا نشيطا قبل عهد الموحدين وامتد نشاطه إلى ما بعد الموحدين لأن السيطرة عليه كانت محلية تخضع للقبائل العربية[1] ولم تصل يد الموحدين إليه، ولعبت تجارة الرقيق دورا أساسيا في تنشيط هذا المسلك، كما أثرت قبائل الملثمين (الطوارق) سلبا على القوافل التي كانت تنطلق من فزان وغدامس، لإثارتهم الإضطرابات.

المسلك الثاني:

يعرف هذا الطريق باسم الغدامسية لأن القوافل التجارية كانت تنطلق من مدينة غدامس ويشرف التجار الغدامسية على العمليات التجارية إبتداء من مدينة قابس[2] التي ترتبط بمدينة زويلة إبن الخطاب التي تأتي في المركز الثاني من حيث الأهمية التجارية[3] حيث تجتمع فيها القوافل التجارية المتجهة نحو السودان، وتعتبر مدينة غات آخر محطة لهذا المسلك قبل بلوغ القافلة أرض السودان، وتبعد مدينة غات عن منطقة توّات بمسيرة عشرين يوما[4]، وتعتبر غات سوقا نشيطا داخل هذا المسلك ومركزا عظيما للتجارة الصحراوية، ومرسى للسودان، ولها تجارة واسعة مع أهل توات[5].

ففي مدينة غات تلتقي القوافل التجارية القادمة من السودان والأخرى التي تأتي من طرابلس وغدامس وهناك تتجمع، وتعقد الإتفاقيات، وفي كل سنة يدخل لبلاد غات ما يزيد على الثلاثين ألف جمل من السودان الغربي والأدنى، وتأتي هذه القوافل بسلع كثيرة كالعبيد وريش النعام وناب الفيل والجلد والزّبد والبخور السوداني[6].

---

1 - verliden (charles), Aspects quantitatifs de l'esclavage, ROMM 1924, p 403.

2 - موريس لومبار، الإسلام في عظمته الأولى، ص ص 55 -61.

3 - السابق، ص67؛ - أبو الفداء، تقويم البلدان، ص 147؛ - القلقشندي، صبح الأعشى، ج7، ص 108.

4 - (يسميها إبن خلدون قصور توات) العبر، ج6، ص ص 103-104.

5 - إبن خلدون، العبر، ج6، ص ص 103-104.

6 - إبن سعيد، الجغرافيا، ص 127؛ - الزهري، كتاب الجغرافيا، ص 107.

والسبب في ضخامة حجم القوافل التجارية المتوجهة نحو غات والقادمة من السودان هو تنوع البضائع نتيجة وفرة الربح وكثرة السلع المجلوبة كالأقمشة والأسلحة والرصاص. وجدير بالإشارة إلى أن هذا المسلك قد تأثر بالإضطرابات التي سببها الأتراك الأغزاز الذين حاولوا الإستقرار بالناحية الشرقية لبلاد المغرب الأدنى[1] زيادة على نزعات القبائل العربية الهلالية وغيرها[2] وجدير بالإشارة إلى أن المدة التي تستغرقها القافلة التجارية بين طرابلس وأغمات تدوم أربعين يوما[3]، وتحط الرحال في أهم مراكز الطريق مثل طرابلس -غدامس- غات كانو.

وتعتبر مدينة غدامس أهم مركز تجاري يموّل بلاد المغرب الأدنى وخاصة تونس وطرابلس بالسلع الصحراوية، وقد يصل النشاط التجاري لغدامس إلى حدّ السيطرة على المبادلات التجارية بين دول السودان، والمغرب الأدنى[4]، والذي كانت أرضه تشمل غدامس وغات منذ بداية العهد الموحدي إلا أن السيطرة والنفوذ تعودان في معظم الحالات إلى القبائل التي تسكنه وتضمن حماية القوافل التجارية[5].

وتتحول القوافل التجارية القادمة من السودان إلى منطقة نفطة (بلاد الجريد) عندما تصل إلى غدامس، أو تتخذ طريقا آخر يربطها بالحامّة، وكانت تونس وحدها تستقبل سنويا ثلاثة قوافل

---

[1] - قال إبن جبير، الرحالة بأنّه شاهد قبائل الطوارق وهم ينهبون قافلة قادمة من غدامس وهي متجهة إلى غات، الرحلة، ص ص 43-44.

[2] - محمد المهدي، الرحلة المغربية، تح. محمد الفاسي، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، الرباط 1968م، ص ص 85-237.

[3] - السابق، نفس الصفحة.

[4] - البكري، المغرب، ص 431.

(J)Poncet, « Remarque sur les rapports entre ville et compagne dans l'ancien Maghreb surféodalisme », centre d'études et des recherches sociales, éditions 1974, pp 210-213.

[5] - C. vanacker, op.cit, pp 659-680.

تجارية قادمة من أغدامس تحمل معها السلع السودانية. وتعود محملة بالمصنوعات الزجاجية والكتّان المنسوج والسيوف والشواشي[1] وعادة ما يكون طريق العودة إلى غدامس عن طريق قابس.

وتأتي بعد مركز غدامس مراكز تجارية أخرى تربط مدن الشمال لبلاد المغرب الأوسط وهذه المراكز هي ورقلة[2]، وتوات[3] وتيكوراين[4]، وميزاب[5]، وإذا كانت المسالك التجارية التي ترتبط بالمراكز التجارية والصحراوية كثيرة ومتنوعة في جهة الشمال، فإنها قليلة في جهة الجنوب نظرا لصعوبة المسلك وكثرة الأخطار التي تتعرض لها القافلة، زيادة على قلة المياه والعواصف الرملية مع ندرة القرى، والتجمعات السكانية، الأمر الذي يقلل من عدد المسالك التي تربط بلاد المغرب بأرض السودان والتي يمكن حصرها في ثلاثة طرق فالأول يخرج من سجلماسة ويَتجه نحو السّنغال وهذا الطريق معرض للإغارة من قبل قبائل لمطة وكزولة[6]، وثاني المسالك التجارية الصحراوية هو الذي ينطلق من درعة متجها نحو بلاد غانة[7].

---

1 - René. Caille. Journal d'un voyage à Tombouctо et à Jéneie, 1er vol, paris 1830, p - 113.

2 - ورقلة: هي مدينة تأتي في مقدمة أرض الصحراء المفضية إلى بلاد السودان ومنها يعبر التجار القادمون من الزّاب.
- إبن خلدون، العبر، ج6، ص107.
- الوزان، وصف إفريقيا، ج2، ص136.

3 - توات: منطقة مستبحرة في العمران، أرضها صحراوية وهي باب لمن يقصد ثغر بلد مالي، قادما من بلاد المغرب الأوسط.
- إبن خلدون، السابق نفس الجزء، ص118.

4 - السابق، ج6، ص119.
- مجهول، الإستبصار، ص151.

5 - نفس المصدرين والصفحات.

6 - كزولة: قبيلة من شعب صنهاجة، تسكن قرب مصمودة في جبال درن في إقليم السوس، زاحمهم عرب معقل وغلبوهم.
- البيدق، المقتبس من كتاب الأنساب، ص 48.

7 - تكلم الإدريسي عن هذه الطريق ووصفها بقلة المياه، ومر بهذه الطريق الرحالة إبن بطوطة أثناء ذهابه إلى أرض السودان:
- نزهة المشتاق، ص588.
- تحفة الأنظار، ج2، ص ص772-802.

هذا ونشير إلى أنّ المسالك التجارية البرية الصحراوية كانت تخضع للقبائل على اختلاف انتماءاتها ودرجة ولائها لدولة الموحدين وبالتالي فإنّ الأثر الذي تتركه القبيلة على حجم وكثافة القوافل التجارية مختلف أيضا ومتغير حسب الأوضاع السياسية، فمثلا لم يوفّق الموحدون في إعادة النشاط الإقتصادي بصفة عامة إلى المناطق الداخلية في الجهة الشرقية من بلاد المغرب[1]، الأمر الذي حوّل ثقل النشاط إلى المدن الساحلية[2].

ونفس التأثير ظهر على الطريق البرّي مع المشرق والذي ينطلق من برقة وطرابلس ليصل إلى طنجة مرورا بكل من قابس، تونس بونة ، قسنطينة، ميلة، بجاية، الجزائر، مليانة، تلمسان، فاس،سَلا [3]. ونتيجة لذلك التأثير السلبي على المسالك التي تربط المدن الغربية الداخلية تحوّل تجار تلك المدن إلى الموانئ والمراسي القريبة من مدنهم [4].

ونخلص إلى القول بأنّ محاولة الموحدين الخاصة بالهيمنة على جميع قبائل بلاد المغرب لم يكن لها أن تتمّ إلاّ على حساب العصبيات القبلية الموزعة عبر مختلف القوى، المنبثّة في الجبال والأودية وشبكات الطرق، وهو الأمر الذي لم ينجزه الموحدون إذ عادت قوّة القبائل للسيطرة وبسط النفوذ بمجرد ظهور عوامل الضعف في هياكل الدولة.

---

[1] - الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ص 93-109-115.
- الزهري، كتاب الجغرافيا، ص 110.
- موريس لومبار، الإسلام في عظمته الأولى، ص ص 57-67.
[2] - مجهول، الإستبصار، ص ص 162-166؛171-172.
- C. Vanacker, op.cit, p 682.
[3] - العبدري، الرحلة المغربية،ص ص 22-23؛ 28-29؛ 33-35.
- إبن بطوطة، تحفة النظار، ج1، ص ص 30-34.
- H. Terasse, op.cit, p203.
[4] - المقري، نفح الطيب، ج5، ص 206.
- عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي، ص 311.
- C. vanacker, op .cit, P683.

وفي المجال الصحراوي نجد صعوبة العيش بالصحراء ولما يمكن أن يتعرض له الإنسان من أخطار فإن التعاون بين سكانها يصبح ضرورة ملحّة، وعلى هذا الأساس اكتسبت التكتلات القبلية حيويتها وقوتها من العصبية، وكانت القبائل الرُّحل تعتبر نفسها سيّدة على الصحراء وتحرص على الدّفاع عن حقّها بالقوة وخاصة بعد أن أصبح بيدها مصير الطرق المهمّة الرابطة بين المغرب والصحراء[1]، وهذه القبائل تستفيد من ذلك النشاط إذ تؤجر جمالها للتجّار، كما كانت تقوم بخفر القافلة ويتكلّف أفراد منها بالسّهر على القافلة وتغذية الجمال وتعبئتها وإزالة الأحمال عن ظهورها.

3 - المسالك البحرية:

لعلّه من المفيد أن نذكر بأن الفتح الإسلامي لبلاد المغرب أدخل البلاد من جديد ضمن المنظومة العامّة للإقتصاد العالمي وذلك بإنشاء الموانئ العظيمة بأحواضها وقلاعها[2]، وبتشييد دور صناعة وبناء المراكب والأساطيل[3]وهكذا نشأ على سواحل المغرب العديد من المحطّات والمراكز الحضارية شكلت شبكة من الموانئ الحديثة أو القديمة المرمّمة والمستحدثة[4].

---

[1] - تحولت الخيمة على الطرق الصحراوية خاصة محور سجلماسة أو دعست لصالح قبيلة صنهاجة.
- إبن خلدون، العبر، ج6، ص796.
- إبن بطوطة، تحفة الأنظار، ص 104.

[2] - من هذه الموانئ نذكر ميناء تونس، بونة وبجاية، والمهدية، وقابس، وسوسة، وبنزرت،والخرز، تنس، سلا، والرباط،وماسة وغيرها.
- M. Lombard, op.cit, p 215.

[3] - بنى الموحدون دورا لصناعة السفن في كل من سلا والرباط، وفي الجبالات بالقرب من فاس، وسوسة، ومرسى الخرز الواقعة إلى شرق بونة.
- إبن أبي زرع، الأنيس، ج2، ص 161.
- اليعقوبي، كتاب البلدان، ص 348.
- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص97.

[4] - عبد الأحد السبتي، وحليمة فرحات، المدينة في العصر الوسيط ، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994م، ص ص 102-103.

وإذا كانت طبيعة بلاد المغرب الجغرافية لا تساعد على الربط بين بيئاته الثلاث فإنّ المسالك البحرية ضمنت ذلك رغم قلّة الموانئ الطبيعية، وبفضل الإستعمال المتواصل للطرق البحرية قبل القرن السّادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، أمكن تطوير موانئ تلك السواحل[1].

وقد مثّلت المبادلات التجارية عبر موانئ ومراسي بلاد المغرب جزءا هامّا من الحركة التجارية العامّة داخل المغرب وبين المغرب والعالم المتوسطي، ثم ارتبطت محطاته بمنظومة تجارية كبرى تربط أقصى الشرق من الهند والصين بأقصى الغرب في الأندلس، ولعب المغرب حلقة ربط داخل هذه المنظومة التجارية التي اعتمدت فيها المبادلات البرية على حركة القوافل، والبحرية على حركة المراكب والسفن[2] وجدير بالإشارة إلى الفرق في طبيعة سرعة الرياح وطول مدتها وجهتها جعلت الملاحة في البحر المتوسط أيسر ممّا هي عليه في المحيط الأطلسي لأنّ السفن في المحيط لا تتحرّك إلاّ مع الرياح الغربية في موسم العواصف[3]، في حين تستفيد الملاحة في البحر المتوسط من الرياح الشرقية والغربية والتجار يعرفون بدقة أوقات الإتجاهين فيتحركون في الأوقات المناسبة.

لقد شملت المبادلات التجارية عبر الموانئ والمراسي المغربية صنفين من المبادلات التجارية الأولى داخلية وتهمّ تلك التي يقع تبادلها

---

[1] - لقد اتخذ تجار أهل المغرب الخلجان والجزر والأنهار، ستارا من الرياح، وخصّصوا المراسي الكبيرة للسفن الكبيرة والضيقة للسفن الصغيرة: - البكري، المغرب، ص ص 66-70؛80-86.
- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 84.
- مجهول، الإستبصار، ص 135.
- M.Lombard, op.cit, p p 234-254.

[2] - Ibid, p p 255-256.

[3] - البكري، المغرب، ص 110.
- عبد الأحد السبتي وحليمة فرحات، المدينة في العصر الوسيط، ص 104.
- عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي، ص 318.

داخل البلاد، مع العلم أن أغلبها كان يمرّ عبر الطرق البرية، ورغم وجود هذه الشبكة من الطرق البرية، فقد تمّ التبادل التجاري الداخلي عبر البحر بكل المواد التجارية وهذا ما تعكسه لنا الفتاوى المتعلّقة بضمان المواد والسّلع المنقولة، من غذائية وكسويّة وحرفية[1].

أمّا الصنف الثاني من التبادل التجاري فيتمثل في التجارة العالمية التي ارتبطت فيها موانئ ومراسي بلاد المغرب بالمشرق الإسلامي والغرب المسيحي. واعتمدت الحركة التجارية بتلك الموانئ والمراسي على المنتوجات الداخليّة لمدن المغرب وبواديه، وارتبط الميناء كذلك بما ينتجه ظهيره الجغرافي الحضري والريفي، حيث تفاعل هذا الظهير مع الموانئ والمراسي بشكل ثنائي مزدوج، فقد شكل الظهير قاعدة تجارية قوية للميناء وذلك بما ينتجه من مواد فلاحية، وأخرى مصنّعة ، وبالجهة المقابلة تأثر هذا الظهير بما تعود به الحركة التجارية البحرية التي أدت إلى تكوين فئة تجارية غنية تُصنف في مرتبة الخاصة من المجتمع[2].

هذا وقد تأثرت المبادلات التجارية البحرية خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين، الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين بسبب ثلاثة عوامل رئيسية:

- تطور صناعة المراكب البحرية:

إنّ كيفيّة وطرق صناعة السفن كانت بسيطة قبل القرن السادس الهجري-الثاني عشر الميلادي-إذ كان إبحارها يحتاج إلى يد عاملة تسحلها إلى داخل مياه البحر، كما كانت تحتاج إلى التوقف

[1] - الأزموري: نهجة الناظرين، ص 46.
- الونشريسي، المعيار، ج8، ص 139.
[2] - Goitein.(S.D), Studies in Islamic history and Institution. chap16, p 85.

في محطات الطريق البحري الذي تسلكه[1]، وذلك لصغر المراكب من جهة ولعمق المسالك البحرية من جهة ثانية الأمر الذي لا يسمح لها بالإبحار لمسافات طويلة دون توقف، ولهذا التجأ التجار المغاربة إلى ترصد السفن القادمة لتتوقّف بأحد الموانئ وسحلها إن أرادت مواصلة السير في طريقها، وتعبّر المصادر العربية عن هذا الأسلوب بلفظ"الريف الريف"إذ يرد اللفظ في فتوى يقول فيها"لو كان كِرَائهم لهذه السفينة مع الريف الريف"[2]، والمقصود بالريف الريف هو الإبحار على مسافة قريبة من الشاطئ تسمح برؤية اليابسة.

ويقدم لنا البكري قائمة تضم أزيد من ستين ميناء ومرسى ممتدة من ميناء سبتة إلى الإسكندرية[3]، ولعل كثرة الموانئ هذه يعكس أهمية الحركة التجارية بها من ناحية وعدم قدرة السفن على الإبحار مدّة طويلة من ناحية أخرى، ولمسألة العوامل التقنية تأثير فعلي في تحديد خط سير السفن في المتوسط وهو ما تؤكّده كثرة حوادث الغرق التي تسجلها المصادر[4]، وخلال هذه المرحلة كانت القوى المسيحية قد بلغت مرتبة بحريّة هامّة بفضل تطوّر أساطيلها التجارية والحربية، ورغم المجهودات التي بذلها الموحدون في مجال صناعة السفن فإنّ التجارة العالمية بدأت تتجاوز بعض الموانئ والمراسي لبلاد المغرب الأمر الذي سيؤثر على التجارة البحرية لبلاد المغرب[5].

---

[1] - العدوي إبراهيم، الأساطيل العربية في البحر الأبيض المتوسط-سلسلة التاريخ -2- مكتبة النهضة، مصر 1957م، ص 135.
C. Cahen. « ports et chantiers navals dans le monde méditerranée musulman - jusqu'aux croisades » Alto Medievo, p 310.

[2] - العدوي إبراهيم، السابق، نفس الصفحة.

[3] - ويذكر من بينها ميناء مدينة وهران التي أسسها كل من محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدون وأتباعهما من البحارة الأندلسيين.
- المسالك والممالك، ص 696.

[4] - (S.P.) Goitein, studies, op. cit, p 203.

[5] - Lewicki Tadeut, « les voies maritimes », op. cit, p 206.

مع الأخذ بعين الإعتبار ظروف وحالات الإستقرار التي مرّت بها بيئات المغرب الثلاث إذ كانت كثير من المدن المغربية الساحلية تقوم بمبادلات تجارية بحرية وتبرم إتفاقات مع مدن أخرى غربية كانت أم مشرقية[1].

- غزو العرب الهلاليين:

لقد كان لدخول عرب بني هلال إلى بلاد المغرب الأدنى أثر بالغ على إستقرار السكان ذلك لأن دخولهم كان في إطار مذهبي سياسي يهدف إلى تحقيق الغلبة على بني زيري الصنهاجيين، وطبيعي أن يجد العرب الهلاليين مقاومة شديدة، ومن ثمّ جرت معارك شديدة وسباق حاد لامتلاك الأرض، كلّ ذلك على أرض بلاد المغرب الأمر الذي قاد المنطقة إلى خراب كبير تغيرت بمقتضاه خريطة السكان لخضوعهم إلى الهجرة القسرية تارة وإلى النزوح تارة أخرى[2]، وقد انجرّ عن ذلك توقف القوافل التجارية عن استعمال المسالك البرية سواء الداخلية أو الصحراوية التي كانت تقصد المسيلة، والقيروان وقفصة، وتوزر، وطرابلس، وتحوّلت أهميّة المدن التجارية إلى المدن الساحلية التي إرتبطت بالطريق البحري الذي لم يكن آمنا هو الآخر بسبب إحتلال النورمان لسواحل إفريقية ابتداءً من المهدية وانتهاءً بمدينة بونة[3].

- سيطرة الموحدين على المغرب الأدنى:

استطاع الموحدون بسط نفوذهم على بلاد المغرب الأدنى بعد حملات عسكرية ضخمة قادها الخلفاء الموحدون أنفسهم إبتداءً من سنة (555هـ / 1160م)، وأخرجوا النورمانديين من السواحل الإفريقية

---

1 - Ibid, p 206.

- العزاوي أحمد، رسالة موحدية، مجموعة جديدة، ج1، ص 246.

2 - عن تهجير ونزوح سكان بلاد المغرب ينظر:

- إبن خلدون، العبر، ج6، ص 140.

- محمد بن معمر، العلاقات السياسية بين المغربين الأوسط والأقصى، ص ص 190-205؛255-262.

3 - الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ص 85-90.

وأسكتوا أصوات عرب بني هلال ومن إلْتَفّ حولهم ودعّمهم، وبذلك عاد النشاط التجاري البحري إلى سابق عهده، وزاد عن ذلك بتحسّن وتطور الأساطيل البحرية من جهة[1]، وبفتح طرق بحرية أخرى تربط بلاد المغرب ببقية جهات العالم[2].

وتجدر الإشارة إلى أن بعض القبائل العربية الهلالية لم توقف نشاطها العدائي اتجاه الموحدين، وخاصة عندما وجدت أطرافا مناوئة للموحدين مثل بني غانية الصّنهاجيين والأغزاز التّرك الوافدين من المشرق لعرقلة طموحات الموحدين، الأمر الذي جعل المدن الداخلية لبلاد المغرب الأدنى تفقد ظهيرها الإقتصادي والحضاري وتتخلى عن وظائفها الحياتية الإقتصادية والإجتماعية وأعادتها إلى المدن الساحلية التي تحولت إلى مراكز للنشاط التجاري الداخلي والخارجي في آن واحد ويتجسد ذلك في مدينة سوسة، وتونس، وبونة، وبجاية[3].

وإذا كان التحول قد مس المسالك البحرية إضطراريا بسبب ما فقدته المدن الداخلية على مستوى الظهير الزراعي والحضاري، فإن العكس تماما هو الذي حدث على مستوى الجهة الغربية لبلاد المغرب فبسبب ازدهار الظهير الزراعي، والتجاري لمدن الجهة، تحولت الطرق البحرية وزادت في طول طرقها لتربط مدينة نول لمطة الواقعة على ساحل المحيط في أقصى الجنوب[4]، بعدما كانت مدينة أَسِيلا[5] آخر

---

[1] – كان الأسطول الموحدي يسيطر على البحر بل كان أول أسطول يتكون من أربعمائة (400) قطعة راسية في حلق المعمورة (المهدية) ومائة وعشرين (120) في مرسى المعموره.
– إبن أبي زرع، الأنيس، ج2، ص160.

[2] – انظر عودة المهدي بن تومرت من رحلته المشرقية، كيف نزل في تونس ثم تحول نحو الغرب برا.
– البيدق، أخبار المهدي، ص57؛ – التادلي، التشوف، ص 180.

[3] – مجهول، الإستبصار، ص ص 130-132؛ – المراكشي، المعجب، ص ص 352-354.

[4] – مدينة نول ينظر ص 56؛ – مجهول، الإستبصار، ص ص141-143.
– السبتي عبد الأحد، المدينة في العصر الوسيط، ص99.

[5] – تقع مدينة أصيلا على ساحل المحيط الأطلسي، وهي مركز تجاري مهم؛ – الإدريسي، نزهة المشتاق، ص73.

مدينة تصلها سفن المرابطين، وبهذا الإنجاز المهم الذي حصل على أيدي الموحدين أصبح الطريق البحري ينطلق من طرابلس ليصل إلى نول لمطة[1]، وتحولت مدينة سبتة إلى أكبر ميناء تجاري بعد أن أصبحت قاعدة للأسطول البحري الموحدي[2]، ونقطة إنطلاق للمسافرين من الأندلس إلى المشرق[3].

لقد أدت حركة المبادلات التجارية عبر الموانىء والمراسي ببلاد المغرب إلى ربط مدنه الساحلية بنظيراتها من مدن المتوسط شرقه وغربه وشماله وجنوبه وقد إحتاجت هذه المبادلات إلى إيجاد طرق تستعملها المراكب والسفن ولكن وجود هذه الطرق كان يخضع إلى عدة عوامل لا يمكن دون معرفتها تبرير إتجاهات الطرق، وطبيعتها وأول هذه العوامل الجانب التقني لصناعة السفينة والمركب البحري والعامل الثاني يكمن في المواقع الجغرافية للموانئ والمراسي، والعامل الثالث سياسي وهو ما يميز الأوضاع السياسية في المتوسط من صدام بين قوى متعادية، ولهذه الأسباب أدت العوامل السالفة الذكر إلى إتباع خطين بحريّين يفرضهما الواقع الجغرافي والأمني وحالة المراكب.

أولا/ الخط البحري الساحلي:

يمتد هذا المسلك من مدينة نول لمطة إلى أن يصل إلى الإسكندرية ومنها إلى جنوب بلاد الروم ويمتاز هذا المسلك البحري بتعدد الموانىء والمراسي وقربها من بعضها[4] ولذلك تقصده السفن البحرية الصغيرة

---

[1] - إبن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص115.
- التادلي، التشوف، ص189.
- عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي، ص ص319-320.

[2] - مجهول، الإستبصار، ص139-140.
- السبتي عبد الأحد، المدينة في العصر الوسيط، ص99.

[3] - إبن جبير، رحلة إبن جبير، ص ص7-8.
- السبتي عبد الأحد، السابق، نفس الصفحة.

[4] - البكري، المسالك والممالك، ص231.

الحجم، والفاقدة القدرة على الإبحار مدة طويلة[1] خوفا من الغرق. ومن البديهي أن تكون محطات هذا المسلك البحري متفاوتة الأهمية في الحركة التجارية هذا على مستوى النصف الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط، أما النصف الشمالي منه فإن المصادر التاريخية تتحدث عن خط بحري تجاري ينطلق من سواحل الأندلس ليصل إلى سواحل آسيا الوسطى وقد استخدمه المسلمون من قبل وخلال عهد الموحدين[2].

ويلتقي هذا المسلك مع مسلك بحري قصير يشق البحر الأبيض المتوسط عند ميناء سبتة إلى الأندلس ومنها يتوجه نحو سواحل بلاد الفرنج الجنوبية، وجمهوريات إيطاليا، ويتراوح طول هذا الطريق حوالي ثلاثة أشهر[3].

ويشير إبن حوقل إلى أن جزء من هذا المسلك البحري يمر عبر أثينا ومقدونيا في طريقه إلى القسطنطينية[4].

ثانيا/ الخط البحري (الجزري):

إستعمل المسلمون أيضا خطا بحريا داخليا يشق البحر ليربط بين ميناءين على ضفتي البحر وهذا المسلك قليل الإستعمال لكثرة مخاطره ، و لم تقبل عليه الأساطيل البحرية التجارية والحربية إلا بعد تطور صناعة السفن والمراكب بإدخال معدن الحديد في تدعيم صفائحه الخشبية وزامن هذا التطور فترة ظهور تفوق حركة الإسترداد المسيحي في نهاية القرن السادس الهجري-الثاني الميلادي[5] وهي الفترة الأخيرة من عصر إزدهار وتفوق الموحدين (524-595هـ / 1128-1199م) وتسميها المصادرالتاريخية العربية بأسماء

---

1 - (C) Cahen, « Ports et chantiers navals dans le monde Méditerranéen Musulman », p p 103-105;213-215.

2 - Tadeut lewicki, « les voies Maritimes », op. cit, p 330-332.

3 - ibid, p p 333-334

4 - ابن حوقل، صورة الأرض، ص 136.

5 - Tadeut lewicki, « les voies Maritimes », op. cit, p 335.

مختلفة مثل «قطع الطير»[1] لدى البكري، مسلك الغرق في فتاوى سحنون والتي تعني الإبحار في العمق[2]، ومن خصائص هذا المسلك أنه يربط بين موانئ ومراسي الضفة الجنوبية بنظيراتها على الضفة الشمالية وذلك بعبور البحر والإبتعاد عن الساحل، ولم تكن هذه الطريق لتستعمل لولا وجود جزر تمثل محطات آمنة[3]، ويذكر الإدريسي خطا كان يستعمل بين تونس، صقلية من جهة وبونة وسردينية من جهة ثانية، وكذلك سوسة والمهدية مقابل صقلية[4]. وفي الجهة الغربية تكثر الموانئ المغربية المقابلة لنظيراتها بالساحل الأندلسي مثل سبتة والأندلس[5]، ويأتي بعدها ميناء تَنس وجزائر بني مزغنة بالمغرب الأوسط حيث يرتبطان بميناء بِنَشَكْلَة في الأندلس[6].

*** السلع المتبادلة:**

إن أوضاع الطرق التجارية البرية والبحرية داخلية كانت أم خارجية خلال القرن السادس الهجري-الثاني عشر الميلادي قد إنعكست على حركة السلع التي أغدقت الأسواق المغربية بحواضرها وأريافها في البيئات المغربية الثلاث هذا من جهة ومن جهة ثانية بين المغرب والسودان جنوبا وبلدان أوروبا شمالا، وبلدان المشرق كمصر والشام، وبلاد فارس والهند.

---

1 - التادلي، التشوف، ص190.

- إبن عذاري، البيان المغرب، ج4، ص81.

2 - Ch.E.Dufoureq, le commerce, op. cite, p 165.

3 - Mauny. R, les navigations sur les cites sahariennes antérieures aux découverts portugaises, paris 1959, p 204.

4 - إبن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار، ص172.

5 - ترتبط موانئ الساحل المغربي في جهته الغربية بموانئ الأندلس، والجزر الشرقية مثل ميورقة.

- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص191.

6 - بِنَشَكْلَة: هو حصن منيع على ضفة البحر المتوسط الشمالية وهو عامر آهل يقابل مرسى جزائر بني مزغنة، وتنس بالعدوة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط.

- إبن عبد المنعم الحميري، السابق، ص ص138، 104.

إن متابعة حركة التصدير والإستيراد والنظر في طبيعة السلع المتبادلة يسمحان بمعرفة مدى التكامل التجاري الداخلي بين بيئات المغرب وفي أي مجال كان العجز وما أسباب ذلك هذا على المستوى الداخلي أما على المستوى الخارجي، فأهم ما يمكن إستنتاجه هو مدى تحسن العلاقات السياسية الخارجية مع دول العالم، وطبيعة المخارج التي إعتادها دولة الموحدين أثناء حالات التوتر السياسي بينها وبين دول العالم.

1- السلع المتداولة داخليا:

من المعلوم أن الجهة الغربية لبلاد المغرب قد شهدت عملية تصنيع كبيرة خلال النصف الثاني من القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي -، ويستشف هذا من خلال عملية إستيراد مواد خام تصنع محليا لاسيما في مدن الساحل، وعلى هذا الأساس كانت السلع الغذائية المصنعة تصدر من الجهة الغربية إلى الجهة الشرقية والجنوبية ، وذلك مثل: السكر[1]، الزيت[2]، الزبيب[3]، العسل[4] السمك[5] وغيرها، ورغم شهرة الجهة الشرقية وخاصة بلاد الجريد في إنتاج التمر لدرجة أنها سميت ببلاد النخيل، فإن التمر كان يسوق لها من مدينة سجلماسة التي يقول عنها ابن بطوطة:

---

[1] - مواطن السكر ببلاد الجهة الغربية. تنتشر زراعة السكر، وصناعته في إقليم السوس جنوب المغرب الأقصى ومنه يحمل إلى جميع بلاد المغرب.- إبن سعيد، كتاب الجغرافية، ص117؛ مجهول، الإستبصار، ص118.
عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي، ص324؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ص105.

[2] - تنتشر زراعة الزيتون، ومعاصره في إقليم تاهرت، وبسكرة، وسبتة، وجيجل. ينظر:- الإدريسي، السابق، ص184.
- مجهول، الإستبصار، ص173.
- الحميري، الروض المعطار، ص ص (113، 126، 303).

[3] - يوجد الزبيب بصفة كثيرة في جبال درن بجنوب المغرب الأقصى، وسفوح جبال بني راشد.
- إبن سعيد، السابق، ص ص117-124.
- عز الدين أحمد موسى، السابق، ص326؛ - الحميري، السابق، ص235.

[4] - تنتشر أجباح النحل في سهول شرشال، وجبال جيجل، ودرعة بجنوب المغرب الأقصى؛- الإدريسي، السابق، ص97.

[5] - يوجد السمك بميناء صفاقس، وقابس، جيجل، وتنس، ووهران.
- الإدريسي، السابق، ص597؛ - الحميري، السابق، ص184.

« وهي - سجلماسة - من أحسن المدن و بها التمر الكثير الطيب وتشبهها البصرة في كثرة التمر، لكن تمر سجلماسة أطيب، وصنف أبرار لا مثيل له في البلاد"[1].

كما تطورت الصناعات الحرفية بالجهة الغربية لوجود عاصمة الدولة بها ودوام حضور السلطة، الأمر الذي ساعد على انتشار الأمن وتيسير حركة تنقل الأفراد والجماعات التي وفّرت بيئة مناسبة لتحسين الحرف الصناعية الملازمة لأية تهيئة عمرانية وهكذا كانت الحرف الصناعية المعدنية من أهم المجالات التي تسارع تطورها لحاجة الدولة والمجتمع لها، فكانت حرف صناعة النحاس[2] والحديد[3] من أبرز ما استقطب الحرفيون حولها، ثم حرف الدباغة[4] والفخار[5] ثم حرف الزجاج[6]، والخشب[7]، والثياب[8]، والعطور[9].

---

[1] - تحفة الأنظار، ص ص 139-145/132-146.

[2] - ينتشر معدن النحاس ببلاد المغرب الأقصى في منطقة داي وتادلاَ وفي مدينة إكمي قاعدة بلاد السوس حيث يستخرج بكميات كبيرة، وهو من النقاوة والصفار ما لا يعدله غيره؛ - الإدريسي، نزهة المشتاق(د)، ص74؛ - البكري، المغرب، ص154.
- الحميري، الروض، ص ص231- 71.

[3] - ينتشر معدن الحديد في بجاية، والأربس، وأغمات وغيرها؛ - الإدريسي، السابق، ص86؛ - مجهول، الإستبصار، ص207.

[4] - يكثر الجلد في المناطق التي ترعى فيها المواشي بكثرة مثل تاهرت، وتلمسان، والمسيلة، وسهول قسنطينة، ومنطقة أنكال القريبة من وادي أم الربيع؛ - المصدرين السابقين، ص 90؛ ص 213؛ - الإدريسي، نزهة المشتاق (د)، ص71.
- الحميري، الروض، ص ص35، 236، 427.

[5] - لقد اشتهرت الحواضر المغربية الكبرى بالصناعات الخزفية مثل فاس، مراكش، تلمسان.
- Vanacker, claudette, Geographie économique de l'Afrique du Nord, p81.

[6] - اشتهرت عدة مدن مغربية بصناعة الزجاج ونذكر منها على وجه الخصوص: فاس، مراكش، وتلمسان، بجاية، قفصة.
- إبن أبي زرع، الأنيس، ج2، ص ص 161، 47، 49.

[7] - يوجد الخشب بشكل وفير بأودية بجاية، وجبال جيجل، وجبال بونة.
- الإدريسي، نزهة المشتاق، (د)، ص97؛ - الحميري، الروض، ص ص 81-82.

[8] - اشتهرت عدة مدن بصناعة النسيج وتفصيل الثياب نذكر منها أكيسة وجدة، قلعة بني حماد، قفصة، لَبدة، سوسة، بجاية، فاس، مراكش؛ ينظر: - الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 129؛ - الحميري، الروض المعطار، ص ص (81، 477، 508).
- البكري، المغرب، ص9؛ - مجهول، الإستبصار، ص ص(159، 151، 167)؛
- Bellegrin, histoire de la Tunisie, Tunis 1948,p19.

[9] - عبد الأحد السبتي، المدينة في العصور الوسطى، ص ص (119-131/123، 141، 143).

ومعظم هذه المواد المصنوعة كانت تسّوق إلى جهات مختلفة من بلاد المغرب شرقه وجنوبه، وزيادة على ما سبق ذكره فإن الجهة الغربية كانت خلال عهد الموحدين المحول الأساسي للجهة الشرقية في مجال الحبوب والغلاّت الزراعية، خاصة الحنطة والشعير لأن سهول المنطقة أصبحت ميدانا للقتال، ومجالا للترصد والإغارة وذلك بسبب غياب السلطة و النظام الذي كانت الدولة الموحدية تسعى جاهدة لفرضه.

أما إنتاج أراضي الجهة الشرقية التي لم تهدأ الأوضاع بها بعد فقد انحصر في مجالين أساسيين ريفي وحضري، ففي المجال الريفي حدث تغير كبير في النشاط الفلاحي الزراعي والرعوي فكما مر معنا سابقا أن أرياف المدن وأرباضها سقطت في أيدي العرب الهلاليين أثناء دخولهم بلاد المغرب الأدنى[1]، وبذلك خضع الريف بصفة عامة لمنطق ومفهوم القبيلة لأسلوب العيش، وفي هذا السياق نجد نمطين للإنتاج الفلاحي في مجمل بلاد المغرب الأدنى خلال مرحلة الدراسة.

- الأرياف التي خضعت للعرب الهلاليين:

إن العرب الهلاليين الذين تمكنوا من فرض السيطرة على القرى والأرياف التي وضعوا أيديهم عليها، أنقذوا تلك الأرياف والسهول والبساتين من التخريب، والهدم والفساد، بل بعد مدة من الاستقرار عادت الحياة إلى السهول بالحرث، والزراعة، والسقاية والغراسة، وظهر الإنتاج في الحنطة، الشعير، الفواكه، الأغنام، البقر، والدواب، وهذا ما عُرفت به مدينة قابس التي حكمها بنو جامع منذ(445هـ / 1053م)

[1] - إبن الأثير، الكامل، ج11، ص58؛ - أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، بيروت 1971م، ص326.

واستمر حكمهم إلى غاية (553هـ / 1158م)[1]، حيث عرفت المنطقة رخاءً وازدهارا[2].

وهو الوضع نفسه تقريبا في مدينة قفصة وأرباضها ومجالها الريفي، حيث عمل بنو الرند الذين استقلوا بها سنة (445هـ/1053م)[3] على بسط العدل، وتوفير الأمن، فكان مجال الريف منتجا وملبيا لحاجات سكانها[4]، ويمكن أن ندرج في هذا المجال سهول مدينة بترت التي تغلب عليها العرب اللّخميون وأقاموا إمارتهم هناك[5]، كما أقام بنو هلال من عرب قيس البادين إمارة عربية شملت وادي بجردة وشمال تونس واستقروا بطبرقة[6].

- الأرياف التي لم تخضع للعرب الهلاليين:

إن العرب الهلاليين الذين أقاموا بنواحي مختلفة من مدن الجهة الشرقية لبلاد المغرب الأوسط، كانوا مصدر شغب، وعدم

---

1 - إبن خلدون، العبر، ج6، ص ص161-167.
- التجاني، رحلة التجاني، ص ص98-100.

2 - حولت مدينة قابس طاعتها من المعز بن باديس وصرفتها إلى قبائل بني رياح منذ دخول بني هلال إلى بلاد المغرب الأدنى، وأصبح عرب بني رياح أمراء في قابس حيث ازدهرت وملئت بالقصور والبساتين.
- إبن خلدون، السابق، ج6، ص167.
- التجاني، رحلته، ص96.

3 - إبن خلدون، السابق، ج6، ص165.
- الأندلسي، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تحقيق محمد الحبيب السهيلة، ج1، الدار التونسية 1970م، ص541.

4 - كانت قفصة أيام حكم بني الرند والعرب الهلاليين المتحالفين معهم، تنتج التمر والزيتون بكميات وفيرة، وفواكه كثيرة، تفاحها لا يوجد في بلد مثله، وبلاد قفصة تنتج فستقا لا مثيل له يتجهز به إلى بلاد إفريقية والمغرب والأندلس ومصر، اضطربت أحوالها منذ غزوها من قبل يوسف بن عبد المؤمن بن علي سنة (575هـ/1180م).
- الإدريسي، نزهه المشتاق، ص48.
- مجهول، الإستبصار، ص87.

5 - إبن خلدون، العبر، ج6، ص170.
- مصطفى أبو ضيف أحمد، أثر العرب في تاريخ المغرب، ص60.

6 - الإدريسي، نزهة المشتاق، ص119.
- إبن خلدون، السابق، ج6، ص170.
- مصطفى أبو ضيف أحمد، السابق، نفس الصفحة.

إستقرار تلك المدن، وذلك بسبب محاولات الإغارة والإقتحام المتكررة لاغتصاب أراضي جديدة، كما هو حال عَرب بني هلال الذين لا تتوقف غاراتهم على أرياف المسيلة[1]، باغاية[2]، أشير[3] بلاد الجريد[4].

والمحصلة فلا هم يئسوا واستكانوا ولا هم انتصروا وبسطوا سلطتهم على أرياف تلك المدن، ومن ثمّ اعتمدوا أُسلوب النّهب وقطع الطريق، وترصد مواسم الحصاد وجمع الغلات للإغارة عليها. وهذا ما كان يحدث لأرياف مدينة بونة[5] وقسنطينة[6]، وبجاية[7]، وغيرهم.

---

[1] - المسيلة أحسن بلاد المغرب قصورا، وسكانها أوسع مالا، فيها فواكه، وشعير وحنطة، تصنع بها أكسية ليس لها مثيل إلا أكسية وحدة بالمغرب الأقصى تعرضت للتحريب والدمار نتيجة غزوها من طرف بني هلال ولم تحصل لهم الغلبة: مجهول، الإستبصار، ص967.

[2] - باغاية مدينة قريبة من جبل أوراس، دخلها العرب الهلاليون ففسدت أسواقها وأرباضها وتعطلت فلاحتها.

-مجهول، السابق، ص163.

- الحميري، الروض المعطار، ص76.

- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص93.

[3] - أشير استولى عرب بني هلال على أشير مما اضطر النتيج أبي حفص عمر الموحدي للخروج إليهم واسترد المدينة وأرباضها سنة(581هـ/1185م).

-إبن خلدون، العبر، ج6، ص243.

[4] - وأخرجهم يعقوب المنصور من بلاد الجريد ، وفرق شملهم في الصحاري، بعد أن انتصر عليهم وعلى من تحالف معهم في الخيمة "خيمة دفيوس".

- المراكشي، المعجب، ص182.

- إبن عذاري، البيان، ج4، ص110.

[5] - كانت بونة من أكثر البلاد لحما وعسلا وحوتا، بها قبائل مصمودة، وأوربة.

- الإدريسي، السابق، ص ص116- 95.

- مجهول، الإستبصار، ص ص127- 165.

[6] - كانت قسنطينة تسوق السمن والعسل.

- الإدريسي، السابق، ص 88.

[7] - بجاية قاعدة بلاد المغرب الأوسط، أهلها تياسير، كثيرة الفواكه، ومزارعها وفيرة الإنتاج.

- مجهول، السابق، ص128.

- الإدريسي، السابق (د)، ص90.

لقد ترتب عن عدم استقرار الوضع بالجهة الشرقية وخاصة في المجال المتوسطي والأطلسي أن توقف سكان أرياف المدن التي لم تحصل فيها غلبة العرب الهلاليين عن الاشتغال في زراعة الحبوب الحنطة، والشعير خاصة، لفقدانهم القدرة على حماية منتوجهم ووجهوا جل نشاطهم الفلاحي إلى المجال الرعوي، فكان كافيا ويزيد عن حاجة سكان تلك المناطق ومن أهم المواد المسوقة داخليا الفواكه، العسل، السمن، الزعفران، الكتان، الغنم، البقر، الجلود، الصوف والعلف[1].

2- السلع المتبادلة خارجيا:

– الصادرات:

إن السلع التي تزخر بها أسواق الحواضر والبوادي المغربية متنوعة ، منها ما يسوق داخليا استجابة لحاجات السكان والقبائل ومنها ما يصدر إلى بلاد السودان جنوبا أو إلى بلاد أوربا شمالا وبلدان المشرق كمصر والجزيرة العربية، وبلاد جنوب شرق آسيا والسلع التي تصدر إلى الخارج منها ما ينتج في ديار المغرب، ومنها ما يجلب من الخارج ويعاد تصديره إلى جهات أخرى بغرض الكسب الوفير. وبهذه الوظيفة تكون بلاد المغرب بمثابة همزة وصل بين شعوب وأمم عديدة.

وإذا كانت العلاقات الاقتصادية الثنائية بين بلاد المغرب وجهات العالم خلال عهد الموحدين قد تأثرت سلبا في بعض مراحلها، فإنها لم تنقطع ويمكن الاستئناس بما أورده كلود كاهان حول أنواع التجارة بين العالمين الإسلامي والمسيحي حيث أورد ثلاثة أنواع:

- تجارة مباشرة بين المشرق الإسلامي وأوربا الشرقية.
- تجارة مباشرة بين المغرب الإسلامي وأوربا الغربية.
- تجارة داخل العالم الإسلامي تجمع بين المغرب والمشرق[2].

1- (W) Aeyd, Histoire du commerce, T_{II}, p 623.

2- Cl. Cahen, le commerce ,op.cit, p p 36-38/40-42.

ونضيف تجارة مباشرة بين بلاد المغرب وبلاد السودان التي لها دور كبير في تنشيط الحركة التجارية داخل المغرب، وخارجه. كما نشير أيضا إلى وجود تجارة خارج الإطار الرسمي وذلك بدافع الربح السريع [1].

ومن أهم صادرات بلاد المغرب خلال القرن السادس، مادة القمح والشعير التي كانت تصدر إلى بلاد السودان[2]، ويمكن إضافة السلع كالنحاس الأحمر والملون[3] والألبسة خاصة من نغزة ببلاد الجريد[4] والأقمشة الكتانية التونسية[5]. وقد احتكرت بعض أسواق المدن الكبرى الوظيفة الإنتاجية، حيث انتصب المنتجون خارج الأسواق المخصصة لحرفهم. وهناك يلتقون مع التجار الغرباء عن المدينة التي هم فيها فتعقد الصفقات التجارية سواء على مستوى داخلي أو خارجي[6] كما كان المغرب يصدر الزعفران[7]، الزئبق[8]

---

1 - (W) Aeyd, Histoire du commerce, T_{II}, p 623.
- عبد الأحد السبتي، المدينة في العصر الوسيط، ص ص 114-118.

2 - إبن سعيد، كتاب الجغرافية، ص 117.
- مجهول، الإستبصار، ص ص 116-118.

3 - كان تجار بلاد أغمات يدخلون بلاد السودان بقناطير الأموال من النحاس الأحمر الملون، وكانت منطقة إيكلي التي تعتبر قاعدة بلاد السوس الأقصى تنتج كميات وفيرة من النحاس المسبوك الذي يتجهز به إلى السودان.
- الإدريسي، نزهة المشتاق (1)، ص ص 66-67.
- مجهول، السابق، ص207.
- الحميري، الروض، ص ص 46-71.

4 - إبن سعيد، السابق، ص ص 110-125.
- واشتهرت وحدة بالمغرب الأقصى بالأكسية التي كانت تصدر إلى جهات مختلفة. ينظر: - الحميري، السابق، ص 469.

5 - السابق، ص ص 119- 124.

6 - (J.F) Troin, les soules Marocains, Marches ruraux et organisation de l'espace dans la moitie Nord du Maroc. Edisud 1975, p 198.

7 - ينتشر في أرياف المسيلة، والحامة، وبلاد السوس الأقصى. ينظر: - إبن سعيد، السابق، ص ص 120-124-127.

8 - يوجد الزئبق بين سبتة ووهران في موضع يسمى ممسامان. ينظر: - محمد المنوني، حضارة الموحدين، ص 174.

المرجان[1]، الكبريت[2]، الملح[3]، آلات الحديد المصنوعة[4] والمصنوعات الزجاجية بأنواعها[5].

زيادة على ما كانت المدن الكبرى تصدره من سلع أخرى إلى أوربا نذكر من بينها التمر السوسي[6]، والزيت الصفاقصي[7]، والسكر السوسي[8] والأقمشة السندسية الغالية[9]، ولعل الجلود كانت أكثر السلع تصديرا إلى جنوة وبيشة وفرنسا[10]، كما كانت بضائع الشّب والنّيلة الدرعية تصدر إلى بلاد أوروبا[11].

---

[1] - يكثر شجر المرجان الجيد والذي لا يعدله صنف في سواحل سبتة، ويفصل منها ومنها يتجهز به إلى سائر البلاد كما هو الشأن في مدينة طبرقة التي تتفوق على سبتة في إنتاج وتصنيع المرجان وحمله إلى سائر بلاد الدنيا.
- الإدريسي، نزهة المشتاق، (1)، ص116.
- مجهول، الإستبصار، ص126.
- القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص 391.
- عز الدين موسى أحمد، النشاط الاقتصادي، ص326.
- الحميري، الروض المعطار ، ص386.

[2] - يصدر الكبريت إلى جهات مختلفة من دنيا العالم:- إبن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص104.

[3] - الإدريسي، السابق، (1)، ص66.
- القلقشندي، السابق، ج5، ص164.

[4] - يوجد معدن الحديد في نواحي مختلفة من بلاد المغرب نذكر منها مدينة الأربس، أغمات، وبجاية، والسوس، ومجّانة، وبونة.
- إبن أبي زرع، الأنيس، ج2، ص165.
- الحميري، السابق، ص81.
- البكري، المغرب، ص114.

[5] - الإدريسي، السابق، (1)، ص69.
- مجهول، السابق، ص207-151.
- الحميري، السابق، ص ص46-477.
- الوزان، وصف إفريقيا، ج1، ص 115-122.

[6] - الإدريسي، السابق، (1)، ص4.

[7] - مجهول، السابق، ص ص117-118.

[8] - إبن سعيد، كتاب الجغرافية، ص117.

[9] - إبن سعيد، السابق، نفس الصفحة.

[10] - المقري، نفح الطيب، ج1، ص ص(211، 212).

[11] - إبن سعيد السابق، ص118.

و لم تقتصر صادرات المغرب على بلاد السودان وأوروبا فحسب فقد كانت سلع التجار المغاربة تصل إلى بلاد المشرق حيث كان الفستق القفصي[1] والثياب النفزاوية[2] والكبريت الأحمر[3] هذه السلع وغيرها تصدر إلى مصر، والشام، وبغداد.

- الواردات:

لقد كان الذهب هو أول بضاعة يستوردها التجار المغاربة من بلاد السودان وتدل بعض القرائن على أن بداية جلب الذهب كانت في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري - الثامن الميلادي واستمر استيراده إلى ما بعد فترة الدراسة، حيث تحدث عن ذلك ابن سعيد الذي عاش في نفس الفترة بقوله: "إن تحت لمطة في آخر هذا الجزء الأول من الصحراء تتم مبادلة الملح بالذهب"[4]. وكان الإدريسي أكثر دقة عندما حدد المدينة التي يجلب منها الذهب. فحسب ما أورده فإن مدينة غانة كبيرة وتنقسم إلى مدينتين إحداهما تسمى مدينة الملك[5] وهي أكبر المدينتين وأكثر المدن بغانة سكانا وأوسعها تجارة، ويضيف الإدريسي قائلا :"وكانت أقرب إلى معدن الذهب الموجود في بامبوي بوري"[6].

---

[1] - مجهول، الإستبصار، صص (154، 157، 161).
[2] - السابق، نفس الصفحات.
[3] - إبن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص31- 96.
[4] - بسط الأرض، تطوان 1958م، ص47.
- إبن بطوطة، تحفة النظار، ص ص 209-210.
[5] - الإدريسي، نزهة المشتاق، (2)، ص ص6 -7.
- القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص285.
[6] - الإدريسي، السابق، نفس الصفحة.
- الحميري، الروض المعطار، ص425.

وكانت مدينة غات تمثل المحطة الأخيرة للطريق الواصل بين طرابلس وكَانُو مرورا بغدامس ثم غات[1] حيث تتم عملية التبادل التجاري حسب الاتفاقيات بين تجار بلاد المغرب وتجار السودان الغربي والأوسط الذين يدخلون بلاد غات بما يزيد على الثلاثين ألف جمل محمّلة بسلع كثيرة منها العبيد، ريش النعام، النعام نفسه أنياب الفيلة، الجلد، الزبد والبخور السوداني[2] في حين كانت سجلماسة ميناءً صحراويا تتم فيه أيضا المبادلات التجارية حيث تعود القوافل التجارية إلى بلاد المغرب محملة بجملة من السلع من بينها العنبر والصمغ والدرق، وجلود القنفذ، وبالخصوص الرقيق السوداني[3].

أما تجار بلاد المغرب الأوسط فغالبا ما كانوا يستلمون بضائعهم في مدينة وَارجلا وزويلة[4] ومن بين السلع التي تعود بها القوافل نجد: الريش، أنياب الفيلة، الببغاء، التبر والرقيق.

أما على مستوى ضفتي البحر الأبيض المتوسط فلم تتوقف العلاقات التجارية بين البلاد الغربية المسيحية وبلاد المغرب، ففي النصف الأول من القرن السادس الهجري-الثاني عشر الميلادي احتل النورمان سواحل إفريقية، وضموا عنوة كثيرا من موانئ الساحل وخلال هذه الفترة نشطت الحركة التجارية بين الضفتين، و لم تتوقف عملية استيراد القمح من صقلية إلى بلاد المغرب[5]

---

[1] - كانت البضائع التونسية ترسل إلى قابس ومنها إلى غدامس ثم إلى غات حيث يقع تبادل السلع القادمة من السودان الأوسط.
- فرانك، وصف البلاد التونسية، ط2، تونس 1979م، ص 122.

[2] - عن الواردات من السودان الأوسط. ينظر:- بيهغل، رحلة تجارية إلى حوض تشاد، مرسيليا 1896م، ص 15.

[3] - عن الواردات من السودان الغربي. ينظر: - طرخان، قيام إمبراطورية مالي، مطبعة جامعة القاهرة 1970م، ص 4.

[4] - حسن أحمد محمود، المرحلة الإفريقية في تاريخ المرابطين، المجلة التاريخية المصرية، ج12، القاهرة 1964م، ص ص 11-120.
- محمود كعت التنبكتي، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، نشر هوداس، طبعة باريس 1964م، ص ص 102-105؛ 207.

[5] - الإدريسي، نزهة المشتاق، طبعة روما، ص 24؛ - الونشريسي، المعيار، ج8، ص 131.
H.R. Idris, la Berbéris orientale sous les Zirides, xe, XIIème seicle, Paris 1962, p 241. - 594

وجلب الملح من يابسة[1]. وإذا كانت العلاقات قد تأثرت بفعل سيطرة الموحدين على سواحل أفريقية وطرد النورمانديين منها فإنها لم تنقطع بل سرعان ما استؤنفت التبادلات التجارية وتدفق السلع مثل القسطل، الجوز والفستق من صقلية ذاتها حسب ابن سعيد[2].

وبعد أن استتب الأمر وتوفر الأمن استؤنفت علاقة الموحدين التجارية مع تجار جنوة وبيزة والبندقية وسمحوا لهم ولغيرهم من البروفنسيين والكتالونيين أن يستقروا في المدن المغربية كتونس وبجاية[3]، وسبتة وازداد حجم استيراد المغرب للأقمشة[4]، وثياب الملف الصوفية[5]. وقد جمع ديفورك أكثر من عشرة أمثلة لتجار من بجاية وتونس وتلمسان وسبتة ووهران بين 1144م سنة (519هـ / 1124م) إلى 639 هـ هؤلاء نزلوا أو أقاموا مدة في رشلوذة أو ميروقة أو جنوة وهذا دليل على أن المغاربة كانوا يذهبون إلى موالي أوروبية[6] و لم يكتف المغرب باستيراد المواد الجاهزة بل تعدى إلى استيراد المواد الخام مثل الصباغ من إسبانيا وأوروبا والخشب من يابسة[7]. والحديد والنحاس من طليطلة[8]، والبلور والخزف المطلي والزيج من المرية ومرسية ومالقة[9].

---

[1] - إبن سعيد، كتاب الجغرافية، ص 128 .

R. Le Tourneau, l'occident Musulman du VIIème siecles, à la fin du XV, Alger - 1958, p p 147-207.

[2] - كتاب الجغرافيا، ص 132.

عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي، ص 327.

[3] - R. Le Tourneau , op.cit, p p 205-207

[4] - Dozy, dictionnaire détaillé des noms de vêtements chez les Arabes, Amsterdam - 1845, p 209.

[5] - عز الدين أحمد، السابق، ص 328.

[6] - Dufourcq (Ch. E.), Commerce du Maghreb, p 175.

[7] - Fleury (N), « les industries indigènes de la régence » revu du commerce et d'industrie, Avril 1826, p 101.

[8] - المقري، نفح الطيب، ج1، ص ص 200-209.

Golvin (l), Note sur l' industrie, op.cit, p p 117-126.

[9] - المقري، السابق، ج1، ص 207؛ - الإدريسي، نزهة المشتاق، طبعة الجزائر 1957م، ص 212.

أما واردات بلاد المغرب من المشرق، فرغم الاحتقان السياسي بين الأيوبيين والموحدين إلا أن الأساطيل التجارية لم تتوقف، خاصة بعد أن أصبح الطريق التجاري هو الطريق الأطلسي المتوسطي حيث أصبح تجار المغرب وسطاء في البحر وهكذا تحكموا في نقل التجارة بين المشرق والمغرب، حيث كانت سفنهم دائبة الحركة إلى الشام لجلب التوابل[1]، والبسط الشرقية[2]، والعطور والجواهر والياقوت من الهند[3] والخليج الفارسي[4]، حيث يتم توزيعها إلى مختلف الحواضر المغربية الكبرى، خاصة تلك التي يسكنها أصحاب السلطان والمترفين، ومن المدن التي تكثر بها السلع المشرقية، مدينة تونس والمهدية حيث يقيم الأمراء وخاصتهم[5] وتلمسان، فاس، مراكش وطنجة التي كانت معبرا للسلع الزائدة عن حاجة السكان إلى الأندلس عبر بحر الزقاق[6] كما كانت تصل إلى المغرب الأقمشة الخاصة المذهبة والمنقوشة من مصر[7] والعراق[8] وخرسان[9]، وتعود المراكب التجارية إلى ميناء الإسكندرية محملة بمواد أخرى.

---

[1] - إبن خرداذبة، المسالك والممالك، ص 154.

[2] - السابق، نفس الصفحة.

- (w) Heyd, op.cit, p 41.

[3] - إبن سعيد، كتاب الجغرافية، ص ص 19-26.

- المراكشي، المعجب، ص ص 358-359.

[4] - مجهول، الإستبصار، ص 86.

[5] - الحميري، الروض المعطار، ص 396.

- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ص 109-79.

[6] - مجهول، السابق، ص86.

[7] - إبن سعيد، السابق، ص51.

- الإدريسي، السابق، أمستردام 1969م، ص 156.

[8] - إبن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص 34.

[9] - إبن سعيد، السابق، ص ص 60-64.

* النقل:

1 - النقل البري:

يتفق معظم المتهمين بالتاريخ الإجتماعي والإقتصادي لبلاد المغرب أن الدّول المتعاقبة على الحكم لم تعمل على تطوير وسائل النقل كالعربة ولم تعر اهتماما لتعبيد الطرق مما جعل ما بناه الرومان يضيع[1] وعوّضوا ذلك بوسائل ومسالك تناسب مبادلاتهم والسبب في ذلك يعود إلى كثرة ترحال السكان ونزوحهم إلى مناطق معينة[2]، وقد كانت الظروف الطبيعية من تضاريس ومناخ إلى جانب الظروف الأمنية غير مشجعة دائما على اتخاذ طرق معلومة ومعبدة بل كانت تدفع البهائم المختلفة من بغال وحمير وخيول وجمال لنقل بضائع التجار، وهذا ما نجد أثره في أدب النوازل والحسبة، وقد تدخل الفقهاء في هذا المجال من باب إلزام مُستعملي الدواب بتوفير الراحة لها، والتخفيف عنها عند الأماكن التي يتزايد ارتفاعها ولا يجب إرهاقها بالسرعة[3].

يتبين مما سبق أن الدّواب كانت من أدوات النقل الأساسية، تُستعمل للركوب وتستعمل في أعمال الفلاحة[4]، وتكثر لنقل السّلع وهذا تستعمل في غير الوجوه المتفق عليها[5].

أما على مستوى المسافات البعيدة التي تربط أقاليم المغرب بأرض السودان فلا نملك معلومات كافية عن حجم القوافل

---

1 - F.Braudel, La méditerranée et le monde méditerranéen, vol$_{II}$, p159

2 - R.Brunschvig, op cit, 236, T2.

3 - العقباني، تحفة الناظر، ص 273.

4 - الونشريسي، المعيار، ج8، ص ص 283-302.

5 - السابق، نفس الصفحة.

التجاريـــة ، علـــى جميـــع الأصـــعدة، فـــلا نعـــرف عـــدد التجـــار أو عـــدد الجمال والبهائم الأخرى[1]، كما تجهل طريق الشحن[2].

2 - النقل النهري:

لقد احتاجت التجـــارة الداخليـــة إلى ملاحـــة داخليـــة باســـتعمال الأنهـــار كمـــا هـــو الـــشأن في بقيـــة أنحـــاء العـــالم إبـــان تلـــك الفتـــرة وتـــرك عـــدم اســـتعمالها آثـــارا واضـــحة علـــى أســـعار الـــسلع المنقولـــة، وترجـــع الأســـباب لعـــدم صـــلاح الأنهـــار للملاحـــة بـــسبب تقطـــع وعـــدم انتظـــام جريانهـــا. إذ يمكن عبور معظمها علـى الأرجـل في بعـض أوقـات الـسَّنة. وهـي متفاوتـة في ذلك، فـلا تجـد نهـرا واحـدا في الجهـة الـشرقية لـبلاد المغـرب يـستعمل في النقل بينما ترد إشـارات واضـحة علـى اسـتعمال نهـر سَـبّو[3] في الملاحـة. فقـد أقيمـت عليـه خـلال عهـد عبـد المـؤمن بـن علـي دَارة لـصناعة مراكـب مُختلفـة الأحجـام ، كمـا تحـدثت بعـض المـصادر عـن نقـل الرخام مـن ميناء العـرائش إلى مدينـة فـاس عـبر وادي قـصر عبـد الكـريم المـسمى "اللكـوس"[4].وتوجـد إشـارة مهمـة تتحـدث عـن نقـل الـسلع مـن مكـان إلى آخـر عنـدما يُحـول مـانع مـن اسـتمرار نقلـها في النـهر حيـث كـان العـاملون في النقـل النـهري يـستعملون "عجـل خـشبية" أي

---

[1] – أشار الإدريسي إلى غنى تجار مدينة أغمات، ووصف التاجر منهم بأنه يتوفر على ما يفوق المائة جمل محمل.
- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ص 66 – 67.

[2] – أورد بيهْمَل في رحلته بأن هناك جماعة من الحمالين الغدامسيين ينقلون السلع من المدن الساحلية الكبيرة ويقومون بحراستها إلى أن يسلمون السِّلع والبضائع إلى جماعة أخرى في أقصى جنوب وَارحلا أو زويلة، ويعرفون هؤلاء بالغدامسية، ينظر:
- بيهْمَل، رحلة تجارية إلى حوض تشاد، مَرْسيليا 1896م، ص ص 5 – 8.

[3] – الإدريسي، نزهة المشتاق، (ط.د)، ص 219.
- الجزائي، زهرة الآس، ص37.
- إبن القاضي، جذوة الاقتباس، الرباط 1973م، ص 46.
- عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي، ص 316.

[4] – الإدريسي، نزهة المشتاق، (ط.د)، ص 169.
- الجزائي، زهرة الآس، ص38.

على عربة[1]. وهذه الإشارات تجعلنا ندحض أقوال وآراء الذين يَرْمُون سكان بلاد المغرب بتأخرهم الكبير في ميدان النقل. وهكذا استفاد الموحدون من بعض الأنهار في النقل التجاري وأن قلة انتشار استعمال العربات لا يرجع لجهل أهل الملاحة النهرية والتجار بصفة عامة وإنما يعود إلى عوامل طبيعية وأمنية بالدرجة الأولى[2].

وقد نصب المرابطون ومن بعدهم الموحدون جسورا تُسمّى الزقاق لعبور الأشخاص وتسهيل استمرار الطرق البرية التي كانت تتقاطع مع هذه الأنهار[3].

3 - النقل البحري:

تلعب الظروف الطبيعية دورا أساسيا في الملاحة البحرية سواء المتوسطية أو الأطلسية. فبالنسبة للمتوسطية تكون أيسر لأن حركة الرياح الشرقية والغربية تساعد السفن على الحركة، في حين لا تتحرك السفن في المحيط الأطلسي إلاّ مع الرياح الغربية[4] الأمر الذي جعلها تسير وفق ما كان يطلق عليه "الريف الريف" أي لا تبتعد عن مرأى العين[5].

وقد مرت الملاحة البحرية في البحر المتوسط بمراحل، فبعد أن كانت إقليمية خلال عهد بني زيري على مستوى الجهة الشرقية[6]، وأصبحت خلال عهد الموحدين حيث توسعت المسالك

---

1 - الجزائي، زهرة الآس، ص37.

2 - R. le Tourneau, Fès avant le protectorat, Casablanca 1949, p 178.

3 - مجهول، الإستبصار، ص 186.
- عز الدين أحمد موسى، النشاط الإقتصادي، ص 317.

4 - الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 195.
- إبن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ج2، ص 464.

5 - الإدريسي، السابق، (ط.د) ، ص 195.
- إبن خلدون، العبر، ج6، ص 98.

6 - الإدريسي، السابق، نفس الصفحة.
- البكري، المغرب، ص ص 82-83.

التجارية البحرية لتشمل المشرق الإسلامي وجهتي الأندلس الشرقية والغربية[1]، وقد أدى هذا التحول إلى ازدهار مراكز تجارية لأنها اكتسبت صفة ملتقى للطرق البحرية وهذا مثل صفاقس، بجاية سوسة، تونس وبونة[2].

وتوسعت هذه المسالك على مستوى شواطئ الجهة الغربية لتربط بين سبتة وطنجة وأصيلاَ وصولا إلى نول لمطة على ساحل المحيط[3].

وبالرغم من الحديث المتكرر والمتواتر عن الأسطول المغربي خلال عهد الموحدين وإظهاره بالعظمة والتفوق على غيره من أساطيل البحر المتوسط[4]، وبالرغم أيضا من الحديث عن التبادل التجاري بين سبتة، بيزة، جنوة، البندقية ومرسيليا[5]، والشأن نفسه بين المهدية، تونس وبجاية من جهة، و المشرق الإسلامي والأندلس من جهة أخرى[6].

وهكذا فإن الحديث عن النقل البحري خلال عهد الموحدين كثير، ومصادره متعددة فإن جهلنا بطبيعة المراكب البحرية المستعملة في نقل السلع والبضائع التجارية باقي، و لم تتطور معرفتنا بذلك كما

---

1 - البيدق، أخبار المهدي، ص 58.
- التادلي، التشوف، ص179؛ - إبن القاضي، جدوة المقتبس، ص 290.
2 - مجهول، الإستبصار، ص130؛ - المراكشي، المعجب، ص350.
- عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي، ص319.
3 - إبن سعيد، كتاب الجغرافية، ص116.
- مجهول، السابق، ص141.
- إبن خلدون، العبر، ج6، ص98.
4 - R. Mauny:les navigations Médiévales sur les cotes sahariennes Lisboa, 1960, pp 44-50.
5 - عبد الأحد السبتي وحليمة فرحات، المدينة في العصر الوسيط، ص ص 104 – 106.
- Terasse : Histoire du Maghreb, p203.
6 - عبد الأحد السبتي وحليمة فرحات، السابق، ص ص 104 – 106.
- Terasse : op-cit, p203.

هو الشأن بالنسبة للقوافل التجارية الصحراوية، وإذا انتقلنا من المصادر التاريخية والرحلات إلى كتب الفقه والنوازل فإننا نجدها تركز على ما يلزم الجانب الشرعي مثل أجور التجارة، وضمان السلع والشراكة والكراء وغير ذلك.

وتبقى معرفة نوع المراكب التي يستعملها المغاربة ناقصة. ولولا الونشريسي لَمَا عثرنا على أي وصف لها، ذكر صراحة أن المراكب شَيْطي[1] التي كانت تستعمل لنقل السلع والبهائم، وكان أصحاب النوازل يكتفون بذكر لَوح أو سفينة. ويضيف إبن مرزوق أن أهل المغرب كانوا يخوضون البحر المتوسط و المحيط بنفس المراكب المعروفة في وقتهم[2]. وأنهم لم يتمكنوا بعد من التغلب على الصعوبات الفنية التي تواجههم[3] لذلك فإن ملاحقهم تخضع للمناخ الفصلي[4].

إن أوضح نص وصفي للمراكب المستخدمة في الأسفار ونقل البضائع هو ما جاء على لسان الرحالة الأندلسي البلنسي إبن جبير (ت. 611هـ / 1217م) عندما قال:"... كانت أهوالا شتى عصمنا الله منها بفضله وكرمه. فمنها ما كان يطرأ من البحر واختلاف رياحه ومنها ما كان يطرأ من ضعف عدة المركب واختلالها وكسرها المرة بعد المرة عند رفع الشراع أو حطه... فكنا نموت مرارا ونحيا مرارا..."[5] وبصفة إجمالية فإن الكتابات التاريخية لم تكن تعتني بمثل هذه التقنيات المهمة والأمر ينسحب على كل أنواع وسائل النقل

---

[1] - الشّيْطي: مركب تجاري به ثمانين مجدافا.
- حسن حسني عبد الوهاب، ورقات، ص 79.

[2] - المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماريا خيسوسَ بيغيرا، الجزائر 1981م، ص393.

- Ch. E. Dufourcq, commerce, op.cit, p p 171-172.

[3] - R. Mauny, op.cit , p p 44-50.

[4] - الونشريسي، المعيار، ج8، ص 299.

[5] - إبن جبير، رحلة إبن جبير، طبعة بيروت (د.ت)، ص ص 51-52.

خلال الفترة التاريخية التي نبحثها ولعل الأمر يتعدّى إلى ما بعد ذلك إذا اتخذنا ما كتبه ابن بطوطة حول سفره مع قافلة تجارية نحو السودان نموذجًا[1].

الفروض الشرعية والجبايات المختلفة:

تتمثل أهم واردات الدولة الموحدية في الزكاة بأنواعها، والخراج بأنواعه والجزية والغنيمة والفيء والعشر، وتجمع في ثلاثة فروع هي الفيء والخمس والصدقة (الزكاة) وقد حاربت الدولة الجبايات غير الشرعية والظلم المستعمل في جمع الأموال ، ولكنها التجأت في نفس الوقت إلى جمع الأموال عن طريق الغزو والإستيلاء على الغنائم بمنطق يسمح بتوسيع المجال الجغرافي بأرض الأعداء التي لا تختلف من هذا المنطلق عن أرض الكفار.

وقد واجهت الدولة الإدريسية صعوبة في محاربة جور الولاة وتطبيق الشريعة ومبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونفس الأمر واجهه المرابطون[2] في جمع الزكاة وتوزيعها إذ لم يكن مفهوما مثلما كان عليه حال الغنائم والفيء فقد كان يقوم بها الأفراد المعنيون ويوزعونها على الفقراء ويدفعوها لمن يقوم بذلك كالأولياء وغيرهم.

ومن جملة الفروض الشرعية نجد الزكاة المفروضة على أموال التجار وهي لا يزيد مبلغها على إثنين ونصف في المائة 2،5 % أي ربع العشر وقد تكون من العين أو النقود، وهي تخص جميع المواد التي يبيعها التاجر بما في ذلك الخيل والبغال والحمير التي لا تجب الزكاة عنها[3]، وهذه الضرائب تشبه إلى حدّ كبير العشور (جمع عشر) و هي 10 % يدفعها المشركون عن بضائعهم إذا قدموا من دار الحرب إلى بلاد الإسلام. و هذا المقدار قد

---

[1] - إبن بطوطة، رحلته، ص ص 441-442-452.

[2] - رسالة أهل تاشفين إلى أهل بلنسية، نصوص سياسية جمعها حسين مؤنس، مجلة المعهد المصري بمدريد – العدد الثالث – المجلد الأول، 1955م، ص 115.

[3] - صبحي الصالح، النظم الاسلامية ص 357.

ينقص أو يزيد تبعا لرأي الإمام، وقد تفرض على الذميين المتاجرين فقي الحديث:"ليس على المسلمين عشور، إنما العشور على اليهود والنصارى"[1] وذلك إذا صالحوا عليها و إلاّ فلا يلزمهم سوى الجزية و يمدنا إبن حوقل بمعلومات عن التعشير الذي كان منتشرا قبل عقد المعاهدات بين طرفي الحوض الشمالي والجنوبي للمتوسط[2].

ففي طبرقة ومرسى تنس كان يتم تعشير المراكب[3] ، ويذكر لاَكَارد "Lagarde" بعد ذلك أن بيزة كانت تدفع بموجب المعاهدة 10% في سنوات (550هـ/ 1157م)، (574هـ/1181م)، (579هـ/1186م) وتبعتها دوّل أخرى ، وكانت هذه النسبة ترتفع وتتقلص حسب المعاهدة بين المتعاقدين[4].

ومع تطور الدولة ظهرت الجبايات غير الشرعية مختلطة بالفروض الشرعية وتعددت أنواعها وقد يكون سبب ظهور ذلك نتيجة عجز الواجبات الشرعية عن إيفاء حاجيات الدولة أثناء وتطور تنظيماتها نظرا لتعدد الوظائف وكثرة العطاء فيستحدث صاحب الدولة أنواعا من الجباية يفرضها على المبيعات ويُفْرض لها قدرا معلوما على الأثمان في الأسواق وعلى أصحاب السلع في أموال المدينة[5] ومن أهم هذه الجبايات: واجبات المرور على المراسي، وفي المراصد على الطرقات أو على الأنهار، وعند مداخل المدن والفنادق (القبالات)[6] وأشير إلى تعددت الإشارات إلى ذلك عبر جملة من النصوص[7] فقد ورد مثلا عند البيدق أنه لّما أراد إجتياز نهر أم الربيع. برفقة المهدي بن تومرت

---

[1] - أحمد الشرباصي، المعجم الاقتصادي الاسلامي، دار الجيل، 1981م، ص 284.

[2] - إبن حوقل، صورة الأرض، ص ص 76-78.

[3] - السابق، ص 77.

[4] - V. Lagardère, les Almoravides, op.cit, p 200.

[5] - إبن خلدون، المقدمة، ص 346.

[6] - V. Lagardère, op. cit, p p 214-216.

[7] - البيدق، أخبار المهدي، ص 26.

وأصحابه مُنعوا حتى يدفعوا المكس (المكري) على كل رأس، ويذكر البكري أنّ جبايات الباب الواحد في فاس قد بلغت 26000 درهم، كما كانت تؤخذ الجبايات على ما يباع ويشتري من إبل وغنم وبقر في الأسواق الأسبوعية التي تقام في أبواب المدن المغربية كأبواب مراكش، أبواب تلمسان، تاهرت وغيرهم[1]...

خلاصة:

إن النشاط التجاري خلال العهد الموحدي أعطى إمكانية أقوى للمدن والقرى ومراكز التجمع لكي تربط بين الإستقرار الحضري والوظائف التي يفرضها هذا الإستقرار ومن أبرز ذلك أنها شكلت على الدوام فضاءًا لممارسة السلطة وتأطيرها وتنظيم مؤسساتها وموقعا أساسيا لممارسة وظيفة التبادل التجاري إذ كانت مرافقها التجارية تحظى بنفس الإهتمام الذي تحظى به المؤسسات السياسية وتخضع في علاقتها لحكم الشرعية وزجر السلطان، وهذا النمط من التعامل التجاري تجسد أثره في مدن الجهة الغربية لبلاد المغرب كفاس، مراكش وسبتة وبدرجة أقل في مدن الأوسط والأدنى كتلمسان، بجاية، بونة، سوسة المهدية وتونس.

إن التجارة ومسالكها بصفة خاصة حددت مسارات النطاقات الثلاثة إذ غالبا ما كان توجه هذه المحاور يتم لصالح نطاق معين على حساب نطاق آخر. وغالبا ما كانت المراكز التجارية المنتشرة حول تلك المسالك تعرف نشاطا وازدهارا تبعا لذلك وقد كانت التوجهات العامة لهذه المسالك عمودية من الجنوب إلى الشمال وهو الأمر الذي تولدت عنه صعوبة التحكم فيه غير أن هذا لا يلغي بالطبع المحاور التي تربط بين هذه النطاقات الثلاثة المتجهة من

[1] - إبن خلدون، السابق ص 454.

الشرق إلى الغرب وذلك بفضل السلطة المركزية الموحدية التي هيئت الظروف لربط المناطق بعضها ببعض عن طريق المسالك التاريخية ودمج كثيرا من قبائل المنطقة في الفعل السياسي.

إن الطرق الصحراوية والتحكم فيها والصراع حولها من بين العناصر الأساسية التي سطرت التاريخ السياسي لبلاد المغرب، وشكلت هدفا محوريا لكثير من الحركات والدول. وقد استمدت مدن المجال الصحراوي مقومات من الخدمات و لم تشكل على العموم تجمعات حضرية ثابتة، بل بقيت وظيفة مؤقتة مرتبطة بعمليات الوساطة أما على مستوى المجال المتوسطي الذي شكل مجالا مركزيا في الفعل السياسي، الإقتصادي والحضري، وهيأ الظروف لتوحيد مجالات المغرب بحيويته المتولدة عن غناه ودوره التواصلي، وظهر بشكل جلّي أثناء استفحال الثورات التي أعلنها العرب الهلاليون وبنو غانية والأغزاز الترك وغيرهم لم يقتصر دوره على التواصل الداخلي لمجالات المغرب بل ساهم في ربط بلاد المغرب بالشبكات التجارية والحضارية العالمية. وبدأ يحتل مكانة مركزية في اقتصاديات العالم الوسيط.

وقد شكلت العادات المستخلصة من التجارة مصدرا أساسيا لمالية الدولة فقد عادل مدخول سجلماسة نصف مدخول الدولة الموحدية وكونت المدن والمراكز التجارية بغناها ما يشبه الإمارات المستقلة. وقد تبينت لنا من خلال البحث الأرباح الكبيرة التي كانت تدرها التجارة بعيدة المدى وكذلك الداخلية ويرجع الفضل في ذلك لقدرة تحكم السلطة في الطرق التجارية ومراكزها والتحكم القوي في المقومات والمرتكزات التجارية كالذهب، وتربية الجمال وتنظيم القوافل وتصدير النحاس والملح، والقدرة على مراقبة مسار التجارة والإستفادة من مواردها عن طريق الجبايات. والمغارم زمن خلال بعض الآليات

والأدوات كالمقود المكاييل، الأوزان،النظر الشرعي والزجر السلطاني كالحسبة وتنظيم الفضاء التجاري ومراقبته.

إن التحكم القوي في التجارة من طرف السلطة الموحدية بطريقة مباشرة وغير مباشرة جعل العلاقة بينها وبين التجار علاقة تتسم بنوع من التناقض إذ كان التُّجَار معارضين للسلطة وثائرين عليها تارة وناصرين لها تارة أخرى فعندما تقوم السلطة بتوفير الأمن وتحقيق شروط نجاح التجارة مكتفية في ذلك بمواردها المباشرة نجده يدافع ويقاوم كل بديل عنها ولكن عندما تثقل السلطة بثقلها على التجارة والتجار بسبب حاجاتها للأموال خاصة في فترات التدهور والإضطراب فإن التاجر يصبح معارضا لها.

هذا وضع يلتقي مع واقع قبائل الخفر ويلتقي أيضا مع الفقهاء المرتبطين بالتجارة الذي ينشدون في نفس الوقت عطف الخلافة الموحدية.

الخاتمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الخاتمـــة:

لقـــد حاولـــتّ في المـــدخل أن أســـتعرض منهجيـــة ومحـــدِّدات إشـــكالية الموضوع وآليـــات العمـــل. وذلـــك مـــن خـــلال إبـــراز التحركـــات والهجـــرات الـــسكانية القبليـــة منـــها والجماعيـــة في إتجاهـــات مختلفـــة مـــن بـــلاد المغـــرب قبيل وأثناء فتـــرة الدراســـة. علـــى اعتبـــار أن ذلـــك يـــشكل عنـــصرا أساســـيا في البِنْيـــة الاجتماعيـــة والاقتـــصادية للدولـــة الموحديـــة كمـــا حـــددت الإطـــار الزمني لذلك ابتـــداءً مـــن 515هـــ إلى 595هـــ وهـــي فتـــرة توحيـــد أقـــاليم بلاد المغرب، واستكمال ازدهار الدولة الموحدية المركزية.

وَعَمدت من جهـــة ثانيـــة إلى تحديـــد الإطـــار المكـــاني في المجـــالات الـــتي تـــشكَّلَ منـــها المغـــرب. وأوضـــحت إشـــكالية انطـــلاق الحركـــة الإصـــلاحية الموحدية من الجنـــوب الغـــربي للمغـــرب الأقـــصى ، والوســـائل الـــتي اعتمـــدتها في بسط سيطرتها على سكان البلاد.

لقد حصرت أدوات علمي في منـــهج فرضـــته طبيعـــة الموضـــوع ومـــصادره وَشـــدّدتُ علـــى أهميتـــها إذ أن كتـــب الفقـــه والنـــوازل مـــسّت عـــن قـــرب بوعي أو بغـــير وعـــي الارتبـــاط بـــين الفئـــات الاجتماعيـــة المكوِّنـــة للمجتمـــع الحـــضري والريفـــي في بـــلاد المغـــرب، وكتـــب الأدب الجغـــرافي، والـــشعبي التي رَكّزت في مجموعهـــا علـــى التجمعـــات الـــسكانية الـــتي تمـــر بهـــا المـــسالك الداخلية على المستوى الحضري أو الرّيفي.

وتأْسِيساً على ذلك كان عملي ينطلـــق مـــن كتُـــب الجغرافيـــة والـــرحلات والنوازل، مـــع حرصـــي الـــشّديد علـــى أن تكـــون مـــصادر التـــاريخ المـــصَاحِبة لها من ذات العصر أو قريبة منه.

وهكذا شكل البحـــث محاولـــة لدراســـة البنيـــة الاجتماعيـــة والاقتـــصادية للمجتمـــع المغـــربي في ظـــل صـــدر الدولـــة الموحديـــة. وفـــرض التقَـــصّي في المعـــالم الاقتـــصادية المرتبطـــة بالدولـــة والمتفاعلـــة مـــع التجـــارة. وخلـــصّت

إلى أن تطور الصناعة المعدنية والخشبية، والنسيجية كانت نتيجة السياسية التوسعية للدولة.

لم تقتصر الدراسة على تتبع العناصر المشكّلةَ للموضوع فَحسب، و لم تتقيّد بالاستعراض واستقصاء المعطيات التاريخية حولها فقط، بل امتدت أيضا لِفهم عُمق العلائق والتفاعلات الاجتماعية.

لقد كانت التحركات والهجرات السكانية القبلية من أهم الأسباب التي أدت إلى خلخلة التجمعات السّكانية القبلية، وتوفير ظروف الاندماج الاجتماعي للسكان على مستوى أقاليم بلاد المغرب.

لقد حاصرت صنهاجة الصحراء الكيانات السياسية الزّناتية وفرّقت شملهم ومّدت نفوذها إلى غرب المغرب الأوسط مُتّخذةً تلمسان قاعدة لها وحدّا فاصلا للتحركات السّكانية القبلية المتجهة من الشرق نحو الغرب بقيادة صنهاجة تلكاته (الشمال) التي نسجت علاقات حسن الجوار مع صنهاجة الصحراء.

لم تدم فترة الاستقرار السياسي، الذي فرضته دولة صنهاجة الصحراء، بسبب معارضة قبيلة مصمودة البربرية التي ثارت وحملت أعباء الحركة الإصلاحية الموحدية التي رافقتها تحركات قبائلية أفضت إلى تشكيل تجمعات سكانية أخرى في السّهول، والجبال، فقد اقتحمت مدينة مراكش سنة (541هـ / 1146م) والعاصمة الحمّادية بجاية سنة (547هـ / 1152م). وتحققت بذلك الوحدة السياحية الحقيقية التي ظلت مؤجّلة عدة قرون، و لم تكن باقي مكونات السّكان بعيدة عن ذلك بل كانت القبائل العربية المنتشرة بأقاليم بلاد حاضرة في هذا الحراك السياسي وتراوحت مَواقيفُها بين تقْديم الودّ والدّعم للموحدين، تارة وثائرين مؤيدين للحركات الخارجة عنها تارة أخرى، وكانت لتعدد

مواطن العرب في جميع أنحاء البلاد نتائج اجتماعية مسّت نظام القبيلة، والحلف، والجوار، واللّباس. والرحلّة. وتكوين كيانات سياسية.

قد رصدت الدّراسة أثر الأندلسيين في ميادين مختلفة خاصة على مستوى طبقة الخاصة التي قربتهم منها باعتبارهم ناقلين للحضارة التي بدأت تشهدها بعض المناطق الأوروبية خلال القرن (6هـ / 12م). خاصة على مستوى الصناعة والحرف، كما مست الدراسة الجوانب الحياتية التي ميزت باقي المكونات السّكانية من يهود ونصاري وأغزاز الترك.

لقد كانت فترة موضوع الدراسة تمثل امتدادا للفترة المرابطية، وقد أجابت الدراسة عن مبررات الإصلاح الذي جاءت به الدّولة الموحدية حسب ما صرّح به الإمام المهدي بن تومرت، فقد تجاوز الموحدون طبيعة نظام القبيلة منذ البداية، وقرّبوا عشائر وبطون صناهجة الجبل إليهم، وعلى مستوى المذاهب ربط الموحدون حركتهم بالعصمة والمهدية وتعاطفوا مع أفكار الإمام الغزالي الأمر الذي مكنهم من التقرب أكثر بعامة الناس.

وهناك أساس آخر اعتمده الموحدون كان سببا في نجاح دعوتهم، وتمثل في رفع المظالم والمغارم لذلك ناصر الحرفيون وصغار التّجار. وقبائل مصمودة دون شيوخها دعوة ابن تومرت وإذا كانت الطبقة الخاصة المتكوّنة أساسا من الخلفاء وأشياخ الموحدين والوزراء والعلماء... وأصحاب الثروة، تشكل هاجس الانقلابات والمؤامرات، فإن الموحدين جمعوا صفات عدة فئات من الخاصة في شخص واحد، فالخليفة هو العالم، وهو المتصوف والمنتسب إلى بيت آل النبي ﷺ، وبذلك قلّل الموحدون من نفوذ العلماء والمتصوفة وأهل الشرف.

وعليه فإن المجتمع الحضري المغربي خلال فترة الدراسة كان مُقسّما إلى ثلاث "طبقات" على أساس معيار الدّخل ومستوى

المعيشة. مع الإشارة إلى أن هناك اعتبارات أخرى لتقسيم المجتمع إلى طبقات على أساس الشّرف أو التصوف أو الجاه والسّلطان. أو العِلم أو الثروة،

وفقد صورّ بن سعيد حياة فئات الخاصة في الدولة الموحدية بقوله : "كانت قصور مراكش الموحدية مستقلة بالدّيار والبساتين والحمامات. حتّى أن صَاحب القصر لايغلق بابه على جميع أقاربه ولا يحتاج إلى شيء من خارج داره ولا يشتري شيئا من السوق لأكله ولا يُقرِّئ أولاده في مكتب خارج بيته ولا يخرج من بابه إلاّ راكبا". وعليه يمكن القول بأن الموحدين أخفقوا في تحقيق مطالب العامة. ونزعوا نحو التباين الاجتماعي.

لقد حرص خلفاء الدولة الموحدية على التّواصل الدّائم مع المجتمع المغربي من خلال المجالس الخليفية المتنوعة على مستوى العاصمة والأميرية على مستوى الأقاليم، لقد كان الخليفة يحضر المجالس السياسية والعلمية، والاقتصادية بمعيّة أكبر مساعديه في حين يُشرف الأمير على تلك المجالس في الأقاليم المحلية.، وإلى جانب هذه المجالس الخاصة هناك مجالس خليفية وأميرية عامة يحضرها الخليفة والوزراء، والكتّاب والعلماء، والمتصوفة الكبار وَقادة الجيش وشيوخ القبائل العربية والبربرية إلى جانب الشعراء والأطباء.

لقد حرص الموحدون على تنظيم وَتسيير هذه المجالس وفق ترتيب دقيق تحدد فيه أماكن المدعوين، وأدوار المتكلمين، وحتّى الألبسة المميِّزة لكل فئة، ومن خلال هذه المجالس يطّلع الخليفة على أحوال الرّعية، فيتعرف على النقائص ويأمر بإصلاحها، أو تغيير ما ظهر منه الفساد ومن خلال هذه المجالس كانت العطايا والهبات توزع على شيوخ القبائل، والشعراء وقادة الجيش، وباقي مكوّنات المجتمع.

ومن الوسائل التي جعلها الموحدون للتواصل مع المجتمع هي تنظيم المواكب والإشراف عليها والحضور إليها وهي أنواع منها ما هو خاص بالخليفة أو الأمراء على مستوى الأقاليم، وهذه المواكب تخص خروج الخليفة من القصر لتفقُّد مدينة داخلية أو خروجه للاحتفال بانتصار الجيوش الموحدية، أو لاستقبال الوفود الرسمية. وغيرها وكانت هذه المواكب تهدف إلى إبراز العظمة والهيبة من جهة، والإحترام والتقدير من جهة ثانية. وشكلت المواكب مظهرا حضاريًا في بلاد المغرب خلال فترة الدراسة فقد كان الموحدون يحضرون حتى مواكب جنائز كبار الفئات الخاصة. أمثال الفقهاء، وشيوخ المتصوفة، وأصحاب الثروة، وكبار أصحاب الصنائع وقد يكون حضورهم تحقيقا لعدة أهداف من بينها الأهداف السياسية.

والشأن نفسه بالنسبة للمواكب الخاصة بالاحتفالات كعيد الأضحى، وَعيد الفطر، ومن النتائج التي خَلصُت الدراسة إليها على مستوى الحياة العائلية الّتي لم تكن سوى إفرازاً للتّنظم السياسية والثقافية والاجتماعية، وانعكاسًا للّتفاوت في الثروات والنفوذ فعلى مستوى الزواج أشارت أمثال العامة إلى تكاليفه الباهضة، وأدى ذلك إلى تفشّي ظاهرة العزوف عن الزواج، ويستنتج أن النساء كنّ أكثر عددا من الرجال بسبب الحروب المستمرة التي خاضتها الدولة الموحدية، كما أن كثرة الجواري زادت من عزوف الأزواج.

ومن الظواهر الملفتة للانتباه، أن الزواج كان يجري أحيانا في إطار القُربى العائلية وكان الولي له اليد الطولي في تزويج ابنته دون أدنى استشارة، و ثمة ظاهرة ملفتة للانتباه وهي عقد الزواج على فتيات لم يبلغن بعد عمر الزواج، أما العبيد فكان رهيناً بسلطة السّيد على عبيده، ذكورا وإناثا.

أما عن العلاقات الزوجية، فإن الزوجين عاشا عوامل التّلاحم والانسجام إلى جانب أسباب التنّافر والتوتر، فمن الأمور التي كانت الزوجة تسعى إليها في كسب وَدّ زوجها هي مساعدته مَاديا عن طريق هبة أموالها إليه، غير أن مثل هذه الصّورة المشرقة لا يمكن أن تحجب ما عرفته الحياة الزّوجية من مشاكل أبرزت حدة النزاع بينهما في ثلاثة مظاهر إمّا الالتجاء إلى القضاء أو الضرب والجرح أو الهروب، أما الطلاق فكان آخر حل يملكه الزوجان.

وفيما يخص وضعية المرأة فهي مستمدة من وضعها داخل المجتمع ككل و لم يخرج رأي المجتمع من اعتبار المرأة ضعيفة غير قادرة على تحمل المسؤوليات إلاّ في حالات استثنائية. ومن الطبيعي أن تنعكس هذه النظرة الدّونية للمرأة على وضعيتها داخل الأسرة، فقد اعتبرت الإبنة البِكر تحت وصيّة الرّجل دائما سواء كان زوجًا أو أباً أو وصيًا أو حاضنًا.

وقد انحصر عمل المرأة داخل الوسط الشّعبي على الخصوص في القيام بالشؤون المنزلية مما جعل علاقتها بالرجل تتخذ طابع التّبعية والاستغلال والتسلط، بينما في الأوساط الحضرية فقد تجلى دورها في الاشتغال بصناعة النسيج وتربية دودة الحرير، وبعض نساء الطبقة الخاصة، تعلمن وتفقهن في الدين بِشكل ملفت للانتباه حيث كانت قارئة وكاتبة لها معرفة جيّدة بالفرائض، وبعضهن بالطلب وساهمن في بعض مجالس العلم مثل زينب بنت عبّاد بن سرحان (ت. 185/580م).

وهكذا خلصت الدراسة في هذا المبحث إلى أن دور الأب في توجيه أبناءه وبناته علميا للتفقه ونيل الوظائف العليا قد برز واضحًا في أوساط الخاصة.

وأسجل مرة أخرى أن الحياة العائلية تخللتها أيضا بعض نزاعات تمثلت أساسا في مشكل الإرث واستئثار الابن الأكبر بمعظم الامتيازات، وخرق حقوق الأيتام داخل الأسرة.

ومن نتائج التي توصلت إليها الدراسة في ميدان الحياة الاجتماعية العامة أن الفئات الميسورة توجهت بعد استقرار الأوضاع السياسية إلى ميادين البذخ والترف، وأمام هذه الوضعية كان لا بد للخلفاء الموحدين أن يختصوا بلباس يميزهم وأن عهد يعقوب المنصور الموحدي يعتبر بداية تحول الدولة في رُسومها وتقاليدها من البساطة إلى التعقيد، ويبدو جليّا أن البلاد وخاصة المراكز الحضرية الكبرى قد نهلت من تقاليد التّرف المتسرّبة عن طريق الأندلس وأفريقية والمشرق. الأمر الذي أهلها لتنفلت عن أي برنامج إصلاحي يهدف إلى مقاومة هذا التيار.

فقد تطورت أزياء الخاصة. فكان لباسهم الملف، والقبّاطيّ، والقُماش الإفريقي والألبسة السّفسارية، والغفّارة، وثياب الصّوف الرفيعة، وشاع استعمال ثياب الحرير الموشاة بخيوط الفَضّة والذهب وتفنن النّاس في اتخاذ الأزياء وتغييرها لتكون مناسبة للفصول والجديد في هذه الأزياء بالمقارنة مع العصر المرابطي، هو لباس الفرّاء الّذي كان يصنع من جلود بعض الحيوانات وخاصة الفنك.

ومن المظاهر الثقافية التي وَاكبت الاستقرار السّياسي خلال العهد الموحدي، نوعية الأطعمة فقد حدثت نقلة نوعية في هذا المجال فبعد أن كان الموحدون في بداية عهدهم يقتصرون على بساطة الغذاء، تراهم قد تأثّروا بتطور أحوال الدّولة، أصبحت موائدُهم تزخر بأنواع من الأطباق مثل طعام البَلاجة الّذي يُصنع من أكباد الغنم والبقر، وطعام التّفايا الذي يُحضّر من لحم الظأن الغني السّمين، وزاد استهلاك الفستق

والأرز، وفراخ الحمام المخلوط بالباذنجان وأطعمة الخاصة كثيرة ومتنوعة تصنع في معظمها باللّحم والدّجاج والأمخاخ.

وتبعا لذلك وصلتنا قائمة طويلة للأشربة المرافقة لتناول الطعام بغرض تسهيل الهضم من بينها شراب العود الغماري الّذي يُقّوي الأعضاء الباطنية ويلين البطن وشراب العسل الذي ينفع في سائر أعضاء الهضم، كما كانت هناك العديد من المعاجين تصّحب مائدة الطعام أذكر منها معجون التّفاح، ومعجون اللّوز وغيرها.

أما على المستوى الاقتصادي فإن الدراسة أبانت أثر امتداد نفوذ الموحدين إلى المغرب الأوسط وإفريقية. فقد جعلهم في مواجهة مع العصبيّة الصّنهاجية بالمنطقة، وبعض الزعامات المحلية. وعلى الخصوص أصحاب السّيادة الحقيقية سابقا في بوادي المنطقة وهم قبائل العرب فقد كانوا عنصرا مدعّما للزعامات السياسية مثل بني الرّند بقفصة، والأغزاز بالترك. فيما بين الجريد وطرابلس ثم بني غانية.

لقد انعكس هذا الوضع على الإنتاج الزراعي والصناعي و لم يعد يكفي حاجات الناس في تلك الجهات، والسّبب في ذلك لا ينحصر فقط في مجال نقص الأمن الذي ظهر نتيجة الحروب وإنما يعود إلى هجرة أصحاب رؤوس الأموال، وذوي المهارات الفنية، لأن الجهة الغربية من بلاد المغرب قد استهوتهم لقربها من مركز السّلطة الأمر الذي أهلها لأن تكون مركز استقطاب اقتصادي طوال القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي.

فقد كثر سكانها وتطور عمرانها وغزر الإنتاج الزراعي والصّناعي بها، فقد توسعت الزراعة لتشمل السّهول، والجبال ، فكثر إنتاج الحبوب، وقصب السكر والقطن لدرجة أن محاصيله أصبحت يتجهز بها إلى مناطق المغرب الداخلية وانعكس ذلك على مستوى

معيشة السكان ونشطت اليد العاملة المتخصصة في البستنة والحراسة، والحصاد والدرس، وظهر الاستغلال المباشر رغم دخول الدولة الموحدية كشريك للفلاحين في أملاكهم.

وهناك أمر تجدر الإشارة إليه وهو الإصلاح الضريبي والعقّاري الذي زاد من تيهئة الأراضي والتوجه نحو المساحات الزراعية المسقية انطلاقا من إقامة الحواجز المائية والسدود الصغيرة .

وتكملة لتطوير القطاع الفلاحي عمد الموحدون إلى تنظيم المجال الرّعوي حيث أوقفوا الزحف الصنهاجي الصّحراوي والشّمالي، وغَلّقُوا الممرات الجبلية في وجوههم. وبذلك عادت القبائل الصحراوية التي عجزت عن التكيف مع المجالات الجغرافية الشّمالية. إلى مناطقها الأصلية. وبذلك تراجع الترحال وانكمش مجال الرعي من جديد.

أما الجهة الشرقية حيث تسيطر القبائل العربية الهلالية. وينتشر الأغزاز الترك وبنو غانية فقد تأخر الاستقرار بها. الأمر الذي جعل الرعي التلقائي (دون الراعي) يتوسّع لشمل المناطق الجافة وشبه الجافة. ونتج عن ذلك أسلوب تربية المواشي في الحضائر والبيوت، وتوسع الملاّكون للماشية في استعمال العلف خَاصّة في المدن وَضواحيها. الأمر الذي قد ساهم في تقريب الريف من المدينة مدعّما من طرف الفئات الاجتماعية الخاصّة التي يملك بعض أفرادها أراضي وقطعان الماشية بالشراكة مع أهل الريف كمّا فَضّل الخاصة من الصّوفية الإقامة في الريف لاعتقادهم بأنّه أنسب وأقرب إلى الصفاء والنقاء الروحي.

أما فيما يخص المجال الصناعي والحرفي. فقد أوضحت الدراسة نهضة صناعية كبيرة نتيجة الوعي الحضاري الذي انتشر في المدن وخاصة الكبرى بفضل سياسة الدولة الموحدية التي عملت على نشره عن طريق الانفتاح على الخارج. فقد توسعت صناعة الإنتاج

الزراعي، وازدهرت الصّناعات المعدنية وانتشرت حرفة البناء لتواكب توسع العمران. ورافق ذلك تطور الصّناعة الخشبية لحاجة الدّولة إليها في ميدان صناعة السّفن الحربية أو المراكب التجارية. وتوجه السكان خاصة أهل الحضر إلى صناعة أبواب ونوافذ سُكانهم. وقصورهم، وجوامعهم من الخشب.

وكما أثبتت الدراسة تمركز الإنتاج الزراعي في الجهة الغربية. أوضحت أيضا نفس التوجه في ميدان الصناعة والحرف للأسباب السياسية السالفة الذكر.

الأمر الذي جعلني أؤكد أن إزدهار اقتصاد الجهة الغربية كان له أثر كبير على ازدهار الحياة الاقتصادية إذ كانت المصدر الرئيسي لتلبية حاجات السكان من الإنتاج الزراعي والصناعي. ولا أعني بذلك توقفه على مستوى الجهة الشرقية، بل أوضحت أن بعض المدن والسهول، حافظت على منتوجها. وزادت في البعض الآخر كالمنتوج الحيواني مثل السّمن، والزّبادي، واللحوم والجلود، والأصواف، وذلك تعويضا لما تضرر من الإنتاج النّباتي خاصة القمح والشعير والحنطة.

أما فيما يخص النشاط التجاري فقد عرفت الجهة الغربية لبلاد المغرب عودة ثانية لأهل البلاد الذين هاجروها خلال القرن الخامس الهجري. الحادي عشر الميلادي بعدما استتب حكم الموحدين، وترتب عن هذه العودة ارتفاع عدد السكان، ووفرة الإنتاج الزراعي والصناعي وازدهار التجارة فقد تفردت الجهة بظهور مدن جديدة مثل مراكش والرباط، وتادلا وَتازا، هذا زيادة على إنعاش الحركة في المراسي الكثيرة الممتدة على طول الساحلي المتوسطي . والأطلسي الأمر الذي انعكس سلبا على منطقة تافليلت ودرعة حيث فقدتا ظهيرهما التّجاري مع

تحول التجارة إلى الساحل لدواعي أمنية، فقد تَوَضّحت مَسالك جديدة وعَادت مسالك قديمة إلى نشاطها.

لقد عادت الطريق الرّابطة بين بجاية والإسكندرية، وأخذت الطريق الجنوبية مسلكها النهائي عبر المسيلة وَطبنه ثم بسكرة، وكذلك الطريق التي تربط بجاية بمراكش وسجلماسة، وكذلك مسالك فرعية، و لم يعد هاجس الخوف مسيطرا على تجارة القوافل التجارية وعلى ذلك ارتبطت المدن الشرقية مثل تونس، وبونة وبجاية وقسنطينة بمداخل صحراوية رئيسية عبر المحاور الكبرى وهي غدامس، ووارجلان، وسجلماسة، وأغمات فتدعمت بالسّلع الصحراوية

مما أدّى إلى انتعاش تجاري واضح ساهمت فيه المسالك التجارية الداخلية الرابطة بين الصحراء ومراسي البحر المتوسط، حيث كثر تجار بلاد السودان في موانئ المدن الساحلية بقصد تلبية طلبات الأوربيين المتزايدة وقد تبيّن أن بعض المدن الساحلية كسبتة، وبجاية كانتا تتمتعان بأسطول تجاري مختص بالتجارة الساحلية غير أن هؤلاء التجار لم يكونوا ينظمون رحالات نحو أوروبّا على سفنهم إلاّ بصفة استثنائية. فقد كانوا يرسلون بضائعهم إلى هناك على سفن أوروبية وأنّهم لم يُقيموا في أوروبّا هياكل شبيهة بالفنادق والقناصل عكس التجار الأوروبيين الذين هيأت لهم دولهم فنادق ونصّبت لهم قَناصل دائمين، ومن انعكاسات ازدهار التجارة في بلاد المغرب ، تزايد نشاط دُور ضرب السكة في الحواضر الكبرى وتطوّر ملموس في مجال التعامل النّقدي. ومع ذلك فقد عرفت مسألة التداول النقدي مشاكل تسببت في عرقلة إجراء المعاملات التجارية أذكر منها تباين الوحدات والأوزان وتزوير السكة ثم كتر النقود الذي عادة ما يرافق الأزمات السياسية، إن هذه المظاهر الثلاثة المذكورة تعتبر من بين أهم المشاكل التي عانت

منها حركة المبادلات التجارية خلال عهد الموحدين، وأُضيفُ عاملا آخر اقتصر على عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي تجسّد في تَعَذّر الصّرف.

وإذا كان الإنتاج الزراعي هو الأساس لاقتصاد المجالين الأطلسي والمتوسطي فإنّ الصناعة الحرفية والمبادلات التجارية قد شكلت القاعدة الأساسية لاقتصاديات الحواضر المغربية، وظهر بشكل واضح أنّ اقتصاد الصّحراء كان يعتمد على النشاط التجاري.

وإذا كانت الزراعة قد أدّت إلى تَعْمير المدن وتعّدد المراكز وتنوع وظائفها تبعا لذلك فإن النشاط التجاري قد أدى إلى تمركز التعمير وتقلص عدد المدن والمراكز وانحصارها في بعض الأقطاب مما أثر بشكل كبير على حياة الاستقرار. ذلك لأنه ارتبط بنمط تعمير المدن التجارية العسكرية.

إن التحكم القوي في التجارة من طرف السلطة الموحدية قد جعل العلاقة بينها وبين التجار تتسم بنوع من التناقض، إذ يكون التاجر مدعّما للسلطة وناصرا لها أو ثائرا ضدها في فترات متقاربة بل متداخلة.

ومن النقاط التي أبرزتها الدراسة في هذا الفصل أن التجار رغم قوّتهم وتضامنهم فيما بينهم بقوا عاجزين عن تشكيل هيئة في هياكل السّلطة الموحدية ولعلّ السبب يعود إلى مستوى تحضر أفراد هذه الفئة إذ غالبا ما كانوا ينحدرون من نظام القبيلة المنحاز نحو الانغلاق على الذّات

هذه بعض الخلاصات التي توصلت إليها، و قد بينتْ لنا إمكانية الكشف عن كثير من الأحداث والوسائل المتحكمة فيها، واتضح لنا المسار العام لتطور المنطقة خلال الفترة المدروسة، وبرزت لي بعض المعالم التاريخية المتسربة من ذلك المجهول في مظانّ خباياها، الأمر الذي يدفع إلى المزيد من البحث والتنقيب، لأن كثيّرا من الأسئلة بقيت عالقة تستدعي فتح أبواب جديدة يمكن بحثها لاستكمال الدراسة.

الملاحق

- الجداول
- الخرائط

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الجداول

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المكان	المواد	التقدير الكمي	المصادر
السوس الأدنى	القمح	كثير	إبن الفقيه ضمن (صفة المغرب وأوروبا إلى ق3هـ /9م) النص والترجمة للأجزاء المتعلقة بالمغرب وأوروبا من مؤلفات ابن خرذادبة وابن رسته: حاج صادق الجزائر 1949م، ص40.
البصرة	" "	كثير	إبن حوقل، صورة الأرض، ليدن 1938م، ص8. الإدريسي، نزهة المشتاق، طبعة نابولي، ج5، ص531.
قفصة	" "	كثير	إبن حوقل، صورة الأرض، ص 88.
دكالة	" "	كثير يصدر	التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق فور الرباط 1958م، ص127.البيدق، أخبار المهدي وبداية دولة الموحدين، الرباط 1971م، ص 63.
تادلا	" "	–	التادلي، التشوف، ص 255.
جبل أوراس	" "	–	إبن أبي زرع، روض القرطاس، الرباط 1972م، ص 167. التادلي، التشوف، ص 248.اليعقوبي، معجم البلدان، ص346.
أغمات	" "	–	إبن عذاري، البيان المغرب، ج3، طبعة بيروت 1948م، ص312. إبن الخطيب نفاضة الجراب، تحقيق أحمد المختار العبادي وعبد العزيز الأهواني، القاهرة، ص 54.
مراكش	" "	–	إبن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص315.الحميري، الروض المعطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت 1957م، ص 540.
قلعة بني حماد	" "	–	الحميري، الروض، ص 558.الإدريسي، نزهة المشتاق، ج9، ص 247.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المكان	المواد	التقدير الكمي	المصادر
قسنطينة	القمح	-	الحميري، الروض، ص480. نفس المصدر، ج5، ص531.
فاس والناحية	" "	كثير	إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص 50. ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ص 305.
جربة	" "	كثير	مجهول، الاستبصار، نشر سعد زغلول عبد الحميد ،لاسكندرية 1958م، ص ص 201-209. إبن حوقل، صورة الأرض، ص 99.
طرابلس	" "	-	الحسن الوزان، وصف افريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الرباط 1980م، ج1، ص 132.
مراكش	" "	يصدر	الإدريسي، نزهة المشتاق، ج3، ص 241. التادلي، التشوف، ص 162.
أزمور	" "	كثير يصدر	ابن الخطيب، معيار الاختيار، نشر محمد كمال شبانة المحمدية 1976م، ص 157. الحسن الوزان، وصف افريقيا، ج1، ص 124.
تامسنا	" "	-	المصدر الأخير، ص99.
نول لمطة	" "	كثير	نفس المصدر، ص 125.
تاهرت	" "	كثير	نفس المصدر، ص 121.
جبل مطغرة	" "	-	نفس المصدر، 277.
جبل أوراس	" "	قليل	نفس الالمصدر، ص 277.
السوس الأدنى	" "	-	الحسن الوزان، وصف افريقيا، ج1، ص 91.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المكان	المواد	التقدير الكمي	المصادر
البصرة	القمح	–	إبن حوقل، صورة الأرض، ص99. مجهول، الاستبصار، ص 189.
بونة	" "	–	ابن حوقل، نفس المصدر، ص87.
مراكش	" "	كثير	ياقوت الحموي معجم البلدان، ج2، ص305. الحسن الوزان، وصف افريقيا، ج1، ص 97.
فاس والناحية	" "	كثيرة	إبن أبي زرع، روض القرطاس، ص35. الإدريسي، نزهة المشتاق، ج3، ص243.
حاحا	" "	كثيرة	الحسن الوزان، وصف افريقيا، ج1، ص75.
ندرومة	" "	–	الحسن الوزان، وصق افريقيا، ج1، ص 132.
سجلماسة	يردن تزارن	كثير	الإدريسي، نزهة المشتاق، ج3، ص226. الحميري، الروض المعطار، ص306. العمري، مسالك الأبصار، ص298.
رجراجة	الدرمك		التادلي، التشوف، ص354.
مراكش	الحواري	كثير	ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ج1، طبعة الأكاديمية الملكية، الرباط 1984م، ص 240.
سجلماسة	الدخن	–	اليعقوبي، كتاب البلدان، الطبعة الثالثة، النجف، العراق 1957م، ص 110. الحميري، الروض المعطار، ص 306.
تبسة	الذرة	–	اليعقوبي، كتاب البلدان، ص 110. الحميري، الروض المعطار، ص 306.
حاحا	الدخن	–	الوزان، وصف افريقيا، ج1، ص75.
جبل بني راشد	" "	–	نفس المصدر، ص 279.
بجاية	" "	–	نفس المصدر، ص 138.

المكان	المواد	التقدير الكمي	المصادر
قصر عبد الكريم	الدخن	–	نفس المصدر، ج2، ص 12.
حاحا	الذرة	–	نفس المصدر، ج1، ص 75.
أهل غمارة	" "	–	إبن خلدون، المقدمة، ص 225.
ايجلي	امزكور	–	البيدق، أخبار المهدي، ص48.
السوس الأدنى	الأرز	–	الحميري، الروض المعطار، ص 330.
نارودانت	" "	كثير جدا	لإدريسي، نزهة المشتاق، ج3، ص 227.
تونس	" "	–	لعمري، مسالك الأبصار، ص 298.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المكان	المواد	التقدير الكمي	المصادر
المغرب	اللحوم	رخيصة	إبن حوقل، صورة الأرض، ص 98. ابن خلدون في المقدمة، ص 87.
سجلماسة	لحم الكلاب الذئاب	-	مجهول، الاستبصار، 201. الحميري، الروض، ص 306.أبو الفداء، تقويم البلدان، ص 134.
أغمات لمتونة	" " " " " "	كثيرة كثيرة	البكري، المغرب، ص153. التادلي، التشوف، ص11. نفس المصدر، ص 166.
جبل ايروجان	لحم الغنم	-	التادلي، التشوف، ص 197.
جبل فازازا	اللحوم	-	الحميري، الروض المعطار، ص 435.
بونة	لحم البقر	-	الحميري، الروض المعطار، ص 115.
صحراء المغرب	" " "	-	إبن خلدون، المقدمة، ص 87.
يت داود	لحوم الماعز	-	الوزان، وصف افريقيا، ج1، ص 83.
رجراجة	لحم الغنم	-	التادلي، التشوف، ص 355.
جبل سعيدة	لحم الماعز	-	الوزان، وصف افريقيا، ج1، ص 110.

المكان	المواد	التقدير الكمي	المصادر
جبل شيشاوة	لحم الماعز	–	نفس المصدر، ص 100.
جبل بني جنفن	" " "	–	نفس المصدر، ص 264.
تاهرت	لحوم الغنم	–	الحميري، روض المعطار، ص 129.
درعة	لحوم الماعز	–	نفس المصدر، ص 120.
دلس	لحوم البقر	كثير	الحميري، الروض، ص 132.
فاس فاس	اللحوم لحم الغنم	كثيرة كثيرة	الإدريسي، نزهة المشتاق، ج2، ص 114. التادلي، التشوف، ص 79.
تلمسان	لحم الغنم	لحومها شحمية	الحميري، الروض، ص 135.
تكوراين	اللحم المملح	كثير الاستهلاك	الوزان، وصف افريقيا، ج1، ص 133.
جبل ايروجان	لحم الدجاج	–	التادلي، التشوف، ص 197.
جبل هنتانة	" " "	–	ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ص 43.
جبل سعيدة	" " "	–	الإدريسي، وصف افريقيا، المغرب، ص 56.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المكان	المواد	التقدير الكمي	المصادر
افكان	لحم الغنم	–	الاصطخري، مسالك الممالك، نشردي خويا ليـــدن 1927م، ص 54.
سهول قسنطينة	لحم الغنم	كثير	الحميري، المعطار، ص 139.
تبسة	" "	–	الحميري، الروض، ص 149.
سبتة	السمن	–	الإدريسي، نزهة المشتاق، ج3، ص 248.
تنس	لحم البقر	كثير	الحميري، المعطار، ص 138.
نول لمطة	السمن	–	الحميري، الروض المعطار، ص 584.
مكناسة	" "	–	الوزان، وصف افريقيا، ج1، ص 170.
تادلا	" "	–	الإدريسي، نزهة المشتاق، ج3، ص 241. التادلي، التشوف، ص ص 114-95.
جبل أوراس	" "	كثير	الوزان، وصف افريقيا، ج1، ص 287.
جبل بني راشد	الزبدة	–	نفس المصدر، ص 111.
تادلا	" "	–	التادلي، التشوف، ص 113.
البصرة	ألبان	غزيرة	البكري، المغرب، ص 110. مجهول، الاستبصار، ص 189.
فاس	" "	–	الوزان، وصف افريقيا، ج1، ص 183.
ضواحي فاس	" "	–	البكري، التشوف، ص 80.

المكان	المواد	التقدير الكمي	المصادر
تكور	ألبان	غزيرة	مجهول، الاستبصار، ص 76.
زويلة	لحوم البقر والغنم	غزيرة	الإدريسي، نزهة المشتاق، ج3، ص 248.
هكسورة	" " "	–	التادلي، التشوف، ص 372.
نول لمطة	" " "	–	الحميري، الروض المعطار، ص 584.
صحراء الجريد	" " "	غزيرة	إبن خلدون، المقدمة، ص 87.
بني يوسف	لبن الماعز	–	الوزان، وصف افريقيا، ج1، ص 257.
تارودانت	الصوف	–	الإدريسي، نزهة المشتاق، ج3، ص 227.
يرارة	" " "	جيدة	البكري، المغرب، ص 147.
هسكورة	" " "	كثيرة جدا	الوزان، وصف افريقيا، ج1، ص 133.
وجدة	" " "	جيدة جدا	مجهول، الاستبصار، ص ص 177-252. الحميري، الروض المعطار، ص 607.
مكناسة	" " "	–	الوزان، وصف افريقيا، ج1، ص 170.
سطيف	" " "	جيدة	نفس المصدر، ص 96.
صفاقس	" " "	جيدة	نفس المصدر، ص 281.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المكان	المواد	التقدير الكمي	المصادر
بونة	العنب	65 رهط ونوع	محمد بلقاسم السبتي، اختصار الأخبار، ص 92. إبن حوقل، صورة الأرض، ص 79. الإدريسي، نزهة المشتاق، ج5، ص 529.
مراكش	" "	كثير	الحمري، الروض المعطار، ص 145.
جبال غمارة	" "	-	مجهول، الاستبصار، ص 100.
تازا	" "	-	نفس المصدر، ص 186. الوزان، وصف افريقيا، ج1، ث 276 ة.
جبل أوراس	" "	كثير	نفس المصدر، ص 211.
سوس الأقصى	" "	-	الحميري، الروض المعطار، ص 330.
سجلماسة	" "	-	البكري، المغرب، ص 148. المقدسي، أحسن التقاسم نشردي خويا طبعة ليدن 1957م، ص 231.
تارودانت	العنب العذاري	-	الإدريسي، نزهة المشتاق، ج3، ص 277. مجهول، الاستبصار، ص 211.
باجة	العنب	-	مجهول، الاستبصار، ص 210. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص 338.
مكناسة	" "	كثيرة	الإدريسي، نزهة المشتاق، ج3، ص 245. مجهول، الاستبصار، ص 137. ياقوت، معجم البلدان، ج2. بن منصور، الرباط 1964م، ص 21. الوزان، وصف افريقيا، ج1، ص 169.

المكان	المواد	التقدير الكمي	المصادر
جزائر بني مزغنة	" "	كثير	التادلي، التشوف، ص ص 112-415.
دلس	" "	كثير	الحسن الوزان، وصف افريقيا، ج1، ص 92.
جبل بني راشد	" "	-	نفس المصدر، ص 172.
وهران	" "	-	نفس المصدر، ج2، ص 129.
جبل زرهون	" "	-	نفس المصدر، ج2، ص 248.
جبل الأوراس	" "	-	نفس المصدر، ج1، ص 258.
مكناسة	العنب الأسود	-	نفس المصدر، ص 261.
جبل لوكاي	العنب	يزود فاس	نفس المصدر، ص 261.
جبل بني غمارة	" "	-	نفس المصدر، ص 262.
بجاية	العنب	65 نوع	محمد بلقاسم السبتي، اختصار الأخبار، ص 92.
طنجة	" "	-	إبن حوقل، صورة الأرض، ص 79. الإدريسي، المشتاق، ج5، ص 529.
تيطوان	" "	كثير	الحميري، الروض المعطار، ص 145.
جبال غمارة	العنب	-	مجهول، الاستبصار، ص 100.

المكان	المواد	التقدير الكمي	المصادر
تازا	" "	–	نفس المصدر، ص 186.الوزان، وصف افريقيا، ج1، ص 276.
جبل درن	" "	كثير	نفس المصدر، ص 211.
سوس	" "	–	إبن حوقل، صورة الأرض، ص 91. الحميري، الروض المعطار، ص 329.
السوس الأقصى	" "	–	الحميري، الروض المعطار، ص 330.
سجلماسة	" "	–	البكري، ص 148. المقدسي، احسن التقاسم، نشر خويا، طبعة ليدن 1957م، ص 231.
تارودانت	العنب العذاري	–	الإدريسي، نزهة المشتاق، ج3، ص 277. مجهول، الاستبصار.
مراكش	العنب	–	مجهول، الاستبصار، ص 210. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص 338.
مكناسة	" "	كثيرة	الإدريسي، نزهة المشتاق، ج3، ص 245. مجهول، الاستبصار، ص 187. ياقوت، معجم البلدان، ج 2، ص 133، ابن غازي، الروض الهتون، نشر عبد الوهاب بن منصور، الرباط 1964م، ص 21. الوزان، وصف افريقيا، ج1، ص 169.
تادلة	" "	كثير	التادلي، التشوف، ص ص 112-415.
تييوت	" "	–	الحسن الوزان، وصف افريقيا، ج1، ص 92.
جبل بني راشد	" "	–	نفس المصدر، ص 279.

المكان	المواد	التقدير الكمي	المصادر
فاس فاس	الجزر اللفت	كثير كثير	الوزان، وصف افريقيا، ج3، ص ص 183-185. العمري، مسالك، الأبصار، ص 299. نفس المصدر، ج1، ص ص 183-185.
تونس	" "	–	إبن رزين فضالة، الخوان في طيات الطعام والألوان، تحقيق بن شقرون، الرباط، ص ص 148-65.
فاس،	الفول	رخيس	نفس المصدر والصفحات.
تلمسان	" "	–	إبن رزين فضالة، الخوان، ص 13.
فاس	الكرنب	رخيس	نفس المصدر، ص 185.
مراكش	" "	–	التادلي، التشوف، ص 233.
قسنطينة	" "	–	إبن رزين فضالة، الخوان، ص ص 10-66.
زراغة	" "	–	الوزان، وصف افريقيا، ج1، ص 218.
بونة جبل	" "	–	العمري، مسالك الأبصار، ص 299.
سعيدة	البصل	–	نفس المصدر، ص 110.
تغسة	" "	–	نفس المصدر، ص 225.
بني يوسف	" "	كثير	نفس المصدر، ص 257.
جبل غمارة	" "	–	نفس المصدر، ص 260.

المكان	المواد	التقدير الكمي	المصادر
جبل سعيدة	الثوم	-	نفس المصدر، ص 110.
رجراجة	البسباس	-	التادلي، التشوف، ص 355.
مراكش	البادنجان	-	نفس المصدر، ص 97.
متيجة	" "	-	إبن رزين فضالة، الخوان، ص 11.
زواغة	القرع	-	الوزان، وصف افريقيا، ج1، ص 218.
مراكش	البقلاء	-	التادلي، التشوف، ص 362.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المكان	المواد	التقدير الكمي	المصادر
البصرة	القطن	–	إبن حوقل، صورة الأرض، ص 80. الإدريسي، نزهة المشتاق، ج5، ص 531. العمري، مسالك الأبصار 36.
المسيلة	" "	–	مجهول، الاستبصار، ص 171.
لبدة	الزيتون	–	الحميري، الروض، الروض المعطار، ص 508.
الرباط	" "	–	إبن الخطيب، معيار الاختيار، ص 152.
داي	" "	كثير	الإدريسي، نزهة المشتاق، ج3، ص 241. الحميري الروض المعطار، ص 231. الإدريسي، نزهة المشتاق، ج3، ص 226.
سجلماسة	" "	–	الحميري، الروض المعطار، ص 306. العمري، مسالك الأبصار، ص 127.
تادلا	" "	كثير	الإدريسي، نزهة المشتاق، ج3، ص 241. التادلي، التشوف، ص 165.
سـلا	" "	كثير	ابن الخطيب، معيار الاختيار، ص ص 150-152. الوزان، وصف افريقيا، ج1، ص 186.
البصرة	الكتان	كثير	مجهول، الاستبصار، ص 189.
رباط الفتح	" "	–	إبن الخطيب، معيار الاختيار، ص 152.
سـلا الجمعة	" "	–	إبن الخطيب، نفاضة الجراب، ص 327.
الجديدة	" "	كثير	الوزان، وصف افريقيا، ج1، ص 99.

المكان	المواد	التقدير الكمي	المصادر
جبل مطغرة	" "	–	نفس المصدر، ص 277.
جبل نفوسة	" "	كثير	الوزان، وصف افريقيا، ج1، ص 277.
جبل بني راشد	البلوط والزيتون	–	نفس المصدر، ص 278.
جبل إزكان	" "	–	نفس المصدر، ص 280.
صفرو	" "	–	نفس المصدر، ص 250.
جبل إنجرة	" "	–	نفس المصدر، ص 250.
الجريد	التّمر	–	نفس المصدر، ص 252.
بني وزروال	" "	–	نفس المصدر، ص 262.
بني ورياغل	" "	–	نفس المصدر، ص 263.
سوس	القنب	–	إبن حوقل، صورة الأرض، ص 91.
الجمعة الجديدة	" "	–	الوزان، وصف افريقيا، ج1، ص 99.
جبل ازكان	" "	كثيرة	نفس المصدر، ص 280.
صفرو	" "	–	نفس المصدر، ص 280.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المكان	المواد	التقدير الكمي	المصادر
جبل مزدغة	" "	تصدر	الإدريسي، نزهة المشتاق، ج3، ص 226.
سوسة سجلماسة	الجناء " "	- تصدر	الحميري، الروض المعطار، ص 330. الإدريسي، نزهة المشتاق، ج3، ص 226. الحميري، الروض المعطار، ص 306.
تادلا	" "	تصدر	إبن القطان، نظم الجمان، ص 241.
مدينة	" "		الإدريسي، ج3، ص 226.
درعة			ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص177.
ڤفصة	" "	كثير تصدر	البكري، ص 152. ابو الفدا، تقويم البلد، ص 134. العمري، مسالك الأبصار، ص 127.
سجلماسة	النيلج	-	الإدريسي، نزهة المشتاق، ج3، ص 226. العمري، مسالك الأبصار، ص 127.
افريقية	الحرير	-	الوزان، وصف افريقية، ج1، ص 95. الإدريسي، نزهة المشتاق، ج3، ص 226.
سجلماسة	الكروياء	-	الحميري، الروض المعطار، ص 306. العمري، مسالك الأبصار، ص127. الإدريسي، نزهة المشتاق، ج3، ص 226.
تيفاش	الزيتون	-	ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص 177. البكري، ص 152. العمري، مسالك الابصار، ص 127.

المكان	المواد	التقدير الكمي	المصادر
وادي مجردة	الكَرْوية	كثير يصدر	البكري، المغرب، ص 152.
سجلماسة	الكمون	–	التادلي، ص 242. الحميري، الروض المعطار، ص 306.
مدينة درعة	" "	–	الإدريسي، نزهة المشتاق، ج3، ص 226. ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص 177.
وادي درعة	" "	–	البكري، المغرب، ص 152. العمري، مسالك الأبصار، ص 127.
بادية زواغة	شجرة التوت دود الحرير	–	الوزان، وصف افريقيا، ج1، ص 171.
جبل ازكان	" "		الوزان، وصف افريقيا، ج1، ص 280.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الخرائط

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

خريطة رقم 01:


إنتشار القبائل البربرية في بلاد المغرب
خلال القرن السادس الهجري-الثاني عشر الميلادي
البحر الرومي
المدن المغربية
القبائل البربرية
القبائل العربية
Gautier le passe de l'Afrique PP 232 - 248

خريطة رقم 02:

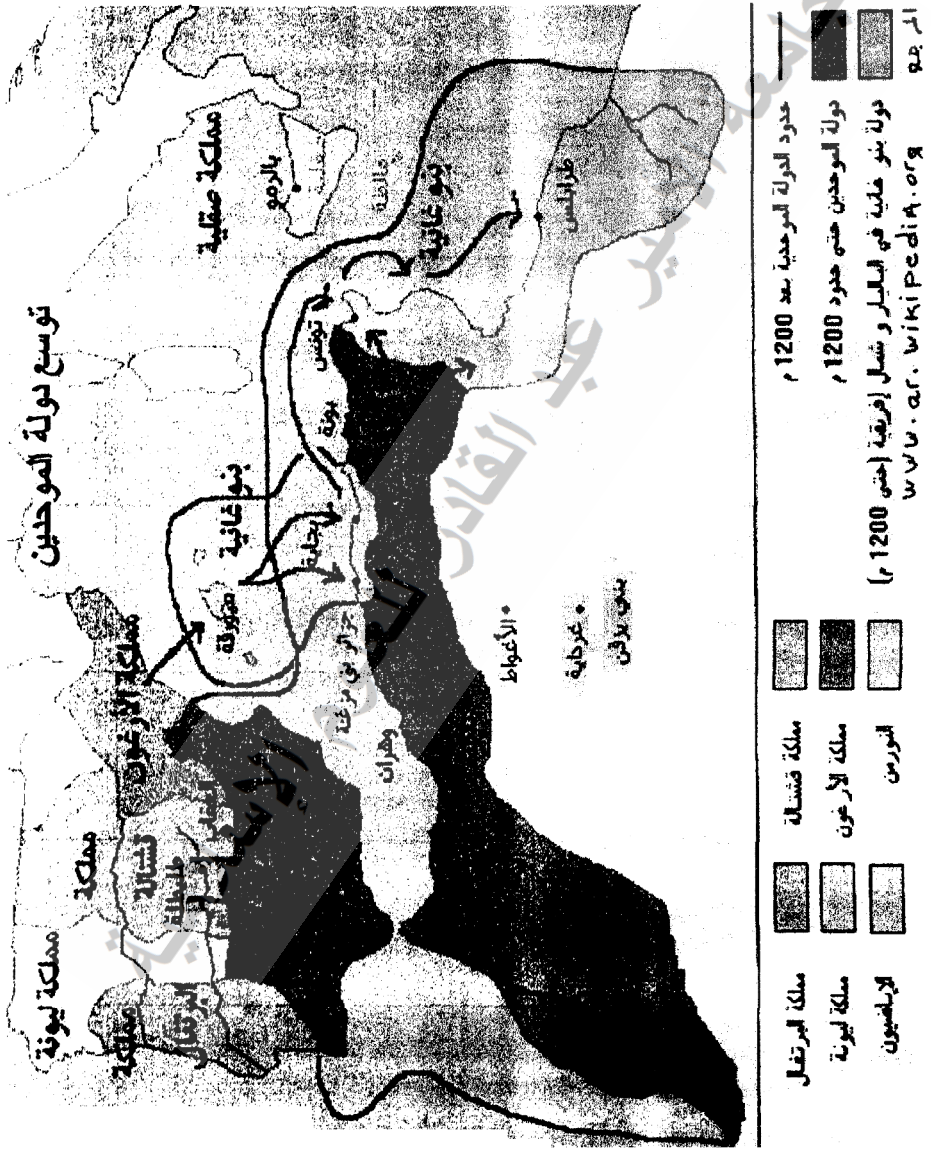
توسع دولة الموحدين
مملكة صقلية
بالرمو
مالطة
بنو غانية
طرابلس
تونس
بونة
بجاية
مدورقة
جزائر بني مزغنة
وهران
الأغواط
غرداية
بني يزقن
مملكة الأرغون
مملكة
قشتالة
طليطلة
مملكة ليونة
مملكة البرتغال
حدود الدولة الموحدية بعد 1200 م
دولة الموحدين حتى حدود 1200 م
دولة بنو غانية في الباليار و شمال إفريقية (حتى 1200 م)
www.ar.wikipedia.org
المرجع
مملكة قشتالة
مملكة الأرغون
النورمن
مملكة البرتغال
مملكة ليونة
الإباضيون

خريطة رقم 03:

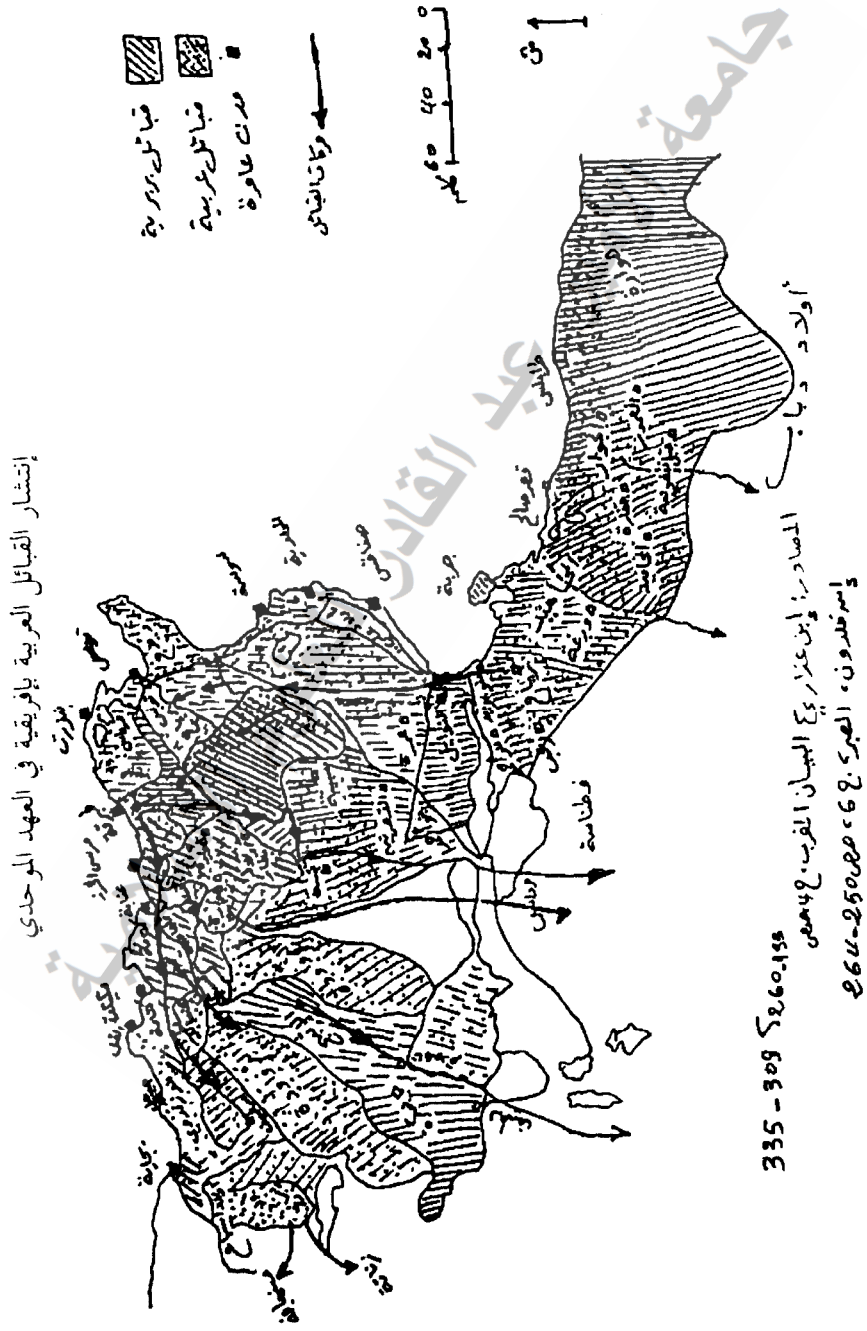

جامعة عبد القادر

خريطة رقم 04:


توزيع القبائل العربية خلال القرن السادس الهجري
قبائل بني سليم
قبائل مرياح
قبائل الإثبج
قبائل زغبة
قبائل معقل
- ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن)
- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر
- المقدمة ص 41 - 43 ج 6 ص 240 ج 6
- Marçais (G), les Arabes en Berberie du Xiem au XI siècle, PP 426-446 و 118-129

خريطة رقم 05:

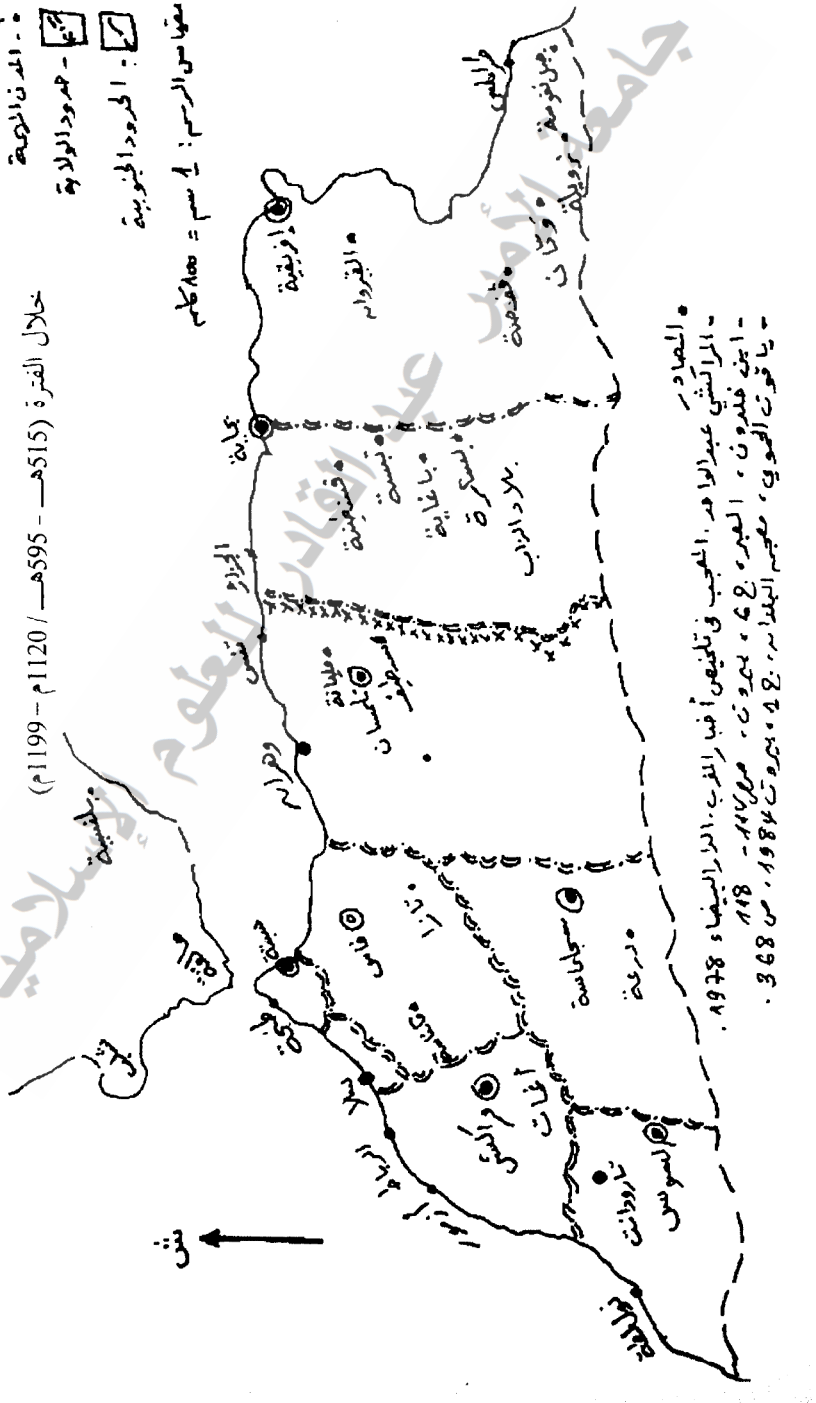

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

خريطة رقم 06:

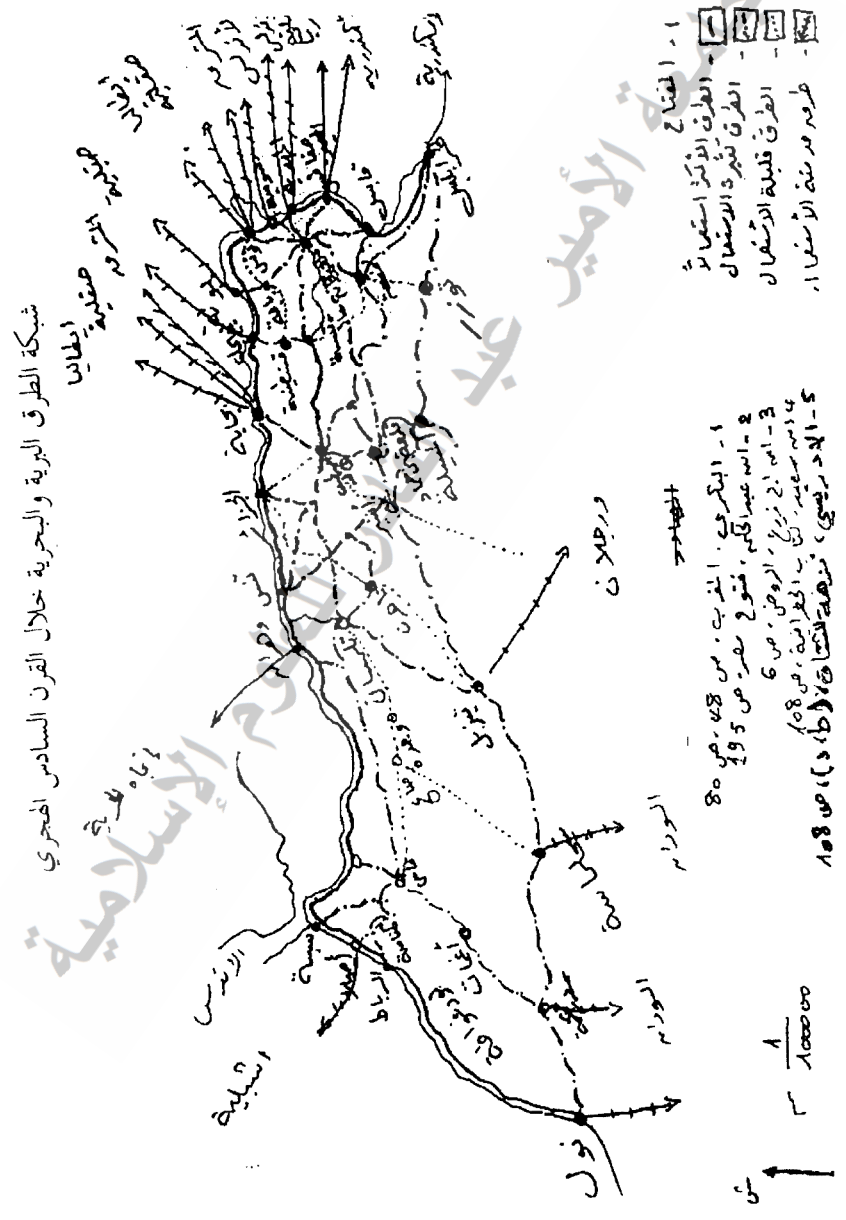

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثبت المصادر والمراجع والدراسات

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثبت المصادر والمراجع والدراسات

أولاً/ المصادر[1]

المصادر[2]:

- القرآن الكريم، المصحف المطبوع في مجمع خادم الحرمين الشريفين، الملك فهد بالمدينة المنورة بأشراف وزارة الحج والأوقاف في المملكة العربية السعودية سنة 1411هـ.

1 - المصادر المخطوطة:

- إبن الحاج (أبو عبد الله بن الحاج الشهيد)، (ت. 529هـ / 1134م):

(1) نوازل ابن الحاج، خ ع، الرباط، رقم 55ج.

- البرزلي (أبو القاسم بن أحمد بن محمد البلوي القيرواني)، (ت. 841هـ):

(2) جامع مسائل الأحكام مما نزل بالمفتين والحكام، خ ع، رقم 450د.

- التنبكتي (أحمد بابا):

(3) أجوبة في شأن القوانين العرفية، ح ح، المكتبة الوطنية، الرباط، رقم 5813.

- الجزيري (أبو الحسن علي بن القاسم):

(4) المقصد المحمود في تلخيص الوثائق والعقود، المكتبة الوطنية، تونس، رقم 539.

- السقطي (أبو عبد الله محمد بن أحمد):

(5) عمدة الطبيب في معرفة النبات لكل لبيب، خ ع، المكتبة الوطنية، تونس، رقم 3505د.

- إبن عياض (محمد بن موسى بن عياض اليحصبي ابن القاضي عياض):

(6) الحكام في نوازل الأحكام، خ ح، المكتبة الوطنية، الرباط، رقم 4042د.

- المغيلي (أحمد بن يحيى):

(7) الدرر المكنونة في نوازل مازونة، خ ح، المكتبة الوطنية، الرباط، رقم 883أ.

---

[1] - وردت بعض المصادر والمراجع والمقالات في الهوامش بشكل محدود، فلم يرد ذكرها في هذه اللاّئحة.

[2] - رتبت المصادر حسب الحروف الأبجدية للمؤلفين و لم نعتبر في ترتيب الأعلام كلمات ابن، أبو، وأولاد وآل، وأعتمدنا الحرف الذي يبدأ به الإسم الموالي مباشرة.

2 - المصادر المطبوعة:

- إبن إبراهيم (العباس بن محمد السلماني):

(8) الإعلام بمن حَلّ بمراكش وأغمات من أعلام، المطبعة الملكية، الرباط 1993م.

- إبن أبي أصيبعة (ابي العباس)، (ت. 668هـ / 1270م):

(9) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج2، تصحيح ابن الطحان، القاهرة 1300هـ.

- إبن أبي دينار (أبو عبد الله محمد)، (حي سنة 1092هـ / 1681م):

(10) المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تحقيق محمد شمام، تونس 1967م.

- إبن أبي زرع (أبو الحسن بن عبد الله)، (ت. في منتصف القرن الثامن الهجري):

(11) الأنيس المطرب بروض القرطاس، دار المنصور، الرباط 1973م.

- إبن الأبار (أبو عبد الله)، (ت. 658هـ / 1260م):

(12) التكملة لكتاب الصلّة، ج2، تحقيق ونشر عزت العطار الحسيني، القاهرة (1375هـ / 1955م).

- إبن الأثير (عز الدين، أبو الحسن)، (ت. 606هـ / 1210م):

(13) الكامل في التاريخ، ج12، دار صادر، بيروت (1387هـ / 1972م).

- إبن الأحمر (إسماعيل)، (ت. 811هـ / 1409م):

(14) بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور، للطباعة، الرباط 1972م.

- إبن الحَكَم (أبو الحسن علي ابن يوسف)، (حي في سنة 770هـ / 1369م):

(15) الدوحة المشتبكة في أحكام دار السكة، تحقيق حسين مؤنس، مدريد 1958م.

- إبن الخطيب (لسان الدين أبو عبد الله محمد)، (ت. 776هـ / 1375م):

(16) أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الأحتلام من ملوك الإسلام.

(17) القسم الثاني نشره ليض بروفنسال بعنوان تاريخ اسبانيا الإسلامي، بيروت، دار المكشوف 1956م.

(18) القسم الثالث بعنوان تاريخ العرب العربي في العصر الوسيط، حققه إبراهيم الكتاني ومختار العبادي، الدار البيضاء، دار الكتاب 1964م.

(19) نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، نشر وتعليق أحمد مختار العبادي، دار النشر المغربية، الدارالبيضاء 1985م.

- إبن الزبير (أبو جعفر أحمد بن إبراهيم الجياني)، (ت. 708هـ / 1308م):

(20) صلة الصلة، تحقيق ليفربروفسال، الرباط، المطبعة الاقتصادية 1938م.

- إبن الزيات (أبو يعقوب يوسف التادلى)،(ت. 628هـ / 1230م):

(21) التشوف إلى الرجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق، الرباط، كلية الآداب العلوم الإنسانية، الرباط 1984م.

- إبن الشماع (أبو عبد الله محمد بن أحمد الهنتاني)، (كان حيّا سنة 861هـ / 1457م):

(22) الأدلّة البيِّنة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق الطاهر بن محمد العموري، ليبيا، تونس، الدار العربية للكتاب 1984م.

- إبن العماد (أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد)، (ت. 1089هـ / 1678م):

(23) شذرات الذهب في أخبار من مذهب، 8ج، بيروت، دار المسيرة 1979م.

- إبن القطان (أبو محمد حسن)، (ت. 650هـ / 1252م):

(24) نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق محمود على مكي، بيروت، دار الغرب الإسلامي 1990م.

- إبن بصال (أبو عبد الله محمد):

(25)كتاب الفلاحة،تحقيق بيكروسا ومحمد غزيمان،تطوان 1955م.

- إبن بطوطة (محمد بن عبد الله اللّوّاتي الصنجي)، (ت. 779هـ / 1377م):

(26) تحفة النظار، (رحلة ابن بطوطة) الشّركة العالمية للكتاب ب.ط، بيروت1991م.

- إبن تجيلات (أبو عبد الله):

(27) إثمد العينين ونزهة الناظرين في مناقب الآخرين، تحقيق ودراسة محمد رابطة الدين، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس (الرباط1986م / 1987م)

- إبن تغري (بردي)، (ت. في القرن التاسع الهجري):

(28) النجوم الزاهرة في محاسن ملوك مصر والقاهرة، دار نشر الكتاب المصرية (دت).

- إبن تومرت (أبو عبدالله محمد بن عبد الله الهَرْغي السُّوسي)، (ت. 524هـ / 1130م):

(29) أعز مايطلب، تحقيق عمار طالبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر1985م.

- إبن جبير (ت. 614هـ / 1217م):

(30) رحلة ابن جبير، دار صادر بيروت (1384هـ / 1964م).

- إبن حزم (أبو علي محمد بن أحمد بن سعيد):

(31) جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة، دار المعارف 1962م.

- إبن حوقل (أبو القاسم)، (ت. 380هـ / 991م):

(32) كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت (د.ت).

- إبن حيان (أبو مروان الأندلسي)، (ت. 469هـ / 1076م):

(33) المقتبس في تاريخ الأندلس، تحقيق محمود علي مكي، دار الكتاب العربي؛ بيروت 1973م.

- إبن خاقان (الفتح بن محمد القيسي الاشبيلي)، (ت. 529هـ / 1135م):

(34) قلائد العقبان في محاسن الأعيان، تحقيق محمد بن طاهر، تونس 1910م.

- إبن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله)، (ت 300هـ / 913م):

(35) المسالك والممالك، نشر دي غويه، مصطفى بريل، ليدن 1889م.

- إبن خلدون (عبد الرحمن بن محمد)، (ت. 808هـ / 1405م):

(36) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، 7ج، بيروت، دار الكتب العلمية 1992م.

(37) المقدمة، تحقيق درويش الجويدي، بيروت 1935م.

(38) الجزء السادس والسابع عن أخبار البربر وَدُوّل المغرب، دار الكتاب اللبناني ، بيروت 1959م.

- إبن خلدون يحي:

(39) بغية الرّواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، نشر أ. بل. الجزائر 1903م.

- إبن خلكان (أبو العباس أحمد بن محمد)، (ت. 681هـ / 1282م):

(40) وفيات الأعيان وأبناء الزمان، 8ج.

(41) (الجزء الأول فهارس) حققة إحسان عباس، بيروت، دار صادر 1978م، دار القلم 1971م.

- إبن دحية (أبو الخطاب عمر بن حسن السبتي)، (ت. 633هـ / 1235م):

(42) المغرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة، المطبعة الأميرية 1954م.

- إبن رزين (أبو الحسن علي بن محمد البحتيي)، (حي سنة 636هـ / 1239م):

(43) فضالة الخواص في طيبات الطعام والألوان، تحقيق محمد بن شقرون، ط2، بيروت، دار الغرب الإسلامي 1984م.

- إبن رُشد (أبو الوليد محمد بن أحمد)، (ت. 520هـ / 1126م):

(44) فتاوى ابن رشد، ج3، تحقيق المختار بن الطاهر التليلي، بيروت، دار الغرب الإسلامي 1987م.

(45) نوازل ابن رشد، تحقيق إحسان عباس، بيروت 1969م.

- إبن رُشد الحفيد (الوليد محمد أحمد)، (ت. 595هـ / 1198م):

(46) الضروري في السياسة، مختصر كتاب السياسة لأفلاطون (د.ت).

- إبن رضوان (أبو القاسم المالقي):

(47) الشهب اللاّمعة في السياسة النافعة، تحقيق علي سامي النشار، دار الثقافة، الدار البيضاء 1984م.

- إبن زهر (أبو مروان عبد الملك):

(48) كتاب التسيير في المداواة والتدبير، تحقيق ميشيل الخوري المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم سنة 1983م.

- إبن زيري (الأمير عبد الله بن بلكين)، (حي سنة 483هـ / 1090م):

(49) كتاب التبيان، تحقيق أمين توفيق الطيبي، الرباط، منشورات عكاظ 1995م.

- إبن سعيد (أبو الحسن علي بن موسى الغرناطي)، (ت. 568هـ / 1286م):

(50) المغرب في حلي المغرب، ط2، تحقيق الدكتور شوقي ضيف، سلسلة ذخائر العرب، دار المعارف، مصر 1964م.

(51) كتاب الجغرافيا، تح اسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر، طبعة بيروت 1970م.

- إبن سعيد المغربي:

(52) كتاب بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق الدكتور خوان قرنيط، معهد مولاي الحسن، الرباط 1958م.

- إبن سلام القاسم (أبو عبيد):

(53) كتاب الأموال، شرحه عبد الأمير علي قهنا، دار الحداثة الطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت 1988م.

- إبن صاحب الصلاة (أبو مروان عبد الملك بن محمد الباجي)، (كان حيّا سنة 594هـ / 1198م):

(54) تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، تحقيق عبد الهادي التازي، بيروت، دار الأندلس 1964م.

- إبن عباد (محمد الرندي):

(55) الرسائل الكبرى، طبعت بتصحيح أحمد محمد المهدي بن العباس البُوعَزَاوي، طبعة حجرية 1320، الرباط.

- إبن عبد الحكم:

(56) فتوح مصر والمغرب، ليدن 1920م.

- إبن عبد الرؤوف (أحمد):

(57) رسالة في آداب الحسبة والمحتسب، نشر ليفي روفتسال، القاهرة 1955م.

- إبن عبد الملك (أبو عبد الله بن محمد الأوسى)، (ت. 703هـ / 1303م):

(58) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة.

(59) السفر الأول، تحقيق محمد بن شريفة، بيروت، دار الثقافة 1962م.

(60) السفر الرابع، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة 1964م.

(61) السفر الخامس، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة 1965م.

(62) السفر السادس، تحقيق إحسان عباس بيروت، دار الثقافة 1973م.

(63) السفر الثامن، تحقيق محمد بن شريفة، الرباط، منشورات أكاديمية، المملكة الغربية 1984م.

- إبن عبدون (أبو عبد الله محمد بن أحمد)، (ت. ق. 6هـ / 12م):

(64) رسالة في القضاء والحسبة، نشر ليفي بروفنسال، باريس، المطبعة الوطنية، 1934م.

- إبن عذاري (أبو العباس أحمد)، (كان حيّا 712هـ / 1312م):

(65) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، بيروت، دار الثقافة، 4ج، القسم الخاص بالموحدين، تحقيق إبراهيم الكتاني وآخرين، بيروت، دار العرب الإسلامي 1985م.

- إبن عربي (أبو بكر محمد بن علي المرسي)، (ت. 638هـ / 1240م):

(66) الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية والملكية، 13ج، تحقيق عثمان يحي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب (72-1990).

- إبن عياض (أبو عبد الله بن عياض اليحصبي)، (ت. 757هـ / 1179م):

(67) التعريف بالقاضي عياض، تحقيق محمد بن شريفة، ط2، الرباط، منشورات وزارة الأوقات، 1982م.

- إبن غازي (أبو عبد الله بن أحمد المكناسي)، (ت. 919هـ / 1313م):

(68) الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط1، الرباط، مطبعة الأمينية 1952م.

- إبن غلبون (أبو عبد الله محمد بن خليل الطرابلس)، (ت. 117هـ / 1763م):

(69) التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، تح الطاهر أحمد الزاوي، القاهرة، المطبعة السلفية، 1930م.

- إبن فضل الله العمري (أبو العباس أحمد بن يحيى)، (ت. 479هـ / 1348م):

(70) وصف إفريقية والأندلس، من كتابه مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، كراسات تونسية، ع82، 1973م

(71) وصف المغرب من كتاب المسالك، تحقيق محمد المنوفي، ط2، الرباط، منشورات كلية الآداب، 1996م.

- إبن قزمان:

(72) ديوان ابن قزمان، تحقيق كورينطي، مدريد 1980م.

- إبن قنفد (أبو العباس أحمد الخطيب)، (809هـ / 1406م):

(73) أنس الفقير وعزّ الحقير، تصحيح محمد الفاسي، وأدولف فور، الرباط، المركز الجتمعي للبحث العلمي 1965م.

(74) الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، تونس، الدار التونسية للنشر 1968م.

- إبن مرزوق (أبو عبد الله بن أحمد التلمساني)، (ت. 781هـ / 1379م):

(75) المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا (الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981م.

- ابن مريم (أبو عبد الله محمد بن محمد المدّيوني التلمساني)، (ت. 1014هـ / 1605م):

(76) البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق محمد بن أبي شنب، ط2، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1986م.

- إبن منظور (أبو الفضل الإفريقي المصري)، (ت. 711هـ / 1311م):

(77) لسان العرب، 15ج، ط2، دار صادر 1980م.

- أبو الخير:

(78) كتاب الفلاحة، نشره الفقيه سيد محمد التهامي، طبعة فاس 1357هـ.

- أبو العباس (أحمد بن إبراهيم):

(79) المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح، تحقيق محمد بن شريفة، المطبعة المصرية، ط1، 1952هـ / 1933م.

- أبو الفدا (إسماعيل بن علي الدمشقي)، (ت. 732هـ / 1332م):

(80) تقويم البلدان، تحقيق، م. رينو والبارون دوسلان (باريس، دار الطباعة السلطانية 1940م.

- الأُبي (أبو عبد الله بن خلفة التونسي)، (ت. 827هـ / 1424م):

(81) إكمال إكمال المعلم، ج7، القاهرة، مطبعة السعادة، 1910م.

- الإدريسي (الشريف أبي عبد الله)، (ت. 560هـ / 1165م):

(82) نزهة المشتاق في اختراق الأفاق

(83) وصف أفريقية الشمالية والصحراوية، نشرخ B بيريس، الجزائر 1957م.

(84) صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، حققه دُوزي وَدي خويه، ليدن1866م.

(85) المقدمة وصِفَةُ البلاد التي هي الآن مملكة ايطاليا، تحقيق (م، أماري ورفيقه روما 1878م.

- الأزموري (أبو عبد الله):

(86) بهجة الناظرين وأنس الحاضرين، تحقيق علي الجاوي، الطبعة الملكية، الرباط 1985م.

- الإصطخري (أبي اسحاق)، (ت. في القرن الرابع الهجري):

(87) المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني، القاهرة 1963م.

- الباديسي (عبد الحق إسماعيل):

(88) المقصد الشريف والمترع اللطيف، في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق سعيد أحمد أعراب، المطبعة الملكية، الرباط 1982م.

- البكري (أبو عبيد الله)، (ت. 487هـ / 1094م):

(89) كتاب المسالك والممالك، تحقيق ليوفن وفيري، 2ج الدار العربية للكتاب،بيت الحكمة، تونس1992م.

(90) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب،(جزء من كتاب المسالك)،تحقيق البارون دي سلان، الجزائر1957م.

- البيدق (أبوبكر بن علي الصنهاجي)، (ت. 555هـ / 1161م):

(91) المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، تحقيق عبد الحميد حاجيات، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر1975م.

- التجاني (أبومحمدعبد الله)، (ت. 717هـ / 1317م):

(92) رحلة التجاني، تحقيق وتقديم حسن حسني عبد الوهاب، المطبعة الرّسمية،تونس1958م.

- التجيبي (أبو بكر صفوان بن إدريس)، (ت. 598هـ / 1202م):

(93) زاد المسافر و غزة محيا الأدب السافر، تحقيق عبد القادر محداد، دار الرائد العربي،بيروت1970م.

- التنبكتي (أحمد بابا)، (ت. 1036هـ / 1667م):

(94) نيل الإبتهاج بطرز الديباج،ط1،القاهرة، مطبعة الفحّامين 1932م.

- التنسي (أبوعبد الله محمد)، (ت. 899هـ / 1494م):

(95) مقتبس من كتاب نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان،حققه وعلق عليه محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر (1405هـ / 1985م).

- الجرسيفي (عمر بن عثمان):

(96) رسائل الحسبة، نشر ليفي بروفنسال، القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي 1955م.

- الجزنائي (أبي الحسن علي)، (كان حيًا سنة 766هـ / 1365م):

(97) زهرة الآس في بناء مدينة فاس، اعتناء بيل، مطبعة كابونيل 1922م أو تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة 2، (1411هـ / 1991م).

- الجزيري (عبد الرحمن):

(98) كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، دار الرشاد والحديثة الدار البيضاء (د.ت).

- الحميري (أبو عبد الله محمد)، (ت. 727هـ / 1327م):

(99) الروض المعطار في خبر الأقطار (معجم جغرافي)، حققه إحسان عباس مؤسسة ناصر للثقافة، الطبعة الثانية 1980م.

- الداعي إدريس (عماد الدين):

(100) عيون الأخبار القسم الخاص بتاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب، تحقيق محمد اليعلاوي، بيروت، دار الغرب الإسلامي 1985م.

- الدباغ (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأسيدي القيرواني)، (ت. 699هـ / 1298م):

(101) معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، 4ج، المطبعة العربية التونسية1907م.

(102) تعليق إبراهيم شبّوح، القاهرة، مكتبة الخانجي 1968م.

- الدّرجيني (أبو العباس أحمد سعيد):

(103) كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، قسنطينة، مطبعة البعث، قسنطينة 1974م.

- الرصاع (أبو عبد الله بن عبد قاسم الأنصاري التلمساني التونسي)، (ت. 894هـ / 1489م):

(104) فهرست الرصاع، تحقيق محمد العَنّابي، تونس، الكتبة العتيقة 1967م.

- الرقيق (القيرواني):

(105) تاريخ افريقية والمغرب، تحصف المجني الكعبي، تونس 1968م.

- الزجالي (أبو يحي عبيد اللع):

(106) أمثال العوام في الأندلس، 2ج، تحقيق محمد بن شريفة، الرباط، منشورات وزارة الدولة للتعليم الأصلي، 1971م.

- الزركشي (أبو عبد الله إبراهيم):

(107) تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد.

(108) ماضور، ط2، تونس، المكتبة العتيقة 1966م.

- الزهري (أبو عبد الله بن أبي بكر)، (كان حي سنة 555هـ / 1160م):

(109) كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الرئيسية، دمشق 1958م.

- السبتي (أبو عبد الله محمد):

(110) اختصار الأخبار عمّا بثغر تبسة من تسني الآثار، نشر ليفي بروفسال، باريس، لا رؤس الكتبي 1932م.

- السعدي (عبد الرحمن):

(111) تاريخ السودان، باريس 1981م.

- السقطي (أبو عبد الله محمد أبي محمد المالقى)، (كان حيّا سنة 610هـ / 1213م):

(112) في آداب الحسبة، نشر كورن وبروفنسال باريس، المطبعة الدولية 1931م.

- السلاوي (أبو العباس أحمد بن خالد الناصري)، (ت. 1315هـ / 1897م):

(113) الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وَلَدى المؤلف، جعفر ومحمد، الدار البيضاء، دار الكتب 1956م.

- السلفي (أبو طاهر أحمد بن محمد)، (ت. 576هـ / 1180م):

(114) أخبار وتراجم أندلسية، مأخوذة من كتابه معجم السفر، تحقيق إحسان عباس ، بيروت 1985م.

- الشمّاضي (أبو العباس أحمد بن سعيد):

(115) كتاب السير، تحقيق محمد حسن، تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية 1995م.

- الصومعي (أحمد التادلي)، (ت. 1013هـ / 1604م):

(116) كتاب المعُزّي في مناقب الشيخ أبي يَعْزى، تحقيق علي الجاوي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط 1996م.

- الضبي (أبو جعفر أحمد بن يحي)، (ت. 599هـ / 1203م):

(117) بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكتاب العربي، القاهرة 1967م.

- العبدري (أبو عبد الله)، (ت. أواخر القرن السابع الهجري):

(118) رحلة العبدري، تحقيق محمد الفاسي، الرباط، وزارة الشؤون الثقافية 1968م.

- الغبريني (أبو العباس أحمد بن أحمد)، (ت. 704هـ / 1305م):

(119) عنوان الدراية من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، ط1، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1970م.

- الغزالي (أبي حامد)، (505هـ / 1112م):

(120) إحياء علوم الدين، ج6، دار الكتاب العربي (د.ت)، بيروت.

- القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي)، (ت. 821هـ / 1476م):

(121) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، مطابع كوستا توماس وشركاؤه، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة، القاهرة، (د.ت).

(122) قلائد الجمان في التعريف بعرب الزمات، تح إبراهيم الأبياري، ط2، دار الكتب، بيروت 1982م.

- المالكي (أبو بكر عبد الله بن محمد)، (كان حيّا سنة (474هـ / 1082م):

(123) كتاب رياض النفوس، تحقيق بشير البكوش، ومحمد العروسي المطوي، بيروت، دار الغرب الإسلامي 1994م.

- المُرادي (أبوبكر محمد بن الحسن)، (ت. 489هـ / 1096م):

(124) كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة ، تحقيق سامي النشار، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1981م.

- المراكشي (عبد الواحد)، (647هـ / 1249م):

(125) المعجب في تلخيصها أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، دار الكتاب، الدار البيضاء، (د.ت).

- المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله)، (ت. 387هـ / 998م):

(126) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق دي غويه، مطبعة بريل ليدن 1906م.

- المقري (أبو العباس أحمد بن محمد)، (ت. 1041هـ / 1632م):

(127) نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تح محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، بيروت (د.ت).

- النويري (أحمد بن عبد الوهاب)، (ت. 732هـ / 1332م):

(128) نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق مصطفى أبو ضيف، دار النشر المغربية، الدار البيضاء 1985م.

- الوزان (أبو علي الحسن الفاسي)، (كان حيّا سنة 957هـ / 1550م):

(129) وصف افريقيا، 2ج، ترجمة عن الفرنسية، محمد صبحي ومحمد الأخضر، دار العرب الإسلامي، بيروت 1983م.

- الوطواط (محمد بن إبراهيم بن يحيى):

(130) منهاج الفكر ومنهاج العبر، تحقيق E. frangnain القاهرة، 1984م.

- الونشريسي (أبو العباس بن يحي التلمساني)، (ت. 914هـ / 1508م):

(131) المعيار العرب والجامع المغرب عم فتاوى علماء أفريقية والأندلس والمغرب، 13ج، أشرف على تحقيقه، محمد صبحي، بيروت، دار الغرب الإسلامي 1983م.

- اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح)، (ت. 284هـ / 897م):

(132) كتاب البلدان، ط3، المطبعة الجديدة، النجف 1957م.

- زروق (أبو العباس أحمد بن أحمد عيسى البرسي الفاسي):

(133) إعانة المتوجه المسكين إلى طريق الفتح والتمكين، تحقيق وتقديم علي فهمي خشيم الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس (1399هـ / 1979م).

- عبد الله (بن إبراهيم التاسافاني):

(134) رحلة الوافد، تحقيق علي صدقي أزايكو، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط (د.ت).

- مجهول (كان حيّا سنة 587هـ / 1191م):

(135) الاستبصار في عجائب الأمطار، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء 1985م.

- مجهول (كان حيّا سنة 712هـ / 1312م):

(136) مفاخر البربر، تحقيق محمد، المجلس العلمي، الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي، مدريد 1996م.

- مجهول (كان حيّا سنة 783هـ / 1181م):

(137) الحلل الوشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1979م.

- مجهول:

(138) أخبار مجموعة في فتح الأندلس، تحقيق الأبيار، ط2، القاهرة، دار الكتاب المصري، بيروت، دار الكتاب اللبناني 1989م.

- مجهول:

(139) كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين، نشر هويتي ميراندا، المجلدان التاسع والعاشر، معهد الدراسات الإسلامية في 1962م.

(140) رسائل موحدية، مجموعة جديدة، أحمد عزاوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، ط1، (1416هـ / 1995م).

- محمد (بن عباد الرندي):

(141) الرسائل كبرى، طبعت بتصحيح أحمد بن محمد المهدي بن العباس بن صابر البُوعزاوي، طبعة حجرية، مطابع سلا (1320هـ / 1989م).

- ياقوت الحموي (أبو عبد الله بن عبد الله الرومي)، (ت. 626هـ / 1226م):

(142) معجم البلدان، 5ج، بيروت، دار صادر 1957م.

- يحيى بن معمر:

(143) أحكام السوق، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، راجعه وأعده للنشر، فرحات الدشرواي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1975م.

(144) متحف السكوكات لبنك المغرب، الدار البيضاء، الوثائق، عدد 1-5، إصدار مديرية الوثائق الملكية المطبعة الملكية، الرباط، المغرب، 1976م.

ثانيًا/ المراجع باللغة العربية:

1 - المراجع العربية:

- إبن إبراهيم (العباس):

(145) الأعلام حلّ مراكش وأغمات من الأعلام فاس، المطبعة الجديدة 1939م.

- أحمد (عيسى):

(146) تاريخ البيمارستّذَاتاتَ في الإسلام، بيروت 1981م.

- آفا (عمر):

(147) مسألة النقود في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1988م.

- إبن الخوجة (محمد الطيب):

(148) الهجرة الأندلسية في القرن السابع الهجري 13م، دار الفكر العربي، بيروت 1968م.

- أبو العرب (محمد):

(149) طبقات علماء أفريقية، تحقيق ابن شنب، الجزائر 1914م.

- أمين (توفيق الطيبي):

(150) دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، الدار العربي للكتاب، تونس، 1984م.

- باشا (نجاة):

(151) التجارة في الغرب الإسلامي بين (ق 4هـ إلى ق8 للهجرة)، منشورات الجامعة التونسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس 1976م.

- بأشر (سعيد):

(152) المدن المغربية خلال العهدين المرابطي والموحدي، كلية الآداب، ابن قسيك، الدار البيضاء، 1998م.

- بزاوي (الكبير):

(153) دور الدّعوة في نشأة الدولة المغربية، كلية الآداب، الرباط، 1987م.

- بلغيث (محمد الأمين):

(154) النظرية السياسية عند المرادي وأثرها في الغرب والأندلس، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1989م.

- بن مليح عبد الإله:

(155) الاسترقاق في الغرب الإسلامي بين الحرب والتجارة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وحدة جامعة محمد الأول، سلسلة بحوث ودراسات.

- بوتشيش (إبراهيم القادي):

(156) تاريخ الغرب الإسلامي، بيروت، دار الطليعة 1994م.

(157) المغرب والأندلس في عصر المرابطين (المجتمع، الذهينات، الأولى، بيروت، دار الطليعة 1993م.

(158) الإسلام السري في المغرب العربي، القاهرة، سينا للنشر 1995م.

(157) مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والاندلس، خلال عصر المرابطين، ط1، دار الطليعة، بيروت 1998م.

- بوجندار (محمد مصطفى):

(158) مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح، مطبعة الجريدة الرسمية، الرباط، 1345هـ.

- بورويبة رشيد:

(159) الدولة الحمادية، تاريخها وحضارتها، الجزائر، 1977م.

- بونار رابح:

(160) المغرب العربي، تاريخه وثقافته، الجزائر، 1968م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- التازي (عبد الهادي):

(161) جامع القرويين، بيروت، دار الكتاب اللبناني 1972م.

- تحية كامل (حسين):

(162) تاريخ الأزياء وتطورها، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ط(د.ت).

- إبن جلجل:

(163) طبقات الأطباء، مؤسسة الرسالة، بيروت 1985م.

- الجنحاني (الحبيب):

(164) دراسات في التاريخ الاقتصاد والاجتماعي للمغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1986م.

- الجيلالي (عبد الرحمن):

(165) تاريخ الجزائر العام، منشورات دار مكتبة الحياة، ط2، بيروت 1965م.

- حركات إبراهيم:

(166) المجمع الإسلامي والسلطة في العصر الوسيط، إفريقيا، الشرق، الدار البيضاء 1998م.

(167) النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين، منشورات مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء، (د.ت).

- الحريري (محمد عيسى):

(168) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني، ط1، دار القلم، الكويت 1985م.

- إبن حسن (محمد):

(169) القبائل والأديان المغربية في العصر الوسيط، دار الرياح الأربعة للنشر، تونس 1986م.

- حسن إبراهيم حسن:

(170) تاريخ الإسلام السياسي والديني والاجتماعي، لقاهرة 1968م.

(171) المعز لدين الفاطمي، ط2، مكتبة النهضة المصرية 1964م.

- حسن حسني (عبد الوهاب):

(172) ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية، تونس، المنار، تونس 1966م.

(173) خلاصة تاريخ تونس، ط3، دار الكتب العربية الشرقية 1973م.

- حسن محمود:

(174) الإسلام والثقافة العربي في إفريقيا، القاهرة 1963م.

- إبن حُسين (محمد):

(175) القوة البحرية في الغرب الإسلامي إلى قيام دولة الموحدين، دار الحداثة، بيروت 1976م.

- حمدي (عبد المنعم):

(176) تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، دولة على بن يوسف المرابطي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية 1986م.

- حناوي (محمد):

(177) جوانب من العلاقات الاقتصادية والبشرية في الحوض الغربي للبحر المتوسط، خلال القرون القرون الوسطى، منشورات كلية الآداب، الرباط 1995م.

- الخطابي:

(178) الطب والأطباء في الأندلس، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1988م

- الخطيب (حنيفة):

(179) الطب عند العرب، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت 1988م.

- الدّاودي (عبد العزيز):

(180) مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ط4، دار الطليعة، بيروت 1982م.

- الدّاودي:

(181) كتاب الموال، مكتبة احياء الثرات المغربي، مطبعة دار الثقافة، الرباط، 1996م.

- الدبيش (عبد الوهاب):

(182) فاس المرينية، المنشورات الجامعية، كلية الآداب، فاس 1995م.

- دندش (عصمت عبد اللطيف):

(183) الأندلس في نهاية المرابطين وبداية الموحدين، بيروت، دار الغرب الإسلامي 1988م.

- دنون (عبد الوهاب):

(184) الفتح والإستقرار العربي في شمال إفريقيا والأندلس، القاهرة 1971م.

- ذهينة (عطا الله):

(185) الدولة الزيانية في عهد يغمراسن، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984م.

- رزوق (محمد):

(186) تطور استقرار الجالية الأندلسية بالمغرب الأقصى، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط 1986م.

- الرفاعي (أنوار):

(187) الإسلام في حضارته ونظمه الإدارية والسياسية والعلمية والاجتماعية، بيروت، دار الغرب الإسلامي 1994م.

- أبو رُمَيْلة (هشام):

(188) علاقة الموحدين بالممالك النصرانية والدّول الإسلامية في الأندلس، دار الفرقان عمان، الأردن 1984م.

- زبيس (سليمان مصطفى):

(189) آثار المغرب العربي، دار الكتب الوطنية التونسية، تونس 1958م.

- زغلول (سعد عبد الحميد):

(190) تاريخ المغرب العربي، مطبعة المعارف، الإسكندرية 1979م.

- زكي (محمد حسن):

(191) فنون الإسلام، القاهرة 1948م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- زنّير (محمد):

(192) المغرب في العصر الوسيط، الدولة، المدينة، الاقتصاد، منشورات كلية الآداب، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1999م.

- إبن زيدان (عبد الرحمن):

(193) إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، الرباط، ط1 1929م.

- السائح (الحسن):

(194) الحضارة الإسلامية في الغرب، الدار البيضاء (د.ت).

- سالم (سيد عبد العزيز):

(195) تاريخ المغرب العربي الكبير الإسكندرية 1966م.

(196) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، بيروت 1962م.

- السبتي (عبد الأحد):

(197) وحليمة فرحات، المدينة في العصر الوسيط، قضايا ووثائق من تاريخ الغرب الإسلامي، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت 1994م.

- سرور (جمال الدين):

(198) سياسة الفاطمين الخارجية، دار الفكر العربي، بيروت 1967م.

- سعيد (عبد الفتاح عاشور):

(199) تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار النهضة العربية للنشر والتوزيع 1976م.

(200) المدينة الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوربية، القاهرة 1963م.

- السيد (عبد المنعم):

(201) دراسات في النقود، والنظرية النقدية، مطبعة الهاني، القاهرة 1975م.

- سيسالم (عصام سالم):

(202) جزر الأندلس المنسية، التاريخ الإسلامي لجزر البليار، بيروت، دار العلم 1984م.

- الشرباصي (أحمد):

(203) المعجم الاقتصادي الإسلامي، دار الجبل، بيروت 1981م.

- إبن شريفة (محمد):

(204) إبراهيم قانمي، أنموذج مبكر للتواصل الثقافي بين المغرب وبلاد السودان، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1992م.

- شعيرة (محمد عبد الهادي):

(204) المرابطون وتاريخهم السياسي، القاهرة 1969م.

(205) الصراع بين العرب والبيزنطيين، طبعة الإسكندرية 1947م.

- شلبي (أحمد):

(206) موسوعة التاريخ الإسلامي، ج4، الكتب الإسلامي، بيروت 1985م.

- شنيتي (محمد البشير):

(207) التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب إثناء الاحتلال الروماني، الشركة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984م.

- صبحي الصالح:

(208) النّظم الإسلامية، دار العلم للملايين، بيروت 1968م.

- ضريف (محمد):

(209) تاريخ الفكر السياسي بالمغرب، ط2، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق 1989م.

(210) "الشريف" بالمغرب، ط1، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء 1988م.

- أبو ضيف (مصطفى):

(211) القبائل العربية في المغرب، في عصري الموحدين وبني حرين، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية 1982م.

- الطالبي (محمد):

(212) دراسات في تاريخ أفريقية، كلية والعلوم الإنسانية، تونس 1982م.

- طرخان (إبراهيم علي):

(213) إمبراطورية غانا الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر 1970م.

(214) إمبراطورية قالي، مطبعة جامعة القاهرة 1970م.

- العبادي (مختار):

(215) الصقالبة في إسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبية بالمعهد المصري للدراسات الإسلامية، فزريد 1953م.

(216) دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، (د.ت).

- عباس (إحسان):

(217) تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن التاسع الهجري، بيروت 1967م.

- إبن عبد الله (عبد العزيز):

(218) الموسوعة المغربية للأعلام (البشرية والحضرية)، جامعة محمد الخامس، الرباط 1977م.

(219) الطب والأطباء، المطبعة الاقتصادية 1960م.

- العربي (إسماعيل):

(220) دولة الأدارسة، الجزائر 1983م.

(221) دولة بني حماد، ملوك القلعة وبجاية، الجزائر 1980م.

- العدوي (إبراهيم):

(222) الأساطيل العربي في البحر الأبيض المتوسط، مكتبة نهضة مصر بالفجالة 1957م.

- العروي (عبد الله):

(221) مجمل تاريخ المغرب، 2ج، ط4، بيروت، المركز الثقافي العربي 1994م.

- عز الدين (أحمد موسى):

(222) النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي، خلال القرن السّادس الهجري، دار الشروق، ط1، بيروت 1983م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(223) الموحدون في الغرب الإسلامي، تنظيماتهم ونظمهم، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1991م.

- علام (عبد الله علي):

(224) الدولة الموحدية بالمغرب، القاهرة، دار المعارف 1971م.

(225) الدعوة الموحدية بالغرب، القاهرة، دار المعارف 1964م.

- إبن عمر (يحي):

(226) أحكام السوق، الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1975م.

- إبن عميرة (محمد):

(227) دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، المؤسسة الوطنية، الجزائر 1984م.

- الغبريني (السيد الباز):

(228) الحضارة والنظم الأوروبية في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت 1963م.

(229) المغول، دار النهضة العربية للطباعة والنشر 1981م.

(230) المماليك، دار النهضة العربية للطباعة والنشر 1979م.

- الفاسي (أبو عمران):

(231) مشاهير علماء المغرب، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1989م.

- فتحي (عثمان):

(232) الدول الإسلامية والبيزنطية بين الأحتقال الحربي، القاهرة، (د.ت).

- فهمي (سعد):

(233) العامية في بغداد في القرنين الثالث والرابع للهجري، ط1، دار المنتخب العربي، بيروت 1993م.

- فيلالي (عبد العزيز):

(234) العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودُوّل المغرب، الجزائر 1982م.

(235) مدينة ميلة في العصر الوسيط، دراسة سياسية، ثقافية، إدارية، دار البلاد للاتصال والخدمات، قسنطينة 1998م.

- القاسمي (هشام العلوي):

(236) مجتمع المغرب الأقصى ضمن منتصف القرن الرابع الهجري منتصف القرن العاشر الميلادي، مطبعة فضالة، الحمدية 1999م.

- القبلي (محمد):

(237) الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط، علائق وتفاعل، دار توبقال للنشر، الدار لبيضاء، ط1، 1997م.

(238) مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار تويقال للنشر، الدار البيضاء 1987م.

- الكمّاك (عثمان):

(239) الحضارة العربية في حوض البحر الأبيض المتوسط، مكتبة العرب، (د.ت).

- كواتي (مسعود):

(240) اليهود في المغرب الإسلامي، من الفتح إلى سقوط دولة الموحدين، الجزائر، دار هومة 2000م.

- لقبال (موسى):

(241) دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، الجزائر 1979م.

(242) الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي، نشأتها وتطورها، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1971م.

- مؤنس حسن:

(243) تاريخ المغرب وحضارته، بيروت، العصر الحديث للنشر والتوزيع 1992م.

(244) فتح العرب للمغرب.

(245) معالم من تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة 1980م.

محمد (الشريف):

(246) سبتة الإسلامية، دراسة في لتاريخ الاقتصادي والاجتماعي، منشورات جمعية تطاون، أسمير، تطوان 1995م.

- محمد (عوض محمد):

(247) السوادن الشمالي سكانه وقبائله، دار النهضة العربية للنشر والتوزيع 1976م.

- محمود (حسن أحمد):

(248) قيام دولة المرابطين، دار الفكر العربي، القاهرة 1956م.

- المدني (أحمد توفيق):

(249) كتاب الجزائر، القاهرة 1963م.

- مرزوق (محمد عبد العزيز):

(250) الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس، بيروت، دار الثقافة (د.ت).

- العلام (عز الدين):

(251) السلفة الأدب السلطاني، إفريقيا، الشرق، الدار البيضاء 1991م.

- المريني عبد الحق:

(252) الجيش المغربي عبر التاريخ، ط2، الرباط 1967م.

- المؤدن (عبد الرحمن):

(253) البادية المغربية، قبل الاستعمار، منشورات كلية الرباط 195م.

- مَزين (محمد):

(254) فاس وباديتها، مساهمة في تاريخ المغرب السعدي، مطبعة المعارف الجديدة، الرابط 1986م.

- ملين (محمد الرشيد):

(255) عصر المنصور الموحدي، الرباط، مطبعة الشمال الأفريقي، (د.ت).

- بن منصور (عبد الله الوهاب):

(256) قبائل المغرب، 2ج، الرباط، المطبعة الملكية 1968م.

- المنوني (محمد):

(257) المصادر العربية لتاريخ المغرب، الرباط، منشورات كلية الآداب 1983م.

(258) العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، الرباط، دار الغرب 1977م.

(259) حضارة الموحدين، الدار البيضاء، دار توبقال 1989م.

- الميلي (محمد):

(260) تاريخ الجزائر في القديم والحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د.ت).

- النّجار (عبد المجيد):

(261) المهدي بن تومرت، حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية، وأثره بالمغرب، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت 1989م.

- نشاط (مصطفي):

(262) التجارة بالمغرب الأقصى في العصر المريني الأول (668هـ / 759هـ)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عين الشق، الدار البيضاء 1988م.

- الهَرّاس (المختار):

(263) القبيلة والسلطة، تطور البنيات الاجتماعية في شمال المغرب، منشورات المركز الوطني لتنسيق وتخطيط البحث العلمي والتقني، مطبعة الرسالة، الرباط 1988م.

- يونس (عبد الحميد):

(264) الهلاليين في التاريخ والأدب الشعبي، القاهرة 1556م.

2 - المراجع المعرّبة:

- أشباح (يونس):

(265) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنان، القهرة، مؤسسة الخانجي 1958م.

- أشتور:

(266) التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى ترجمة عبد الهادي عبلة، دار قتيبة، دمشق 1985م.

- الطالبي (محمد):

(367) الدولة الغلبية، ترجمة المنجي الصيادي، بيروت، دار الغرب الإسلامي 1985م.

- المنّوني (خالد):

(268) محاولة تشخيص التشكيلية الاجتماعية المغاربية قبل الاستعمار، ترجمة محمد الأمين البزاز وعبد العزيز التمثماني، الرباط 1987م.

- جامي (عبد القادر):

(269) من طرابلس الغرب إلى الصحراء الكبرى، ترجمة محمد الأسطي، دار المصراتي.

- جغلول (عبد القادر):

(270) الاستقالية التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون، ترجمة فيصل عباس ومراجعة خليل أحمد، دار الحداثة، ط1، بيروت 1982م.

- جوليان (شارل أندري):

(271) تاريخ إفريقيا الشمالية، تغريب محمد حزالي والبشير بن سلامة، تونس، الدار التونسية للنشر 1979م.

- حَاييم (الزعفراني):

(272) ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب، تاريخ، ثقافة، دين، ترجمة، أحمد شحلان زعبد الغني أبو العزم، الدار البيضاء 1987م.

- رُوجي لي تورنو:

(273) حركة الموحدين في المغرب، ترجمة أمين الطيبي، تونس، الدار العربية للكتاب 1982م.

- لويس (أرشيبالد):

(274) القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، 500-1100م، ترجمة أحمد محمد عيسي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1960م.

- مارمول كرياخ:

(275) إفريقيا، ترجمة محمد حَجّي ومحمد الأخضر ومحمد زنير، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مكتبة العارف للنشر والتوزيع، الرباط، (1408هـ - 1409هـ / 1988م - 1989م).

- موريس لومبار:

(276) الإسلام في مجره الأول، ترجمة إسماعيل العربي، منشورات دار الأوقاف الجديدة، المغرب 1990م.

- هو بكتر:

(277) التنظيم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى، ترجمة أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس 1980م.

3- الرسائل الجامعية:

- أحمد (إلياس حسين):

(278) الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى، حتى مستهل القرن السادس عشر (16) كما عرفها الجغرافيون العرب، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة 1976م.

- اسكان (الحسين):

(279) جوانب من تاريخ التعليم في المغرب الوسيط من القرن (7هـ / 13م) إلى القرن (9هـ / 15م)، رسالة ديبلوم الدراسات العليا في التاريخ جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط 87-1988م.

- أنقرو (محمد):

(280) مجتمع المدن الإفريقية من خلال كتاب رياض النفوس (لأبي بكر المالكي، شهادة الكفاءة في البحث)، جامعة تونس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية (9 أفريل) 86-1987م.

- بعيزيق (صالح):

(281) بجاية في العهد الحفصي، دراسة اقتصادية واجتماعية، أطروحة دكتوراه، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس 2006م.

- بَنْميرة (عمر):

(282) النوازل والمجتمع، مساهمة في دراسة تاريخ البادية بالمغرب الوسيط، (د.د. عليا) في التاريخ جامعة محمد الخامس، كلية الآداب، الرباط 1988م.

- بوزيان (الدّرراجي):

(283) العصبة القبلية وأثرها على النّظم والعلاقات في المغرب الإسلامي من القرن 06هـ إلى 09هـ، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، معهد التاريخ 87-1988م

- بولطيف (لخضر):

(284) فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي، (510هـ - 668هـ / 1116م - 1269م).

- التميمي (أبو عبد الله الفاسي):

(285) المستفاد في مناقب الصياد بمدينة فاس وما يليها فن البلاد، تحقيق محمد الشريف، أطروحة دكتوراه الدولة، كلية الآداب، تطوان 2000م - 2001م.

- الدّبيش (عبد الوهاب):

(286) فاس المدينة بين سنتي (674هـ - 759هـ / 1276م - 1358م)، المجال والمجتمع وعلاقاتهما بالدولة، رسالة النيل (د.ذ.ع) في التاريخ جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب، فاس 1988م.

- الطويل (محمد):

(287) الفلاحة المغربية، في العصر الوسيط (د.د.ع)، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية 87-1988م.

- العبدلي (رجاء):

(288) المحرمات الغذائية في الإسلام بأفريقيا في العصر الوسيط، س.ك، بالبحث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس 2003م - 2004م.

- عجنق (رابح):

(289) السياسة الداخلية لدولة المرابطين، (454هـ - 1062 - 1106م)، رسالة ماجستير، جامعة منتوري، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية.

- العروي (عبد الله):

(290) تاريخ المغرب، ترجمة قرقوط، بيروت 1977م.

- إبن عميرة (محمد):

(291) دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، رسالة ماجستير، جاوعة الجزائر 1984م.

- غازي (سعيد جرادة):

(292) العبادة الاقتصادية والاجتماعية في العصر المرابطي بالمغرب، أطروحة دكتوراه في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب، الرباط 1991م.

- فهري (نافع):

(293) شبكة الطرقات إفريقية، خلال القرون الخمسة الأولى، (ش ب)، تونس 2000م.

- فيلالي (عبد العزيز):

(294) تلمسان في العهد الزياني، دارسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر 1995م.

- قدور (أحمد):

(295) المدن المغربية وعلاقتها بالإقليم، دراسة اجتماعية واقتصادية (د.د عليا) في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية 87-1988م.

- مجاني (بوبة):

(296) اثر العرب اليمنية في تاريخ بلاد المغرب في القرون الأولى الهجرية، رسالة ماجستير. جامعة القاهرة 1972م.

- إبن معمر (محمد):

(297) العلاقات السياسية والروابط الثقافية بين المغربية الأوسط والأقصى من نهاية القرن الثاني (ق2) إلى أواسط القرن السادس (ق6)هـ ، أطروحة دكتوراه في التاريخ جامعة وهران، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، 2001م - 2002م.

- ناصح (محمد):

(298) جوانب من الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمغرب الوسيط، القرن (6هـ / 12م) نموذجا(د.د.عليا)، في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط1987م.

- يعقوبي (جليلة):

(299) نظرة الإدريسي إلى المغرب الإسلامي، شهادة الكفاءة في البحث، جامعة منوبة تونس 1993م.

4 - المقالات بالعربية:

- أمين (توفيق الطيبي):

(300) النقود العربية غزت أوربا في العصر الوسيط، مجلة العربي، ع 276، سنة 1981م.

- أُو مليل علي:

(301) السلطة السياسية والسلطة العلمية (الغزالي، ابن تومرت، ابن رشد) مقال ضمن أعمال ندوة أبو حامد الغزالي، دراسات في فكره وعصره وتأثيره، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 19، الرباط 1988م.

- بوعزيز يحي:

(302) طرق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى، ندوة تجارة القوافل ودورها الحضاري، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد (1404هـ / 1984م).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- أبو تشيش (إبراهيم الاقدري):

(303) لماذا غيبت الفئات الشعبية من تاريخ المغرب تساؤلات وتطبيق، ضمن ندوة المغرب بين الماضي والحاضر والوسط الطبيعي، التاريخ، الثقافة، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 02، جامعة محمد الخامس 1986م.

(304) العوام في مراكش خلال عصري المرابطين والموحدين، ندوة مراكش من تأسيس إلى آخر العصر الموحدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاضي عياض 1988م.

- حركات إبراهيم:

(305) مدخل إلى تاريخ المغرب الاجتماعي والعسكري، خلال العهد المريني، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ع02، الرباط 1977م.

- أبو خالفة (نور الهدى):

(306) استقرار العرب وإنشاء المدن والقرى في المغرب الوسيط، ندوة، في أعمال ملتقى التغيرات الاجتماعية في البلدان المغاربية عبر العصور، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة منتوري، قسنطينة 2001م.

- الخطابي، (محمد العربي):

(307) ابن الخطيب السلماني وكتابه "الوُصُول لحفظ الصحة في الفصول"، مجلة الأكادمية، المملكة المغربية، ع02، جمادي الأولى 1405هـ.

- خوسي اليَمَاني:

(308) "الكتائب المسيحية في خدمة الملوك المغاربة"، مجلة دعوة الحق، عدد 5، سنة 1978م.

- دنش عصمت:

(309) ضواء على معاملة المرابطين لليهود من خلال نازلة الحكيم ابن قمنيل، مجلة الأكادمية، ع 18، المملكة المغربية، الرباط 2001م.

- زنيبر محمد:

(310) تجارة القوافل في المغرب، مقال في: ندوة تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن 19، معهد البحوث والدراسات العربي، بغداد (1404هـ - 1984م).

- سامعي اسماعيل:

(311) الحركة الاقتصادية في المغرب الأوسط من خلال كتاب صورة الأرض لابد حوقل، مجلة، جامعة الأمير عبد القادر، ع20، ربيع الأول 1427هـ / أفريل 2006م.

- شقور عبد السلام:

(312) من بيوتات سبتة في القرن الثامن، مجلة دعوة الحق، ع 1991/1412/286م.

- عز الدين موسى:

(313) انتشار الإسلام في غرب أفريقيا حتى نهاية القرن السادس عشر، ندوة العلماء الأفارقة ومساهماتهم في الحضارة العربية الإسلامية، الخرطوم 28-30 يوليو 1983م، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد 1985م.

- عمارة علاوة:

(314) الهجرة الهلالية وإستقالية انحطاط حضارة المغرب الإسلامي، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ع04، جامعة الأمير عبد القادر 2004م.

- الفهري عبد الحميد:

(315) البربر الجبالية في المغرب في العصور الوسطى، مقال في ندوة التغيرات الاجتماعية في البلدان المغاربية عبر العصور، كلية الأداب والعلوم الاجتماعية، قسنطينة 2001م.

- فيلالي عبد العزيز:

(316) الأحوال الصحية لسكان تلمسان في عهد بن زيان، ندوة التغيرات الاجتماعية في البلدان المغاربية عبر العصور، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري قسنطينة 2001م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- مجاني بوبة:

(317) كتب النوازل والأحكام، مصدر للتاريخ الإجماعي، العصر الزياني نمودجا، ندوة، التغيرات الإجتماعية في البلدان المغاربية عبر العصور، كلية الآداب والعلوم الإجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة 2001م.

- محمود إسماعيل:

(318) ملاحظات حول العامة في التاريخ الإسلامي، مجلة العربية للعلوم الإنسانية، ع10، 1995م.

- إبن معمر محمد:

(319) عبد المؤمن بن علي في مدرسة بن تومرت العلمية والدينية والحربية، مجلة، عُصور، يصدرها مخبر البحث التاريخي، ع02، جامعة وهران (423هـ / 2002م).

ثالثًا/ 1 - المراجع باللّغات الأجنبية:

- Bel (A) :

(320) « Contribution à l'étude des dirheurs de l'époque Almohade », Hespéris 1933, Tom 16.

(321) La Religion Musulmane en Berbéris quisse d'histoire et de sociologie religieuse, Paris, 1935.

- Ben Ramdane (K) :

(322) Les Monnaies Almohades, bibliothèques de Paris, Paris, 1979.

- Bertier (Paul) :

(323) Les Anciennes Sucreries du Maroc et leurs réseaux hydrauliques, 2tomes, Rabat, 1966.

- Bourgon (J) :

(324) Précis de l'art Arabe et matériaux pour servir à l'histoire, à la théorie et à la technique des arts de l'Orient musulman, Paris, 1892.

- Brunot (Y) :

(325) Noms des Vêtements Masculins à Rabat, Paris, 1986.

- Brunschvig (Robert) :

(326) La Berbéris Orientale sous les Hafsides, 2tomes, Paris, 1940-1947.

(327) L'aspect Militaire de La Conquête Almohade, Hésperis, 1934.

- Cahen (C) :

(328) « Ports et Chantiers Navals dans le monde méditerranéen musulman jusqu'aux croisades », in la navigation, Alto Medievo, Spolet, 1936.

- Chappoutu (Mounira) :

(329) Les Relations entre l'Égypte et Ifriqya aux XIII et XIVème d'après les auteurs maluks », T1, 1979.

- Coornaert (E) et (J) Sauzen :

(330) « Les hommes au travail de la pierre taillée au triomphe de la machine », Paris, 1949.

- De Mas-Latrie :

(331) Relations et Commerce de l'Afrique sept au Magrrerb avec les nations chrétiennes au moyen âge, librairie de Firmin Didot et lie, Paris, 1886.

- Deversum (Gaston) :

(332) Marrakech des origines à 1912, tome 1, Rabat, Editions techniques, Nord Africaines, 1959.

- Dozy (R.P) :

(333) Dictionnaire Détaillé des noms de vêtements chez les Arabes, Amsterdam, 1845.

(334) Histoire des Musulmanes d'Espagne, Leyde, Brill, 1801.

- Duby (G) :

(335) L'Économie Rurale et la vie des compagnes dans l'Occident Medieval, Paris, 1962.

- Dufourcq (Charles Emannuel) :
(336) La Vie Quotidienne dans l'Europe médiévale sous la domination arabe, Paris, Hachette, 1978.
- Fleury (V) :
(337) Les Industries indigènes de la régence, Paris, 1896.
- Fournel (H) :
(338) Étude Sur La Conquête de l'Afrrique par les Arabes, Paris, 1875-1881.
- Franklin (A) :
(339) Dictionnaire Historique des arts métiers et professions, Paris, 1906.
- Gautier : (E. D.)
(340) Le Passe de l'Afrique du Nord des siècles obscurs du Maghreb, Paris, 1938.
- Golvin (L) :
(341) « Note Sur L'industrie du cuivre en occident musulman au moyen âge (C. L. OS.) Aix-Marseille, 1973.
- Hady (Roger Idris) :
(342) La Berbéris orientale sous les Zirides XIIème siècle, librairie d'Amérique et d'Orient, Adrien Maisonneure, Paris, 1962, Vol 1.
- (Farhat), Halima:
(343) Famille et Société à Sabta d'après l'ouvrage du Casilyyad Madhabih Al-Hukkam, 12ème vol, Fasse 2, 1992.
- Jacques Berque :
(344) Les Structures Sociales du haut-Atlas, Duf : Paris, 1963.

- Jallol (N) :

(345) Permanences antiques et mutations médiévales agriculture et produits du sols en Ifriqiya au haut Moyen âge X-XIIème siècle, Africa, Romana, Décembre 1996.

- Jouin (J) :

(346) Le Costume de La Femme israélite au Maroc, Paris, 1944.

- Lacoste (Yves) :

(347) Ibn Khaldoun, Naissance de l'histoire passé, 5ème ed, Paris, Maspero, Paris, 1980.

- Le Tourneau (R) :

(348) Fès avant le Protectorat, étude économique et sociale d'une ville de l'Occident musulman, Rabat, 1987.

- Levi-Provençal (E) :

(349) Histoire de l'Espagne musulmane, T.I, Paris, G.P Maisonneure leiden E.J. Brill, 1950.

- Lombard (M) :

(350) L'Islam dans sa premier grandeur, Paris, 1971.

- Marçais (G) :

(351) Le Costume Musulman d'Alger, Paris, Plan 1930.

(352) La Berbéris Orientale et l'orient au moyen âge, Paris, 1946.

- Massignon (L) :

(353) Essais sur Les origines du lexique technique de la pystique musulmane, librairie, phiba, Paris, 1968.

(354) Enquête sur les corporations de commerçants et d'artisans au Maroc, Paris, 1966.

- Mauny (R) :

(355) Tableau Géographique de l'ouest africain au Moyen âge d'après les F.N.A. tradition at arckiologie, Dakar, 1961.

(356) Les Navigations sur les cités sahariennes antérieures aux découvertes portugaise, Paris, 1970.

- Merad (Ali) :

(357) Abd-Al Mûmin, à la conquête de l'Afrique du Nord annales de l'institut des Études orientales, Alger, 1959.

- Rosenberger (B) :

(358) Retour d'une grande mine d'argent du moyen âge marocain, le djebel Aouan Hesperis, Tamouda, 1964.

(359) Les Vieilles Exploitations, Minières et les lettres métallurgiques du Marroc, essai de carte historiqrue N°17, Rasbat, 1980.

- Sefrioui (A) :

(360) Les Babouches (Ilbalgha), la grande encyclopédie du Maroc, impriment Italie, cep, 1edit 1987.

(361) Costume et parure d'Afrique, Maroc, imprimerie Gaillard, Casa, 1982.

- Tadeut (Lewicki) :

(362) « Les Voies Maritimes de la méditerranée dans le haut moyen âge d'après les sources arabes », spoleto, 1942.

- Terrasse (H) :

(363) Histoire du Maroc des oigines à l'établissement du protectorat français, Casablanca, 1949

- Troin (G.F) :

(364) Les Souks Marocains, Marchés ruraux et organisation de l'espace dans la moitié nord du Maroc, edi sud, 1975.

- Verliden (Charles) :

(365) Aspects Quantitatifs de l'esclavage médite-rranéenne au bas moyen âge, un grand commerce international au Xème siècle mélange, Poitiers, 1974.

- Abdelhad (Sabi) :

(366) Aristocratie Citadine, pouvoir et dixoucs savant au Maroc précolonial contribution de la littérature généalogique fassie XVème début XXème siècle. Thèse de doctorat de 3ème cycle, université de Paris, 1984 (dactylographié).

- Alaoui Abdelazizm

(367) Le Meghrib et le Commerce Transaharien XIème-XIV, thèse, 3ème cycle, Bordeaux 1983.

- Talbi (M) :

(368) « Quelques données sur la vie sociale en occident musulman d'après un traite de Hisba du 9ème siècle », dans Arabica 1, 1954, p 294.

- Vanacker (C) :

(369) « Géographie économique de l'Afrique du Nord », Annales, E.S.C (Mai/Juin), 1973.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفهارس

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأعلام

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأعـــــلام

– أ –

– أبا عبد الله الرّعيني: 436
– إبراهيم الثاني الأغلبي: 30
– إبراهيم بن خفاجة: 249
– إبن الأبار: 45، 59، 73، 76، 126، 131، 132، 133، 152، 154، 157، 175، 177، 187، 239، 240، 262، 280، 299، 300، 337، 347، 349، 361، 384، 436، 506، 507، 602
– إبن أمغار: 119
– أبو إسحاق: 116، 156، 188، 208، 265، 530
– أبو العباس أحمد بن محمد: 75، 175، 284، 505
– أبو بكر بن العربي: 254
– أبو جعفر أحمد بن حسان القاضي: 173
– أبو جعفر أحمد بن عطية: 110، 111
– أبو زيد القيرواني: 545
– أبو عبد الله محمد بن إبراهيم: 224، 544
– أبو مروان عبد الملك بن زهر: 76
– أبي إسحاق إبراهيم: 249
– أبي البقاء حيان: 74
– أبي البيطار المالقي: 506
– أبي العباس التيفاشي: 156، 347
– أبي العلاء بن المنصور: 312
– أبي بكر محمد: 75
– أبي يعقوب يوسف: 114، 124، 131، 152، 155، 268، 272، 274، 306، 326، 328، 445، 449، 451، 453، 467، 481، 512، 532، 552، 556
– أحمـــد بن حسن: 298
– أحمد بن علي بن مُورَاطُوه: 274
– أحمد بن محمد الغافقي: 505
– أحمد بن يحي الشريف: 269
– إدريس بن جامع: 121
– أفلح بن عبد الوهاب: 69
– الأزموري: 145، 148، 150، 559، 581
– الأشيري: 112
– الأصولي: 126
– ألفونسو الأول: 56
– ألفونسو السادس: 51
– اللّخمي: 222، 280
– الهَنتاتي: 83
– أيوب بن سعيد الصنهاجي: 528
– إبن أبي زكريا: 223

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- ب -

- بلكين بن زيري: 9، 10، 92
- البرزلي: 56، 188، 189، 237، 238، 348
- باديس بن المنصور: 92
- ابن برجان: 197، 235
- بَعبش المالقي: 173
- البيدق: 3، 13، 14، 15، 26، 53، 60، 72، 81، 87، 88، 93، 100، 102، 104، 106، 107، 109، 110، 116، 117، 137، 146، 147، 172، 181، 195، 208، 212، 216، 223، 250، 255، 258، 259، 260، 261، 262، 286، 287، 288، 291، 292، 297، 302، 304، 330، 346، 364، 384، 388، 394، 396، 397، 398، 401، 408، 425، 438، 477، 493، 498، 528، 535، 537، 540، 542، 561، 573، 581، 587، 606
- إبن بسّام أبي جعفر: 268
- إبن بصال: 343، 371، 372، 384، 388

- ت -

- تاشفين بن علي: 56، 82
- التاودي: 191
- التجاني: 16، 21، 25، 30، 31، 32، 33، 65، 67، 68، 69، 79، 151، 235، 265، 596
- تميم محمد: 62
- بن تومرت: 4، 12، 14، 15، 25، 26، 54، 73، 75، 82، 88، 100، 101، 102، 107، 110، 115، 120، 126، 131، 137، 139، 148، 149، 150، 182، 197، 205، 213، 218، 234، 298، 299، 302، 306، 314، 332، 336، 421، 427، 474، 490، 495، 500، 530، 539، 542، 563، 589
- بن توندوت: 213

- ج -

- الجزيري: 195، 198، 288
- جراندة الجليقي: 60، 614
- جَوْهر الصّقلي: 36

- ح -

- بن حبوس: 157
- بن حزهم: 238
- إبن حزم الأندلسي: 74، 103
- حسان بن النعمان: 55
- الحسن التّازي: 168
- الحسن بن علي: 126، 149، 211
- الحسن بن عياش: 114
- الحسن بن ميمون: 154

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- الحسن الوزان: 10، 14، 30، 97، 167، 168، 185، 203، 204، 210، 215، 216، 267، 297، 300، 301، 309، 311، 312، 313، 315، 316، 359، 376، 403، 412، 414، 416، 420، 427، 430، 431، 435، 437، 453، 454
- أبو الحسن يَهودا: 42
- أبي حفص: 229، 231، 232، 253، 299، 352، 464، 567، 598
- حفصة بنت الحاج الركوني: 159
- حماد بن بَلكين: 11

- خ -

- ابن خلدون: 5، 6، 7، 9، 10، 12، 13، 16، 18، 21، 22، 23، 24، 25، 26، 27، 28، 30، 31، 32، 33، 34، 35، 36، 37، 38، 39، 54، 58، 59، 63، 68، 69، 70، 71، 74، 76، 79، 81، 86، 102، 103، 104، 105، 106، 118، 121، 122، 125، 126، 131، 134، 138، 139، 144، 145، 148، 149، 151، 153، 159، 164، 165، 173، 197، 200، 201، 203، 217، 229، 244، 263، 296، 305، 306، 326، 330، 337، 340، 341، 355، 360، 393، 398، 399، 405، 409، 410، 412، 414، 418، 427، 462، 469، 470، 471، 478، 491، 508، 516، 536، 547، 556، 557، 562، 563، 570، 571، 577، 582، 583، 585، 589، 597، 598

- ر -

- رافع بن أمير الأمراء: 33
- رباح بن سعدات: 361
- ابن رشد الجد: 212
- ابن رشد الحفيد: 279
- إبن الرّنك: 61
- الروبيرتير: 60

- ز -

- بن زغبوش: 131
- أبو زكريا يحي بن موسى المليحي: 238
- الزهري: 13، 549، 570، 573، 582، 585
- زنكة الكومية: 240
- زينب بنت عبَّاد السرمانية: 284
- زينب بنت علي بن يوسف: 89

- س -

- سارة الفاسية: 228
- السبتي: 137، 138، 147، 167، 169، 172، 189، 190، 195، 227، 249، 270، 271، 282، 287، 290، 329، 351، 354، 374، 388، 425، 456، 489، 493، 517، 518، 579، 581، 589، 590، 594، 599، 603
- سحنون: 46، 57، 279، 554، 596

- السلطان: 47، 60، 65، 104، 122، 123، 125، 132، 136، 143، 146، 169، 186، 200، 222، 278، 332، 349، 458، 500، 514، 545، 546، 551، 553، 565، 566
- سارة الفاسية: 222
- السبتي: 134، 143، 163، 165، 167، 184، 185، 190، 221، 243، 264، 275، 280، 283، 321، 344، 346، 370، 372، 431، 459، 466، 483، 484، 508، 512، 533، 600، 601
- سحنون: 45، 55، 272، 558
- السلطان سَنْجر: 60
- بن سليمان بن حوط: 218
- سليمان النفزي: 186
- السّمُؤل يحيى بن عباس: 43
- سيدي أبي إسحاق: 19

- ش -

- شارة الحلبية: 287
- شرف الدين قراقوش: 63، 66، 67، 68
- الشّقَنْدي: 219

- ص -

- ابن الصائغ: 237
- ابن الصقر: 490
- صلاح الدين الأيوبي: 49، 63، 67، 351، 474

- ط -

- إبن الطاهر المكناسي: 566
- الطاهر بلعمري: 141
- الطّوسي: 113

- ع -

- أبو العباس احمد بن محمد القرشي: 75
- عائشة بنت محمد الجبار: 290
- عباس بن عبد الملك: 113
- إبن عبدون: 167، 168، 177، 192، 250، 257، 263، 280، 281، 312، 499
- عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدي: 245
- عبد الحق بن عبد الله بن معيشة: 565
- عبد الحق بن علناس: 118
- عبد الرحمن الأوسط: 69
- بن عبد الرحمن العقيلي: 174
- عبد الرحمن القاليك: 112
- عبد الرحمن الهزميري: 202
- عبد الرحمن بن سليمان: 103

- عبد المؤمن بن علي: 4، 11، 14، 15، 21، 25، 26، 28، 33، 47، 62، 82، 88، 90، 102، 103، 104، 105، 106، 107، 108، 109، 110، 111، 112، 114، 116، 117، 119، 120، 124، 129، 130، 131، 139، 144، 147، 150، 155، 156، 157، 174، 189، 196، 208، 209، 214، 222، 225، 227، 229، 230، 231، 244، 246، 252، 254، 258، 260، 272، 274، 287، 290، 291، 300، 324، 328، 335، 346، 349، 350، 352، 359، 389، 393، 396، 411، 444، 446، 448، 458، 474، 489، 491، 510، 518، 520، 530، 532، 553، 555، 576، 578، 580، 581، 583، 585
- عبد الرحمن سوجات: 103
- عبد السيد: 150
- عبد الله المازري: 72
- أبي عبد الله بن الفقيه:161
- عبد الله بن محسن: 109، 148
- عبد الله بن محمد:490
- عبد الله بن ياسين: 8
- عبد الله محمد بن عيسى: 240
- بن عبد الله ميمون العبدري:224
- عبد الملك بن إياس أبو الحسن القرطبي: 73
- عبد الملك بن زهر: 75، 151، 278، 345
- عبد الواحد الشرقي: 108
- عثمان السّلاجي: 290
- عثمان بن عبد المؤمن: 156
- عثمان بن عفان: 245، 246، 489
- عقبة بن نافع: 16، 509
- عُقيل بن عطية القضاعي: 490
- على المؤذن بن سعد المكناسي: 566
- علي بن إسحاق بن غانية: 65
- علي بن زهوان: 566
- عليم بن عبد العزيز بن هاني العميري: 240
- علي بن يوسف بن تاشفين: 44
- عمر السلاجي: 187
- عمر بن أبي الحسن الغرياني: 228
- عمر بن احمد بن سعد اللخمي: 79
- أبو عمر عثمان: 129
- عمر بن علي الصنهاجي: 110
- عمر بن طلحة الوهراني: 560
- عياض أبو الفضل: 129
- عيسى بن أحمد الرازي: 559
- عيسى بن حسن: 26
- عيسى بن علال: 121
- عيسى بن واصل: 490

- غ -

- غَانم بن مردنيش: 84
- الغبريني: 64، 74، 75، 102، 112، 115، 260، 568
- الغزالي: 71، 322، 323173، 606

- ف -

- أبو الفضل بن يوسف النحوي: 185
- بن فرج الكومي: 206، 226
- فَتّاك أبو بكر: 515

- م -

- ماكسن بن المعز: 113، 283
- مالك بن أنس: 540
- محرز بن زياد: 26
- المرادي بن طويل: 161
- المرخى: 335
- ابن محشرة: 112
- محمد بن الحسين بن الزبير الثقافي: 263
- محمد بن طملون الوهراني: 272
- محمد بن غالب: 342
- محمد بن وانُدين: 82
- إبن مردنيش: 27، 59، 218
- ابن مرزوق: 120، 132، 302، 320، 329، 359، 417، 484، 601
- بن المعلم الطنجي: 222
- المنصور بن الناصر: 21
- مَكّي بن كامل: 32
- ملكشاه: 51
- موسى المحمودي: 122
- موسى بن أبي العافية: 35
- موسى بن نصير: 17
- ميسرة المطغري: 6

- و -

- ورقاء بنت بنتان:290
- بن ويحلان:185

- ي -

- إبن يَصل: 35
- المعز بن باديس: 33، 34، 36، 588
- اليازوري: 33
- يحي بن إسحاق: 87
- يحيَ بن العزيز: 220
- يخلف: 248

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- يعقوب المنصور: 28، 47، 48، 50، 65، 67، 68، 83، 107، 130، 139، 141، 142، 151، 152، 154، 155، 168، 172، 190، 192، 236، 249، 269، 273، 286، 302، 311، 313، 322، 328، 331، 332، 333، 338، 354، 356، 372، 417، 433، 434، 435، 451، 454، 463، 468، 471، 482، 511، 512، 525، 548، 559، 589
- يَهودا شويع الفاسي: 41
- يوسف بن تاشفين: 8، 14، 23، 51، 94، 241، 304، 334
- يوسف بن خالد الفاسي: 541
- يونس بن أحمد بن هشام: 344

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأماكن والبلدان

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأمـــاكن والبلـــدان

- أ -

- ازمور: 11، 305، 573
- إسبانيا: 39، 42، 53، 57، 80، 82، 83، 84، 85، 92، 93، 94، 95، 557، 602
- إشبيلية: 83، 108، 230، 262، 350
- أشكونية: 82
- أغمات: 7، 42، 47، 54، 156، 158، 169، 185، 225، 242، 294، 392، 394، 395، 443، 453، 456، 486، 490، 528، 535، 545، 547، 573، 574، 575، 577، 598، 599، 604
- إفريقية: 3، 5، 8، 11، 16، 18، 19، 21، 22، 24، 25، 27، 28، 30، 31، 32، 34، 35، 42، 54، 63، 64، 65، 72، 76، 78، 81، 90، 106، 160، 196، 229، 230، 318، 335، 347، 403، 410، 426، 428، 445، 451، 452، 461، 468، 487، 488، 489، 490، 493، 498، 504، 507، 522، 563، 567، 572، 587، 595، 601
- إفكان: 36
- الأربُس: 441
- الأسكندرية: 9، 17، 22، 184، 233، 260، 351، 484، 495، 536، 544، 585، 589، 603
- الأناضول: 62
- الأندلس: 12، 14، 29، 40، 42، 49، 51، 52، 53، 54، 57، 59، 60، 69، 70، 71، 72، 73، 74، 75، 76، 78، 82، 83، 84، 92، 93، 94، 95، 106، 108، 112، 113، 128، 140، 154، 156، 169، 171، 175، 208، 210، 220، 222، 229، 233، 234، 246، 251، 256، 261، 273، 274، 290، 294، 300، 313، 314، 332، 334، 335، 336، 338، 341، 416، 430، 440، 449، 458، 459، 468، 479، 484، 488، 489، 499، 507، 508، 509، 510، 517، 521، 532، 534، 544، 545، 563، 569، 583، 588، 589، 591، 603، 606
- الأوراس: 198، 411، 576
- أم الربيع: 13، 255، 257، 393، 427، 433، 486، 490، 593، 610
- إنجلي: 393، 433، 507، 508
- إيكلي: 443، 452، 505، 598

- ب -

- البطحاء: 315، 519
- البلغار: 93
- البليار: 94
- باجة: 18، 21، 27، 87، 442، 475
- بادس: 376، 434
- بحيرة تشاد: 577

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- بُخارا: 62
- برشلونة: 262
- برقة: 18، 25، 41، 65، 66، 202، 234، 403، 487، 496، 565، 567، 568، 571، 583
- بغداد: 30، 62، 235، 315، 517
- بلاد الريف: 9، 21
- بلاد السودان: 18، 20، 170، 453، 454، 465، 487، 527، 534، 535، 575، 576، 577، 578، 581، 598، 599، 601
- بلاد النوبة: 92، 170
- بلاد حاحة: 465
- بلزمة: 18
- بترت: 25، 428، 431، 500، 596
- بونة: 23، 27، 35، 42، 91، 233، 241، 302، 389، 427، 428، 442، 503، 529، 567، 583، 584، 588، 594، 597
- بيلم: 579

- ت -

- التيطري: 12، 20، 26
- تاجرا: 11، 257، 505، 549
- تادلا: 7، 90، 120، 371، 435، 445، 493، 578
- تارودانت: 395، 455، 510
- تازا: 17، 235، 364، 407، 485، 519، 570، 577
- تامدولت: 446، 448
- تَامسنا: 20، 206، 268
- تاهرت: 12، 19، 29، 30، 42، 71، 172، 238، 454، 470، 484، 494، 502، 506، 508، 537، 538، 549، 573، 574، 596، 597
- تبسة: 19، 467، 505
- تُركِستان: 62
- تلمسان: 9، 12، 15، 24، 26، 27، 41، 42، 48، 56، 59، 64، 72، 73، 80، 115، 118، 120، 122، 131، 135، 158، 162، 164، 167، 172، 174، 200، 226، 234، 247، 252، 257، 258، 269، 294، 303، 312، 362، 367، 390، 393، 394، 405، 407، 416، 424، 433، 435، 444، 446، 475، 476، 482، 494، 497، 499، 501، 506، 519، 534، 538، 539، 546، 559، 573، 574، 577، 578، 579، 585، 597
- تمبكتو: 1، 579
- تَهُودَا: 19
- توات: 582، 584
- توزر: 33، 66، 476، 485
- تونس: 14، 18، 21، 25، 29، 30، 31، 33، 34، 35، 38، 42، 43، 47، 52، 55، 56، 58، 59، 68، 75، 77، 78، 81، 93، 138، 145، 152، 160، 164، 172، 177، 202، 216، 230، 234، 235، 258، 264، 268، 277، 303، 349، 390، 418، 426، 428، 433، 445، 446، 453، 454، 456، 458، 463، 472، 476، 477، 482، 485، 491،

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

499، 502، 510، 514، 526، 535، 536،
549، 557، 566، 571، 573، 574، 583،
585، 586، 591، 594، 599، 605
- تيمْلِيمَن: 507

- ج -

- الجريد: 24، 52، 63، 64، 65، 66، 67،
68، 167، 245، 262، 343، 384، 393، 428،
499، 571، 574، 586، 590، 592
- جبال الونشريس: 413، 489، 561
- جبال أوراس: 26، 252، 459
- جبال درن: 10، 199، 395، 417، 447،
500، 502، 537، 560، 561، 575، 586
- جبال كتامة: 413، 461
- جبل الفتح: 345

- ح -

- الحجاز: 233، 234

- خ -

- خرسان: 32، 60

- ر -

- الرباط: 7، 12، 13، 15، 42، 54، 62، 69،
75، 76، 80، 81، 87، 93، 96، 100، 102،
103، 114، 120، 123، 124، 137، 139،
143، 144، 148، 150، 152، 158، 159،
165، 179، 181، 182، 185، 191، 195،
201، 202، 203، 205، 237، 238، 242،
245، 263، 264، 267، 269، 272، 275،
276، 331، 336، 357، 360، 361، 363،
364، 384، 400، 419، 421، 422، 423،
429، 438، 449، 453، 454، 457، 465،
466، 495، 509، 510، 527، 538، 560،
570، 576، 578، 603
- رباط الفتح: 117، 229، 254، 458،
535، 552
- ريكة: 103، 402

- تينملل: 14، 105، 187، 211، 231، 344،
413، 508، 519

- ج -

- جبل طارق: 40، 69، 172، 434، 467
- جرجان: 60
- جزائر بني مزغنة: 10، 11، 26، 569،
585
- جلولا: 383، 408
- جيجل: 9، 560، 586، 587
- جيليقية: 93

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- ز -

- الزاب: 18، 22، 23، 34، 400، 574، 579
- زجندر: 296، 445، 553
- زويلة: 233، 235، 493، 503، 566، 577، 604

- د -

- الدّاي: 441
- درعة: 7، 10، 81، 398، 411، 440، 484، 541، 566، 573، 580
- دَلّس: 11

- س -

- السّنغال: 579
- السودان: 5، 18، 20، 91، 92، 96، 157، 158، 169، 296، 309، 431، 441، 442، 451، 454، 455، 463، 484، 524، 531، 532، 560، 565، 568، 569، 573، 574، 575، 576، 577، 578، 579، 580، 595، 596، 599، 600، 604
- السوس الأقصى: 7، 13، 106، 265، 296، 439، 441، 450، 451، 490، 493، 505، 573، 596، 597
- سبتة: 20، 40، 41، 71، 76، 83، 85، 117، 118، 120، 124، 129، 133، 144، 150، 151، 152، 158، 160، 164، 166، 181، 224، 237، 274، 334، 335، 389، 391، 393، 415، 418، 424، 426، 428، 429، 446، 452، 459، 464، 467، 468، 486، 489، 510، 526، 584، 587، 588، 590، 597، 598
- ستنوين: 106
- سجلماسة: 20، 46، 117، 150، 169، 173، 198، 204، 233، 263، 296، 307، 344، 369، 390، 398، 402، 405، 431، 451، 452، 453، 454، 455، 497، 535، 541، 560، 573، 574، 575، 579، 581، 591
- سِرت: 21
- سطفورة: 18
- سطيف: 27، 386، 398، 503، 564
- سلا: 12، 34، 117، 158، 335، 392، 429، 452، 457، 464، 467، 505، 541، 542، 571، 574، 580، 581، 582
- سوسة: 118، 232، 349، 489، 492، 586، 589، 592، 606
- سوق إبراهيم: 20

- ش -

- شبشاوة: 398
- شرشال: 233، 591

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- شلب: 83، 85

- ص -

- صعيد مصر: 31، 62

- صفاقس: 23، 228، 472، 485، 503، 591، 606

- صفاقص: 118، 233

- ط -

- طبرقة: 18، 171، 472، 598، 609

- طرابلس: 17، 21، 24، 34، 40، 64، 68، 70، 137، 159، 449، 502، 532، 533، 570، 573، 574، 575، 576، 577، 578، 587، 600

- طركونة: 82

- طليطلة: 52، 71، 261، 602

- طنجة: 13، 40، 41، 254، 284، 389، 390، 415، 452، 467، 478، 520، 543، 559، 568، 580

- ع -

- العراق: 38، 61، 396

- غ -

- غات: 575، 577، 578، 599

- غدامس: 20، 575، 576، 577، 578، 579، 599

- غرب أفريقية: 65، 90، 444

- غرناطة: 48، 82، 83، 208، 256، 307- غلام: 268، 443

- غمارة: 8، 12، 89، 341، 365، 394، 395، 397، 399، 404، 409، 410، 417، 565

- ف -

- الفتح: 16، 17، 18، 20، 29، 38، 39، 54، 119، 231، 349، 356، 359، 360، 403، 404، 405، 457، 463، 516، 567، 581

- الفسطاط: 478، 483، 520

- فارس: 27، 134، 157، 209، 319، 403، 590

- فازاز: 42، 407، 417، 494

- فاس: 8، 13، 19، 35، 40، 41، 44، 46، 54، 73، 79، 83، 87، 92، 93، 96، 116، 117، 122، 123، 137، 150، 151، 156، 160، 162، 163، 165، 169، 172، 180، 193، 195، 197، 209، 224، 233، 243،

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

250، 256، 263، 265، 272، 274، 289،
291، 301، 303، 310، 311، 312، 313،
314، 334، 343، 355، 366، 369، 376،
390، 391، 393، 397، 398، 426، 430،
438، 451، 452، 454، 456، 457، 463،
468، 471، 473، 478، 479، 483، 487،
488، 489، 497، 501، 505، 514، 526،
533، 537، 538، 541، 544، 559، 569،
570، 571، 572، 573، 574، 575، 580،
582، 592، 601، 604
- فرنسا: 93

- ق -

- القدس: 87، 341
- القسطنطينية: 93، 591
- القيروان: 17، 19، 21، 25، 27، 33، 35،
36، 42، 46، 57، 88، 168، 171، 242، 442،
468، 485، 503، 532، 533، 570، 571،
573، 578
- قابس: 19، 25، 33، 65، 67، 69، 70،
234، 327، 388، 389، 390، 416، 488،
505، 533، 578، 580، 581، 583، 596،
603
- قرطبة: 37، 45، 85، 113، 213، 247،
257، 343، 346، 349، 513
- قَسْطِيلية: 54
- قسنطينة: 18، 19، 21، 22، 23، 28، 35،
81، 166، 202، 233، 413، 503، 559، 567،
571، 572، 575، 577، 583، 595، 598
- قصر عبد الكريم: 422، 431
- قفصة: 24، 33، 66، 67، 69، 99، 126،
230، 327، 348، 444، 485، 493، 505، 595،
597
- قلعة المهدي: 171
- قلعة بني حماد: 22، 34، 90، 480، 494،
567، 572، 595
- قلعة رباح: 87
- قلعة هوّارة: 506

- ك -

- كانم: 158

- م -

- ماسة: 79، 143، 530
- مالقة: 242، 314، 350، 547
- مالي: 35، 223، 285، 563، 582، 603
- متيجة: 20، 26، 389، 487
- مجانة: 18، 504، 570
- مدينة الملك: 602
- مراكش: 8، 13، 14، 15، 16، 28، 29،
38، 42، 47، 48، 50، 55، 58، 60، 61، 67،
73، 78، 82، 84، 85، 89، 90، 104، 109،
112، 113، 115، 117، 130، 133، 140،
141، 144، 154، 157، 163، 171، 172،
188، 194، 195، 196، 197، 198، 205،
209، 210، 223، 225، 228، 233، 236،
237، 244، 246، 249، 250، 253، 255،
257، 262، 271، 273، 275، 287، 288،

292، 294، 296، 300، 308، 309، 328،
330، 331، 337، 340، 360، 366، 376،
391، 394، 395، 400، 433، 434، 438،
439، 448، 452، 453، 457، 464، 465،
470، 471، 472، 473، 475، 476، 479،
491، 506، 508، 509، 512، 513، 515،
516، 517، 523، 524، 537، 538، 543،
545، 563، 567، 573، 574، 576، 595،
605

- مرزق: 579
- مرسى الدجاج: 71
- مرسية: 416، 480
- المحيط الأطلسي: 12، 574، 576، 590
- المدية: 10، 11، 26
- المرية: 71، 114، 484، 605
- المسيلة: 10، 11، 19، 26، 31، 34، 402،
410، 431، 432، 433، 487، 567، 570،
571، 578، 588، 598، 600
- المغرب الأقصى: 6، 8، 9، 10، 12، 13،
17، 20، 21، 22، 24، 27، 28، 29، 31، 36،
38، 41، 57، 70، 71، 101، 114، 145، 148،
231، 234، 305، 306، 335، 390، 398،
402، 404، 405، 408، 423، 443، 452،
453، 460، 464، 491، 496، 497، 503،
506، 567، 568، 576، 594، 595

- المغرب الأوسط: 3، 9، 17، 20، 22، 23،
30، 41، 71، 90، 97، 150، 162، 199، 202،
233، 358، 389، 402، 407، 408، 419،
426، 459، 461، 465، 483، 495، 500،
505، 506، 534، 545، 553، 566، 567،
568، 569، 573، 576، 582، 597، 598،
603
- المنستير: 138
- المهدية: 21، 23، 36، 42، 47، 71، 95،
101، 192، 255، 262، 344، 466، 469،
491، 495، 533، 534، 537، 547، 570،
588، 589
- مصر: 9، 12، 17، 21، 32، 39، 41، 63،
64، 71، 93، 94، 226، 234، 310، 340،
346، 375، 376، 444، 479، 568، 602،
605
- مكناسة: 20، 55، 58، 82، 102، 131،
168، 199، 218، 268، 284، 360، 364،
366، 390، 393، 438، 458، 472، 506،
546، 574
- ملوية: 8، 17، 375، 400، 405، 571
- ميزاب: 23
- ميلة: 19، 30، 34، 35، 571، 583

- ن -

- نَدرومة: 11
- نفزة: 199، 544
- نفيس: 391، 400
- نُكّور: 395
- نهر درعة: 10
- نهر سبّو: 607
- نول لمطة: 161، 303، 332، 423، 453،
456، 467، 474، 495، 499، 576، 590،
591

- نيسابور: 62
- نيقوس: 66

- هـ -

- الهقار: 407
- الهند: 160، 273، 510، 585، 605

- و -

- الونشريس: 8، 402، 408، 418، 494، 568
- وادي زوزْفانة: 577
- وادي مجردة: 256
- وادي مصمودة: 169، 171
- ودّاي: 491
- ورجلان: 420، 487
- ورغة: 8، 453
- وهران: 14، 37، 41، 71، 106، 199، 202، 470، 495، 545، 577، 587

- ي -

- يرنو: 302

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس القبائل

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس القبـــائـــل

– أ –

- الإثبج: 22، 23، 26، 27، 28، 35

– ب –

- برغواطة: 8، 88، 307
- بطيوة: 10، 11

– ت –

- تامْسنا: 20، 205
- تلكانة: 9، 10، 11
- تينملل: 14، 104، 105، 186، 210، 230، 341، 409، 504، 515

– ج –

- جراوة: 40، 157، 199، 463، 569
- جشم: 27، 28، 30
- جزولة: 7، 89، 309، 491

– ح –

- حاحا: 13، 463، 491، 504، 505
- بني حميد: 15

– خ –

- خنفيسة: 474

– د –

- درعة: 7، 10، 82، 399، 412، 440، 485، 542، 566، 573، 574، 580
- دكالة: 13، 248، 395، 399، 414، 467
- دريد: 27، 35

– ر –

- بنو الرند: 33، 67، 593
- رياح: 21، 22، 25، 26، 30، 33، 35، 37، 593
- ربيعة: 18
- ريكة: 104، 402
- رحراجة: 211

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

– ز –

– زغبة: 22، 23، 26، 27، 35

– زناتة: 6، 7، 23، 36، 37، 38، 174، 199، 200، 230، 326، 357، 399، 403، 406، 417، 451، 569

– بني زيري: 12، 33، 387، 585، 605

– س –

– بني سليم: 18، 19، 25، 28، 69

– ص –

– صدف: 121

– صطفورة الزناتية: 104

– صنهاجة: 3، 6، 7، 9، 10، 13، 15، 23، 27، 36، 88، 200، 327، 357، 370، 388، 405، 436، 469، 515، 565، 580، 581

– ط –

– الطوارق: 577، 578

– غ –

– بني غانية: 35، 38، 66، 67، 68، 69، 73، 388، 402، 450، 458، 459، 570، 586

– غمارة: 8، 13، 90، 341، 365، 394، 395، 397، 399، 403، 409، 417، 566

– غفار: 18

– ف –

– فهر: 18

– ق –

– قريش: 19

– قيس: 19، 20، 26، 149، 403، 594

– قضاعة: 19

– ك –

– كتامة: 9، 23، 30، 357، 417، 421، 465، 504، 565، 568

– كدالة: 406

– كدميوة: 13، 14

– كزولة: 287، 289، 309، 580

– كنفيسة: 104

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- كومية: 12، 16، 104، 105، 106، 199، 230

- ل -

- لمتونة: 258، 343، 394، 406، 451، 491، 493، 561
- لمطة: 13، 161، 287، 302، 331، 406، 422، 444، 452، 453، 455، 466، 473، 493، 498، 574، 580، 587، 588، 598، 605
- لواتة: 199، 484

- م -

- مدحج: 20
- المدية: 10، 12، 26، 27
- مسوقة: 406
- مصمودة: 3، 10، 12، 13، 14، 15، 29، 99، 106، 169، 170، 185، 357، 395، 465، 468، 516، 580، 595
- مغراوة: 15
- مكناسة: 21، 56، 59، 82، 101، 131، 167، 199، 218، 267، 283، 359، 363، 365، 389، 392، 436، 457، 471، 504، 544، 572

- هـ -

- هسكورة: 10، 465، 470، 511
- بني هلال: 3، 27، 30، 32، 33، 34، 36، 38، 63، 65، 388، 571، 585، 586، 593، 594
- هنتانة: 14، 104
- هوارة: 186، 452، 490، 504

- و -

- بني ورتاجن: 326
- وريكة: 14

- ي -

- يحصب: 20

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الموضوعات

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الموضوعـــــات

المقدمة	أ
الباب الأول: الحياة الإجتماعية في بلاد المغرب خلال 515هـ - 595هـ / 1120م - 1199م	1
الفصل الأول: أصول السكان وتحركاتهم	2
تقديم	3
*** البربر**	5
1 - إنتقال بربر الصحراء إلى الشمال-المغرب الأقصى-	6
2 - بربر المغرب الأدنى والأوسط	9
3 - إتمام الوحدة السياسية	12
*** العرب**	16
1 - استقرار العرب في بلاد المغرب	16
2 - توسع المجال الجغرافي للقبائل العربية	20
3 - العرب خلال العهد الموحدي الأول	22
4 - نشاط العرب	29
5 - مسألة تخريب العرب الهلاليين للعمران	33
*** اليهود**	37
1 - انتشار اليهود في بلاد المغرب	39
2 - نظام التعليم عند اليهود	43
3 - مسألة تمييز اليهود	45
*** النصارى**	52
1 - الوضع الإجتماعي للنصارى	55

2 – الدور العسكري للنصارى	57
* الأغزاز	60
1 – دخول الأغزاز إلى بلاد المغرب	61
2 – النشاط السياسي للأغزاز الترك	62
3 – فشل الأغزاز في الميدان السياسي	66
* الأندلسيون	68
1 – الهجرة الأندلسية إلى بلاد المغرب	70
2 – التأثير الثقافي والعلمي	71
3 – التأثير الإجتماعي	76
* العبيد	79
1 – مصادر الرقيق	81
– أسرى الحروب	84
– تجارة الرقيق	89
2 – مجالات استخدام العبيد	93
خلاصة	96
الفصل الثاني: طبقات المجتمع المغربي الحضري والريفي	97
تقديم	99
أولا/ طبقة الخاصة في المجتمع الحضري المغربي	100
* أصحاب الجاه والسلطان	100
– الخلفاء	105
– أشياخ الموحدين	107
– الوزراء	109
– الكتاب	110

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- طلبة الحضر	113
- الولاة	115
- قادة الجيش	118
*** العلماء والفقهاء**	123
*** المتصوفة**	133
*** الشرفاء**	143
*** أطباء وشعراء الدولة**	151
1 - أطباء الدولة	151
2 - شعراء الدولة	153
*** أصحاب الثروة**	156
1 - التجار الكبار	156
2 - أرباب الصناعات	157
3 - مصادر الثروة في المجتمع الحضري	158
4 - العوامل المساعدة على ظهور الأثرياء	159
ثانيا/ الطبقة الوسطى في المجتمع المغربي	166
- التجار	168
- الحرفيون الصناعيون	171
- الصيارفة والسماسرة	174
- أصحاب الوظائف الرسمية المباشرة	175
ثالثا/ طبقة العامة في المجتمع المغربي الحضري	176
1 - مفاهيم حول العامة	176
2 - الحرفيون	184
3 - معلمو الكتاب ومنظمو المساجد	185

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

4 – العاطلون عن العمل والمتسولون	187
5 – مكانة العبيد الإجتماعية	190
6 – أثر الأزمات على العامة	192
7 – موقف العامة من الظلم والإستبداد	194
رابعا/ المجتمع الريفي	195
1 – النشاط اليومي الإجتماعي	195
2 – رؤساء القبائل	201
3 – الأعيان	203
4 – المشاركون في الغزو	205
5 – المتصوفة	207
6 – الشرفاء	210
7 – طلبة الحضر في الريف	211
8 – مكانة الغرباء في مجتمع البادية	213
خلاصة	214
الفصل الثالث: الحياة العامة لسكان بلاد المغرب	216
تقديم	217
*** المجالس**	218
1 – مجالس الخلفاء	218
2 – مجالس الوعظ	220
3 – مجالس خاصة	221
*** المواكب**	223
1 – مواكب الخلفاء	223
2 – مواكب سفر الخلفاء	224

3 – مواكب الحرب	226
4 – مواكب الحج	229
5 – مواكب الجنائز	233
*** الإحتفالات**	241
1 – الإحتفالات بالأعياد الدينية	241
2 – إحتفالات المتصوّفة	244
3 – الإحتفالات بالزواج	246
4 – الإحتفال بالمولود الجديد	248
5 – الإحتفال بالختان	249
6 – الإحتفالات بالمواسم الفلاحية	250
*** وسائل التسلية والترفيه**	251
1 – إرتياد المنتزهات والغابات	251
2 – شرب الخمر	255
3 – سهرات اللّهو والغناء	257
*** الأحوال الصّحية للسكان**	259
1 – الطب العرفي (البدائي)	259
2 – الأمراض الشائعة	260
3 – طرق العلاج	261
4 – واقع المريض في المجتمع	265
5 – الطب العلمي	269
6 – الفحص الطبي	269
7 – تنظيم الأطباء	272
*** الأسرة**	274

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1 – العلاقات الزوجية	274
2 – تربية الأطفال	276
3 – النـــزاعات العالمية	280
*** المرأة**	282
1 – تعليم المرأة	284
2 – عمل المرأة	287
3 – مظاهر تزيين المرأة	290
*** لغة التخاطب**	295
1 – اللّباس العام	298
2 - لباس القدمين	306
3 – لباس أهل الذمة	310
4 – لباس الجند	315
5 – لباس الفقهاء	316
6 – لباس المتصوفة	317
7– لباس الخاصة في العصر الموحدي	322
*** الأطعمة والأشربة**	334
1 – الأطعمة	334
2 – الأشربة	340
3– الخلع والهدايا	345
خلاصة	348
الباب الثاني: الحياة الإقتصادية في بلاد المغرب خلال 515هـ – 95هـ / 1120م – 1199م	349
الفصل الأول: الفلاحة في بلاد المغرب	350

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تقديم	351
أولا/ تنظيم الأراضي الزراعية	352
1 - ملكية الأراضي	352
2 – تهيئة الأرض	359
3 – إستغلال الأرض	360
3 – طريقة الإستغلال	365
ثانيا/ الإنتاج الزراعي	367
1 – الحرث والبذر	367
2 – السقي	370
3 – الحصاد	374
4 – الدرس	375
5 – التخزين	378
6 – الفلاحون	379
7 – المحصول الزراعي	383
ثالثا/ الرعي وأنواع المواشي	391
1 – الرعي	391
2 – المواشي	394
3 – تربية الدواجن والنحل ودودة القز	405
3 – 1 – تربية الدواجن	405
3 – 2 – تربية النحل	408
3 – 3 – تربية دودة القز	410
رابعا/ إستغلال الغابات الصيد البري والبحري	411
– استغلال الغابات	411

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- الصيد البري	417
- الصيد البحري والنهري	420
- الخلاصة	427
الفصل الثاني: الصّناعة في بلاد المغرب	430
تقديم	431
سياسة الدولة الموحدية في مجال الصناعة	432
*** المناجم والصناعة المعدنية**	435
1 - مناجم الحديد	436
2 - مناجم النحاس	436
3 - مناجم الذهب	438
4 - مناجم الفضة	440
*** الصناعة المعدنية**	443
1 - صناعة الحديد	443
2 - صناعة النحاس	445
3 - صناعة النقود	448
4 - صناعة الحُلي	457
*** الصناعة الخشبية**	460
(1) المادة الأولية	460
(2) أنواع الصناعات الخشبية	462
1 - صناعة السفن	463
2 - صناعة الأبواب	465
3 - صناعة السقايف	469
4 - صناعة الأدوات المنزلية	470

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

صناعة آلات الموسيقى	471
*** الصناعة الخزفية والزجاجية**	472
1 - إنتشار مراكز صناعة الخزف	473
2 - أنواع المنتجات الخزفية	475
3 - الآجر	476
4 - صناعة الزجاج	478
*** صناعة النّسيج**	480
1 - صناعة الحرير	482
2 - صناعة القطن والكتان	483
3 - صناعة الصوف	486
*** صناعة الجلد**	489
1 - المادة الأولية	489
2 - الصناعة الجلدية	491
3 - الصباغة	495
*** الصناعة الغذائية**	496
1 - الأرحية	497
2 - صناعة الزيوت	499
3 - صناعة السكر	501
*** الصناعة النباتية**	503
1 - صناعة العقاقير والعطور	503
2 - صناعة الورق والوراقة	505
*** حرفة البناء**	510
1 - التنظيم الداخلي للحرفيين	**513**

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

2 – الشركة بين الحرفيين	514
خلاصة	516
الفصل الثالث: التجارة في بلاد المغرب	519
تقديم	520
*** الأسواق**	522
1 – أنواع الأسواق	522
2 – علاقة الأسواق بالمرافق العامة	530
3 – المكاييل والأوزان و الأسعار	532
*1 – التجار والسلطة	538
2 – شراكة التجار	544
3 – تضامن التجار	546
*** النقود**	547
1 – إختلاف النقود	548
2 – غش النقود	549
3 – كتر النقود	551
*** الحسبة**	553
قيمة النقود الموحدية	556
*** المسالك التجارية**	559
1 – المسالك التجارية الداخلية	559
2 – المسالك الصحراوية الغربية	568
3 – المسالك البحرية	576
*** السلع المتبادلة**	584
1 – السلع المتبادلة داخليا	585

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

2 – السلع المتبادلة خارجيا	590
*** النقل**	597
1 – النقل البري	597
2 – النقل النهري	598
3 – النقل البحري	599
*** الفروض الشرعية والجبايات المختلفة**	602
خلاصة	604
الخاتمة	607
الملاحق	620
(1) الجداول	621
أولا: جداول الحبوب	622
ثانيا: جداول المنتجات الحيوانية	626
ثالثا: جداول الفواكه	630
رابعا: جداول الخضر والفواكه	633
خامسا: جداول المنتجات النباتية غير الغذائية	635
(2) الخرائط	639
خريطة رقم 01	640
خريطة رقم 02	641
خريطة رقم 03	642
خريطة رقم 04	643
خريطة رقم 05	644
خريطة رقم 06	645
ثبت المصادر والمراجع والدراسات	647

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا/ المصادر	647
1 - المصادر المخطوطة	647
2 - المصادر المطبوعة	648
ثانيا/ المراجع باللغة العربية	662
1 - المراجع العربية	662
2 - المراجع المعربة	673
د الرسائل الجامعية	675
4 - المقالات بالعربية	678
ثالثا/ 1 - المراجع باللغة الأجنبية	681
الفهارس	687
فهرس الأعلام	688
فهرس الأماكن والبلدان	696
فهرس القبائل	705
فهرس الموضوعات	709

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية